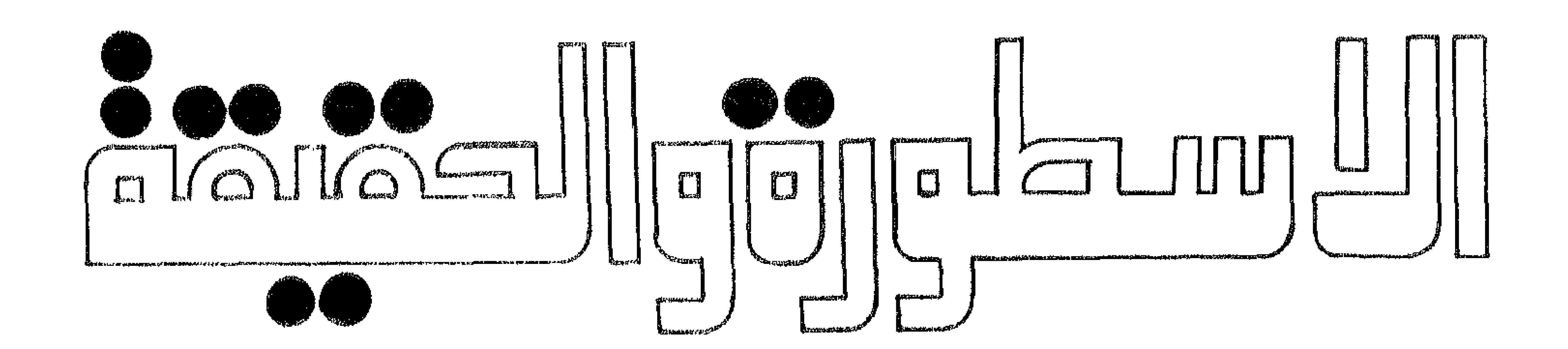
زنون كوسيدوفسكي

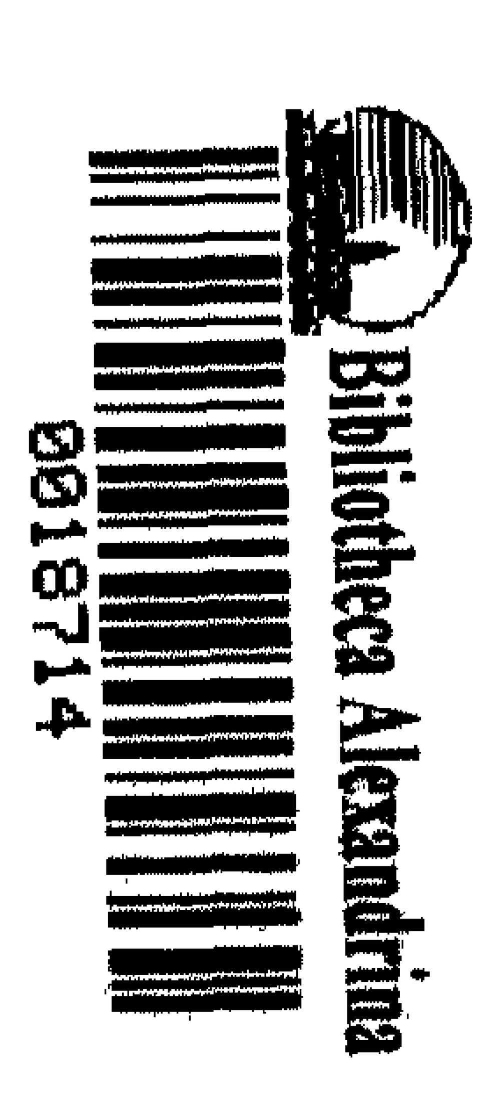
الأسطورة والحقيقة



في التوراة



ترجمة:
الدكتور محمد مخلوف



الأسطورة والحقيقة
في
القصص التوراتية

* الأسطورة والحقيقة في القصص التوراتية
* زينون كوسيدوفسكي، ترجمة: د. محمد مخلوف
* الطبعة الأولى - ٣ / ١٩٩٦

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع:
قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٢٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

زينون كوسيدوفسكي

الأسطورة والحقيقة
في
القصص التوراتية

ترجمة : د. محمد مخلوف

من التكوين وحتى برج بابل

الـتـكــويـن

« في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرفرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نورٌ فكان نور! ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباحٌ يوماً واحداً »

وفي اليوم الثاني، خلق الله قبة السماء، وسط المياه فقسمها إلى قسمين: مياه كانت على الأرض تحت السماء ومياه بقيت في السماء على شكل غيوم وأمطار. وفي اليوم الثالث، جمع الله مياه ماتحت السماء في مكان واحد لتظهر اليابسة وسمى تجمع المياه بحراً واليابسة أرضاً. وأمَرَ الله أن ينبت على الارض عشب وبقلٌ وشجر. وفي اليوم الرابع، خلق الله في قبة السماء جسمين مضيئين ليفصلا الليل والنهار، هكذا خلق الله الشمس والقمر لتمييز الليل عن النهار ولتحديد الأوقات والأيام والسنين. وخلق النجوم كثراً في قبة السماء. وفي اليوم الخامس، خلق الله زحافات وغرائب البحر وطيوراً تطير فوق الأرض وباركها وقال لها: أثمري واملئي المياه، وليكثر الطير على الأرض. وفي اليوم السادس: خلق الله البهائم والدواب والوحوش. وفي النهاية خلق الله الانسان على هيئته وصورته وجعل منه زوجين ذكراً وأنثى. خلقه ليسود على كل مافي الماء وماعلى الأرض ومافي السماء. وفي اليوم السابع: ارتاح الله بعد عمل وجِد وجعل هذا اليوم عيداً أزلياً وباركه.

آدم وحواء في الجنة

خلق الله في السهل الطيب الذي في الشرق بستاناً يُعرف بـ« الجنة » وجَبَلَ الله آدم من تراب ونفخ فيه الروح فصار آدم نفساً حيّةً (تعني كلمة آدم حرفياً : الإنسان) فأسكنه الجنة كي يزرعها ويعتني بها . وكانت في الجنة الأشجار المثمرة الكثيرة، وفي وسطها تنتصب شجرتا الحياة والمعرفة (معرفة الخير والشر) . ويمر نهر عبرها ويسقي النبات . وحيث يخرج النهر من الجنة يتفرّع إلى أربعة أنهار: أولها: تيسون، مجراه في أرض هابيل حيث الذهب النقيّ والمسك الطيب والعقيق وثانيها : جيحون، ويروي أرض كوش وثالثها : حِداقَل[1] ومسيله إلى الشرق من آشور؛ ورابعها : نهر الفرات . وسمح الله لآدم أن يأكل من ثمار الشجر كله إلا شجرة المعرفة فلا يقترب منها وإلا فإنه سيموت، وعرف الله أن الإنسان لن يكون سعيداً وهو وحيد، فجلب له وحش الأرض وطير السماء فعرفها آدم وسمّاها لكن شعوره بالوحدة لم ينته . فجعل الله آدم في سبات عميق ثم أخذ واحدة من أضلاعه وعمل منها امرأة[2] . فقال آدم لما استيقظ « هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة لأنها من امريء أُخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » .

كان آدم وحواء عريانين وهما لايخجلان .

كانت الحية أحْيل جميع حيوانات البرية التي خلقها الرب الإله فقالت للمرأة أن لماذا منع الله عنهما الاقتراب من شجرة المعرفة وقطف ثمارها، فأجابت المرأة : كي لانموت . « لن تموتا» قالت الحية للمرأة، وأقنعتها أن الله حرّم عليهما الشجرة لأنهما يوم يأكلان منها تتفتح أعينُهما ويكونان مثل الله عارفين للخير والشر . نظرت المرأة إلى الشجرة ورأت كم هي جيدة للأكل وبهيجة للعين وشهية للنفس . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها فأكل معها فتفتحت أعينهما ورأيا أنهما عريانين فجمعا أوراق تين وتسترا بها .

ولما تمشى الله في الجنة اختبأ آدم وزوجته بين الأشجار . فسأل الله آدم : « أين أنت؟ » فأجابه آدم : « سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان فاختبأت » . فسأله الله آنذاك : « من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألاّ تأكل منها؟ » .

فوضع آدم كلّ اللوم على زوجته التي لامت بدورها الحية التي أغرتها وأقنعتها بأكل ثمار الشجرة، لذلك غضب الله كثيراً من الحية، وكتب لها أن تسعى على بطنها وأن تأكل تراباً طوال أيام حياتها ولعنها وجعل لها عداوة مع المرأة ونسلها. وقال للمرأة: إنها منذ اليوم ستتعب في حملها وتتوجع حينما تلد وتشتاق لزوجها وهو يسود عليها. ثم التفت الله إلى آدم، ولعن الأرض التي تطعمه وقال له: « بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تُنبت لك وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود ». ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي وصنع الله الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسها ثم طردها من الجنة لأنه خشي أن يأكلا ثمار شجرة الحياة فيصيران خالدين ويعيشان إلى الأبد، ووضع حارساً على الجنة ملاكاً مجنحاً يحمل سيفاً نارياً كي لايصل أحد إلى شجرة الحياة.

قابيل وهابيل

وُلد لآدم وحواء صبيان الأكبر: قابيل، والأصغر: هابيل، فكبرا وترعرعا: هابيل يرعى القطيع وقابيل يعمل في الارض. وحدث أن قدم قابيل قرباناً للرب من ثمار الأرض وقدم هابيل من أبكار غنمه فقبل الله قربان هابيل وباركه ونبذ قربان قابيل ولم ينظر إليه.

اغتاظ قابيل جداً وسقط وجهه، فقال الله لقابيل: لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفع؟ وإن لم تحسن فعند الباب خطيةٌ رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها ».

لكن قابيل لم يفهم تحذير الاله يهوه[*1] وامتلأت نفسه بالحسد والغيرة، فاستدرج أخاه هابيل إلى الحقل وقتله شر قتلة. ورأى الله أن جريمة وقعت، فسأل قابيل: « أين هابيل أخوك؟ » أجاب قابيل: « لاأعلم، أحارس أنا لأخي؟ » فقال الله بغضب عظيم « ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض »!.

ولعن الربُّ قابيل وحكم عليه أن يكون مطروداً من الأرض، تائهاً وهارباً يكون فيها. فطلب قابيل من الله أن يحميه من قتل البشر له. فحرّم الله قتله وجعل له علامة كي لايقتله أحد. فخرج قابيل واتجه إلى أرض نود شرقي عدن وسكن هناك. فوجد لنفسه زوجة[3] وأنجب ولداً سماه حنوك ووُلد من نسل حنوك يامك. اتخذ يامك لنفسه زوجتين. أنجب من

الأولى (عاده) ولداً سماه يابال الذي صار أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي وولداً ثانياً سماه يوبـال وصـار هذا أبـاً لكل ضارب بالعود والمزمار. أما من زوجته الثانية (صله) فأنجب ولداً سماه توبال وصار هذا أباً لكل ضارب آلة من نحاس وحديد.

عاش آدم تسعمـائـة وثـلاثين سنـة، وأنجبت له حواء بنيناً وبنات، وصار لهؤلاء نسلُ كثيـر، منهم (متـوشالح) الذي عاش تسعمائة وتسعة وستين عاماً وأنجب لامك الذي أنجب بدوره نوحاً. فوُلد لنوح ثلاثة أولاد هم: سام وحام ويافث.

الطـوفـــان

انتشـر نسـل آدم وحـواء في الأرض مدمـوغـاً بوصمة عار الخطيئة الأولى، وكان على الانسان أن يحصل على قوت يومه بمجهود شاق. فعششت الضغينة والرذيلة في قلبه، وصار الناس يقتل بعضهم البعض الآخر. فامتلأت الأرض بالجريمة والظلم ولم يُعر أحد في هذه الـدنيـا الـرهيبـة أيّ انتباه لتحذيرات الخالق. فحزن الله كثيراً لازدياد الشر بين البشر وأسف لخلقه الانسان وقرر إبادته عن وجه الأرض، لكن نوحاً وأولاده وجدوا عطفاً في عين الله. فأمر الله نوحاً أن يبني لنفسه فلكاً وأن يجعله مساكن ويطليه من الداخل والخارج بالقار. فصنع نوح الفلك بطول ثلاثمائة ذراع وعرض خمسين ذراعاً وارتفاع ثلاثين ذراعاً وبمساكن سفلية ووسطى وعلوية وبباب جانبي.

لما رأى الرب أن الفلك قد جهز أبلغ نوحاً عزمه على إغراق الأرض، وإنقاذه وزوجه وأولاده الثلاثة ونساءهم وزوجاً من كل شيء حي.

فأدخل نوح عائلته وزوجاً من كل حيّ إلى السفينة وحمل معه طعاماً كثيراً فحدث بعد سبعـة أيـام أن هطـل مطر غزير استمر أربعين نهاراً وأربعين ليلة. فارتفع منسوب الماء ليغمر الأرض كلها وليميت كل شيء حي إلا من كان داخل فلك نوح الذي عام على سطح الماء.

أخيـراً: توقف المطـر. لكن منسوب المياه كان يتناقص ببطء شديد، لذلك لم تظهر اليابسة خلال مائة وخمسين يوماً. وفي الشهر السابع استقر الفلك على جبل أرارات، وفي الشهر العاشر برزت من المياه قمم الجبال المحيطة.

انتظـر نوح أربعين يومـاً أطلق بعـدها غراباً من كوة الفلك ليعرف إن كانت اليابسة قد ظهرت أم لا. لكن الغراب لم يلبث أن عاد إلى الفلك. بعد ذلك أطلق نوح حمامة لكنها

رجعت إلى الفلك بسرعة أيضاً لأنها لم تجد مكاناً تهبط فيه. وبعد سبعة أيام أطلق نوح الحمامة من جديد فعادت مساء حاملة غصن زيتون بمنقارها. فعرف أن اليابسة قد ظهرت في مكان ما قريب. انتظر سبعة أيام أخرى ثم أطلق الحمامة مرة ثالثة لكنها لم تعد، ذلك لأن الأرض كانت قد ظهرت وجفت.

فخرج نوح من الفلك وبنى مذبحاً للرب ليقدم له قرباناً، شكراً له على إنقاذه له. أما الله الاله فقرر ألا يُعاقب بني البشر بعد ذلك اليوم بالطوفان وأقام معهم ميثاقاً علامته قوس قزح معلق في قبة السماء.

بدأ نوح يعمل بالأرض ورعي القطيع فزرع العنب وصنع الخمر. وفي أحد الأيام أكثر من الشرب فشق ثيابه ونام في كوخه عارياً، فرأى ابنه حام (أبو كنعان) عورته وأخبر أخويه مستهزئاً، لكن سام ويافث أظهرا احتراماً أكبر لوالدهما فأخذا رداء وسارا وظهرهما إلى أبيهما فسترا عورته. ولما أفاق نوح من سكرته وعلم ماصنع ابنه الصغير، قال: « ملعون كنعان وعبد العبيد يكون لإخوته ». وبارك سام ويافث.

عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، وكان عمره يوم موته تسعمائة وخمسين سنة.

من يافث خرجت شعوب الشمال، من سام خرج الساميون. ومن حام خرج الأفارقة، كما أن نمرود الجبار يعود بأصله إلى حام (يُعرف لذلك الأفارقة بالحاميين)[1].

برج بابل

كانت الأرض كلها لساناً ولغة واحدة. وحدث أن سكن بنو البشر سهل شنعار بين دجلة والفرات، وكان ذلك السهل خصباً معطاء. لذا تحسنت أمورهم وانفرجت حياتهم فعاد إليهم الشعور بالغطرسة والتعجرف. فقرروا أن يبنوا برجاً عالياً تصل قمته قبة السماء فاستعملوا في البناء اللّبن مكان الحجر والخمر مكان الطين. وصار البناء يرتفع شيئاً فشيئاً نحو قبة السماء، مما أثار غضب الله الاله وتحفظه وخوفه من أن يتفق بنو البشر فيما بينهم على السوء في المستقبل. وقرر أن ينزل ويبلبل هناك لسانهم حتى لايفهم بعضهم بعضاً. فبددهم الله من هناك على وجه الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. ولذلك سُمّيت بابل لأن الله بلبل لسان أهل الأرض فيها.

اكتشافات مدهشة حول التكوين، الجنة، الطوفان وبرج بابل

نعـرف من خلال كتـاب العهـد القـديم أن عائلة إبـراهيم عاشت في اور عاصمـة السـومـريين القـديمـة، ثم هاجرت إلى أرض كنعان، أي فلسطين الحالية. فاليهود يعودون إذن بأصلهم إلى مجمـوعـة بشـريـة أسست في حوض دجلة والفـرات واحـدة من أغنى الحضـارات الانسـانيـة. ويعتبـر السومريون مؤسسي تلك الحضارة الرئيسين. ففي الألف الثـالثـة قبـل الميـلاد بنـوا مدنـاً شهـيرة، وعـرفوا نظام الريّ بواسطة شبكات من الأقنية، كما اشتهروا بالصناعات المهنية، وخلفوا تماثيل وتحفا فنية وأدبية رائعة.

ويعتبـر الأكـاديون والآشوريون والبابليون والحثيون والآراميون ـ الذين أسسوا دولهم بعـد السـومـريين في مابين النهرين وسورية ـ يعتبر كل هؤلاء تلامذة للسومريين ورثوا عنهم الكثيـر من النفـائس الحضـاريـة. هذا ولم تتـوفـر لدينا حتى منتصف القرن التاسع عشر إلا معلومـات طفيفـة بل حتى جدّ بسيطـة عن حضـارة تلك الشعـوب، وبقي الأمر كذلك حتى استطـاعت الحفـريـات الكبيـرة في مابين النهـرين، الكشف لنـا عن عظمـة وغنى تلك الشعوب. فقد نُبشت مدن عظيمة مثل أور وبابل ونينوى. ووُجدت في قصور الملوك آلاف اللوحـات المرقطـة بالكتـابـة المسـماريـة التي قُرئت فيـها بعـد. وتنقسم هذه الألـواح الوثائقية بمضمـونهـا إلى مخطـوطـات تاريخيـة، من مراسلات دبلوماسية، واتفاقيات، كما تتضمن أسـاطيـر دينيـة، وأشعـاراً تحوي بين طياتها أقدم أدب ملحمي شعبي في تاريخ الانسانية، ذلك الأدب الذي يحكي سيرة بطل السومريين جلجامش.

مع فك رمـوز الكتـابـة المسمـاريـة بدا واضحـاً وجلياً أن العهد القديم، الذي اعتبر لقرون عديدة عملاً عبرياً قديماً والذي زعموا أنه أوحي اليهم من الله. يعود بأصله وجذوره إلى تقـاليـد مابين النهـرين، وأن الكثيـر من التفـاصيل الكثيرة الذكر فيه، بل وحتى أساطير كاملة منه، مسروقة بنسبة أو بأخرى من كنز الأساطير والخرافات السومرية الغني.

في الحقيقـة، لا غرابـة في هذا الأمـر، بل على العكس كان يبـدو غريباً ـ على ضوء علم التاريخ الحديث ـ لو أن الأمر لم يكن كما ذكرنا. فنحن نعلم أن الحضارات والمدنية لاتختفي بلا أثـر، وأن انجـازاتهـا القيمـة تنتقـل ولـو بطـرق معقـدة أحيـاناً إلى الحضارات الأحـدث. لقـد كنـا ـ وحتى وقت قريب ـ نعتبـر أن الفضل في نشوء الحضارة الأوربية يعود

إلى اليـونـان ، بينمـا تؤكد الأبحاث الحديثة أننا نُعتَبر في الكثير من نواحي الحياة ورثة ذلك الذي صُنع قبل خمسة آلاف سنة مضت ألا وهو عبقرية الشعب السومريّ . ان الحضارات تظهـر وتختفي في سيـل الحيـاة الأزلي ، لكن تجـربتهـا تعيش وتنمـو في الأجيال اللاحقة . وتشـارك في خلق حضـارات جديـدة أكثـر تطـوراً واكتمالاً . ولم يشكل العبرانيون في ذلك الاستمـرار التـاريخي ، ولم يكـونـوا ليستطيعوا ، ظاهرة منعزلة . فهم يعودون بجذورهم إلى حضـارة مابين النهـرين التي أخـذوا منهـا إلى أرض كنعـان تصورات وعادات وأساطير دينية عاشت على مدى آلاف السنين على ضفاف دجلة والفرات . ونجد اليوم آثار ذلك التأثير في الكثير الكثير من نصوص العهد القديم .

غيـر أن كشف هذه العـلاقـات والاستعـارات ليس عمـلاً سهـلاً . فالعبرانيون الذين سكنـوا أرض كنعـان تحـرروا شيئـاً فشيئـاً من تأثيـرات مابين النهـرين . وتناقلوا التصورات والأسـاطيـر والخـرافـات المأخـوذة من هنـاك بطريقة شفهية من جيل إلى جيل ، فغيروا فيها تدريجياً لدرجـة أنـه أصبـح من الصعب . بل من المستحيـل معـرفة أصلها دون الاستعانة بمراجع مابين النهرين . وقد كان من مصلحة الكهنة طي ونسيان ذلك التقارب والتشابه مع أسـاطيـر مابين النهـرين . وأولئـك الكهنـة هم الذين صاغوا ـ بعد عودتهم من الأسر البابلي مابين القـرنين السـادس والـرابـع قبـل الميلاد ـ نصوص العهد القديم ونقلوها إلينا بشكلها الحـالي حيث استعمـل الكهنـة في مؤلفاتهم المقتبسة ، الأساطير الشعبية القديمة لما بين النهـرين وبـلا أي خجـل أو شعـور بالـذنب أو بعـذاب الضميـر . طبخـوا تلك المقتبسـات وجهزوها لتخدم أهدافهم الدينية . لقد كان مفهوم المصداقية التاريخية غريباً بالنسبة لهم . وكانت الأساطير المنقولة من جيل الى آخر تُكرَّس من أجل اثبات أن يهوه ومنذ زمن ابراهيم ساق وأدار مصائر وأقدار شعبه المختار . لكن ولحسن حظ العلماء والباحثين . لم يكن عمل الكهنة في الاقتباس والتزوير دقيقاً . ولم يكونوا شديدي الحذر . فقد نسوا بين سطور التوراة الكثيـر من التفـاصيـل التي تفضح صلتها القوية بحضارة مابين النهرين . ولم يستطع أحد ، ولقـرون عديـدة تفسيـر تفـاصيـل نصـوص التـوراة ، حتى تمت الاكتشـافات العظيمة التي سمحت بإعادة خلق وتكوين وفهم حضارات السومريين ، الأكاديين ، الآشوريين والبابليين تلك الاكتشـافـات التي استطـاعت إلقـاء الضوء على التفاصيل التي لم تكن مفهومة سابقاً وأعادتها إلى أصلها التاريخي . فيمكن لقصة التكوين المذكورة في التوراة . أن تكون مثالاً على تشـويـه الكهنـة لأسـاطيـر مابين النهـرين القديمة . فقد استطاع العالم الأثري الشهير

جورج سميث، فك رموز ملحمة شعرية بابلية كاملة عن خلق العالم (من الألواح الفخارية طبعاً) تُعرف هذه الملحمة اليوم باسم إينوايليش ولاتحمل كشكل خارجي أي شيء مشترك مع الأسطورة التوراتية. ويمكن باختصار شديد شرح كنه هذه الملحمة على الشكل التالي : [لم يكن موجوداً في البداية إلا الماء. وكانت الفوضى تعم كل شيء. ومن تلك الفوضى الرهيبة خُلقت أوائل الآلهة. ومع مرور الزمن قرر بعضها تنظيم العالم، فأدى ذلك إلى غضب الإله إبسو وزوجته تيامات ـ ربة الفوضى العظيمة ـ اتحد المتمردون تحت راية الإله الحكيم إيا وقتلوا الإله إبسو. فقررت الإلهة تيامات (التي تمثَّل على هيئة تنين) الانتقام لمقتل زوجها. فوقعت معركة دموية رهيبة انتصرت فيها آلهة النظام تحت قيادة الإله مردوخ وقتلت تيامات. أما جسدها الضخم فقطعوه إلى قطعتين: صارت واحدة منها الأرض وصارت الأخرى السماء. مزجوا دم إبسو بالطين فوُلد من هذا المزيج أول إنسان]. وهنا يقفز للذهن سؤال: ما الشيء المشترك بين قصة التكوين التوحيدية السامية المذكورة في التوراة وبين علم نشأة الكون البابلي المُبهم والبسيط؟. توجد، في الحقيقة، معطياتٌ لا مجال للشك فيها تثبت أن علم نشوء الكون البابلي هذا قد استخدم كمادة أولية لصنع نموذج عبري لأسطورة التكوين أكثر رقياً. فها هو الباحث الأثري الأميركي جيم بريتشارد، يأخذ على عاتقه مهمة مقارنة النصين الصعبة والمملة جداً. فيجد فيها الكثير من التطابق. غير أن أكثر مايدهش في الأمر هو التسلسل المشترك للحوادث في النصين: نشوء السماء والأجسام السماوية وعزل الماء عن اليابسة. ثم خلق الإنسان في اليوم السادس ومن ثم استراحة الله ـ في العهد القديم ـ والوليمة الكبيرة المشتركة لآلهة البابليين في نص إينوإيليش في اليوم السابع. ويعتبر العلماء مُنصفين في اعتقادهم: أن الآية الخامسة من الاصحاح الثالث لسفر التكوين التي تقول: «. . . وتكونان كالله عارفين الخير والشر. . ». وآيات أخرى تحمل بعض معاني الإشراك، وإنما يدل هذا على أن العبرانيين القدماء لم ينتبهوا لهذا الأمر، مما أدى الى الحفاظ على آثار المعتقدات الإشراكية القديمة في نصوص التوراة، يُذكَر في الآية الرابعة من الاصحاح السادس (التكوين). «. . . إذ دخل بنو الله على بنات الناس. . » فمثل هذا التعريف تماماً مُعطى في الأسطورة البابلية للآلهة المتمردين، وذلك لأنهم كانوا في الحقيقة أبناء للالهين إبسو وتيامات.

لقد أثقلت الآية الثانية من الاصحاح الأول (من سفر التكوين) الباحثين. فالحديث يدور في هذه الآية عن روح الله التي ترفرف على وجه المياه. لقد أُعطيت تفسيرات مختلفة

وأحيـانـاً خيـاليـة لهـذه الآية. واستمر ذلك حتى اكتشفت الواح مسمارية بين أنقاض مدينة أوغـاريت الفينيقيـة (قرب رأس شمـرا في سوريـة) وتحتـوي على ديـوان من المـلاحم الأسطورية. وقد صادف العلماء في أسطورة نشوء الكون نصاً يقول بما معناه: أن الإله كان يجلس على الماء، كما يجلس الطير على البيض، وفرّخ الحياة من الفوضى. مما لاشك فيه إذن أن روح الله (في العهد القديم) المرفرفة فوق الماء ليست إلا صدى لتلك الأسطورة الأوغـاريتيـة. وممـا لاشـك فيـه أيضـاً أن أسطورة التكوين التوراتية قد رأت النور في لحظة سكينـة ونشـوة فكـريـة لأحد الكهنة، أو لمجموعة منهم. وإنها كنظرية أو كتصور فكري من نتـاج الـلاهـوتيين لـم تجـد ترحيباً في صفوف العبرانيين. بل على العكس من ذلك نجد أن خيـال النـاس البسطـاء قد تأثـر أكثـر بالأسـاطيـر المأساوية عن الصراعات بين الالهة وغول الفـوضى الجبـار. وقـد احتفظت نصوص التوراة، وحتى يومنا هذا، ببعض الآثار الواضحة لتلك الأسـاطيـر والمعتقـدات الشعبيـة. ففي الملحمـة الأوغاريتية، ينتصر الإله بعل على التنين لويـاثـان ذي الـرؤوس السبعـة، ويمكننـا في الـوقت نفسه أن نقرأ في سفر أشعيا في الاصحـاح السـابـع والعشـرين الآية الأولى حرفياً مايلي: « في ذلك اليوم يعاقب الله بسيفه القـاسي العظيم الشـديد لوياثان الحية الهاربة، لوياثان الحية المتحويّة ويقتل التنين الذي في البحر». إن العهد القديم يسمى التنين أحياناً بـ « رعاف » حيث نجد ذكر الصراع بين الإله يهوه ورعاف في سفر أيوب وسفر أشعيا.

إننا الآن في موقع مناسب للحديث: فنحن نستطيع متابعة الطريق التي سلكتها في التاريخ أسطورة مابين النهرين عن الصراع مع التنين. ففي العصر السومري كان الإله إنليل هو المنتصـر على التنين. وعنـدما احتل الملك البابلي حمورابي مابين النهرين أصبح الإله مردوخ هو المنتصـر على التنين. مضت القـرون إلى أن وصـل الآشـوريون إلى السلطة في بلاد ما بين النهـرين، وعنـدهـا انتقـل لقب الإلـه الأكبـر الى آشـور، فمسح عندها الكتّاب الآشوريون اسم الإله مردوخ من الألواح السومرية وحفروا مكانه اسم إلههم، إله قبيلتهم، آشـور. لكنهم فعلوا هذا دون انتبـاه ودون حذر فنسيوا محو اسم مردوخ في بعض الأماكن، ثم وصلت بعـدهـا الأسطـورة إلى فلسطين، حيث أرغم العبـرانيون إلههم على الصراع مع التنين لويـاثـان أو رعـاف. وبـرأي بعض العلمـاء فإن هذه الاسطـورة وصلت إلى الـديـانة المسيحية بشكل خرافة عن القديس جوارجيوس (جرجس - جورج) الذي قتل التنين.

مادام الحـديث يدور حول أسطـورة العهـد القـديم عن التكـوين. فإنه من المناسب

التحدث عن حقيقة هامة جداً بالنسبة لأولئك الذين رأوا في العهد القديم ألف باء المعرفة البشـريـة. ففي عام ١٦٥٤ أعلن الأثـري الإرلنـدي أويشـر أن القـراءة المتفحصة للكتاب المقـدس توصـل إلى نتيجـة مفادها. أن الله خلق الكون عام ٤٠٠٤ ق.م. ولقد وجد هذا التاريخ مكاناً له ولمدة قرن كامل، في كل نسخ الكتاب المقدس اللاحقة، وكان يعتبر مارقاً ومرتداً كل من يحاول التشكيك بهذا التاريخ. وقد عارض الأسقف لايتفوت الأثري أويشر، واتهمـه بعـدم الـدقـة في حسـابـاته. فحسب لايتفوت ذاك يكون العالم قد تكون ليس عام ٤٠٠٤ ق.م. فقد بل وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول وفي الساعة التاسعة صباحاً.

أمـا مايخص الجنـة أيضـاً فهي من نتـاج الخيال السومري: ففي الأسطورة عن الاله إينكـا، توصف الجنـة أيضـاً على شكـل بستـان مليء بالاشجار المثمرة، يعيش فيه الناس والحيوانات بسلام وتفاهم ولا وجود فيه للشقاء والمرض. وتقع هذه الجنة في منطقة ديلنوم في فارس، أمـا جنـة الكتـاب المقدس، فتقع فيما بين النهرين، لا محالة، ذلك لأن أربعة أنهر من بينها دجلة والفرات مَسيلها هناك.

توجـد تطـابقـات مدهشـة بين الأسطـورتين، لا يدخل ضمن مهامنا شرح التفاصيل الـدقيقـة فيهـا، غيـر أنـه من الـواجب القـول ان نظـرية خطيئة الإنسان الأولى (خطيئة آدم وحـواء) موجـودة في الأسطـورتين الأولى والثانية. ففي الأسطورة التوراتية أغرت الحية آدم وحـواء ليأكـلا من ثمـر شجـرة معرفة الخير والشر. وفي أسطورة مابين النهرين يأخذ الإله إيا مهمـة التغـريـر على عاتقـه. فالـروايتان تحملان معنى مضمونه أن معرفة الخير والشر، أي الحكمة، تضع الإنسان على مستوى واحد مع الله، تساويه معه وتمنحه الخلود لنتذكر هنا أنه بالإضافة لشجرة معرفة الخير والشر، كانت هناك في الجنة شجرة الحياة أيضاً. فالله طرد آدم وحـواء من الجنـة ليس فقـط لعـدم انصيـاعهما لأوامره، بل لخوفه من أن يأكلا من شجرة الحيـاة فيخلدان. ففي الاصحـاح الثـالث من التكـوين نقرأ حرفياً: « وقال الرب الإله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضـاً ويأكـل ويحيـا إلى الأبـد » كذلـك يتضـح لدرجـة ما من الـوضـوح منشأ حية الكتاب المقـدس الـوسـواسـة. فالبطـل السـومري جلجامش يتجه إلى جزيرة الجنة، حيث يعيش محبـوب الآلهـة اوتنـابشتيم كي يأخـذ من عنـده نبتة الحياة. لكن أحد الآلهة أبى أن يصبح الانسان خالداً، ويتساوى مع الآلهة فتحول إلى هيئة حية ولاقى جلجامش. حين كان هذا يعبر النهر عائداً، وغطس في الماء، وانتزع من جلجامش النبتة السحرية. وبهذه المناسبة

يجب البحث في هذه الأسطورة السومرية عن تفسير حقيقة أن العبرانيين منذ إبراهيم ولقرون عديدة مضت بعده، كانوا يصورون الإله يهوه على هيئة حية. والكهنة فقط هم الذين قضوا على تلك الأشكال والرسوم ونعتوها بالوثنية.

لقد وجد الأثريون في أنقاض إحدى مدن مابين النهرين ختماً يحمل رسماً بدائياً يعبر عن أسطورة آدم وحواء. وفي هذا الختم يمكن رؤية شجرة وحية. وعلى الجوانب تمكن رؤية رجل ذي قرون وامرأة. ولكن يجب الاعتراف هنا أن خطوط الرسم ممحوة في مناطق عديدة وغير واضحة المعالم، ولذا شك بعض العلماء في أن يكون الرسم يحمل شيئاً مشتركاً مع أسطورة الإنسان الأول. وبما أن أولئك العلماء لم يجدوا تفسيراً آخر مقنعاً لهذا الرسم، فإن فكرة اللقية تؤكد وجود أسطورة عن آدم وحواء فيما بين النهرين، تبقى هي الأقوى. وطريقة خلق الله لحواء من ضلع آدم تثير دهشة الناس منذ غابر الأزمان، فالطين عند الله كان كافياً وافياً كي يصنع منه امرأة كما صنع رجلاً. وها هي الألواح المسمارية المكتشفة في بابل تعطي تفسيراً مثيراً لهذا اللغز. فقد تبين أن كل هذه القصة مبنية على أساس خطيئة وسوء فهم عميقين: فحسب الأسطورة السومرية عانى الإله إنكا من مرض في ضلعه ومعنى كلمة ضلع باللغة السومرية هو « تي »، أما الإلهة التي دعيت لتعالج ضلع إنكا كان اسمها نينتي أي: (امرأة من الضلع) ولكن كلمة نينتي تعني أيضاً إعطاء الحياة، وهكذا تكون كلمة نينتي ذات معنيين: امرأة من الضلع، وامرأة مانحة الحياة.

وهنا يكمن أساس سوء الفهم: فقد استبدلت القبائل العبرانية القديمة نينتي بحواء، ذلك لأنها، أي: حواء، كانت بالنسبة لهم أمّ الإنسانية أي المرأة المانحة الحياة، غير أن المعنى الثاني لنينتي ـ امرأة من الضلع ـ علق أيضاً بأذهان العبرانيين مما أدى إلى وجود بعض البلبلة والارتباك، في الأساطير الشعبية. فمنذ أيام مابين النهرين احتفظت ذاكرة العبرانيين بفكرة أن شيئاً ما، مشتركاً، بين حواء والضلع موجود. ولهذا يعود الفضل في ظهور ولادة الرواية الغربية حول خلق حواء من ضلع آدم. ونحن نملك إذن بين أيدينا إثباتاً آخر عن استعمال العبرانيين في أساطيرهم الكثير الكثير من معتقدات شعوب مابين النهرين(**). غير أن قصة قابيل وهابيل على مايبدو كانت نتاج الخيال العبراني القديم، فالقبائل العبرانية القديمة، حاولت أن تستوضح لنفسها في هذه القصة، لماذا كتب الإله يهوه الرحيم ـ إلههم ـ على الجنس البشري، الشقاء والتعب والمرض؟ وقد تكونت قناعة لدى بعض الباحثين في قصة قابيل وهابيل، ليست إلا صدى للخلافات التي وقعت في

قديم الـزمـان بين الشعـوب الـرعـويـة الـرحل والسكان الذين بدأوا يعتادون حياة الاستقرار والاستيطـان، ويعملون في الأرض بشكـل رئيسي، وكـانت القبـائـل العبـرانية آنذاك قبائل رعوية رُحلاً. ولهذا كان هابيل راعي الماشية، في أساطيرهم محبوباً من الله وضحيـة بريئة للمـزارع ـ إذا صحت التسمية هذه ـ قابيـل. وبـالمنـاسبـة، يجب الاعتراف هنا أن تاريخ البشـريـة يعـرف عكس تلك الظـاهرة فقط حيث ان الرعاة الرحل هم الذين كانوا يهاجمون المـزارعين الآمنين وليس العكس. لكن الانحيـاز إلى الرعاة الرحل في الأساطير العبرانية، مفهـوم ذلـك لأن قصـة قابيـل وهـابيـل ظهرت إلى الوجود في العهد القديم جداً عندما كان العبرانيون قبائل تمارس الرعي والترحل. لكنهم لما استوطنوا أرض كنعان وبدأوا يعانون من هجمـات القبـائل الصحراوية الرحل، عرفوا أنهم اخطأوا في وضعهم للتسلسل التاريخي، غير أنهم بقوا محافظين على قصة قابيل وهابيل كشيء ثمين تركه لهم أجدادهم الرعاة الرحل.

في سبعينيات القرن الماضي أدهشت العالم، الاكتشافات المتعلقة بالطوفان. ففي أحـد الأيـام أخذ جورج سميث الموظف المتواضع في المتحف البريطاني في لندن، يفك رمـوز الألـواح المسمارية، المرسلة من نينوى والملقاة في قبو المتحف. وبالعظمة دهشته، حين رأى بأم عينه أول ملحمة شعرية في تاريخ البشرية، ملحمة تصف بطولات ومغامرات جلجامش البطل السومري العظيم. بعد فترة لم يصدق سميث ماتراه عيناه، فقد وجد على بعض الألـواح مقـاطـع من أسطورة عن الطوفان مشابهة تماماً لتلك التي في العهد القديم. وماكاد سميث ينشر مكتشفاته حتى انصبت عليه الاتهامات والاعتراضات من مُرائي ومنافقي بريطـانيـا الفكتـوريـة. الـذين يعتبرون العهد القديم كتاباً مقدساً مُرسلاً من عند الله الإله. إنهم لم يستطيعـوا القبـول بحقيقـة أن قصـة نوح ماهي إلا خرافـة مسـروقـة من أسـاطيـر السومريين. أما ماقد فكّ رموزه سميث، فإنهم كانوا يظنونه مجرّد تشابه عضوي للحوادث. ومـاكـان بالإمكـان حل النزاع إلا بإيجاد الألواح الناقصة وكان هذا الأمر ضعيف الاحتمال. لكن جورج سميث لم يستسلم فغادر بريطانيا إلى مابين النهرين. وياللعجب لقد وجد بين أنقـاض نينـوى الضخمة المقاطع الناقصة التي أثبتت تماماً نظريته عن الطوفان. وقد أثبتت أدق التفـاصيـل صحـة نظريته: وذلك كإطلاق الغراب والحمامة وكوصف الجبل الذي رسا عنـده الفلك، وكطـول مدة الطـوفان، وكالعبرة من الأسطورة: عقاب البشرية على أخطائها وأفعالها الدنيئة وإنقاذ الانسان المؤمن الشريف.

لا يخلو الأمر من بعض الاختلافات بين الأسطورتين بطبيعة الحال: فنوح السومري يسمى بـ (اوتنـابشتيم)، وفي الأسطـورة السـومـريـة يوجـد العـديد من الآلهة التي تتمتع بصفـات إنسـانية، بينما يُعاقب الجنس البشري بالطوفان، في العهد القديم. الربُّ الإلهُ، خالقُ العـالمُ، الـوحيـد، القـادرُ والجبـار. إن كل الـدلائـل تشير هنا إلى أن أسطورة العهد القـديم صبغت بصبغـة الـوحـدانية الالهية في وقت لاحق، وأنها قد أخذت شكلها الديني النهائي على يد مجموعات الكهنة العبرانيين.

إن البـاحث التـاريخي الجيـّد يدرك تمـامـاً أن الأسطورة قد تكون قائمة على أساس قصة مضخمة وأنها قد لاتخلو، في الكثير من الأحيان من الحقيقة.

ولهذا يطرح نفسه سؤ ال هام: ألا تعتبر أسطورة الطوفان صدىً لكارثة كبيرة وقعت في غابر الأزمان، وانطبعت في ذاكرة العديد من الأجيال؟ لقد أجاب على هذا السؤ ال وبشكل رائـع الأثـري الانكليـزي الكبيـر ليونارد فولي الذي اكتشف مدينة أور. لقد حفر هذا العالم حفـرة في مقبـرة للقمـامـة، تجمعت خلال آلاف السنين تحت جدران العاصمة السومرية، فوجـد على عمق أربعـة عشـر متـراً مقبـرة الملوك السـومريين الذين حكموا في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد كانت تلك المقبرة مليئة بالكنوز الفنية وبقايا الأجساد البشرية. لم يكتف فولي بهـذا الاكتشـاف بل أراد معـرفـة مايوجد تحت مكان المقبرة تلك. وعندما حفر العمـال بأوامـره الطبقـة التـاليـة وجـدوا طبقـة من الطمي النهـري لاتحـوي أي أثـر للحياة الانسـانيـة. أيعقـل أن يكون العمال قد وصلوا إلى طبقة الأرض التي تعود لتلك الحقبة من الزمن الذي لم تكن المستوطنات السكانية قد ظهرت فيه بعد فيما بين النهرين؟ لكن هاهي الحسـابـات المثلثيـة توصـل فولي من خلالهـا لنتيجـة مفـادها أنه لم يصل بعد إلى الطبقة العـذراء. ذلـك لأن الطمي كان يقبـع في مكـان أعلى من الطبقة المحيطة به مشكلاً بذلك مرتفعـاً ظاهـراً للعين المجـردة، لقـد أدت الحفـريات اللاحقة أخيراً إلى اكتشاف رائع لما تحت طبقة الطمي وبسماكة ثلاثة أمتار، إذ ظهرت آثار جديدة للمستوطنات البشرية: لَبِن، وقذارة، وبقايا أوان فخارية. كما أثبتت كِسَرُ الأواني الفخارية وأثبت نوعها وشكلها كذلك، أنهـا تعـود لحقبـة زمنية أخرى، وحضارة غير تلك الموجودة فوق طبقة الطمي النهري ـ ولم يكن بالإمكان تفسير توضع الطبقات الأعلى الوجه الآتي:

حصـل طوفـان رهيب أغـرق مستـوطنـات بشرية قديمة جداً، وغير معروفة لنا، وعند

انتهاء الطوفان، وجفاف الأرض، أتت شعوب أخرى وسكنت مابين النهرين. وكان هؤلاء هم السومريون الذين شكلوا أقدم حضارة معروفة لدينا في التاريخ.

ولكي يتجمع الطمي على ارتفاع حوالي ثلاثة أمتار، يجب أن يبقى الماء مدة طويلة بارتفاع لايقل عن ثمانية أمتار. وقد بينت الحسابات أنه لو وصل ارتفاع الماء لمثل هذا الحد لانغمرت كل الأرض فيما بين النهرين. إذن فقد وقعت هنا كارثة نادرة الحدوث في التاريخ ورغم هذا فإن تلك الكارثة كانت أقليمية وموضعية، ولكن سكان آسيا الوسطى ظنوا أنذاك أن الكارثة عمّت العالم كله، وأن الطوفان كان عاماً وشاملاً بعثه الرب كعقاب للبشرية المذنبة المخطئة. وانتقلت قصة الطوفان من جيل لجيل ومن قرن لقرن من السومريين إلى الأكاديين والبابليين. ومن مابين النهرين انتقلت إلى أرض كنعان حيث حرّفها العبرانيون كما يناسبهم وضموها إلى توراتهم.

وقد بُنيت في كل المدن الواقعة على ضفاف نهري دجلة والفرات منشآت شاهقة الارتفاع، غريبة الشكل، صخور مكعبة أو دائرية متوضعة بشكل طبقات تتناقص مساحتها مع الارتفاع، مُشكلة بذلك مايشبه الاهرامات المدرجة. وفي قمة كل هرم يوجد، عادة، معبد صغير لعبادة إله المنطقة، ويوصل إلى المعبد درج حجري ثلاثي الدروب، كان يسير عليه تحت وقع الموسيقا واغاني الكورس موكب الكهنة ذوي اللباس الابيض. ويعتبر الهرم الموجود في عاصمة البابليين أشهر تلك الأهرامات - الأبراج - وقد كشف المنقبون عن أساسه وعن الجزء السفلي من جدرانه. ونحن نعرف تماماً شكل هذا البرج الحقيقي، وذلك أنه عدا عن وصفه الموجود على الألواح المسمارية. يوجد أيضاً رسم له. كان ذلك البرج مؤلفاً من سبع طبقات وبلغ ارتفاعه تسعين متراً. حول هذا الموضوع طرح سؤال: ألا يعتبر برج بابل النموذج الأصلي للبرج المذكور في العهد القديم؟ لقد خصص العالم الفرنسي الشهير أندريه باروكتاباً كاملاً لبحث هذا الموضوع، وتوصل على أساس براهين عديدة إلى قناعة تامة أن برج بابل هو فعلاً الأنموذج الاصلي للبرج المذكور في العهد القديم. ومن الصعب هنا سرد جميع البراهين الصعبة المعقدة التي أوردها العالم المذكور، لذا سنكتفي بأهمها: بحسب ماجاء في التوراة: بُني برج بابل حين كان الناس يتكلمون لغة واحدة فقط في أرض شنعار، التي يعتبرها بعض العلماء المنطقة التي سكنها السومريون. أما المواد التي بُني منها البرج فهي اللبن والخمر، ومن مثل هذه المواد تماماً بُني برج بابل.

ونقرأ في سفر التكوين (الاصحاح الحادي عشر ـ الآية السابعة) : « . . . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض » . لماذا اعتبر العبرانيون برج بابل رمـزاً لغـرور الإنسـان وزهـوه؟ ولماذا اختار الإله يهوه ، حسب مفهومهم ، هذه المنطقة بالذات ليبلبـل لسـان أحفـاد نوح؟ يجب القـول قبـل كل شيء ، إن تسميـة عاصمة البابليين بابل وتعني باللغـة البـابلية باب الإله (باب ـ ايلو) وتوجد في اللغة العبرية القديمة كلمة مماثلة في اللفظ هي « بالال » ، وتعني « بلبلة » ، وبنتيجة تماثل الكلمتين اللفظي أصبحت بابل وبكـل بسـاطـة مثالاً للفوضى والبلبة اللغوية في العالم خاصة وأنها ـ أي بابل ـ كانت مدينة متعـددة اللغـات . ولاغـرابـة في أن العبرانيين رأوا في برج بابل مثالاً للوقاحة والخطيئة أمام الـرب . فقـد بنى الملوك البـابليـون البرج مستخدمين عبيداً أحضروهم من مناطق شتى من العـالم ، ففي القـرن السـابـع قبـل الميـلاد . أجـرى الملك البـابلي نبـوخـذ نصـر بعض الإصـلاحـات والتجـديد على البرج وأمر أن تُحفر على جداره العبارة التالية : ـ لقد أرغمت إناساً متعددي الجنسيات على العمل في تحديث هذا البرج ـ وربما كان بعض العبرانيين من بين أولئـك العبيـد الـذين عملوا بتجـديـد البرج . وقد انطبعت لزمن طويل في ذاكرتهم ذكـريـات الأسـر البابلي القاسي . لذلك وجدت تلك الذكريات المرة انعكاساً لها في قصة برج بابـل . وسنـرى لاحقـاً أن برج بابل سيُذكر في التوراة مرة أخرى عند الحديث عن سلم المـلائكـة الـذي حلم به يعقـوب حفيـد إبراهيم . لكن وقتاً طويلاً كان قد مضى على الأسر البابلي ، وقد نسي الجيل الجديد من العبرانيين في كنعان تماماً العذاب والألم الذي سببه ملوك بابـل لأجـدادهم . لكن البـرج لم يفنَ من ذاكـرتهم . بل إنـه أخـذ شكلاً مختلفاً عن الشكل الأول ، ومعنى آخر تماماً . فقد أصبح البرج رمزاً لميثاق بين الإنسان والرب .

أبـرام، وإسحـق، ويعقوب

عائلة أبرام تسكن في أور

ولد تارح ثلاثة أولاد: أبرام، وناحور وهاران. توفي الأكبر فيهم هاران تاركاً وراءه ابناً وحيـداً هو لوط. أمـا ابـرام فقـد تزوج ساره، اختـه بالكلالة، والتي تبين فيما بعد أنها امرأة عاقر. وكان تارح(*) رجلاً غنياً جداً يملك بيتاً رائعاً ويملك خدماً وعبيداً كثراً، ويملك مئات الأغنـام وذهبـاً وفضـة ولـه أولاد يسـاعـدونـه في مراقبـة الخدم الذين يرعون له الماشية في المـراعي المجـاورة. عدا عن ذلـك فإن تارح الـذي ترك حياة التنقل والترحل، بدأ يعمل بالتجارة. وهكذا فقد كان تارح نبيلاً محترماً في أور الكلدانيين الشهيرة ـ كما يسميها العهد القديم ـ ونستطيع أن نعوّض الفراغ الذي تركته التوراة في المعلومات عن تلك المدينة، بما نعـرفـه من خلال الاكتشـافـات ودراسة التاريخ. كان عمر عاصمة السومريين آنذاك أكثر من ألف عام. وكانت شوارعها الضيقة المتعرجة الواهنة مكتظة دائماً بالناس، وبصعوبة كانت تمر قوافل البغال المحملة وحرس الملك عبر الجموع العديدة. ولم تكن الطرقات لتخلو إلا عند ظهور الكهنة بلباسهم الأبيض. حيث كان الناس يفسحون لهم الطريق مباشرة. وفوق أسطـح منـازل المـدينـة يرتفع غالياً الهرم الموشوري ومعبد إله القمر ننارسن في قمته. كان ذلـك أحـد الأهـرامـات ـ الأبراج التي اشتهرت بها، ليس ضفاف دجلة والفرات فحسب بل ومصر أيضاً، حيث شاد الفراعنة قبل ذلك الوقت بكثير اهرامات اعتبرت من عجائب الدنيا.

أما ضواحي مدينة أور فكانت تُشبه بستاناً مزهراً. فبين شبكات القنوات الاصطناعية

الكبيـرة والصغيـرة التي كانت تحمـل ماء الحيـاة من الفـرات توزعت تحت أشعـة الشمس حقـول الشعيـر والخضـار وبساتين الزيتون وواحات النخيل والوهاد الخصبة الغضة. وتلوح في كل مكـان أجسـاد مسمـرة نصف عاريـة لفلاحين وعبيد يعملون في الأرض. وتسير في الفـرات العـوامـات الثقيلة المحملة بالبضـائـع. وعنـد أبـواب سور المـدينـة يتوزع الباعة المتنقلون والرعاة مع قطعانهم. يرتاحون من عناء الطريق.

تارح يقرّر الرحيل إلى حرّان

كان بيت تارح يقع عند حائط الحصن، وهو ذو طابقين ومبني بالطين ومطلي بالكلس ومنظـره مهيب. كمـا يجب أن يكـون عنـد أي مواطن خيـر من مواطني مدينـة أور. وتصل الظلال الصغيرة الواقعة وراء الباب حيث يستطيع الضيف الاغتسال في شلال الماء الصغير إلى فسحـة كبيـرة مليئـة بالهـواء والنـور، كمـا توصل إلى الطابق الثاني حيث توزعت غرف منعـزلـة على شرفـة محمولة على أربعة أعمدة ودرج حجري جميل وماء المطر ينساب على سطـح الشـرفـة المنحدر صاباً في فسحة الدار. ومن هناك يخرج بقناة خاصة إلى الطريق. ووراء الدرج يقع مرحاض من اللبن، ومطبخ ومستودع وحمام وجرن لطحن الحبوب. وفي الطابق الأول توجد غرفة للعبادة ينتصب فيها تمثال لرب الأسرة وتحت أرضيتها تقبع توابيت طينية تحوي أجساد الموتى من العائلة.

كان تارح يسيّـر أمـور أملاكه، ويعطي الأوامر، ويُجري الحسابات ويتاجر. وفي كل صبـاح وفي كل مسـاء كان يجثـو خاشعاً أمام تمثال رب العائلة، وكان في الأعياد يتوجه إلى الهرم ويصلّي بحماس لإله القمر بينما يسير الكهنة بلباسهم الأبيض، صاعدين نازلين على الـدرج الحجـري على أنغـام الأبـواق وغنـاء الكـورس. وكان كل شيء يدل على أن تارح سيعيش بقيـة حيـاتـه عيشـة ذلك الغنى والهدوء. فهو قد تقدمت به السن، وأمّن لنفسه ثروة كبيرة. غير أنه قرر يوماً ما إغلاق بيته والامتناع عن أسباب الراحة، والرحيل عن مدينته الأم إلى الأبد، والتوجه إلى حرّان المدينة البعيدة الواقعة في حوض الفرات الأعلى.

لقـد كان الـرعـاة الـرحـل الـذين كانـوا يسيرون بقطعانهم من مرعى لآخر، قاطعين مسـافـات كبيـرة، أوائـل الـرحـالة وأوائل الوسطاء في التجارة خلال العصور القديمة: ففي البـدايـة كانـوا يبـدلـون بضـاعتهم من الجلد والقمـاش الصوفي والسمن والدهن والحليب

واللحم، بالبضاعة التي لم يكونوا ينتجونها. ومع مرور الأيام عرفوا أنهم يستطيعون تحقيق الربح فيما لو اشتروا بضاعة من مدينة وباعوها في أخرى. وقد ساعد نمو مثل هذه التجارة، أن الرعاة الرحل كانوا دائمي التنقل، وكان سكان المدن والقرى المستقرون يشترون منهم البضاعة برغبة كبيرة. بمثل هذه الطريقة جمع-تارح ثروته. وبعد فترة قرر ترك حياة الرعي والتنقل والاستقرار في أور، والعمل كوسيط بين قبائل الرحل وأولئك الذين يشترون منهم. ومن أحاديث التجار ـ الرحل سمع تارح الكثير عن حرّان وضواحيها. فحران كانت تقع على واحد من أهم الطرق التجارية آنذاك. وذلك الطريق المفعم دائماً بالقوافل كان يصل بين الخليج العربي وحدود مصر على البحر المتوسط ماراً بقادش ودمشق وأرض كنعان. وكان ذلك الطريق طويلاً جداً ومتعرجاً ويغير عند حران اتجاهه نحو الجنوب الغربي ليمر قرب دمشق وقادش وليعبر أرض كنعان. لماذا اختار التجار الخبراء إطالة الطريق مئات الكيلومترات بدلاً من أن يتجهوا من أور مباشرة إلى أرض كنعان؟ اختاروا ذلك كي لايعبروا الصحراء السورية المقفرة العديمة الماء. لقد كان التجار يعرفون أنه من المستحيل عبور تلك الصحراء دون جمال. لكن الجمال لم تكن قد دُجنت بعد. ففي القرن السابع قبل الميلاد فقط بدأ الناس باستخدام الجمال. وكان أول من دجنها هم البدو في الجزيرة العربية الدولة اللغز التي دخلت أبواب التاريخ متأخرة.

عرف تارح أن الأرض حول حاران خصبة جداً، وأن هناك بساتين فواكه كما توجد فيها حبوب ورياض كثيرة وعرف أنه لانقص بالماء في تلك المناطق لأن الفرات وروافده يسقيها، ويمكن للفلاحين الاعتماد على تلك الأنهار وبلا خوف. والأهم من ذلك أن تارح عرف أهمية حرّان وأنها تعتبر معرضاً تجارياً. فقوافل التجار كانت تتوقف في حرّان وتبدل البضاعة التي أحضرتها معها من منطقة مابين النهرين ومصر. وهكذا كان بإمكان تارح ممارسة التجارة في حرّان بكل سهوله، وبدون ترك الرعي الذي مارسه هو وأجداده.

في تلك الفترة تعقد الوضع في أور؛ فقد حاول حمورابي الملك البابلي القوي والمشرع العظيم أن يفرض دين دولته على الشعوب التي أخضعها لسلطته. ولهذا الغرض أخذ يرفع من قيمة مردوخ ـ إله قبيلته ـ ويضعه أعلى من كل آلهة مابين النهرين الأخرى. أما المدن التي لم تخضع لرغبته فقد أعمل فيها الضرب وعاقبها بالسيف والنار، وأخذ سكانها عبيداً فلم يبق لرعية إله القمر والذين كان ينتمي إليهم تارح إلا الرحيل، حيث لاتصل اليهم يد الملك البابلي.

وهكذا تجمع في حرّان جمع كبير من المهاجرين. فبنى هؤلاء معبداً كبيراً وأصبحت حرّان المركز الثاني - بعد أور - لعابدي الإله سن. وقد كان لتارح بين أبناء العقيدة الواحدة الكثير من المعارف والأصدقاء والأقرباء. ولكن الغريب أنه رغب في الرحيل إلى مناطق جديدة غريبة بالنسبة إليه.

تارح، وناحور وأبرام في وطنهم الجديد[6]

عاشت أسرة تارح سعيدة في حرّان. وهنا تابع رب الأسرة عمله في التجارة تاركاً لأولاده العناية بالقطيع وقد أعجب الجميع بجمال المنطقة، وخصبها، وبالمدينة ذات البيوت القديمة، التي تلمع تحت الشمس بشكل يعمي الأبصار، المدينة القابعة بين التلال الخضراء والأنهار المليئة بماء الحياة العذب، وبالرياض وسفوح الجبال المزينة بالزهور، وأعجبوا بتلك الجبال جبال طوروس إلى الغرب اللامعة تحت أشعة الشمس.

وهناك طالما قضى أبرام، الموكّل برعاية القطيع، لياليه مع الرعاة حول موقد النار وكانت تلك الليالي باردة برودة تنعش النفس وهادئة هدوءاً يبعث على التفكير. كان أبرام لساعات طويلة يراقب النجوم، ويدرس حركتها في قبة السماء والشبيهة بمظلة سوداء، وتعمق إدراكه شيئاً فشيئاً لعظمة الكون ولِسِعَتِهِ، لجماله وتناسقه. فتولدت في قلبه بعض البلبلة، إذ أصبحت قناعته بإله القمر متقلقلة. وفي أحد الأيام راودته فكرة هي أن خالق الكون والشمس والقمر والنجوم لايمكن أن يكون إلا إلهاً واحداً[7] موجوداً في كل مكان وغير مرئي، رحيماً وشديداً عند الغضب. ولم يُخفِ أبرام إيمانه الجديد، بل دعا إليه علناً في المدينة وتجمعت حول المصلح الديني مجموعة من المخلصين، وكان بين الذين آمنوا لصحة دعواه زوجته سارة، وابن أخيه لوط وكذلك العبيد الذين طالما كانت علاقته معهم جيدة. أما سكان حرّان المخلصين للإله سن فقد أداروا وجوههم عن أبرام كما تدار هذه الوجود عن واحد مرتد. فاضطرت المجموعة الصغيرة صاحبة الدين الجديد والمحاطة بجدار من العداوة أن تحيا حياتها الخاصة متقوقعة على نفسها، وذلك لأن التعاليم الأخلاقية والدينية القاسية لمجموعة أبرام وعودة هذه المجموعة إلى حياة الأجداد البسيطة. حياة الرعاة الرحل. وكذلك تقديم القرابين لإله غير معروف وغير ملموس، كل هذا أدى إلى نفور عداوة من قبل عبدة الإله سن. حتى أن تارح وناحور انتقدا أبرام وانزعجا منه، وخاصة

أنه أغرى الشاب لوط بتعاليمه التجديفية. إلا أن العُرى العائلية القوية عند شعوب الشرق، كان لها تأثيرها لذا لم يتغير شيء في بيت العائلة في حياة تارح، واستمر الجميع يساعدون بعضهم بعضاً. وتابعت العائلة حياتها الهادئة المسالمة.

ولكن جاء اليوم الذي فارق فيه تارح الحياة. وكان عمره آنذاك مائتين وخمس سنين. فتقاسم أبرام وناحور بالتساوي إرث والدهما وانقسمت الأسرة إلى قسمين، وعند ذلك الحين لم يعد لأبرام مايربطه بتلك المدينة التي عانى فيها الكثير من المضايقات والألم. وكان آنذاك في عامه الخامس والسبعين. ورغم ذلك جذبته إليها حياة التنقل ـ حياة أجداده، جذبه الشعور بالرتابة، جذبته الخيام السوداء المصنوعة من شعر الماعز وجذبته كذلك الحرية الواسعة. ففي مثل تلك الحياة يستطيع أن يعبد ربه كما يشاء وأن يقدم القرابين له على المذابح الحجرية، كما يستطيع أن يعلم أتباعه نظافة الاخلاق، وأن يحميهم من إغراءات حياة المدينة.

الطريق إلى أرض كنعان

وهكذا أمر أبرام ذات يوم أتباعه بالتجهّز للرحيل(٨). لقد قرر الرحيل إلى أرض كنعان القليلة السكان، كما حدثوه عنها، أرض كنعان ذات المراعي الخصبة، والواقعة على طرق التجارة مع مصر، وهذا ما يمكنه من العمل بالتجارة فإلى هناك اتجهت عدة قبائل سامية باحثة عن أوضاع معيشية أفضل لأن الحياة أصبحت صعبة في بلاد مابين النهرين، وأدت الحروب المتواصلة والضرائب المتزايدة. وكذلك استبداد السلطة إلى تسميم حياة الناس وتعقيدها. وهاهم الرعاة والتجار يتحدثون دائماً عن أرض كنعان. ولذا ليس غريباً أن تبدو تلك المنطقة لأبرام أرضاً للميعاد.

كانت القافلة الخارجة من حران تدلُّ على غنى صاحبها. ففي مقدمتها كان يسير راكباً على حمر قوية أبرام وسارة. وراءهما مائة من الحمر المحملة بالطعام والشراب والخيام واللباس ولوازم البيت، ويأتي بعدهم العبيد يسوقون الماعز والخراف. وفي نهاية القافلة يسير حرس أبرام الخاص، ويتألف من ثلاثمائة عبد مسلحين بالمقاليع والقسي. فالطرقات لم تكن آمنة آنذاك، وكان يمكن لقطاع الطرق أن يهاجموا القافلة ولذا لم يكن أحد من التجار أو شيوخ القبائل ليجازف بالتنقل دون مجموعة من الرجال المسلحين.

كانت المسـافـة بين حران وأرض كنعـان حوالي ألف كيلومتـر. لكن المسـافرين لم يشعـروا بالملل، فالطـريق كانت مليئـة بالحـركة النشيطة. وكثيراً ماتلاقت القافلة مع قوافل التجار العائدين من مصر. وكثيراً ماتحدث التجار الملتحون بأشياء ممتعة عن ارض كنعان ومملكـة الفـراعنـة العظيمـة. عدا ذلـك فإن قافلة أبـرام كانت تعرّج على القرى والمناطق المأهـولـة. وفي أحد الأيام مرّت قرب مدينة كبيرة تدعى قادش. أخيراً بانت دمشق الشهيرة أمام أعين المسافرين، وبعثت السعادة في نفوسهم. وقرّر أبرام التوقف هناك كي تأخذ رعيته وحيـوانـاتـه قسطـاً من الـراحـة. وأصـدر أوامـره بنصب الخيام في أحد الحقول قرب حائط المـدينـة. وأسـرع بنفسـه إلى حاكمهـا ليقـدم له الهدايا وليطلب إليه استقباله ورعيته. أما سكـان دمشق فقـد تفـرّجوا بفضول كبير على رعية أبرام. وبالفعل كان المنظر يولد الفضول في النفس. فالـرجـال والنسـاء كانـوا يروحـون ويجيئـون بين الخيـام السـوداء وكان الأولاد يركضـون ويلعبـون ولم يكن لبـاسهم يشبـه مطلقـاً عباءات البدو البيضاء ـ سكان الصحراء المجاورة، بل كان رجال أبرام يرتدون الثياب الزرقاء والحمراء المخططة. وفي الأيام الباردة كانـوا يلبسـون قمصـاناً ذات أكمام قصيرة ويلفون على أكتافهم عباءات ملونة تقوم ليلاً مقام الأغطية. أما النساء فلونهن المفضل هو الأخضر. وهذا اللون هو الغالب في لباسهن وتحت العباءات كن يرتدين سراويل ناصعة الألوان ويلففن وجوههن بشال طويل يشبه العمامة لونه ناصع وله نهايات تتدلى على الظهر حيث يلامس الأرض، وكن بتميزن بالضحك المستمر وبكثـرة الـزينة على أجسادهن، كما كن يصبغن شعرهن بالحناء السوداء وجفونهن بالدهنج والفيـروز المسحـوق. أمـا الخـدود والشفـاه فكانت تطلى بالقهرة الحمراء. وكانت تطقطق على أيـديهن وأرجلهن الأسـاور والخـلاخيل الفضية وتتدلى على أعناقهن أطواق من الخرز الملون. وفي الأمـاسي كان القـادمـون من حرّان البعيـدة، يجتمعون حول المواقد ويغنون على أنغـام القيثـارات أغـاني حزينـة مؤثـرة. أمـا الأطفال فتهدهدهم الأغاني ويغطون في أحضان أمهاتهم مستسلمين لنوم عميق.

طاف أبرام بالمدينة، تاجرَ بنشاط، واشترى مايحتاجه لرحلته الطويلة، وتعرف على الكثيـرين من النـاس. وذات يوم تعـرّف على شاب حاضـر البديهة اسمه أليعازر، وقد خدم أبرام كثيراً في دمشق فقرر أبرام أخذه معه وتوكيله بأهم وظيفة لديه، وتبنيه.

في أرض الميعاد

حان وقت الرحيل عن دمشق؛ فودعت رعية أبرام المدينة، بحزن وأسى لأنها أبهرتها بأسواقها الصاخبة وبجموعها الفرحة. فطالما قضت جماعة أبرام يومها متنقلة بين حشود الأهلين تتفرج على البضائع القادمة من بلاد بعيدة، كما أعجبتها أيضاً ضاحية دمشق: ففي كل مكان فيها حقل أو بستان أو روضة وعند سفوح الجبال المعتدلة الانحدار تتوزع حقول الزيتون، ومزارع الفواكه حيث تلامس فروع الأشجار الأرض من ثقل اللوز والمشمش.

لكن أبرام أوعز بالرحيل غير آبه برغبة الآخرين بالبقاء فاتجه قطيع الحمر المحملة وقطيع الاغنام الطويل نحو الجنوب. وبعد فترة وصلوا إلى منطقة جبلية وأصبحت الطريق صعبة شيئاً فشيئاً. وعلى حدود سورية وأرض كنعان رأت جماعة أبرام أمامها ومن اليسار الصحراء السورية الكبيرة ومن يمينها الحرمون وهو مجموعة الجبال الكبيرة التي ينبع منها نهر الأردن.

كانت أرض كنعان آنذاك نصف برية، وقليلة السكان في السهول حيث الأراضي الخصبة تشاهد هنا وهناك مناطق مأهولة، أو بالأصح: قلاعاً يسكنها الحكام المحليون وحراسهم. أما بقية السكان فيعيشون خارج الأسوار في خيام ويعملون بزراعة الأرض وبساتين العنب. ولا يدخلون القلاع إلا حين يشعرون بالخطر القادم، وذلك حين تهاجمهم القبائل الباحثة عن الغنائم. ابتعد أبرام في طريقه عن السهول والمناطق المأهولة الكبيرة، مختاراً السير عبر التلال الصحراوية لرعي قطيعه بكل حرية دون أن يعترضه أحد في الطريق لأن السكان المحليين اعتادوا على رؤية قوافل البدو المرتحلة بين المناطق بحثاً عن الكلأ، وكثيراً ماكانوا يتجاورون مع هذه القوافل. عدا ذلك فإن عسس السكان المحليين كانوا قد أخبروهم أن أبرام لديه ثلاثمائة مسلح مما منعهم من اعتراضه.

وخلال توقف قصير في شكيم بنى أبرام مذبحاً للرب ثم غادره باتجاه بيت إيل. وعلى الجبل الذي بين بيت إيل وعاي نصب خيامه وبنى مذبحاً للرب، ودعا باسمه. لكن المراعي سرعان ماقحلت فما كان أمام أبرام إلا الرحيل، وليس هذا بالغريب فتلك هي حياة الرعاة. عاد أبرام ينتقل من مرعى الى آخر عبر حبرون وبئر السبع، حتى وصل أخيراً إلى النقب ـ الجزء الجنوبي من فلسطين المحاذي لمصر ـ لم تجلب أرض كنعان لأبرام في

الواقع إلا خيبة الأمل. فعلى التلال حيث كان بإمكانه أن يرعى قطيعه بحرية كانت المراعي قليلة العشب وكان الشجر نادراً. حتى أنه كان يعاني من نقص الخشب للطهو والتدفئة، أما الماء فكان يجلبه من مناطق بعيدة. عدا ذلك فإن أرض كنعان كانت كثيرة التعرض للجفاف. وقد أصاب الجفاف أبرام في النقب. حيث أحترقت المراعي وأصبحت رعية أبرام وقطيعه مهددة بالموت جوعاً. وبضعف شديد وحاجة ملحة أقترب أبرام من الحدود المصرية، ورجا عمال فرعون بالسماح له بالرعي في مناطقهم.

كيف أصبحت سارة زوجة فرعون مصر

اعتاد المصريون في تاريخهم على مثل أولئك الضيوف. فالقبائل الرحل كانت تطلب منهم الرعي في مراعيهم، كلما تعرضت أراضيها للجفاف. وكان المصريون عادة يسمحون لمثل تلك القبائل بالرعي قرب مصب النيل حيث الأراضي شاسعة وغير مستصلحة. وكان ذلك المكان آمناً. فالقبائل الغازية كانت تصطدم على الحدود بحاجز من القلاع وبأبراج الحراسة وبحراس حذرين. لكن المصريين لم يكونوا ليرفضوا استقبال الضيوف ابداً. ومقابل ذلك كانوا يأخذون منهم نوعاً من الأجر، زد على ذلك أن المصريين كانوا في بعض الأحيان يأخذون من الرعاة فتياتهم الجميلات ويرسلونها ألى قادتهم وأحياناً إلى فرعونهم. وقد عرف أبرام ذلك. لذلك عند اقترابه من الحدود المصرية قال لزوجته سارة: « أعرف أنك امرأة جميلة. وحين يراك المصريون سيقولون: هذه زوجته فيقتلونني ويبقونك حية » لذا قولي إنك أختي كي لايصيبني سوء وكي لايقتلوني. وكانت سارة امرأة مطيعة. ولتنقذ زوجها لجأت إلى الحيلة وقدمته على أنه أخوها. بيد أن ماقالته سارة لم يكن كذباً، لأنها كانت فعلاً أخت أبرام بالكلالة.

حدّث القواد فرعون عن جمال سارة فضمها هذا إلى حريمه. وقد فتنته سارة بجمالها فأغرق أخاها بالهدايا والاعطيات. وبعد فترة صار عند أبرام قطيع كبير من المواشي، وتضاعفت هذه الحمر والعبيد والقيان والبغال والجمال. وفجأة حلّت بمصر كوارث فظيعة وعرف فرعون وهو يبحث عن أسباب غضب الآلهة وحقيقة الأمر. لقد عرف فرعون أنه أغضب إله العبرانيين إذ ضم سارة إلى حريمه. لذلك دعا إليه أبرام وسأله معاتباً. ماذا عملت معي؟ لماذا لم تقل لي أنها زوجتك؟ حاول أبرام التبرير بشتى الوسائل. لكن

الحقيقة لم تتغير. لقد أغضب فرعون إذ خدعه. لكن فرعون، إما بسبب خوفه من غضب الإله الغريب. وإما لأن قلبه مازال مفعماً بحب سارة، لم يكتف بأن سامح أبرام بل سمح له بمغادرة مصر محملاً بكل الهدايا التي منحه إياها. فعاد أبرام مع سارة ولوط إلى أرض كنعان أغنى بكثير مما كانت عليه حالته قبل القدوم إليها.

مغامرة لوط الفظيعة

عاد أبرام إلى بيت إيل. حيث بنى يوما ما، مذبحاً لإلهه. تزوج ابن أخيه لوط، وصار يرعى قطيعه بنفسه فتبين بعد فترة أن المكان ضيق لقطيعين متناميين. وأخذ رعاة أبرام ولوط يتشاجرون للحصول على المراعي وعندما فقد أبرام صبره على المشكلات العائلية دعا إليه لوطاً، وقال له: لاتكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك. لأننا إخوان. أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عني. إن ذهبت شمالاً فإنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً. أعطى أبرام لوطاً حق الاختيار. فاستفاد هذا الأخير من ذلك بلا تردد. وقد رغب السهل الواقع جنوب البحر الميت، حيث المراعي الكثيرة، فارتحل لوط إلى سدوم. رغم أن سكانها مشهورون بأنهم أشرار وخطاة أمام الرب. أما أبرام فارتحل إلى ممرا التي في حبرون وهناك في ظلال غابة من البلوط نصب خيامه، وبنى مذبحاً للرب. وفي أحد الأيام جاءه رسول بخبر رهيب. ففي السهل الأخضر جنوب البحر الميت، حيث استقر لوط بقطيعه كان يوجد عدا سدوم وعموره، ثلاث مدن أخرى. وكان حكام تلك المدن مستعبدين من قبل كَدَرْلَعومَر ملك عيلام. وظلوا اثنتي عشرة سنة يدفعون له الضرائب. وفي السنة الثالثة عشرة تمردوا عليه. عندها عقد الملك العيلامي اتحاداً مع ثلاثة ملوك على الفرات، وفي السنة الرابعة عشرة شن والملوك الذين معه حرباً على العاصين وألحق بهم خسارة فادحة. قُتل خلال الحرب ملكا سدوم وعموره وهرب الآخرون إلى الجبال فاتجه المنتصرون محمّلين بغنائمهم الكبيرة جارين وراءهم الكثير من الأسرى عائدين إلى بلادهم. ومن بين ما أخذوه معهم كان لوط وعائلته وكل ثروته، وعند سماعه الخبر قام أبرام بلا تردد لإنقاذ ابن أخيه، وعلى رأس ثلاثمائة وثمانية عشر عبداً مسلحاً وجاراً صديقاً لاحق أبرام العدو غير آبه بالفرق العددي الكبير بين الجيشين.

نصب الملوك المتحدون معسكرهم قرب دان عند الحدود الشمالية لأرض كنعان

وكـانت الفـوضى والعجلة سيـدتي المـوقف في ذلك المعسكر العديد اللغات والمكون من قبائل مختلفة. رقد العسكر المبتهجون بالنصر السكارى بنبيذه دون حرس ولا حراسة ورأى أبرام ذلك فقسم جيشه إلى مجموعات صغيرة، وهاجم المعسكر ليلاً ومن جهات مختلفة، ممـا ولـد في المعسكـر فوضى فظيعـة وذعراً شديداً فما كان من العسكر إلا الهرب. فلاحق أبـرام العـدو حتى دمشق. ثم عاد إلى أرض كنعـان منتصـراً وحاملاً معه لوطاً وبقية الأسرى المحررين وكل مانهبه العدو.

استقبله ملك سدوم الجديد وملوك المدن الأربع الأخريات استقبال المنقذ؛ كذلك خرج لاستقباله بالخبز والخمر مَلكي صادق ملك شاليم وكاهنها. وبارك ملكي صادق أبرام باسم الله العلي الذي كان يعبده كما كان أبرام، فأعطاه أبرام عُشراً من كل شيء. وقال ملك سدوم لأبرام اعطني النفوس، وأما الأملاك فخذهالنفسك. فقال أبرام لملك سدوم: رفعت يدي إلى الـرب الإلـه العلي مالـك السمـاء والأرض لا آخذ خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك، فلا تقـل: أغنيت أبـرام ليس لي غيـر الـذي أكله الغلمـان. وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي عانر واشكول وممرا فهم يأخذون نصيبهم[٩].

أبـرام يفكر بنسله[١٠]

كانت الـوسـاوس تعذب نفس أبرام دائماً. فقد سمع صوت الرب في منامه، وقال له صوت الـرب: إن أرض كنعـان ستصيـر وطنـاً لأحفادة. وفي الوقت نفسه لم يكن لأبرام ولد وكان الأمر يبدو وكأن أليعازر الذي أتى به من دمشق، سيبقى وريثه الوحيد. ورغم أن أبرام تبنـاه لكنـه يبقى عبـداً أو إنسـانـاً غريب الدم. وشعوراً من سارة بحالة أبرام، شفقت عليه، وقـررت العـودة إلى عادة أجـدادهـا القديمة. وهذه العادة تسمح للمرأة العاقر بإحضار امرأة أخـرى تطـارح زوجهـا الفـراش، والـولد المولود منها يعتبر وريثاً شرعياً ويتمتع بكافة حقوق الـولـد البكـر. فوقـع اختيـار سارة على جاريتهـا المصرية هاجر. فعلاً لسعادة أبرام حملت هاجـر. غيـر أن الخصـام سرعـان مابدأ في البيت. فهاجر أخذت تتباهى بحبلها باستمرار، وصـارت تتصـرف بتحـد واضـح. أمـا سارة التي امتلأ قلبهـا بالغيرة والتي بدأت تقلق على وضعهـا في البيت، فقـد اتهمت أبـرام بأنه سبب هذه الخلافات وهو غير راغب في التدخل بين سارة وهـاجـر. قال أبـرام لسـارة: «هي ذي جاريتك في يدك، أفعلي بها مايحسن في

عينيك » فأذلتها سارة، فهربت هاجر من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، وقال: ياهاجر جارية سارة من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي سارة فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك اخضعي تحت يديها؛ فعادت إلى البيت واعتذرت من مولاتها. وبعد فترة ولدت صبياً ودُعي إسماعيل.

أبرام يتحول إلى إبراهيم

مضى على ذلك ثلاث عشرة سنة، فصار عمر أبرام تسعاً وتسعين سنة وأصبح ابنه إسماعيل شاباً يافعاً قوي الشكيمة. وفي أحد الأيام أمر الرب أبرام أن يجمع أتباعه في أمة واحدة ومجتمع ديني واحد. وبهذه المناسبة أمر الرب أن يُختن كل الرجال والصبيان الأحرار منهم والعبيد، كرمز للميثاق المعقود معه. ووضع إلى الأبد عادة ختان كل ذكر في اليوم الثامن لولادته. وكل من لا يريد التقيد بهذه العادة يُطرد من القبيلة.

قرر أبرام الذي سُمي بهذا الاسم على شرب أحد آلهة مابين النهرين الكُثر أن يغير اسمه دلالة على نبذ ماضيه الوثني. وأعطى نفسه اسم إبراهيم ومعناه « أبو جمهور من البشر »، وغير في الوقت نفسه اسم زوجته من ساراي إلى سارة، ومعناها « فخامتكم ». وقد أعطت واقعة تغيير الأسماء لإبراهيم هيبة الأمراء وساوته بالحقوق مع جيرانه من الملوك، ورفعته منزلة عن أبناء قبيلته.

قدوم الرجال الثلاثة الغامضين

غير أن هذا السمو المفتعل لم يُغير شيئاً في حياة إبراهيم. فقد تابع هذا حياته السابقة في الخيمة بكل بساطتها، وبقي في أعين رعيته أباً عطوفاً، عادلاً.

في أحد الأيام، كان إبراهيم جالساً عند باب خيمته تعباً بعد يوم من العمل الشاق، مرهقاً من شدة الحر مطروباً بحفيف أشجار البلوط. أخذته الغفوة. وفجأة سمع صوت أقدام، فتح عينيه فرأى أمامه ثلاثة رجال واقفين لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، ودعاهم للدخول إليها، وأمر بتقديم الماء للضيوف ليغسلوا أيديهم، وركض نحو سارة قائلاً: أسرعي بثلاث كيلات، دقيقاً سميداً، اعجني واصنعي خبز ملّة. ثم ركض

إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فاسرع ليعمله، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا، وبعد أن شبع الضيوف، قالوا له أين سارة امرأتك؟ فقال: هاهي في الخيمة. فقال أجَلُّ الثلاثة: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ؟ فقال الرجل لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد ارجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة ابن. فانكرت سارة قائلة لم أضحك، لأنها خافت، فقال لابل ضحكتِ، ثم قال الرجال من هناك واتجهوا إلى سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم. وعرف في الطريق أنه أستضاف الرب يهوه واثنين من الملائكة. وعرف أيضاً أن الرب ذاهب إلى سدوم وعمورة ليعاقبهما على كفرهما. ولم يقتنع إبراهيم بأن مثل هذا العمل ينطبق على مفهوم العدالة الربانية. فسأل الربَّ: عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتُهلك المكان ولا تصفح عنه، من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟ فقال الرب: إن وجدت خمسين باراً في المدينة، فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم، وقال: إني قد شرعت أكلم المولى، وأنا تراب ورماد، ربما نقص الخمسون باراً خمسة، أتُهلك كل المدينة بالخمسة؟ فأجاب إليه: لا أهلكها إن وجدت هناك خمسة واربعين، فعاد إبراهيم يكلمه عمّا إذا كان سيهلك المدينة إن وجد فيها أربعين أو ثلاثين، بل وحتى عشرين باراً، وكان الرب يجيب في كل مرة إنه لن يهلك المدينة إذا وجد هذا العدد أو ذاك، وحين وصل إبراهيم إلى الرقم عشرة، قال الرب لاأهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

سدوم وعمورة

جاء الملاكان إلى سدوم مساء، وكان لوط جالساً فلما رآهما، قام لاستقبالهما ودعاهما الى بيته، فاعتذرا مؤكدين له أنهما يفضلان المبيت في الساحة. فألّح عليهما جداً، فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا. وقبلما اضطجعا، أحاط بالبيت رجال المدينة فنادوا لوطاً، وقالوا له أين الرجلان؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما! فخرج

لوط مغلقـاً البـاب وراءه . وقـال: لاتفعلوا شراً ياإخـوتي ، هاتان ابنتان لي ، لم تعرفا رجلاً ، أُخرجهما إليكم ، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم ، وأما هذان الرجلان ، فلا تفعلوا بهما شيئـاً لأنهمـا قد دخـلا تحت ظلّ سقفي . لكن الجمـوع بقيت صماء لاتصغي لرجاء لوط ، وقـالـوا له : إبعـد إلى هنـاك ، الآن نفعل بك شراً أكثر منهما ، وتقدموا ليكسروا الباب . فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت ، فضـربـاهـم بالعمى من الصغيـر إلى الكبيـر ، فعجـزوا عن أن يجـدوا البـاب . وعم الهدوء بيت لوط فاعترف الملاكان له فوراً بحقيقتهما ، ولأي غرض قدما إلى سدوم وأمراه أن يُعد نفسه وزوجه وبنيه وبناته وأصهاره للرحيل عن المدينة التي كتب لها الهلاك . صدق لوط الغـريبين فوراً لكن صهـريـه ارتـابـا بالأمـر ، هازئين من كلامهما وصمما على البقاء . وعند الفجر لما حان موعد الرحيل انتاب الشك لوطاً أيضاً فأخذ يطيل الوقت ، ويتلكأ حتى أخذه الملاكان عنوة من المدينة ، وأمر الملاكان عائلة لوط عند أبواب المدينة أن تتجه إلى الجبال وحـذراهـا من أن ينظـر أحـد أفرادها إلى الوراء . وكان الهاربون قد وصلوا الى صوغر عندما سمعـوا صوت الـرعـد رهيبـاً خلفهم . فعلى سدوم وعمـورة هطـل مطر من الكبريت والنار ، واهتـزت الأرض كلهـا وتحـولت المـدن إلى أعمـدة من دخان ، ولم ينج أحد من السكان ، وخيم صمت قاتل على سدوم وعموره . ولكن وللأسف الشديد ، خالفت امرأة لوط تعليمات الملاكين إذ نظرت إلى الوراء فتحولت إلى عمود ملح[11] .

كيف خُدع الملك أبيمالك

اتجـه إبـراهيم من جديـد إلى جنـوب أرض كنعـان ، ونـزل في المنطقة مابين قادش وشور . وكثيراً ماقام هناك بزيارات لأبيمالك ملك جرار الذي كان يصادقه . وهناك أيضاً قدم إبـراهيم ساره على أنهـا أختـه . فضمهـا أبيمالك إلى حريمه . لكن الرب الإله أمر أبيمالك مهـدداً بأشـد العقـاب بإرجـاع سارة إلى زوجهـا غير ملموسة وبانكسار دعا أبيمالك إبراهيم إليـه ، وسألـه معاتباً : « ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطيئة عظيمة؟ » ، فأجابه إبراهيم بحرج : « إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجـل امـرأتي . وبـالحقيقـة أيضـاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي . فصـارت لي زوجـة . وحـدث لمـا أتاهَني الله من بيت أبي أني قلت لها هذا معروفك الذي

تصنعين إلي في كل مكان تأتين إليه، قولي عني هو أخي » صفح أبيمالك لإبراهيم خدعته، وسمح له بالإقامة في أرضه بل وحتى أغدق عليه الكثير من الغنم والبقر والعبيد والإماء. وفوق ذلك أعطى أبيمالك لإبراهيم ألفاً من الفضة من أجل سارة كتعويض عن العار الذي لحق بها في جرار.

ولادة إسحق

عندما بلغ إبراهيم السنة المائة، تحقق وعد الرب، فقد ولدت سارة ابناً. وبقيت مبتهجة أياماً طويلة لفرط سعادتها، ودعت الجميع لمشاركتها فرحها وبهجتها. وطالما فكرت وهي ترضع وليدها « من قال لإبراهيم سارة ترضع ببين، حتى ولدت ابناً في شيخوخته ». وكذكرى للحدث السعيد، سمّت سارة مولودها إسحقاً أي: المبتسم باللغة العبرية القديمة. كبر الولد ونما. وبعد بضعة أعوام صار يلعب مع أخيه إسماعيل. ثم بدأ لعب الأخوين مع بعضهما يزعج سارة ويقلقها. وأشد ماكان يضايقها هو أن إسماعيل لكونه الولد البكر سيرث عن إبراهيم جل ثروته. أما إسحق فلن يحصل إلا على اليسير منها. ونمت في نفس سارة الضغينة للجارية المصرية وابنها، وأخيراً قررت التخلص منها إلى الأبد. فقالت لإبراهيم: « اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابني إسحق » قاوم إبراهيم طويلاً رغبة سارة زوجته لأنه كان متعلقاً بزوجته المصرية الجميلة ويُكن لإسماعيل حباً أبوياً حقيقياً « فقال الله لإبراهيم لايقبُح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، كل ماتقول لك سارة، اسمع لقولها. لأنه بإسحق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك ». فبكر إبراهيم صباحاً، وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها. ونصحها بالتوجه إلى مصر حيث يوجد أقرباء لهاجر. كانت الطريق طويلة وخطرة في الصحراء ولما فرغ الماء من القربة، طرحت هاجر الولد تحت إحدى الاشجار. ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس، لأنها قالت: لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فابصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرية،

وكـان ينمـو رامي قوس. وسكن في بريـة فاران وأخـذت له أمـه من أرض مصر. وهكذا فقد أبقى الرب الإله على حياة إسماعيل[١٢]، لأنه قرر جعله أباً للقبائل العربية[*٣]. أما إبراهيم فلم يلتق بعد ذلك بابنه الذي نبذه.

إسـحق على المذبح

في أحـد الأيـام قرر الـرب اختيار إبراهيم ليتأكد من مدى إخلاصه له. فأمره أن يقدم ابنـه قربـانـاً ويحـرقـه. ورغم أن الولد إسحق كان أمل والده الوحيد. إلا أن إبراهيم انصاع لإرادة الرب. ففي المساء ودون أن تعلم سارة بالأمر، جمع حطباً للمحرقة وجهز طعاماً. ثم أخـذ ولـده واثنين من عبيـده واتجـه بهم نحوغايته. وفي اليوم التالي لمسيرهم وصلوا سفح جبـل. فأمـر إبـراهيم عبديه بالبقاء عند سفح الجبل، وصعد وولده إسحق نحوقمته. حمل الـولـد الحطب، وأخذ إبراهيم بيده النار والسكين وذهب كلاهما معاً. وكلم إسحق إبراهيم أبـاه وقـال: هوذا الحطب والنـار ولكن أين الخـروف للمحـرقـة؟ فقال إبراهيم: الله يرى له الخـروف للمحـرقـة، يابني! فذهبـا كلاهمـا معاً، فلما أتيا إلى الموضع بنى هناك إبراهيم المـذبـح، ورتب الحطب، وربـط إسحق ابنـه ووضعـه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء، قائلاً: لا تمد يدك إلى الغلام ولاتفعل به شيئاً، لأني علمت الآن أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك الوحيد عني. فرفع إبراهيم عينيه، ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فأخذه إبراهيم وأصعده محـرقـة عوضـاً عن ابنـه ونـادى ملاك الـرب إبراهيم ثانية قائلاً أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطيء البحر.

موت سارة

عقـد إبـراهيم اتفـاقـاً مع الملك أبيمالك سُمح له بموجبه باستعمال المراعي والآبار الـواقعـة في أمـلاك هذا الأخيـر. ولكن أرض أبيمالك كثيراً ماذكرته بفراقه لزوجته المحبوبة هاجـر ولابنهـا إسمـاعيـل ابنـه البكـر، لذلك انتقل إبراهيم إلى حبرون حيث سكن يوماً ما سعيداً في سهل ممرا. غير أن سارة لحزن إبراهيم الشديد ماتت هناك. وكان لها من العمر

مائـة وسبـع وعشرون سنة . وقد تكون صعوبات الطريق الطويل هي التي عجّلت بنهايتها . توجـه إبـراهيم إلى الحثيين باحترام وخضـوع[١٣]، طالباً منهم السمـاح له بدفن سارة في أرضهم فرحبـوا بدفنهـا في مقـابـرهم . لكن ذلك المكان لم يناسب إبراهيم لأسباب دينية . كمـا أنـه تخـوف من أن يفكر الحثيون بأنه بعمله هذا يعبر عن خضوعه لهم . فإبراهيم طالما حرص على حريـة حيـاة التنقـل والـرعي محـافظاً على استقـلاله الديني والقبلي . فاعتذر للحثيين ورجـاهم أن يلتمسـوا له من عفـرون الحثي أن يعطيـه مغـارة المكفيلة التي تصلح مقبـرة . فوهبـه عفـرون المكان هبة لكن إبراهيم آثر أن يشتريها بأربعمائة شاقل من الفضة . ودفنت فيهـا سارة وحضـر الكثيـر من الحثيين مراسم دفنها لأنهم كانوا يكنون لإبراهيم جليل الإحتـرام ، وهكـذا أصبحت مغـارة المكفيلة التي قرب ممـرا مقبـرة لعائلة أوائل البطاركة ، ومكان الراحة الأبدية لإبراهيم وإسحق ويعقوب .

كيف تزوج إسحق

كان إبراهيم قد تقدم بالعمر. وخطر له أن الوقت قد حان للبحث عن زوجة لإسحق . ولم يكن يرغب أبـداً أن يزوجـه امـرأة حثيـة أوكنعـانيـة ، لمنـع الغريبات من دخول العائلة بدمهن الغـريب، ولإبعـاد الإيمان بآلهة غريبة أيضاً . وقد سمع إبراهيم من التجار أن عائلة أخيه ناحور تعيش في حرّان . وهناك بين أنسبائه كان يجب أن يبحث عن عروس لابنه ، فما كان من إبراهيم إلا أن دعا إليه أحد خدمه وطلب منه خطبة عروس لابنه وأعطاه عشرة جمال مع حُداتِهـا محملة بالهـدايـا للعـروس وأهلهـا . وبعد طريق طويلة توقفت القافلة عند أحد الآبـار بالقـرب من حرّان ، وكـان المســافرون متعبين والجمال عطشى ، واقترب المساء وهو الـوقت الـذي تأتي البنـات فيـه إلى البئـر لجلب المـاء . قرر خادم إبراهيم أن يختار عروساً لإسحق تلك التي تعطيـه ، قبـل غيـرهـا قربـة الماء ليشرب ، وكانت الشمس بحافة السماء والأفق يلمـع بلون قرمـزي مذهب وهـا هن النسـاء يخـرجن من بوابـة المـدينـة متحـدثات ضاحكات وبينهن فتاة خارقة الجمال ، تحمل جرة على كتفها ، وتمشي متهادية برفق ، رقيقة ناعمة تسر العين . انحنى لها رسول إبراهيم بإحترام ، وطلب منها أن تسقيه[١٤]، فقدمت له جرتها الملأى بالماء ، ثم سقت جماله ، وكل هذا كان برحابة صدر وسعادة . فازداد إعجابه بها وسألها عن اسمها وأصلها فازداد إعجابه حين علم أنها رفقة ابنة بتوئيل وحفيدة ناحور.

وعرف الرسول أن الرب شاء بقدرته أن يوصله إلى رفقة التي هي من بيت اخوة سيده إبراهيم، ولم يعد يشك بأنه وجد لإسحق زوجة مثالية تتمتع بكل الصفات والخصال التي أكد إبراهيم على توفرها: الجمال وحسن الأخلاق وأن تكون الفتاة ربة بيت جيدة. وبعد أن سقت رفقة جماله، دعته والمسافرين معه لقضاء الليلة عند أهلها، ووعدتهم بإيجاد مكان في الأسطبل لحيواناتهم وكذلك طعام لها. عند ذلك أخرج رسول إبراهيم من خرجه، وهو مبهور بلطف رفقة أقراطاً وأساور ذهبية، وقدمها إليها بسرور وبهجة. نظرت رفقة إلى الهدية مندهشة وترددت بأخذها. غير أن أنوثتها انتصرت بالنهاية، فأخذت المجوهرات تحت نظر صديقاتها وإعجابهن وأسرعت إلى البيت متباهية بحليها، ومبلغة أهلها بقدوم الرسول. خرج لابان أخو رفقة لاستقبال الضيف، وأدخله البيت وقدم له ماء ليغتسل، وأوصل جماله إلى الإسطبل وعلفها. خلال ذلك أعدت مائدة الطعام ودعي إليها الضيوف، ولكن الضيف قرر أن يشرح لأصحاب البيت قصته ومهمته، قبل أن يجلس إلى المائدة. فحدثهم عن إبراهيم وابنه إسحق وعن ثروتهم الكبيرة. وفي الختام فَرَدَ هداياه وهي أوعية من ذهب وفضة وأقمشة رائعة وأشياء أخرى كثيرة. اطّلع أصحاب البيت على الهدايا بدهشة وإعجاب. فانحنى لهم الرسول، ورجاهم تزويج إسحق من رفقة. وافق الوالدان فوراً، ولكنهما - خلافاً للعادة المتبعة - تركا الكلام الفصل لابنتهما، لذلك اختليا بها، وسألاها عن موافقتها على الزواج من شخص غريب تتغرب إلى بلده: فوافقت. رافقت رفقة مرضعتها وبعض الإماء. أجلس رجال إبراهيم النساء على الجمال، وتحركت القافلة إلى أرض كنعان مودعة بنصائح الأهل وبدموعهم.

خلال ذلك بقي إسحق ينتظر بفارغ الصبر خطيبته، وكثيراً ماكان يخرج إلى الطريق، يقف، وينظر إلى بعيد. وفي إحدى الأمسيات سمع صوت الأجراس النحاسية، ثم شاهد بعدها قافلة تسير وئيدة. وحين كان يميز قافلته عن بقية القوافل، رأته رفقة وسألت الرسول عمّن يكون القادم للقائنا؟ هو سيدي. قال الرسول، فنزلت الفتاة عن الجمل بسرعة، وغطت وجهها بالبرقع، كما تفعل العروس، وحيّت بتواضع زوج المستقبل. أدخلها إسحق السعيد إلى خيمة المرحومة أمه كرمز إلى أن رفقة ستصبح منذ اليوم أما لجميع نسل إبراهيم. أحيوا بعد ذلك وعلى عجل حفلة الزواج. وقد أعجبت رفقة زوجها كثيراً، وخففت من حدة أحزانه لفقدان أمه.

إبراهيم يتزوج مرة ثانية

ملّ إبراهيم حياته حياة الأرمل. وهو لم يكن شاعراً بعد بتقدمه في السن، فقرّر الزواج مرة ثانية. أخذ لنفسه امرأة اسمها قطورة. فأنجبت له ستة أولاد. وصار لإبراهيم من أولاده الستة أحفاد كثر. فخاف إسحق أن يؤدي ازدياد نسل إبراهيم إلى تعقيدات في مسألة الوراثة. فطلب من أبيه أن يعترف له ـ قبل أن يموت ـ بأحقيته كولد بكر. أحزنت الخلافات العائلية إبراهيم، لكنه كان مرغماً على الاعتراف بأحقية إسحق، فقد كان من غير المنطق غض النظر عن القوانين العائلية السائدة وتوزيع الورثة. فالوريث الرئيس هو الولد البكر. وبقلب مفعم بالخوف، قرّر إبراهيم الافتراق عن أولاده من زوجته الثانية، وأغدق عليهم الهدايا ونصحهم أن يتوجهوا إلى شرق أرض كنعان، حيث الكثير من المراعي، وأن يبدؤوا هناك حياة جديدة ومن نسل إبراهيم هذا، خرجت قبائل جديدة معادية لنسل إسحق. مات إبراهيم بعمر مائة وخمسة وسبعين عاماً، ودفن في مغارة المكفيلة بجوار زوجته سارة، وقد حضر من الصحراء البعيدة لحضور جنازة والده إسماعيل بن هاجر المنكودة الحظ.

توأم إسحق ورفقة

أحب إسحق ورفقة بعضهما البعض حباً جماً، لكن التعاسة لم تفارق بيتهما إذ عاشا عشرين عاماً، ولم ينجبا ولداً، وأخيراً استجاب الرب لدعواتهما، فحملت رفقة وكان عمر إسحق ستين سنة، يوم ولدت زوجه توأماً، وخرج عيسو إلى النور أولاً، فصار الولد البكر وسموا الثاني يعقوب لأنه خرج إلى النور ممسكاً بعقب أخيه عيسو(*). ولم يكن الولدان يشبهان بعضهما بشيء، ولم يتصادقا أبداً، حتى أن رفقة كانت تشكو لزوجها من أن ولديها كانا يتصارعان دائماً في بطنها. ولما كبرا كان من الصعب إقناع أحد ما، بأنهما توأم. فقد كان عيسو دحداحاً، وعريض المنكبين، وجسمه مغطى كلياً بشعر أمغر اللون، وكان جريئاً مشاكساً، يحب المزاح الثقيل ويصارع الأولاد برغبة جامحة، ورغم شدة ثقته بالناس، كان طيب الروح بسيطاً، إلا أنه كان سريع الغضب، ويشتد خطره في هذه اللحظات. كان يقضي معظم أيامه في الصيد أو في المراعي مع الرعاة، ولم يكن يعتني بمظهره. كان

مهملاً، وتفوح من ثيابه رائحة الأرض والغنم. ولم يكن يفكر حتى بغده وعند عودته للبيت، بعد غياب لم يكن يمارس أعمالاً بيتية، لأنه كان يأكل عندما يجوع، ويشرب حين يعطش، وحين ينعس ينام حيث يكون.

أما يعقوب فكان شخصاً آخر، كان يسير بالطرق الممهدة مسبقاً يعمل في البيت مُنظماً محباً للعمل وولداً مطيعاً. وكان عيسو ينظر إليه كطفل غبي ويحتقره، ولم يكن يفكر قط أن يكون أخوه حاضر البديهة وخبيثاً.

أما العجوز إسحق فكان يحب عيسو أكثر من يعقوب، وربما يرجع السبب في ذلك لإعجابه بمهارة عيسو في الصيد، وبقوته البدنية، وأن خصال الرجولة هذه كانت تذكره باجداده الرعاة ـ الرحل. عدا عن ذلك، فإن عيسو كان يحب أباه بطريقته الخاصة: فهو لطيف معه ويحاول كثيراً الترفيه عنه. وعندما يعود من الصيد يقدم اليه ماأصطاده. وفيما يخص رفقة فإنها كانت تحب يعقوب أكثر من عيسو الصعب المراس بل وكانت تخجل منه، ولمجرد التفكير بأن عيسو سيصبح الوريث الرئيس لأبيه كانت لاتنام الليالي، إذ كانت تخاف أن يُضيع عيسو السطحي التفكير ثروة العائلة وأن يبقى يعقوب التاجر والملازم للبيت منذ الولادة، بلا شيء، وكانت تفكر ليل نهار، بالطريقة التي يمكن أن تؤمن فيها ليعقوب حق الولد البكر.

لأجل مغرفة من حساء العدس

وقف يعقوب ذات يوم في المطبخ يُعد حساء من العدس. وفجأة حضر عيسو وطلب منه شيئاً يأكله، وكان تعباً وجائعاً جداً، فهو قد أمضى سحابة يومه بالصيد، وعاد بخفي حنين. وكان من طبعه أن يأكل حين يشعر بالجوع، ولكن يعقوب لم يقاسمه الحساء. ومن جديد عبقت رائحة العدس في الهواء، فألح عيسو في طلبه. آنذاك سأله يعقوب متصنعاً المزاح: «أتبيعني بكوريّتك مقابل الحساء»، أبيعك أجاب عيسو دون تفكير. فقال يعقوب: احلف لي، فحلف. بالطبع لم يأخذ عيسو ذلك الحديث على محمل الجد، فقد كان يحلف بأي شيء عندما ينفعل. فهذه هي عادة الرعاة الرحل. أما بالنسبة ليعقوب فإن ذلك القسم صار شيئاً مقدساً. وقد صدق فعلاً أنه حصل على أحقية البكورة. أما عيسو فقد

أخذ يتناول الطعام بنهم، غير عابيء بالعواقب الوخيمة، التي ستحصل نتيجة لتهوره وسطحية تفكيره.

نجاحات ومصائب إسحق

حدث جفاف ووقع جوع في حبرون، حيث عاش إسحق لسنين عديدة. فقرر إسحق الرحيل إلى جرار التي ملكها أبيمالك صديق أبيه إبراهيم. وأعجب سكان جرار بجمال رفقة، وبلغ أعجابهم بها درجة، اضطر إسحق بسببها إلى القول بأنهما أخ وأخت كيلا يقتلوه. وفي أحد الأيام شاهد أبيمالك من نافذته كيف يغازل اسحق رفقة وعرف الحقيقة؛ وطلب إسحق إليه وسأله: « إنما هي امرأتك، فكيف قلت لي انها أختي؟ » فأجابه إسحق متردداً: « لأني قلت لعلي أموت بسببها » فقال أبيمالك غاضباً: « ماهذا الذي صنعت بنا لولا قليل لأضطجع أحد الشعب مع امرأتك، فجلبت علينا ذنباً »، لكنه سامح إسحق كما سامح يوماً ما أباه إبراهيم وأوصى شعبه، وهدده بأن الموت سيكون عقاب من يمس رفقة.

في جرار اشتغل إسحق لأول مرة في حياته بالزراعة، بالإضافة إلى الرعي، وقد حالفه الحظ، وحصد محصولاً وفيراً. وبسرعة فائقة صار رجلاً غنياً جداً يملك قطيعاً كبيراً من الغنم والأبقار والكثير من العبيد. فأدى ذلك لغيرة سكان جرار فنشبت الخلافات بين رعاة جرار ورعاة إسحق على الآبار التي حفرها إبراهيم في حياته. فأخذ إسحق يتنقل من مكان الى آخر. وكلما حفر بئراً، يأتي مبغضوه، ويغمرونه بالرمل.

في نهاية المطاف ارتحل إسحق إلى بئر السبع وبنى هناك مذبحاً ليهوه، وقدم إليه من جرار أبيمالك وصاحبه أُحزات ورئيس جيشه فيكول ليعتذروا منه لما سببه له سكان جرار من حزن وألم. سألهم إسحق بأسى: « مابالكم أتيتم إليّ وأنتم قد أبغضتموني، وصرفتموني من أرضكم »؟ فأجابه أبيمالك: « إننا قد رأينا أن الرب كان معك. فقلنا ليكن حلف بيننا وبينك، ونقطع معك عهداً ألّا تصنع بنا شراً، كما لم نمسك وكما لم نصنع بك إلّا خيراً وصرفناك بسلام، أنت الآن مبارك الرب ».

وهكذا عقد أول اتفاق بين العبرانيين وملك محلي. صنع إسحق ضيافة لضيوفه، وفي الصباح غادروه بسلام.

خدعة رفقة ويعقوب

لما تقدمت السن بإسحق فقد بصره، وصار لا يميز حتى أقرب الناس إليه، الواحد عن الآخر، عدا ذلك فقد أصابه حزن شديد، لأن عيسو اتخذ لنفسه زوجتين حثيتين ملقياً بعرض الحائط عادات القبيلة وتراثها. وغير مهتم بنقاوة الدم. لكن بغض النظر عن ذلك بقي إسحق يحب ولده كسابق عهده، ويعتبره ولده البكر. وفي أحد الأيام دعاه إليه وقال له: « إنني قد شخت ولست اعرف يوم وفاتي فالآن خذ جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية، وتصيد لي واصنع لي أطعمة كما أحب وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل موتي ». غادر عيسو البيت مباشرة، قاصداً الصيد ليحقق رغبة أبيه. لكن رفقة كانت قد تنصتت وسمعت حديث إسحق مع ولده عيسو فخطرت لها خطة خبيثة، وقررت استغلال فرصة غياب غيسو عن البيت وتقديم يعقوب بدلاً منه إلى أبيه والحصول بذلك على بركة إسحق ليعقوب. تلك البركة التي تُعطى للولد البكر فقط، خاف يعقوب عندما سمع بخطة أمه وصار يعارضها « هوذا عيسو أخي رجل أشعر، وأنا رجل أملس، ربما يحسني أبي، فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة ». لكن رفقة هدأت من روعه وشتت مخاوفه وأمرته أن يأخذ لها جديين من القطيع، ثم أعدت منهما طعاماً وألبست يعقوب ثياب عيسو. لكي تفوح منها رائحة الحقول. وألبست يديه وملاسة عنقه جلد الجديين، ودخل يعقوب بلباس أخيه إلى أبيه ومقدماً له نفسه على أنه عيسو وقدم له الطعام. استغرب إسحق عودة إبنه عيسو السريعة من الصيد، وكي يتأكد من أن الذي أمامه كان عيسو وليس غيره، لمسه بيده، وقال: الصوت صوت يعقوب واليدان يدا عيسو .

بعد أن أكل إسحق وشرب الخمر، عادت إليه الشكوك من جديد فطلب من ولده الذي أمامه أن يتقدم ويقبله، وعندما فعل ذلك يعقوب شم إسحق رائحة العرق في ثيابه، فقال: « أنظر رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب »، وبارك إسحق يعقوب فوراً. وصارت أحقية الولد البكر له، وصار هو الوريث الرئيس. . . عرف عيسو بعد عودته من الصيد بالمكيدة، التي انتزعت بواسطته الوراثة. وكانت بركة الوالد، في ذلك الوقت شيئاً صوفياً مقدساً لا يمكن تغييره. حتى ولو حصل بطريقة الغش والخداع. وكان إسحق وعيسو

عاجـزين عن عمـل شيء. فانفجـر عيسـو غاضبـاً وهـدّد بقتل يعقوب. لكنه رحمة منه لأبيه تذرع بالصبر، وقرر أن ينفذ تهديده بعد موت أبيه.

سُـلَّم يعقوب

قالت رفقـة ليعقـوب خائفـة على حيـاتـه: « هوذا عيسـو أخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك، فالآن يابني اسمـع لقـولي، وقم واهـرب إلى أخي لابان إلى حرّان وأقم عنده أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك، حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ماصنعت به ثم أرسل فآخـذك من هنـاك »، وافق يعقـوب على خطـة أمه، خاصة وأنه قد يجد في حرّان زوجة من قبيلتـه متجنبـاً بذلـك خطيئـة عيسـو الـذي تزوج من حثيـات. وقد سامح الأب على مايبدو يعقوب على الخدعة الخبيثة، وودعه بحنان، وتمنى له رحلة طيبة وطريقاً سهلة.

خرج يعقـوب نحـو حرّان كمتجـول فقيـر، لايحمل إلا زوادة على كتفه، وعكازاً في يده. فقد رغب بمغادرة المنزل ليلاً، وبشكل سري حين يكون عيسو القوي نائماً نوماً عميقاً.

سار يعقوب على قدميه وصار ينام في العراء. وفي أحد الأيام عندما داهمه الليل أخذ حجراً من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه ونام متعباً من صعوبة المسير. فرأى في منامه حلمـاً غريبـاً[١٠]: وإذا سلم منصـوبـة على الأرض، ورأسهـا يمس السمـاء، ومـلائكـة الله صاعـدة ونـازلـة عليهـا، وهـوذا الرب واقف عليها، فقال: «أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي أنت مضطجـع عليهـا أعطيـك لك ولنسلك ويكـون نسلك كتـراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً، ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وهـا أنـا معـك وأحفظـك حيثمـا تذهب وأردّك إلى هذه الأرض لأني لا أتـركـك حتى أفعل ماكلمتك به ».

فاستيقظ يعقوب من نومه قبيل الصباح. واقسم ليهوه أنه سيتخذه رباً له وسيُعشر له كل مايعطيه إياه إذا ماأنقذه من الخطر وأطعمه وأعاده سالماً إلى بيت أبيه، وكذكرى لحلمه غير العادي أخذ يعقوب الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه. أما المكان فسماه بيت إيل (أي بيت الرب).

كيف تبادل لابان ويعقوب خداع بعضهما البعض

وصل يعقوب حرّان مساء. رأى عند أبواب المدينة رعاة يسقون قطعانهم، فسألهم إن كانوا يعرفون لابان حفيد ناحور؟ وفي تلك اللحظة أتت البئر فتاة جميلة مع قطيعها. انها راحيل ابنةُ لابان آتية مع الغنم. أجابه الرعاة؛ اتقدت روح يعقوب لما رأى ابنة خاله فاقترب منها وقبلها. فعادت راحيل إلى البيت وأخبرت أباها عن قدوم الضيف. أسرع لابان إلى البئر، عانق يعقوب وأحضره إلى البيت. وعلى مائدة العشاء أغرقه بالأسئلة عن إسحق ورفقة، وبعد أن انتهى من إخبارهما، سأل يعقوب عمّا أتى به إلى حرّان. فطلب يعقوب من لابان أن يشغله. ولما كان لابان رجلاً عملياً، سأل يعقوب مباشرة عن الأجر الذي يريده. وكانت ابنتا لابان تصغيان للحديث وتنظران بخجل الى الضيف وقد بادلهما يعقوب النظرات، وكأنه يزن شيئاً مافي عقله. كانت الأخت الكبرى ليّه ضعيفة العينين متوسطة الجمال. أما الأخت الصغرى راحيل فكانت جميلة لدرجة أن يعقوب لم يستطع الامتناع عن النظر إليها.

أخيراً استجمع يعقوب شجاعته وقال للابان: أخدمك سبع سنين مقابل راحيل ابنتك الصغرى. ضحك لابان ووافق على الفور لأن الصفقة كانت مربحة له. وحُددت مهمة يعقوب برعاية القطيع فكان ماهراً في عمله، مما زاد عدد الأغنام بشكل لم يسبق له أن حصل. ومرت سبع سنين وكأنها سبعة أيام. وجاء وقت الحساب مع لابان. فأكد هذا أنه سيفي بوعده ودعا الضيوف إلى عرس راحيل وكانت حفلة العرس صاخبة، ولم ينقصها طعام ولاشراب، ولم ينقص شيء على أحد من الحضور. وكما جرت العادة. وفي نهاية اليوم غادر العريس إلى غرفة مظلمة مخصصة للزواج، وستحضر إليها العروس فيما بعد. وقد لاحظ الحضور أنه يتمايل في مشيته إذ انه أكثر من الشراب، وفيما عدا ذلك كان كل شيء عادياً ولكن في الصباح عندما أنيرت الغرفة، استيقظ يعقوب صاحياً من السكر ليرى المنظر الفظيع، إذ كانت ترقد بجانبه ليّه وليست راحيل، فعرف أن لابان خدعه بوقاحة، وقام غاضباً إلى عمه وأغرقه بالاتهامات. لكن العجوز الخبيث أجابه بكل برودة أعصاب: ليس من العرف في المكان الذي فيه نعيش، أن نعطي الصغيرة قبل البكر. فأخرج هذا الجواب الوقح يعقوب من طوره، صرخ وقلب البيت رأساً على عقب غير أن لابان صمت،

ونظـر إليـه بهـدوء عجيب، وعنـدما تعب الصهر من الصراخ وهدأ قليلا عرض عليه لابان أن يخدم لديه سبع سنين أخرى مقابل راحيل، فلم يكن أمام يعقوب التعيس إلا القبول غير أنه طلب إنهـاء الحسـاب مع لابـان مقـدماً وفعلاً زفت راحيل إلى يعقوب بعد أسبوع من زفاف أختها ليّه. وهكذا صار ليعقوب زوجتان في آن واحد. وبالطبع كان يحب راحيل ويكره ليّه ولكن لم ينعم بيتـه بالاتفـاق. فالأختـان تغـار كل واحـدة منهمـا من الأخـرى. وكل واحدة تحـاول اجتـذاب زوجهـا إليهـا. لهذا صارت الخصومات تتكرر يوميا. وعدا من ذلك سخر القـدر من راحيـل إذ تبين أنهـا عاقـر، في الـوقت الـذي ولدت فيه ليّه أربعة أولاد ليعقوب. وكـانت ليّـه تتبـاهي بأولادهـا بلا انقطـاع، وتسخـر من راحيل الجميلة التعيسة فما كان من راحيـــل إلاّ أن قالت ليعقــوب: هب لي بنين وإلا أنـا أمـوت، فحمي غضب يعقـوب على راحيل، وقال: ألعلي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن. فقررت راحيل بعد أن فقدت الأمـل إيجـاد مخـرج آخر مما هي فيه، بأن تعود إلى تقليد قبيلتها القديم، ذلك أن اختارت جاريتها بلهة، وأدخلت عليها زوجها وبالفعل حبلت بلهه وأولدتها راحيل على ركبتها ليُعتبر الولد، حسب العادة، ولدها فكان المولود صبيا، فقالت راحيل: « قد قضى لي الله وسمع أيضاً لصوتي وأعطاني ابناً لذلك دعت اسمه دان »، وحبلت بلهة وولدت ابناً ثانياً ليعقوب. فقالت راحيل: « مُصارعات الله، قد صارعتُ أختي وغلبت » وفي ذلك الوقت، توقفت ليّه عن الـولادة، وشعـرت بأنهـا ستخسـر المعركة فقررت سلوك مسلك أختها وأختارت لزوجها جاريتهـا زلفـة، فحبلت منـه وولـدت له ولـدين. وكم كانت سعادة ليه كبيرة بتقدمها على أختهـا، «بغبطتي صرخت ليـه، لأنـه تغبطني بنـات»، وحـدث أنـه لما كان راؤ بـين بن ليّه في الحقـل أن وجـد لُفـاحاً (عقار قوي ضد العقم) فعاد به مسرعاً إلى أمه كي تلد من جديد، عرفت راحيـل بالأمـر فطلبت من أختهـا لُفـاحـاً، فأجـابتها ليّه: « أقليل أنك أخذت رجلي فتأخذين لُفاح ابني أيضاً. فقالت راحيل: إذن يضطجع معك الليلة عوضاً عن لُفاح ابنك. فولـدت ليّـه صبيين آخـرين وبنتاً، فصار بإمكانها التباهي بستة أولاد وبنت منها وبولدين من جاريتهـا؛ لكن شيئـاً غيـر متـوقـع قد حدث: فقد انتصرت راحيل على عقمها وولدت ولداً سمته يوسف.

مرت سبـع السنين الأخـرى، فقـرر يعقوب العودة إلى أرض كنعان. طلب من لابان أجـراً إضـافيـاً مقـابـل أتعابه: « أنت تعلم ماذا خدمتك، وماذا صارت مواشيك معي، لأن ماكان لك قبلي قليل، فقد اتسع إلى كثير، وباركك الله في أثري ». أخذ لابان يردد الحجة

تلو الأخرى، ولكنه بدأ يتراجع عن موقفه، لأنه اقتنع أن صهره على حق. واقترح يعقوب على لابان أن يبقى في خدمته يرعى غنمه ويحفظها شريطة أن يعزل لابان كلّ شاة رقطاء وبلقاء وكلّ شاة سوداء بين الخرفان، وبلقاء ورقطاء بين المعزى، فيكون مثل ذلك أجرة ليعقوب فوافق لابان ونفذ العزل في اليوم الثاني، ودفع ماعزله من الماشية إلى بنيه، وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب، وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية. فأخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً وخططها ووضعها في الأجران في مساقي الماء تجاه الغنم ـ لتتوحم عند مجيئها ـ لتشرب، فتوحمت الغنم، وولدت الغنم مخططات ورُقطاً وبلقاً. وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيونها في الأجران وحين استشعفت الغنم لم يضعها، فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب. فاتسع الرجل كثيراً جداً، وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير. فسمع كلام بني لابان قائلين: « أخذ يعقوب كل ماكان لأبينا. ومما لأبينا صنع كل هذا المجد ».

دافع يعقوب عن نفسه بأن الرب أراد معاقبة لابان لأنه خدعه. فوقفت الزوجتان المحبتان إلى جانب زوجهما، وسعدتا حين أسرّ لهما يعقوب بأن الرب قد أمره بالعودة إلى أرض كنعان ولم تلبثا أن غضبتا من والدهما وقالتا له: « لنا أيضاً نصيب وميراث في بيت أبينا، ألم نُحسب منه أجنبيتين، لأنه باعنا وقد أكل ايضاً ثمننا. إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا، ولأولادنا فالآن: كل ماقاله لك الله، افعل ».

هروب يعقوب

توتر الوضع في بيت لابان، وخاف يعقوب من أن يأخذ أولاد لابان أملاكه بالقوة، فقرر الرحيل عن حرّان سراً. ولم يعرف يعقوب أن راحيل قد سرقت قبل الرحيل من بيت أبيها أصنام الآلهة التي كانت تحمي عائلة لابان.

كانت قافلة يعقوب كبيرة جداً ففيها الجمال وفيها الحمير المحملة، وفيها النعاج والخراف والماعز. وكان يرافق يعقوب زوجتاه وجاريتاه وأحد عشر ولداً، وخدم كثيرون مع عوائلهم. فما كان بإمكان مثل هذه القافلة أن ترحل عن حرّان دون أن يلاحظها أحد. ومع ذلك لم يشعر لابان بهروب يعقوب إلا في اليوم الثالث للهروب فجمع أولاده على عجل، وأخذ يلاحق الهاربين على رأس مجموعة مسلحة من العبيد. غير أن الرب حذره في

الطريق ألا يغضب يعقوب وبألا يسمح بإراقة الدماء، واستمرت المطاردة سبعة أيام. أدرك بعدها لابان يعقوب عند جبل جلعاد، حيث كان قد نصب خيامه. فاقترب لابان من يعقوب قائلاً: «ماذا فعلت وقد خدعت قلبي وسقت بناتي كسبايا السيف؟، لماذا هربت خفية وخدعتني، ولم تخبرني حتى أشيعك بالفرح والأغاني بالدف والعود، ولم تدعني أقبل بنيّ وبناتي؟. الآن ولغباوة فعلتك في قدرتي أن أصنع بكم شراً، لكن إله أبيكم كلمني البارحة، قائلاً إحترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر. والآن أنت ذهبت لأنك اشتقت إلى بيت أبيك. ولكن لماذا سرقت آلهتي؟ استغرب يعقوب كلام لابان لجهله بالسرقة، ووعد لابان بإعدام السارق، وسمح له بتفتيش معسكره: فدخل لابان خباء يعقوب وخباء ليّه وخباء الجاريتين، ودخل خباء راحيل وكانت راحيل قد أخذت الأصنام، ووضعتها في حداجة الجمل، وجلست عليها فجس لابان كل الخباء، ولم يجد ضالته. فاغتاظ يعقوب وخاصم لابان لأنه لاحقه وفتش معسكره، وذكره بكل ماأغضبه خلال عشرين عاماً خدمه فيها. «إنك جسست جميع أثاثي، ماذا وجدت من جميع أثاث بيتك، ضعه أمام إخوتي وإخوتك، فلينصفوا بيننا الاثنين. الآن عشرين سنة أنا معك، نعاجك وماعزك لم تسقط. وكباش غنمك لم آكل، كلُّ فريسة لم أحضرها إليك، كنتُ أخسرها من يدي كنت تطلبها سواء كانت مسروقة النهار أومسروقة الليل. كنتُ في النهار يأكلني الحر، وفي الليل يأكلني الجليد. ويطير نومي من عيني. الآن: لي عشرون سنة في بيتك، خدمتك أربع عشرة سنة، بابنتيك، وست سنين بغنمك، وقد غيرت أجرتي عشر مرات، ولولا أن إله أبي إبراهيم وهيبة إسحق كانت معي، لكنت الآن قد صرفتني فارغاً».

تابع لابان التأكيد على أن كل ثروة يعقوب هي ثروته بالأساس، ومع ذلك وافق على رحيل صهره إلى أرض كنعان. «البنات بناتي والبنون بني، والغنم غنمي، وكل ماأنت ترى فهو لي، فبناتي ماذا أصنع بهن اليوم أوبأولادهن الذين ولدن؟». واقترح لابان أن يعقد عهداً بينهما. وكشاهد على العقد المبرم بينهما أوقفا عموداً من الحجر، وعملا رجمة من حجارة، فسماها لابان يجَر سَهْدوثا، أما يعقوب فدعاها جلعيد. وقال لابان: هذه الرجمة هي شاهدة بيني وبينك، وشاهدُ العمود أنني لاأتجاوز هذه الرجمة إليك وأنك لاتتجاوز هذه الرجمة وهذا العمود إلي للشر. إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا. وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحق. وذبح يعقوب ذبيحة في الجبل، ودعا إخوته ليأكلوا طعاماً فأكلوا

وباتوا في الجبل. ثم بكر لابان صباحاً، وقبّل بنيه وبناته باركهم ومضى ورجع لابان إلى مكانه.

يعقوب يصارع الرب

عبر يعقوب حدود أرض كنعان، ونصب معسكره في منطقة سماها محنايم، وهناك سمع من السكان أنباء سيئة عن أخيه عيسو. فقد استوطن عيسو أرض سعير وصار حاكماً لبلاد أدوم. وكان يعمل بشكل رئيسي بالعبيد في الجبال. لكنه لم يكن ليمتنع عن النهب إذا ماسنحت له الفرصة. فساءت سمعته في السهول المزدحمة السكان، لهذا ارتعد يعقوب خوفاً من أخيه. فقد أذنب يوماً أمامه ولم يكن متأكداً أن يصفح عنه عيسو. فبعث يعقوب رسله إلى عيسو طالباً الصفح والعفو. وعندما عاد الرسل أبلغوه أن عيسو قادم اليه مع أربعمائة مسلح، فخاف يعقوب جداً وأخذ يدعو ربه: « نجني من يد أخي من يد عيسو، لأني خائف منه أن يأتي ويضربني والأم مع البنين. . وأنت قد قلت: إني أحسن إليك وأجعل نسلك كرمل البحر الذي لايُعد للكثرة ».

ومن ثم اتخذ كل الاحتياطات اللازمة. فقسم رعيته وأملاكه وقطيعه إلى مجموعتين ووضع كل مجموعة في مكان، وترك بين المكانين مسافة تسمح في حالة التعرض للهجوم بأن تهرب على الأقل إحدى المجموعتين وعدا ذلك، فقد قرر تليين نفس عيسو بالهدايا الغنية « أستعطف وجهه بالهدية الساترة أمامي وبعد ذلك أنظر في وجهه عسى أن يرفع وجهي ». وأخذ من قافلته مئتي عنز وعشرين تيساً ومئتي نعجة وعشرين كبشاً، وثلاثين ناقة مرضعة وأولادها، أربعين بقرة وعشرة ثيران، عشرين أتاناً وعشرة حمير. ووزعها على ثلاثة أقسام متساوية، ووجهها إلى أخيه ليستعطفه، كلٌ قسم على حدة وبفترات زمنية متساوية.

بقي يعقوب في المعسكر وحيداً. فقد أخذ عائلته وعبر بها مخاضة يبوق وعاد إلى المعسكر. وهناك حدث له حدث غريب: فقد حلم وكأنه يصارع الرب بعزيمة قوية ويقول له كأنه يخاطب نده وخصمه العادي: « لن أُطلعك، إن لم تباركني »، وظل يصارعه بقوة وعزيمة كبيرتين حتى باركه الرب كوريث شرعي لإسحق. وقد صمد الرب أمام يعقوب حتى الفجر، وعندما رأى أنه لن يغلبه ضرب حُقّ فخذه فخلعه من مكانه. وبعد أن أفلت من يدي يعقوب باركه وقال له: إن اسمه سيصبح منذ اليوم (إسرائيل) أي المتصارع مع الرب.

لقاء عيسو

أخيراً ظهر عيسو ومحاربوه. ورغم مباركة الرب لم يستطع يعقوب التخلص من جبنه وخوفه. فعندما شعر باقتراب أخيه قسم عائلته إلى ثلاث مجموعات: وضع في المقدمة الجاريتين وأولادهما ثم ليّه وخَلَفَها وختم المجموعات بمحبوبته راحيل ويوسف. وحين رأى أنه لم يعترض مجموعاته أحد قرر الاقتراب من أخيه، وأقترب منه وسجد أمامه ملامساً الأرض برأسه سبع مرات وتبين أن عيسو قد نسي الحقد القديم فعانق يعقوب بحنان وبكى من فرط سعادته. واستغرب عندما رأى ذلك العدد الكبير من النساء والأولاد، فسأل يعقوب من هؤلاء، منك؟ هم الأولاد الذين أنعم الله بهم على عبدك، أجاب يعقوب؛ اقتربت الجاريتان وسجدتا مع أولادهما أمام عيسو.

وعند ذلك فقط لاحظ عيسو القطعان الكبيرة التي ساقها يعقوب أمامه فسأله: ماذا منك هذا الجيش الذي صادفته؟ أجابه يعقوب أنه له أي: لعيسو؛ وعارض عيسو ذلك طويلاً ولكنه وافق أخيراً على قبول الهدايا تحت إصرار أخيه. دعا عيسو أخاه لزيارته في الجبال والمسير معه ولكن يعقوب لم يكن قد أمن جانب أخيه تماماً، فتصنع قبول الدعوة لزيارته. لكنه اعتذر عن المسير معه محتجاً بأن عليه أن يعتني بالقطيع، ولذلك فهو سيسير ببطء ويتوقف مرات عديدة للراحة وتطول مدة وقوفه في كل مرة. فودع يعقوب أخاه عيسو واعداً إياه أن يسير وراءه لزيارته في جبل سعيد.

أبناء يعقوب ينتقمون لأختهم

لم يكد عيسو يغيب عن بصر يعقوب حتى حوّل هذا وجهته، واتجه للطريق المقرّر سابقاً وعبر الأردن، وتوقف في شكيم وسمح له حاكمها حموّر بالإقامة في مدينته. فاشترى يعقوب قطعة أرض ضرب فيها خيامه وفكر بالبقاء هناك. غير أن ماحدث بعد ذلك غير مخططاته كلها. فقد اختطف شكيم ابن حمور الأكبر دينة ابنة ليّه ليعقوب، حين خرجت هذه للنزهة واضطجع معها وأذلها. ولم يكن شكيم نذلاً: فقد أحبّ قلبه دينة، وكان مستعداً للزواج منها. فقام مسرعاً مع والده إلى يعقوب ليطلب يدها منه وكان أولاد يعقوب آنذك

يعملون في الحقل. وعندما عادوا إلى البيت وعرفوا بفعلة شكيم انفجروا غيظاً لأن اختطاف الأخت، عنـد سكـان الصحـراء في ذلك الزمن كان مذلة لايمحوها إلا الدم. وهؤلاء كانوا عزيـزي النفس ومحبين للحـريـة، ولم يفهمـوا سكـان المدن الذين لم تعد مسائل الشرف ووحدة القبيلة تلعب دوراً كبيراً بالنسبة إليهم.

وعنـدمـا رأى الملك حمّور غضب أبناء يعقوب ارتبك، وأخذ يقنعهم: « شكيم ابني تعلقت نفسـه بابنتكم، أعطـوه إياها زوجة وصاهرونا تعطوننا بناتكم وتأخذون بناتنا وتكونون معنـا وتكـون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها ». وأضاف شكيم « دعوني أجد نعمة في أعينكم. فالذي تقولون لي أعطي. كثّروا علي جداً مهراً وعطية، فأعطي كما تقـولـون لي، وأعطـوني الفتـاة زوجـة ». كم كانت معـرفـة الملك حمـور ضعيفـة بعادات العبـرانيين، فقـد اقتـرح عليهم المصاهرة والتقارب وحتى الانصهار في شعب واحد، وهذا بالتحديد ما كان العبرانيون يخشونه أكثر من أي شيء آخر، فلحرصهم على نقاء دم القبيلة راحوا إلى حرّان بحثاً عن زوجات لهم، واحتقروا أبناءهم الذين تزوجوا من بنات أجنبيات.

وضـع أبنـاء يعقـوب شرطاً قاسياً أمام الملك حمّور: فقد طلبوا منه أن يختتن كل ذكر في المـدينـة بمن فيهم الملك وابنـه. وصـرح له أبناء يعقوب بأنهم لن يقبلوا بأي شيء غير الختـان، ووعـدوه بأن يأخـذوا من رعيتـه، ويعطـون رعيته إذا ماتم ذلك، وفي حالة الرفض فإنهم سيأخذون أختهم ويمضون.

وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما وافق الملك على شرطهم! لأن شكيم كما يبدو أحب دينـة حبـاً حقيقيـاً عظيمـاً. عدا ذلـك فإن أفكـاراً تجـارية ومنفعة شخصية كانت تراود عقل الملك آنـذاك، فقـد خاطب رعيته لإقناعها بالختان: « غير أنه بهذا فقط، يوافق القوم على السكن معنـا، لنصيـر شعبـاً واحـداً بختننـا كل ذكر، كما هم مختونون، ألا تكون مواشيهم ومقتناهم وكل بهائمهم لنا، نتفق فقط فيسكنوا معنا».

كان كل شيء يدل على أن المشكلة انتهت بسـلام، فقـد خُتن كل ذكـر في مدينـة شكيم وضـواحيهـا، لكن في اليـوم الثالث للختان حين كان المختونون متوجعين ولايقوون على الحـركـة. قام ابنـا يعقوب: شمعون ولاوي بقتل كل سكان شكيم وأخذا أختهما دينة وخـرجـا. وفي الـوقت نفسـه قام بقيـة أبنـاء يعقـوب بنهب المدينة وأخذوا أسرى من النساء والأولاد وكـل قطيـع المـدينة. ولم يكن يعقوب يعرف بنية أولاده. ولذلك حزن حزناً شديداً للمجـزرة الـدمـويـة ودعا إليه شمعون ولاوي وقال لهما: « كدرتماني بتكريهكما إياي عند

سكان الأرض الكنعانيين والفريزيين، وأنا نفر قليل، فيجتمعون علي ويضربونني فأبيد أنا وبيتي».

يعقوب في بيت إيل وممرا

صار على يعقوب أن يهرب من شكيم بسرعة قبل أن تنتقم منه الشعوب المجاورة بسبب المجزرة التي ارتكبها أولاده واتاه الرب ليلاً، وقال له: « قم اصعد إلى بيت إيل، وأقم هناك، واصنع هناك مذبحاً للرب الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك ». وفي اليوم التالي جمع يعقوب كل قبيلته، وطلب منها التطهر وترك عبادة الآلهة الغريبة « اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم، ولنقم ونصعد إلى بيت إيل. فاصنع هناك مذبحاً لله الذي استجاب لي في يوم ضيقتي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه». فأعطو يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم والأقراط التي في آذانهم، فطمرها يعقوب تحت البطمة التي عند شكيم .

وعندما بدأ يعقوب المسير وقع خوف الله على المدن التي حولهم، فلم يتعقبوا بني يعقوب. وحين وصل إلى بيت إيل بنى مذبحاً ودعا المكان بيت إيل. لأنه هناك ظهر له الرب حين هرب من وجه أخيه، وظهر الرب من جديد ليعقوب، وأكد له مرة أخرى اسمه الجديد ـ إسرائيل ـ وقال له: « أنا الله القدير أثمّر وأكثر، أمة وجماعة أمم تكون منك، وملوك سيخرجون من صلبك والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك، أعطي الارض ».

وعندما غادروا بيت إيل ووصلوا أفراته (بيت لحم لاحقاً) ولدت راحيل وتعسرت ولادتها وسمت ولدها قبل أن تموت بن أوني (ابن العذاب)، وأما أبوه فدعاه بنيامين أي ابن اليد اليمنى. وكان هذا الطفل الثاني عشر الذي فرح به يعقوب.

لكن حياة يعقوب في أرض كنعان لم يكتب لها الاستقرار، على مايبدو فها هو يرحل، وينصب خيمته في مجدل عَدَر وحدث هناك أن راؤ بين ابنه من ليّه اضطجع مع بلهة سرية ابيه فما كان من يعقوب بعد سماعه ذلك، إلاّ أن رحل إلى ممرا حيث كان إسحق العجوز ينتظره بفارغ الصبر، وفي ممرا عانق الأب ابنه، ومات وكان عمره مائة وثمانين سنة. ودفنه عيسو ويعقوب ابناه في مغارة المكفيلة (مقبرة العائلة) بقرب إبراهيم وسارة.

الحقيقة والخرافة فيما يخص البطاركة

نحن نعرف إذن، أن نص العهد القديم الذي نتناوله اليوم، قد ظهر في وقت متأخر نسبياً، بعد عودة العبرانيين من الأسر البابلي، أي بين القرنين السادس والرابع ق. م، ونعرف أيضاً أن الكهنة هم من ألّف آخر مخطوطة للعهد القديم. ولم يكن هدفهم من ذلك كتابة تاريخ شعبهم بل وعظه وتعليمه. فليس التاريخ بالنسبة لأولئك الكهنة إلا سلاحاً استعمله الرب لإظهار سلطته، وإرادته للعقاب والثواب، وانطلاقاً من تصوراتهم الدينية والوعظية فقد حرّفوا تراثهم التاريخي التقليدي، حذفوا منه كل مالم يعجبهم ويخدم مصالحهم، وأضافوا إليه خزعبلاتهم الخاصة مركزين على بعض الأفكار الدينية. فأعطوا أبطال العهد القديم (الذين يخضعون حسب قناعتهم، للقوانين الإلهية) صفة ايجابية وأولئك الذين خرقوا القوانين لسبب أو لآخر صفة المذنبين الذين نالوا جزاء ذنوبهم.

ولامجال للشك أيضاً، في أن الكهنة لم يكونوا مؤلفين مثاليين، بل كانوا مجرد مصنفين، ومحررين للنصوص الأعرق قدماً. وقد أظهر التحليل الدقيق للعهد القديم، ثلاث طبقات بارزة في نصوصه. فأقدم جزء من التوراة مكتوب في القرن التاسع قبل الميلاد، ويتميز هذا القسم بأن مؤلفيه المجهولين قد استعملوا للتعبير عن الرب كلمة (إله) وفي نفس الوقت عُبِّر عن الرب في النصوص المتأخرة التي ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد بكلمة (يهوه)، وجُمع القسمان خلال القرن السابع قبل الميلاد واختلط بعضهما ببعض فصارت تسميتا إله ويهوه تتعاقبان في النصوص[١٦]. وفي فترات لاحقة أعيد نسخ

النصوص المجمعة، وأعيدت صياغتها مرات عديدة، وقد استخدم الكهنة النموذج النهائي للنصوص الذي دخلته هذه الأساطير على أنه نص العهد القديم الديني.

وقد قدم العالم الالماني يوليوس ولهاوزن الكثير في مجال التحليل النقدي لكتاب العهد القديم، وفي مجال ايجاد التسلسل التاريخي لبعض أجزائه. فمن خلال دراسته الدقيقة لنص كتاب العهد القديم توصل إلى أن تاريخ الشعب لم يكتب خلال الأحداث التي يتحدث عنها أو بعدها مباشرة بل بعد زمن طويل من وقوعها. إذن فالأساطير عن البطاركة، عن موسى وحتى عن القضاة ظهرت منذ وقت غير بعيد نسبياً عنا. ويجدر بالذكر أن مدرسة ولهاوزن وقد تمتعت بشهرة كبيرة خلال ثلاثين عاماً ومازال لها أنصارها حتى الآن. غير أن العلم يسير دائماً إلى الأمام. والمكتشفات الأثرية العظيمة تخالف الكثير من نتائج العالم الألماني: فالكتابات البابلية الضخمة المكتشفة في عدة مدن كنينوى مثلاً والحفريات في المدن الفلسطينية المذكورة في أساطير العهد القديم (عن البطاركة)، ومقارنة هذه الاكتشافات مع نصوص العهد القديم. كل هذا يثبت أن الإرث التاريخي الذي استخدمه كهنة القرن السادس قبل الميلاد أكبر عمراً بكثير مما تصوره ولهاوزن. فاليهود تناقلوا ذلك الإرث التاريخي من فم لفم ومن جيل لجيل. وبفضل الصبغة الشعبية لتناقل ماجاء به العهد القديم، امتلأ هذا بالكثير من الأساطير والتقاليد والخرافات والأقاصيص. مما صعب عملية تمييز الحقيقة عن الخزعبلات. ولقد غير الكهنة المصنفون أقاويل العهد القديم بما يناسب قناعتهم الدينية دون أن يشيروا إلى ذلك؛ لكنهم، بالرغم من ذلك، استخدموا، كأساس لمواعظهم، الأقاويل القديمة، التي تعكس الخيال الغني للشعب، من هواجسه وطباعه. وبسبب الإهمال لم يحذف الكهنة من النصوص جميع الحقائق التي تدل على قدم هذه النصوص. ففي سفر التكوين مثلاً، حافظت على نفسها بقايا الإشراك وعبادة الرقي، وفي قصص البطاركة كثيراً، مانصادف عادات وأساطير مابين النهرين. ولقد عرفنا بواسطة الألواح المسمارية، التي وجدت في حفريات نينوى وأوغاريت أن قصص العهد القديم عن آدم وحواء وبرج بابل والطوفان، يعود أصلها بشكل أو بآخر إلى الأساطير السومرية. وأن بعض العادات والتقاليد المذكورة في العهد القديم كانت منتشرة عند شعوب مابين النهرين وقد انعكست بشكل جزئي على قوانين حمورابي. وباختصار نستطيع القول إن بعض قصص العهد القديم يعود أصلها إلى حقب تاريخية قديمة، وكان الاعتقاد السائد عند القدماء بأن الأساطير الشعبية تواردت من جيل لجيل، بطريقة شفهية

فقط، غير أن الإكتشاف الذي حققه الأثري الانكليزي فليندس بيتري عام ١٩٠٥ م، أوجد فرضية جديدة لاتنفي ان يكون كاتبو العهد القديم قد عرفوا نوعاً من الكتابة، فعلى جبل سيناء، وفي منجم للنحاس وجد بيتري نصاً من الحروف منقوشاً على صخرة يعود للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، ولم تُفك رموز كتابته بشكل نهائي حتى الآن، ولكن اتضح أن اللغة التي كتب بها النص تحوي اثنتين وثلاثين إشارة وأن لهجتها سامية الأصل. ويعتقد أن تلك الكتابة قد نقشت بأيدي العبيد الإسرائيليين الذين أرسلهم المصريون للعمل في المنجم. وهكذا يبدو محتملاً أن يكون سكان أرض كنعان قد بدأوا بكتابة وثائقهم في الألف الثاني قبل الميلاد. يجب أن نذكر أن فينيقية التي ملكت حدوداً مع أرض كنعان كانت موطن الأحرف الكتابية. فقد وجدت بين وثائق القرن الرابع عشر ق. م المكتشفة في تل العمارنة. مراسلات كبيرة بين أرض كنعان ومصر. وتعطي كل هذه الحقائق أساساً للافتراض بأن الإسرائيليين قد عرفوا الكتابة قبل عهد موسى أو في عهده على أسوأ الاحتمالات.

لماذا، مادام الأمر كذلك، تفتقر المكتشفات الفلسطينية إلى مصادر الكتابة؟ ففي مصر ومابين النهرين وُجدت محفوظات هائلة الحجم، تصف بدقة تاريخ تلك الدول، في الوقت الذي لم تكتشف فيه في فلسطين سوى كمية ضئيلة من الوثائق المكتوبة؟ الجواب بسيط، في فلسطين: كان الناس يكتبون بالحبر على ألواح غضارية رقيقة. أما فيما بين النهرين، فقد كانوا يحفرون كتاباتهم على ألواح غضارية سميكة مشوية. ولقد تفتتت الألواح الغضارية الرقيقة، بسبب رطوبة المناخ في فلسطين، ومابقي منها انمحى حبره، لدرجة يستحيل معها قراءة النص المكتوب. وجد الأثريون في فلسطين عام ١٩٦٠ م بعض الألواح بحالة ممتازة، ومن بينها رسالة من القرن السابع قبل الميلاد، وفيها يشكو أحد الفلاحين إلى حاكم المدينة جابي الضرائب الذي خلّصه رداءه عوضاً عن ضريبة غير مدفوعة. ولهذه الرسالة أهمية كبيرة إذ انها تثبت أن الكتابة قد استخدمت في فلسطين، تلك الايام في الأمور العادية.

هذا ويدل على قدم قصص العهد القديم مضمونها نفسه أيضاً. فنمط حياة أبرام في أرض كنعان هو النمط المميز لحياة القبائل الرعوية الرحل، ففي أوقات معينة من السنة ينصب البطريرك (الشيخ) معسكره عند جدران إحدى المدن، يبادل بضائعه كالحليب والصوف والجلد ببضائع من انتاج المدينة، والمعسكر عبارة عن خيم مضروبة على شكل

دائـرة وعنـد الخيم تجلس النسـاء يغـزلن الصـوف، وينشـدن أغـانيهن وهي أغـاني مابين النهـرين، وتنصب خيمـة الشيـخ عادة في وسـط الـدائـرة . وتعتبر مكان اجتماع المشيخة . وهنـاك كان أبـرام يصـدر أوامـره للعبيـد والرعاة يقضي بين الناس ويستقبل الضيوف . كانت تلك الأوقـات عصبيـة فعنـد اليهـود الأقدمين كان دارجاً قانون العين بالعين والسن بالسن . وعلى الأغلب لم تشكـل الحـوادث الـدمـويـة المـرتبطـة باختطـاف دينـة استثناء من ذلك القـانـون، على الرغم من كون استنكار يعقوب للعملية يدل على أن ذلك القانون، كان قد فقد نوعاً من تأثيره وقيمته في تلك الأيام .

ونـلاحـظ أن العـلاقـات التي سادت في قبيلة أبـرام هي علاقـات مشيخية بطريركية حقيقيـة، ولكن في تلك العـلاقـات بدأت تظهـر إلى الـوجود بوضوح تام الظروف الطبقية، فأبرام ـ مالك عبيد ورجل غني، تفصل بينه وبين أفراد الرعية هوّة، حاول جاهداً تعميقها وتكبيرها بإطـلاق ألقـاب أميـريـة على نفسـه، وعلى زوجتـه، ونعتبر نحن شهوداً أيضاً على الانتقال المتدرج للقبيلة اليهودية القديمة إلى حياة الاستقرار والاستيطان، فأبرام زعيم نمطي للقبيلة البـدويـة يعيش في جو من البسـاطـة المشيخيـة البطـريـركيـة . فبيـده نَحَـر العجل لإطعام المسـافـرين الثـلاثة الغامضين، وبيده قدم لهـم الحليب شراباً . بينما يحاول إسحق العمل بالـزراعـة، ولـم يعـد يشـرب الحليب بل الخمر . أما يعقوب فإنه يعتبر بحسناته وسيئاته أحد معطيات حياة الاستقرار التي كانت شبه مدنية .

وتتطـابق عمليـة التطـور هذه التي تُبْـرِزُ للعيـان قصص العهد القديم، تطابقاً تاماً مع مايعـرفـه العلم عن أنمـاط الحيـاة الاجتماعية للمجتمعات البدائية؛ ويمكن الاستنتاج من قصص العهد القديم أن أبرام هو الذي بدأ يبشر بالوحدانية (مونوتييزم) أي : الاعتقاد بوجود إله واحد فقط، وبفضل الدراسة الدقيقة للعهد القديم، استطعنا تحديد الدرجة التي تعتبر هذه الحقيقة (حقيقة التبشير بالوحدانية) نتيجة لتهذيب وتحريف الكهنة للعهد القديم في القرن السادس ق . م . فمن المعروف أنه في أوقات متأخرة جداً، عاد العبرانيون الى عبادة آلهـة كنعـانيـة وأن الأنبيـاء قاتلوهم ولاموهم لهذا السبب كثيراً . والغالب أن ماكان يسود في عهد البطاركة ليس المونوتييزم الصافي بل الجينوتييزم أي الاعتقاد بأنه بالرغم من وجود آلهة عديدة فإنه يجب عبادة واحد منهم فقط، هو حامي القبيلة . فإله إبراهيم إذن فقد شموليته : إنه إله عادي للقبيلة يعتني فقط بحياة ومصالح الشعب الذي اختاره .

وهـذا الإلـه فطـري وبدائي جداً . فهو يتصرف كواحد من سواد الشعب . يتدخل في

الأمور اليومية، يتجادل مع إبراهيم ويوافقه على حيله وخِدَعه المشكوك فيها من الناحية الاخلاقية. ويعقوب يصارع الرب طيلة الليل ويرغمه على منحه أحقية الولد البكر التي أخذت بالحيلة والنفاق من عيسو. بعد عودة اليهود من الأسر البابلي، وفي الوقت الذي صيغت فيه الوحدانية (مونوتييزم) بشكل نهائي تحت تأثير الأنبياء، كانت تلك النظرية الدينية قد صارت خطأ وتزويراً لتسلسل تاريخ الحوادث ولا يمكن تفسير وجود تلك التصورات الساذجة البدائية، في العهد القديم إلا بكون الكهنة قد أضافوها إلى النصوص تماماً كما هي دون أي تغيير وذلك مع الأساطير والقصص الشعبية التي اعتمدوا عليها في عملهم.

ولشد مايبهر قاريء العهد القديم صفات البطاركة تلك. فلا يشبه أي نموذج منهم النماذج الأخرى. وكل واحد منهم كان واقعياً بشكل مدهش يختلف بعضهم عن البعض الآخر إختلافاً واضحاً كما هو الحال بالنسبة لإبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب، ونلاحظ ذلك الاختلاف أيضاً في أنوثة نسائهم كسارة ورفقة وراحيل وهاجر التعيسة، وعيسو المغرم بالصيد العاشق للحرية المطلقة المحتقر لأعمال الزراعة. عيسو سريع الغضب، المتهيج ومع ذلك فهو طيب القلب وغير حقود. والمهم أن العهد القديم يتحدث عنه بإعجاب ظاهر وحتى إسحق الذي سبب له عيسو على مايبدو الكثير من الإشكالات، كان يشعر نحوه بالمحبة والعطف ويبدو أن حنين العبرانيين اللاشعوري إلى حياة أجدادهم اللطيفة - حياة الرعاة الرحل الأحرار - قد انعكس بشكل كبير على نموذج عيسو المذكور في العهد القديم (التوراة) إن كل ماروي في العهد القديم عن البطاركة (الشيوخ) هام جداً مليء بالحوادث الدرامية والمغامرات. وفي كل قصة يبرز أمامنا إنسان حي قريب منا ومفهوم لدينا بايجابياته وسلبياته ومشكلاته وبفضل هذا يسمح لنا كتاب العهد القديم، ذلك الكتاب الشبيه بجزء من حياة الماضي الحية قد وصل إلينا سالماً يسمح لنا بالنظر الى عمق وداخل كل شيء إنساني أزلي إلى حد ما. تتمتع قصص البطاركة بكل خصائص الأساطير الشعبية وتعكس تفكير وإحساس القبائل البدائية. وليس من الصعب تصور رعاة تلك الأيام جالسين حول موقد النار يحدث بعضهم البعض، ويروون قصصاً ممتعة عن الاجداد كيف خدع ابراهيم فرعون مصر وكيف التقى خادم إسحق برفقة عند البئر، وكيف سرق يعقوب الخبيث البكورية من أخيه ومن ثم أخذ كل ثروة لابان تقريباً، وكيف تبارت ليّه وراحيل بولادة الأولاد.

كانت تلك أحاديث أناس بدائيين سذّج ينبهرون من أعمال ومغامرات أبطالهم الشعبيين في القصص يشعرون بعمق بالجمال الشعري لقصصهم ولكنهم كثيراً ماضاعوا في متاهات التقدير الأخلاقي في تصرفات أجدادهم. ولقد كانت حياة الترحل صعبة ومليئة بالمخاطر لذا توجب على كل من يود البقاء على السطح في تلك الحقبة الزمنية البربرية الصعبة أن ينسى أو يتناسى عذاب الضمير.

أعطى الرعاة الرحل في قصصهم كل الحرية لخيالهم. فالبطاركة عندهم يتميزون بالعمر المديد وكثرة الإخصاب. فسارة رغم تقدمها بالسن تبهر الملوك بجمالها. وان الإله والملائكة يتدخلون في أتفه الأمور ويحلون مشكلات درامية لاحل لها. ولايخلو تدخلهم في بعض الأحيان من الطرافة. لنتذكر مثلاً المشاهد المؤثرة في الصحراء. حيث أقنع الملاك هاجر بالعودة إلى البيت أو المشهد الدرامي المؤثر حين أنقذها وابنها إسماعيل من الموت.

إنه لمن غير الممكن أبداً أن يكون كهنة القرن السادس ق . م، هم الذين اختلقوا كل تلك التفاصيل الدقيقة الواصفة لحياة الصور السالفة، ذلك لأنهم ـ أي الكهنة ـ عاشوا في ظروف اجتماعية ومعيشية تختلف عن ظروف العصور القديمة الموصوفة. إن مثل ذلك العمل صعب حتى على العباقرة.

لكن الحقيقة أن الكهنة غيّروا شكل النصوص، وأدخلوا عليها بعض السخافات ولكن عددها ليس بالكبير. فإذا كان الكهنة يؤكدون مثلاً أن البطاركة كانوا يملكون جمالاً، فذلك لأنهم كانوا يصادفون الجمال في زمنهم في كل مكان، وقد أثبت منذ مدة غير بعيدة أن الجمل ظهر إلى الوجود كحيوان أليف قبل القرن السابع ق . م، أي بعد عدة قرون من ظهور البطاركة، ويبدو أن الكهنة كانوا يملكون أقاصيص شعبية قديمة جداً عن البطاركة. وليس بعيداً أن تكون تلك القصص قد وصلتهم مكتوبة، وقد ضموا تلك القصص إلى مؤلفاتهم دون تغيير تقريباً، كما لو أنهم يعيدون كتابة نص تقليدي. إن هذا الكلام لايعني أبداً أن تكون افتراضات العلماء عن عدم وجود البطاركة أصلاً عديمة الأساس.

فبالطبع كان للعبرانيين القدماء زعماؤهم. لكن من غير المعروف إذا كان بالإمكان مطابقة أولئك الزعماء مع أبطال قصص العهد القديم مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب أم لا. فالاكتشافات الأثرية الجديدة لا تعطي أية ايضاحات حول هذا الموضوع بل وتزيد من تعقيداته. تعالوا نحاول التكلم بإختصار عما توصل إليه العلم في هذا المجال:

وُجِـد في تل العمـارنـة (في مصـر) ثلاثمائة لوح مسماري من القرن الخامس عشر ق . م ، تمثل مراسلات الحكام والأمراء السوريين والفلسطينيين مع فرعوني مصر امنحوتب الثالث وأخناتون . فالأمير الفلسطيني يخبر في إحدى رسائله عن ظهور بعض القبائل القادمة من مابين النهرين في بلده . ويعتقد الكثيرون من باحثي التوراة أن القبائل المشار إليها في تلك الرسائل ، هي قبائل عبرانية .

هذا ونحن مدينـون للأثـري الفـرنسي أنـدريه بارو باكتشاف مثير جداً ، ففي المنطقة الـواقعـة بين المـوصـل ودمشق يقـع تل يسمى بالعربية تل الحريري ، وجد فيه بعض عمال الحفـريـات تمثـالاً غريب الشكـل يعـود إلى حضـارة مجهـولـة . أسرع بارو بعد سماعه بذلك التمثــال إلى تل الحــريــري ويــدأ عام ١٩٣٤ م حفــريـات دوريـة . وفي الأيـام الأولى للحفريات ، وجد تمثال رجل ملتحٍ يتخذ وضعية لِيَدَيْه تشبه وضعية المصلي . وعند أساس التمثال مكتوب « أنا لامي ـ ماري ملك دولة ماري » .

أعطى ذلـك التمثـال انطبـاعـاً رائعـاً ، فقـد كان معـروفـاً أن دولة ماري قد قامت في التـاريـخ ، ولكن لم يكن أحـد يعرف أين قامت هذه الدولة ؛ ففي القرن السابع عشر ق . م احتلت القـوات البـابليـة البـلاد ، ومسحت عاصمـة ماري من الـوجود ولم يبق أي أثر لها . أكـدت أبحـاث بارو الـلاحقـة وجـود أنقـاض عاصمـة ماري تحت التل . وهناك وجد معبد وبيـوت سكنيـة وأسـوار وبـرج وأهم من كل هذا قصـر الملك المبني في الألف الثـالثة قبل الميـلاد ، وقـد تألف القصـر من مائتين وستين غرفـة وقـاعة وكان فيه مطابخ وحمامات وقاعة للعرش ومكان للصلاة على شرف الآلهة عشتار ، وفي كل مكان كانت تظهر بقايا حريق وآثار تدمير مقصود هي لاشك أدلة على وقوع الغزو البابلي . ولكن الالواح الملكية البالغ عددها ثلاثـاً وثـلاثين ألفـاً وستمائة لوح مكتوب كانت أهم المكتشفات وعُرف منها أن سكان ماري كانوا من الآموريين وأن مدينة حرّان كانت تتبع لها تماماً ، وذلك في الوقت الذي قدمت فيه عائلة تارح إلى حرّان .

وحين بدأ العلمـاء بفـك رموز مخطوطات وتقارير ومراسلات دولة ماري ، وجدوا شيئاً رائعـاً : إن أسمـاء المدن المذكورة في تلك الوثائق : ناحور ، وتاريحي ، وساروحي وفالكي تشبـه شبهـاً كبيـراً أسمـاء أقـربـاء إبراهيم : ناحور ، وتارح ، وسروح وفالك ، وعدا ذلك فإن الحـديث يدور في تلك الـوثـائق عن قبائل أيام ورام وإياكوب وإل ، وحتى عن قبيلة بنيامين التي ظهـرت على الحـدود وضـايقت سكـان ماري . مما لاشـك فيه أن أسماء إبراهيم وحفيده

يعقـوب وأصغـر أحفـاده بنيامين مرتبطة ارتباطاً مباشراً مع تسميات تلك القبائل ونذكر هنا أن اسم حمي ناحـور حسب التـوراة هو حرّان وهكـذا نرى تطـابقـاً تامـاً بين أسماء الأشخاص ومسميات المدن. وحسب تلك الاكتشافات فإن النتيجة التالية تطرح نفسها وهي أن أسماء البطاركة هي في الحقيقة تسميات لقبائل أو مدن بنتها أو احتلتها هذه القبائل. وهكذا يكون شخص إبـراهيم مثـلاً تجسيـداً أسطـوريـاً لإحدى القبائل التي قدمت إلى أرض كنعان من منطقة مابين النهرين. ففي شخص إبراهيم جسّدت الذاكرة الشعبية تاريخ القبيلة المهاجرة الى بلد جديد.

لقد أثبت التحليل اللغوي لألواح ماري المسمارية أن اليهود يشبهون كثيراً بمنشئهم الآمـوريين، بل ويعتبـرون فرعـاً من سلالتهم. ففي العهـود القـديمـة اتجهت من الخليـج العربي نحو الشمال موجة كبيرة من القبائل السامية المهاجرة التي عرفت باسم الآموريين، واتجـه سيلهـا العـرم باتجـاه أعلى الفرات مُزيحاً من طريقه السومريين محتلاً وشاغلاً أرض مابين النهـرين كلهـا تقريباً. وعلى أنقاض الدول الصغيرة التي أخضعها الآموريون، أقاموا دولهم الخـاصـة الكثيـرة التي وحـدهـا فيمـا بعد في دولة كبيرة واحدة حمورابي أعظم ملك آمـوري. لقـد شارك اليهـود ولاشـك في حركة استيطان الآموريين تلك، ويثبت هذا القول كون اليهود قد سكنوا أور في البداية ثم رحلوا إلى حرّان المدينة كما أظهرت ألواح ماري.

وفي عصر لاحق جاءت إلى مابين النهرين من الشمال قبائل ذات أصل غير سامي، فمـا كان من القبـائـل السـامية إلا أن تنزح نحو الجنوب الغربي أمام زحف تلك القبائل غير السـاميـة. وفي الـزمن الـذي حدثت فيـه تلك الهجـرة كان الآراميـون يستـوطنون سورية، ويستـوطن المـونيـون والآدميـون وآخـرون غرب أرض كنعـان وجنـوبهـا. وبعـد مدة قدمت إلى هنـاك قبيلة الإبـراهيميين. أضف إلى ذلـك أنـه فُهم من العهد القديم أن سبب رحيل تلك القبيلة عن أرضهـا السـابقـة يكمن في بعض الإشكالات الدينية. وقد بقيت ذكريات مبهمة عن تلك الأحـداث في ذاكـرة الأجيـال الـلاحقـة وأدخـل الكهنة، بعد قرون عديدة، تلك الذكريات في كتاب العهد القديم (التوراة).

ويمكننـا اليـوم، بفضـل الاكتشـافات الأثرية تمييز بعض الوقائع في قصص إبراهيم وإسحق ويعقوب التي تدل دلالة قوية على اتصالها المباشر بالتقاليد التي كانت منتشرة فيما بين النهرين وبالعقائد الدينية الأكثر قدماً. ويجب إطالة الوقوف عند بعضها للتأكد من مقدار صحـة الفـرضيـة التي تقول بقدم تلك الأساطير الشعبية، فهاهو مثلاً السؤ ال المحرج حول

ضم سارة إلى الحريم الملكي. يبرز إلى الأذهان، ويجب ألا ننسى هنا أن ذلك حدث في بداية الألف الثانية ق. م أي في العصر الذي كان فيه النظام الاجتماعي عند القبائل البدوية الرحل بدائياً جداً، فالمرأة كانت تعتبر آنذاك ملكاً للرجل الذي كان بإمكانه التصرف بها حسبما يشاء حتى أن الإله يهوه بعد عدة قرون من ذلك الوقت، هدد داود بأن يعاقبه بأخذ زوجته منه وإعطائها لجاره. ولذا ليس غريباً أن تطيع ساره زوجها طاعة عمياء.

فعند سكان مابين النهرين القدامى والقبائل العبرانية، اعتُبرت علاقة المرأة المتزوجة برجل غير زوجها جريمة، ليس لأن الرجل لم يكن زوجها فقط، بل لأن المرأة ملك لرجل آخر. وكان هذا الأمر يشمل أيضاً الخطيبة إذا كان الخطيب قد دفع مهرها. وفي الوقت نفسه لم تكن العلاقة مع فتاة غير مدفوع مهرها جريمة. ولم يكن علىَ الرجل في مثل هذه الحالة سوى دفع تعويض لأهل الفتاة.

وقد كانت وظيفة المرأة الأساسية إنجاب الأطفال ومتابعة نسل زوجها، وكان الهدف الوحيد من احترامها لزوجها وإخلاصها له هو تأمين شرعية النسل والوراثة. وبناء على تلك المفاهيم لم يكن لعذرية الفتاة أية أهمية تذكر. وبهذه العادة وهذا التقليد يمكن تفسير استعداد لوط لمنح بناته لتلهون مع الجموع السدومية من أجل إنقاذ ضيوفه. فبناته لم يكن متزوجات ولا أمهات للنسل، وهذا يعني أن خسارتهن لن تكون كبيرة إذا جامعتهن جموع سدوم. وهذا لايعني بالطبع أن العبرانيين كانوا يحبذون مثل تلك الأفعال. فقد انتقم ولدا يعقوب انتقاماً فظيعاً من خاطفي أختهما. ونقول ببساطة ان حادثة لوط ليست سوى أمثولة أو أقصوصة ذات مغزى تناقلتها الأجيال. فالناس على مايبدو أرادوا من تلك القصة المبالغ فيها بيان أهمية حسن الضيافة عند لوط. وعدا ذلك فهذا الأمر يولد في الذهن انطباعاً مفاده أن كتاب العهد القديم ينقل في هذه الحالة دسيسة مغرضة كانت منتشرة عند الناس. فلوط يعتبر أن العمونيين والمؤ ابيين ينظر إليهم العبرانيون بعداوة واحتقار.

لقد ذكرت التقاليد المتعلقة بالوضع الاجتماعي للمرأة في قانون حمورابي فحسب، ذلك القانون أعتبر الفجور شيئاً مسموحاً به إذا كان الزوج قد وافق عليه لسبب أو لآخر، وبالتحديد إذا كان سبب موافقته هو إنقاذ حياته. لذا نجد أن أبرام قدم زوجته مرتين لتكون في حريم ملوك غرباء زاعماً بذلك أنها أخته. لكن هذا لايعبّر مطلقاً عن الرأي الذي كان سائداً حول الانحلال الأخلاقي للعبرانيين القدماء. نحن نستطيع الحكم على علاقة القدماء بمثل تلك الأفعال لكون الإله راضياً تماماً عن خدعة أبرام. فالإله لا يعاقبه هو بل

يعاقب الملوك رغم أنهم كانوا مخدوعين بدورهم. فعلى ما يبدو كان أولئك الملوك مذنبين لأنهم اتبعوا في سياستهم طرق الاضطهاد والعنف، ولذلك كانت عند أبرام كل الأسباب الداعية للحذر منهم. ويحسن أن نذكر أن عقاب الملوك يحمل معنى عملياً. فقد كان من اللازم ارغامهم على إعادة سارة التي خصصت لتصبح أماً لأجيال الإسرائيليين وبما أن الحديث يدور حول سارة، فالأمر يستحق التوقف عند جمالها. فقد كان عمرها خمساً وستين سنة عندما ضمها الفرعون إلى حريمه، كما أحدثت أيضاً ضجة بجمالها في مملكة أبيمالك وهي في الثمانين من العمر؛ وعلينا أن نذكر أن أبطال العهد القديم، كانوا يتمتعون بحياة مديدة وقدرة على الإنجاب أكبر من الحالات المعتادة. فتارح مات عن عمر مائتين وخمس سنين. وعاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة أيضاً. ولذلك يُصدّق أتباع التوراة تماماً أن تكون سارة زوجة البطريرك إبراهيم قد حافظت على جمالها وجاذبيتها طوال ذلك الوقت لقد عاصرت أسطورة جمال سارة كل تاريخ الدولة الإسرائيلية. ففي عام ١٩٤٧ م، وجدت في المقابر الجبلية على ضفاف البحر الميت، مخطوطات فيها نصوص من العهد القديم تعود بأصلها إلى مابين القرنين الثالث والأول ق . م، وتخص فئة من اليهود كان مركزها صومعة قمران المبنية على الغالب في القرن الثاني ق . م، وفي إحدى تلك المخطوطات كتابة آرامية، هي عبارة عن تعليق على سفر التكوين، ويتحدث خاصة عن جمال سارة واذا ماتُرْجم ذلك التعليق، فيكون على الصورة التالية: ياللروعة! كم هما حمراوان خداها. كم هما ساحرتان عيناها، كم هو ظريف أنفها. وكم هو فاتن اشعاع وجهها آه من صدرها الخلاب ومن جسدها الناصع البياض. كم هو ممتع النظر الى كتفيها ويديها الكاملتي الجمال. كم هي رقيقة وناعمة أصابعها. وكم هما فاتنان فخذاها».

أما بالنسبة لقصة هاجر المأساوية، فإنها تجد تفسيراً لها في عادات بلاد مابين النهرين المثبتة في قانون حمورابي. فذلك القانون حدد بوضوح تام مكان الأَمَة التي تطارح سيدها الفراش في الأسرة. فعلى مثل تلك الأمة أن تضع مولودها على ركبتي زوجة سيدها العاقر. وتمثل واقعة الولادة في هذه الحالة وعلى تلك الشاكلة اعترافاً شكلياً بشرعية المولود وأحقيته في أن يكون الولد البكر والوريث الرئيسي. لقد وجدت مثل هذه الواقعة انعكاساتها في بنات لابان المذكورة في العهد القديم.

واكتشف في عدة مخطوطات أُخرجت من بين أنقاض بيت أحد الأغنياء في نوزو عقد زواج لعائلة تيحابتيلي، حوالي ١٥٠٠ ق . م، ويتضمن هذا العقد المقطع الآتي:

« لايحق للرجل الزواج من امرأة ثانية إذا ماأنجبت له زوجته الأولى أولاداً. أما إذا كانت زوجته عاقراً فإن عليها أن تختار له أمَةً، وأن تربي أولادها الناتجين من نكاح الزوج للأمَة وكما لو كانوا أولادها الحقيقيين».

لننتقل الآن إلى واحد من أغرب وأعقد الطقوس التي وضعها إبراهيم خلال ترحّله في أرض كنعان. لننتقل إلى طقس الختان إنه واحد من أقدم الطقوس التي اتبعتها القبائل البدائية، ومغزاه غير واضح لدينا حتى الآن، اننا نصادف هذا الطقس في كل الأزمان وفي كل مكان، ويفسره هيرودوت كعملية يقصد منها النظافة الشخصية. أما العلماء المعاصرون فيرجحون أنه ليس إلا ضرباً من ضروب السحر والخيال، ويرمز إلى عملية تقديم القرابين للآلهة. لقد عرف الختان عند بعض القبائل الهندية قبل اكتشاف أمريكا. وكذلك عند شعوب استراليا وأفريقيا؛ لكن مايهمنا هو أن الكهنة المصريين كانوا من أتباع عملية الختان. وعلى الأغلب أن يكون العبرانيون، قد عرفوا هذا الطقس الديني خلال وجودهم القصير في مصر ومن ثم اعتنقوه تحت تأثير رمزيته الدينية واعتبروه رمزاً ظاهرياً للاتحاد مع الإله. يؤكد هيرودوت أن العبرانيين والأدوميين والعمونيين وغيرهم قد أخذوا عادة الختان عن المصريين خاصة وأن هذه العادة لم تكن معروفة في منطقة مابين النهرين، المنطقة التي أتت منها القبائل المذكورة، إلى أرض كنعان وعدا ذلك يؤكد المؤرخ الإغريقي أيضاً أن المصريين أخذوا تلك العادة من الأحباش. ومن المحتمل أيضاً أن يكون العرب قبل ظهور محمد (ص)، قد أخذوها أيضاً عن الأحباش، وأدخلوها في طقوسهم، وحيثما نشر العرب ديانتهم، أدخلوا معها هذه العادة رغم أن القرآن الكريم لم يأمر بالختان ولم يتطرق إلى ذكره مطلقاً.

إذا ما أخذنا بالرأي القائل ان الختان مأخوذ من المصريين، فإن حديث إبراهيم مع الرب، ومحاولاته إنقاذ السدوميين البريئين، يصطبغ بصبغة مابين النهرين ويرجع أصله إلى هناك. ففي قصة الطوفان السومرية تأتي الآلهة عشتار إلى الإله الأعلى المسؤول عن الطوفان، وتتهمه بالظلم بل وبالإجرام. فبقناعة عشتار لم يكن الإله يملك الحق في القضاء على البشرية إذا ماكان البريئون والأتقياء سيموتون مع الأشرار المذنبين. وتنهي عشتار خطبتها بالجملة الشهيرة: « ليُحاسب كل مذنب على ذنوبه »

يُستنكَر مبدأ العقوبة الجماعية والمحاسبة المشتركة في الأسطورة السومرية تلك، إن مشكلة شقاء وموت الناس الأنقياء البريئين، قد شغلت بال الأجيال منذ قديم الأزل. لماذا

يسمح الإله بشقاء الأبرار بينما ينعم الأشرار بحياتهم؟ إننا نجد محاولات في نصوص العهد القديم للإجابة عن هذا السؤال، وبالتحديد في قصة أيوب وغيرها، بحيث نرى عمق تأثير مابين النهرين على القبائل العبرية. يوم كانت هناك وذلك بالسلَّم الذي رآه يعقوب في منامه والملائكة تصعد وتهبط عليه. إن ذلك السُلّم يشبه بشكل هائل الأبراج أوبالأصح الأهرامات البرجية التي في أور وبابل ويشبهها بدرجاته الحجرية التي كان الكهنة يصعدون ويهبطون عليها. تزيل كلمات يعقوب بعد استيقاظه أي شك حول وجود هذا التأثير وذلك عندما قال « ماأرهب هذا المكان ماهذا إلا بيت الله وهذا باب السماء». فما كان لباب السماء هذا بعلاقته بالسلم أي معنى لولم نكن نعرف أن بابل تعني (باب الإله) وهكذا يتوضح الارتباط الهائل الذي لامجال للشك فيه بين سلم يعقوب وبرج بابل، وقد نصب يعقوب عموداً من الحجر وغطاه بالشيح ذلك كذكرى لحلمه. إن هذا العمل عادة سامية قديمة، وعبادة الحجارة أقدم عبادة عند القبائل البدائية. فالحجر الأسود في مكة المكرمة هو رمز وتمثال لديانة العرب القدماء أيام الشرك، وقد عرفت عبادة الحجارة عند الفينيقيين وفي أرض كنعان وفي فلسطين. فخلال الحفريات وُجد الكثير من تلك الأحجار، ففي مدينة حازر بالتحديد وجدوا سبعة أعمدة مقدسة منصوبة على تلة. وقد أعتقد الساميون أن الإله يعيش هناك فسموها بيت إيل أي (بيت الإله). وقد أطلق يعقوب تلك التسمية على المكان الذي رأى فيه السلم والملائكة في منامه. إن ذلك الحادث يؤكد دون أدنى شك أن عبادة الرُقّى والتماثيل القديمة كانت لاتزال طاغية في عهد يعقوب.

أما قصة إسحق وكبش الفداء، فقد حيّرت الباحثين طويلاً. إن ذلك الفصل القاتم من التوراة، حيث يعرض يهوه عبده المخلص لامتحان فظيع القساوة، لايتوافق أبداً مع كون الرب لطيفاً بعباده رحيماً لهم. غير أننا نعرف اليوم أن قصة إسحق ليست إلا آخر صدى لطقس من طقوس عبادة بربرية. وقد استطعنا من خلال الإكتشافات الأثرية الوصول إلى منشئه: ففي بلاد مابين النهرين وسورية وأرض كنعان، عُرف طقس قديم جداً يقوم على تقديم الأولاد البكر قرابين للآلهة. وخلال التنقيبات في حازر- مركز العبادات والطقوس الكنعانية الأم - وجُدت أوعية تحتوي على هياكل عظمية لاطفال بعمر ثمانية أيام قدموا قرابين للآلهة، كما كان الأولاد يُقدّمون قرابين للآلهة بمناسبة إعمار المعابد والمباني العامة. وكثيراً ماصودفت بقايا تلك القرابين مدفونة بالطوب في أساسات البيوت. وقصة إسحق مرتبطة أيضاً بأساطير مابين النهرين. ويدل هذا الارتباط الحديث عن الكبش الذي

علقت قرونه في الأشـواك. لقـد كان هذا على مايبـدو، رمـزاً من رمـوز العبـادة: فقد وجد الأثـري الانكليـزي فولي. عنـد الحفـريات في أور، تمثالاً لكبش علقت قرونه بالشوك، يبدو أن ذلـك التمثـال كان مقـدسـاً عند السومريين ويدل على هذا ليس فقط المكان الذي وجد فيه (وجـد في المقبـرة الملكيـة). بل وطـريقـة تصميمه. فالتمثال الخشبي مطلي بالذهب، وقرون الكبش وعروق الشوك مصنوعة من الحجارة الكريمة.

ويـرجـع أصـل القبـائـل التي قطنت أرض كنعان أيام إبراهيم إلى مجموعة الساميين الغربية بشكل رئيسي. ولغة تلك القبائل قريبة جداً من اللغة العبرية، ومعلوماتنا عن العقائد الـدينيـة لتلك القبـائل بقيت لوقت طويل بسيطة وضعيفة، وظل الوضع على حاله حتى فترة اكتشـاف الألـواح المسمارية في أوغاريت المدينة الفينيقية. فقد أعطتنا تلك الألواح مجالاً لتكـوين صورة واضحـة عن أسـاطيـر تلك القبـائل وطقوسها الدينية. كان الإله الأعلى عند الكنعـانيين هو الإلـه إيـل الـذي يدعى أحياناً بداغان وداغون ايضاً. وقد أعتبره أتباعه خالق الكـون، وصـوّروه على شكـل عجوز طويل اللحية. غير أن الإله الأكثر انتشاراً كان ـ بعل ـ إله العواصف والمطر وحامي المزارعين، ومن السحـ ر الطويل لعظماء الكنعانيين. يجب أن نذكـر آلهـة الحب عشتـار، التي كانت شعـائـر العبـادة المقـامـة على شرفهـا تحمـل طابع الحفلات الجنسية، وعدا ذلك فإن لكل مدينة كنعانية إلهاً حامياً خاصاً بها.

إن في ديـانـة الكنعـانيين الكثيـر من التشابه مع معتقدات البابليين. حتى إن لبعض الآلهـة الكنعـانيـة نظـائـر بابليـة بل وحتى أن أسمـاء تلك الآلهة متشابهة. ولاشك أن ديانة العبـرانيين الاشتـراكيـة البـدائية كانت قريبة جداً من الديانة الكنعانية. فالنصوص التوراتية تثبت أن العبرانيين كثيراً مااستعملوا كلمة «بعل» من أجل تحديد الإله. أما إيلوهيم الرب، فإنها تحمل نفس الجذر الذي يحمله رب الكنعانيين الأعلى إيل وابنه الذي كثيراً ما يُماثل ببعل، كان يسمى به وهذا متشابه مع اسم يهوه.

إن الكنعـانيين يقفـون على درجـة من سلم الحضارة أعلى بكثير من قبائل العبرانيين الرُحل فهم بالرغم من أنهم مارسوا طقس تقديم القرابين البشرية، فقد سكنوا المدن وكانوا صناعاً مهرة وعملوا بالزراعة. ولم يكن لرقيهم الحضاري والتقارب اللغوي والديني أن يترك تأثيراً على المهاجرين الجدد من الرعاة العبرانيين قاطني الخيام.

ويبدو أن إبراهيم حاول مقاومة ذلك التأثير، وقد انعكس موقفه ذاك في قصة إسحق. وكمـا هي العـادة في التوراة فإن ذلك الطقس العقائدي البربري قد تعرض لبعض التصعيد

وأصبح رمزاً لفكرة دينية عميقة. ففي تلك الحالة أراد مؤلفو النص التوراتي التأكيد على إطاعة إبراهيم العمياء للقدر الإلهي وكذلك على التحولات الهامة التي حصلت في تصورات قبيلته.

في سفر العدد تتعرض عملية تقديم الأطفال قرابين للآلهة إلى انتقاد شديد اللهجة، وتُعتبر واحدة من أسوأ جرائم الكنعانيين. وهكذا تعتبر حادثة إسحق نوعاً من الابتعاد عن الطقوس الدموية التي لم تكن قد فقدت تأثيرها في أرض كنعان آنذاك. بقيت مسألة الآلهة المحلية التي سرقتها راحيل لغزاً محلياً محيراً لزمن طويل، فقد أثار سبب سرقة راحيل للتماثيل المنزلية وسبب اهتمام لابان الشديد بها، فضول باحثي التوراة، وبقي الأمر على هذه الحالة إلى أن اكتشفت وصية في محفوظات الألواح المسمارية في نوزو. ففي تلك الوصية يترك الأب لولده البكر تمثال إله البيت والحصة الرئيسية من الميراث. يؤكد الأب في وصيته على أنه من حق الأولاد الآخرين دخول بيت أخيهم الأكبر ـ الوريث الرئيسي ـ وتقديم القرابين هناك لإله البيت. وحسب قانون حمورابي، يتمتع الصهر الذي يمتلك تمثال إله حميه بحق وراثة حميه تماماً كالابن البكر.

انطلاقاً من هذا، يمكننا الافتراض أن راحيل قامت بفعلتها تلك تحت تأثير تصورات وقناعات عملية. فقد أمّنت بسرقتها تماثيل آلهة البيت حقاً لزوجها في ميراث أبيها، وعرف لابان ذلك ولهذا حاول جاهداً استعادة المسروقات.

أما عادة العمل عند حمي المستقبل فترة من الزمن كمهر للزواج من ابنته، فإنها عادة قديمة جداً أيضاً، والغريب أن هذه العادة مازالت جارية حتى الآن عند بعض الشرقيين. فقد ذكر الكاتب البولوني أركادي فيدلر في كتابه «الموز البري» بأنه لاحظ مثل هذه العادة عند قبيلة تايب الفيتنامية. ومثل هذه العادات بقيت حتى القرن التاسع عشر منتشرة عند التتر والسوريين، فقد أورد الرحالة السويسري بوركارت في كتابه: «رحلة في سورية» حرفياً: [والتقيت أحد الأيام بشاب يعمل ثمان سنوات مقابل خبز يومه. وكان من المفروض عند نهاية مدة خدمته أن يتزوج ابنة المالك. وكان من الواجب عليه في حال امتناعه عن العمل خلال المدة المتفق عليها أن يدفع مقابل الفتاة مهراً مقداره سبعمائة قرش. ويوم لقائي بالشاب كان عمر زواجه ثلاث سنوات، لكنه اشتكى كثيراً من حميه الذي مايزال يطلب اليه القيام بأعمال شاقة جداً بلا مقابل. وقد أعاقه هذا الأمر عن الاهتمام بأسرته وتأمين

حاجاته. لقد تم لقائي بذلك الشاب في ريف دمشق]. كم هو مدهش وجه التشابه بين علاقة ذلك الشاب بحميه وعلاقة يعقوب بلابان!

إننا نصادف في سفر التكوين أسماء مدن اعتبرت لوقت طويل خيالية، غير أن الاكتشافات الأثرية العظيمة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أثبتت أن تلك المدن كانت موجودة بالفعل وأن التوراة صادقة في ذكرها.

هذا الحديث ينطبق بشكل خاص على مدينة أور التي هاجر منها والد إبراهيم إلى حرّان. ففي عام ١٩٢٢ بدأ الأثري الانكليزي الكبير فولي التنقيب في تلة يسميها العرب « جبل القطران »، فعثر على أنقاض مدينة كبيرة بناها السومريون قبل ثلاثة آلاف سنة من الميلاد. كما عثر على بناء يشبه البرج الهرمي كان يقبع فيه معبد إله القمر.

أعاد فولي حسب اكتشافه بناء بيت أحد الأغنياء، الذين عاشوا في الفترة مابين القرن التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. أي في ذلك الوقت الذي يفترض أن تارح عاش فيه. ويكتب هذا العالم بالمناسبة في كتابه [أور الكلدانيين]: « يجب علينا أن نعيد النظر إلى رؤ يتنا وتصورنا للبطريرك التوراتي وذلك بعد أن عرفنا في أية ظروف حضارية قضى سنوات شبابه. لقد كان مواطناً في مدينة كبيرة ووريث لحضارة قديمة متطورة جداً، ويدل نمط مسكنه على حياة جيدة بل وفخمة ».

أما الأطرف من هذا فقصة اكتشاف حرّان. فحسب المقولة التوراتية هاجَر نسل تارح من أور إلى حرّان لأسباب دينية، ويعتقد المستشرق الأميركي أولبرايت أن ذلك حصل في الفترة مابين القرن العشرين والقرن السابع عشر ق. م أي خلال حكم حمورابي(١٧). ومازالت فترة حكم حمورابي تثير الجدل حتى يومنا هذا، فالعلماء يقدمون لها ثلاثة تواريخ: ١٩٥٥ ـ ١٩١٣، و١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ و١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق. م. وهناك أساس للافتراض أن نسل تارح كان من أتباع عبادة إله القمر، وتدل على ذلك الكلمات من سفر يشوع: « آباؤكم سكنوا عبر النهر، منذ الدهر، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى» (سفر يشوع اصحاح ٢٤ ـ آية ٢) نعرف من النص التوراتي أن سبب رحيل ابراهيم عن حرّان واتجاهه نحو أرض كنعان كان تحوله نحو الاقتناع بالألوهية المطلقة. وقد حصل ذلك حسب التوراة في مدينة أور.

وتتحدث إحدى الأساطير المكتوبة على ألواح مسمارية أوغاريتية عن صراع قام بين عُبّاد القمر وعباد الشمس وعن طرد عباد القمر. عدا هذا فإن آثاراً لعبادة القمر وجدت في

فلسطين. ويعتقد العلماء أن اسم أبي إبراهيم تارح يعود باصله إلى كلمة مشتركة في جميع اللغات السامية ومعناها القمر.

توجه الأثري البريطاني دافيد ستروم رايس عام ١٩٥٧ م إلى جنوب تركيا واكتشف هناك أنقاض مدينة حرّان وكانت واقعة على نهر: ناور بالي، أحد روافد الفرات الأعلى على مسافة خمسمائة كيلومتر شمال مدينة أور. وعرفنا من النصوص البابلية القديمة أن حرّان كانت مركزاً لعبادة إله القمر وأن سكانها اشتهروا بتعصبهم الديني الشديد، لدرجة أنه لم يكن أحد يتصور مثل ذلك التعصب كنتيجة مباشرة لأبحاث الأثري الانكليزي تبين أن عبادة القمر بقيت متبعة خلال كل فترة الامبراطورية الرومانية، وأن المسيحية لم تستطع فعل شيء معها، وحتى الإسلام كان مرغماً على التسامح مع أتباعها مئات السنين حتى جاء صلاح الدين الايوبي الذي هدم معبد إله القمر عام ١١٧٩ م، وبنى مكانه مسجداً هدمه التتر فيما بعد في القرن الثالث عشر الميلادي لقد وجد رايس تحت أنقاض مداخل المسجد الثلاثة ثلاث بلاطات حجرية محفورة عليها رسوم لإله القمر، وقد وضعت البلاطات بحيث يطؤ ها المسلمون عند دخولهم المسجد للدلالة على أن دين حرّان القديم ولى عهده نهائياً.

وانطلاقاً من هذا كله افترض رايس أن عبادة إله القمر ظلت متبعة حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وأية نتائج تستخرج من هذا؟ إذا افترضنا أن إبراهيم التوراتي، قد كان موجوداً فعلاً، فأن هجرته تفسر هروباً لمؤ سس عبادة جديدة من وجه أتباع عبادة القمر المتعصبين. وذلك شبيه لهجرة محمد (ص) من مكة إلى المدينة.

أما إذا شككنا بوجود إبراهيم أصلاً فإننا نستطيع على أساس الألواح التي اكتشفت في ماري إعتبار تلك القصة التوراتية تجسيداً لتاريخ كامل لتنقّل وترحل إحدى القبائل العبرانية. ونذكر هنا أن بعض نصوص التوراة تسمح لنا بأن نفترض أن وحدانية إبراهيم لم تكن وحدانية بالمعنى الحديث المعاصر، بل عبادة إله محلي يسمى إيلوهيم. وهل يجب بحسب هذا نقض الفرضية القائلة إن سبب هجرة إبراهيم من حرّان كان سبباً دينياً؟ أظن أنه لاداعي لذلك، وأن علينا فقط أن نستبدل بشخصية إبراهيم الدينية شخصية القبيلة، وعندها سيبدو كل شيء منطقياً، وتفسر الأمور على الشكل الآتي: اصطدمت إحدى القبائل المقيمة في حرّان مع أتباع عبادة القمر، وكانت غير راغبة بالخضوع لأي إله غير إلهها. واضطرت في نهاية الأمر، إلى مغادرة حرّان والبحث عن سعادتها في أرض كنعان. وقد

تركت تلك الأحداث صدى لها في الأساطير التي أدخلها الكهنة، فيما بعد في النصوص التوراتية.

هذا ويبين تاريخ الأديان المقارن أن التبدلات التي طرأت على العبادة، طرأت على الآلهة المعبودة أيضاً. فتحت تأثير الكوارث السياسية والشقاء عمق العبرانيون شيئاً فشيئاً ديانتهم القبلية. وفي نهاية المطاف، وبعد العودة من الأسر البابلي رفعوا تلك الديانة إلى قمة الوحدانية المطلقة. فصار الإله يهوه إلهاً عاماً تحقق مواصفاته متطلبات العصر الجديد والحضارة الحديثة، وبهذه الروح، وعلى تلك الشاكلة، تصرف الكهنة المؤلفون تماماً حيال قصص الأقدمين محاولين تصوير إبراهيم كتابع ومعتنق للوحدانية الطاهرة. لكن المعروف أنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك كلياً. لذا نجد أن الإله يهوه بقي محافظاً في بعض نصوص التوراة على طبيعته كإله قبلي بدائي.

والاكتشافات الأثرية في فلسطين تعطي شيئاً فشيئاً نتائج أفضل. ففي الفترة الأخيرة تم الكشف عن انقاض بعض المدن الصغيرة المذكورة في التوراة. فقد اكتُشفت قرب أحد التلال أنقاض مدينة الملك حمور، حيث نفذ أبناء يعقوب جريمتهم البشعة، ولقد دلت الأبحاث على أن أقدم طبقة من الحفريات تعود إلى القرن التاسع عشر ق. م، ووجدت بقايا جدار حصين منيع يفترض أن يكون قصراً ومعبداً، مما يدل على أن الملك حمور كان غنياً وقوياً.

يضاف إلى ذلك أن منطقة ممرا التي نَعُم إبراهيم وإسحق بظل بلوطاتها لم تختف من الوجود تماماً: فهي تقع على مسافة ثلاثة كيلومترات شمال حبرون، ويسميها العرب مقام الخليل ومازال الناس هناك ينظرون بقدسية إلى البلوطة والبئر ومذبح إبراهيم. فقد بينت المكتشفات الأثرية وجود بئر قديم وأساس مذبح بنى عليه المسيحيون لاحقاً مذبحاً مسيحياً، وعدا ذلك، فقد كشفت التنقيبات في المغاور المجاورة عن وجود الكثير من بقايا الأجساد البشرية، مما يدل على أن مقبرة كبيرة كانت موجودة هناك (في ممرا)، وفوق مغارة المكفيلة حيث دُفن حسبما تقول التوراة: البطاركة إبراهيم وإسحق ويعقوب، يوجد اليوم واحد. من أقدم المساجد عند المسلمين. واننا نعلم اليوم أيضاً أين تقع جرار ـ مدينة أبيمالك ـ، فقد اكتشفت أنقاضها في تل جملة على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من غزة، وذلك عام ١٩٢٧ م. وخلال التنقيبات، وصلت البعثة الأثرية البريطانية إلى طبقة تعود إلى العصر البرونزي. ووجدت بين الأنقاض الكثير من الموازين، مما يشير إلى أن جرار كانت مدينة تجارية كبيرة في عهد إبراهيم.

ولكن للأسف الشديد لم تحدد حتى اليوم سدوم وعمورة مع أن العلماء يميلون إلى الاعتقاد بأن تلك المدينتين كانتا موجودتين فعلاً، وهوذا مختصر النتائج التي تم التوصل إليها حتى اليوم.

١ - اكتشف الانكليز أواسط القرن التاسع عشر أنه من رأس اللسان الذي على الشاطيء الشرقي للبحر الميت، يمتد تحت الماء، عرق صخري يقسم البحر إلى حوضين: الحوض الجنوبي: قليل العمق، أما في الشمالي فإن القاع يهبط فجأة إلى عمق حوالي أربعمائة متر. وهناك اعتقاد بأن القسم القليل العمق، كان يوماً ما أرضاً انغمرت نتيجة جائحة جيولوجية. وحسب التوراة فإن سدوم وعموره كانتا في عمق السديم الذي هو بحر الملح (سفر التكوين، الاصحاح الرابع عشر - الآية ٣).

ومنذ مدة قريبة، وُجدت مقاطع من التاريخ البدائي للكاهن الفينيقي سانخونياتن الذي قال: « غرق عمق السديم وصار بحيرة ».

٢ - بينت الاختبارات الجيولوجية وجود آثار لجوائح جيولوجية حادة في سهل الأردن، عند سفوح جبل طبرية وفي الصحراء السعودية وفي خليج العقبة وعند شواطيء البحر الاحمر. بل وحدد العلماء تاريخ ونوع الكارثة الجيولوجية، لقد حصلت (بشكل تقريبي) قبل ألفي عام من الميلاد أي في عهد إبراهيم.

٣ - تتوضع قرب البحر الميت تلال من الملح الصخري، أخذ بعضها نتيجة للحت والعوامل الجوية الأخرى هيئة تذكر بشكل إنسان، وهذا بلا شك كان أساساً لظهور الخرافة حول زوجة لوط التي تحولت إلى عمود من الملح.

٤ - يُستنتج من هنا أن ذكريات عن كارثة عارمة، بقيت في أذهان الناس وهي كارثة وقعت في الزمن القديم، في منطقة البحر الميت. وقامت حول هذا الموضوع الخرافات والأساطير الكثيرة. غير أن جذورها واقعية تاريخياً.

٥ - يؤكد الطيارون الذين يطيرون بشكل دوري فوق البحر الميت أنهم لاحظوا آثاراً لأنقاض ما، وخاصة في المنطقة التي يُحتمل أن تكون سدوم وعمورة قد قامتا عليها، وقد حاول الغواصون اكتشاف قاع البحر، حيث أعلن مثلاً قائد إحدى المجموعات الدينية الدكتور رالف باني أنه غاص إلى قاع البحر ووجد هناك بقايا سد، لكن الكثيرين شككوا بصحة كلامه.

إن الغوص إلى قاع البحر الميت واكتشاف مافيه عملية صعبة جداً: فالماء يحتوي

على ٢٥٪ من كتلته طمياً وهو عكر جداً، ولا يستطيع الغواص رؤية يده الممتدة. **أضف إلى** ذلك أن كثافة الماء عالية، بحيث يستطيع المرء الاستلقاء على سطح الماء وقراءة كتاب. ولكي يتمكن الغواص من الغوص عليه أن يحمل معه أربعين كيلوغراماً من الوزن. عدا ذلك فإن نسبة الملح العالية تسبب حساسية مؤلمة للجلد وتورماً في الشفاه. وفي الفترة الأخيرة جُهّزت مجموعة أميركية ـ كندية نفسها للغوص إلى عمق البحر الميت، وقد تتمكن من اكتشاف سد سدوم وعمورة.

هذا، ويجب علينا أن نتطرق أيضاً لموضوع دمشق. فلم يذكر شيء في التوراة عن توقف إبراهيم هناك في طريقه إلى أرض كنعان، لكننا افترضنا ذلك انطلاقاً من مصادر جديدة، ومن بعض الفرضيات التي نجملها فيما يلي:

١ ـ يذكر المؤرخ العبري فلافيوس يوسيفوس (٩٥ ـ ٣٧ ق . م) في مؤلفه «الأقدميات العبرية» قدوم إبراهيم إلى دمشق. فعلى مايبدو كان لذلك المؤرخ مصادر نجهلها.

٢ ـ كانت الطريق بين حرّان وأرض كنعان، تمر قديماً، عبر سورية، إذن وعبر دمشق. وليس من داعٍ للاعتقاد بأن إبراهيم اختار طريقاً آخر أطول وأصعب.

٣ ـ يؤكد قدوم إبراهيم إلى دمشق ومروره فيها ظهور وجه جديد في بيته هو وجه إليعازر الدمشقي. فلقد اعتمد عليه إبراهيم قبل ولادة ابنه، اعتماداً كلياً في أملاكه، واعتبره وريثه الرئيسي، وذلك على أساس قانون حمورابي الذي يسمح بالتبني في حالة عدم الإنجاب.

كانت الأرض التي ارتحل إليها إبراهيم تسمى سابقاً بأرض كنعان، ولم تسم فلسطين إلا بعد أن أطلق عليها المؤرخ الإغريقي هيرودوت ذلك الاسم، مستنداً في عمله ذاك على أن التوراة ذكرت الفلسطينيين، وهم الشعب الذي شغل في القرن الثالث عشر ق . م الشواطيء الجنوبية لأرض كنعان.

هذا ويمكن تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق رئيسية: السهول الواقعة على شواطيء المتوسط والمرتفعات الواقعة إلى الغرب من الأردن والسفوح المطلة على الضفة الشرقية للنهر أي ماوراء شرق الأردن. عند الشاطيء الجنوبي للمتوسط كانت الأرض خصبة جداً، ولذا سمي السهل الواقع هناك بسهل صارون (بستان الجنة)، والمرتفعات الواقعة غربي نهر الأردن كانت خصبة أيضاً. وبفعل المناخ الحار كانت النمور تعيش في تلك المرتفعات، لكن أكثر مااشتُهر بخصوبته من تلك البقاع هو الجليل الذي كان مزدحماً

بالسكـان منـذ الأزل، وهنـا اكتشفت بالتحـديـد أنقـاض مجموعة من المدن المذكورة في التوراة. والى الشرق من الأردن اشتهرت بعض المناطق بعمل سكانها الزراعي.

ولكن أرض كنعـان كانت بشكـل رئيسي، بلداً رعـويـاً، فالتـلال وسفـوح الجبـال والسهـول هي مراعٍ جيـدة رغم أنهـا كانت كثيراً وبشكل دوري معرضة للجفاف. ولم تكن الأعمـال الـزراعيـة تمارس في سهل الأردن في منطقة واحدة، بينما كانت المناطق الأخرى مليئة بالنباتات البرية الكثيفة.

وبسبب الطـرق البـدائيـة الـزراعيـة التي لم تكن لتستخـدم الأسمـدة، تسببت بقلة خصب التربة. وبسبب الجفاف الدوري أيضاً صار الجوع ضيفاً شبه دائم في أرض كنعان.

لقـد اعتـاد المصـريون على مجيء القبائل الرعوية إلى حدودهم طلباً للمرعى، كما عرفـوا أن الجـوع كان وراء قدوم تلك القبـائـل، وأنهـم ـ أي الـرعـاة ـ كانـوا أناساً مسالمين لايحملون عداء لأحـد. لذلـك سمـح المصـريـون بكـل سهـولـة لتلك القبـائل باستعمال أراضيهم في دلتـا النيـل، التي كانت آنـذاك قليلة السكان. وكان المصريون يأخذون أجرة لقاء ذلك. لقد وُجد على لوحة جدارية في إحدى المقابر المصرية، رسم لبدورحل مرهقين من الجوع أشبه بالهياكل العظمية. أما في مقبرة بني حسان وعلى لوحة جدارية أخرى فإننا نجـد رسمـاً واقعيـاً لقبيلة بدويـة سامية تناقش المسؤولين المصريين على الحدود من أجل السمـاح لهـا بالدخول. ولهذا السبب بني الحاجز الحدودي المصري من أجل الدفاع ضد القبـائـل الصحـراويـة المقـاتلة قبـل ألفي عام من الميـلاد، أي في الوقت الذي عاش فيه إبراهيم. ونحن نعرف هذا من مذكرات الوجيه المصري سينوحي الذي يتحدث عن كيفية عبوره جدار المملكة تحت جنح الظلام، ويذكر كيف وصل إلى شمال بلاد كنعان، ووجد لنفسه مأوى عند زعيم إحدى القبائل الذي ينطبق وصفه على إبراهيم أو إسحق أو يعقوب. ويتحدث في مذكراته عن خصوبة أرض كنعان كثيراً. وهذا يؤكد ماورد في التوراة عن أرض كنعان، وعن أن فيهـا « أنهـاراً من اللبن والعسـل ». ومن الطبيعي إلا يخص ذلك الوصف والإطراء إلا تلك المناطق التي كانت الزراعة والبستنة معروفة فيها. يذكر سنوحي عن تلك الأرض: « أنهـا أرض طيبـة، فيهـا التين والعنب بكميـات أكثـر من الماء. إننا لانشعر أبداً بنقص في العسـل والسمن. وعلى الأشجـار فواكـه كثيـرة متنـوعـة، وهنـا يزرعـون القمـح والشعيـر. أمـا القطعـان فأعدادها هائلة. إني آكل كل يوم خبزاً ولحماً مسلوقاً وطيراً مشوياً،

وأشـرب النبيـذ، كمـا إني آكـل صيـدا لأنهم يصطـادون لي كمـا أذهب أنـا للصيـد أحياناً مصطحباً معي الكلاب ».

إنـا نستطيـع إعطـاء وصف للبـاس قبيلة إبـراهيم، من خلال الاكتشافات الأثرية في مصـر. ففي مدفن وجيـه مصـري في بني حسـان (القـرن الثامن عشر ق . م) توجد لوحة جداريـة مرسـوم عليهـا قبيلة ساميـة بدوية قادمة من فلسطين، ونرى على ذلك الرسم رجالاً ملتحين ونسـاء وأطفـالاً، ويلبس بعض الـرجـال ثيـابـاً مصنـوعـة من قماش مخطط متعدد الالـوان. أمـا بقيـة الـرجال والنساء، فملتفون بأردية طويلة مزركشة، وأسلحتهم هي الرمح والقـوس والمقـلاع ويظهـر بدوي يعزف على قيثارة، مما يدل على أن الساميين كانوا آنذاك يحبـون المـوسيقى. أمـا الألوان السائدة عندهم فهي الأخضر والأحمر والسماوي. ويتزين الرجال والنساء بالحلي.

ونجـد أيضـاً في التـوراة أن العبـرانيين أحبـوا الألـوان النـاصعـة، ففي سفر الخروج (اصحاح ٢٥ ـ آية ١ ـ ٧) يأمر الرب موسى أن يجمع تقدمة من أتباعه (وكلم الرب موسى قائـلاً: كلّم بني إسرائيـل أن يأخـذوا لي تقـدمـه: من كل من يحثه قلبه، تأخذون تقدمتي، وهـذه هي التقـدمـة التي تأخـذونها منهم: ذهب وفضة ونحاس وأسمانجوني وأرجوان وقرمز وبـوص وشعـر معـزى وجلود كبـاش محمـرة وجلود تُخَسٍ، وخشب سنـط وزيت للمنـارة، وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ». وفي سفر صموئيل الثاني (أصحاح ١ ـ آية ٢٤) يهتف داود « يابنات إسرائيل إبكين شاول الذي ألبسكن قرمزاً بالتنعم وجعل حلي الذهب على ملابسكن ».

قصة يوسـف العاصفة

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، أحبُّهم إلى قلبه صغيراه من زوجته راحيل، وهما يوسف وبنيـامين. كان بنيـامين مايـزال صغيـراً، في الـوقت الـذي نمـا فيه يوسف وصار فتى حاذقاً لايستطيع أحد في العائلة أن يضاهيه بالذكاء والبداهة. وكان من الطبيعي أن يفخر يعقوب بابنه وأن يتساهل كما يحصل غالباً لبعض الآباء أمام نزواته وعلى فكرة: لقد أهداه يعقوب ثيـابـاً مزركشـة ذات الـوان جميلة ولم يرهقـه أبداً بالأعباء المنزلية، أما أولاد بلهة وزلفة فقد كلفهم يعقوب برعي القطيع وكانوا يقضون أياماً طوالاً في المراعي، بينما كان يوسف يتبختر

في البيت بثيابه الفخمة وبشعره المصفف الذي يظهره وكأنه فتى البيت المدلل. لذلك كان يوسف متكبراً متعالياً كثير المديح لنفسه، ويحاول أن يظهر نفسه أذكى من إخوته في كل شيء، والأسوأ من ذلك أنه كان يراقبهم ويشي بهم إلى أبيه. ولقد كان لإخوته الذين يقضون معظم أوقاتهم خارج البيت أسرارهم الخاصة بهم، ولذلك حقدوا من الأعماق على أخيهم النمّام المتباهي المتعالي الذي أفسد عليهم حياتهم. لكن يوسف الغارق بالتباهي بنفسه إلى أبعد الحدود لم يكترث لحنق إخوته المتنامي ضده. ولم يكن يمضي يوم دون أن يزعجهم بموقف من مواقفه. وأكثر ماكان يزعج إخوته فيه هو حديثه عن الأحلام التي كان يراها والتي كان فيها إخوته دائماً يلعبون أدواراً حقيرة ذليلة بالنسبة لدوره.

ففي أحد الأيام عندما التأم شمل الأسرة للطعام حدث يوسف رؤ يته التالية: « هانحن حازمون حزماً في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصبت، فتحلقت حزمكم حول حزمتي وسجدت لها » فتضايق إخوته وسألوه مستهزئين: « ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟ » وانحاز يعقوب كعادته في هذه المرة كما في غيرها إلى جانب محبوبه. ولكن سرعان مارأى يوسف مناماً آخر سجد له فيه ليس أحد عشر نجماً بل وحتى الشمس. فتضايق والده كثيراً: « وماهذا الحلم الذي حلمت؟ سأله أبوه ناهراً: هل نأتي أنا وأمك وإخوتك، لنسجد لك على الأرض؟ » فما كان من يوسف الذي تلقى غضب أبيه، إلا أن صار بعد فترة من الزمن أهدأ من الماء وأرق من النبات. غير أن حلم يوسف سرعان مانُسي فعاد الأب من جديد يغمر محبوبه بالعطف والامتيازات.

وحدث ذات يوم أن وصل أخوة يوسف في بحثهم عن مرعى الى مدينة شكيم، وفُقِدت أخبارهم لفترة. فخشي الوالد أن يكون سكوتهم نتيجة أمر سيء. فأرسل يوسف ليستطلع ما حدث لهم. أبهرت يوسف المهمة التي أوكلها إليه والده، وأخذ على عاتقه فوراً أن يلعب دور الرقيب. عرف يوسف في شكيم أن إخوته وقطيعهم، غادروا إلى مدينة دوثان فتبعهم إلى هناك. كان الإخوة في المرعى، وعرفوا يوسف فور ظهوره في الأفق. فقال أحدهم مستهزئاً « هاهوذا صاحب الأحلام قادم ». واقترح أن يستقبلوه بطريقة تفقده كل رغبة في رؤ ية الأحلام من اليوم وإلى الأبد. وفكّروا أن يقتلوه، ويرموا جثته في بئر جاف، ويخبروا أباهم أن وحشاً افترسه. لكن راؤ بين عارض ذلك ورجا إخوته إلا يهدروا دم أخيهم، واقترح عليهم أن يلقوا بيوسف حياً في البئر. لأنه سيموت هناك جوعاً لامحالة. وقد

فكر راؤ بين بانتشال أخيه تحت جنح الظلام، وإيصاله إلى أبيه دون أن يعلم إخوته بما فكّر به.

وافق الإخوة على اقتراح راؤ بين. وما كاد يوسف يصل إليهم حتى هجموا عليه، وخلعوا عنه ثيابه، ثم ربطوه بحبال وأنزلوه إلى قاع بئر عميق. فقد يوسف المسكين وعيه مباشرة. وحين عاد إلى رشده أنتابه هلع شديد وأخذ يندب نفسه. بقي الإخوة المجرمون صماً بكماً أمام إستغاثة أخيهم ورجائه. وكأن شيئاً لم يحدث، وجلسوا يتناولون الطعام. وفجأة ظهرت قافلة تجار مدنيين وإسماعيليين(**) تحمل من جلعاد إلى مصر، كَثيراء وبلساناً ولاذناً، كان أولئك التجار أغنياء يلبسون ثياباً فاخرة وتلمع على رقابهم وأكتافهم زينات من الذهب الخالص، بل حتى أن ألجمة حميرهم المحملة كانت مرصعة بالذهب. فخطر لأبناء يعقوب أن يبيعوا يوسف عبداً للتجار. تفحص التجار الفتى النحيل ثم دفعوا لاخوته عشرين من الفضة لأنهم عرفوا أن الشاب يساوي أكثر من ذلك بكثير في سوق النخاسية المصري. وما أن غادرت القافلة حتى لوث الإخوة ثياب يوسف بدم تيس وأرسلوها إلى والدهم سائلينه إن كان يعرف لمن هي. أما يعقوب كاد يفقد عقله لمجرد رؤ يته لثياب ولده ملطخة بالدم. فمزق ثيابه إرباً إرباً، وبكى بحزن لاحدود له، وقال: « قميص ابني، وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراساً »، وأبى أن يتعزى، وقرر ندب ابنه إلى أن يموت « إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية ».

وبينما كان يعقوب يندب ابنه كان المدنيّون يبتعدون شيئاً فشيئاً حاملين معهم يوسف المسكين إلى مصر. يوسف الذي سيباع هناك بيع العبيد.

يوسف في بيت فوطيفار

باع التجار يوسف لرئيس شرطة فرعون ـ فوطيفار ـ، وهكذا صار ابن يعقوب خادماً عند واحد من أكبر وجهاء مصر. سارت حياته هناك بشكل جيد فبمحبته للعمل وبإخلاصه وجدّه استقطب عطف واحترام سيده، الذي وثق به، وبدأ يوكل إليه مهاماً صعبة ومهمة. وفي نهاية المطاف وكَّلَهُ سيده ببيته، ولم يعد يتدخل بأموره ولايعارض قراراته. لأن كل ماكان يفعله يوسف كان حسناً. وفي الحقيقة كان لعبد فوطيفار العبراني مايميزه عن غيره من العبيد، لأن أملاك فوطيفار وثروته ازدادت أضعافاً منذ أن تسلمها يوسف. وأما فوطيفار نفسه

فقد تحرر من الأمور اليومية ليمنح كل اهتمامه للجيش والارتقاء بالسلم الوظيفي، ولكن السعادة هشة دائماً، كما يقال كان يوسف فتى بهياً جميلاً، احترقت زوجة فوطيفار غراماً به وشهوة له، وعملت المستحيلُ لجره إلى مضاجعتها، لكنه أبى ذلك وقاوم كل إغراء لأنه لم يكن يرغب بمقابلة جميل سيده بالخداع والغش والخيانة. ولكن، يالأسف الشديد. قررت المرأة الشهوانية إغراء الفتى بأية وسيلة. وذات يوم استغلت غياب زوجها عن البيت، وابتعاد الخدم عنه، فاستدرجت الفتى إلى غرفة نومها. تعلقت بعنقه، وألقت بثقلها عليه وألقته على الفراش، فقاومها يوسف جاهداً حتى أفلت منها هارباً تاركاً بعض ثيابه بين يديها. وأضحت المرأة متألمة من يوسف لأنه احتقر كبرياءها الأنثوي وأذلها فاصطنعت صراخاً حاداً، وحين تجمع الخدم حولها أرتهم ثياب يوسف كدليل على ذنبه.

عرف فوطيفار عند عودته بما حدث، فصدق زوجته المخادعة وألقى بيوسف في السجن. لكن يوسف لم يفقد نباهته وإخلاصه في الخدمة، حتى في أتعس ظروف حياته. فخلال فترة قصيرة من وجوده في السجن حظي بإعجاب واحترام رئيس السجن، فعينه هذا مراقِباً على المساجين. فقد كان ابن يعقوب مناسباً لمثل ذلك العمل، ويمكن الاعتماد عليه لأنه يجيد مايوكل إليه من أعمال. ولاغرابة، فإن سلوكه هذا لم يتغير فهو حيثما وجد يرتقي أعلى المناصب لما لديه من لطف واستعداد لخدمة الآخرين، وكان طموحه الذي لاحدود له يسيطر عليه في أتفه الأمور وأهمها على حد سواء. أما الحصول على مبتغاه فقد ساعده عليه عقله العملي ومقدرته على فرض إعجاب رؤسائه.

في أحد الايام أدخل السجن ساقي فرعون ورئيس خبازيه. فجدَّ يوسف في التخفيف من تعاستهما، وقدم لهما الخدمات الجليلة، فبادله الرجلان الصداقة الحميمة، وأخذا يحدثانه ساعات طويلة عن مداخلات وخيانات القصر الفرعوني وعن نقاط ضعفه وعن قوة فرعون. حفظ يوسف جيداً ماحدّثاه به. وبعد مدة من الزمن، صار يعرف أمور القصر كما لو أنه كان يقيم فيه. وحَدث ذات يوم، أن ساقي فرعون ورئيس خبازيه، رأى كل منهما مناماً غريباً، فقد رأى ساقي فرعون في حلمه عريشة عنب تفرّع منها ثلاثة فروع وتغطت أولاً بالازهار، ثم نضجت عليها الفاكهة. عند ذلك وضع وعاء تحتها وعصر العنب وقدم العصير لفرعون. فكر يوسف قليلاً ثم تنبأ لساقي فرعون بأن سيده سيطلق سراحه بعد ثلاثة أيام، وسيعيده إلى عمله السابق. وبهذه المناسبة رجا يوسف الساقي أن يلتمس له العفو من فرعون، لأنه سُجن دون ذنب. تحدث رئيس خبازي فرعون أيضاً عن حلمه فقد

رأى في منامه وكأنه يحمل ثلاث سلال من الخبز على رأسه والطيور تنقر الخبز منها فتجهم وجه يوسف وتنبأ له بأن فرعون سيسلمه للجلاد بعد ثلاثة أيام .

في قصـر فرعون

وبعد ثلاثة أيام تحققت نبوءة يوسف . فخلال احتفال فرعون بعيد ميلاده تذكر كيف كان سقـاؤه يجيـد خدمتـه فعفـا عنـه وأطلق سراحه وسلمه من جديد مفتاح مستودعاته . أما رئيس خبـازيـه فقـد أمر بإعدامه وللأسف الشديد، وكما يحدث في كثير من الأحيان، نسي ساقي فرعـون رفيق زنـزانتـه الـذي تنبأ له بالعفو عنه ومكث يوسف في سجنه سنتين أخريين فاقـداً أي أمـل بأن يفي السـاقي بوعده، وكان من الصعب جداً التنبؤ بمصير يوسف، لولـم يكن فرعون أيضاً من هواة رؤ ية الأحلام . فقد رأى في منامه ذات ليلة مايلي : « خرجت من النهـر سبـع بقـرات سمـان ، وأخـذت ترعى في روضة على شاطيء النهر، وخلفهن مباشرة خرجت أيضـاً من النهـر سبـع بقرات عجاف التهمت البقرات السمان» . وفي ليلة أخرى رأى بمنـامـه «سبـع سنـابل تخرج من الأرض، وتمتليء حباً، ثم طلعت سبع سنابل فارغة ملفوحة بالريح والتهمت السنابل المليئة بالحب» .

سببت هذه الأحلام الغامضة هيجاناً واضطراباً لفرعون، فدعا إليه السحرة والحكماء من جميـع أنحـاء مصـر، وكـذلـك كل من يعرف تفسير الأحلام . ولم يستطع أولئك جميعاً سوى هزّ رؤ وسهم، والتشاور والجدل، ثم الاعتراف بعجزهم عن التفسير.

صار فرعـون مهمـومـاً ومنهـار الأعصـاب . وساد القصر جو نفسي سيء . آنذاك تذكر الساقي يوسف حدَّث الفرعون عنه مستدراً العطف له وذاكراً للملك أن يوسف كان فسر له منامه الذي تحقق . فانبعث أمل جديد في نفس فرعون، وأمر بإحضار يوسف فوراً والذي قام بدوره بالاستعـداد لمـواجهـة فرعـون . فحلق لحيتـه ولبس حلة جديـدة وأُحضر إلى فرعون فسجـد أمـامـه . وسألـه الملك وقـد فقد صبره . : . حلمت حلماً ولم يستطع أحد أن يفسره وسمعت عنك أنك تسمع أحلاماً وتعبرها .

استمـع يوسف لحلمي فرعـون عن الأبقـار السمـان والعجـاف، وكـذلـك السنـابل الممتلئـة والفـارغـة ففكر، وقال : إن مصر ستشهد سبع سنوات طيبة خيرة تليها سبع سنوات عجـاف يحـل فيهـا الجفـاف والجوع . ونصح لفرعون أن يكلف آمراً حكيماً ليخزن خُمس

محصول سني الخير لتغطية النقص في سنوات الجفاف . فأعجب فرعون بنصيحته ، وتمعن بوجه الشاب الجليل بانتباه وعلم أنه وجد الشخص الذي تلتهب فيه روح الإله . وعين فرعون يوسف آنذاك عاملاً له ، وأعطاه حرية إدارة مصر لأنه بغير الطريقة الدكتاتورية التي يمارسها لايمكن تحقيق الخطة التقشفية التي تتطلب الكثير من الفلاحين الفقراء ومن الإقطاعيين الأغنياء .

كان عمر يوسف ثلاثين عاماً حين ارتقى فجأة من الحضيض إلى قمة النجاح والعظمة . فبعد أربعة عشر عاماً من العبودية صار بوسعه أن يأمر أسياده السابقين ، وأصبح اليد اليمنى لفرعون الذي كان يعتبر إلهاً في مصر . وحسب التقاليد المتبعة في القصر أعطي يوسف السلطة في حفل بهيج رسمي حيث أجلس على عرش ذهبي وخلع عليه فرعون الرتب المناسبة كما منحه خاتماً ذهبياً وسلسالاً قيماً وثياباً فخمة . ثم ألقى فرعون كلمته المقدسة التالية : « أنا فرعون ، فدونك لايرفع إنسان يده ولارجله في كل أرض مصر » . وفي ذلك اليوم ركبت الحاشية الملكية كلها العربات تجرها الخيول السريعة وذهبت إلى المعبد . وركب يوسف العربة الثانية بعد عربة فرعون مباشرة لأنه أصبح عامله . وعند مروره بالطرقات ، كان المنادون يأمرون الناس بالسجود للمالك الجديد . وفي المعبد منح فرعون يوسف اسماً مصرياً جديداً هو « صَفْنَات فَعْنيح ـ وهويعني حرفياً : الإله يقول : يحيا » وعدا ذلك فقد زوجه فرعون أَسَنات بنت فوطي فَارَعْ كاهن أَوَن (هليوبولس الإغريقية) وأمن له بذلك تأييد سلطة الكهنة القوية .

يوسف يحكم مصر

خلال سنوات الخير السبع تنقل يوسف في أصقاع مصر ليطلع شخصياً على تنفيذ الأوامر . فامتلأت العنابر بالقمح وبالرغم من فداحة الضرائب فقد عم الخير وفاض الكثير من المحصول عند الناس مما حداهم للدعاء الدائم للحاكم الجديد . وقد حالف الحظ يوسف في حياته العائلية كما حالفه في نجاح سياسته ، فقد أنجبت له زوجته أسنات ولدين هما : منتسى وأفرايم .

وحسب تنبؤات يوسف ، حلّت سبع سنوات الجفاف والجوع التي لم تعم مصر وحدها بل البلدان المجاورة أيضاً ، وعانى الناس كثيراً من الجوع . وعندما رجوا فرعون أن

يفتح لهم عنابره أحالهم إلى يوسف الذي تفهم رجاءهم ولكنه لم يوزع عليهم القمح بلا مقابل. ففي البداية كان على الناس أن يدفعوا ثمن مايأخذونه نقوداً، ولما نفذت النقود باعوا خيلهم وماعزهم وعجولهم وحميرهم، وكان همهم الوحيد تجنب الموت جوعاً. وفي نهاية المطاف فقد الناس أرضهم، ثم باعوا أنفسهم عبيداً، وهكذا بعد سبع سنين من وقوع الكارثة صارت الأرض كلها، ومن يعمل عليها ملكاً لفرعون مصر. والوحيدون الذين احتفظوا بأملاكهم هم الكهنة ذلك لأن فرعون حسب حساباً لتأثيرهم وسمح لهم أيام الخير أن يحتفظوا بمحاصيلهم واحتياطهم في عنابر خاصة بهم. وحين أصبحت الأرض ملكاً لفرعون أخذ يوسف يؤجرها قائلاً للناس « إني قد اشتريتكم أنتم كما اشتريت أرضكم لفرعون وهذا هو البذار فازرعوا الأرض، وعندما يأتي الموسم تعطون خُمسه لفرعون. أما الأربعة أخماس تكون لكم بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولأولادكم ولمن يعيشون معكم في بيوتكم ». وأقسم الناس أن يكونوا مخلصين لفرعون. ومنذ ذلك الوقت أصبح عمل يوسف قانوناً يعطي الشعب المصري بموجبه لفرعون مصر خمس المحصول. واستُثني من ذلك القانون الكهنة الذين أثروا، واتسعت أملاكهم.

نسل يعقوب يعاني من الجوع

ضرب الجفاف الشديد أرض كنعان أيضاً. وسمع يعقوب ذات يوم أنه في مصر يمكن الحصول على القمح، فأرسل عشرة من أبنائه إلى بلاد فرعون طلباً للبُرّ، ولم يُبقِ يعقوب في البيت سوى بنيامين الذي كان يحبه لدرجة أنه لم يكن يأمن اخوته عليه. فامتنع عن إرساله معهم، جهّز الأولاد أكياسهم الفارغة واتجهوا نحو مصر وهناك أدخلوهم على المسؤول الوحيد في الدولة المخوّل ببيع القمح. وعندما نظر يوسف إلى القادمين من أرض كنعان، اضطرب كثيراً. لقد عرف إخوته بسرعة فائقة، إخوته الذين باعوه بعشرين من الفضة، فاتهمهم، بصوت عال أنهم لم يأتوا إلى مصر لشراء القمح إنما جاؤوها جواسيس يتسقطون الأخبار، وطال القلق الإخوة، وحاولوا جاهدين نفي التهمة، وإقناع يوسف بأن هدفهم شراء القمح وحدثوه قصتهم، وأنه كان لأبيهم اثنا عشر ولداً منهم عشرة أمامه، وأصغرهم بقي في البيت، وآخر فقد بلا أثر.

تصنع يوسف التجهم، ولم يسمح لنفسه بإظهار سعادته لكون يعقوب وبنيامين مازالا

حيين، وأعاد على مسامعهم، وهو يتصنع الغضب اتهامه السابق، وحذرهم بأنه سيلقي بهم بالسجن وسيسمح لواحد منهم فقط بالعودة كي يحضر أخاه الصغير دليلاً على صدق كلامهم، ثم أمر بسجنهم فعلاً.

بعد ثلاثة أيام حزن يوسف لحالة إخوته، وقرر تخفيف العقوبة عنهم فدعاهم إليه وأبلغهم أنه سيسمح لهم بالعودة، وسيبيعهم قمحاً شريطة أن يحضروا أخاهم الصغير وأنه سيأخذ واحداً منهم رهينة لديه. وأخذوا يتكلمون وهم غير عارفين أن المسؤول المصري يعرف اللغة العبرية. فأخذ أبناء يعقوب يتندمون على فعلتهم الشنيعة مع أخيهم يوسف وأنهم سيلقون عقاباً عادلاً لجريمتهم. وهكذا عرف يوسف أن أصحاب الفعلة السوداء ندموا وأنهم بطبيعتهم ليسوا اشراراً. فتأثر من ذلك وأمر بملء أكياس الاخوة قمحاً وترحيلهم واستبقى كبيرهم شمعون رهينة لديه. وبشكل سري أمر رجاله بإعادة نقودهم ودسها في الأكياس. توقف الإخوة للراحة في الطريق وعندما فتحوا أكياسهم ليطعموا حميرهم وجدوا نقودهم بين الحنطة وتوقعوا أن خطأ ما قد حدث، وقرروا إعادة النقود عند عودتهم القادمة إلى مصر. لكن ذلك لم يحدث إلا بعد وقت طويل. لأن يعقوب رفض رفضاً قاطعاً الانفصال عن بنيامين. أما شمعون فقد فَقَد أمله بالخلاص نهائياً. فيعقوب الذي فقد يوسف خشي على حياة بنيامين، لأنه كان يرى فيه متعة حياته الوحيدة. ولم تنفع يعقوب التهديدات، ولا الرجاءات، لدرجة أن راؤ بين وعد بأنه سيسمح له بقتل ولديه، إذا لم يرجع بنيامين، وذلك لم يؤثر على يعقوب. ونتيجة لعدم سماع يعقوب توسلات أولاده قرر الإخوة عدم السفر إلى مصر ثانية لأنهم خافوا المثول أمام المسؤول المصري دون أخيهم بنيامين.

بعد مدة وجيزة لم يبق لدى القوم شيء من احتياطي الطعام، وبدا أن الناس سيعانون مجدداً من الجوع. فلم يبق أمام يعقوب مخرج آخر سوى إرسال بنيامين مع إخوته، وليطيب قلب المسؤول المصري أرسل له يعقوب هدايا بلساناً وعسلاً وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً. وأمر أولاده بإعادة النقود التي وجدت في الأكياس إلى الحاكم المصري.

توجه الإخوة إلى مصر ينتابهم شعور بالكآبة. لكن يوسف عند رؤيته بنيامين استقبلهم بعطف وترحاب وأمر الطهاة بإعداد وليمة لهم، وأوصى مدبر بيته برعاية الضيوف والعناية بهم. فاستغل الإخوة ذلك الوضع لإعادة النقود. ولكن خادم يوسف رفضها وهدأ روعهم قائلاً: « لاتخافوا فضتكم وصلت إلي ». تنفس الإخوة الصعداء وما كادوا يهدأون حتى

واجههم حادث سعيد آخر هو حضور أخيهم شمعون من السجن على يد مدبر البيت الذي بدوره ألبسه ثياباً جديدة بسبب دعوته أيضاً إلى الوليمة.

وفي القصر سجد الإخوة أمام المسؤول المصري حتى لامست رؤوسهم الأرض وقدموا له الهدايا التي أرسلها يعقوب. فرحب بهم يوسف، وتفحص هداياهم وسأل عن صحة أبيه. وعندما رفع بصره نحو بنيامين أخيه، التهبت في نفسه مشاعر حساسة رقيقة كاد بسببها أن ينفجر بالبكاء لكنه خرج إلى غرفة أخرى من غرف القصر، وبكى هناك على انفراد ثم غسل وجهه وعاد إلى قاعة الاحتفال، آمراً بتقديم الطعام، وخلال المأدبة حاول يوسف جاهداً أن يقدم لبنيامين الفتي أشهى الطعام، وبسرعة عمّ الفرح الجميع وسكروا جميعاً.

يوسف يمتحن إخوته من جديد

في اليوم التالي أمر يوسف مدبّر بيته أن يضع من جديد نقوداً في كيس كل من الإخوة. أما في كيس بنيامين فأمره إضافة إلى ذلك أن يضع الطاسة الفضية التي كان يتنبأ بواسطتها.

وما كاد أبناء يعقوب يخرجون خارج حدود المدينة، حتى أتبعهم يوسف بمدبر بيته ليطاردهم. فخاف الإخوة كثيراً لما أحاطتهم عربات حربية مليئة بالمقاتلين المدججين بالسلاح، وتقدم مدبر البيت من الإخوة بشكل صارم واتهمهم بشدة بسرقة طاسة الحاكم الفضية. نفى الإخوة أن يكونوا قد سرقوا شيئاً ووافقوا ببساطة على تفتيش أمتعتهم قائلين: « الذي يوجد معه من عبيدك يموت، ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي ». لكن مدبر البيت صرّح أنه سيسجن السارق فقط، ويالدهشة الإخوة عندما أخرجت الطاسة من كيس بنيامين! مزّق أبناء يعقوب ثيابهم فاقدي الأمل بالنجاة وبكوا مصيرهم التعيس، وفي تلك اللحظة اجتازوا من جديد امتحان الشرف والإخلاص الذي امتحنهم به يوسف، ذلك أنهم قرروا عدم ترك بنيامين وحده وعادوا معه إلى العاصمة المصرية.

وعند وصولهم إلى القصر وقعوا تحت أقدام يوسف راجين أن يأخذهم عبيداً مع بنيامين، لكن المسؤول المصري لم يوافق على تضحيتهم، وأصر على عقاب الفاعل فقط. عندها تقدم يهوذا إلى الأمام، وقال بجرأة: «سيدي، سأل عبيده قائلاً: هل لكم أب أو

أخ؟ فقلنا لسيدي لنا أب عجوز ولنا أخ صغير أبن شيخوخته. والآن إذا عدنا إلى عبدك أبينا، والغلام ليس معنا فإنه سيموت حزناً والآن ليمكث عبدك ومكلمك عوضاً عن الغلام، ويكون عبداً لك مقابل ذلك يذهب الغلام مع إخوته»، فعرف يوسف عندها أن إخوته طيبون ومخلصون. فكشف حقيقته لهم وذلك عندما أخرج المصريين من القاعة وصارح إخوته بحقيقته. وبطرفة عين تلاشت هيبته وتلاشى جلاله وانفجر بالبكاء حتى سمع صوت نحيبه كل من في القصر. بدا الإخوة وكأن صاعقة ضربتهم لم يبتهجوا للخبر أبداً، بل على العكس اضطربوا اضطراباً شديداً، فلربما يقرر يوسف الانتقام منهم لصفاتهم الشريرة! ولكن يوسف عانقهم بحرارة وخاصة بنيامين أصغرهم. وبعد أن مسح دموع الفرح قال لهم وقد نفذ صبره: أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: «قد جعلني الرب سيداً لكل مصر، انزل إليّ ولاتقف فستسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك، وغنمك وبقرك، وكل مالك وسأعولك هناك، لأنه سيكون أيضاً خمس سنين جوعاً، لئلا تفتقر أنت وبيتك وكل مالك».

انتشر خبر اللقاء الغريب بسرعة في القصر. فعطف فرعون على يوسف، وسمح له بأن يُحضر من أرض كنعان أسرته كلها، ويرسل لها العربات كي لاتلاقي مشقة في الطريق. ففعل يوسف كما سمح له سيده، وعدا ذلك، أغدق الهدايا على أسرته وأمر بإعطاء كل من إخوته غيارين من الثياب إلا بنيامين فقد أعطاه خمسة غيارات وثلاثمائة من الفضة، وأرسل لأبيه عدا الثياب والمال، الشيء الكثير مما اشتهرت به مصر من التحف حملت على ظهور خمسة حمر. وعشرة أتن حُمّلت بالقمح ومواد أخرى كيلا تعاني أسرة يعقوب من الجوع وهي في طريقها إلى مصر. وعندما وصل الأبناء إلى أرض كنعان وحدثوا أباهم بما حدث لهم في قصر فرعون لم يصدقهم في البداية حتى أعطوه الهدايا المرسلة إليه. فانفجر بالبكاء وقال: «كفى أن يكون ابني يوسف حياً وأذهب وأراه قبل أن أموت».

نسل اسرائيل يستوطن في وادي النيل

تحرك نسل إسرائيل مؤلفاً من ستة وستين شخصاً نحو مصر، وتوقفوا هناك في أرض جاسام عند دلتا النيل، ولما بُلغ يوسف بوصول أبيه. خرج يسابق الريح بعربته مسرعاً للقائه. وحالما رآه عانقه عناقاً شديداً وقال الأب المغتبط «أموت الآن بعدما رأيت وجهك،

إنك حيّ بعد ». أخذ بعد ذلك يوسف أباه وخمسة من إخوته إلى القصر وقدمهم لفرعون. ورداً على طلب الإخوة سمح لهم فرعون باستيطان أرض جاسام ومن ثم تفحص فرعون يعقوب العجوز ذا الشعر الأشيب الذي وقف أمامه يهيبته، مرتدياً ثيابه الصوفية الواسعة وعصا الراعي في يده وسأله « كم هي أيام سني حياتك؟ » فأجاب يعقوب « أيام سني غربتي مائة وثلاثون سنة ». ورفع يعقوب يده اليمني وبارك فرعون. كانت المراعي في جاسام وافرة وغنية، والمستوطنون الجدد تأقلموا بسرعة. وعاش بعد ذلك يعقوب سبعة عشر عاماً. وعندما شعر بدنو أجله طلب من ولده يوسف ورجاه أن يدفنه قرب أبيه وجده في مقبرة المكفيلة قرب ممرا. وأدخل يعقوب قبل مماته ابني يوسف أفرايم ومنتسى في عداد أسرته. وبعد أن بارك أولاده الاثني عشر، الذين سيخرج منهم اثنا عشر سبطاً إسرائيلياً دار إلى جهة الحائط وأسلم الروح، وحُنّط جسده حسب الطريقة المصرية واستمرت مراسيم التحنيط أربعين يوماً، ثم بكاه المصريون سبعين يوماً واتجه الموكب الجنائزي الكبير إلى أرض كنعان، وكان في عداده أعوان فرعون كلهم. ووراء النعش سارت النادبات اللواتي ملأن الأرض صراخاً ونحيباً لدرجة أن سكان أرض كنعان اندهشوا من هذا المصري العظيم الذي يدفنون.

وُلد ليوسف أحفاد، ومات عن مائة وعشر سنين، وقد أوصى قبل موته: إذا عاد الشعب الإسرائيلي يوماً إلى أرض كنعان فليأخذوا معهم رفاته، وليدفنوه قرب يعقوب. حنطوا يوسف أيضاً ودفنوه حسب الطقوس المصرية.

أسطورة شعبية أم حقيقة

انتشرت قصة يوسف منذ زمن بعيد انتشاراً واسعاً، وحققت شهرة كبيرة، ودخلت ضمن مرويات الشعوب التي وجدت في التوراة منهلاً لتخيلاتها، ولا غرابة في الأمر، فهي قصة شعبية عادية ذات مضمون حساس مليئة بالمغامرات الخارقة ومزينة بظرف الخرافة. بل ويمكن القول إنها منمقة بروح الأساطير التاريخية الشعرية، واستجابت عبرتها الأخلاقية للمتطلبات الروحية للإنسان البسيط المحروم المتعطش دائماً للعدالة.

عدا ذلك فلقصة يوسف طابع آخر. فنحن لا نصادف فيها أنماطاً فاسدة تماماً، ولا أنماطاً طيبة تماماً، ولا أمزجة قاتمة كلياً ولا نقية كلياً. فيوسف في صباه كان متكبراً لا يُطاق

وابنـاً شديـد الـدلال. لكنـه في السنـوات الـلاحقة، وتحت تأثير العذاب والحنين المتزايد لمسقـط رأسـه، تغيـر وأبـدى جلال روح كبيـر، واخـوتـه في لحظة غضب عنيف، ارتكبوا فعلتهم الشنعـاء. غيـر أنهم كما يظهر لاحقاً لم يكونوا أشراراً أبداً، فعذاب الضمير أرهقهم دائمـاً، أحبـوا أبـاهم العجـوز بلا حدود وكانوا صادقين في معاملاتهم المالية. وعندما هدّد خطر العبودية أخاهم بنيامين، قرروا مشاركته اتراحه مظهرين بذلك تفانياً كبيراً.

إن مثل تلك المعرفة لكل تعقيدات الطبيعة الإنسانية، ومثل ذلك التسامح مع الناس رغم كثـرة سلبيـاتهم يدلان على حكمـة عظيمة خارقة من حكم الحياة في عصر بربري مثل ذلك العصر. لقد كان الرعاة العبرانيون القدماء مؤلفو قصة يوسف، أناساً ذوي طباع قاسية وكثيـري الخيـال. ومـع ذلـك فإنهم خلال حيـاتهم البـريـة وبين الصخـور استطاعوا تنمية احسـاسـاتهم ومعـرفتهم بالنفس البشـرية. ولا يخلو الأمر بطبيعة الحال من أناس يقولون إن قصة يوسف ليست في الحقيقـة سوى ثنـاء ومـديح للعصبية القبلية والتعاضد القبلي الكثير الانتشار عند شعوب الشرق، وبالتالي فإن القصة شيء عادي ومفهوم عند الساميين، نعم، يمكن المـوافقـة على هذا الـرأي، ولكن هذا لاينفي الحقيقـة القـائلة: إن الـرؤيـة الواعية الملمـوسـة في طريقـة سرد القصة ووصف الأمزجة البشرية تبهر وتدهش. ولهذا السبب تأثر النـاس ولفتـرات طويلة بقصـة نجـاحـات وفشـل يوسف وحافظت القصة نفسها على طراوة ونضارة دائمتين.

ظن العلمـاء أنهم سيجـدون القصـة الأم، قصـة التـوراة هذه في أدب الشعـوب المجاورة لفلسطين، وذلك كما تكرر مراراً مع قصص العهد القديم، وفي وقت ما، بدا كأن قصـة يوسف تعـود بجذورها إلى الأدب المصري، فقد وجدت في مايسمى برديه دوأوربين قصة عن اخوين تتحدث تلك القصة عن أنوبيس المتزوج وأخيه الأصغر باتا. فقد كان باتا عازبـاً ويعمـل بأمـلاك أخيـه الأكبـر. وفي أحـد الأيام فكرت زوجة أنوبيس بإغرائه، ولكن الشاب ردعها. وعندها اشتكت لزوجها من أن أخاه قد اغتصبها وضربها بعنف لما قاومته، فغضب أنوبيس وأراد قتل أخيه.

لاشك في أن القصة المصرية تُذكر بمشهد يوسف وزوجة فوطيفار. لكن التشابه فقط في هذا المشهد، وهو صغير جداً. ويمكن حتى التشكيك في أن يكون ذلك المشهد منقولاً من الأدب المصـري فمـوضـوع خيـانـة المرأة الزوجية والدعارة، كان مألوفاً في تلك الأيام ويتكرر هذا الموضوع في قصص الكثير من شعوب الشرق القديم. وعلى الأغلب أن ذلك

كان معـروفـاً أيضـاً في أرض كنعـان، وفي نهـايـة المطـاف نضطـر إلى الاعتراف بأن قصة مغامرات يوسف بأصالتها التامة ليست إلا من نتاج الخيال العبري القديم.

لكن هل هي من نتاج الخيال فقط؟ ألا تكون تأسست انطلاقاً من شيء ما، كان قد حدث فعـلاً، فالمعـروف أن الحـوادث التاريخية تأخذ في التقاليد الشعبية صيغة الأسطورة أحياناً لدرجة يصعب معها التفريق بين الحقيقة والخيال، قد تكون قصة يوسف أسطورية، ولكن ذلـك لاينفي إمكـانيـة أن يكـون أحـد فروع العبرانيين قد قطن فعلاً في مصر، حيث كانت حيـاتـه هنـاك جيـدة وهـادئـة. ومن الممكن أيضاً أن يكون يعقوب وأولاده هم أولئك المستوطنون وأن يكون أحد أولاده المسمى يوسف، قد وصل إلى مرتبة حكومية عالية لدى فرعون مصر.

إن العلمـاء يفكـرون بهـذا الأمـر لكنهم لعـدم امتـلاكهم أيـة وثيقـة تاريخيـة، فهم مضطرون إلى الاقتناع بالفرضيات التي يضعونها تبعاً للطريقة الاستنتاجية، لذلك علينا أن نسبـر أغـوار تفكيـرهم. إنهـا ستكـون رحلة ممتعـة، وستفسح المجال للاطلاع على أسرار السبل التي يتبعها العلماء في إعادة صياغتهم للتاريخ كما أنها ستمنحنا متعة جمالية كتلك التي يشعر بها العقل حين يصل، على أساس معطيات متفرقة إلى حل منطقي لقضية ما.

فنتيجـة لحسـابـات صعبة لن نشرحها نظراً لصعوبتها وُجدت فكرة مفادها أن يعقوب عاش بعد إبراهيم بمائتين وخمسين سنة، وهذا أمر شبه ثابت بين العلماء[١٨]، وإذا كان هذا صحيحاً، فإن يوسف يكون قد عاش تقريباً في القرن السابع عشر (ق. م) والتواريخ التي ثبت عليها العلماء تتراوح بين ١٧٣٠ ـ و١٦٣٠ق. م، وقبل ذلك التاريخ، بوقت غير كبير عاشت مصر فترة من أعصب فترات تاريخها. فخلال عام ١٧٨٠ق. م هزّت البلاد أحداث ثورية. فقد ثار الشعب المحروم المؤلف من الفلاحين والعمال والجنود والعبيد في مناطق إقطـاعيـة كبيرة. وسيطر الشعب الثائر لبعض الوقت على السلطة، وكان لذلك الانفجار آثار بقيت لزمن طويـل. وفي القـرن السـابـع عشـر ق. م، اهتـزت القـوة السيـاسيـة المصرية وتأرجحت وضعفت كثيراً.

في ذلـك الـوقت من الانحطـاط السياسي، ألمت بالبلاد مصيبة رهيبة، فمن الشرق زحفت جموع هائلة من المحاربين الغرباء، وانهالت كالسيل على مصر، وانطلق المحتلون المـدرعـون بالحـديـد، المسلحـون بالسيـوف الطـويلة في عربـاتهم التي تجـرها الخيول السـريعـة. وواجـه المصـريـون لأول مرة في حيـاتهم طريقـة جديدة في القتال، فالخيول

المهتاجة، والعربات الجانحة، زرعت بين صفوفهم الرعب والاضطراب. فالمصريون قاتلوا مشاة وشبه عراة. وماكان لأحدهم أن يستخدم رمحه أومقلاعه أوسيفه حتى تدوسه الخيل بحوافرها والعربات بعجلاتها، فقد كانوا ببساطة عاجزين أمام طريقة الحرب المفروضة عليهم وتحولت الدولة المصرية العظمى التي لم تخسر معركة على المدى الطويل إلى رماد. وانطفأ مجد الفراعنة طوال فترة تقرب من مائتي عام.

كان الهكسوس هم المحتلون. وقد اقتبس قادتهم صفات الفراعنة، وبقوا في مصر المهزومة، حوالي مائة وخمسين سنة يضربون بالنار والحديد كل من يرفع راية العصيان. لم يحتل الهكسوس حقيقة سوى مصر السفلى مع دلتا النيل لكن حكام المناطق في مصر العليا دفعوا لهم الجزية. وصارت عاصمة حكام مصر الجدد مدينة أفاريس. المدينة الواقعة في المنطقة الشرقية للدلتا. أما تسمية الهكسوس فقد فُسرت بطرق مختلفة: قيل أنها تعني قادة الصحراء أو الملوك الرعاة. أما البحوث الحديثة فقد بينت أن التسمية يجب أن تترجم إلى (قياصرة البلاد الغربية)، لقد كان الهكسوس ساميين، وكانت لغتهم على الأغلب، قريبة من الشكل البدائي للعبرانية القديمة، وقد دلت الكتابات على أن أسماء قوادهم كانت أسماء سامية صرفة مثل (عناقر وحيان ويعقوبر). لكن من المعتقد أن الهكسوس لم يشكلوا سوى الطبقة الغنية القيادية القليلة للمحاربين. أما عامة المقاتلين فقد تشكلت من مجموعات فوضوية مختلفة القبائل واللغة من ساكني الصحراء والجبال واللصوص وقاطعي الطرق والمتسولين. لقد كانوا وحوشاً متعطشة للدماء والنهب هاجمت مصر كسحابة جراد.

ويعتبر غزو الهكسوس على الأرجح نتيجة لتبادلات سلالية عاشتها منطقة مابين النهرين تلك المنطقة من العالم التي كانت دائمة الاضطراب. ففي الألف الثانية ق. م، زحفت إلى مابين النهرين من الشمال قبائل الغوريين الآسيويين، وطردت من طريقها الأقوام السامية، ومن ضمنها الهكسوس نحو سورية وفلسطين، فالاكتشافات الأثرية في أريحا بينت أن الهكسوس احتلوا هذه المدينة القديمة لفترة من الزمن وهكذا يمكن الافتراض أن الذين احتلوا مصر كانوا يملكون زمام الأمور في فلسطين أيضاً. ويتبادر للذهن هنا، سؤال: ما علاقة يوسف وإخوته بتلك الحوادث؟ في وقتنا الراهن انتشرت قناعة عامة مفادها أن هجرة السبعين إسرائيلياً إلى مصر تمت تحت فترة حكم الهكسوس، فإما أن يكون نسل يعقوب قد انجرف مع موجة الهكسوس التي احتلت مصر، وإما أن يكون قد

هاجر إلى هناك بعد احتلالهم لها. وقد استقبل نسل يعقوب هناك بالترحاب لأنه كان يرتبط ببعض صلات القربى القوية مع المحتلين، وقد كان من صالح أولئك أن يجذبوا إلى مصر أكبر عدد ممكن من الآسيويين. يتحدث المؤرخ العبري فلافيوس يوسيفوس عن الهكسوس على أساس أنهم أجداده. ونصوص القرن السادس عشرق . م المصرية، تتحدث عن قبائل كنعانية بدوية استوطنت في مصر[١٩].

إذن، تجد بعض المقاطع التوراتية تفسيراً منطقياً لها على أساس تلك الخلفية السياسية التي تحدثنا عنها. وقبل كل شيء يُفسر موضوع تعيين يوسف وكيلا لفرعون: اذ من الصعب التصور أن يوافق المصريون. في الظروف الطبيعية على منح ثقتهم، وبالتالي منصب هام من مناصب دولتهم لواحد من الآسيويين المحتقرين لديهم، ففي سفر التكوين (أصحاح ٤٦ ـ آية ٣٤) مذكور التالي عن العبرانيين: « لأن كل راعي غنم رجس للمصريين »، أما بالنسبة لفراعنة الهكسوس الذين احتقروا بدورهم المصريين الذين احتلوهم، فمن السهل فهم سبب ثقتهم الكبيرة بالآسيويين القادمين من أرض كنعان القريبين منهم أصلاً ولغة، وحتى الفراعنة المصريون اتبعوا سياسة مماثلة لسياسة الهكسوس مع أشخاص محددين. فالفرعون أخناتون مؤسس الديانة التوحيدية وعابد إله الشمس أتون (منتصف القرن الرابع عشرق . م)، اضطر للمواجهة والصراع مع المعارضة المكونة من الكهنة الارستقراطيين، وطبقات أخرى كبيرة بقيت مخلصة للإله آمون التقليدي، ففي تلك الصراعات اختار أخناتون أنصاره المقربين إليه من الطبقات المضطهدة المحرومة، التي كان يثق بها أكثر من غيرها، ففي مدفن أحد أعوانه الكبار وُجدت الكتابة التالية: « لقد كنت إنساناً وضيع الأصل، إن كان من جهة أبي أو من جهة أمي. لكن الملك أوقفني على قدمي. لقد سمح لي بالترقي بمهامي ومناصبي. . لقد كنت إنساناً بلا أملاك، فأعطاني هو بكرمه قوتاً يومياً، أعطاني ذلك أنا الذي كان عليه أن يتسول قطعة الخبز كشحاذ ».

وفي تل العمارنة (بقايا عاصمة ذلك الفرعون)، وُجد تابوت لقائد كان يخدم عند أخناتون، اسمه القائد ناحيم وكان آسيوياً. أما وزير ذلك الفرعون يانحام، فقد كان أقوى شخصية في القصر رغم أنه من سلالة آسيوية.

إذن يمكننا بناء على الوقائع التي ذكرناها الحكم على أن قصة يوسف لاتحوي أي شيء مستحيل، وخاصة إذا تذكرنا أنه حكم مصر بنمط سياسي مماثل تماماً لسياسة

المحتلين القائمة على الاضطهاد، فقد استغل سنوات الجوع السبع، فلم يوزع القمح مجاناً، بل أخذ ثمنه ذهباً وفضة ونفائس في بداية الأمر ثم أرضاً، وفي نهاية المطاف أخذ حرية الناس وبسياسته تلك أفلس الفلاح المشتغل بالأرض وأصبح ضعيفاً، ثم أُخِذَ عبداً، وصارت الأرض بمن يعمل عليها ملكاً خاصاً لفرعون، وعلى الأرجح منذ تلك الفترة ظهر في مصر نظام السلطة الملكية المطلقة، والكهنة فقط، هم الذين لم يلاقوا مالاقاه الشعب، وذلك لأنهم كانوا يجمعون محاصيلهم ويخزنونها في عنابرهم، ولم يجرؤ الهكسوس الذين كانوا يعرفون قوة تأثير الكهنة على معارضتهم، وهكذا قامت في مصر ثورة اقتصادية وجذرية وذات نتائج بعيدة كانت ليوسف اليد الطولى بقيامها، لذا قلنا ان مصر عرفت على مدى تاريخها عدداً من الثورات الدموية، وحفظت ذاكرة الجموع المضطهدة تقاليد تلك الثورات، وكانت عدوى الجوع الذي تكرر بشكل دوري قابل للنقصان أو الزيادة هي السبب الرئيسي للعصيان والثورات، وتُحدّثنا كتابة شعرية منسوبة لغني مصري، اسمه إيبوقير، عن مدى عنف الثورات، فعنده مثلاً المقطع التالي:

« صار الفقراء يملكون كل الثروة، وفي الوقت الذي لم يكونوا فيه يملكون حتى نعلاً، صاروا اليوم يملكون الكنوز ».

ونقرأ في مكان آخر: « يذبحون أولاد الاعيان عند الحائط، يهرب الجميع من المدينة. . والذي لم يكن ينام قرب الحائط صار صاحب مروحة كبيرة، والذي لم يكن يملك زورقاً صار يملك بواخر، والذي لم يكن يملك قطعة خبز صار صاحب أعلاف. . والذي كان ينام لفقره بلا زوجة صار اليوم يجد لنفسه خيرة النساء ». وفي مقطع جميل آخر: « احتُلت عاصمة الملك في ساعة واحدة، أسر الفقراء الملك، طُردت حاشيته من القصر، قُتل الموظفون وأخذت الوثائق ».

أخذ الفرعون الهكسوسي بلا شك التقاليد الثورية المصرية بالحسبان. ولهذا خشي من أن يَهُز عصيان شعبي جديد أركان سلطته، ذلك لكونه غريباً عن البلاد، كما كان جباراً مضطهداً. وهكذا لما طرح يوسف خطته لتجنب الجوع القاتل، حياه فرعون كرجل أُنعم عليه بالعناية الإلهية. وبهذا يُفسر وضع يوسف الخاص جداً في القصر والعطف الذي طالما أبداه له فرعون.

قد يعارض أحدهم قائلاً: إن كل ماذُكر ليس إلا طرحاً جميل البنيان، لايستند إلا على القليل الضبابي، مما ذُكر في التوراة. وبشكل أولي على بعض التخمينات، ذلك لأنه

لم يثبت بشكـل قاطـع استيطـان الإسرائيليين في مصر خلال حكم الهكسوس. إن الترتيب الزمني التوراتي كثير الإشكالات. لذا لا يمكن الجزم بشكل قاطع متى دخل يعقوب ونسله مصـر. فدخـولهم كان يمكن أن يتم وبنفس المصـداقيـة التـاريخية قبل احتلال الهكسوس لمصـر بعـد طردهم منهـا، أننا نجد الجواب المقنع على تلك التشككات في تحليل النص التـوراتي الـذي يقـدمه العالم الفرنسي المختص في الشؤون المصرية بيير مونتيه في كتابه (مصـر والتـوراة) حيث يقـول: استوطن يعقوب، كما عرفنا، في أرض جاسام إلى الشرق من دلتا النيل. ويوسف الذي صار وكيلاً لفرعون عاش بالطبع قرب سيده في العاصمة، ولما وصله نبأ قدوم عائلتـه ركب يوسف عربتـه وأسـرع للقاء أبيه. ثم عاد إلى فرعون ليحدثه عن رحلتـه. إذن يمكن الاستنتـاج من النص التـوراتي بشكـل لامجال للشك فيه، أن كل ذلك جرى خلال فترة قصيرة جداً، إذا لم يكن خلال يوم واحد. وفي سفر التكوين (الاصحاح ٤٥ ـ الآية ١٠) يُخبر يوسف أباه بأنه سيسكنه في أرض جاسام وبالتالي بالقرب منه أي في دلتـا النيـل، ومـا كان لممفيس أو الفيـوم أو غيرهما، أن تكون تلك العاصمة، لأن كل تلك المدن تقع على مسافة كبيرة جداً من جاسام. وماكان ليوسف أن يُتم رحلته في العربة إلى أيـة واحـدة منهـا في بضعـة أيـام وعـدا ذلـك، وكما يؤكد خبير الشؤون المصرية الفرنسي ماسبيـرو: فإن المصـريين لم يستخـدمـوا عادة العـربات في رحلاتهم البعيدة، وذلك لعدم وجـود الطـرق المنـاسبـة لذلـك، إن مثـل تلك الـرحـلات كانت تتم بالـزوارق في طريق المواصلات الرئيسية ـ النيل ـ.

إن كل الوقائع التي أوردناها تعتبر بمثابة أعمدة وإشارات مرور ودلالة، تشير كلها إلى أفاريس، عاصمة الهكسوس.

نحن نعرف الآن أن أفاريس كانت في دلتا النيل، لأن الحفريات اكتشفت أنقاضها، والكثيـر من الأختـام بالقـرب من قريـة سان الحجـر الحـالية. وإذا كان يوسف قد حكم في أفـاريس، فإن كل الشكـوك تزول فيجب دمـج سيـرة حيـاته بعصر سيطرة الهكسوس. وكل التـواريـخ الـلاحقة تكون مرفوضة، ذلك لأن الفراعنة الأصليين من السلالة الثامنة عشرة قد نقلوا بعـد طرد الهكسـوس عاصمتهم إلى طيبة؛ كما نرى إذن، تعتمد الفرضية الهكسوسية على أسس معقولة، ولذا يأخذ بها اليوم الكثير من العلماء.

أكثـر مايـدهش في القصـة التـوراتيـة هو الـدقـة التـاريخيـة في إعادة خلق العادات المصـريـة. ويخص هذا بشكـل رئيسي مراسيم دفن يعقوب ويوسف. فقد حُنط جسداهما

خلال أربعين يوماً، أما المومياء فوضعت في نعش خشبي. وها هوهيرودوت يكتب أن عملية التحنيط كانت تستمر أربعين يوماً في مصر، وتؤكد ذلك أيضاً نصوص البردي التي اكتشفت في مقابر الملوك والقادة.

لنتذكر أنه قد حُلقَ ليوسف قبل تقديمه لفرعون. ان هذا التفصيل الذي يتبادر للذهن أنه صغير ومحشور في النص، له أهمية كبيرة، لأنه يدل مرة أخرى على معرفة الإسرائيليين الجيدة بالعادات المصرية، ففي مصر لم يكن يُسمح لأحد بإطالة لحيته. فقد كانت هذه الميزة تخص فرعون فقط، فرعون الذي كان يلتحي بلحية مستعارة، أما يوسف ولكونه عبرانياً، فقد كان على الأغلب ملتحياً، ولذلك حُلق له بناء على العادة المتبعة في القصر.

وكذلك الحال بالنسبة لمراسيم تعيين يوسف وكيلاً لفرعون. فتلك المراسيم الاحتفالية، جرت حسب التقليد الموصوف في البردي والصور المكتشفة في المدائن فالقائد الجديد كان يتسلم من يد فرعون شخصياً هدايا تناسب تسميته السامية ومنصبه الرفيع: طوقاً ثميناً للرقبة، وثياباً ثمينة وإضافة إلى ذلك زوجة ذات أصل رفيع. وخلال الاحتفالات كان القائد يأخذ عربات القصر المذهبة يركبها ويسير بها وراء عربة فرعون مباشرة.

أخذ المصريون عن الهكسوس عادة استعمال الخيول. وبقيت هذه العادة حتى بعد طرد الهكسوس، ومن الملاحظ أيضاً في القصة التوراتية أن كل الأسماء المذكورة مصرية حقاً، ففرعون أطلق على يوسف اسم صفنات فعتيح الذي يعني « الإله يقول: يحيا » واسم زوجته أسنات أي تابعة الآلهة نت (ونت إلهة مقدسة في دلتا النيل)، أما فوطي فارع فهو اسم محرّف عن فا ـ دي ـ فا ـ رع ويعني: الممنوح من الإله رع، وفي النهاية من المجدي أن نضيف أن قصة يوسف تعطي صورة واضحة عن الطبوغرافيا المصرية. فالتفاصيل المذكورة تسمح بالاستدلال بسهولة على موقع أرض جاسام وتُحدد، بواسطة العوامل المساعدة في أية عاصمة عاش يوسف.

مختصر القول: لقد صمدت المادة التي حيكت منها القصة المصرية، تماماً أمام امتحان البحوث العلمية الحديثة. ومن العبث اليوم التشكيك بوجود يوسف كشخصية تاريخية، لكن من العبث أيضاً التفكير في أن قصته ولدَت في مكان آخر غير مصر. لقد كان مؤلفو قصة يوسف أناساً يعرفون البلاد بشكل لايدع مجالاً للشك في أنهم عاشوا هناك أي

في مصر فترة طويلة من الزمن، وفي هذه الحالة نجد تأكيداً لكون أحد فروع العبرانيين وقد يكون ذلك نسل يعقوب قد استوطن في دلتا النيل، وفي أرض جاسام الخصبة فعلاً.

ليس من المستبعد أيضاً أن تكون القصة التوراتية صدى لحادثة تاريخية. وأن يكون أحد العبرانيين واسمه يوسف، قد وصل فعلاً إلى منصب عال في قصر فرعون. ولاحقاً تكونت أسطورة حول شخصيته نسجها العبرانيون متفاخرين بأجدادهم المشهورين

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تخلو المحفوظات المصرية من أي ذكر ليوسف مع أنها تكون عادة ملأى بالتفاصيل، ووصول رجل سامي إلى منصب وكيل فرعون حدث هام جداً، لايمكن نسيانه أو تناسيه.

إن مثل هذا الفراغ التاريخي في الوثائق المصرية، كان يمكن أن يُولد الشكوك حول حقيقة شخصية يوسف، ولكن لايمكن أن نتناسى شيئاً هاماً جداً، ذلك أن الهكسوس قد خلّفوا لدى المصريين حقداً شديداً عليهم، حتى أن المصريين، دمروا وأفنوا كل ما يذكرهم بعهد الهكسوس، لدرجة أن كَتَبَة التاريخ تناسوا عهد الاحتلال الهكسوسي، لأنه يمثل الشقاء والذل للدولة المصرية، فالوثائق التاريخية تتوقف فجأة عند سنة (١٧٣٠ ق . م)، ثم تعود من جديد بعد سنة ١٥٨٠ ق . م. ومايوسف المنفذ الأعمى لسياسة الهكسوس، المسؤول عن تحولات اقتصادية عميقة وغير معروفة لدى المصريين سوى واحداً من ضحايا ذلك التجميد لمائة وخمسين سنة من التاريخ. لقد انعكست تصرفاته في وقت وبشكل قاس جداً على الإسرائيليين، الذين عاشوا في أرض جاسام فترة زمنية طويلة بعده.

مـوسى تحت العمل الإلزامي

عاش نسل يعقوب في أرض جاسام أربعمائة عام على الأقل. لم تكن حياتهم هناك سيئة وتكاثروا بسرعة، وخلال ذلك تسلم سدة الحكم في مصر فرعون جديد لا يعرف شيئاً عن خدمـات يوسف، وكـان شديـد القلق من خصـوبـة الـرعـاة العبـرانيين وتكاثرهم. لقد اعتبـرهم آسيـويين، غربـاء، خطرين على الدولة، فقال لعماله واعوانه: هاهم بنو إسرائيل شعب أكثـر وأعظم منـا. هلم نحتـال لهم لئـلا يكثـر عددهم وينضموا لأعدائنا، إذا حدثت حرب، فيحـاربـونـا ويصيـدوا من الأرض، كان فرعـون في تلك الأيـام يبني في دلتـا النيل عاصمتـه رعمسيس، ومـدينـة الفيـوم ـ مدينـة عنـابـر الحنطـة ومستـودعـات السلاح وكان الإسـرائيليـون العـزل يُمثلون منبعاً ومصدراً ثميناً للقوى البشرية. وها هم بأوامر من الأعلى يساقون إلى ساحات البناء ويُرغمون على تحضير اللبن وشيّه. وهكذا أخذوا يكدون من يوم ليـوم ومن فجـر لفجـر تحت أشعة الشمس الحارقة والمراقبون يلاحقونهم بالعصي. غير أن فرعون اخطأ الحساب فالإسرائيليون تعودوا خلال قرون وقرون على تقلبات القدر الصعبة. وتـابعـوا رغم المـلاحقـة والاضطهـاد تكـاثـرهـم في تلك الظـروف. عنـد ذلك دعا الملك الغاضب إليه قابلتين إسرائيليتين ـ لم يكن هناك غيرهما ـ وأمرهما أن تقتلا عند الولادة كل طفـل ذكـراً. استمعت القـابلتـان إلى الأمر وبطواعية، غير أنهما لم تفكرا عند عودتهما إلى أرض جاسـام بتنفيـذه. سمـع فرعون بعدم تنفيذ القابلتين لأمره فطلبهما للتحقيق، غير أن القـابلتين تخلصتـا من المسؤولية مؤكدتين لفرعون أن النساء الإسرائيليات لم يعدن يطلبن

مساعدتهما في الولادة، وكإثبات لكلامهما قالتا لفرعون: « إن النساء الإسرائيليات لسن كالمصريات فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة ».

أكان يرغب بذلك أم لا! اضطر فرعون لإطلاق سراح القابلتين مكرهاً أو طائعاً. أما الشعب الإسرائيلي فاستقبلهما استقبال الأبطال، وبنى لهما بيتين رائعين تقديراً لشجاعتهما ووفائهما. لكن فرعون لم يتوقف عن تنفيذ مخططه الرهيب، وأمر جلاديه أن يأخذوا الأطفال حديثي الولادة من أمهاتهم ويلقونهم في النيل. فصار البكاء والأنين في أرض جاسام ويدا وكأن القيامة قد أتت بالنسبة لنسل يعقوب.

الإنقاذ العجيب[٢٠]

كان لإحدى أسر عائلة لاوي ولدان هارون ومريم. وفي فترة الملاحقة الرهيبة، وُلد لها ولد ثالث ولسوء حظه كان محكوماً عليه بالموت قبل أن يولد. فهاجت أمه وماجت، وقررت رغم التهديدات بالعقوبة القاسية الاحتفاظ بالولد وتربيته بالخفاء. فأرضعته ثلاثة أشهر في مكان منعزل مظلم من البيت، وربما كان يمكن لها أن تنفذ خطتها، لو لم يكن الولد يكبر وينمو بسرعة فائقة، فقد كان يحرك رجليه باستمرار ويناغي ويبكي بصوت عال جداً يصل إلى مسافة بعيدة من البيت. فصار من الممكن اكتشافه من قبل جلادي فرعون الذين كانوا يجوبون الأزقة في أية لحظة، وعندها ستقع الكارثة لا محالة.

تفتقت مخيلة الأم عن خطة ذكية. لقد عرفت أن ابنة فرعون، كانت تستحم كل يوم في مكان ما من النهر، وأنها كانت تعطف على الإسرائيليين المضطهدين وترثي لحالتهم. ودون أن تفكر الأم طويلاً، وضعت الطفل في سفط طلته بالقار، ووضعته بين الحلفاء حيث تستحم ابنة فرعون، وأمرت ابنتها مريم بمراقبة ماسيحدث لأخيها عن قرب فتم كل شيء كما رتبته الأم. فقد اتجهت ابنة فرعون محاطة بإمائها للتنزه على شاطيء النيل. وفجأة سمعت بكاء طفل، فأمرت إماءها بالبحث عنه بين الحلفاء، وكم كانت دهشتها كبيرة عندما وضعت الإماء عند قدميها سفطاً فيه طفل إسرائيلي. ولما كانت هي ضد أوامر والدها اللاإنسانية، قررت وضع الطفل تحت حمايتها. أما مريم التي كانت تراقب مايحدث فإنها اقتربت من ابنة فرعون، وعرضت عليها أن تحضر لها مرضعة للطفل اللقيط وعند موافقتها، سارعت مغتبطة إلى أمها، هكذا وبطريق طويلة ملتوية عاد الطفل إلى حضن والدته. لم

يعد خطر الموت غرقاً يهدده لأنه لم يكن أحد من جلادي فرعون ليتجرأ ويقف ضد رغبة ابنة فرعون.

مضت بضع سنوات كبر خلالها الطفل فأعادته أمه إلى قصر فرعون، حيث تبنته ابنة فرعون، وأطلقت عليه اسم موسى. ومنذ ذلك اليوم تربى موسى في القصر وكأنه فعلاً من سلالة فرعون، وكان يتبختر بأزهى الثياب المحاكة من الكتان الناعم، وصار يتابع الدروس في المعبد، حيث علّمه الكهنة أسرار علمهم، وصار يملك عبيداً وخدماً ويتنقل بعربة تجرها خيول سريعة، وله غرف نوم عالية الجودة. وبدا واضحاً أنه سيفقد صفات شعبه، ويصبح مصرياً لكن الأم سعت جاهدة كي لا ينسى أصله الإسرائيلي. فقد علمته بالسر عن ابنة فرعون لغته الأم وتاريخ أجداده. وأخيراً كشفت له كيفية نجاته من الموت غرقاً في وادي النيل.

لم يكن من السهل على موسى مفارقة حياة الأرستقراطي المصري المريحة. فالمعرفة والأصدقاء الأرستقراطيون وبهاء الحضارة المصرية، كل ذلك كان يربطه بالوسط الذي أعتاد عليه منذ نعومة أظفاره. ما الشيء المشترك الممكن بين هذا المثقف النبيل التربية وبين الفقراء الإسرائيليين. الذين يمقتهم ويضطهدهم المصريون؟ ومع أنه أحياناً كان قلبه يتألم لرؤية أبناء شعبه يقاسون العذاب، ولكنه لم يكن يملك القوة الكافية لنبذ حياة القصر بروعتها ومحاسنها.

خلال أربعين عاماً ظل موسى ينعم بالمسرات، التي يمكن لمتبنى ابنة فرعون أن يستفيد منها ومنح أيضاً لقب كاهن مصري. كان يبحر بالنيل في زورق فرعون يسليه الموسيقيون والسحرة. وعندما يرجع إلى القصر تمتعه الراقصات الجميلات برقصهن على إيقاع القيثارة والمزمار. لقد كانت رعمسيس العاصمة الجديدة جميلة وممتعة، وروعي عند بنائها النمط القديم في البناء، فالشوارع عريضة والقصور رائعة والمباني الحكومية المتوزعة، والمعابد الكثيرة التي شيدت على شرف الآلهة المصرية. وعلى أطراف المدينة أقيمت العنابر الملأى بالحنطة والشعير. وكانت المراكب المحملة بالبضائع تدخل المرفأ النهري، وتخرج منه والطيور والأسماك كانت وفيرة. ووراء حدود المدينة مباشرة كانت تمتد الحقول المزروعة بالخضار وكانت البساتين مليئة بالأشجار، التي كانت المثمرة منها تنوء بحملها الكثير.

وهكذا كان موسى يحيا حياة بلا هموم ويتمتع بطيباتها. لكنه لم يكن طائشاً قليل العقل. فقد قرأ كل حكمة مصر المكتوبة على البردي باهتمام وتمعن، وفي الأماسي، لما

يبـرد الجـو ويطلع القمـر كان يسير في حديقة القصر برفقة الكهنة، ويدخل معهم في نقاش وجـدل عن الآلهـة وعن الفـراعنـة وعن غايـة الإنسـان في الحياة. أما إذا أقلقه الأرق ليلاً، كانت تمتليء نفسـه بشعـور غريب من الحنين المبهم. وتتـراءى في مخليتـه صور من حياة إخـوانـه الـذين كانـوا يقاسون ويعانون ويلعنون قدرهم. كان يسمع صوت ضربات السياط التي ترغمهم على العمل كعبيد. كانت تصل إليه شكواهـم، كما يصله بكاؤ هـم ورجاؤ هم له، بأن ينقـذهـم، وكـانـت أمـه تأتيـه في المنـام ووجههـا المنعم بالحنـان، يبـدو له حزينـاً بملامحه معبراً عن خيبة الأمل. وبعد مرور ليالٍ عدة على هذا الشكل، لم يستطع موسى الصمـود أمـام هاتف يعـذبه في داخله. كان يشعر أنه يقترف ذنباً، وأن كل ماقدمه في حياته يُعـد فارغـاً لامعنى له. عنـد ذلـك كان يتسلل خارج القصـر كاللص، ويجـري إلى خارج المـدينـة ليشـاهـد من بعيـد كيف كانت تنحني أجساد إخوانه على التراب، وعلى القوالب الخشبية مبدية ظهورها نصف عارية وظاهرة العروق. وهكذا كان يعيش موسى حياة مزدوجة فعـلاً. ففي النهـار يكـون أرستقراطياً مصرياً بارد الأعصاب، يتحول ليلاً إلى ابن مخلص تائه يبحث معذباً، عن تلمس طريق العودة إلى شعبه.

وفي أحـد الأيـام، رأى موسى كيف سخـر مراقب مصـري بلا رحمة من أحد العمال الإسرائيليين العاملين بشي اللّبن. وفي لحظة انفعال هاجمه موسى وبقر بطنه بسيفه، ولما لم يجد بقربه مصريين آخرين، دفن ضحيته بالرمل ليخفي جريمته عن فرعون.. وكان الذين شاهـدوا الجـريمـة كلهم من أبنـاء شعبـه، ولكن ويـا للأسف لم يستطـع هؤ لاء الاحتفاظ بالسر، ففي نفس اليوم الذي وقع فيه الحادث انتشر نبأ مقتل المصري في كل أرض جاسام وامتدح جميع الإسرائيليين موسى على عمله الجريء. لكن بعضهم استنكر العمل حاسداً موسى على الأغلب. هذا ولم يدر بخلد موسى أبـداً أن ينتشـر الخبـر بمثـل هذه السـرعـة الكبيرة. وفي اليوم التالي شاهد عراكاً بين اثنين من الإسرائيليين، فتدخل وفصل بينهما، ثم سأل الأقوى منهما: لماذا تضرب أخاك؟ أجابه ذاك بتحدٍ: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أتفكر أنت بقتلي، كما قتلت المصري؟ فخاف موسى فزعاً لأنه إذا عرف الجميع قصة قتل المصـري، يسهـل على الجـواسيس أن ينقلوهـا إلى فرعون. وبالفعل أبلغ الصالحون بعد مدة وجيـزة موسى بأن حرس القصـر يستـدعـونـه. وفي اللحظـة الأخيـرة هرب موسى من المـدينـة، وتحت جنـح الظـلام تسلل عبر الحائط الحدودي، واتجه فاراً إلى الشرق حيث الصحراء. هي ملجأ أمين له.

أربعون عاماً من الاغتراب الإلزامي[٢١]

على الضفة الشرقية لخليج العقبة تقع أرض مدين، التي سكن فيها نسل واحدٍ من أبناء إبراهيم الستة من زوجته الثانية قطورة، كان هؤلاء من أقرباء موسى. ولذا قرر اللجوء اليهم، وكان عليه أن يسير حوالي أربعمائة وخمسين كيلومتراً عبر البر والصحراء. فوصل أرض مدين منهك القوى مرهقاً من رحلته الشاقة، ولم تعد تبدو على ثيابه الملكية القذرة، التي ملأها العرق، أية دلائل على عظمته السابقة. بل على العكس كانت أرديته تنم عن متسول شقي، منْ أولئك الذين كانوا يجوبون الشرق للتسول. جلس موسى قرب بئر في المنطقة. وأخذ يتأمل بفضول كيف تسقي سبع فتيات قطيعهن، وفجأة وصلت شرذمة من الرعاة إلى البئر، وطردت الفتيات بوقاحة، وأخذت تسقي قطيعها. فامتعض موسى من تصرف أولئك الرعاة، وهاجمهم رغم تعبه واضطرهم للهرب. ثم تبين بعد حين أن الفتيات لسن إلا بنات يثرون، كاهن مدين ذي السلطة الـ ـوية، دعا الأب موسى إلى بيته ليرد له الجميل. وحين عرف أن الضيف قريب له وقادم من بعيد، ضمه إلى بيته وزوجه ابنته صفّورة، وقد أنجبت لموسى ولدين اثنين هما جرشّوم وإليعازر.

ساعد موسى حماه بالعمل ورعي الماشية، وقد حوّله التغيير المفاجيء في حياته هذه رأساً على عقب، فذلك الشاب البهي الطلعة الوسيم الذي تعوّد حياة ترف المدن المصرية، وجد نفسه فجأة في منطقة صحراوية، صخرية ينتشر فوقها دخان البراكين!

في البداية كان من الصعب على موسى التآلف مع وضعه الجديد، إذ كان يقضي أوقاته وحيداً في المراعي، يحن إلى قصره، إلى البردي وإلى أحاديث الكهنة. يلعن قدره المر المفعم بالشقاء، قدر الإنسان المطرود، ولكن موسى مع مرور الزمن أثرت هذه الصعوبات تأثيراً ايجابياً على تفكيره. فالطبيعة القاسية وحياة المراعي البسيطة الشريفة، والساعات الطويلة، التي قضاها وحيداً تحت السماء جعلته يفكر شيئاً فشيئاً عن مغزى حياته. وبالتدريج تلاشت صور الأعوام السعيدة التي ذهبت، لكن شعوره بأنه إسرائيلي الأصل وأن أبا شعبه هو لاوي ابن يعقوب، وحفيد حفيد إبراهيم، صار يقوى ويتنامى يوماً بعد يوم.

كان المديانيون يتفاخرون بأنهم يعودون بأصلهم إلى إبراهيم. فحدثوا موسى بالكثير

من الأساطير والقصص عن ذلك البطريرك العظيم المدفون في مغارة المكفيلة، كما حدثوه عن الإله الذي عبده أجدادهم. عند ذلك تذكر أنه عاد إلى بيته الأصلي بعد ضياع طويل. وصار يصعد الجبل وينظر الى جميع الاتجاهات. كان يرى الصحراء إلى الغرب منه ووراءها تقبع مصر بلد العبودية، وإلى الشرق وراء الجبال تختبيء أرض كنعان ـ وطن أجداده ـ أرض الميعاد أرض السلام والازدهار، في تلك اللحظات تبلورت في ذهنه خطة عظيمة. فقد قرر تحرير إخوته من العبودية المصرية، وأخذهم إلى أرض كنعان الأرض الأم، الأرض الخصبة.

استمر صراعه مع نفسه حوالي أربعين عاماً. لم يستطع التغلب فيها على تشتته وشكوكه وانطوائه الروحي، كانت هناك أوقات تتغلب فيها حياة الراعي على الإغراءات، فكان يذوب في أموره اليومية نهائياً، وآنذاك كان ينسى عذاب الضمير وكان عمره يومها ثمانين عاماً، ويبدو أنه من المتأخر جداً، أخذ مثل تلك المهمة الخطرة على عاتقه، ومن الأفضل الموت بهدوء في أرض مديان التي صارت وطنه الثاني. ولكن الفكرة الجديدة تفرعت وتجذرت رغماً عنه، وصار صوتها أقوى من أن يقاوم.

في السنة الأخيرة لبقائه في أرض مدين صار موسى يتعرض لحالة عنيفة من الهياج الديني، وصار كثير الأحلام والتنبؤات. وذات يوم وهو يرعى قطيعه عند سفح جبل حوريب [الذي يعتبر مقدساً لاعتقاد المديانيين أن إله آبائهم، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب يعيش في السحاب على قمة ذلك الجبل]، نظر حوله فرأى منظراً غريباً. التهبت عليقة بالنار ولم تحترق، وفجأة ناداه صوت من العليقة هو صوت الرب، آمراً إياه أن يتوجه فوراً إلى مصر ليحرر الإسرائيليين من الأسر. فارتعد موسى من الخوف وستر عينيه بيديه كي لايرى الرب، لكنه سرعان ما استرجع جرأته، وافصح عن شكوكه: « ها أنا آت إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي ما اسمه؟ ماذا أقول لهم؟ فأجابه الرب بأن اسمه يهوه ». كانت تلك صراحة رائعة من الرب لكنها لم تقلل من تخوفات موسى، الذي سأل الرب كيف له أن يجعل الإسرائيليين يطيعونه إذا ما جاء اليهم ولايملك أي دليل على مهمته سوى اسم يهوه. عندها زوّده الرب بقوة جبارة ضد ضعيفي الإيمان. فمنذ تلك اللحظة صار موسى قادراً على تحويل عصاه إلى حية، وكذلك استحوذ على قدرة الإصابة بالبرص وشفائه وتحويل الماء إلى دم.

ومع أن موسى زُوِّد بالقوة السحرية غير أنه حاول جاهداً التخلص من المهمة الموكلة

إليـه محتجـاً بعقـدة لسـانه ومؤكداً للرب أنه لن يستطيع التحدث بنجاح في إقناع مواطنيه. غضب يهوه في البداية من منهج موسى، لكنه أخيراً هدأ روعه ووعده أن يعطيه أخاه هارون مساعداً له. ذلك لأن هارون كان طيب الحديث، حلو الكلمة وسيتحدث باسمه. فلم يبق أمـام موسى سوى الاستعـداد للرحلة، إذ ودع حمـاه وأركب زوجته وابنيه على حمار، واتجه بقلب وجل إلى مصر.

في الطـريق كانت بانتظـاره مغـامرة غريبة، فعندما توقف موسى لقضاء الليل في أحد البيوت، قرر يهوه فجأة أن يقتله لأنه غير مختون وبصعوبة استطاعت صفورة استرحام يهوه، بأن قامت بختن ولـديهـا؛ وقـدم هارون في مصـر لاستقبـال موسى، وجمع الأخَوان جميع الإسـرائيليين وبجهـود مشتـركـة اقنعاهم بأن عليهم بأمر يهوه، أن يغادروا أرض جاسام. لم يكن لسحـــر موسى الــذي جاء به دليـلاً على مهمتـه ولا لحـديث هارون، التأثيـر الـرئيسي المطلوب على اتخاذ القرار. كان ذلك التأثير بسبب ملاحقة الإسرائيليين من قبل المصريين كون هذه الملاحقة صارت تهدد بقاءهم.

الخروج من مصر

مضى على قتـل موسى للمصـري في سورة عامـة من الغضب أربعـون عامـاً. تغيـر خلالهـا فرعـون، وأعقبـه فرعـون آخـر وحلت حاشية جديدة في القصر محل الحاشية التي يعرفها موسى، ومحيت جريمة موسى من ذاكرة الناس ولم يعد هناك مايهدد حياة الملاحق السابق بالخطر. وحتى لولـم تُمحَ تلك الجريمة، فمن من الناس يستطيع أن يعرف أن ذلك الأسيـوي الملتحي الخشن الثيـاب، والـذي يحمـل عصـا الـرعـاة في يده هوذلك الشاب المصري المدلل متبنى ابنة فرعون، الذي كان حديث الناس في يوم ما. لقد أرهق موسى خلال أربعين عاماً وتغير حتى لم يعد من الممكن التعرف عليه. لقد ملأت التجاعيد وجهه المسمـر. ولا عجب فقـد صار عجـوزاً ابن ثمانين عاماً، اشتعلت لحيته شيباً. تقدم موسى وهـارون الى فرعـون بطلب ليسمـح للاسـرائيليين بالعـزلة في الصحراء لمدة ثلاثة أيام كي يقوموا بالصلوات ويقدموا الأضاحي على شرف الإله يهوه، وبالطبع كان طلبهما ذاك خدعة بطبيعـة الحـال، فهمـا ما كانـا ليعـودا بالإسـرائيليين إلى الاستبداد المصري. لكن فرعون رفض طلبهما بغضب وكعقوبة أمر الإسرائيليين ان يقوموا بأنفسهم بالبحث عن التبن، ونقله

إلى مواقع العمل لكي يحضروا كمية اللبن المطلوبة منهم، وهذا ما كلفهم عملاً إضافياً. ذلك لأن اللبن كان قليلاً في مصر، مما أرغمهم على البحث عنه في طول البلاد وعرضها. وإذا لم يعط أحد ما الكمية المطلوبة من اللبن كان يعاقب بصرامة. تشكى الإسرائيليون الذين ضربهم التحول المفاجيء في حياتهم ضربة موجعة، وغضبوا من موسى لأن طلبه من فرعون لم يحقق الغاية المرجوة، وخلق لهم متاعب كانوا بغنى عنها.

توجه موسى من جديد إلى فرعون آملاً التأثير عليه بواسطة السحر هذه المرة. وقف أمام العرش وألقى عصاه فتحولت إلى حية فوراً. لكن فرعون نظر إلى الساحر الملتحي نظرة ملؤها السخرية والاستهزاء، وأمر أن يحضر كهنته. ففعل أولئك كما فعل موسى. ولم يؤثر على فرعون حتى التهام حية موسى لحيات الكهنة المصريين.

منذ تلك اللحظة تفجر صراع بين موسى وفرعون العنيد، فأرسل موسى على مصر بالتسلسل عشرة أنواع من البلاء المميت، في البداية تحول ماء النيل إلى دم. ثم تكاثرت الضفادع وتكاثر الذباب والبعوض بشكل وبائي رهيب. وضرب الطاعون الحيوانات، وتغطت أجسام الناس بالدمامل والبثور المليئة بالقيح، أتلفت المحاصيل وهاجمت البلاد أسراب هائلة من الجراد. وقبيل النهاية عمّ الظلام البلاد حتى أن الناس صاروا يسيرون بواسطة اللمس. وكان كل وباء يخلق الهلع والفزع في قلب فرعون. فصار يعد بعد كل ضربة بتحرير الإسرائيليين، ولكنه لايلبث أن يحنث بوعده رغم مطالبة المصريين له، وحثهم إياه ألا يحنث بوعده لعلهم يتخلصون من البلاء الذي كان ينزل بساحتهم.

بلغ السيل الزبى عند موسى، فقرّر في النهاية كسر طغيان فرعون وعناده بالبلاء العاشر، وكان أفظع وأشد بلاء، لكن قبل أن يقوم بذلك نبه الإسرائيليين إلى أن يكونوا على أتم الاستعداد، وطلب من كل عائلة أن تذبح خروفاً ابن عام واحد وأن تطلي بدمه باب بيتها. وكان على الإسرائيليين أن يأكلوا على العشاء لحم الخروف المشوي مع خبز طازج ونباتات مُرّة الطعم، عدا ذلك فقد نصحهم موسى أن يجلسوا إلى الطعام بلباس السفر كي يتمكنوا من مغادرة مصر بأية لحظة.

انتصف الليل، فصار الإله يهوه ينتقل من بيت لبيت وحيث كان لايجد بيتاً مطلياً بالدم يقتل فيه الأولاد الذكور بلا تمييز بين ابن فرعون وابن أية أَمَة في مصر، وحتى بكور المواشي لم تنجُ من عقاب يهوه عند ذلك فقط اعترف فرعون بقوة موسى الرهيبة، وسمح له بأن يُخرج الشعب الإسرائيلي من نير العبودية.

استغـل الإسـرائيليـون الفـوضى الحـاصلة، ونهبـوا بيـوت المصـريين انتقـاماً من ملاحقتهم لهم وإرغامهم على العمل عندهم. وهكذا امتلك الإسرائيليون الأدوات الذهبية والفضيـة والثيـاب وغيـرهـا من النفائس وقبل كل شيء امتلكوا السلاح الذي قد يفيدهم في الصـراع مع قبـائـل الصحـراء. خلّد موسى تلك الحـادثة بأن أسس عيد الفصح. لأن يهوه أفصح عن بيوت الإسرائيليين، وقتل بكور المصريين.

عبور البحر الأحمر

صدحت الأبـواق الفضيـة، وغـادرت جحـافل الإسرائيليين أرض جاسام متجهة نحو الشـرق. وتكـون جحفـل الإسـرائيليين من ستمائة ألف رجل مسلح، عدا النساء والأطفال والعبيـد. سارت في مقـدمـة الـركب عربة موتى تحمل نعشاً خشبياً فيه مومياء يوسف. وسار وراء الموكب أعداد هائلة من الماشية والحمر الموقرة الظهور. تأكد الهاربون أن الإله يهوه، هو الذي يقودهم في الصحراء. فقد كان يسير أمامهم نهاراً في عمود من سحاب، وليلاً في عمود من نار يصل قبة السماء. سار موسى بالإسرائيليين في البداية في طريق القوافل القديم المحـاذي لشـاطيء البحـر المتـوسـط، ثم انحرف إلى الجنوب نحو برية أيثام، وذلك لأنه خشي ألا تسمـح له شعـوب السـاحـل بالعبـور إلى أرض كنعان دون قتال. نصب الهاربون معسكرهم الأول لوقت طويل في أيثام، ثم تحركوا من جديد نحو الشمال، ونصبوا خيامهم أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر قرب مدينة بعل صفون المشهورة بمعبد الإله الكنعاني بعل.

في ذلك الوقت قام فرعون الغاضب بملاحقة الهاربين على رأس ستمائة من عربات الحرب، ويا للهلع الذي أصاب الإسرائيليين عندما ظهرت من بين الغبار العربات الجبارة! نظـر الإسـرائيليـون إلى المحاربين المصريين المسمرين في أمكنتهم ونادمين على غبائهم الـذي سمـح لمـوسى بإخـراجهم من أرض جاسـام حيث كان من الأفضل العيش تحت نير العبودية من الموت على أيدي المطاردين، الآن: هدأ موسى من روع الجماعات المنهارة، مُؤكداً لهم أن الإله يهوه لن يترك شعبه للعذاب.

وبـالفعـل عنـدمـا حل الظلام أوقف زحف المصريين جدارٌ هائل من النار والدخان، ظل واقفاً في طريقهم حتى الفجر. وفي الصباح وصل موسى إلى شاطيء البحر، بسط يده

وأمر الأمواج أن تنقشع فتشكلت فوراً بين موجتي الماء المزبد، أرض يابسة عبر عليها الإسرائيليون البحر الى الشاطيء الآخر. حث فرعون الغاضب السير وراء الهاربين وفي اللحظة التي وصل فيها وسط البحر، رفع موسى يده اليمنى وبإشارة منه انهارت جدران الماء على المطاردين ولعدة ساعات بقيت الأمواج تقذف جثث المحاربين وخيلهم وبقايا عرباتهم الى الشاطيء، تقذف البقايا الهزيلة من الخيالة المصريين الأباة(٢٢). شكر موسى ومعه كل أبناء إسرائيل الإله يهوه بأغنية، وانغمست النساء بقيادة النبيّة مريم. بالرقص على إيقاع الدف.

التجول عبر الصحراء

توجه الإسرائيليون بعد ذلك نحو برية شور. وكانت طريقهم تمر عبر مناطق لاماء فيها. فظلوا ثلاثة أيام دون ماء وعندما وصلوا مارّة أصابتهم خيبة أمل فقد تبين لهم أن ماء مارّة مر لايصلح للشرب، فكان ذلك بالنسبة لأولئك المتعطشين لقطرة ماء ضربة غير متوقعة، أدت إلى انفجار موجة جديدة من التذمر في المعسكر. لكن موسى وجد الحل والمخرج. فألقى في البئر شجرة كان قد وجدها في القرب، فصار الماء عذباً صالحاً للشرب، اتجه المرتحلون بعد أن استرجعوا شيئاً من قوتهم نحو ايليم الواحة التي تشبه الجنة والمشهورة بشجرات النخيل السبعين وبينابيع الماء الرقراقة والاثنتي عشرة، لكن التوقف الطويل كان محظوراً هناك لأن على القافلة أن تغذ السير إلى أمام. وبعد ستة أسابيع بالتمام من ساعة الخروج من مصر، نصبت القافلة معسكرها في برية سين التي بين إيليم وسيناء.

ألهبت الشمس أجسادهم بلا هوادة، ولكي تزداد المصائب نضبت لدى الهاربين احتياطات الطعام والماء، فطالب الناس بالماء، وأمرهم موسى بعدم الاستعجال والوسوسة. غير أن المترحلين الذين لم يعتادوا قساوة الصحراء اعتبروا وكعادتهم أن موسى وهارون هما المسؤولان عن تلك المصائب التي حلت بهم. تجمعت الجموع حول خيمتي القائدين، وبدأت تبكي مصيرها: « ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع ».

فهم موسى لدى سمـــاعـه تلك الكلمـات مدى سيطـرة روح العبـوديـة على الشعب الإسـرائيلي وذلـك لأن الخبـز واللحم أهم لديـه من الحـرية . غير أنه هدأ من غضب اتباعه واعداً إياهم بأن يهوه سيطعِمَهُم حتى الشبع وعلى أحسن ما يتوقعون .

عند المساء تحقق الوعد ، فمن الشرق قدمت أسراب كبيرة من طيور السلوى غطت الأرض بلمحـة بصـر متعبـة من الطيـران الطـويـل ، وأخـذت تلك الطيـور ترفرف بأجنحتها بضعف شديـد عاجـزة عن متـابعـة الطيـران . فكـان من الممكن الإمسـاك بها باليد . هاج المعسكر بالحركة وأوقدت المواقد ونصبت القدور . وبعد مدة وجيزة انطلقت رائحة الشواء . وبعـد أن أتخم الشعب طعـامـاً افتـرش الأرض مردداً عبـارات الشكـر والمـديح لقوة موسى الخارقة وقبيل الفجر ، عندما أيقظتهم أصوات الأبواق الفضية ، رأى الإسرائيليون مندهشين منظـراً رائعـاً . لقـد كان المكـان كله على مد البصـر مغطى بكرات بيضاء كالثلج تشبه حب البَرَد . وركض الجميع من خيامهم كي ينظروا المشهد الغريب عن كثب ، وخرج موسى من خيمته أيضاً ، وأبلغ القوم وابتسامته عميقة المعنى مرسومة على شفتيه ، بأن مايرونه ليس إلا المن ، أرسله الإلـه يهـوه ليحـل محـل الخبز عند الإسرائيليين ، وعندما تذوق الإسرائيليون الكـرات الغـريبـة ، تأكـدوا من أن طعمهـا يشبـه طعم الخبـز المطلي بالعسـل ، فحثـوا في تجميعها الخطى ، وتبين لهم أنه من الممكن أن يجمع الواحد منهم كمية من المن في اليوم الواحد تكفيه لسد الجوع ، ومنذ ذلك الحين ولمدة أربعين سنة من التجول في الصحراء ، صار المن خبز الإسرائيليين وقوت يومهم . وخلال التوقف التالي في رفيديم عانى الناس من نقص الماء ، فعمت الفوضى في المعسكر ، وأخذت تنطلق هنا وهناك صيحات الاعتراض والتهـديـد ، فاتجـه موسى إلى جبـل حوريب القـريب ، واقتـرب من سفحه وعلى مرأى من النـاس العطـاش ، ضرب الصخـر بعصـاه فتفجر للتوّ نبع ماء عذب ، ولما رأى الإسرائيليون تلك الأعجـوبـة ، تحجروا كالأصنام لبرهة ، ثم عمت الفرحة نفوسهم وباركوا موسى وملاؤ ا بالماء السلسبيل كل أوعيتهم .

وماكادوا يطفؤ ون عطشهم ويسقون مواشيهم ، حتى سمعوا أصوات حرب فكان على الإسـرائيليين ، ولأول مرة ، اختبـار قدرتهم القتـاليـة ضد القبائل الصحراوية المحاربة . لقد كان أولئـك هـم العمـاليق الـذي قرروا إيقـاف زحف الضيـوف الـذين لم يَدعُهم أحد ، كما قرروا أخـــذ الغنـــائم منهم ، ولكن العمـاليق كانـوا مخطئين جداً إذ اعتقـدوا أنهم ينـالـون فريستهم بسهـولـة ، وسلم موسى قيـادة قواتـه ليشوع بن نون الذي وجّه قواته بحنكة وسرعة

للقاء العدو المهاجم، وتابع موسى وهارون وحور سير المعركة التي تأرجحت فيها كفة الميزان بين الطرفين، والتي استمرت من الصباح حتى المغيب. تابع موسى سير المعركة من على جبل، وحدث أنه عندما كان يرفع يديه كانت تميل الكفة لصالح الإسرائيليين. وحين كان ينزلهما يربح العماليق، واستمر ذلك الوضع لساعات طويلة تعبت خلالها يدا موسى، ولم يعد قادراً على رفعهما. فما كان من هارون وحور كي يجنبا الإسرائيليين الخسارة إلا أن أجلسا موسى على حجر ورفعا يديه من الجهتين وأمسكا بهما مرفوعتين، وقبيل المساء حطم يشوع بن نون العماليق وأرغمهم على الفرار، وأقام الإسرائيليون مذبحاً على أرض المعركة، ونصح يهوه موسى بأن يخلد تلك الذكرى « اكتب هذا تذكاراً في الكتاب وضعه في مسامع يشوع. فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ».

وصل خبر الانتصار العظيم بسرعة إلى يثرون، الكاهن المدياني حمي موسى. فقدم على عجل إلى معسكر الإسرائيليين محضراً معه زوجة موسى وولديه جرشوم وإليعازر، ذلك لأن موسى كان قد أعاد إلى مديان، أقرباءه، قبل أن يصفي حسابه مع فرعون.

في اليوم التالي، قضى موسى في الشعب، وجلس من الصباح وحتى المساء يستمع للناس ويتفهم مشكلاتهم، ويحكم بينهم بكل شاردة وواردة، ورأى يثرون كيف يرهق موسى نفسه ويضيع وقته على اشياء صغيرة تافهة. ولما كان يثرون رجل حل وسياسة فقد صارح صهره بتصوراته: « مابالك جالساً وحدك، وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء؟ أنك تكلّ أنت وهذا الشعب الذي معك، لأن الأمر أعظم منك لاتستطيع أن تصنعه وحدك »؛ فطلب موسى النصح من حميه، ونصحه ذاك بأن يقسم الإسرائيليين إلى مجموعات تعداد كل منها ألف شخص، وأن يضع على رأس تلك المجموعات رؤ ساء يكونون لها قضاة يحلون الخلافات الصغيرة، ويدرسون الشكاوى، ويعلمون موسى بالأمور الهامة فقط، فطُبق مشروع يثرون الحكيم مباشرة. ـ وهكذا وضع الإسرائيليون أول بواكير نظامهم الاجتماعي المستقبلي ـ. . .

الرقص حول العجل الذهبي

في الشهر الثالث لخروجهم من مصر، تجمع الإسرائيليون في البرية مقابل جبل سيناء. وكان في ذلك الجبل الصخري الشاهق بقمته نحو السماء شيء ما غريب، يُوَلد

الخوف والوسوسة لدى أولئك الذين اعتادوا منظر السهول في دلتا النيل. لكن ماكان يخفف من الأمر أن المكان المجاور صالح للاستيطان فيه لفترة طويلة، فهناك الماء الغزير وأشجار النخيل والأشجار الصالحة للتدفئة والطبخ والبناء. فعاش المعسكر حياة صاخبة وأمنت طريقة الحكم الجديدة النظام للناس، عمل الرجال بالصناعات والنساء بالغزل والنسيج والحياكة، والأولاد كانوا يمرحون ويلعبون بين الخيام.

في تلك الأوقات السعيدة صعد موسى يوما إلى قمة جبل سيناء، وقابل هناك الإله يهوه، الذي صرح له أنه عازم على توقيع ميثاق وحدة مع الشعب الإسرائيلي. رجع موسى بالخبر السعيد إلى المعسكر، وأمر جميع الإسرائيليين بغسل ثيابهم والصيام ثلاثة أيام، كي يجهزوا أنفسهم، كما يجب بانتظار اللحظة العظيمة. ولما آن الأوان، تجمع الشعب عند سفح جبل سيناء. حرّم موسى على أي كان صعود الجبل المقدس، ورسم بعصاه الحدود التي سيموت من يتجاوزها.

وقف الرجال والنساء بأنظف الثياب على طول الخط الذي رسمه موسى. وفجأة ارتفعت زوبعة مخيفة، ثم أرعدت وأبرقت وحجبت الجبل أعمدة من دخان. وإضافة إلى تلك العجائب، عندما صدحت الأبواق الخفية، وقع الناس على الأرض وغطوا أعينهم بأيديهم. انهم لم يروا كيف صعد موسى الجبل في تلك اللحظة واختفى بين الدخان المتصاعد حول القمة، وهناك على قمة جبل سيناء أخذ موسى من الإله يهوه مجموعة قوانين وارشادات ، تصبح منذ ذلك اليوم أساساً لحياة الإسرائيليين الاجتماعية. عاد موسى بتلك الهدية الثمينة إلى البرية وكلف الأسباط الإسرائيلية الاثني عشر، كلاً على حدة، بإقامة مذبح على شرف الحدث العظيم. ثم صار ينتقل من مذبح إلى آخر، يذبح الكباش، ويرش المؤمنين بدمائها دلالة على الميثاق المعقود مع يهوه.

بعد فترة توجه موسى مرة أخرى للقاء الإله يهوه وأخذ معه هارون وناداب، وأبيهود، وسبعين من شيوخ إسرائيل، ولكنه تركهم في منتصف الطريق في الجبل، وصعد وحده إلى القمة. وأقام هناك أربعين يوماً بلياليها. وأعطاه يهوه لوحين حجريين منقوش عليهما عشر وصايا، كما أعطاه تعليمات لبناء تابوت العهد(*١٦)، وخيمة الاجتماع، وهي المكان المقدس الذي يجب أن يحفظ فيه التابوت، وفي نهاية المطاف، أبلغ يهوه موسى بأنه قد منح هارون لقب الكاهن الأول وأعطى نسل هارون، ألحق في وراثة هذا اللقب. خلال ذلك ملّ

جماعة موسى الماكثون في منتصف الطريق الانتظار وتعبوا فعادوا الى المعسكر، وخشي هارون أن يكون قد أصاب أخاه سوء، فتشتت فكره ولم يعد يعرف كيف يتصرف.

تزعزع الايمان بوصاية يهوه في قلوب الإسرائيليين فهولم يكن إلا إلهاً، علموهم طقوس عبادته منذ مدة وجيزة جداً، والآن لما غاب عنهم موسى بحماسه الديني عاد الإسرائيليون إلى آلهتهم السابقة، التي عبدوها في مصر فتجمع أناس كثيرون أمام خيمة هارون ممتعضين من غياب موسى عنهم، وقالوا له: « قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لانعلم ماذا أصابه ». لم يجد هارون الذي أخذت تساوره الشكوك القوة الكافية لمعارضة الناس. فقدمت النساء بناء على طلبه ما لديهن من الحلي، وجمعن من الذهب مايكفي لصب عجل منه. في اليوم التالي نُصب تمثال العجل في منتصف المعسكر، وقام الناس السعداء برجوعهم إلى آلهتهم التي عبدوها منذ غابر الأزمان، بتقديم القرابين للعجل وأقاموا مأدبة كبيرة على شرفه. وصدحت أنغام الأبواق والدف طيلة النهار. وغنى الرجال والنساء والأطفال ورقصوا حول العجل بحماس كبير، تحول أحياناً إلى هيجان ونشوة دينية عارمة. واللاويون وحدهم هم الذين رفضوا ذلك الأمر، ونظروا بهلع إلى الناس الذين امتنعوا عن عبادة يهوه وكفروا به، وعادوا إلى عبادة الأصنام. سمع موسى عن بعد وهو يهبط جبل سيناء الضجيج الهائل فأغذّ المسير. ولما وصل المعسكر تملكه غضب عظيم من رؤية تلك الحفلة التهكمية وماكان منه إلا أن حطم اللوحين المنقوش عليهما وصايا يهوه وحطم العجل الذهبي وحوله إلى رماد. ونثر الرماد في الماء. وأمر الإسرائيليين بشرب الماء، ثم عنّف هارون بشدة لضعف إرادته ودعا إليه اللاويين وأمرهم: « هكذا قال الرب، إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ». . فتسلح اللاويون وقتلوا آلاف المرتدين.

الميثاق مع يهوه

عندما عاد الأمن والنظام إلى المعسكر رجع موسى من جديد إلى جبل سيناء ليرجو الإله يهوه بالصفح عما حدث، وسمع يهوه مرة أخرى الوعد بإعطاء الإسرائيليين أرض كنعان، حيث أنهار العسل واللبن. شكر موسى يهوه، وعاد إلى المعسكر، وأمر بإقامة خيمة

خاصة لتكون خيمة للاجتماع . ولم يكن يُسمح لأحد غير موسى بدخولها . وكان عندما يقف عند مدخلها ويرفع يديه للأعلى ، يخرج الناس من خيامهم وينظرون بخوف إلى زعيمهم وهو يتكلم مع يهوه. ولم يكن أحد يعرف ماذا بقرارة نفس موسى الذي اكتفى سابقاً بسماع صوت الرب الذي يعبده بصدق، لكن موسى صار يطيل المدة أكثر فأكثر، لقد رغب برؤية وجه ربه ، لكن يهوه رفض بشكل قاطع طلب موسى مؤكداً أنه لن يُري وجهه أبداً لبني الإنسان . غير أنه انصاع أخيراً لرغبة موسى فوضعه في نقرة من الصخر، ثم غطى موسى وجهه بيده ومر يهوه أمامه، ولما عبر رأى موسى ظهره .

بعد مدة أمر يهوه موسى أن ينحت لوحين من الحجر لينقش له عليهما من جديد الوصايا العشر. فأخذ موسى لوحين وجهزهما، وعاد بهما إلى قمة سيناء وبقي هناك أربعين يوماً بلياليها دون خبز ولا ماء. لم يكتف يهوه بالوصايا العشر. بل سلم موسى فوق ذلك مجموعة من القوانين والتعليمات الدينية التي يجب على الإسرائيليين تطبيقها في جميع نواحي حياتهم .

عاد موسى إلى المعسكر وكان وجهه يشع نوراً يعمي البصر، فاضطرت رعيته لحرف نظرها عنه . لذلك غطى موسى وجهه بغطاء، ولما تحدث مع المؤمنين بخشوع تبين لأولئك أنهم يرون رمز القدسية على رأسه ، بدأ موسى ينفذ ما أوكل اليه بجد واجتهاد . وقبل كل شيء بدأ ببناء تابوت العهد وخيمة الاجتماع المحمولة . لذلك كان يلزمه الكثير من الذهب والفضة والنحاس . فطلب من المؤمنين به أن يساعدوه في مشاريعه ، وأوكل القيام بجميع الأعمال إلى اثنين من الصناع هما بصلئيل وأهولياب ، وقد كان هذان من أمهر الصناع في معالجة المعدن ، وفي التجارة فبنيا التابوت من خشب السنط ، ورصّعوه من الداخل والخارج بالذهب الصافي . ووضعا على الغطاء لوحة معدنية فيها كتابة تدل على أن يهوه يسكن هناك ووضعا على طرفي الغطاء صورة طائرين بجناحين عريضين يغطيان اللوحة ، وكأنهما يحاولان حمايتها من العين الغريبة .

وضع موسى اللوحين الحجريين في التابوت وكذلك التعاليم السينائية الأخرى، أما خيمة الاجتماع(٢٣)، فكانت في وسط فسحة مربعة الشكل محاطة بأعمدة برونزية ذات تيجان فضية رائعة الصنع . ومن العتبات المتعارضة تتدلى شراشف من الكتان تشكل ستاراً عالياً يغطي المساحة من كل الجهات ، أما الدخول إلى البهو فيتم عَبْر باب مغطى بقماش مزركش مصنوع من الصدف الأرجواني اللون . بنى البناؤون الخيمة من أعمدة وعوارض

من خشب السنط المزينة بالذهب، ولكنهم لم يثبتوها ببعضها بالمسامير، فقد ثبت البناؤون حلقات ذهبية بالعوارض، وفي تلك الحلقات أدخلوا عصوين، وبفضل ذلك التركيب كان من السهل تجميع وتفكيك ونقل الخيمة عند الضرورة. غير أن جدران الخيمة الخارجية لم تُرصع بالذهب بل حُفظت من تأثير المطر والشمس بجلود الماعز الحمراء والزرقاء وعند مدخل الخيمة وضعوا مذبحاً من البرونز، وقربه من النحاس فيها ماء. وكان يُسمح للشعب بالصلاة في الفسحة الأمامية فقط في الوقت الذي كان فيه الكاهن الأعلى يقدم القرابين ليهوه وهو يرتدي ثياباً جميلة موصوفة وصفاً دقيقاً في تعاليم موسى: ففوق الرداء الأبيض الكتاني يلبس جبة زرقاء من الصوف أذيالها مرصعة بأجراس ذهبية. لذلك كانت كل حركة للكاهن تترافق برنين الأجراس المعدنية وعلى الصدر جديلة من الذهب والصوف الأزرق والقرمزي، وعلى الجديلة يلمع اثنا عشر حجراً كريماً بعدد أسباط إسرائيل، وعلى كل حجر منقوش اسم سبط من الأسباط، وإضافة لذلك كان الكاهن يرتدي على كتفيه شالين مرصعين بالأحجار الكريمة والسلاسل الذهبية الثقيلة. وفي مقدمة العمامة[٢٤] البيضاء، ثُبتت صحيفة ذهبية منقوش عليها: « قُدِّسَ الرب ».

بعد أن ينهي الكاهن وضوءه حسب التقليد، يدخل وحده إلى بهو الخيمة التي غطيت جدرانها بقماش مزركش زينته النساء الإسرائيليات برسوم غريبة للكروبينات، وفي وسط الخيمة، أقيمت محرقة من الذهب الصافي تنطلق منها أطيب الروائح وطاولة وخبز وشمعدان بسبع تشعبات، ووراء القماش المزركش تقبع أقدس نقطة هنا حيث يقيم يهوه. وهناك في ظلمة الخيمة كان يُحفظ تابوت العهد الذهبي الحاوي على كنز الطقوس الإسرائيلية.

لقد مُنح اللاويون وحدهم شرف خدمة خيمة الاجتماع، وحمل تابوت العهد عند التنقل. ومن صفوفهم اختار موسى قضاته وكتبته والمعلمين، وطاردي الأمراض، وجباة الضرائب، فبالإضافة إلى نقابة الكهنة، صار أولاء يشكلون مجموعة اجتماعية ذات طابع خاص، كما وأن اللاويين الشديدي الإيمان بموسى كانوا له حرساً ومرافقين خلال الترحل.

في الطريق إلى قادش

ظل الإسرائيليون معسكرين عند جبل سيناء سنة كاملة، حدثت لهم تطورات كبيرة

خلالهـا ، فبفضـل جهود موسى ، تحولت كتلة المترحلين العديمة الشكل إلى مجتمع تسيره طبقـة من أصحـاب الـرتب والمقـامـات ، وحُـددت معايير الحياة المشتركة بقوانين وتعاليم وطقـوس عبـادة الإلـه يهـوه ، واتخـذت أوجهـا محددة على شكل مؤسسات دينية ومناصب روحية وتقاليد صارمة ، وأصبح الخطر على الإسرائيليين أقل لأنهم شكلوا جيشاً نظامياً يسوده النظـام والطـاعـة ، وأصبـح كل سبـط يسـير وراء قائده العسكري وتحت راياته الخاصة به ، وهكـذا رسمت عنـد سفـوح جبـل سينـاء الأسس البـدائيـة للأمـة الإسرائيلية المستقبلية ، وسيطـرت الأهـداف والمصـالـح الجمـاعية على أهداف ومصالح الأسباط المتفرقة ، وشعر موسى بعـد أن نفـذ ذلـك كله بأنـه صار قوياً لدرجة تمكنه من احتلال أرض كنعان . لكن لم يكن بين الإسرائيليين من يستطيع الاستدلال على الطريق إلى [أرض الميعاد] ، وكان من المحتمل أن يضيع الانسان في تلك البرية الواسعة ، كما كان من المحتمل أيضاً أن يقع في كمائن القبائل البدوية الشرسة . لقد تفهم موسى الوضع جيداً ، لذلك أخذ يبحث عن دليل يعرف المنطقة جيداً ، وكان أفضل الموجودين هو حوباب ، قريب موسى ، ابن يثرون ، ابن يثرون الكاهن المدياني ، ولكن حوباب رفض القيام بتلك المهمة ، ولم يوافق عليها إلا بعد توسلات كثيرة .

وقبيل الفجر صدحت الأبواق الفضية ، ورفع الإسرائيليون خيامهم ، وبدؤوا المسير . سارت قافلة الغـربـاء الطـويلة حسب نظـام وضـع لهـا من قبـل ، فكان اللاويون على رأس القـافلة ، يحملون تابـوت العهـد على عوارض خشبيـة ، وكـذلك خيمة الاجتماع المفككة والأواني المقـدسـة . وسـارت وراءهم الأسبـاط الأخـرى كل سبـط تحت رايته . وفي نهاية القافلة سارت قطعان الغنم والحمير الهائلة . وكانت تحرس القافلة كتائب مسلحة مخصصة لهذا الغرض ، ويتقدم القافلة جواسيس أرسلوا أمامها .

سار النـاس في الصحـراء ثلاثـة أيـام ، ألهبت الشمس خلالهـا أجسـادهم ، فأخذوا يتـذمـرون من جديـد ، ولمـا كان ذبـح الغنم ممنـوعـاً عليهم ، فإنهم عاشوا فقط على المن والسلوى التي سئموا منها كثيراً ، وقد زاد الطين بلة حريق شب في المعسكر ، وذهب بالكثير من النفائس . فخارت عزائم الإسـرائيليين أمام الصعوبات والجوع وفقدان النفائس ، فصاروا يجلسـون أمـام خيمهـم ، ويتـذمـرون من موسى لأنـه أقنعهم بالخـروج من مصـر ، وأخذوا يتـذكـرون بشـوق وحنين الأيـام المـاضيـة الطيبة التي لم تعكرها العبودية والملاحقة « وقد

تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم . والآن قد يبست أنفسنا ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن ».

تأثر موسى كثيراً بتصرف شعبه اللامسؤول، وطلب عقد اجتماع لمجلس الشيوخ، ليقرر معهم خطة العمل المستقبلية . لكن معجزة جديدة حصلت: فقد ظهرت من جديد أسراب السلوى قرب المعسكر. فأخذ الإسرائيليون يصطادونها ويأكلونها بنهم وشره . وكانت الطيور كثيرة جداً بحيث كان من الممكن تقديد لحمها وتخزينه لوقت الحاجة . لكن عقاباً شديداً كان ينتظر المتذمرين ضعيفي الإيمان . ذلك لأن الطيور كانت سامة فانتشرت الأمراض في المعسكر وصار الناس يموتون كالذباب . ولم يمض زمن طويل حتى امتلأت الأرض بالقبور، فسمى الإسرائيليون ذلك المكان « قبرونت هتأوه » « لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا ».

وفي المحطة التالية في حضيروت . حصل ما هو أفظع من تسمم الطيور. فقد ثار على تصرفات موسى أقرب المقربين إليه وهما أخواه هارون ومريم . حيث اتهما أخاهما الجبار بالزواج من كوشية ولاماه على ذلك، ولكن ليس معروفاً الوقت الذي تم فيه ذلك الزواج، فإما أن تكون زوجة موسى الأولى ابنة الكاهن قد ماتت، وإما أن يكون موسى قد اتخذ لنفسه عشيقة كوشية . ولكن هذا ليس مهماً إذ ان امتعاض أخويه كان بسبب مخالفته التقاليد العبرية .

وفي الحقيقة كانت هناك متناقضات عميقة تكمن وراء تلك الخلافات العائلية . فقد كانت قناعات موسى الذاتية بأن يهوه يتكلم بلسانه فقط وأنه أي موسى هو الذي يملك الحق بالتكلم باسم الرب، وكانت تلك القناعات تسبب امتعاض مريم وهارون الكاهن الأعلى، لذلك صارا يتجولان في المعسكر متذمرين « هل كلم الرب موسى وحده؟ ألم يكلمنا نحن أيضاً ». لقد كان ذلك صراعاً حقيقياً على السلطة . فقرر موسى قمع هذا الصراع ووأده في مهده، فأخذ المتشككين إلى خيمة الاجتماع، حيث تكلم يهوه معهما في السحاب وأنكر عليهما فعلتهما وأمرهما بإطاعة موسى . ثم صفح يهوه لهارون فعلته . أما مريم المحرضة الرئيسية فقد ضربها يهوه بالبرص وطردها من المعسكر. لكن بعد سبعة أيام وتحت ضغط رجاءات موسى، أعاد يهوه لمريم عافيتها، وسمح لها بالعودة إلى قومها . أخيراً وصل الإسرائيليون إلى حدود كنعان الجنوبية، وتوقفوا في برية فاران، الواقعة قرب مدينة قادش . وهناك أسرع الشعب المبتهج إلى الجبل العالي حيث انبسطت أمامه أرض وطنهم

المستقبلي، لقد حدثت هناك تغيرات كثيرة بعد إبراهيم. فالسهل فرش ببساط أخضر مزركش بشقائق النعمان الحمراء. وعلى السفوح انبسطت بساتين الزيتون والرمان والنخيل، وفي بعض الأماكن توزعت كروم العنب. فكان ذلك المنظر بالنسبة للإسرائيليين الذين ألفوا رتابة حياة الصحراء مليئاً بالمتعة والجمال. فأخذوا وهم منتشون بالسعادة يعانق بعضهم بعضاً، ويؤكدون على ضرورة السير إلى الأمام واحتلال تلك الأرض الطيبة بأسرع مايمكن. لكن موسى الشديد الحذر لم يوافق على هذا التسرع بل قرر ارسال العسس، فاختار لهذه المهمة شخصاً من كل سبط من أسباط إسرائيل « اصعدوا من هنا إلى الجنوب - قال لهم موسى - واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ماهي، والشعب الساكن فيها أقوي هو أم ضعيف قليل أم كثير؟ ».

نفذ الجواسيس مهمتهم دون أن يواجهوا أية عوائق. فبعد أربعين يوماً، عادوا حاملين معهم كدليل على خصوبة الأرض - أرض كنعان - عناقيد عنب كبيرة ورماناً وتيناً. أثارت هدايا الطبيعة تلك إعجاباً لايوصف عند الإسرائيليين، وكان أولاء جاهزين لبدء رحلة احتلالهم أرض كنعان في أية لحظة. ولكن حماسهم العارم للهجوم انطفأ بمجرد سماعهم كلام الجواسيس إذ قالوا: أرض كنعان غنية فعلاً بثروات خيالية لكن احتلالها أمر مستحيل لأن حدودها محمية بقلاع حصينة وحاميات جنودها من العماليق الأشداء. وهكذا فقد الإسرائيليون المتقلبون الأمل، وبُهتوا لما سمعوا مثل هذه العبارات: « ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر! » اشتكوا من قدرهم. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟ تصير نساؤ نا وأطفالنا غنيمة! أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر؟.

قويت اللعنات والشكاوى أكثر فأكثر، وتحولت في نهاية المطاف إلى فوضى عارمة. طالب المحرضون بإقالة موسى وانتخاب زعيم جديد « نقيم رئيساً - صرخ اولئك - ونرجع إلى مصر ». حاول يشوع بن نون وكالب بن يفنه (اللذان شاركا في عملية استطلاع أرض كنعان) جاهدين تهدئة الثائرين، وأكدا، وقد مزقا ثيابهما أنه يمكن بمشيئة الرب احتلال أرض كنعان، وحاولا أن يثبتا أن المشاركين الآخرين في عملية الاستطلاع يضخمون قوة العدو، فأثار كلامهما هياج الناس حتى بلغ نهايته من العنف. فصار الناس يصرخون ويندون بمن يريد إرسالهم إلى الموت المحتم في أرض العماليق الذين ينتظرونهم وراء أسوار القلاع المنيعة، وأخذ منهم الخوف مأخذه وهجموا على يشوع وكالب يريدون رجمهما بالحجارة ولم ينقذهما إلا التجاؤ هما إلى خيمة الاجتماع.

قرر يهوه الشديد الغضب إبادة كل الشعب الإسرائيلي بوباء لا دواء له. لكنه وفي هذه المرة أيضاً استمع لرجاء موسى وخفف عقابه. وكان عقابه المخفف ينص على ألا يكون لأي إسرائيلي عمره أكبر من عشرين عاماً شرف رؤية أرض كنعان. كان يجب على الإسرائيليين وعلى مدى أربعين سنة التنقل في الصحراء تائهين وفي الصحراء سينهون حياتهم الفاسدة، والجيل الذي ولد وترعرع في ظروف حياة الرعاة القاسية هذا الجيل فقط مقدر له دخول أرض الميعاد. لكن العقاب لم يشمل يشوع بن نون وكالب ونتيجة لإيمانهما المطلق بيهوه كان ينتظرهما شرف رفيع وهو قيادة الإسرائيليين إلى أرض كنعان.

أربعون عاماً في الصحراء

توجه موسى إلى الجنوب بعد أن استعاد سلطته على شعبه، ومكث بعض الوقت في خليج العقبة، ثم بدأ يبحث عن أراضٍ صالحة للإقامة الطويلة، فوجد أن أفضل الموجود هي ضواحي مدينة قادش فهناك يوجد نبعا ماء عذب ومراع شاسعة تؤمن الظروف الملائمة لتربية القطعان. وعدا ذلك فإن الجيران من السكان الأصليين أناس مسالمون بدؤوا مباشرة بإقامة علاقات تجارية مع الإسرائيليين.

لكن الخلاف كان لايزال قائماً بين أسباط إسرائيل، وقد أفسدت عليهم حياتهم الخصومات المستمرة من أجل السيطرة على المراعي. عمت الفوضى صفوف الإسرائيليين لدرجة أن اللاويين لم يعودوا يلتزمون بالنظام، فقد امتعضوا كثيراً من تصرفات هارون وفئة الكهنة التي عزلت نفسها بكبرياء عن بقية اللاويين والتي أخذت واحتكرت لنفسها أكبر المكاسب المادية والمعنوية. وهكذا برزت إلى السطح مؤامرة المظلومين والمستائين، التي شارك فيها مائتان وخمسون لاوياً بقيادة قورح. اجتمع المتمردون أمام خيمتي موسى وهارون صارخين: «مابكما ترتفعان على جماعة الرب؟». استمع إليهم موسى بصبر ثم سار إلى خيمة الاجتماع وسقط على وجهه أمام تابوت العهد طالباً النصح من الرب، وخرج بعد ذلك إلى العاصين، وقال لهم موجهاً حديثه لقورح: «اسمعوا يابني لاوي، أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل ليقربكم إليه لكي تعملوا في خدمة مسكن الرب وتقفوا قدام الجماعة لخدمتها؟ فقربك وجميع أخوتك بني لاوي معك

وتطلبون أيضاً كهنوتاً. إذن أنت وكل جماعتك متفقون على الرب، وأما هارون فما هو حتى تتذمروا عليه؟ ».

لقـد لقن موسى المتـآمـرين درساً، وحرّم على الناس الإقتراب من خيمهم. وكان أن انشقت الأرض وابتلعت قورح، أمـا بقيـة المتـآمـرين فقد التهمتهم نار أرسلها الرب، وكان ذلك تحذيراً كي لايتجرأ أحد بعد ذلك على التمرد على الكهنة.

لكن العقـاب الشـديـد لم يخف الناس البسطاء. بل على العكس بعث في نفوسهم الامـتعـاض والغضب فجعلت فوضى كبيـرة. ولم ينـج موسى وهـارون من المـوت إلا اختباؤ هما في خيمة الاجتماع. فعندها أهلك يهوه العاصين بالنار التي التهمت أربعة عشر ألفاً وسبعمائة شخص. قُضي على التمرد والمتمردين. لكن كان من المهم لموسى أن يثبت أن هارون قد منح تسمية الكاهن الأعلى من يهوه نفسه. لذا أمر رؤ ساء وأسباط إسرائيل بمن فيهم هارون أن يحضـروا كلٌ عصـا واحـدة، وفي اليـوم التـالي وعلى مرأى من المؤ منين جميعاً، حصلت معجزة، فمن بين كل العصي كانت عصا هارون هي العصا الوحيدة التي أعطت فروعـاً فأوراقـاً، وأثمرت لوزاً. واستسلم الشعب آنذاك لإرادة يهوه وامتنع عن التذمر ولم يعـد يحتج على الامتيـازات الكبيـرة التي يتمتـع بها هارون. ماتت مريم أخت هارون ومـوسى في قادش. ومن جديـد عانى الإسرائيليون من الجفاف. وعندما بلغ العطش منهم مبلغاً فاضربوا وعصوا. ضرب موسى مرة أخرى عصاه بالصخر وفجر نبع ماء.

استمرت حياة الإسرائيليين الرعوية الهادئة في قادش ثمانية وثلاثين عاماً على الأقل. توزعـوا خلالهـا على المـراعي القـريبة وعاش كل منهم حياته الخاصة، مما أضعف أواصر الوحدة القومية عندهم، وصاروا لامبالين أبداً بالدين لدرجة أنهم امتنعوا عن تقديم القرابين ليهوه. وتركوا عادة ختان الأولاد. وقد أصاب ذلك الخمول واللامبالاة موسى وهارون ايضاً. وكعقـاب لهمـا لأنهمـا لم يقفـا ضد التهـاون بالـدين، أعلن لهمـا يهـوه بأنهمـا سيمـوتـان بالصحـراء، وأن أرجلهمـا لن تلامس أرض كنعـان أبـداً. لكن الحقيقـة أن سبب العقـاب الصارم كانت شكوكهما في قدرة يهوه. ذلك لأنهما ضربا الصخر مرتين لتفجير الينابيع.

نحو أرض الميعاد

مضى على خروج الإسـرائيليين من مصـر أربعـون عاماً. خلال تلك المدة ولد جيل

جديـد في الصحـراء تربى في ظروفهـا، ولم يعـرف قط متعة حياة المدينة وقوي عودهم في الصـدامـات مع قطاع الطرق والقبائل البدوية، واكتسبو بذلك خبرة قتالية جيدة. لذلك قرر موسى أنه يستطيع الآن احتلال أرض كنعان. وكانت تقع إلى الشرق من قادش مملكة أدوم التي تمر عبرها طريق القوافل المريحة والمسماة بطريق الملك. أرسل موسى إلى ملك أدوم رسلاً ليطلبوا منه السماح لهم بالمرور عبر أرضه مُقسمين إلا يحيدوا عن الطريق، وأن يدفعوا ثمن المـاء وعلف الحيـوانـات. لكن الملك الـواثق من تفـوقـه على أعدائه رفض الطلب، وحشـد قواتـه فوراً على الحـدود. ولم يتجـرأ موسى على الـدخـول في حرب مع ملك أدوم القـوي، لذلـك قرر الالتفـاف حول أدوم من الجنـوب ثم الاتجـاه شمـالاً بمحاذاة الحدود الشرقية حتى يصل إلى الضفة اليسرى لنهر الأردن الذي تنبسط وراءه أرض كنعان. وكان أنه لمـا استعـد الإسـرائيليون للسير أن مرض هارون، فأمر موسى بنقل جسد أخيه الذي يحتضر إلى قمـة جبـل هور. وهنـاك خلع موسى عن هارون ثيـابـه، وألبسهـا لابن هارون الثـالث أليعـازر. وهكـذا تمت وللمـرة الأولى مراسيم توريث اللقب العـالي من الأب إلى الابن. ومـات هارون على جبـل هور ونحب عليـه ودفنـه هنـاك. وبعـد انتهاء مراسيم الدفن تحرك الإسرائيليون نحو الجنوب إلى خليج العقبة. ساروا بالوادي الصخري الطويل وهم يعانون نقص الماء والطعام. ولما فقدوا قدرتهم على التحمل عادوا إلى التذمر والشكوى، وهددوا برفض أوامر موسى. فعوقبوا على ذلك من جديد إذ ظهرت في المعسكر مجموعة كبيرة من الأفـاعي السـامـة، فمـات من لدغـاتهـا العـدد الكثير من الشعب وامتنع الباقون عن متابعة السيـر. لكن موسى وفي تلك الحـالـة أيضـاً وجـد مخرجاً من الأزمة عندما أمر بصنع تمثال لأفعى كبيـرة من النحـاس ووضعـه على عمـود وسط المعسكر. وصار من الكافي النظر إلى ذلك الشكل لكي تعود للشخص قوته وعافيته ويصير جاهزاً للمسير.

من شاطيء خليج العقبة انحرف الإسرائيليون شمالاً، وداروا حول أدوم من الجنوب والشـرق، وتـوقفـوا أخيـراً في وادي زارد الـذي تمتـد مؤ اب على ضفته الأخرى على طول شاطيء البحر الميت. وكان موسى يعرف أن المؤ ابيين بعد حربهم مع الآموريين قد ضعفوا لذلك لم يخش مقاومتهم. وبالفعل عبر الإسرائيليون دون عوائق أرض مؤ اب، ووصلوا إلى نهر أرنون وهو الحدود الفاصلة بين مؤ اب والآموريين، الحدود المنيعة، لأن النهر كان يسير بين سلسلتين من الجبـال الصخـريـة، عدا ذلـك فإن سيهـون ملك الآموريين كان شجاعاً وقـائـداً عسكـريـاً فذاً، ولم يسمح للإسرائيليين بعبور أراضيه، لكن سيحون لم يتمكن من

الصمـود أمـام الـزحف الإسرائيلي الهائل الذي أباد في نهاية الأمر كل السكان الآموريين، ومن ثم كان على الإسرائيليين القيام بعبور مسلح لنهر حدودي آخر لأن مملكة باشنان كانت تقع على الضفة الأخرى، وكان ملك باشان عوج من العماليق ويشتهر بحبه للحرب وبقوته البـدينـة. وكـان سريـره مصنوعاً من الحديد، ويشغل حيزاً طوله تسعة أذرع وعرضه أربعة. لكن الإسـرائيليين، لم يخـافـوا ذلـك لأنهم للتـو حققـوا نصـراً كبيراً. وفعلاً هاجموا باشان ودمـروهـا. وبـذلك يكونون قد احتلوا كل ما وراء الأردن، وجهزوا قاعدة جيدة للهجوم على أرض كنعـان. لذلـك أمـر موسى بحشـد قواتـه في مؤاب على الضفة الشرقية لنهر الأردن. فهناك كانت المخاضة قليلة العمق وتحميها على الضفة الأخرى أبراج وأسوار أريحا.

بلعام المتنبيء

راقب بالاق الملك المؤابي بحـذر نجـاحـات الإسـرائيليين. فبعـد الانتصـار على الآموريين والملك عوج، صاروا يشكلون خطراً مباشراً عليه. ولخشيته من الصدام المسلح المباشر مع الإسرائيليين قرر بالاق اللجوء إلى مساعدة السحرة. وكان يعيش في فتور على الفرات ساحر متنبيء شهير اسمه بلعام، فارسل إليه الملك بالاق شيوخ المؤابيين محملين بالهـدايـا ليطلبـوا منه إنزال اللعنة بالإسرائيليين وإرغامهم على الامتناع عن القتال. استمع بلعام إلى الشيوخ وقضى ليلته يصلي ليصرح بعدها للشيوخ بأن رب إسرائيل قد منعه من أن يأخذ على عاتقه تلك المهمة. لكن بالاق لم يستسلم. أرسل وفداً ثانياً أكثر عدداً، ويحمل هدايـا أنفس من الهـدايـا الأولى، لكن السـاحـر امتنع حتى عن الاستماع للوفد وقال: « لو أعطـاني بالاق ملء بيتـه فضـة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب إلهي ». لكن يهوه غير رأيه بعـد مدة وسمـح لبلعـام أن يذهب إلى مؤاب على أن يتصرف حسب تعليمات الإله يهوه. ركب المتنبيء أتانه المخلصة وبدأ المسير. في ذلك الوقت شك الرب بنوايا بلعام الخبيثة ضد الإسـرائيليين، وقـرر إعـاقته في الطريق. لذلك وبأمر من يهوه، قام ملاك مسلح بسيف بسد الطريق أمام بلعام.

لم يرَ المـلاك إلا الأتـان التي وقفت على قائمتيهـا الخلفيتين ثم تحولت عن الطريق وسـارت في الحقـل. لم يعِ بلعـام مايجـري وغضب غضبـاً شديـداً وأخـذ يضـرب الأتان المشاكسة بعنف. ولكن ذلك لم يغير شيئاً. عدت الأتان كالمجنونة إلى الأمام، وانحصرت

بين جدارين يحيطـان بكـروم العنب. سد عليهـا المـلاك الطـريق من جديد فدارت الأتان بسرعة حول نفسها وداست قدم صاحبها والصقتها بالجدار، فضرب بلعام الأتان من جديد فسألته الأتان بصوت انسان حزين: « ماذا صنعت بك حتى ضربتني ؟». لم يستغرب بلعام لسبب ما أن تكـون الأتـان قد تكلمت فأخـذ يتـوعدها من شدة غضبه « لأنك ازدريت بي لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك ». فتابعت الأتان شكواها « ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم؟ هل تعودت أن أفعل بك هذا؟ » فما كان من بلعام إلا الاعتـراف بأنهـا طالما خدمته بإخلاص. وفي نفس اللحظة رأى هيئة الملاك المضيئة، فنزل عن ظهر الأتان وركع أمام الملاك. نظر الملاك إلى بلعام لائماً، وقال: « لماذا ضربت اتانتك. . هاأنذا قد خرجت للمقاومة لأن الطريق ورطة أمامي، فأبصرتني الأتان ومالت من قدامي. . . ولولـم تمل من قدامي لكنت الآن قد قتلتك واستبقيتها ». حاول بلعام التائه في أفكاره تبرئة نفسه: « أخطأت إني لم أعلم أنك واقف تلقائي في الطريق، والآن إن قبح في عينيـك فإني أرجـع ». فقـال المـلاك: « اذهب مع الـرجـال، وإنمـا تتكلم بالكلام الذي أكلمك به فقط ».

استقبـل ملك مؤاب الســاحـر بحرارة قدم له هدايا جديدة ورافقه إلى التلة التي يُرى منهـا معسكـر الإسـرائيليين وهناك على التلة قدم بلعام قرباناً، وعزم على إطلاق لعنته التي ستقضي على الإسرائيليين ولكن يا للعجب. لقد خرجت من بين شفتيه بدل اللعنة كلمات التبـريـك والتبجيـل. حاول الســاحـر الشهير سبع مرات تنفيذ رغبة ملك مؤاب وقدم سبعة قرابين وفي كل مرة كان الـرب يرغمـه على مباركة الإسرائيليين فنظر إليه ملك مؤاب بريبة. وعندما سمع منه المرة السابعة كلمات التبريك نفسها استشاط غضباً وطرد الساحر.

حزن بلعـام كثيـراً لمـا حصـل، ورغب بأي شكل من الأشكال تخفيف حدة غضب الملك، وقـدم له قبيـل المـوداع فكـرة ذكية تعتمد على إفساد الإسرائيليين وإضعاف قوتهم بواسطة النساء المؤابيات. اتبع الملك نصيحة بلعام، فوقع الرجال الإسرائيليون الذين ملوا من رتـابـة حيـاة المعسكـر ومن تعـاليم ديـانـة موسى القاسية فريسة سهلة أمام إغواء النساء المؤابيـات. قامت المؤابيـات بشعـائر خدمة الإله بعل فَغُور بطريقه خلاعية جداً، فجذبن الإسـرائيليين إلى دعـارتهن المعبـديـة وبذلك رددنهم إلى عبادة الأصنام. وفي أحد الأيام أحضـر أحـد نبـلاء إسـرائيـل امـرأة مؤابية إلى خيمته ضارباً بعرض الحائط كون المؤمنين يصلون في خيمـة الاجتمـاع في تلك اللحظـة. فغضب فينحـاس بن إليعـازار كثيـراً لذلك

الحدث فضرب النبيل الإسرائيلي بالرمح وقتله. فكانت ضربته بالنسبة للمؤمنين بمثابة الإشارة إلى بدء تصفية الحساب مع الكافرين. فقتل خلال المعركة التي جرت في المعسكر أربعة وعشرون ألفاً من المرتدين عن دين يهوه. وأصاب العقاب المؤابيين أيضاً فقد دمر عشرون ألفاً من المقاتلين الإسرائيليين أرضهم بالسيف والنار. وخلال الأحداث قتل بلعام الذي دفع حياته ثمناً لنصيحته الخبيثة لملك مؤاب، وأخذت من مؤاب غنائم كبيرة، فعدا عن الاثنين وثلاثين ألفاً من النساء. استولى الإسرائيليون على اثنين وسبعين ألفاً من البقر وواحد وستين ألفاً من الحمير. ثم قرر بنو راؤبين وبنو جاد ونصف سبط منسى اقتطاع جزء من أراضي ماوراء الأردن والبقاء فيها. فوافق موسى على رغبتهم على أن يشاركوا في احتلال أرض كنعان.

آخر أيام موسى

كان موسى يعلم أنه بإرادة يهوه لن يكون له شرف دخول أرض كنعان وأنه لن يحقق حلم حياته. وكان عمره مائة وعشرون سنة. ورغم أنه مازال قوياً جسدياً ومعنوياً، غير أنه شعر بأن موته قريب. وقبل أن يموت كان عليه أن يقدم الكثير من الأعمال. قبل كل شيء أجرى إحصاء عاماً وعرف أن تعداد شعب إسرائيل، وصل إلى ستمائة ألف وألف وسبعمائة وثلاثين شخصاً. ثم عين زعيماً مكانه يشوع بن نون رفيقه المخلص والمقاتل المقدام. أضاف موسى مستفيداً من تجربة عمرها أربعون عاماً إلى مجموعة القوانين التي كانت سائدة تعاليم دينية واجتماعية جديدة مما قوى أساس النظام الاجتماعي الإسرائيلي اللاحق. فلتجنب وقوع الخلافات قسم موسى أرض كنعان بين أسبط إسرائيل. ولم يحصل اللاويون والكهنة فقط على حصص خاصة ذلك لأن عليهم أن يقوموا بخدمة يهوه في كل أرض كنعان. ولكن موسى أعطاهم ثماني وأربعين مدينة وقرية لكي يعيشوا من مداخيلها، وخصص ست مدن يلجأ إليها المذنبون في قتل غير عمد كي يتجنبوا انتقام ذوي القتيل، وألَّفَ موسى بعد ذلك أغنية تمجيد للرب، وأمر الإسرائيليين بحفظها عن ظهر قلب، لكي تبعث الحماس في نفوسهم في اللحظات العصيبة. وودع شعبه وغادر إلى جبل نبو. نظر نظرة حزينة إلى أرض الميعاد المترامية الأطراف إلى أرض الميعاد التي لم يكتب له دخولها. رأى الأردن يحمل ماءه بين شاطئيه الصخريين المرتفعين. إلى البحر الميت،

ورأى الصخور المتعددة الألوان من الأصفر حتى القرمزي. ووراء الأردن مباشرة. فوق واحة النخيل ترتفع أسوار أريحا، الخط الدفاعي الأول في أرض كنعان. وعلى خط الأفق يظهر البحر المتوسط كخط مرسوم. تلك هي أرض الميعاد، الأرض التي تنبع لبناً وعسلاً، أرض إسرائيل المستقبل بعد ذلك مال موسى بنظره عن المشهد الحزين وأطلق الروح وحيداً. كانت وفاته سراً غامضاً، ولايعرف أحد حتى الآن مكان دفنه. استمر حداد الشعب لوفاته ثلاثين يوماً، فكوا بعدها الخيام ليعبروا الأردن تحت قيادة يشوع بن نون.

موسى في دائرة الأساطير

إن القصة التوراتية عن الهرب من مصر والتيه في الصحراء والإسرائيليين في الطريق إلى أرض الميعاد لتعتبر في الوقت نفسه قصة الديانة العبرية. فالإسرائيليون صدقوا أن يهوه يكن لهم حباً خاصاً، ولقد صار منقذهم ومحررهم. انه وضع لهم القوانين والمعايير الأخلاقية والنظام الاجتماعي، كما انه أقام المؤسسات الدينية والمناصب الكهنوتية ومجموعة من العادات والتقاليد الشعبية، وإنه في نهاية المطاف أوصلهم إلى أرض كنعان شعباً متحداً ومنظماً. والإسرائيليون اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار الذي تقع على عاتقه مهمة تاريخية هامة. ولذا كان من غير الممكن لهم أن يموتوا، وأن يفنى شعبهم رغم أنواع العذاب التي ذاقوها مع الأيام، لمخالفتهم ميثاق سيناء.

لقد فقدت قصة هروب الإسرائيليين الدرامية تدريجياً مع مرور الزمن خواصها الواقعية. فمع انتقال قصة موسى من جيل لجيل، اكتسبت تلك القصة شيئاً فشيئاً صبغة أكثر صوفية وتراجعت حقائقها التاريخية إلى الخلف أكثر فأكثر، ولم يعد لها أية أهمية لدرجة أن الإسرائيليين لم يجدوا ذكر اسم الفرعون الذي طاردهم ضرورياً. وفي رؤى الأنبياء أشعياء وميخا وأرميا الضبابية، اتصف خروج الإسرائيليين من مصر بأهمية وصبغة صوفيتين، وذلك كإظهار وإبراز لإرادة يهوه وكحادثة دينية صرفة. فعندما كان الفلاح الإسرائيلي يُحضر إلى المذبح قرباناً من باكورة محصوله، فإنه كان يصلي مردداً مايلي: «آرامياً تائهاً كان أبي، فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل، فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة. فأساء إلينا المصريون وثقلوا علينا وجعلوا علينا عبودية قاسية، فلما صرخنا إلى الرب سمع الرب صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا، فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة

وذراع رفيقة ومخاوف عظيمة وآيات وعجائب وأدخلنا هذا المكان ، وأعطانا هذه الأرض ، أرضاً تفيض لبناً وعسلاً » . (سفر التثنية أصحاح ٢٦ ـ آية ٦ ـ ٩) ، لم يكن الكهنة مؤرخين بالمعنى المعاصر لهذه الكلمة بل كانوا لاهوتيين يبحثون في تاريخ إسرائيل وينظرون إليه من المنطلق الذي يفيدهم ، أي من المنطلق الديني وحسب . وكل مانسبته الأساطير لموسى كأحاديثه مع يهوه ومعجزاته وتعاليمه كان بالنسبة إليهم حقائق لا مجال للشك فيها ، وعدا ذلك فإنه قد مضى وقت طويل يقدر ببضعة قرون منذ الخروج من مصر وحتى الحقبة التي بدأ الكهنة فيها بصياغة الأساطير التاريخية ، وتعرض مجرى الأحداث الواقعي ذلك الوقت لعملية تسمى بأسطرة ، أوتحريف الماضي ، (إذا جازت الترجمة على هذا النحو) ، أي تعرض إلى عملية تحويل الماضي إلى أساطير.

لهذا السبب يواجه العلماء في أيامنا هذه مصاعب كبيرة في استنباط نواة الحقيقة من الأسطورة رغم الجهود الكبيرة التي تبذل في هذا المجال ، فإنه لايوجد رأي واحد متفق عليه حول ماوقع في التاريخ فعلاً وحول ما إذا كان وجود موسى في التاريخ حقيقة أم خيالاً ، ومع الابتعاد عن الحقب الزمنية القديمة يعتلي المنصة عنصر الحقيقة التاريخية ويصغر ويقل دور الأسطورة ، كما هو المعتاد . وفي حالة موسى يحدث العكس تماماً ، فإبراهيم ولوط وعيسو وإسحق ويعقوب ، شخصيات واقعية نسبياً وقريبة منا ومفهومة لدينا بطباعها الإنسانية . لكن موسى برأي بعض العلماء أغرب شخصية في التاريخ التوراتي . فحول شخصيته تكونت أساطير كثيرة . فهو زعيم ومشرع ونبي انه لشخصية عظيمة وعجيبة في صراعها المأساوي مع المغريات الذاتية ومغريات شعبها ولكن كم هو قليل وضئيل مانعرفه عنه كإنسان ، يا للأسف : لانعرف عنه سوى انه كان يغضب بسرعة ، وأنه كان يقع أحياناً فريسة للشكوك وأنه قد تزوج مرتين وأنه كان يعاني من بعض المشكلات في أسرته . إننا نراه دائماً كالمسبوك من البرونز مُطهراً من الرب ومنفذاً حرفياً لإرادة يهوه . وفي كل عام وفي عيد الفطر كان الإسرائيليون يحمدون يهوه في أناشيدهم وأغانيهم ، كما يحمدون موسى مثله ذا الصلاحيات المطلقة . لقد صُبغت تجربتهم في التنقل في الصحراء طقوسهم بطابع ديني مسرحي درامي ، فصارت هذه الطقوس تَمت بأصلها وأساسها إلى عالم ذي بعد آخر غير الأبعاد التي نعرفها ، لكن هل يجب الانطلاق مما ذكر الاستنتاج أن موسى لم يُوجد أبداً كشخصية تاريخية واقعية؟ كلا بالطبع ! والعلم الحديث صار حذراً جداً في إصدار مثل تلك الأحكام ذلك بعد أن اكتشفت في قاع الكثير من الأساطير وتوضعات كاملة من الحقائق

التاريخية، وتبين أن كثيراً من الشخصيات التي اعتبرت لوقت طويل أسطورية ولاوجود لها، ماهي إلا شخصيات حقيقية لزعماء وقادة أثروا على مجرى الأحداث التاريخية، ولذلك تحولوا في قصص الأجيال اللاحقة إلى رموز عظيمة من الممكن أن يكون قد ظهر بين الإسرائيليين زعيم مشرع ومحدّث ديني كبير استطاع السيطرة على شعبه والسير به إلى أرض كنعان، وبفضل عبقريته، اتحدت أسباط إسرائيل الفوضوية المنهكة بالصراعات الداخلية، وحققت بعض النصر في مصر وفي الصحراء وفي أرض كنعان.

لهذا ليس من الغريب أن يصير موسى في القصص الشعبية بطلاً قومياً ونبياً وأن يُرفع إلى مرتبة القدسية، فهو الذي نشر كلمة يهوه، ودعا إليها ولذلك اعتُبر كل ماقاله، وكل ماعمله قانوناً وعقيدة لايتطرق إليها الشك أو الخطأ.

إن أسطورة ولادة موسى وموته شديدة الشبه بأساطير الشعوب القديمة بشكل مدهش ففي آسيا واليونان وحتى في اليابان تترافق ولادة الأبطال القوميين عادة بأوضاع وحالات دراميـة في الطفولة يلقونهم بالماء في سلال أو صناديق. والقصص الشعبية لاتتحدث عادة عن سنوات شباب الابطال بل كل ماتذكره عنهم أنهم تربوا وترعرعوا في قصور ملوك غرباء، فنحن نعرف مثلاً، وكما جاء في النصوص المسمارية، أنه كان للملك صارغون العظيم الذي حكم عام ٢٣٥٠ ق . م، وأسس الدولة الأكادية في بلاد ما بين النهرين مصير موسى نفسه فأمه الكاهنة ولدته سراً ووضعته في سلة مطلية بالقار، وألقته في النهر فرآه أكّا الساقي والبستاني وأخرجه من النهر. تحمل هذه القصة بين طياتها معالم واضحة للأسطورة لكن صارغون كان شخصية تاريخية حقيقية والأدلة على ذلك موجودة في الوثائق التي اكتشفت بين أنقاض مدن مابين النهرين وهي صحيحة ولايُشك بها.

ولذلك لاتنفي الأساطير والمعجزات وغيرها من الظواهر الغريبة وجود موسى كشخصية تاريخية حقيقية[٢٥]. وبالتالي يمكننا اعتبار هروب الإسرائيليين من مصر وتيههم في الصحراء حقيقة تاريخية رغم أن إثبات ذلك بشكل قاطع غير ممكن، ذلك لأن المحفوظات المصرية وغيرها من المصادر لم تتحدث مطلقاً عن تلك الحادثة. لذلك ولنصل ولو إلى جزء من الحقيقة يجب علينا اللجوء إلى طرق غير مباشرة للبرهان متبعين أسلوباً شاقاً ومشوشاً لقراءة الآثار في الوثائق التاريخية.

لقد قام العلماء بعملية إعادة بناء صياغة ممتعة جداً للتاريخ، سنحاول إظهار عناصرها الأساسية فيما يلي: ينقطع التاريخ الإسرائيلي، في التوراة فجأة عند وفاة يوسف.

ثم يحدثوننا بعدها عن الحوادث المرتبطة بشخصية موسى، وتقارب فترة الانقطاع التاريخي تلك الأربعمائة عام. فلماذا تغاضى مؤلفو التوراة عن ذلك الفراغ في سرد التاريخ الإسرائيلي؟ قد يكون الأمر قد تم عن عمد وسابق تصميم حتى لايتحدث أولئك المؤلفون عن فترة غير محمودة عند الإسرائيليين. فبعد طرد الهكسوس، قام فراعنة الاسرة الثامنة عشرة بنقل عاصمتهم من أفاريس إلى موطنهم الأصلي في طيبة وبقي الإسرائيليون في أرض جاسام حيث عاشوا حياتهم الرعوية الخاصة. ولم يكن أحد ليكترث بالرعاة البسطاء الذين يعيشون على الحدود بعيداً عن المركز السياسي الرئيسي للدولة. يضاف إلى ذلك أن ذلك الوقت كان عصيباً جداً بالنسبة للمصريين مليئاً بالحوادث. ولم يكن أحد منهم ليفكر باضطهاد الإسرائيليين، خاصة وأن هؤلاء قد وقعوا، شيئاً فشيئاً، تحت تأثير الحضارة المصرية، بل واعتنقوا طقوس وعبادة الآلهة المصرية، كما تدل بعض المعطيات الموثوقة. فها هو يشوع بن نون يؤنب الإسرائيليين بالكلمات التالية: «وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم في عبر النهر وفي مصر». . (سفر يشوع اصحاح ٢٤ ـ آية ١٤) ولم يحفظهم من الذوبان الكامل في الحضارة المصرية على مايبدو سوى تعلقهم بلغة وعادات وتقاليد آبائهم وعلى كلٍ يمكن اعتبار المكوث الطويل في أرض جاسام بالنسبة للإسرائيليين، عهد ولادة روحية جديدة مصحوباً بحالة من الخمول لامعنى لها.

ومن ذلك الخمول الخطير أخرجت الإسرائيليين تغيرات عاصفة في حياة مصر السياسية. فقد استولى فراعنة الأسرة التاسعة عشرة على السلطة وثالث فراعنة تلك الأسرة وهو رعمسيس الثاني الذي حكم مابين ١٣١٧ ـ ١٢٥١ ق.م، كان محارباً عظيماً يسعى لإعادة عظمة مصر عن طريق الاستيلاء على آسيا. فرأى في أرض دلتا النيل وبما فيها أرض جاسام أفضل مكان لإقامة قاعدة عسكرية لحملته على آسيا، وعدا ذلك فإنه اعتبر دلتا النيل ملكه الخاص ذلك لأن أسرته تعود بأصلها إلى ضواحي أفاريس، وكان اسم أبيه ستي وهو اسم مرتبط حسب علم الاشتقاق باسم الإله المبجل في تلك المنطقة الإله سِت.

لم يكن رعمسيس يشعر بالاطمئنان في طيبة الغريبة بالنسبة له، لأنها مركز عبادة الإله آمون، ويضاف إلى ذلك أيضاً أنه رغب بالابتعاد عن مجموعة الكهنة القوية التي سيطرت على الفراعنة الذين سبقوه، وحاولت فرض سيطرتها عليه أيضاً. لذلك قرر الانتقال إلى دلتا النيل وبنى عاصمة له هناك على أنقاض مدينة أفاريس، وهي مدينة رعمسيس المعروفة لاحقاً باسم تانيس. وللتحضير لحملته تلك بنى مدينة أخرى هي فيّوم، التي كانت عبارة

عن مستودعات للعتاد والطعام. وبفضل الأبحاث الأثرية صار معروفاً لدينا موقع المدينتين. ذلك لأنه قد تم الكشف عن أنقاضها وإثبات أصلهما.

ومع ظهور رعمسيس انتهت حياة أرض جاسام السعيدة المسالمة. ففي أحد الأيام فوجىء الإسرائيليون مندهشين ومستغربين بجحافل كبيرة من المقاتلين تنتشر فوق مراعيهم وعلى العربات المسرعة أخذ القادة أماكنهم وخلفهم جمع هائل من الموظفين والمراقبين وجامعي الضرائب والملاحقين يسوقون أمامهم العبيد. نظر الرعاة إلى ذلك الموكب الصاخب دون أن يخطر ببالهم مايحمله من المشكلات، ففي سرعة مذهلة شعروا باقتراب فرعون منهم، فقد اقتحم الجنود وجامعو الضرائب بيوت الرعاة، واستولوا على القمح والقطيع، وضربوا ضرباً مبرحاً من تجرأ على اعتراض سبيلهم أو مقاومتهم: ولم يكن ذلك كله سوى البداية. فمن أجل تنفيذ مشاريع البناء الكبيرة التي خطط لها رعمسيس كان لابد من توفر الكثير من العمال. فأرغم الإسرائيليون على العمل الإجباري. إن الاسرائيليين الملتحين ذوي الثياب الفضفاضة كانوا بالنسبة لرعمسيس أناساً من الشرق يتوالدون بسرعة كبيرة. وفي حالة الحرب مع الآسيويين قد يشكلون خطراً عليه.

إضافة إلى ذلك كان المصريون يحتقرون الشعوب الرعوية البدائية. اننا نقرأ في سفر التكوين (أصحاح ٤٦ آية ٣٤) « لأن كل راعي غنم رجس للمصريين ». وقد يكون المصريون قد تذكروا أن الإسرائيليين في فترة احتلال الهكسوس الصعبة كانوا مخلصين للهكسوس، منفذين لأوامرهم ومتعاملين معهم.

اخضع رعمسيس الثاني فلسطين وسورية بسرعة لسيطرته وتقابل وجهاً لوجه مع عدو قوي جداً. إن ذلك العدو تمثل بالحثيين الذين شكلوا دولة قوية في آسيا الصغرى. وقد بقينا حتى وقت قريب لانعرف عنهم إلا القليل. لكن في بداية القرن الحالي اكتشف الأثريان الألمانيان فينكلر وبوهشتين عاصمة الحثيين أو بالأصح أنقاضها في تركيا على نهر غاليس (كيزيل ـ الجرمان الحالي) الذي يرسم مجراه قوساً ويصب في البحر الاسود. كان اسم العاصمة حاتوشاش وتشغل مساحة مائة وسبعين هكتاراً ومن تحت التراب أُخرج قصر الملك ذو الأبعاد الهائلة، كما أُخرجت معابد وأسوار قلاع وتماثيل من البازلت الأسود لرجال شعورهم طويلة متدلية على ظهورهم معتمرين بقبعات عالية، ويرتدون ثياباً قصيرة وأحذية حادة المقدمة. ووُجد أيضاً مكان فيه الكثير من الألواح المسمارية المكتوبة بلغة مجهولة، وكان الفضل الكبير في فك رموزها للعالم التشيكي بي غروزني. فقد أظهر ذلك

العالم أن اللغة الحثية تدخل ضمن مجموعة اللغات الهندو ـ اوروبية وهذا يدل على أصل الحثيين الهنـدو ـ أوروبي . ويـدل بأسوأ الحالات على أصل الفئة الحاكمة فيهم . وبفضل أعمـال غروزني والعـالم الإنكليـزي الأثري فولي أصبح من الممكن رسم صورة شبه كاملة لتاريخ وحضارة وديانة وحياة ذلك الشعب .

لقـد استمـرت الحـرب بشكـل متقطـع ، بين رعمسيس الثـاني والحثيين (واحـداً وعشرين عاماً) . وفي السنة الخامسة للحرب ، جرت بينهما معركة طاحنة على نهر العاصي قرب مدينـة قادش ، وكـانت المعـركـة دمـوية ومدمرة لكنها لم توصل إلى نتيجة حاسمة بين الطـرفين على الـرغم من أن رعمسيس الثـاني قد أظهـر نفسه بصورة المنتصر في الكثير من الرسوم التي تتحدث عن تلك المعركة .

لقـد أنهـك الصراع المسلح الطويل الأمد قوات الطرفين ، أضف إلى ذلك ظهور قوة متنامية تتمثل بالآشوريين ، صارت تهدد الحثيين في مابين النهرين . لذلك عقد صلح دائم بين الحثيين والمصـريين عام ١٢٩٦ ق . م ، تُوّج بزواج رعمسيس الثـاني من ابنة حاتوسيل الملك الحثي .

لكن الســلام لم يجلب راحـة للإسـرائيليين . فقـد ظلوا يحيـون حيـاة الاضطهـاد والعبـوديـة . فرعمسيس كان مصـاباً بداء حب البناء والعمران لدرجة الهوس ، فهو لم يكتف ببناء أبنية جديدة وقصور ومعابد ، بل أمر بمسح أسماء الفراعنة عن الأبنية التي بنوها في فترة حكمهم ، ونقش اسمه عليها ، لذلك لَزِمه عمال كثيرون .

يدل الأمر الذي صدر بقتل مواليد الإسرائيليين الذكور . الذي تتحدث عنه التوراة . على أن الإسرائيليين تعرضوا مع مرور الزمن لملاحقات دموية قاسية . ولكن يبدو أننا نواجه هنـا تنـاقضـاً واضحـاً ، وذلـك لأن الحاجة للكثير من العمال كانت تتزايد من جهة ومن جهة أخرى فإن رمسيس يكون قد حرم نفسه من تلك القوى بأمره الوحشي ذاك . لذلك يُعتقد أن خصوبة الإنجاب عند الإسرائيليين ، كانت وراء إصدار ذلك الأمر البغيض ، وكذلك تلعب دوراً تلك الكثافة السكانية المتزايدة ، التي بدأت تعاني منها دلتا النيل بعد أن استقرت هناك الإدارة المركزية بجموعها الكثيرة من الموظفين والحواشي والمقاتلين . ويستنتج من التوراة أيضـاً أن الإسـرائيليين لم يستطيعـوا في تلك الأيام الاكتفاء بتربية الأغنام واضطروا للهجرة إلى المـدن ، حيث مارسـوا أنـواعـاً من التجارة الصغيرة والعمل اليدوي . وبالطبع أثار ذلك

العمل حفيظة المصريين وكرههم، لأنهم أحسوا بسرعة بنمو عامل المضاربة عند الإسرائيليين.

أيقظ الاضطهاد والملاحقة الشعور بالوحدة العرقية عند المضطهدين. وأثار في نفوسهم الخمول والضعف في البداية، ومن ثم المقاومة النشيطة، ويُلاحظ ذلك في شخصية موسى. فحسب الأسطورة كان موسى يحمل اسماً مصرياً صرفاً وحصل على تعليمه في قصر فرعون حيث عاش كقائد عظيم. ومع ذلك وتحت تأثير الاضطهاد والملاحقة اللذين تعرض لهما أبناء نسله عاد إليه احساسه بأنه إسرائيلي ويمكننا القول إن قتله المراقب المصري الصارم وهروبه إلى الشرق، ليس تعبيراً عن عصيانه الفردي فقط، بل وإشارة أولية إلى عصيان الشعب الإسرائيلي.

ونجد في التوراة آيتين مليئتين بالألغاز، وتضعان بين الأيدي مادة دسمة للتفكير. ففي سفر الخروج (أصحاح ٣ ـ آية ٢١) يقول يهوه « وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون، أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين ». ومن ثم في (الأصحاح ١٢ ـ آية ٣٦)، وفي السفر نفسه نقرأ: « وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين متى أعاروهم، فسلبوا المصريين ».

إن مايدهش القارىء في النصين هو غياب المنطق، وذلك لأن الإله نفسه وبالأسلوب ذاته يتحدث مرة عن الدين ومرة عن نهب وسرقة المصريين، والحقيقة ماذا يكمن وراء هذا التصرف؟. لنفترض أن الإسرائيليين، وبالخديعة والمكر، أخذوا من المصريين كَدَيْن أوانيهم الذهبية والفضية بذريعة أنهم سيبقون في الصحراء ـ كما أكدوا لفرعون ـ ثلاثة أيام فقط، وبعدها يعودون ويردون الدَّيْن. لكن من الصعب التصديق بأن يكون المصريون سُذجاً لدرجة أنهم أمنوا من الإسرائيليين الذين يمقتونهم ويناصبونهم العداء وأعطوهم كنوزهم.

من هنا، يستنتج بعض العلماء أن الإسرائيليين، قد ثاروا وعصوا وسرقوا بيوت المصريين، وهربوا إلى خارج الحدود. ويؤكد هذا الاستنتاج كون الإسرائيليين قد خاضوا خلال تيههم في الصحراء بعض المعارك الرابحة.

إذن كان عليهم أن يخرجوا من مصر مسلحين تسليحاً عظيماً. فمن أين حصلوا على أسلحتهم تلك؟ لم يكن بإمكانهم الحصول على الأسلحة خلال يوم واحد. وهذا يعني

أنهم على الغـالب جمعـوهـا سراً خلال السنـوات الأخيـرة من عبـوديتهم . وبـالتـالي ليس مستبعداً أن يكونوا قد تحرروا فعلاً بقوة السلاح . وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يوضح السبب الذي جعل فرعون يطاردهم بتصميم حتى البحر الأحمر، وعلى ضوء هذه الفرضية، يصبح ممكناً أن يكون موسى ، ولو في الفترة الأولى من نشاطه ، هو قائد العصيان الإسرائيلي .

هذا ومـازال تحـديـد تاريخ الخروج من مصر مشكلة صعبة الحل على العلماء حتى يومنـا هذا ، وقـد استمـر الجدل بين العلماء بهذا الموضوع فترة طويلة ، لكن معظم العلماء يميلون اليوم الى الاعتقاد بأن الخروج من مصر قد تم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ق . م .

كان رمسيس فرعـونـاً عظيمـاً ، ووصلت مصـر خلال حكمه إلى قمة قوتها وعظمتها . لذلك من المشكوك فيه أن يستطيع الإسرائيليون التحرر من عبوديتهم في عهد رمسيس . إن دلالـة ما ، تكمن وراء الكلمـات : (سفـر الخـروج ـ أصحاح ٢ ـ آية ٢٣) ، وتدل على ان موسى قد عاد الى مصر بعد اعتلاء الفرعون مرنفتاح (خليفة رمسيس الثاني) عرش مصر. ففي عهد مرنفتاح كان على مصر أن تدافع عن حدودها الغربية من هجمات الليبيين . ومن الشـرق هاجمتهـا شعـوب هنـدو ـ أوروبيـة ، تركت الأمـاكن المثلجـة البـاردة في البلقان ، ودخلت آسيـا الصغـرى وألحقت الهـزيمـة بدولة الحثيين ، وشغلت تلك الشعوب شواطيء البحر المتوسط . لقد خرج مرنفتاح منتصراً من معاركه مع العدو، ولكن مصر صارت ضعيفة لدرجة أنه لزمها بعد ذلك زمن طويل لإعادة قوتها . وعلى الأغلب أن يكون الإسرائيليون قد استغلوا ضعف مصر المؤقت لكي يتحرروا من العبودية .

ولا يخفى أن هنـاك أسسـاً أخـرى للاعتقـاد بأن الخروج قد تم في النصف الثاني من القــرن الثــالث عشــرق . م . فقــد استطــاع الأثــريــون الكشف عن أنقـاض المـدن الكنعـانيـة ، التي تقـول التـوراة ان الإسرائيليين قد احتلوها تحت قيادة يشوع بن نون خليفة موسى . وفي طبقات الأنقاض التي تعود بأصولها إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر ق . م ، وجـدت آثـار كثيـرة للحـرائق والتدمير المقصود ، وهي ، بلا شك تعطي دليلاً أكيداً على عمليـات احتـلال دمـوي متنـام . نحن نعلم من التـوراة أن موسى طلب من ملك أدوم السماح للإسرائيليين بالعبور عن طريق أرضه ، كما نعلم أنه تلقى رفضاً لطلبه . ولكن موسى لم يتجـرأ على مقـاتلة أدوم لأنهـا كانت دولة عسكرية قوية ، وقرر الالتفاف حول أدوم . وإننا نعرف من الاكتشافات أن أدوم لم تكن موجودة بعد في القرن الرابع عشر ق . م ، وأنها لم

تدخل باب التاريخ كدولة منظمة قوية إلا في القرن الثالث عشر ق . م ، إذن فإنه كان يمكن للإسرائيليين الظهور عند حدودها في القرن الثامن ق . م وليس قبل ذلك .

ولكن توجد فجوة حقيقية في هذا الحساب التاريخي ، فقد ظهرت الشكوك عند التنقيب في أريحا القلعة التي ذكرت التوراة أن يشوع بن نون احتلها . لقد قدمت الاكتشافات الحديثة ، التي بدأها العالم الإنكليزي ك . كنون في أريحا الكثير من التوضيحات والتفسيرات لتاريخ تلك المدينة القديمة . فأنقاضها تشكل تلاً هائل الضخامة يرتفع فوق الضفة الغربية لنهر الأردن وكانت نتائج التنقيب مدهشة فعلاً . إذ اكتُشفت أسوار قلعة كبيرة السماكة وبيوت وآبار ومقابر متعددة الطوابق ، ولم يكن من الممكن حتى الآن الوصول إلى القعر الذي قامت عليه أول مستوطنة لكن من المؤكد اليوم أن هذه المدينة قد وجدت قبل سبعة آلاف عام من الميلاد . وقد تكون أريحا أقدم مدينة عرفتها الانسانية . لذا أحدثت هذه الحقيقة انقلاباً في نظرتنا إلى تطور الحضارة المادية ، حيث كان التصور السائد يقول : إن الناس لم يبنوا المدن في العصر الحجري الحديث ، بل عاشوا في مستوطنات متفرقة . عدا ذلك فإن اعتقاداً قد ساد بأن أقدم المدن بُنيت في مصر ، وفي بلاد مابين النهرين . بينما تدل الاكتشافات في أريحا بأن لفلسطين قصب السبق في هذا المجال .

لكن ليس هذا هو المهم في موضوعنا فقد أثبتت البعثة البريطانية أن أريحا دُمرت فعلاً . لكن اللوحات الحجرية والأنقاض تدل على أن ذلك الدمار حصل في القرن الرابع عشر ق . م ، وليس في القرن الثالث عشر ق . م ، وقد توصلوا إلى هذا التاريخ بواسطة الرسوم المميزة التي وُجدت على الكِسَرْ الفخارية . لقد وقع العلماء في حيرة مدهشة . فمن ناحية تؤكد الاكتشافات في دولة أدوم ، وكذلك المعطيات التاريخية حول مصر أن الخروج قد تم في القرن الثالث عشر ق . م ، ومن ناحية أخرى أن سقوط أريحا حصل قبل قرن كامل من الخروج . أيكون الإسرائيليون لم يحتلوا تلك القلعة القوية؟ إذن يجب إعتبار القصة التوراتية عن أريحا أسطورة خيالية لفّقها مؤلفو التوراة بقصد تضخيم هالة يشوع بن نون العسكرية .

حاول العلماء تفسير هذا التناقض بطرق شتى . كما أن بعض الباحثين يعتقدون أنه توجد مجموعة من الإثباتات على أن الإسرائيليين خرجوا من مصر في القرن الرابع عشر ق . م ، لكن لهذه الفرضية نواحي ضعف كثيرة جداً . لذلك رفضت من غالبية الباحثين

وبين كل الفرضيات التي وضعت تتصف الفرضية التي اطلقها العالم الفرنسي المستشرق بيير مونتيه بأهمية خاصة فهو قد شكك بصحة التاريخ الذي حدده الأثريون لاعتمادهم بشكل رئيسي على اللوحات الحجرية التي وُجدت بين رماد الحرائق وبقايا الانقاض ومونتيه لايعتبر تلك اللوحات برهاناً دقيقاً لأنها اعتبرت في الماضي نوعاً من النفائس يتوارثها الابن عن الأب، عدا ذلك فإن من المعروف ان اسماء الملوك المنقوشة عليها لاتبرهن على انها تعود لتلك الحقبة التي عاشها الملك المنقوش اسمه عليها، فالنقاشون المصريون مثلاً كانوا ينقشون اسم الفرعون تحوتمس الثالث في عهد الفرعون بطليموس. فمن الممكن إذن الوقوع في الخطأ عند تحديد تاريخ الطبقات الحضارية على أساس قبل تلك الإثباتات غير الموثوقة تماماً. هذا الكلام صحيح وينطبق على الكِسر الفخارية التي وجدت بكميات قليلة في أريحا، وباختصار نقول: يعتبر بيير مونتيه أن الطبقة الحضارية، التي كُشف النقاب عنها في أريحا، والتي وُجدت فيها آثار حريق ودمار شامل، يمكن أن ترجع بأصلها إلى القرن الثالث عشر ق . م تماماً، كما يمكن أن ترجع إلى القرن الرابع عشر لكن العلماء الأثريين الذين اكتشفوا أريحا لا يوافقون على فرضية مونتيه. ويسود في الدوائر العلمية الآن اعتقاد بأن أريحا قد دُمرت في القرن الرابع عشر ق . م، وهكذا وجد العلماء أنفسهم أمام معضلة ذات حدين، فإما أن يكون الإسرائيليون قد خرجوا في القرن الرابع عشر ق . م، واحتلوا فعلاً أريحا، وإما أن يكون خروجهم في القرن الثالث عشر، وبالتالي ليس من الممكن أبداً ليشوع بن نون أن يدخل أريحا، وسنرى فيما بعد كيف يحاول العلماء حل هذه العقدة الصعبة.

وتوصل العلماء الى قناعة مفادها أن الخروج قد تم في عهد الفرعون مرنفتاح الذي صورته القصة، وكأنه غرق في البحر الأحمر. وقد صدقت أجيال وأجيال عديدة أن حاكم مصر قد واجه فعلاً ذلك المصير وأن الرب عاقبه على اضطهاده للإسرائيليين وملاحقته لهم.

ويمكن على ضوء هذه القصة الدرامية، إظهار كيفية اختلاط الوقائع التاريخية مع الأساطير في التوراة. ففي النصف الثاني من القرن الماضي، اكتشف عربيان أنفاقاً محفورة في الصخر وضع فيها الكهنة المصريون سبعاً وثلاثين مومياء ملكية ضمن توابيت خشبية، لحفظها من السرقة وتحوي التوابيت مومياء ستي الأول ورمسيس الثاني وفراعنة كثيرون غيرهم مع نسائهم وبناتهم، لكن لا وجود هناك للفرعون مرنفتاح ولكأن هذا تأكيد لما جاء في القصة التوراتية. ولكن عام ١٨٩٨ أي بعد ثلاثين عاماً، اهتزت من جديد

مصداقية القصة التوراتية. فقد اكتشفت في وادي الملوك مقبرة جماعية أخرى تحوي أربع عشرة مومياء ملكية، ومن ضمنها ـ ياللعجب! مومياء مرنفتاح، وتبين بذلك أنه لم يغرق في البحر بل مات ميتة طبيعية في قصره. كان من الواجب أيضاً الأخذ بعين الاعتبار إمكانية أن يكون البحر قد قذف بجثة مرنفتاح إلى الشاطيء، ومن ثم التقطها المصريون، وحنطوها حسب الطقوس المصرية. لكن الفحوص الطبية الدقيقة التي أجراها أفضل الأخصائيين، لم تظهر أي أثر لتأثير مياه البحر عليها، وهكذا لم تستطع الأسطورة التوراتية الصمود أمام المنطق العلمي الدؤوب(٧*).

إذا كان خبر غرق فرعون يحمل صفة الصدفة. فإن هذا لايمكن قوله عن أسطورة أكثر جدية بأهميتها. فحسب التقليد الديني العريق، يُعتبر موسى مؤلف أول خمسة أسفار من العهد القديم، ومايسمى بالكتب الخمسة وعندما تجرأ الفيلسوف بندكت سبينوزا (١٦٣٢ م ـ ١٦٧٧ م) على التشكيك بتأليف موسى للأسفار الخمسة، متبعاً بذلك رأي فلاسفة سبقوه أمثال فيلون وفلافيوس يوسيفوس وابن عزرا وأوربيك دوكوستا اعتبرته الصومعة اليهودية في أمستردام كافراً مرتداً.

ذلك في الوقت الذي تبين فيه قراءة عابرة للكتب الخمسة، لا منطقية كاملة في الأسطورة. كيف استطاع موسى وصف وفاته؟ بأية معجزة استطاع أن يعرف أن قبره سيضيع ولن يجده أحد ابداً!

في القسم الأخير من سفر التثنية (أصحاح ٣٤ ـ آية ١٠) نقرأ: « ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه ».

صار من المعروف. الآن، أن كلمة « نبي » دخلت إلى اللغة العبرية القديمة متأخرة جداً، وسنعطي مثالاً آخر من الأسفار الخمسة عن الخطأ الواضح في تسلسل تاريخ الحوادث: « ـ الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما ملَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل ». (التكوين ـ أصحاح ٣٦ ـ اية ٣١) من أين كان لموسى أن يعرف أنه سيكون ملكاً عند الإسرائيليين؟ فأول ملك عبراني هو شاول الذي حكم في الربع الأخير من القرن الحادي عشر ق. م، أي بعد وقت طويل من وفاة موسى. ويمكننا إيراد أمثلة عن الخطأ في تسلسل تواريخ الحوادث، لكن الأمثلة التي أوردناها كافية لإثبات أن الأقسام الرئيسية من الأسفار الخمسة لم تكتب قبل نهاية القرن الحادي عشر ق. م. ان الأسفار الخمسة تشكل غطاء قصصياً متكاملاً ومتقوقعاً. إنها تشمل كل القصص القديمة التي تتحدث عن حياة أجداد

إسرائيليين : هروبهم من الأسر المصري وتيههم في الصحراء . وتتضمن أيضاً مجموعة من القوانين والطقوس .

لقد بين التحليل النقدي للأسفار الخمسة ، أنها تمثل خليطاً من النصوص المتنوعة التي تعود بأصلها إلى فترة مابين القرنين الحادي عشر والرابع عشر ق . م . إننا نستعمل كلمة (خليط) عن سبق عمد وتصميم ذلك لأن المُؤلِّف المُقتَبس (الاسفار) مُصاغ صياغة سيئة ، وجملة مفككة مما يُسَهل عملية تمييز الأجزاء المكونة لها .

إن الأسفار الخمسة مليئة بالتناقضات والحالات التي لايقبلها المنطق لدرجة غريبة ، ولكننا لاستحالة سرد كل المتناقضات سنكتفي بأبرز الأمثلة .

إن من يقرأ الأصحاح الأول والثاني من سفر التكوين بتمعن يلاحظ مباشرة أنه عند الآية الثالثة من الأصحاح الثاني تنتهي قصة خلق الإنسان وتبدأ قصة أخرى تتحدث عن الموضوع وتختلف عن الأولى بالتفاصيل الأساسية . في القصة الأولى يخلق الرب في اليوم السادس الرجل والمرأة في وقت واحد . وفي القصة الثانية خلق الرب الإنسان من أديم الأرض وأسكنه جنة عدن وأعطاه الحيوانات والطيور لتعيش معه ، وقبل النهاية خلق المرأة من ضلعه . هنا يتبادر للذهن أن أمامنا مصدرين مختلفين تماماً ، متصلين اتصالاً واهياً ، حتى ودون أية محاولة للتنسيق في مواضيعهما .

لقد أثبت تحليل النص أننا نصادف في الأسفار الخمسة أربعة مصادر مستقلة تعود بأصلها إلى حقب تاريخية مختلفة . وبالتالي ليس هناك أية أسس لتسجيل المؤلفات الخمسة باسم شخص واحد أي موسى ، أما مايخص المعجزات المنسوبة إلى موسى . فقد أثبت العلماء أنها وفي غالب الأحيان ليست إلا ظواهر طبيعية عادية . كيف إذن استطاعت تلك الظواهر الارتقاء إلى مرتبة المعجزات؟ إن الجواب بسيط . زُعِم أن موسى خلال فترة طرده ، أمضى أربعين سنة في شبه جزيرة سيناء ، وتعلم من سكانها المحليين ، كيف يحافظ على حياته في ظروف الصحراء القاسية وفي البراري والجبال . بعد ذلك استفاد من خبراته التي حصل عليها بالتجربة . عند الخروج من مصر . وحتى رفاقه في التيه الذي اعتادوا عبر أجيال عديدة على حياة الاستقرار في مصر ، وكانوا حديثي العهد في شبه جزيرة سيناء ، كانوا مضطرين لتفسير بعض أعمال موسى كمعجزات . فما بالكم بالإسرائيليين الذين عاشوا بعد ذلك قروناً في أرض كنعان ولم يروا طبيعة سيناء أبداً؟ إن غالبية الأجيال اللاحقة كانت تميل إلى جعل موسى شخصية منحها الرب قوى خارقة . وقبيل زمن وصف سيرة موسى كانت

عملية تحويل التاريخ إلى أساطير قد انتهت تماماً، وبما إن تلك العملية كانت تخدم مصالح الكهنة ومقتبسي الأسفار الخمسة، صارت المعجزات، التي زعموا أن موسى قام بها، عقيدة وأساساً من أسس الديانة اليهودية.

فحسب التوراة مثلاً حدث موسى الإسرائيليين كيف تكلم معه الإله يهوه عبر عليقة مشتعلة لاتحترق. إننا نعرف اليوم أن مثل هذه الشجرة توجد فعلاً وتشاهد حتى في أيامنا هذه في شبه جزيرة سيناء وتعرف بشجرة موسى، وأنها نبتة متميزة تطلق زيتاً أثيرياً طياراً يشتعل بسهولة بأشعة الشمس، لقد أحضرت إحدى أشجار موسى إلى بولونيا وغُرست في محمية في سكوروتيتسي. وقد نشرت الصحف أن شجرة موسى تلك وتحت نظرات ملؤها الدهشة والإستغراب اشتعلت عام ١٩٦٠ م وفي يوم مشمس حار بلهب أحمر مزرق.

لقد أعطت الأبحاث المتعلقة بالمن التوراتي المزعوم نتائج مبهرة. فقد اكتشف عام ١٩٢٧ م عالم النباتات في الجامعة العبرية بالقدس بوديخايمر، في شبه جزيرة سيناء نوعاً من أشجار الأثل (العَبَل) يفرز سائلاً حلواً يتجمد بسرعة في الهواء على شكل كرات بيضاء تشبه حبات البرد. والبدو المحليون يحبون جداً هذه الحلوى. ومع حلول الربيع ينطلقون جماعات إلى البرية لجمع تلك الكرات الدبقة، كما نجمع نحن الثمار البرية في الغابات. ويستطيع الشخص الواحد أن يجمع يومياً كيلو غراماً ونصف الكيلوغرام من الحلوى. وهذه كمية كافية ليسكت الإنسان جوعه. والأمتع من ذلك أن باعة الشوارع الصغار في بغداد يعرضون للبيع حتى يومنا هذا حلوى شجر الأثل تحت اسم (المن). على ضوء هذه الاكتشافات يبطل كون المن التوراتي معجزة. على الأغلب أن موسى كان يعرف قيمة تلك الحلوى الغذائية منذ أيام هروبه من مصر وبفضل ذلك استطاع إطعام الإسرائيليين. وبمثل هذا المنظار يمكن النظر إلى قصة طيور السلوى، فلو قلنا لسكان سيناء اليوم إن وصول مثل تلك الطيور إلى منطقتكم يُعتبر معجزة لضحكوا وسخروا منا. ففي الربيع تنطلق أسراب هائلة من هذه الطيور قادمة من العمق الأفريقي باتجاه أوروبا منهكة من مشقة الرحلة الطويلة. تهبط هذه الطيور على الأرض الممتدة على طول شاطيء البحر لترتاح، ولكنها تكون منهكة لدرجة أن السكان المحليين يمسكونها بأيديهم دون أن تقوى على الحركة. على الأغلب أن الإسرائيليين صادفوا مثل هذه الحالة تماماً واستغلوا الفرصة المتاحة، واصطادوا تلك الطيور بكميات كبيرة.

تتحدث التوراة عن أن موسى ضرب بعصاه الصخر عند جبل حوريب فتفجر نبع ماء

عذب . إن موسى تعلم بلا شك تحقيق مثل هذه المعجزة من المديانيين . والبدو يعرفونها في أيامنا هذه، إنهم يعرفون أن مياه الأمطار تتجمع رغم الجفاف الطويل عند سفوح الجبال تحت طبقة الرمل والكلس الهشة ، ويكفي كسر هذه الطبقة الهشة للوصول إلى الماء العذب وإطفاء الظمأ. كما تتحدث التوراة عن أن الإسرائيليين بعد ثلاثة أيام من السير في برية شور، وصلوا إلى مارّة حيث كانت بإنتظارهم خيبة أمل كبيرة. فقد تبين أن مياه الينابيع مرة الطعم ولا تصلح للشرب ، يومهـا ألقى موسى بشجرة في المـاء . ويا للعجب لقد صار الماء حلو الطعم عذباً.

نقول حول هذا الموضوع : ان نبع ماء مر الطعم مازال موجوداً في ضواحي مارة حتى اليوم . فقد حلل الإنكليز ماء هذا النبع كيميائياً فوجدوها تحتوي على نسبة محددة من كبريتات الكلسيوم وإذا ما أضيف إلى المـاء حامض الاكساليك فإن كبريتات الكلسيوم تترسب في القعر وتفقد الماء مرارتها ، أما البدو فإنهم يحلون ماء النبع بواسطة أغصان نبتة برية تنبت في المنطقة ويحتوي سائلها على نسبة كبيرة من حامض الأكساليك . وهذا هو مشهد آخر من التوراة نقف عنده محللين ، ففي الطريق من جبل سيناء إلى قادش نفذت المواد التموينية لدى الإسرائيليين، وبدأ التذمر من جديد ينمو عندهم ، وعندما قدمت مرة ثانية أسراب طيور السلوى، فاندفعت الجموع الجائعة تصطادها ، ولكن الطيور، لم تكن كما كانت في الحالة الأولى ، لقد تبين أن الطيور كانت مضرة بالصحة . إذ مرض أغلب الإسرائيليين وعانوا كثيراً، وكثيرون منهم ماتوا ودفعوا حياتهم ثمناً لشرههم. تقدم التوراة هذا المشهد كعبرة أخلاقية لتظهر أن الرب لايصفح عمن يقف في وجه إرادته ، وكل شيء في هذا المشهد يشير إلى وجوب فهمه تماماً كما ذكرنا . وتظهر فيه كل الصفات المميزة للمثل الشعبي التهذيبي . إن أكثر مايثير الدهشة هو كون الحادثة المذكورة لا تعتبر مطلقاً نتاج خيال متهيج ، فقد اكتشف مدير معهد باستور في الجزائر البروفسور سرجان أن طيور السلوى السامة تظهر أحياناً فوق شبه جزيرة سيناء وهذه الطيور هي التي تقف للراحة قبل الانطلاق نحو أوروبا في السودان، وتتغذى هناك على حبوبٍ فيها مواد سامة . ويعتبر لحمها ضاراً بالصحة ، بل وخطراً عليها وعلى الحياة . ويبدو أن الحظ لم يحالف الإسرائيليين ، فقد اصطادوا مثل هذه الطيور قطعاً . وقد لاقت مغامرتهم البائسة انعكاساً لها في قصص التوراة وإلى فئة المعجزات السابقة نفسها يجب إرجاع كارثة الأفاعي السامة التي أصابت الإسرائيليين بين قادش وخليج العقبة . ففي الحقبة مابين عامي ١٨٠٩ و١٨١٦ م قدم إلى

شبه جزيرة سيناء الرحالة السويسري بورخارت. وفي المنطقة التي حددتها التوراة واجه ذلك الرحالة وادياً يعج بالأفاعي السامة. وتسكن تلك الأفاعي منذ غابر الأزمان، ولذلك فالبدو لايعبرون المنطقة بل يدورون حولها ليصلوا المكان الذي يقصدون. إذن وهذا المشهد قد يكون مستنداً إلى وقائع أيضاً حقيقية.

لقد صار معروفاً منذ زمن بعيد أن مايسمى بالأوبئة والعقوبات المصرية (عدا العاشر منها) كانت ظواهر عادية في بلد الفراعنة، ففي فترة فيضان نهر النيل كثيراً ما يصبح لون مائه بنياً ضارباً للحمرة وذلك نتيجة للطمي الكثير الذي يحمله من البحيرات الأثيوبية، عدا ذلك فإن البعوض وحشرات أخرى تتكاثر خلال فيضان النيل وعلى فترات متقطعة بشكل غير معقول. مما أرغم الفلاحين المصريين على اعتبار ذلك كارثة فعلية، أما مايتعلق بالبَرَد. فالحق يقال انه يتساقط فوق النيل نادراً، ولكنه إذا ما تساقط فإن الضرر الذي يلحقه يكون كبيراً جداً. لكن كارثة أخرى كانت أكثر شيوعاً في مصر. انها هجوم الجراد. أما سبب الظلام المصري فهو إعصار الرياح الجنوبية الشرقية، الذي يحمل معه من الصحراء سحباً رملية كبيرة جداً يلقيها على مصر، حاجباً بذلك الشمس لدرجة أن الظلام يعم المنطقة فعلاً.

أحلّ موسى حسب ما تقول التوراة بمصر تلك الأوبئة، كي يضغط على فرعون الشديد العناد، كيف كان يمكن لمثل هذه الأسطورة أن تتكون، لو أن الكوارث المذكورة حدثت في مصر أيام حكم الفرعون مرنفتاح، وهي الفترة التي نشطت فيها شخصية موسى؟ لو حصل ذلك لكان من السهل الجواب على هذا السؤال. فإن إسرائيلي تلك الأيام أناس بسطاء سُذّج تمتعوا دائماً بميلهم إلى الخيالات والمبالغات. وهذا يعني أنه كان بإمكانهم الاعتقاد والإصرار على أن موسى الساحر العظيم وممثل الإله يهوه، قد عاقب بتلك الطرق مطارديهم ومضطهديهم.

والأغرب من هذا أن المصريين أنفسهم كان من الممكن أن يصدقوا ذلك لأنهم صدقوا وبسرعة بوجود السحرة فنحن نعرف من الوثائق ومن التوراة أنه قد نُسب لبعض كهنتهم حوادث خارقة كالتي قام بها موسى أمام فرعون.

قد نصادف في هذه الحالة تعاقباً زمنياً عادياً للظواهر (past hoc)يميل الناس عادة الى رفعه لمستوى الرابطة السببية (probter hoc) [٢٦]. فقد كان موسى بنظر الإسرائيليين صانع معجزات عظيماً وكثيراً مابعث في نفوس قومه الإعجاب والخوف، وبالتالي كان بإمكانه أن

يصيب مصر أيضاً بعشرة أوبئة أو كوارث الواحدة تلو الأخرى. إننا نجد في مسرحية روستان الشهيرة (وشانتيكليور: المغني المزركش) مثلاً طريفاً عن ذلك الوهم والخيال.

ففي المسرحية نلاحظ انه كلما صاح الديك تشرق الشمس، فاقتنع الديك تماماً أنه شخص يُشرق الشمس، ويرفعها إلى قبة السماء.

بهذا الشكل استخدمت الروابط السببية المنسوبة إلى ظواهر وحوادث منفصلة أساساً لكثير من الأساطير والخرافات الدينية، ومن المؤسف أنه ليس لدينا أي دليل على أن الكوارث التوراتية العقابية قد ضربت مصر فعلاً زمن الفرعون مرنفتاح، . فتلك الكوارث قد تكون حدثت قبل سنوات بل عشرات السنين من عودة موسى إلى العاصمة رعمسيس.

أتكون نظريتنا على ضوء ماذكرناه أعلاه قد فقدت موضوعيتها؟ في البدء نقول كلا، ذلك لأن صفة أخرى من صفات التأليف الأسطوري تأتي لمساعدتها. وأساس هذه الصفة يكمن في أنه، في الخيال الشعبي ومع مرور الوقت تتقلص المسافة الزمنية بين حدثين تاريخيين تدريجياً، حتى يصل هذان الحدثان إلى حالة من التطابق والتناسق التام. فالإسرائيليون حفظوا في ذاكرتهم الأقاويل الشعبية عن كوارث هائلة ضربت مصر الواحدة تلو الأخرى. ومع مرور الزمن ولإبراز قوة موسى وعظمته، ألفوا أسطورة قيامه هو بضرب مصر بتلك الكوارث وقد منحهم ذلك العمل نوعاً من الراحة الأخلاقية لأن فرعون قد احتُقِر وذُلّ بتلك الطريقة، وأن قساوته واضطهاده سببًا عقاب الرب له.

نصادف في التوراة أمثلة أخرى عن عدم الاكتراث بالزمن عند وضع الأساطير، فنحن نعلم مثلاً، أن مدينة عاي، التي تقول التوراة بأن يشوع بن نون قد احتلها كانت قد صارت أنقاضاً قبل خمسمائة عام من قدوم يشوع، ولعل نسل أولئك الذين احتلوا أرض كنعان قد وقفوا مراراً على أنقاض تلك المدينة، وفكروا أن هذه هي المدينة التي دمرها يشوع بن نون، فوجدت تلك الرواية مكاناً لها بين النصوص التوراتية، وظلت تعتبر حقيقة إلى أن دحضتها الأبحاث الاكتشافية. وعلى الغالب أن مثل هذه الحادثة تكررت في أريحا التي أثبتت البعثة الأثرية الإنكليزية أنها سقطت قبل مائة عام من ظهور إسرائيليّي مصر في أرض كنعان.

وإنه لمن المناسب هنا، أن نورد مثلاً ممتعاً جداً من هذا القبيل: نذكر أن جواسيس موسى الذين أرسلهم إلى كنعان عادوا إليه بنبأ يقول إن العناقيين الذين هم من العمالقة، يسكنون في حبرون ولنتذكر أيضاً أن عوج ملك باشان كان أيضاً من العمالقة، وينام على

سرير حديدي بطول تسعة أذرع وعرض أربعة أذرع. لقد تبين أخيراً أن أسطورة العماليق، وُلدت تحت تأثير المدافن الحجرية الكبيرة القديمة التي تسمى بالدولمينات[٢٧] (الحجارة الصخرية الكبيرة) ومثل هذه الدولمينات وُجدت أيضاً في بعض أقطار أوروبا. وبما أن مقاييسها كبيرة بشكل غير معقول سماها الأقدمون (بأسِّرة العمالقة)، ففي عام ١٩٢٨ م اكتشف الأثري الألماني غوستاف دالمان في ضواحي حبرون وفي المكان الذي قامت عليه مملكة باشان الدولمينات المنوه عنها، وهي مدافن حجرية كبيرة تعود إلى العصر الحجري القديم ومبنية من البازلت الصلب كالحديد، ومن هنا على مايبدو أتى التعريف التوراتي: «السرير الحديدي»؛ لقد قام الخيال الشعبي دون أن يلاحظ المسافة الزمنية الهائلة التي تفصل بين عصر تلك الدولمينات وعصر موسى بتوحيد العصرين وربط بعضهما ببعض في سلسلة أحداث سفر الخروج فصرنا نقرأ بالنتيجة في القصة التوراتية أن قبيلة العمالقة كانت تعيش في حبرون وأن ملك باشان كان من العمالقة لنقل بإيجاز الآن عن الوباء (الكارثة) المصري العاشر. إننا بالطبع لانقبل بشكل من الأشكال التأكيد التوراتي على أن الموت استمتع بأخذ روح البكر من الأطفال والحيوانات الأليفة تحديداً، ومن الممكن أن نفترض أن تلك القصة التوراتية وُجدت صدى لوباء قتل الكثير من الأطفال في منطقة وادي النيل الأعلى ولم يصل إلى أرض جاسام. ولذلك لم يعاني الأطفال الإسرائيليون منه. أما تتمة القصة فوضعها الخيال الشعبي. إن القبائل العبرانية القديمة كما نعرف من قصص إسحق ويعقوب وغيرها من القصص التوراتية كانت تعطي أهمية كبيرة للولد البكر لأنه هو الوارث الرئيسي للأسرة وهو الذي يحمل التقاليد العائلية ويصل بين ماضي الأسرة وحاضره. وأن موت الابن البكر بالنسبة لهم، مصيبة أكبر بكثير من موت أخوته الآخرين بهذا الشكل وضع الإسرائيليون الأسطورة وكأن الإله يهوه عاقب بصرامة شديدة المصريين إذ أمات أولادهم البكر وبكور حيواناتهم الأليفة.

يعتبر عبور البحر الأحمر منذ غابر الأزمان موضوع جدالات حادة في الأوساط العلمية. إن هذه المسألة معقدة ويربطونها بالتحديد الطبوغرافي لخط سير موسى؛ نصادف في بعض البحوث الشهيرة تأكيدات تقول: بأن طريق الخروج من مصر قد حُددت بشكل دقيق وذلك على أساس النصوص التوراتية، والاكتشافات الأثرية. أما الحقيقة. فإن العلم الحديث يفتقد مثل تلك التأكيدات افتقاداً تاماً، وإن هدف تلك التأكيدات الواهية هو إثبات أن موسى بعبوره البحر الأحمر، اتجه بخط مباشرة إلى جبل سيناء المطابق في التوراة

للجبـل المـوجـود في الرأس الجنوبي لشبه جزيرة سيناء، وهنا وقبل كل شيء، يجب القول انـه تكمن فجـوات من الصمت، بل تنـاقضـات كثيـرة في هذا المجـال، تتخلل الأسطورة التـوراتيـة، لذلـك من الصعب إعطـاء تفصيل دقيق لخط سير الخروج ولايستطيع الأثريون بتأكيـد قاطـع مطـابقـة الأنقـاض التي اكتشفوها مع المناطق الواردة في التوراة. لنأخذ مثلاً مدينة مجدل التي اعتبرت مرحلة هامة من مراحل طريق سير الإسرائيليين. إن كلمة مجدل تعني بالعبرية القديمة وبالمصرية البرج المنيع، وقد اكتشفت مناطق بهذا الاسم في جهات مختلفة.

وهكـذا فإن جميـع محـاولات تحـديـد طريق الخـروج تحمـل صفة الفرضية ويذكر البـاحثـون حالياً ثلاثة طرق محتملة: الجنوبية، والمركزية (الوسطى) والشمالية. ويحتاج تفصيـل مراحـل هذه الطـرق مجهـوداً كبيـراً وشاقاً. فقبل ثلاثة آلاف عام كانت نهاية البحر الأحمـر الغـربيـة التي تنتهي اليوم في السويس ممتدة لمسافة أطول إلى الشمال ومتصلة مع البحيرات المرة، وقد أثبتت الأبحاث الجيولوجية ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، وتقع اليوم في ذلـك المكـان قناة السـويس. لكن في يوم ما كانت المنطقة كلها مليئة بالمياه الضحلة والمستنقعـات وبعض شعـاب اليـابسـة. إن البحـر الـذي عبره الإسرائيليون دون أن يبللوا أرجلهم يسمى باللغة العبرية القديمة « يم سوف »، وترجمتها الدقيقة في « بحر القصب »، واننـا لانصـادف تأكيـداً على أن المقصـود هو البحر الأحمر إلا في كتاب العهد الجديد أي الإنجيـل، نقـول ذلك ونحن نعلم أن القصب مانبت ولا يمكن أن ينبت في البحر الأحمر، ولكن القصب ينبت بكثرة في الأهوار والمستنقعات، ومناطق المياه الضحلة.

انطـلاقـاً من هذه المقولة فإن النتيجة التالية تفرض نفسها: إن « يم سوف » التوراتي ليس الا البحيـرات المـرة وبهـذا يمكن تفسيـر معجـزة موسى (عبـوره البحـر)، لقد كان بمقـدور الإسـرائيليين السيـر عبـر المستنقعـات ومنـاطق المياه الضحلة بسهولة. وذلك عن طريق المخـاضـات والشعـاب الأرضية، لكن المصريين بعرباتهم الثقيلة، ربما ضاعوا في متـاهـات القصب، وتـوغلوا في المستنقعـات ومن الممكن أن يكـونـوا قد غرقـوا كما تؤكد التـوراة. ذلـك أن ريـاحـاً شمـالية غربية قوية هبت عليهم ودمرت بهبوبها موانع عالية نسبياً موجـودة في الميـاه ذاتهـا محـولة بذلك المياه الضحلة إلى بحيرات عميقة، فحصل مايشبه المد بالنسبة للمياه في منطقة العبور. إن هذه الفرضية كما نرى مقنعة تماماً، ولكن للأسف الشـديـد فيهـا نقطـة ضعف هامـة جداً، فالمفروض أن يكون المصريون على علم بطبيعة

البحيرات المرة وأخطارها ومصائدها. فلماذا إذن تصرفوا على تلك الشاكلة من عدم الحذر؟ وخاصة وأن فرعون وقادته العسكريين ذوي الخبرة العالية، كانوا على رأس الجيش. ومن الصعب التفكير بأنهم كانوا سطحيين وقليلي الحذر. ولهذا كان من المفروض البحث عن تفسير آخر لتلك المعجزة.

لقد لاقت الفرضية الجريئة التي أطلقها المستشرق الفرنسي بيير مونتيه، المار ذكره، قبولاً واسعاً من بين جميع الفرضيات الأخرى، إنه ينطلق من افتراض أن الإسرائيليين بعد أن غادروا العاصمة رعمسيس، اتجهوا مباشرة نحو الشمال وساروا بعدها بمحاذاة شاطيء المتوسط إلى حدود أرض كنعان لكنهم وفي طريقهم ذاك اصطدموا بتحصينات مصرية، وبمقاومة سكان الساحل الذين تسميهم التوراة خطأ بالفلسطينيين لأن الفلسطينيين دخلوا فلسطين في وقت متأخر بضع مئات من السنين فكان أن اضطر الإسرائيليون إلى تغيير مسارهم نحو الجنوب.

يوجد في التوراة تذكير يؤكد خط السير الشمالي ذاك، فمجدل تعرف بالتوراة بآخر مدينة شمال مصر وقد وجد الأثريون أنقاضها في « أبو حسن » إذ نجد في سفر الخروج (أصحاح ١٤ ـ آية ٢) « كلّم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروت، بين مجدل والبحر امام بعل صفون ، ومن المعروف اليوم أن بعل صفون كانت مركزاً هاماً لعبادة الإله الكنعاني بعل صفون الذي يعني اسمه ربّ الشمال، وقد ماثله الإغريق بزيفس كاسيوس وله معبد على تلة مونس ركاسيوس الواقعة على شعب أرضي واقع بين البحر المتوسط وبحيرة سيربوينس، التي أُطلق عليها فيما بعد اسم بحيرة باردافيل.

لقد اختار الإسرائيليون على الأغلب الطريق القديمة التي طالما سلكتها الرحالة والتي تسير بين شاطيء البحر المتوسط والأرض الفاصلة بينه وبين بحيرة سير بؤينس. وقد استخدم الرومان مرات عديدة هذه الطريق وفي عام ٦٨ ق. م، قاد تيتوس الامبراطور الروماني ألويته عبر هذه الطريق ليقمع تمرد العبرانيين في أورشليم.

تنخفض بحيرة سيربوينس عدة أمتار عن مستوى سطح البحر، وكثيراً ما يُجف ماؤ ها لدرجة يصير من الممكن السير فيها دون التعرض لأية أخطار، عندما حكم الإغريق مصر وقعت هناك عدة كوارث. فقد كانت العواصف الفجائية المتشكلة فوق سطح البحر تضرب شُعب الأرض هناك، وتغرق بمياه البحر التي تحملها تلك العواصف، البحيرة والرحالة الذين يسيرون على قاعها بقصد اختصار الطريق.

على أساس هذه الوقائع صاغ بيير مونتيه، كيفية جريان الأحداث الموصوفة في التوراة: لقد حالف الحظ الإسرائيليين في عبور شِعب الأرض الضيق والاقتراب من الشاطيء الشرقي للبحيرة الجافة. أما المصريون فقد حثوا الخطى ليعبروا قاع البحيرة الجاف، كي يطوقوا الهاربين ويقطعوا عليهم الطريق، وعندما وصلوا مركز البحيرة، ارتفعت فجأة فوق المتوسط عاصفة هوجاء وحملت معها أمواجاً هائلة الحجم أغرقت الشِعب الأرضي وأطاحت بالمصريين وكانت البحيرة تمتد لمسافة سبعين كيلو متراً طولاً وعشرين عرضاً، وكان الشاطيء المرتفع الذي كان بإمكان المصريين الالتجاء إليه بعيداً جداً عنهم فغرقوا في لجج الامواج المحمولة من البحر المتوسط.

لننتقل الآن إلى نقطة مظلمة اخرى من الأسفار الخمسة، تقول التوراة إن موسى أخرج من مصر ستمائة ألف شخص عدا النساء والاطفال، أي إن مجموع ما أخرجهم موسى يقارب المليوني شخص، للوهلة الأولى عند قراءة هذا الرقم يتبادر للذهن أنه مبالغ فيه فالرحالة التشيكي آليوسموزيل، العارف الخبير بحياة الصحراء، وبعملية حسابية ممتعة بيّن أن قبيلة من البدو تعدادها خمسة آلاف شخص تشكل عند المسير (الترحّل) قافلة بعرض عشرين كيلومتراً وطول أكبر من ثلاثة كيلومترات وكلما زاد عرض الجبهة كلما ازدادت احتمالات إيجاد المراعي. لكن مع ازدياد العرض يزداد خطر التعرض لهجمات القبائل الأخرى، ويراعي موزيل: أن الفرضية التي تقول إن واحات شبه جزيرة سيناء أطعمت مليوني إسرائيلي، لا تمت إلى المنطق بصلة، والأغرب من هذا أن يكون معسكر واحد قد اتسع لهذا الحشد الهائل من الناس، لذا فإن كلام التوراة ذاك مرفوض من أساسه.

إن الإنسان المعاصر الذي يعرف كم هي كبيرة أبعاد مدينة تتسع لمليوني شخص يستطيع أن يتصور وبسهولة، المساحة التي كان لمثل ذلك المعسكر أن يشغلها.

ونحن نتذكر هنا أن التوراة تذكر في أسفار أخرى أرقاما أدنى من ذلك الرقم، فهاهي التوراة تذكر أن أربعين ألف مقاتل إسرائيلي احتلوا أريحا، رغم أن موسى بحسب التوراة نفسها فرض على الأسباط المشاركة في احتلال أرض كنعان، وفي فترة حكم القضاة قدّمت أكبر قبيلة (سبط) أربعين ألف مقاتل، إذن لم يكن عدد الاسرائيليين ليزيد آنذاك عن نصف مليون شخص.

من أين أتى ذاك الرقم الخيالي؟ يعتقد بعض العلماء أن كاتبي التوراة وقعوا في التباس واخطأوا، ذلك لأن الحديث كان يجري عن ستة آلاف رجل مسلح، إذا ما أضفنا

إليهم النساء والأطفال قد يصل عددهم إلى خمسة وعشرين ألفاً. وقد أُعطيت أهمية خاصة للإسم «إلف» في اللغة العبرية القديمة فهو لا يعني فقط الرقم ألف بل يحمل معنى فصيلة أو مجموعة عائلية أو جيل. فإذا ما أُخذ بهذا المعنى لكلمة ألف فإن الرقم الذي نناقشه سيصغر ويقل أكثر لأن المقصود يكون ليس ستمائة ألف مقاتل بل فقط ستمائة عائلة ويُعتقد بأن الرقم الأخير (ستمائة عائلة) هو أقرب الأرقام إلى الحقيقة، ويؤكد الواقع الذي ذكرته التوراة هذا الرقم عندما نقرأ: (إن قابلتين كانتا تولّدان كل نساء إسرائيل).

وبالطبع لم يكن من الممكن لذلك العدد القليل من الإسرائيليين أن يقهر ممالك ماوراء الاردن وأرض كنعان. لذلك يعتقد أن الإسرائيليين قد اتحدوا خلال وجودهم في الصحراء، مع قبائل اخرى.

إن مسألة الرقم المذكور في التوراة ليست هامة في الحقيقة إذا ماقورنت بمجموعة قوانين الأسفار الخمسة التي نناقشها فحتى القرن التاسع عشر كانت القناعة تصور موسى على انه صاحب مؤلَّف مجموعة أقدم قوانين عبرية وهي التي تسمى «كتاب العهد» أو «كتاب الشهادة». بينما تؤكد التحاليل الحديثة للنصوص بشكل لايدع مجالاً للشك عدم مصداقية تلك القناعة. فمن الصعب جداً اليوم معارضة النظرية المبرهن عليها، والتي تقول: « إن الأوضاع التشريعية والدينية المجمعة بشكل عشوائي، في الأسفار الخمسة تعود بأصلها إلى حقب زمنية مختلفة، وتعتبر نتيجة لتطور التفكير الحقوقي على مدى قرون عديدة».

تؤكد قساوة بعض تلك القوانين على قدمها الكبير، ومن تلك القوانين: « قانون العين بالعين والسن بالسن » الذي تنادي به التوراة. وفي الكثير من الحالات يبرز إلى السطح العقاب بالرجم بالحجارة حتى الموت. عدا ذلك فإنه في كل مكان تحدد التوراة وضع المرأة كوضع العبيد تقريباً. ويعتبر واحد من الأمثلة على تلك القساوة الوحشية القانون الذي ينص على أنه: إذا صرع ثور إنساناً وكان صاحب الثور يعرف أن ثوره حيوان خطر ولم يمنع الجريمة من الوقوع، فإن الثور وصاحبه يعاقبان رجماً بالحجارة حتى الموت.

هذا، وفي الوقت نفسه نصادف قوانين إنسانية في التوراة سيما مايتعلق منها بالعبيد والإماء: فعلى المالك أن يحرر عبده أو أمته فوراً إذا ماتسبب في فقء عينه أو عينها أو قلع سنه أو سنها، كذلك وقفت بعض القوانين إلى جانب اليتامى والأرامل والمساكين وحمتهم من مضايقة الأغنياء والمرابين.

وهـاهي بعض القـوانين والتشـريعـات كمـا جاءت في التـوراة تمـاماً «لاتُعوِّج حكم الغريب واليتيم، ولاتسترهِن ثوب الأرملة». (سفر التثنية ـ أصحاح ٢٤ ـ آية ١٧). وهذا هو حكم الإبراء «يبرىء كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه، لا يطالب صاحبه ولا أخاه». (سفـر التثنيـة أصحـاح ١٥ ـ آيـة ٢)، تعكس غالبية تشريعات الأسفار الخمسة، العلاقات الاجتمـاعيـة، التي كانت سائـدة في الفتـرة الـلاحقـة لدخـول الإسرائيليين أرض كنعان، وبدئهم بممارسة حياة الاستقرار واشتغالهم بالزراعة والصناعة، وبالتالي ما كان يمكن لتلك القـوانين أن توضـع خلال فتـرة التنقل في الصحراء. أو بكلام آخر لا يمكن أن يكون موسى واضعهـا. كمـا أن الكثيـر من القـوانين المتعلقـة بالطقـوس الـدينيـة، بفـروض وواجبـات المـواطنين تجـاه الكهنـة ذات منشأ لاحق لعهـد موسى. وذلـك لأنهـا مرتبطـة ارتباطاً وثيقاً بالنظام التيقراطي الذي اتبع في اورشليم فقط بعد العودة من الأسر البابلي.

وعـدا ذلـك، فإنـه من المبرهن عليه ان اقدم القوانين الإسرائيلية المذكورة في كتاب العهـد، مسـروقـة من تشريعات شعوب قديمة أخرى ومصاغة على النمط الإسرائيلي. وقد كشف العـالم الألمـاني آ. آلت في كتـابه [مصادر «قانون الإسرائيلي] النقاب عن علاقة القـوانين الإسـرائيليـة بتشـريـع حمـورابي وكذلك بقوانين وتشريعات الحثيين والآشوريين والمصـريين والكنعـانيين، وحتى الـوصـايـا العشـر لا تعتبـر نتـاجاً إسرائيلياً نقياً. فقد قارن المؤرخ الإيطالي جوزيبي ريتشيوني، مؤلف كتاب «تاريخ إسرائيل» بدقة متناهية مجموعة من النصـوص القـديمـة. فاكتشف أن للوصـايا العشر شبيهات بل قرائن في كتاب الأموات المصـري وفي النص البـابلي شوربـو. إذن وهنـا استخـدم مؤلفـو التوراة ايضاً تراث مابين النهرين ومصر.

لننتقل الآن إلى السؤال عن ماهية موسى كواضع للديانة العبرية، فقد توصل العلماء الذين عملوا في هذا المجال إلى نتائج ممتعة:

فحسب القصـة التـوراتية، يقول أولئك العلماء: أمضى موسى في الصحراء أربعين عامـاً بين المـديـانيين وأولادهم وهم أبنـاء قبيلة لهـا صلات قربى مع الإسـرائيليين. وتعيد التوراة أصلهم إلى مديان أحد أبناء إبراهيم من قطورة «زوجته الثانية» وسكنت تلك القبيلة منطقة تقع إلى الشرق من خليج العقبة، وتتبع اليوم السعودية.

لم يشعر موسى هناك بالغربة وتزوج من ابنة الكاهن المحلي، وفي أرض مديان عند سفـح جبـل حوريب البـركـاني ظهـر له الـرب لأول مرة باسم يهـوه. نقـرأ في سفر الخروج

(أصحاح ٢٦ ـ آية ٢ ـ ٣) (الترجمة من اللغة العبرية القديمة) «أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء (الشداي) وأما باسمي يهوه[٢٨] فلم أعرف عندهم» في الحقيقة، صادفنا اسم يهوه في التوراة في مقاطع سابقة لهذا المقطع، لكننا نعرف الآن أن مؤلفي التوراة قد أضافوا هذا المقطع في وقت متأخر جداً ويعتقد الكثير من العلماء أن يهوه كان إله الحرب عند المديانيين وأن موسى صار من أتباعه. ومنذ لحظة عودته إلى مصر، أخذ على عاتقه مهمة نشر طقوس عبادة يهوه بين الإسرائيليين، زد على ذلك أن أكثر مؤيديه نصرةً له وغيرةً على طقوسه كان اللاويون الذي هو منهم أصلاً، وبهذا يُفسر إعطاؤه اللاويين ذلك الدور الهام جداً في حياة الشعب الإسرائيلي. لكنه في الحقيقة، لم يعطهم شيئاً عند توزيع أرض كنعان، لكنه بالمقابل حررهم من هموم المشكلات الحياتية الإنتاجية والعملية بأن أعطاهم حق أخذ عُشر مايوجد ليعيشوا منه. وكانوا في الحرم الرباني يقومون بمهمات خدَم الحرم، فكان منهم الحرس والخَزَنة والكتبة والمرتلون والعسكر.

إن دور اللاويين الطاغي في القبيلة يدل على أنه كانت تقع على عاتقهم مهمة نشر «اليهوهية» في صفوف الشعب الذي تقبل بسهولة وتفهم طقوس الآلهة المصرية والكنعانية. ذلك لأن «اليهوهية» المأخوذة منذ فترة قريبة من المديانيين، لم تكن قد عمقت جذورها بعد. عند طور سيناء طالب الشعب بالعودة إلى الآلهة القديمة، وعندها وضع هارون طقس العجل الذهبي، ـ والعجل ـ هو تعريف مختصر للثور أبيس الذي عبده الإسرائيليون حسب التوراة، يوماً ما في مصر. وهنا قد تجد التأثيرات الكنعانية أيضاً مكاناً لها.

إن مشكلة اللاويين معقدة ومليئة بالغموض، ويعتقد بعض العلماء أنهم لم يكونوا قبيلة منفردة، بل مجموعة من الكهنة تشكلت في قادش، تقول الكتابات التي اكتشفت في منطقة عربية تقع إلى الشرق من أرض مديان السابقة، إنه كان يرمز لكاهنات الرب وادٍ باسم «ل و» وللكهنة باسم « ل و ي» وكلمة لاوي أُخذت من هذا الأصل. فقد تزوج موسى من ابنة الكاهن المدياني واعتنق دينه، ثم صار كاهناً، أي لاوياً فاتجه بعد ذلك على رأس مجموعة من الكهنة ـ اللاويين ـ إلى مصر لينشر « اليهوهية » بين أبناء عشيرته. وبالتالي كان مبشراً بين الإسرائيليين المعتنقين ديانة الآلهة المصريين.

إن هذه الفرضية ممتعة، ولكنها للأسف الشديد تقوم على أساس هش لا يسمح بتقبلها دون جدل، خاصة وأن رأياً آخر قد تكوّن حول هذا الموضوع. فقد لاحظ بعض

العلمـاء ان تسميـة لاوي تشبـه كلمـة عبـرية قديمة تعني «حية»، والجزء لاوي يدخل على فكرة في تسمية التنين الأسطوري «الوياثان»، عدا ذلك فقد أثبتت واقعة مدهشة تبين منها أن اللاويين كانوا يطلقون على أنفسهم أسماء تحمل في جذورها معنى «حية».

ماالنتيجة الحاصلة من كل هذا؟ حسب النظرية كان اللاويون في مصر من عَبَدة الإله الحيـة، ولم تكن عنـدهـم الـرغبـة الكـافيـة لترك عقيدتهم، فقد بينت الاكتشافات الأثرية أن طقس عبادة الحية حافظ على وجوده في فلسطين عدة قرون بعد موسى، وكان له الكثير من الأتباع الإسرائيليين، على ضوء هذه الاكتشافات يصبح من الواضح لماذا نصب موسى في وسط معسكره الحية كي يعيد الصحة لأولئك الذين لدغتهم الأفاعي السامة، ومن الواضح أيضاً أن اللاويين قد طالبوا بنصب تمثال الحية لأنهم كانوا مقتنعين بأن إله الأفاعي هو الذي أنــزل المصيبــة على رأسهم بسبب ابتعـاد الشعب عنـه ونسيـان طقـوسـه، وتحت ضغـط الـلاويين، اضطـر موسى للانصيـاع ووافق على أن يحـافـظ الإسـرائيليـون. بالإضافة إلى طقـوس الإلـه يهـوه على طقسهم المصري القديم. إن مثل تلك الحلول الوسط التماسكية كانت كثيراً ماتجد لها مكاناً في الديانات الأخرى، ولم تكن نادرة عند الإسرائيليين أيضاً. وكمثال على ذلك يمكن ذكر الملك سليمان، فهو رغم اعتناقه طقوس يهوه فإنه وفي الوقت نفسه أمر بنصب تماثيل للآلهة الكنعانية في أورشليم.

بالرغم من المكانة العظيمة والهالة القدسية، اللتين تمتع بهما موسى فإنه لم ينجُ من ملامة أنصار يهوه، الذين اتهموه بتلويث الديانة العبرية لسماحه بممارسة طقوس عبادة الإله الحيـة. إن هذا واضـح في سفـر الملوك الثـاني (أصحاح ١٨ ـ آية ٤) فهناك نقرأ أن الملك اليهـودي حزقيـا (٧٢١ ـ ٦٩٣ ق. م): « سحق حيـة النحـاس التي عملهـا موسى لأن بني إسـرائيـل كانـوا إلى تلك الأيـام يوقـدون لها ودعوها نَحُشتان ». نستطيع أن نخرج من هذه الأسطر بنتيجتين الأولى: إن الفرضية القائلة بأن اللاويين كانوا من عبدة الحية، قريبة جداً من الحقيقـة، الثـانيـة: استمـر طقس عبـادة الحيـة، في فلسطـين، خمسـمائـة سنة معتمداً على سماح موسى بممارسته اعتبر موسى أرض مديان وطنه الثاني. فقد عاش هناك أربعين عاماً من عمره، وارتبط بتلك الأرض ارتباطاً قوياً بفضل زواجه من ابنة كاهن مديان. ولهذا كان من الغباء الا يسير بإسرائيلي مصر بطريق مباشرة توصلهم إلى مديان، إلى أقربائه وأصدقائه المخلصين. فهنـاك وليس في مكـان آخـر كان يمكنـه أن يؤ من استقبـالاً جيداً له ولشعبه، ومساعدة لتنفيذ الخطط التي وضعها نصب عينيه.

ونحن نملك بالفعل بعض البراهين على الفرضية القائلة بأن موسى اتجه إلى مديان وليس إلى رأس شبه جزيرة سيناء وأن عقد الميثاق الأسطوري بين موسى ويهوه مرتبط بجبل حوريب وليس بطور سيناء، فحسب التوراة حين وجد موسى نفسه (خلال فترة وجوده في الصحراء) عند سفح الجبل المدياني أعطاه يهوه الأمر التالي : « حينما تُخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل » (الخروج ٣ - ١٢) يُستنتج من كلمات السفر التوراتي المكتوبة هذه أن التقليد العبري، وحتى لحظة تحريف «الكتاب المقدس» كان يقدس ويُجل جبل حوريب. ولا يمكن تفسير تلك الكلمات إلا بهذا الشكل. ومن الواجب التطرق إلى حجة أخرى في هذا المجال تقول التوراة حرفياً مايلي : « وكان جبل سيناء كله يُدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً. فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت » . (الخروج أصحاح ١٩، آية ١٨ - ١٩) إن هذا وبلا شك وصف لجبل بركاني يلفظ ناره بصوت وضجيج، رأى فيه الإسرائيليون ظاهرة ربانية غير طبيعية من ظواهر يهوه. وهكذا من المعروف أن البراكين لم توجد قط في شبه جزيرة سيناء، لكن في الجهة الشرقية من خليج العقبة، وبالتالي في أرض مديان، توجد سلسلة من الجبال البركانية التي خمدت منذ مدة طويلة لكنها كانت نشطة أيام موسى.

لنتساءل الآن: هل كان موسى من أنصار وأتباع الإله الواحد بالمعنى الدقيق لهذا التعريف؟ إن الجواب ليس سهلاً ذلك لأننا غير قادرين على تحديد نسبة التحريف التي قام بها محرفو التوراة كي يضفوا على موسى صفته التوحيدية. غير أنه من الممكن جداً أن يكون قد امتلك بعض الأفكار التوحيدية البدائية. ولم يكن وحيداً في هذا المجال.

لقد أثبت المستشرق الأميركي أولبرايت على ضوء الوثائق المسمارية أن النزعات التوحيدية كانت منتشرة في غرب آسيا في الفترة مابين ١٥٠٠ و١٢٠٠ ق.م، وكان ممكن لذلك الجو الروحي العام، أن ينتقل إلى موسى على افتراض أنه كان مثقفاً، وتستهويه الأفكار الجديدة في مجال الدين والفلسفة ومع هذا يمكن الافتراض أن أكبر تأثير تعرض له موسى كان تأثير الفرعون أخناتون المبشر بالوحدانية، ومؤسس ديانة الإله أتون الذي هو إله الشمس؛ غرف موسى من مناهل الحكمة المصرية في هليوبوليس، وليس من المستبعد أن يكون مذهبه الديني مرتبطاً بطقوس عبادة أتون.

حكم أخناتون في منتصف القرن الرابع عشر ق.م، قبل مائة عام من زمن موسى

المـزعـوم ؛ بعـد موت أخناتون قامت مجموعة الكهنة بملاحقة أتباع الدين الجديد وتشديد الخنـاق عليهم وتمكنت من إخمـاد ناره . أما اليوم وبفضل الاكتشافات الأثرية . فإننا نعرف فرقـاً سريـة من أتبـاع أتـون قد مارست طقوسها حتى القرن الثالث عشر ق . م . وكان أعضاء تلك الفـرق بشكـل عام من المثقفين ، ذلـك أن المثقفين كانـوا الـوحيـدين الذين تناسبهم نظـريـة الإلـه الواحد التجريدية (الإله الواحد خالق الكون وحامي الإنسانية الرحيم) . فهي عقيـدة بسيطـة لهم تشبـه ببساطتها الطقوس الجديدة التي يمارسها أصحاب هذه العقيدة . وهكـذا استطـاع موسى بشكـل أو بآخـر ، الاتصـال بتلك الفرق والمشاركة بطقوسها السرية على شرف إلـه الشمس أتـون . لكنـه عرف على مايبدو أن نظرية إله أخناتون افتراضية جداً وصعبـة على البسطـاء من النـاس ، ممـا يعقـد نظـريـة نشـرهـا بشكـل واسـع بين صفوف الإسرائيليين . لذلك كان يضطر إلى اللجوء إلى حلول وسط مختلفة ، همه الوحيد منها زرع أوائـل شجيـرات التـوحيـديـة . ولهذا الغرض قرر اللجوء إلى خيال الإسرائيليين المُوسوس متصنعاً بذلك قيامه بالمعجزات . وقد استخدم في سحره المعلومات التي عرفها في المعبد المصري ، من الكهنة وكذلك تجربته التي اكتسبها عند المديانيين في الصحراء .

سعى موسى للتـوفيق بين طقس الحيـة واليهـوهيـة ، فإلهـه ليس كائنـاً غير مرئي ، إنه يتمتـع بكـل خواص إلـه الحرب المدياني ومذهبه بسيط وساذج تماماً كإدراك الإسرائيليين . إن يهوه التوراتي يذكرنا جداً بإنموذج الزعيم البدوي بكل إيجابياته وسلبياته ، فهو يسير دائماً على رأس قافلة الإسـرائيليين يعيش في خيمـة ، يقود المقاتلين أثناء الحرب يمتليء غضباً لدرجـة أنـه يستطيـع عنـدها قتل آلاف الأشخاص إذا عارضوا إرادته . وعدا ذلك فإنه يتمتع بكـل شمـائـل بدو الصحـراء ، فهـو يقاتل ضد فساد الأخلاق بلا رأفة ويطالب الإسرائيليين بحسن الضيـافـة ، وبـالعطف على الفقـراء ويحسن معـاملة النسـاء الأسيـرات . وحتى الحيوانات تجد فيه مدافعاً عنها ضد قساوة الناس .

وإذا كانت نظرية تأثر نظرة موسى الدينية بأخناتون تحمل صفة الافتراضية المطلقة ، فإن تأثـره بمؤثـرات مصـريـة أخرى ثابت لدرجة أنه لا مجال للشك بصدقه ، فلم يكن عند العبـرانيين القـدمـاء مثلاً مجموعة كهنة منعزلة منفردة . ولم يكن لها كذلك مكان في النظام البطـريـركي للعبـرانيين القـدماء الرحل . والإسرائيليون الذين استوطنوا أرض جاسام اتبعوا مبدئياً الطقوس المصرية .

موسى هو الـذي ادخـل نظـام مجمـوعـة الكهنة المنفصلة ، ووضع على رأسها كاهناً

أعلى، وهو لكونه ابن ابنة فرعون بالتبني، تعرّف جيداً على نظام الكهنة المصريين، ورأى بأم عينه لأي درجة يعتبر الكهنة سنداً للسلطة وطريقاً للحفاظ عليها، وقد استفاد مما رآه وعرفه وعندما سار إلى أرض كنعان كي يتغلب على نظام القبيلة الذي كان لايزال مسيطراً عند الإسرائيليين، سعى إلى تحويل الإسرائيليين إلى مؤسسة اجتماعية موحدة. وكان على مجموعة الكهنة أن تكون ذات دور فعال في تلك العملية، فمجموعة الكهنة بزعامة هارون تكون مجموعة مافوق القبيلة، وهي المالكة للسلطة بسبب المكاسب التي منحت لها، أضف إلى ذلك أنها تستند بوجودها إلى هيبة الإله يهوه. وكما يثبت عصيان تورح لم ينصع الإسرائيليون للسلطة الجديدة دون مقاومة واعتراض، ذلك لأن إدخال النظام التيوقراطي الجديد ترافق مع ازدياد عمق الفروق الطبقية. فقد برزت إلى السطح طبقات اجتماعية ذات حقوق وامتيازات كبيرة. يظهر التأثير المصري بوضوح في الوصف التوراتي لثياب الكهنة التي تعتبر صورة طبق الأصل تقريباً عن ثياب كهنة هليوبوليس. والفرق الوحيد بين الصورتين يكمن في أن الكهنة الإسرائيليين كانوا ملتحين بينما كان كهنة مصر حليقي الذقون والرؤوس، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتجرأ موسى على طلبه من الإسرائيليين، فتركه وأقلع عنه لأن اللحية كانت صفة سامية قديمة جداً.

تابوت الشهادة مسروق أيضاً عن المصريين. فقد كان الكهنة المصريون في هليوبوليس وطيبة يحملون خلال ممارستهم طقوسهم أسفاطاً صغيرة فيها أدوات ممارسة طقوسهم، والممتع هنا أن تلك الأسفاط كانت تظلل بجناحيها تمثالين منحوتين لعبقريين، أو لاثنين من حماتهم، وهكذا نجد أنه حتى الكروبينات الإسرائيلية لها منشأ مصري.

من المفيد هنا أن نلاحظ، كحقيقة ممتعة جداً. أن القبائل البدوية أخذت بدورها عن الإسرائيليين تابوت الشهادة وخيمة الاجتماع، فعلى لوحة حجرية عائدة للحقبة الرومانية وجدت في تدمر صورة جمل يحمل على ظهره خيمة صغيرة مقدسة، وقد بقيت آثار تلك العادة المصرية ثم الإسرائيلية حتى أيامنا هذه، ولاتزال إحدى قبائل البدو التي تنتقل في الصحراء السورية تحمل معها على ناقة سفطاً، واسم ذلك السفط عند تلك القبيلة: مركب أو فلك إسماعيل، ويشكل هذا الفلك عندهم نوعاً من ذخيرة القبيلة المقدسة، ويمكن أن نجد في التوراة أمثلة أخرى من التأثير المصري. لنتذكر المشهد الذي غطى فيه موسى وجهه بحجاب وظهر على رأسه قرن علامة على قدسيته. لقد كان الكهنة المصريون يغطون وجوههم بخمار في لحظة معينة من ممارسة طقوسهم الدينية في المعبد أو عند

قيامهم بالتنبؤ ـ أما القرن فهو بقايا طقس العجل أبيس المصري الذي ترك في نفوس الإسرائيليين آثاراً عميقة كما يدل مشهد العجل الذهبي التوراتي ـ فالقرن بالنسبة لهم بقي للقدسية. وموسى ذو القرن في القصة التوراتية رسول الرب المشع بنور السر الإلهي وهكذا نحت الفنان ميكيل أنجلو تمثال موسى مكفهر الوجه متعالياً، وعلى رأسه قرن، أيجب الاستغراب من أن يكون موسى قد تأثر كثيراً بمصر، وأن يكون عارفاً بالكثير من حكمتها؟ إن اسمه (بالعبرية القديمة موشي) ليس من أصل إسرائيلي، وهو حسب علم الاشتقاق مشتق من اللغة الاوغاريتية «م ـ و ـ ش» التي تعني الطفل حديث الولادة أو من الفعل المصري «مي» أي : يَلِد. لهذا السبب افترض بعض العلماء ان موسى كان مصرياً ولما هرب من مصر اندمج مع القبائل العبرية القديمة، ومع مرور الزمن صار زعيماً لتلك القبائل.

لقد ذكرنا سابقاً أن ديانة موسى كانت عبارة عن اتحاد، انصهرت فيه المعتقدات المصرية أيام البطارقة مع طقس إله الحرب المدياني وطقوس المصريين وتصوراتهم الدينية ويجب ألا ننسى أيضاً أن ذلك الاتحاد تأثر كثيراً بطقوس بلاد مابين النهرين وكنعان، وعلى هذه الشاكلة وضع ذلك التركيب الذي صار أساساً لتوحيدية الأنبياء العبرانيين. إننا كثيراً ما نصادف أشياء مدهشة في قصة الخروج. وتبقى شخصية يشوع بن نون مثيرة كثيراً للدهشة ومؤثرة في النفس. فيشوع خليفة موسى وفاتح بلاد كنعان شخصية غامضة في كل جوانبها. ويؤكد العلماء الذين شاركوا في تنقيبات أريحا وكما رأينا سابقاً أن القلعة (الحصن) سقطت في أيدي غزاة في القرن الرابع عشر ق.م، أي قبل مائة عام تقريباً من قدوم الإسرائيليين من مصر. لذلك لايمكن ليشوع بن نون أن يكون فاتح أريحا. ويحاول بعض باحثي التوراة حل هذه المعضلة على الشكل التالي :

إن الشعب الإسرائيلي وعلى مدى تاريخه كله قسم إلى مجموعتين مختلفتين عن بعضهما اختلافاً بيناً : الإسرائيليين الذين سكنوا القسم الشمالي من فلسطين واليهود الذين سكنوا القسم الجنوبي منها. وقد كانت بين المجموعتين خصومة وعداوة عميقة الجذور، ولم تتحدا في دولة واحدة إلا لمرة واحدة ولوقت قصير، وكانتا مرغمتين على ذلك. وتم ذلك الاتحاد في أيام حكم شاول وداوود وسليمان. ومباشرة بعد موت سليمان الملك انقسمت الدولة إلى قسمين ووصل بهما الصراع والعداوة لدرجة أن كلاً منهما كان يتحد مع أعدائه التقليديين ضد القسم الآخر. وبنى الإسرائيليون الشماليون لنفسهم عاصمة جديدة هي السامرة، في الوقت الذي بقيت فيه أورشليم عاصمة للدولة اليهودية (دولة يهوذا).

يُعتقد أن الخصومة لم تكن نتيجة التنافس بين السلالتين الملكيتين الحاكمتين في الدولتين فقط، بل أن أسبابها وجذورها تذهب بعيداً نحو اختلافات سلالية عرقية.

كيف نفسر تلك الاختلافات؟ قد يكون الجواب موجوداً في الألواح المسمارية التي اكتشفت في عاصمة الفرعون أخناتون ـ تل العمارنة حالياً ـ أن تلك الألواح عبارة عن مراسلات دبلوماسية تعود إلى القرن الرابع عشر ق. م. يشتكي فيها الحكام الذين عينتهم مصر لفرعون من أن قبائل الصحراء، الجبيرو، تهاجم دولهم الصغيرة وتنهبها. إذا كانت تختبيء وراء هذه الكلمة القبائل العبرانية القديمة (حبراي) كما يعتقد بعض العلماء فإن هذه الرسائل تعطينا برهاناً على أن القبائل العبرية القديمة دخلت أرض كنعان قبل الإسرائيليين الخارجين من مصر بقرن ونصف القرن من الزمن.

وحقيقة ان طلب المساعدة في الصراع مع المحتلين قدم من حكام مدن مجدو، وعسقلون وأورشليم وغيرها، لكن الألواح لاتذكر أبداً مصباح وأريحا والمدن المجاورة لهما. أيعقل أن يكون العبرانيون القدماء قد سيطروا على تلك المدن آنذاك؟ فمن المثير للفضول أن إحدى الرسائل تتحدث عن قائد عسكري باسم يشوع وهنا يتبادر للذهن سؤال: أليس يشوع هذا هو نفسه صاحبنا التوراتي؟ وهنا يخرج المستشرق الأميركي باول ديفيس مع بعض العلماء بنتيجة مفادها: أن فرعاً من العبرانيين القدماء إما ان يكون قد خرج من مصر قبل موسى بقرن ونصف القرن أو أنه قد دخل أرض كنعان قادماً من الشرق تحت قيادة شخص مجهول بالنسبة لنا اسمه يشوع. وقد دمر ذلك الفرع في القرن الرابع عشر ق. م مدينة أريحا ومدناً أخرى معها، أما موسى فإنه لم يخرج من مصر معه حسب هذه الفرضية سوى قبيلة اللاويين ويدعم فرضية باول ديفيس واقع كون اللاويين وموسى فقط يحملون أسماء مصرية صرفة مثل: بينحاس وعوف وباسور وغيرها. وفي الصحراء اتحدت قبائل أخرى مع اللاويين مما سمح بتشكيل قوة مسلحة ضاربة، وبما أن اللاويين يعودون بأصولهم إلى مصر وتربطهم صلات قربى مع موسى، فإنهم حافظوا في ذلك التجمع القبلي على وضعهم المسيطر وعلى مكاسبهم الكثيرة.

وعلى ضوء هذه الحقائق، يصبح الوضع في أرض كنعان منفهوماً. فقد استوطن قسمها الشمالي أحفاد أولئك العبرانيين القدامى الذين لم يكونوا يوماً ما في مصر أبداً أو أنهم كانوا هناك وهجروها في غابر الأزمان. وهؤلاء انصهروا تقريباً في الحضارة الكنعانية واعتنقوا ديانة آلهتها. لكن القسم الجنوبي من أرض كنعان وهو يهوذا فقد سكنه

الإسـرائيليـون الخـارجـون من مصر وقد تفصل بين المجموعتين اختلافات عميقة جداً في التقـاليـد والعـادات والمـذاهب الـدينيـة . وكانت تلك الاختلافات عميقة لدرجة أن مئات السنين من الجوار والوحدة السياسية ، لم تستطع التخفيف منها . وهنا يكمن سبب الخصومة والعـداوة والصـراع الـدموي الأخوي الذي أدى في نهاية المطاف إلى هلاك الإسرائيليين ؛ كان لدى الإسرائيليين في شمال كنعان بطلهم القومي الذي كان اسمه يشوع وقد اعتبر هذا فاتـح أريحـا ومـدمـرهـا . في الوقت الذي اعتبر فيه سكان الجنوب موسى قائداً لهم ومشرعاً ونبياً . وفيما بعد في حقبة الوحدة الحكومية زمن شاول وداود وسليمان استغل كهنة أورشليم سيطرة يهوذا على الوضع وأعلنوا الحرب على الآلهة الكنعانية وحاولوا إرغام سكان الشمال على القبـول بطقس يهـوه كدين حكـومي وحيد . لقد ملأ الصراع بين اليهوهية وبعل وعشتار قسمـاً كبيـراً من القصص التـوراتيـة . وكمحاولة لتدعيم سلطتهم والحفاظ على زعامة يهوذا للدولـة قام الكهنـة بإلغـاء كل المعابد في أرض كنعان وحولوا معبد أورشليم إلى مركز وحيد لعبـادة الإلـه «يهـوه» وعـدا ذلـك فإنهم سعـوا إلى إنهـاء الاختـلافـات في حضـارة وتقاليد المجمـوعتين كي يحققـوا وحـدتهما الروحية . لهذه الغاية قاموا بتوحيد سلسلتين مختلفتين من الأساطير الشعبية : «السلسلة الشمالية عن يشوع بن نون والسلسلة الجنوبية عن موسى» فكـان في القصـة المصـاغـة على هذه الشـاكلة أن شغل يشوع بن نون (وهذا شيء متوقع) المكان الثاني بعد موسى فكان مساعده وخليفته . وقام بالطبع نسل الإسرائيليين الخارجين من مصـر مع يشـوع بتسجيـل فضـل دخول أريحا باسمهم وقد ثبتت صيغة الرواية الجديدة وتـوطـدت لأن مملكـة إسـرائيل الشمالية تعرضت لغزو الآشوريين فاحتلت ودمرت وصارت يهـوذا الـوريث الـوحيـد للتقاليد القومية . بينما أبيدت معظم القبائل الشمالية وأخِذ من بقي منها إلى الأسر وبذلك فقدوا وجودهم العملي .

إذا كانت هذه الفـرضيـة صادقـة بشأن يشـوع بن نون ، فإن وضـع هارون يصبـح غير مفهـوم ، فهـو في النصـوص القديمة جداً من الأسفار الخمسة ، لايذكر أبداً ، وفي النصوص المتأخرة الأصل ، يلعب دوراً ثانياً بعد موسى ويمكن تفسير ذلك إما بأن يكون هارون فعلاً شخصية تاريخية حقيقية ، وفي هذه الحالة لم يكن من الممكن له أن يكون أخاً لموسى ولم يكن موسى ليستطيع تنصيبه كاهناً أعلى ، أو أنه وبشكل كلي من تلفيق الرواة .

أوجد باول ديفيس حلاً ذكياً لهذه المعضلة : إنه يؤكد أن طقس العجل الذي وضعه هارون يستنـد إلى وقـائع حقيقية ، فالقبائل العبرانية الشمالية القديمة مارست لقرون عديدة

طقس العجل في البداية كإله للخصوبة، وفيما بعد، في فترة انتشار التأثير اليهودي عبدته كرمز ليهوه؛ ولكن بعد الانشقاق عن يهوذا، قام ملك إسرائيل يَربَعام بتعظيم أهمية ذلك الطقس، وعمل تمثالين لعجل من ذهب ووضع واحداً في بيت إيل والآخر في دان.

لاينفي ديفيس أن يكون هارون في وقت ما كاهناً أعلى مشهوراً لذلك الطقس، وأن تكون مجموعة الكهنة المحليين اعتبرته أباً ومؤسساً لها، ويبرز الآن سؤال: لماذا أبرز مؤلفو التوراة المقتبسة هارون في القصص على أنه أخ لموسى، وكاهن أعلى ليهوه؟ فمن المنطق أن يبعث كاهن طقوس العجل الشمالية الاستنكار في نفوسهم. مما لاشك فيه أن مسحة من العداء تكمن في تصويرهم لهارون كإنسان ضعيف حطّ من قدر نفسه تحت تأثير عامة الشعب. لما غاب موسى لدرجة الانسياق نحو عبادة الاصنام. إن مجرد ذكر ذلك الحدث الدرامي في الكتب المقدسة يعتبر أمراً ذا مغزى ذلك لأنه يدل على أن الإسرائيليين لم ينسوا أصل هارون ودوره في طقوس العجل الشمالية. إن وصف الرقص حول العجل الذهبي يعتبر آخر مثل عن تذكر ذلك الحدث.

لقد قدمت التفصيلات الدقيقة الواردة في التوراة لباول ديفيس أساساً للخروج بنتيجة لطيفة. كان كهنة يهوه الأولون كما يقول ديفيس لاويين حصراً. وقد كان لهم تأثير ليس في يهوذا فقط، بل وفي القسم الشمالي من كنعان، حين قاموا بدور المبشرين بديانة موسى بين القبائل العبرية القديمة. وبالإضافة إلى اللاويين كانت مجموعة أخرى من الكهنة موجودة وتمارس طقوس يهوه بهيئة العجل مستندة إلى كونها تعود بأصلها إلى هارون الكاهن الأعلى. على هذه الشاكلة تكونت طائفتان من الكهنة متنافستان فيما بينهما. ولكل منهما تقاليدها الخاصة وأصلها المختلف.

ومن لحظة سقوط الدولة الشمالية، سعى الكهنة إلى احتكار العقيدة في معبد أورشليم. بالنتيجة دُمرت وألغيت كل مراكز العبادات في كنعان، وبقي للكهنة المبعدين عن المعابد حق ممارسة شعائرهم في معبد أورشليم، وبالطبع كان عدد الكهنة كبيراً جداً، لذلك لم يتمتع بذلك الحق إلا أشهر الكهنة وأغناهم. أما عامة الكهنة فقد أُوكلت لهم مهمات حراسة وخدمة المعبد، وبذلك فقدت غالبية اللاويين تسميتها اللاهوتية وشغلت أدنى درجة في السلم الروحي وصاحب عملية إعادة التكتل تلك صراع مرير. ويظهر صدى الخلافات التي وقعت قبل بضعة قرون بوضوح تام في عصيان مريم وهارون اللاويين إذ نقرأ في سفر العدد (أصحاح ١٢ ـ آية ٢) «هل كلم الرب موسى وحده؟» لقد حاول واضعو

الأسفـار الخمسـة بلا شك تبيـان أن طائفـة الكهنة الجديدة قد شكلت بأمر من يهوه نفسه، فعصـا هارون اخضـرّت وأزهـرت وأعطت ثمـر اللوز، وابتلعتِ الأرض الـلاويين. أما مريم فأصيبت بمـرض عضـال مرض البـرص. وكان الوحيد الناجي من العقاب هوهارون. ومن السهـل التخمين عن سبب ذلـك: لم يكن من صالـح الكهنـة الطعن بهيبة هارون مؤسس مجمـوعتهم وكـاهنهم الأعلى الذي يعود إليه الفضل في حصولهم على حقوقهم ومكاسبهم الخـاصـة، لقـد صفح يهوه لهارون خطيئته التي ارتكبها، لأنه قد خصه مسبقاً بمنصب عال بين مناصب أتباعه.

تشكلت فئـة الكهنـة الجـديـدة بشكـل نهائي نتيجة للحل الوسط الذي توصلت اليه زعـامـة الـلاويين الجنـوبيـة والهـارونيين الشماليين وكان من الواجب تبرير وضعها الخاص (الـذي حصلت عليـه) أمـام الكثـرة الكبيـرة من الكهنـة المطرودين. لم يكن من الممكن الاستنـاد إلى صلاحيـة اللاويين التقليدية، فمعظم اللاويين قد فقد صلاحيته تلك. أضف إلى ذلـك أن الارستقـراطيـة الكهنـوتية للمناطق الشمالية التي لم تستطع أبداً إثبات قرابتها ـ ولو البعيدة جداً من اللاويين ـ قد قبلت في عداد المجموعة المتشكلة حديثاً.

وجد مؤلفو التوراة مخرجاً سهلاً من تلك الصعوبات فقد صوروا هارون على أنه أخ لمـوسى، ونصبـه هذا كاهنـاً أعلى ليهـوه. ويمنحهم هارون تلك المنزلة الرفيعة والمنصب السـامي استنـد الكهنـة في تبـريـر مكتسبـاتهم. على انهم يعتبـرون ورثتهم الشـرعيين والمباشرين. وبذلك الشكل حاولوا تبرير وضعهم الخاص جداً في حياة الشعب الدينية أمام المطرودين والمنبوذين اللاويين. وبذلك دخل الكاهن الأعلى لعقيدة العجل قصة الخروج رغم أنه لايرتبط بموسى بأية رابطة، وقد عاش في منطقة أخرى من أرض كنعان وفي حقبة زمنية أخرى.

إن الأسفـار الخمسـة الأولى كمـا نرى مليئـة بالاحداث الغامضة، حتى موت موسى يدفعنـا نحـو التفكيـر بأشكـال وأمـور مختلفة. فتزعم التوراة أن موسى مات في جبل بسهل مؤاب وأن أحداً لا يعرف كيف دفن. بذلك يكون الزعيم الشعبي المشرع والنبي قد اختفى بلا أثر، ولا يوجد له مدفن قط ولن يوجد ولن يستطيع الشعب الشكور إحاطة مدفنه بالعبادة والرعاية.

وخـلال محـاولات العلمـاء لايجاد حل لهذا اللغز، انتهوا إلى أن الأبطال القوميين، في الأسـاطيـر القـديمـة كثيراً ما يموتون في ظروف غامضة ويكفي أن نذكر هنا هرقل وتيسيه

إيليا وروميول، الذين يختفون في السماء بعربات نارية، أما أوديب فيموت في دغلة آلهات الانتقام عديمات الرأفة، لكن لا يتفق جميع العلماء على أن الأنموذج التوراتي ليس إلا مثالاً تقليدياً عن إحاطة شخصية البطل القومي بهالة من الأسطورة. فبعضهم يرى في الظروف التي انتهت فيها حياة موسى، آثار وقائع مأساوية حقيقية، ولنورد باختصار بعضاً من الفرضيات التي يطلقونها.

نجد في التوراة تذكيراً غامضاً بذنب اقترفه موسى ومن المفروض أن يكون ذلك الذنب كبيراً وهاماً جداً، إذا ماعاقبه يهوه عليه بالحرمان من دخول أرض كنعان مع بقية الإسرائيليين. تشير بعض التلميحات في النص التوراتي إلى أن موسى اقترف ذنبه وخطيئته في قادش، وهذا الذنب يكمن في أن الإسرائيليين نتيجة لإهماله قد نسوا واجباتهم ولم يعودوا يقدمون القرابين ليهوه، بل وتركوا عادة الختان، وبطبيعة الحال يسهل أن نفترض أن الرواية التي تتحدث عن ذنب وعقاب موسى قد نسبت إلى وقت سابق للحادثة وقد صاغها كهنة يهوذا ليبينوا على مثال موسى كم هو شديد عقاب الذين يتركون قوانين تعاليم يهوه ولكن ليس من المستبعد أن يكون الشعب الإسرائيلي هو نفسه واضع تلك الرواية وأنها انتقلت من جيل لآخر على مدى مئات السنين. ومن الممكن أيضاً أن يكون الإسرائيليون قد حاولوا بعملهم ذاك إظهار امتعاضهم من موسى لسبب قديم ولتبرير تصرفهم ذاك في الوقت نفسه.

لأي سبب امتعض الإسرائيليون من موسى؟ لم تكن العلاقات بين موسى والإسرائيليين حسب ماتشير إليه التوراة علاقات مسالمة ويكفي للبرهان على هذا الإشارة إلى الإشكالات والمجازر الدموية التي وصفتها التوراة والتي أدت إلى موت الآلاف من الناس، وكان موسى هو المذنب، ويرجع السبب إليه في تلك الإشكالات والمجازر حيث عاقب الناس بصرامة لاتحتمل ولاتطاق، على أية واقعة شذوذ أو ابتعاد عن الإله يهوه. فترك هذا الأمر أثره العميق في نفوس الشعب.

حتى إن بعض العلماء افترض أن موسى قد قتل ودفن في مقبرة جماعية، وذلك خلال عصيان عبدة الأصنام الإسرائيليين. يستند واضعو هذه الفرضية على ظروف وحالات تدعو حقاً للتأمل والتفكير؛ وهكذا قبل كل شيء يستنتج من النص التوراتي دون أي لبس أن موسى كان خلال الفترة الأخيرة قبل موته معافى وبصحة جيدة. بالطبع كان متقدماً بالعمر كثيراً لكننا نقرأ في سفر التثنية (أصحاح ٣٤ ـ آية ٧) «كان موسى ابن مائة وعشرين سنة حتى مات، ولم تكل عينه، ولاذهبت نضارته». ومن الطريف أيضاً أن مؤامرة من الصمت

والتعتيم نظمت حول موت موسى . وقـد تكـون هذه الحالات النادرة التي يوصف فيها موت بطل قومي بمثل ذلك الإيجاز والاختصار. يرغمنا على القول إن الوصف الأولي الدقيق قد استبعـد من النص وكأن مؤلفي التـوراة قرروا إخفاء التفصيلات التي تعارضت مع شخصية موسى المركبة تركيباً، ويمكن حسب رأي بعض المختصين بالتوراة إيجاد تلميحات لطريقة موت موسى هذه في كتب الانبياء : اشعياءوعاموس وفي المزمار السادس بعد المائة .

لقـد كان موسى في أعين معـاصـريه طاغية ، لكن الأجيال اللاحقة قدرت شيئاً فشيئاً خدمـاتـه للشعب العبـراني وبـالتـدريـج على مدى سنوات طويلة تكونت هالة من الأساطير والمعجـزات حول شخصيتـه ، لذلك كان من الصعب الموافقة على طريقة موته التعسفية . فخطيئة شعب موسى تجاهه وإنكار الجميل الذي أسداه لهذا الشعب كانا كبيرين وقاسيين جداً بنظر الأجيال اللاحقة لذلك ولدت الرواية القائلة أن موسى مات ميتة طبيعية ، وبأن يهوه عاقبـه بتلك الطـريقـة على ذنـوب ما أوبكلام آخر: لا يتحمل الشعب الإسرائيلي مسؤولية موته إذا كان الرب قد كتب له الموت على عتبة أرض كنعان، أرض الميعاد .

وبطبيعـة الحـال يمكن أن نقبـل بهـذه النظرية الذكية أو أن نرفضها ذلك لأنها تستند على أسس وأوضـاع أوليـة متقلقلة جداً . وهي تبين مرة أخـرى مقـدار ضعف معلومـاتنا عن موسى . ومــع هذا وذاك يمكن اعتبــار وجـود شخص في التـاريـخ باسم موسى وإخـراجـه الإسرائيليين من مصر. حدثاً محتمل الوقوع جداً ففي الأسطورة التي يرثها جيل عن جيل قد يتحول الزعيم الذي عاش في زمن بعيد جداً إلى رمز للنضال من أجل الاستقلال الوطني . وبالتدريج تنمحي التقاطيع والصفات الواقعية لشخصيته ، وإذا كان بالإمكان القبول بفرضية منطقية وجود موسى فإنه أي موسى لايشبه موسى العهد القديم ، إلا ماقل وندر.

يشوع بن نون والقضاة

أريحا ـ قلعة كنعان

احتـرم الإسـرائيليـون رغبة موسى الأخيرة وأعطوا السلطة الكاملة بعد موته ليشوع بن نون الـذي اكتسب من خلال الصـراع مع القبائل الصحراوية ، ومن خلال الحروب الطويلة التي خاضهـا للسيطـرة على ماوراء الأردن ، سمعة وصفة الزعيم الخبير بشؤ ون القتال وهذه صفات يجب أن يتمتع بها الشخص الذي يختاره الإسرائيليون بدقة ليحقق حلمهم القديم بالسيطرة على أرض كنعان .

وقد عرف يشوع بن نون أن عليه تدمير حصون الملوك الكنعانيين المنيعة والاصطدام بقـواتهم المسلحـة الخبيـرة بشؤ ون القتـال والمـزودة بعربات قتالية ، لذلك قرر فرض نظام صارم على عسكـره لأن الإسـرائيليين كانـوا كبقيـة رعـاة الصحـراء لا يلتـزمون بنظام قتالي ويمثلون كتلة بشرية خاضعة لمزاجات القادة . هذا في الوقت الذي كانت فيه فرص النصر في تلك الحـرب ، تلازم الجيش النظـامي الـذي يخضع دون إشكالات لقائد واحد فقط ، وفي تلك الظروف الجديدة لم تعد القوة الشعبية التي يترأسها اثنا عشر شيخاً أي تأثير حقيقي .

أما يشوع بن نون ، فقد مكنته الشهرة التي اكتسبها مذ كان موسى على قيد الحياة من تحقيق هدفـه المنشـود خلال وقت قصـير ، فبعد مدة وجيزة من تسلمه السلطة أنشأ جيشاً قواته أربعـون ألفـاً من المقـاتلين ومنظمـاً حسب أرقى القواعد العسكرية لذلك العصر . ولم يعد

أحد يتجرأ على إظهار تذمره أو رفض أوامر القائد الأوحد. فقد كان الموت عقابا لأي نوع من أنواع عدم الطاعة. وبعد أن شكل يشوع تلك القوة العسكرية الكبيرة التي كان من السهل المناورة بها مضى بشعبه إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن ونصب معسكره في شطيم فكانت أبراج أريحا التابعة وسط واحة من النخيل تظهر عليه من المكان. كانت البلدة ترتفع شامخة وكأنها تتحدى معسكر الإسرائيليين الموقنين بالفتح والغنائم، ولم تكن تلك المرة هي المرة الأولى التي تتحطم فيهـا موجـات غازيـة قادمـة من الشرق على جدران أريحا ثم تعود جارة أذيال الخيبة وراءها؛ لقد بقيت أريحا لقرون عديدة قلعة منيعة حارسة أبواب أرض كنعان.

تمتـع يشـوع بن نون بالخبـرة والحنكة، لذلك لم يخاطر بمهاجمة القلعة الحصينة، ورغب قبـل كل شيء بالاطـلاع على قوة الحـامية ومنشآتها الدفاعية. لذلك أرسل اثنين من عسكـره للاستطـلاع بعـد أن ألبسهم ثيـابـاً كنعـانية. عبر المحاربان نهر الأردن تحت جنح الظلام، وعند الصباح لما فتحت أبواب القلعة تسللا إلى المدينة وضاعا بين جموع التجار والصنـاع والفـلاحين. وخـلال النهار نفذا مهمتهما دون عوائق. لكن عندما قررا العودة إلى المعسكر في المساء وجدا أبواب المدينة قد أغلقت، فقررا مرغمين الانتظار حتى الصباح، دخلا بيتاً قرب سور القلعة صاحبته امرأة زانية اسمها راحاب، وعرفت المرأة حقيقتهما كما عرفت المهمة التي انتدبا من أجلها، ولكنها وبغض النظر عن ذلك كله استقبلتهما استقبالاً حسناً من أجل أن تؤمن لنفسها حماية المحتلين القادمين، الذين تضيء مواقدهم كل ليلة على الضفة الأخرى للأردن.

غيـر أن شخصـاً ما شك بالغريبين، فقام مواطن أريحا اليقظ ذاك بتحذير ملكه الذي أرسـل الحـرس إلى بيت الـزانيـة للقبض على الغـريبين المشكوك بهما وكان الأمر المعطى للحرس يتضمن سؤال راحاب بالكلمات التالية: «اخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك ودخلا بيتك لأنهما قد أتيا لكي يتجسسا الأرض كلها».

رأت راحـاب من نافـذة بيتهـا الحـرس يقتربون فأخذت الرجلين وخبأتهما في سطح البيت بين عيدان كتان منضدة على السطح. فتش الحرس البيت كله لكن لم يخطر ببالهم البحث بين عيـدان الكتـان. فالكتـان المنضـد على السطوح كان ظاهرة مألوفة في أريحا. وقـالت راحـاب للحـرس: «نعم جاء إليّ الـرجلان ولم أعلم من أين أتيا، وكان نحو انغلاق الباب في الظلام. أنه خرج الرجلان. لست أعلم أين ذهب الرجلان اسعوا سريعاً وراءهما حتى تدركوهما».

يبدو أن الحرس لم يكونوا ذوي خبرة مطلقاً، فأعطوا المرأة الخبيثة فرصة لخداعهم، وحثـوا الخطى وراء الـرجلين حتى وصلوا إلى نهر الأردن، ثم عادوا إلى المـدينـة مقتنعـين أن الجاسوسين استطاعا الهرب عبر النهر إلى معسكرهما، ولم تتأخر راحاب عن العمل بسرعة خلال ذلـك الـوقت فقـد صعدت إلى سطح بيتها ووعدت الجاسوسين بالمساعدة إذا أقسما لهـا على الحفـاظ على حيـاتهـا وحياة أسرتها عند احتلال الإسرائيليين للمدينة، ولم يتورع الإسـرائيليـان عن منحهـا الوعد المطلوب وشكراها على إنقاذهما، ونصحاها أن تعلق على نافـذتهـا خيـوطـاً قرمزية كعلامة كيلا يتعرض لها الإسرائيليون بسوء، نزلا بعد ذلك بواسطة حبل إلى خارج أسوار المدينة وذهبا إلى الجبال القريبة ليخدعا الحراس المتيقظين. وبعد ثلاثـة أيـام عبـر الجـاسـوسـان نهـر الأردن، ووصلا إلى المعسكر وأخبرا يشوع بن نون بما شاهـداه. أعطي أمـر للنـاس بتحضير طعام يكفي لثلاثة أيام. وفي الليل خرج العسكر وكل شعب إسرائيل إلى ضفة الأردن ليعبروه. لم تكن مهمتهم سهلة. فالوقت ربيع ومياه الأردن قد فاضت بسبب غزارة الأمطار فوق جبال حرمون مما جعل عبور المخاضة مستحيلاً. نظر الإسـرائيليـون إلى المخـاضـة المـائيـة العكرة بخوف وهالتهم فكرة أن عليهم عبورها. وقد زعزع ثقة الإسرائيليين بأنفسهم مشهد سكان أريحا المتجمعين عند أسوار المدينة مقتنعين بأن ميـاه الأردن الصـاخبة ستكون درعاً يحميهم من الأعداء وكانوا خلال ذلك يكيلون أقذع الشتـائم للضيـوف المتطفلين. لكن يشـوع بن نون لم يفقد الأمل بنجاح عملية العبور لأنه سمع ليلاً صوت يهوه يبشره من جديد بانتصار الإسرائيليين على شعوب أرض كنعان. وفي السـاعـة المحـددة صدحت أبـواق الاستيقاظ، وبأمر من القائد بدأ اللاويون العبور حاملين تابوت الشهادة على أكتافهم. ساروا في المخاضة بصعوبة بالغة ووصل منسوب المياه إلى أكتافهم لكنهم تابعوا المسير بعناد. ولما وصل اللاويون إلى منتصف النهر حصلت المعجزة معجزة عبور البحر الأحمر. فعلى مسافة بضعة أميال باتجاه رأس النهر قرب مدينة أوام توقف النهـر فجأة بين ضفتيـه الصخـريتين وتجمـدت المياه في مكانها سداً منيعاً. أما المياه التي بقيت في مجـرى النهـر جرت بسـرعـة وانصبت في البحر الميت، فعبر الشعب الإسرائيلي النهر دون أن يبلل اقدامه وبعد أربعين عاماً من التيه في الصحراء، وصل ذلك الشعب أخيراً إلى ضفة أرض الميعاد، ولما انتهى العبور عاد الأردن إلى مجراه السابق.

كانت أول وقفة لهم في الجلجال، وهناك عمت الفرحة معسكر الإسرائيليين فقضوا سحـابـة نهارهم بالغناء وإنشاد أناشيد الشكر والتمجيد ليهوه، ورقصت النساء والأولاد على

إيقاع الدف والمزمار فاختار يشوع اثني عشر رجلاً، يمثل كل واحد منهم سبطاً من الأسباط وأمرهم أن يحضروا اثني عشر حجراً من قعر النهر ونصبها على شكل دائرة كذكرى للمعجزة العظيمة، هناك في الجلجال احتفل الإسرائيليون للمرة الأربعين بعيد الفصح، ولم يعودوا بحاجة للمن غذاء، لأن حقول أريحا أعطتهم القمح الذي خبزوا منه الخبز. أما سكان أريحا فتقوقعوا خائفين وراى أسوار قلعتهم، ولم يتجرأوا بعد ذلك حتى على النظر باتجاه القادمين الجدد.

وفي الجلجال، أخذ من جديد بطقس الختان، الذي نسيه الإسرائيليون منذ وقت طويل. فالشيوخ الذين خرجوا من مصر ماتوا والأجيال الشابة بدأت تعبد آلهة الكنعانيين، وابتعدت عن عقيدة الآباء. أما الآن فبأمر يشوع بن نون خضع جميع الرجال والأولاد لعملية الختان التي عنت فيما عنته إعادة الحياة لميثاق سيناء المعقود مع يهوه.

وبعد بضعة أيام خف خلالها ألم عملية الختان، باشر يشوع بن نون بمحاصرة أريحا. وقد استخدم بذلك طريقة تكتيكية حاذقة، فخلال ستة أيام متواصلة كان الإسرائيليون يخرجون من معسكرهم مرة واحدة يومياً ويدورون على شكل موكب حول أسوار القلعة. وعلى مسافة آمنة لاتصل فيها إليهم النبال والحجارة فكان المحاصرون يتجمعون على الأسوار ويراقبون باستغراب وخوف تصرفات الإسرائيليين، شاكّين أن ضرباً من ضروب السحر يكمن خلفها، وذلك لأن أريحا لم تر أبداً مثل تلك التصرفات ممن حاول غزوها فيما مضى، وأن شيئاً ما متحدياً المحاصَرين كان يكمن في تلك التصرفات.

كان المقاتلون المسلحون يسيرون بخطى نظامية على رأس الموكب، خلفهم رجال ملتحون يرتدون ثياباً طويلة ينفخون في أبواق فضية، ووراء أولئك مجموعة من الرجال يحملون على أخشاب، صندوقاً ذهبياً ذاكر وبنيات مجنحة ومزيناً بتماثيل ذهبية. وفي نهاية الموكب تسير كتلة من النساء والأولاد والعجز بثياب الفرح والأعياد، كان الموكب يسير بصمت ولا يعكر هدوء الهواء سوى أصوات الأبواق.

في اليوم السابع بدأ يشوع بن نون هجومه الكاسح على القلعة، وعند بزوغ الفجر. أخرج شعبه من جديد خارج المعسكر، لكنه لم يكتف هذه المرة بالدوران حول القلعة إذ دار الإسرائيليون حول القلعة ست مرات محافظين على صمتهم الجنائزي، لكن في الدورة السابعة وبإشارة متفق عليها صاحوا صيحة واحدة هزت أساسات القلعة وهدمت جدرانها؛ دخل المقاتلون الإسرائيليون القلعة من جهاتها المختلفة وبدؤ وا بتنفيذ مجزرتهم الوحشية.

ذبحوا كل من في المدينة إلا راحاب وأسرتها فهم لم يرحموا طفلاً ولا امرأة ولا حيواناً وقاموا بعد ذلك بحرق المدينة وحولوها إلى رماد وأحرقوا كل شيء، ماعدا الذهب والفضة والحديد لأن تلك المعادن الثمينة خصصت مسبقاً لبيت الرب والقائمين على خدمة يهوه.

احداث درامية تحت اسوار قلعة عاي

تقع مدينة عاي ـ القلعة المحصنة إلى شمال أورشليم في منطقة جبلية على مسافة غير بعيدة من مدينة بيت إيل، ويشوع يقرر من جديد ارسال جواسيسه أمامه «اصعدوا، تجسسوا الارض»، أمر يشوع جواسيسه، ولما عاد هؤلاء أخبروه ان عاي تقع بعيدة عن خط سير الإسرائيليين وأنها غير منيعة التحصين، لذا يجب اكتساحها بهجوم مفاجيء وأن ثلاثة آلاف مقاتل يفون بالغرض. لكن المدافعين عن عاي قاتلوا بشجاعة أشد مما قاتلت به أريحا ولقي الإسرائيليون عند أسوارها هزيمة شنعاء وفروا من وأرض المعركة فلاحقهم مقاتلو عاي حتى تخوم مدينة شباريم. ذاب قلب الإسرائيليين وساد المعسكر التذمر، أما يشوع فقد تكهن بالعواقب الوخيمة التي قد تنتج من تلك الهزيمة، فقد أثبت المدافعون عن عاي لكل المدن الكنعانية الأخرى أن إلحاق الهزيمة بالعدوليس بالأمر الصعب رغم القوة التي يتظاهر بها، وكل مايجب فعله هو التصدي لهم كما يجب.

يئس يشوع عندما عرف حقيقة الأمر، فسقط على وجهه ومزق ثيابه وقضى ليلته يصلي أمام تابوت الشهادة ويسأل يهوه عن السبب في عدم نصرتهم فعرف عندها شيئاً فظيعاً! لقد خالف أحد الجنود عهد يهوه وسرق جزءاً من الغنيمة المخصصة للمعبد فاستغاثت الجريمة بالسماء راجية الانتقام، ولم يبق شيء يمكن بواسطته تهدئة يهوه إلا موت الجاني. جمع يشوع في اليوم التالي جميع الإسرائيليين ليكشف السارق، وكان على كل الأسباط والعشائر والبيوت ورجال البيت الذي يأخذه الرب سحب قرعة، فوقعت القرعة على عخان الذي كان من سبط يهوذا واعترف هذا لفعلته فوراً: «حقاً إني أخطأت إلى الرب إله إسرائيل وصنعت كذا وكذا». لقد دفن تحت خيمته رداء نفيساً ومائتي شاقل من فضة ولساناً من ذهب وفعلاً وجدت المسروقات في المكان الذي حدده عخان، فرجم المذنب السارق بالحجارة في وادي غمور وحرقت أملاكه بالنار. وفي مكان الرجم وضع الإسرائيليون حجارة عظيمة كشاهد أزلي يحذر من تسول له نفسه مخالفة عهد يهوه.

استفاد يشوع من تجربته المرة ووضع خطة أكثر حذراً لاكتساح عاي. لكن بالخدعة هذه المرة، نصب كميناً من ثلاثين الف رجل في منطقة جبلية قريبة من المدينة واتجه ببقية قواته عند الفجر نحو المدينة كأنه يريد اكتساحها بهجوم مباشر، فأمر ملك عاي المأخوذ بنصره القريب بفتح أبواب المدينة والخروج لملاقاة العدو وتدميره. فما كان من يشوع إلا أن أمر قواته بالانسحاب، فلاحقهم جيش عاي وتوغل بعيداً يطاردهم وعندما نظر مقاتلو عاي إلى الخلف شاهدوا ألسنة اللهب تلتهم مدينتهم. لقد سيطر الثلاثون ألف إسرائيلي الكامنون بلمح البصر على المدينة زارعين فيها الخوف والدمار ثم أمر الملك قواته بالعودة إلى المدينة لإنقاذها، فضغط يشوع بن نون على مؤخرة قوات عاي في حين قطع الإسرائيليون الكامنون (الذي أحرقوا عاي) الطريق أمامهم: فقُتِل المدافعون عن عاي الذين وقعوا بين فكي كماشة عن بكرة أبيهم وأسر ملكهم وحسب متطلبات العهد العسكري أمر يشوع بن نون بقتل جميع سكان المدينة بمن فيهم النساء والأطفال. فكان مجموع ماقتل اثني عشر ألفاً. وتقاسم الإسرائيليون الغنائم الكبيرة بما فيها من النفائس والقطيع. أما ملك عاي فشنق على أبواب المدينة، وعند الغروب أنزل عن المشنقة ودفن تحت كومة من الحجارة، وقد اعتبرت هذه الكومة الحجرية لقبر ملك عاي المقدام، لفترة طويلة واحداً من المعالم الأثرية بالنسبة للإسرائيليين الذين قطنوا تلك المنطقة من أرض كنعان.

بعد انتصاره على عاي كتب يشوع بن نون نسخة توراة موسى على الحجارة في جبال عيبال، وقرأها للسكان الإسرائيليين طالباً منهم الحفاظ على العهد والإخلاص ليهوه وعدم الإلحاد به ابداً.

خديعة الجبعونيين

كانت مدينة جبعون واقعة على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من أريحا. وبما أن سكانها قد سمعوا عن انتصارات الإسرائيليين. فقد قرروا تجنب الاصطدام معهم بأي شكل من الأشكال، غير أنهم تخوفوا وكانوا مصيبين في ذلك من أن يرفض المحتلون الرهيبون التباحث مع مدينة تقع في طريق سير جحافلهم المنتصرة وتمثل بالنسبة إليهم غنيمة سهلة. إذن ما الوسيلة لاقناع المحتلين بعقد اتفاق معهم؟ لم يكن سكان جبعون يتحلون بالشجاعة، لكن الطبيعة عوضتهم عن ذلك بالخدع والمناورات السياسية. لقد

عرفوا أن الإسرائيليين قليلو المعرفة بجغرافية أرض كنعان، فقرروا اللجوء إلى الخدعة والحيلة إذ قدم ممثلوهم إلى يشوع بن نون الذي عاد إلى معسكر جلجال بعد انتصاره في أريحا وعاي، واقترحوا عليه عقد اتفاق صداقة «من أرض بعيدة جئنا والآن اقطعوا لنا عهداً». وأكدوا ليشوع أن أرضهم بعيدة جداً ولذلك سيكون الاتفاق لصالح الطرفين، وتملقوه كثيراً قائلين: إن صيته قد وصل إلى أرضهم البعيدة، وأن الاتفاق مع قائد عظيم مثله سيكون فخراً وعزة لهم.

تفحص يشوع السفراء وصدّق أنهم أتوه من أرض بعيدة. فقد كانت هيئاتهم مرهقة وثيابهم رثة وأحذيتهم عتيقة وما وضع على ظهر حميرهم بال ممزق، وخبز زادهم يابس متعفن. فمال يشوع نحو عقد اتفاق معهم، أو بالأحرى مع ملك جبعون. فقد بدا له أن مثل هذا الاتفاق سيحدث ثلماً في صفوف الملوك الكنعانيين الآخرين الذين تقول الإشاعات بأنهم اتحدوا لمواجهته. وقع الاتفاق وأقسم يشوع بن نون على احترامه غير أنه لم يلبث أن عرف أن سفراء جبعون قد خدعوه وأنه قد وقع في الفخ فغضب أشد الغضب إذ ان جبعون تقع قريبة من أريحا وعاي فطالب الإسرائيليون الطامعون بالغنائم ملحين بالسماح لهم بمعاقبة سكان المدينة المخادعين. لكن يشوع ظل محافظاً على وعده واتفاقه ولم يستجب لطلبهم فنجا الجبعونيون من الموت لكنهم وقعوا في العبودية الأبدية فقد أوكل إليهم منذ ذلك الحين المهام الوضيعة: تقطيع الحطب، ونقل الماء لأسيادهم الإسرائيليين.

حلف الملوك الخمسة

سمع أدوني صادق ملك أورشليم بفعلة الجبعونيين الجبانة، وخشي أن تنجر وراءهم مدن كنعانية أخرى فقرر ضربهم، لهذا الغرض عقد اتفاقاً مع هوهام ملك حبرون وفرآم ملك يرمون ويافيع ملك لخيش ودبير ملك عجلون وقاد القوات المتحالفة إلى أسوار المدينة التي رضيت بالذل بدلاً من مقاتلة العدو المحتل، لكن سكان جبعون تمكنوا من تحذير يشوع بن نون من الخطر المحدق فخرجت القوات الإسرائيلية من معسكرها في جلجال، وبعد سير سريع استغرق الليلة بكاملها وصلت إلى جبعون المحاصرة. فنشبت معركة حامية الوطيس ألحقت الهزيمة بالقوات المتحالفة وهربت هذه من المعركة مخلفة وراءها الكثير من الجثث. إضافة إلى هذه المصائب نزل على رؤوس الفارين برد فظيع من

السمـاء، ولـم يبق للكنعـانيين من مهـرب سوى عتمـة الليـل. حينئذ خاطب يشوع بن نون الشمس والقمر قائلاً:

ياشمس دومي على جبعون، وياقمر على وادي أيلون!

فتـوقفت الشمس وتـوقف القمـر في قبـة السمـاء وأضـاء إلى أن صفّى الإسـرائيليون أعداءهم بشكل نهائي واحتلوا مدنهم دون اية مقاومة.

في غمرة الفرار الفوضوي التجأ الملوك الخمسة إلى مغارة في مقيدة واختبؤوا فيها، وأمر يشوع بن نون قواده أن يدوسوا بأرجلهم على أعناق هؤلاء الملوك، وكتعبير عن النصر وحسب التقـاليـد العسكـرية في حينه عُلق الملوك الخمسة على أعواد المشانق طوال النهار وعنـد المغيب رفعت جثثهم، وألقيت في المغـارة التي اختبؤوا فيهـا وظلت تلك المقبـرة الجمـاعيـة المثقلة بالحجـارة لفتـرة طويلة تذكّـر نسـل إسرائيل بالانتصار الكبير على حلف الملوك الخمسة.

بعـد احتـلالـه المـدن الخمس، تابـع يشـوع بن نون حملتـه نحو الجنوب، وسيطر بهجمـات صاعقـة مفـاجئـة على كل المنطقـة الـواقعة بين قادش وغزة، وعاد بعد ذلك إلى معسكره في جلجال، راغباً بمنح جنوده قسطاً من الراحة والإعداد للحملات اللاحقة.

الحرب ضد ملوك شمال كنعان

تابـع ملوك الممـالك الكنعانية الشمالية الصغيرة، بهدوء أخبار حملات الإسرائيليين المظفـرة. ولم يقـدّروا مدى الخطـر المحدق بهم إلا بعد سقوط بعض المدن وسط وجنوب كنعـان المنيعـة بأيـدي الإسـرائيليين، حينئذ شكلوا بقيادة يابين ـ ملك حاصور ـ حلفاً آخر ضم عملياً كل ملوك الممالك الواقعة على شاطيء البحر حتى جبل الكرمل. وكذلك ملوك الجبال والسهول الممتدة شمالاً حتى جبال حرمون.

تجمـع جيش الحلفـاء عنـد مياه ميروم (بحيرة الحولة) وكان يضم عربات قتال، وقد كان من الصعب على المقـاتلين الإسـرائيليين في المـاضي، الصمـود أمـام ذلـك السلاح الـرهيب. أمـا الآن بفضـل خبـرة يشـوع بن نون، فقد وجدوا طريقة جيدة لمقاومة العربات القتـاليـة. فقـد أمـر يشـوع قواته المختارة بناء على نصيحة من يهوه «عرقبوا خيلهم وأحرقوا مركبـاتهم بالنـار»، ثم تحرك يشوع بقواته سريعاً نحو مياه ميروم، وهناك فاجأ الكنعانيين في

معسكرهم. فحقق يشوع انتصاراً كاملاً، وطارد العدو المنهزم، قاتلاً في طريقه كل القوات الكنعانية تقريباً. وامتلأت ساحة المعركة بجثث البشر والخيل وبقايا العربات المحترقة، وتابع يشوع حملته الاحتلالية، وسيطر بهجمات فجائية على المدن واحدة تلو الأخرى ليحرقها بعد ذلك ويقتل سكانها. أما الغنائم من النفائس والقطعان فقد وزعها بالتساوي بين أسباط إسرائيل.

كيف حكم يشوع كنعان؟

استغرقت عملية احتلال كنعان سبع سنين. قُتل خلالها من معارك دموية، واحد وثلاثون ملكاً كنعانياً، والكثير الكثير من الناس، وسيطر إسرائيل على البقعة كلها من طرفها الجنوبي وحتى بعل - جاد في بقعة لبنان ماعدا أورشليم وبعض مدن البحر والجبل المنيعة - فشرع يشوع يقسم كنعان بين أسباط إسرائيل التي صار عددها ثلاثة عشر إذ ان سبط يوسف أنقسم إلى مجموعتين قبليتين، وضع ساسهما ولدا يوسف: أفرايم ومنسى. وبما أن سبط راؤ بين وسبط جاد ونصف سبط منسى قد اخذوا ارضاً وراء الاردن. واللاويون لايملكون الأرض، فقد قسمت كنعان بين تسعة أسباط والنصف الثاني من سبط منسى.

وهكذا قسمت كنعان الى عشر مناطق: ففي الجنوب استوطن نسل شمعون ونسل يهوذا ونسل بنيامين. أما المناطق الأخرى من الأرض المحتلة فقد شغلها من الجنوب إلى الشمال أسباط أفرايم، ومنسى ويساكر وزبولون نفتالي وأشير. أما سبط دان القليل العدد. فقد حشر بين البحر والجبل إلى الغرب من منطقة سكن بنيامين ويهوذا. وبجوار خطر مع الفلسطينيين الذين لم يصطدموا بعد بالإسرائيليين.

وضع الإسرائيليون تابوت الشهادة في مدينة شيلوه التي كانت من نصيب سبط أفرايم، كما وضعوا فيها خيمة الاجتماع. وبذلك صارت شيلوه أول عاصمة لإسرائيل، وصار عليها أن تجمع الأسباط المتفرقة في أمة واحدة.

أُعطي اللاويون ثمان وأربعين مدينة حيث كان عليهم حسب قوانين موسى أن يقوموا فيها بواجباتهم الدينية حاصلين على مداخيلهم من تربية القطيع ومن عُشر أملاك السكان الذي خصهم به موسى. وخصصت ست مدن وراء الأردن وفي كنعان لحماية القاتلين بلا عمد من الانتقام.

أمـا يشـوع بن نون فاختـار لنفسـه مقراً مدينة تمنة سارح التي في جبل أفرايم؛ أبدت أسبـاط راؤ بين وجـاد ومنسى التي نفـذت وعـدها لموسى. رغبتها بالعودة إلى المناطق التي ملكتهـا في وراء الأردن، فبـاركهم يشـوع ورجـاهم بكلمـة الوداع الحفاظ على الاخلاص للمعبـد العـام المـوجـود في شيلوه، حيث يسكن يهوه، وقال لهم: « بمال كثير ارجعوا إلى خيـامكم وبمـواش كثيـرة جداً، بفضـة وذهب ونحـاس وحديد وملابس كثيرة جداً. اقسموا غنيمة أعدائكم مع أخوتكم ».

لكن سرعان ماوصل الى شيلوه خبر مقلق مفاده أن مقاتلي راؤ بين وجاد ومنسى، قد بنوا عند عودتهم إلى ماوراء الأردن مذبحاً على تلة وقدموا عليه القرابين ليهوه ليكونوا بذلك قد صبغوا أنفسهم بصبغة مغايرة لكهنة شيلوه وهذا يعني بالتالي أن دين موسى مهدد بالردة، مما قد يؤدي إلى أزمة سياسية في البلاد.

قرر يشوع إخماد محاولة الانشقاق تلك في المهد، فدعا الأسباط الأخرى إلى شيلوه كي تسـاعـده في التصـدي للعصـاة. لكن لو قامت حرب بين الاخـوة في الـوقت الـذي لم يتمكن فيه إسرائيل بعد من تعميق جذوره في الارض التي احتلها حديثاً. لو قامت مثل تلك الحرب لتركت آثاراً كبيرة وعميقة، لذلك تقرر إرسال فينحاس بن أليعازر إلى أرض جلعاد، يرافقـه عشـرة رؤ سـاء يمثلون أسباط إسرائيل. ولما وصل فينحاس إلى أرض جلعاد خاطب أبنـاء منسى وراؤ بين وجـاد بالكلمـات التـاليـة: « ماهذه الخيانة التي خنتم بها إله إسرائيل بالـرجـوع اليـوم عن الـرب ببنيـانكم لأنفسكم مذبحـاً لتتمردوا اليوم على الرب؟ ». تخوف إسـرائيليـو ماوراء الأردن من الحـرب مع اخوتهم ونفوا تهمة أن يكونوا قد تطاولوا على حقوق كهنـة شيلوه. وأكـدوا لفينحاس أن المذبح الذي بنوه ليس إلا تمثالاً وتعبيراً عن الشكر ليهوه على نصـرتهم في الحـروب ولم يكن ذلـك الجواب مقنعاً، لكن فينحاس ومرافقيه الساعين إلى تجنب الصراع، اعتبروه وافياً. علماً أنهم لم يكونوا على قناعة بأن أسباط ماوراء الأردن لن تعود إلى نقض الوحدة الدينية مع إسرائيل.

بقي يشوع بن نون فترة طويلة متزعماً قبائل إسرائيل ولعبت هيبته خلالها دور الزعيم المـوحـد للأمة. فأقرت أسباط إسرائيل الموزعة في الأرض سلطته المطلقة، وبقي المعبد في شيلوه المقـر والمـرتـع الـوحيـد ليهوه. لكن هناك فكرة طالما راودت يشوع هي ما الذي سيحصل بعد موته وهو ليس له خلف قادر على تصريف الأمور. وخشي أن تسعى الأسباط إذا مابقيت دون زعيم نحـو استقـلالهـا، ممـا ينعكس إنعكـاسـاً سلبيـاً على الـدين الواحد

والهدف الواحد. ولكي يتجنب سقوط الدولة، جمع كل أبناء إسرائيل في شيلوه وقرأ لهم من جديد توراة موسى وأمرهم أن يقسموا على ألا يعبدوا آلهة أخرى. وكذكرى عن تجديد الميثاق مع يهوه نصب يشوع حجراً كبيراً تحت البلوطة الموجودة عند مقدس الرب وقال: «إن هذا الحجر سيكون شاهداً علينا لأنه سمع كل كلام الرب الذي كلمنا به فيكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا إلهكم».

مات يشوع بن نون بعد مائة وعشر سنين ودفن في جبل افرايم في مدينة تمنة سارح. ووضعوا قربه في القبر السكاكين الحجرية التي خُتن الاسرائيليون بها عند عبورهم حدود كنعان.

اسرائيل يستقر في كنعان

لم يجد الإسرائيليون بعد موت موسى ويشوع بن نون زعيماً آخر من مستواهما، فتوزعت القبائل الإسرائيلية في الأرض محاولة استيطان المناطق المخصصة لها بالسلم أو عن طريق السلاح. ظهر عدم الوفاق بين القبائل وزعزعت الغيرة التافهة والخلافات على الحدود والانتقام والغرور، التلاحم القومي الضروري للحفاظ على الاراضي التي احتلوها، وصارت القبائل المتخاصمة تتصرف بما يضر بمصلحتها ومصلحة الجميع وتنفرد كل واحدة بأتباعها وقوتها. أما شعوب كنعان التي لم تدمر مقاومتها بشكل نهائي، فقد كانت تتحين الفرصة لكي تستعيد الأراضي التي سلبت منها والحويون والكنعانيون والأموريون واليبوسيون كانوا مستعدين لتلقين العدو درساً لاينساه، وبقيت المدن المنيعة التي لم يحتلها يشوع، مثل أورشليم وغزة وعسقلون وإيلون وغيرها من المدن المتوزعة في الجبال والسهول، المصدر الذي يهدد الإسرائيليين.

وفي هذه الفترة سعت القبائل الإسرائيلية التي أنهكتها الصحراء والحروب إلى قطف ثمار انتصاراتها بسرعة ونَهَم، فأقبلت على التمتع بالملذات المتاحة لها. فها هي تملك المراعي الخصبة والحقول المفلوحة كما تملك بساتين الزيتون وكروم العنب. لقد تحققت أخيراً طموحاتهم إلى الحياة الهادئة الرغيدة حياة الرعي والزراعة. ولا مجال إذن للتفكير بالحرب خاصة وأن إرادة يهوه قد تحققت! ومن الممكن التوصل إلى إتفاق مع الشعوب الكنعانية المجاورة إذ من الممكن العيش معهم بطمأنينة على أرض واحدة. وهذا ماحصل

فعلاً فقد أصبح الإسرائيليون كجزر صغيرة في بحر السكان الكنعانيين. فظهرت نتائج ذلك التفرق بسرعة. فالإسرائيليون أناس سذج وقساة، أناس من الصحراء. أما الكنعانيون فيتميزون عنهم بحضارة غنية وتقدم كبير. فهم بناة مدن عظيمة ورقي مطرد. عدا ذلك فانهم يتحدثون بلغة قريبة من العبرية القديمة، بل قريبة جداً منها. مما هدد أبناء يعقوب بمصير أي غاز بربري، فالغزاة البرابرة يذوبون في حضارة الشعوب المتقدمة عليهم والتي أخضعوها لسلطتهم. صار الزواج المتبادل ظاهرة طبيعية حيث لم يعد الإسرائيليون يعتبرون الزواج من أجنبيات أو زواج البنت الإسرائيلية من غير إسرائيلي عملاً مذموماً أو مستهجناً.

كما وظهرت نتائج أخرى أكثر أهمية لذلك التقارب الكبير. فمع أن الإسرائيليين طالما عبدوا يهوه واعتبروه رباً لهم، إلا أنه كان صارماً وغير رحيم. كان إله الأحداث العظيمة التي نصر فيها شعبه المختار في لحظات الخطر فقط. أضف إلى ذلك أنه كان يقبع بعيداً في معبده في شيلوه وكان الناس يحجون إليه في شيلوه ثلاث مرات في العام كي يقدموا له القرابين بواسطة الكهنة ويظهروا له إجلالهم صلاة وغناء ورقصاً. أما في الاحوال العادية، فكان الإسرائيليون يصادفون في كل مكان الآلهة المحليين الأقرب إليهم من يهوه بسلبياتهم وإيجابياتهم الإنسانية: فبعل عشتار وآلهة اخرى طالما عُبدوا في كنعان. كما تدل هذه الأعمدة الحجرية المنصوبة على التلال وفي الواحات والأشجار المقدسة. ويدل على ذلك أيضاً تماثيل البرونز والطين والمذابح المكشوفة تحت قبة السماء التي كانت تفوح منها روائح البخور ويتصاعد منها دخان القرابين، وتروى حولها الأساطير والقصص والأغاني، وفي الخريف يختطف إله الموت (موت) بعل إله المحصول والخير ويقتاده إلى مملكة ماتحت الأرض، مملكة الظلمات. كان الكنعانيون يسيرون في مواكب الحداد يبكون ويولولون. وفي الربيع عندما تعود الحياة إلى إلههم المحبوب، يسيرون في شوارع المدن والقرى، يرقصون ويفرحون. هكذا كان نمط الحياة في كنعان الحياة الغنية بالتقاليد والعادات السعيدة التي تبهج الروح وترفع المعنويات.

تعلم الإسرائيليون فلاحة الأرض من الكنعانيين، وهم أيضاً عرفوا أن بعل وعشتار وآلهة آخرين محليين يتحكمون بالطبيعة وفصول السنة، وأن من الواجب استغاثتهم لإنزال المطر والحصول على محصول وافر كي يحميهم من البرد والجفاف والجراد.

أما إله إسرائيل القابع في شيلوه، فصعب الوصول إليه، ولايسمح علوه وفخره الزائد عن الحاجة بإشغاله بأمور صغيرة تتعلق بالبيئة غير أن يهوه هاج وقرر معاقبة المرتدين: فبناء

على إرادته وقعت بعض القبائل الإسرائيلية الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة الكنعانيين، فعرف الإسرائيليون تحت ضربات سياط الكنعانيين أنهم أذنبوا فندموا على فعلتهم، وطلبوا العفو والصفح من يهوه، رأف يهوه بحالهم واختار لهم زعيماً قديراً عيّنه قاضياً فحرر هذا أبناء نسله من سيطرة الكنعانيين، لكن أبناء إسرائيل مالبثوا بعد أن تحسنت حالتهم إن عادوا إلى عبادة الآلهة الغريبة.

وقعت القبائل الإسرائيلية التي تقطن أرض كنعان الجنوبية تحت سيطرة كوشان رشعتايم(*٨)، ملك أرام، وظلت تحت عبوديته ثماني سنين. وبعد معارك طاحنة حررها عثنئيل بن قناز الذي ينحدر من سبط يهوذا، وظل قاضياً عليها أربعين عاماً.

واجهت قبيلة بنيامين مصيراً أسوأ. فقد ضربها عجلون ملك مؤاب متحداً مع بني عمون وعماليق، وأخذ منهم جزية كبيرة على مدى ثماني عشرة سنة. فقام من بين بني بنيامين رجل شجاع اسمه إهود بن جيرا، ليضع حداً لسيطرة مؤاب. كان إهود أعسر. فعلق سيفه تحت ردائه في الجهة اليمنى وتوجه إلى الملك عجلون متذرعاً بتقديم الهدايا له باسم بني بنيامين، وفتشه حرس القصر. لكن لم يخطر ببالهم البحث عن السلاح تحت ابطه الأيمن، كان الملك الطاغية جالساً على عرشه، محاطاً بالحاشية والجواري. ولم يعره الإسرائيلي أي اهتمام بل رمقه بكبر وتعجرف. سجد إهود أمامه وقدم له الهدايا وطلب الاختلاء به، زاعماً أن لديه أخباراً هامة: « لي كلام سر إليك أيها الملك ». قال إهود ثم أضاف: « عندي كلام الله إليك ». رمقه الملك باستخفاف وسبح في التفكير. وتوصل إلى نتيجة أن الشخص الذي أمامه ليس إلا واحداً من الجواسيس الكثر، الذين دسهم بين صفوف بني بنيامين. لذلك أمر حاشيته وجواريه بالخروج وقرب أذنه من إهود ليبوح له هذا بالسر، اقترب إهود من الملك متصنعاً شكل من يريد قول شيء ما واستل سيفه بلمح البصر وضرب به الملك ضربة قاضية لم يستطع الملك حتى أن يصرخ، ولما سقط الملك السمين صريعاً على الأرض، أغلق إهود الباب من الداخل وهرب من مخرج احتياطي.

انتظر الخدم في الغرفة المجاورة بصبر، معتقدين أن الملك وزائره يتحدثان همساً، لكن الوقت طال وطال فأخذ بعض الخدم الجريئين يسترقون السمع وراء الباب، ولما شكوا بالأمر ضجوا وتصايحوا وخلعوا الباب، فوجدوا الملك قتيلاً يتضرج بدمه، فشكلوا فرقة لمطاردة القاتل لكن الوقت فاتهم، فقد وصل إهود إلى قومه وأعطى من قمة جبل أفرايم إشارة العصيان، عندها استغل الإسرائيليون الفوضى التي سببها مقتل الملك، وهاجموا

مؤاب وضربوا كالصاعقة مضطهديهم. وقتلوا في معركة ضارية عشرة آلاف مؤابي ملحقين بذلك خسارة فادحة بمؤاب. وانتخب الإسرائيليون إهود قاضياً عليهم تقديراً لفضله، فمارس هذا مهمته بين أبناء أفرايم ثمانية عشر عاماً.

دبّورة ـ جان دارك الإسرائيلية

لم يدلِّل القدر أبناء إسرائيل الذين استوطنوا إلى الجنوب من سهل عزرائيل، فقد كان ليابين ملك حاصور، وسيسرا رئيس جيشه سلسلة من التحصينات في الجبال يسيطران من خلالها على السهول والطرقات واستخدما مواقعهما الحساسة لقطع طرق الإمداد على الإسرائيليين وتجويعهم، ومن ثم اخضاعهم لسلطتهما إذن على قبائل أفرايم. وبنيامين وزوبولون ويساكر ونفتالي ونصف سبط منسى، على أسباط إسرائيل تلك أن تقوم بأعمال السخرة عند يابين وسيسرا، وأن تدفع لهما الجزية. هكذا عاشت أسباط إسرائيل عشرين عاماً من الذل والعبودية، وفقدوا خلال تلك الفترة أي أمل بالتحرر.

في تلك الأيام لمعت نجمة هي النبيّة دبّورة، الشاعرة المخلصة لديانة يهوه، والتي تعيش تحت نخلة بني الرامة وبيت إيل. هناك كانت تستقبل المبعوثين من كل أنحاء إسرائيل وتزودهم بنصائحها الثمينة وتتنبأ لهم بالمستقبل وتحل المشكلات الواقعة بين القبائل والعشائر وحتى بين الاشخاص. وقنع الجميع بأن دبورة تتحدث باسم الرب يهوه، وتقبلوا نصائحها وتعليماتها على أنها نبوءات لا محالة. ولم يكن لأحد في كنعان مثل شخصيتها وعزها.

قررت دبورة مفعمة بالشعور الوطني، إيقاظ الشعب من غفوته ودعوته إلى النضال من أجل الحرية. وأحست بأن من واجبها القيام بذلك وصدقت أن كلمتها المقدسة بروح الرب تبعث الشجاعة في قلوب إخوتها المغلوبين على أمرهم.

كان يعيش آنذاك في قادش في أرض أبناء نفتالي شخص شجاع وصاحب تجربة في الحروب مع الكنعانيين اسمه باراق، قررت دبورة تعيينه رئيساً للجيش فطلبته لمقابلتها. لكن باراق لم يكن مقتنعاً بالنصر وبقدرة الشعب الإسرائيلي المليئة روحه بالخوف والشكوك على مجابهة العدو. كان يعرف أن قائداً جيداً يقود الإسرائيليين ويبعث الجرأة في نفوسهم ويتمتع بحماية يهوه، هو الشخص المطلوب لمثل ذلك الغرض.

كانت دبـورة هي المقصـودة بالحـديث دبـورة المحتـرمة، دبورة النبية التي ستتحول المعـركـة تحت قيـادتهـا إلى معـركة دينية، معركة مقدسة، كل هذا دار في ذهن باراق فقال لدبــورة: «إن ذهـبت معي أذهب وإن لـم تذهبي فلا أذهب». امتعضت دبــورة من تعنت بارق، لكنها قبلت شرطه لكن انعدام الثقة لديه كان يجب أن يجلب له العقاب المناسب، فتنبأت له دبورة بأن سيسرا قائد جيش الكنعانيين لن يهلك على يده بل على يد امرأة ضعيفة.

لم تلب القبـائـل الإسـرائيلية دعوة النبية ومع هذا فقد تجمع لديها عشرة آلاف مقاتل كانوا سيئي التسليح لكنهم كانوا مستعدين للقيام بأي عمل يوكل إليهم، وبعث وجود دبورة «الأم في إسـرائيـل» حمـاسـاً لا يوصف في نفوس الناس، وعسكر الجيش الإسرائيلي على سفـوح جبـل تابـور، وفي الوقت نفسه ظهر جيش الكنعانيين في السهل بقيادة سيسرا. وفي مقـدمـة جيشه تسعمائة مركبة حديدية مزودة من الطرفين بأسنة حادة كالمناجل تحصد مشاة العدو كالقمح الذي يحصد بالمنجل. لكن الحظ كان إلى جانب الإسرائيليين. فقد فاض نهـر فيشـون وسـالت الميـاه من ضفتيـه وحولت الأرض إلى مستنقع كبير. ولما هاجم باراق الكنعـانيين بمشـاتـه تحـركت مركبـات هؤلاء نحـوه وغرزت جميعها في الأرض الموحلة، ووقعت الأحصنة على الأرض مولدة القلق والفوضى في صفوف الكنعانيين.

استغل الإسرائيليون تلك الفوضى وضربوا الكنعانيين ضربة موجعة فقتل فوق أرض المعـركـة وخـلال الهـرب كل الكنعـانيين تقـريباً. ولم يعد هناك وجود لجيش الملك يابين الجبـار. واستطـاع سيسـرا خلال المعـركة ترك مركبته والفرار إلى قادش آملاً إيجاد مأوى له عند حابر القيني الذي يربطه به صلح وحسن جوار. لكن حابراً كان غائباً عن البيت. فدعت زوجته ياعيل سيسرا إليها فمال هذا إليها وغطته باللحاف، إذ انه كان مرهقاً وبحاجة للنوم. لكن ما أخذ النوم بسيسرا حتى جاءت ياعيل بوتد الخيمة وضعته على صدغ سيسرا وضربته بالمقيـدة، فنفـذ الـوتـد من جهـة جمجمتـه الأخـرى، وبعـد وقت قصير، جاء باراق ولكن متأخـراً. تحققت نبـوءة دبـورة. فسيسـرا لم يقتله باراق بل المرأة الضعيفة ياعيل، كما قتل بالسيف أيضاً الطاغية يابين ملك حاصور. غنت دبورة بعد تحقيق النصر نشيداً يمجد نصر إسرائيل على الكنعانيين. ولم تنس أن تمجد فيه عمل ياعيل البطولي ووصفت في نشيدها كيف تساوى جسد القائد العسكري عند قدمي امرأة مع الأرض، في الوقت الذي كانت فيه أم سيسرا تنتظر عودة أبنها بفارغ الصبر: «من الكوة أشرفت، وولولت أم سيسرا من الشباك.

لمـاذا أبطأت مركبـاته عن المجيء ، لماذا تأخرت خطوات مراكبه؟ فأجابتها أحكم سيداتها بل هي ردت جوابـاً لنفسهـا ، ألم يجـدوا ويقسموا الغنيمة ، فتاة أو فتاتين لكل رجل ، غنيمة ثياب مصبوغة لسيسرا ، غنيمة ثياب مصبوغة مطرزة ، غنيمة ثياب مصبوغة مطرزة الوجهين ، غنيمة لعنقي » .

عاش الإسرائيليون بعد تلك الأحداث أربعين عاماً في سلام وطمأنينة ، وكانت فيهم خلال ذلك دبورة قاضية محاطة بحب وتقدير الشعب .

كيف صار الفلاح المتواضع محرر إسرائيل

نسي أبناء إسرائيل بسرعة أفضال يهوه بعد أن حصلوا على حريتهم وبدؤ وا من جديد يعبـدون الآلهـة الكنعـانيـة ، لذلك عوقبوا من جديد ، فقد عبر المديانيون ، العمالقة وقبائل بدويـة أخـرى نهر الأردن وانقضوا كالجراد على حقول الفلاحين الإسرائيليين . والأنكى من ذلـك ان تلك القبـائـل صارت تهاجم حقول الإسرائيليين بانتظام وبشكل دوري خلال فترة الحصاد ، وأخذت جمالهم ، المخلوقات العجيبة التي لم تكن معروفة في كنعان ترعى في البسـاتين والحقـول وتـدوس بأخفـافهـا الحنطـة والخضار والعنب ، وكان قراصنة الصحراء ينهبـون كل شيء يقـع تحت أيـديهم : الطعـام ، والقطيـع والحمـر . أمـا الفلاحون والعزل فيهـربـون إلى الجبـال ويختبئون في المغاور والوديان ، وعمت البلاد الكارثة ، كارثة الجوع وكارثة الداء ولم يشفق يهوه على شعبه إلا بعد سبع سنوات من العذاب والشقاء .

في تلك الأيام وفي منطقة عقرة التي تقع في أرض سبط منسى ذلك السبط الذي لم يدخـل الأردن ، عاش فلاح اسمـه يوآش بنى لنفسـه مذبحـا على شرف الإله بعل ، لكنه لم يكن شديد الحماس له ؛ وجدعون ، ابن يوآش أيضاً ، لم يكن من المتحمسين للإله بعل ، لكنه انساق إلى طقوسه مع قبيلته ، وأضاع ثقته بيهوه إله الشعب الإسرائيلي .

وفي أحـد الأيـام بينمـا كان جدعـون يطحن القمـح ليخـزنـه ويهـرب قبـل مجيء المـديـانيين . وإذا بملاك يقف أمامه ويخبره أن يهوه أوكل إليه مهمة تحرير شعب إسرائيل . فقـال جدعـون معـارضاً : [ياسيدي بماذا أخلص إسرائيل؟ هاهي عشيرتي ، هي الذل في منسى وأنا الأصغر في بيت أبي] . أكد الملاك لجدعون بأن النصر على المديانيين سيكون حليفـه لكن جدعـون ، سعى جاهـداً للحصـول على علامة تدله على تأييد يهوه له ، فوضع

جدي معزى تحت بلوطة وخبزا، فنصحه الملاك بوضع القربان على صخرة، وآخذ جدعون بنصيحة الملاك، ولما لامس هذا الصخرة بعصاه، صعدت نار والتهمت اللحم والخبز فأقنعت المعجزة جدعون، ورضي بتنفيذ المهمة الموكلة إليه.

في الليل بينما كان سكان عقرة يغطون في نوم عميق، قام جدعون ومعه تسعة رجال من المخلصين له بهدم وتدمير مذبح بعل وقطع السارية المقدسة التي في أملاك أبيه. ثم بنى مذبحاً ليهوه وقدم عليه عجلاً قرباناً. وفي الصباح رأى سكان عقرة مذبح بعل المتهدم، فانتابهم غضب شديد وطالبوا يوآش بقتل جدعون ابنه المرتد. لكن يوآش كان رجلاً ذكياً وصاحب حجة، لذلك لجأ إلى إقناع الجموع الغاضبة «أنتم تقاتلون للبعل؟ أم انتم تخلصونه؟ من يقاتل له يُقتَل في هذا الصباح. إن كان إلهاً فليقاتل لنفسه...» أقنعت تلك الكلمات سكان عقرة فتفرقوا إلى بيوتهم. ومنذ ذلك اليوم سمى السكان جدعون (يَرُ بعل) مازحين وتعني تسميته «ليقاتله البعل».

ومنذ تبين للناس أن الإله الكنعاني لايفكر بالانتقام لنفسه من المستهزئين به، صارت لجدعون هيبة كبيرة في إسرائيل، وبناء على دعوته اجتمع الرجال المسلحون من أسباط أبيعزر ومنسى وأشير وزبولون ونفتالي، وكانوا اثنين وثلاثين ألف محارب عند عين حرور. إن جدعون عرف السبيل إلى مقاتلة قطعان قراصنة الصحراء. لقد قرر القيام بهجوم مباغت عليهم بواسطة فصيل صغير من أشجع المقاتلين. فالجيش الكبير الذي تجمع تشكل أساساً من المتطوعين غير المدربين على القتال. ولذلك لايصلح للغرض الذي يصبو إليه جدعون في البداية أعاد جدعون كل من شعر بالرهبة من مقاتليه إلى بيوتهم فنقص عدد الجيش اثنين وعشرين ألفاً وبقي مع جدعون عشرة آلاف محارب مقدام، لكن جدعون رغب بتخفيض العدد أكثر من ذلك. لكن كيف السبيل إلى اختيار الأشجع من العشرة آلاف.

هنا تدخل يهوه ودل جدعون على طريقة مثلى للاختيار، ففي المساء عندما راح المقاتلون إلى النبع ليشربوا راقبهم جدعون من تلة قريبة. غالبية الجنود ألقت بسلاحها على الأرض، وركعت على ركبها، وغرفت الماء بكلتي يديها وشربت، فئة صغيرة فقط من المقاتلين انبطحت على بطونها وأيديها على مماسك أسلحتها. وشربت الماء كما تشربه الكلاب. كان أولئك مقاتلين محنكين ودائمي الحذر كيلا يباغتهم العدو. فكان مجموع ماعده من مقاتلي الفئة الثانية ثلاثمائة شخص. فصرف بقية العسكر إلى بيوتهم، وقرر القيام بهجومه مع الثلاثمائة مقاتل الذين اختارهم.

كان البدو المديانيون يعسكرون في سهل عزرائيل، ورغم سيطرتهم على البلاد مدة سبع سنوات دون مقاومة. فإنهم لم يتخذوا الاحتياطات اللازمة. فقد اقتنعوا أنه لن يجرؤ أحد على مهاجمتهم.

كانت نوبات حراستهم سيئة التنظيم. والفوضى تعم معسكرهم والنساء والأطفال يملأون الساحات الموجودة بين الخيام والقطيع والحمير لايحصى عددها.

ذهب جدعون بعسكره ليلاً إلى الجبل الذي يمتد أمامه السهل كراحة اليد، أعطى كل واحد من مقاتليه بوقاً ومشعلا مخبأ في آنية فخارية. ثم قسم رجاله إلى ثلاث مجموعات وأمرها بالتسلل نحو معسكر المديانيين من ثلاث جهات مختلفة. وفي منتصف الليل عندما نام المديانيون، أعطى جدعون إشارة الهجوم. فكسر الإسرائيليون الأواني الفخارية وأظهروا مشاعلهم ونفخوا في أبواقهم دفعة واحدة، وأطلقوا صيحات القتال. فأيقظ الضجيج الرهيب البدو، وظن هؤلاء أنهم محاطون بجيش معاد هائل الحجم، ففروا باتجاه ماوراء الأردن طاردهم جدعون بقواته، وانضمت إليه في الطريق جحافل أخرى من مقاتلي القبائل الإسرائيلية. فقام جدعون بمجزرة رهيبة إذ قتل جميع البدو ثم عبر الأردن، ودمر بلد المحتلين، ونهبها، وقتل أربعة ملوك مديانيين.

وقعت خلال المطاردة حادثة تدل على جبن القبائل الإسرائيلية وانعدام التضامن فيما بينها فقد امتنعت مدينتا سكوت وفنوئيل، التي في ماوراء الأردن عن تقديم الطعام للمقاتلين الإسرائيليين الجياع خوفاً من انتقام البدو. لذلك قرر جدعون معاقبة الجبناء ليكونوا عبرة لغيرهم فأمر بدرس لحوم شيوخ المدينتين مع أشواك البرية بالنوارج، ثم قتل السكان ومحا المدينتين من على وجه الأرض كي تبقى أنقاضهما عبرة لمن تسول له نفسه الخيانة.

كانت الغنائم التي استولى عليها جدعون كبيرة جداً، فقبائل الشرق من المديانيين خاصة، لم تمارس السطو والنهب فقط، بل اشتهرت بالتجارة المربحة والوساطة في تبادل البضائع بين بلدان آسيا ومصر. وكعادة التجار لم تخف تلك القبائل غناها بل طالما تفاخرت بنفائسها وثيابها الجميلة الحديثة. حتى الإبل عندهم كانت تزين بسلاسل ذهبية على أعناقها، كما يزخرف خطامها بالذهب.

قدم الإسرائيليون لأول مرة تاج الملك لمحررهم، لكن لم يخف على جدعون وجود الكثيرين من أعداء الملكية، لذا رفض الاقتراح المقدم إليه. وطالب الإسرائيليين بإعطائه جزءاً صغيراً من الغنيمة وهو الأقراط الذهبية: ففرش لحافاً أمام خيمته، وأخذ المقاتلون

يلقون عليه بالأقراط الذهبية التي غنموها. فكان مجموع ماجمع من الأقراط قيمته ألف وسبعمائة شاقل ذهباً، (حوالي سبعة وعشرين كيلو غراماً) ورغم رفض جدعون التاج، فقد صار في الواقع ملكاً يورث ملكه. اختار لنفسه عاصمة هي مدينته الأم عفرة، ومنها حكم القبائل التي حررها من العبودية، ولكن ماإن عم السلام والبحبوحة البلاد حتى نبذ جدعون عبادة يهوه، وأمر بصنع تمثال من الذهب الذي غنمه لبعل، وصار المعبد الموجود في عفرة مركز الدولة الديني. وكما هي العادة عند طغاة الشرق جمع جدعون لنفسه سبعين امرأة وأنجب منهن سبعين ولداً. أما فترة حكمه فاستمرت أربعين سنة.

انتقلت السلطة بعد موته إلى أبنائه. فحكم أولئك البلد بشكل جماعي لكنهم لم يشركوا أبيمالك في الحكم وهو ولد لابيهم من إحدى العاهرات كان قد ضاجعها في شكيم. فذهب أبيمالك إلى أمه وأقربائها ليقنعهم بمساعدته على تولي السلطة بالقوة والحلول محل أبيه « أيما خير لكم - قال أبيمالك لسكان شكيم - أن يتسلط سبعون رجلاً جميع بني يَرُ بعل. أم أن يتسلط عليكم رجل واحد؟ واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم ».

أعطاه اقرباؤه سبعين شاقلاً فضة من بيت بعل بريث ليستأجر بها مرتزقة وقام على رأس مرتزقته بالهجوم على عفرة، فانتصر وقتل جميع اخوته إلا يوثام الذي اختبأ ثم صار يجوب البلاد داعياً الناس لقتال الطاغية المتسلط.

حكم أبيمالك البلاد حكم الطغاة الدمويين. وبمرور الزمن لم يعد الناس يتحملون ظلمة ودكتاتوريته. فقام سكان شكيم بعصيان مسلح ضد شيوخ مدينتهم الذين ساعدوا أبيمالك بالوصول إلى السلطة، فاحتلوا بزعامة جعل بن عابد المدينة، وأقاموا حفلة تهتكية في معبد بعل نهبوا الحقول والكروم المجاورة القريبة وخربوها وحاصروا الملك وحاشيته في الجبال.

بعث زبول رئيس المدينة الوفي لملكه إلى أبيمالك رسولاً يحمل رجاء المساعدة، فاقتحم الملك المدينة ودمرها عن بكرة أبيها وذبح سكانها. لكن ألفاً من المتمردين اختبأوا في برج بعل بريث العالي، ولما امتنع البرج على أبيمالك أمر بحرقه ثم اتجه أبيمالك بقواته إلى مدينة تاباص لأن سكانها تمردوا أيضاً. واختبأ سكان تاباص في القلعة المنيعة ودافعوا عن مدينتهم بضراوة. وفي اللحظة التي اقترب فيها أبيمالك من سور القلعة ليحرقه ألقت عليه امرأة قطعة رحى فشجت جمجمته. فدعا أبيمالك الغلام حامل عدته وقال له: « اخترط سيفك واقتلني لئلا يقولوا عني قتلته امرأة » وهكذا بعد ثلاث سنين من الحكم

الصاخب انتهت حياة أبيمالك بن جدعون. لقد انتقم القدر لدم ثمانية وستين ولداً من أولاد جدعون.

يفتاح بطل جلعاد التعيس

كانت منطقة جلعاد في ضواحي ماوراء الأردن الجبلي، أما سكانها، الإسرائيليون، الذين احتلوها أيام يشوع بن نون، فقد عملوا بشكل رئيسي، بتربية القطعان، وكان أن مات، هناك، أحد شيوخ إسرائيل المحترمين، تاركاً وراءه زوجة وأولاداً، ولما كبر الأولاد طردوا من البيت أخاهم، لأنه أخوهم من أبيهم، جاءه من امرأة عاهرة وقد حاولوا قتله، كي لايطالب في المستقبل، بحصته من ورثة أبيه.

غير أن يفتاح التجأ إلى أرض طوب، التي عند منبع الأردن وانضم هناك إلى عصابة من البدو تخضع المنطقة لسيطرتها وتأخذ جزية من سكانها. وبعد فترة من الزمن صار زعيم العصابة وزرع الخوف والرعب في نفوس السكان بسبب حملات النهب والسرقة التي قام بها.

آنذاك أدارت السعادة ظهرها للإسرائيليين في جلعاد، وحلت أيام سوداء عليهم فقد قام بنو عمون الذين طردهم الإسرائيليون سابقاً من أرضهم، بنهب جلعاد، وعبروا الأردن، ونهبوا أيضاً أرض يهوذا وبنيامين وأفرايم. وبقي الإسرائيليون سبعة عشر عاماً يعانون من مضايقات بني عمون وقهرهم. ولما بلغ السيل الزبى تذكروا يفتاح زعيم عصابة قاطعي الرؤوس، وقرروا بأنه الشخص الوحيد القادر على مجابهة المحتلين وتحرير أبناء وطنه من عبوديتهم.

فجاء شيوخ جلعاد إلى يفتاح طالبين منه العون، ولكنه ما كان لينسى مافعلوه به، فأجابهم بحسرة: « أما بغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي؟ فلماذا أتيتم إلي الآن إذ تضايقتم؟ ». أجابه شيوخ جلعاد: أنهم سيقبلون شروطه كلها إذا قدم لهم المساعدة فاشترط يفتاح عليهم أن ينصبوه عليهم زعيماً وقاضياً طوال حياته. قبل الشيوخ شروطه. وتوجه يفتاح مباشرة إلى مدينته الأم إلى مصفاة ليشكل فصائل المقاومة. ودعا يفتاح من بين من دعاهم للنضال بني أفرايم لكنه لم يتلق منهم رداً. لذلك لم يغامر بمواجهة بني عمون بالسلاح، بل قرر التباحث معهم كي يكسب الوقت. فأرسل اليهم رسلاً طالباً منهم الكف

عن تعـذيب الإسـرائيليين لكن الملك العموني رفض مجيباً: « لأن إسرائيل قد أخذ أرضي عند صعوده من مصر من أرنون إلى اليبوق وإلى الأردن فالآن ردها بسلام ».

لم يعـد أمـام يفتـاح رد آخـر سوى الصراع المسلح. فصلى ليهوه راجياً منه النصرة، ونذر نذراً أن يقدم أول ولد يصادفه من أولاده عند رجوعه قرباناً له.

انتهت الحرب بنصر كبير ليفتاح وكانت غنائمه عشرين مدينة ومرعى وكرم عنب، وعاد يفتاح إلى مصفاة مزهواً بنصره.

ولمـا اقتـرب من بيتـه كانت ابنتـه الـوحيـدة التي يحبها كثيراً أول من خرج من أولاده للقـائـه. حيتـه ابنتـه بحـرارة راقصة على إيقاع الدف. لكن يفتاح صار في حالة من اليأس والقنـوط لاتـوصف. مزق ثيـابـه، وأنّ وبكى «آه ياابنتي! لقـد احـزنتني حزنـاً وصـرت بين مُكَـدريّ لأني قد فتحت فمي إلى الـرب ولايمكنني الـرجوع». فهمت الفتاة ألا رجوع عن الـوعـد المقطـوع ليهـوه. فطلبت من أبيهـا السمـاح لها بالذهاب مع صديقاتها إلى الجبال لشهـرين فقـط كي تبكي شبـابهـا، فلبى لها طلبها وعندما عادت أوفى يفتاح بنذره: وتحت عويـل وأنين اسـرائيـل كلهـا قدمت الفتاة حياتها ليهوه. ومنذ ذلك اليوم في إسرائيل صارت عادة أن تصعـد الفتيـات الإسـرائيليـات كل عام إلى الجبـال بموكب حدادي ويبكين هناك أربعة أيام قدر بنت يفتاح التعيس. ولم يغفر الجلعاديون لبني أفرايم خيانتهم بل احتقروهم وحقروهم في كل مكان. وكان بنو أفرايم يتذرعون بأن يفتاح لم يخبرهم بأنه سيخوض حرباً ضد العمونيين. ولكن أحداً لم يصدقهم، فقرروا إعلان الحرب على يفتاح وسكان جلعاد.

وفي أحد الأيام عبروا الأردن وهاجموا جلعاد. غير أن حملتهم فشلت فتفرقوا هاربين وسيطـر يفتـاح الـذكي على معـابـر الأردن وكمن هنـاك للفارين، فصار هؤلاء يأتون الأردن فرادى مدعين أنهم ليسـوا من أفـرايم بل من قبـائل أخرى. ولما كان الجلعاديون يعرفون أن بني أفرايم لايلفظون حرف الشين شيناً بل سيناً، فإنهم طلبوا من كل من حاول عبور الأردن أن يقول كلمة شبولت (سنبلة) فإن لفظها سبولت قتلوه، وإن لفظها شبولت دعوه يذهب في حال سبيله.

قتـل في المعـركـة بين الإخـوة اثنـان وأربعـون ألفـاً من بني أفـرايم. وعـاش يفتـاح الجلعـاوي، بعـد انتصـاره ستة أعوام أخرى، مارس خلالها مهمته كقاض ودُفن بعد موته، كما يدفن القادة المبجلون في إحدى المدن الجلعادية.

شمشون

قدم الفلسطينيون إلى كنعان من جهة البحر، وشغلوا سهل الشاطيء في الجنوب، وكان لهم خمس مدن، تمنه، ووادي سورف، وأشقلون، وغزة. وعيطم. وكان يحكمها خمسة ملوك. وبعد مدة ضاقت بهم الأرض الواقعة قرب الشاطيء، فتوسعوا نحو العمق في أرض سبطي يهوذا ودان. ولم يكونوا يهابون أحداً لأنهم قساة في الحرب مجربون، وبالحديد مدرعون. لذلك لم يكن من الغريب أن يسيطروا على المنطقة وأن يخضعوا إسرائيل لعبوديتهم أربعين عاماً.

عاش تلك الأيام في مدينة صرعه رجل من الدانيين اسمه منوح، وكانت زوجته عاقراً، وفي أحد الأيام ظهر للزوجين ملاك أخبرهما بأنه سيكون لهما ولد وطلب منهما ألا يقصا شعره أبداً وألا يشربا الخمر أو يأكلا النجس لا هما ولا الولد.

ولد الطفل وسمياه شمشوناً، وصار يكبر وينمو بالساعات لا بالأيام، وأصبح بعد حين أقوى الأقوياء لم يشرب الخمر، ولم يأكل النجس، ولم يقص شعره، وبقي محافظاً على وعد أبويه. رغم أنه لم يكن شديد الإيمان. وقد منحته الطبيعة عضلات بارزة وقوة هائلة. فكان ينزل إلى الشوارع ليبارز الناس متفاخراً بقوته. عدا ذلك فإنه كان يتمتع بميل شديد نحو التصرفات الغريبة، والأعمال التي تدل على غباء. نعم كان مغرما بالمزاحات الثقيلة على النفس. وفي الوقت الذي كان يقهقه فيه ضاحكا حتى الغثيان لعمل ارتكبه أو مزحة تتعذب بسببها ضحيته وتتألم أشد الألم. لذلك ابتعد عنه أغلب الناس. وكان إذا جُرح كبرياؤه، يتملكه غضب شديد غضب جنوني قد يترك آثاراً لا تحمد عقباها عند المحيطين به. وعدا كل ما ذكرناه. كان ذلك المتسكع المغرور كثير التعلق بالنساء شهوانيا، ولما تفقده إحداهن عقله بسبب تعلقه بها فإنه يتحول إلى خروف أحمق غبي.

شمشون يقرر الزواج

كان شمشون يهوى التسكع في البلاد من مكان إلى مكان فصادف في مدينة تمنه الفلسطينية واحدة من الفلسطينيات، أغرم بها من أول نظرة. وقرر الزواج منها. ركض

مسـرعـاً إلى البيت وطلب من والـديـه خطبتهـا له، استشـاط الوالدان غضباً. فابنهما طالما سبب لهما الألـم والشقاء. وهاهو اليوم عاقد العزم على الزواج من امرأة غريبة، من بنت أحد الفلسطينيين الجـاهلين. وأصـر شـمشـون على موقفـه وطلب من أبيـه «إيـاها خذلي، لأنها حسنت في عيني». لـم يعـد لدى والـديـه حل آخـر. تأوهـا بتعـاسـة وألم ونفذا رغبة ابنهما المتهور غير المتزن. فصار شمشون خاطباً وكثرت زياراته لبيت خطيبته.

في أحـد الأيـام لمـا كان يسيـر في كروم تمنه متبختراً صادف شبل أسد يزمجر. مزق شمشون الجبار الشبل إرباً إربا. وتابع سيره إلى تمنه وكأن شيئاً لم يكن بل ولم يخبر أحداً بالأمر. وكان وهو عائد من البيت أن رأى دَبْراً(*٩) من النحل في جوف الشبل مع عسل. فأخذ شمشون العسل إلى أبويه ولم يقل لهما من أين حصل عليه.

حل أخيراً يوم الزفاف، استمرت الأفراح حسب العادات الفلسطينية سبعة أيام. في إحدى السهرات أخذ شمشون يخترع الأحاجي ويسأل ثلاثين من الفلسطينيين لايجاد حل لهـا. وراهن على ثلاثين قميصـاً وثـلاثين حلة ثيـاب إن حزر أحدهم أحجيته التالية: «من الأكل خرج أكل، ومن الجافي خرجت حلاوة» لم يستطع الفلسطينيون بعد تفكير ثلاثة أيام أن يحلوا أحجيـة شمشـون. ولمـا فقـدوا كل أمل بذلك جاؤ وا إلى زوجته وقالوا لها «تملقي رجلك كي يظهـر لنـا الأحجيـة لئلا نحرقك وبيت أبيك بنار ألتسلبونا دعوتمونا أم لا؟». ماذا كان بمقدور المرأة التعيسة أن تفعل؟ خافت من التهديد واضطرت لخداع زوجها كي تعرف منـه حل الأحجيـة. وهكـذا ذهبت إليـه غارقـة بدمـوعهـا، واشتكت له باكية «إنما كرهتني ولاتحبني، قد حاجيت بني شعبي وإياي لـم تخبر».

تهـرب شمشـون بشتى الوسائل من الجواب لكن امرأته ظلت تبكي وتتملقه وتشتكي حتى أفضى لها بحل الأحجية.

في اليـوم التـالي اجتمع الفلسطينيون من جديد بشمشون على مائدة الطعام وأخبروه ساخـرين أن الحـديث يدور في أحجيتـه عن أسد مقتول في جوفه دبر نحل. عرف شمشون فوراً أنـه قد خدع، تصنـع الهـدوء رغم الغضب الشديد الذي سيطر عليه وقال للفلسطينيين «لو لم تحرثوا على عجلتي، لما وجدتم أحجيتي». لكن الأنكى من ذلك كان البحث عن وسيلة لدفع الشرط المتفق عليه، فالثلاثون قميصاً والثلاثون حلة ثياب ليست بمزحة ولا بأمر سهـل سيمـا وأن أهله فقـراء لايمكن طلب المسـاعـدة منهم، فكر طويلاً بالأمر ووجد أخيراً مخرجاً بسيطاً وذكياً.

راح في فجر أحد الأيام إلى أشقلون وقتل هناك ثلاثين فلسطينياً ونزع عنهم ثلاثين قميصاً وثلاثين حلة ثياب. صفى بعد ذلك حسابه مع رفاق كأسه، وعاد إلى أهله دون أن ينظر حتى إلى زوجته بعد فترة من الزمن خف غضب شمشون وضايقه الحنين إلى زوجته، وصار يقنع نفسه بأنها فعلت ما فعلت تحت ضغط قومها، وبسبب محبتها لوالديها وليس عليه أن يعاقبها على ضعفها وخيانتها المقصودة.

أخذ جدي معزى للصلح وحث سيرة إلى تمنه لكن القدر هيأ له مفاجأة غير منتظرة ليسخر منه فقد دخل مباشرة إلى مكان نوم زوجته وهو مفعم بالشوق والحنين إليها. وهناك يا للفظاعة سد عليه حموه الطريق وأخبره أنه زوج ابنته لرجل آخر لأن ظنه أن شمشون قد ترك زوجته ولن يعود اليها. غير أن حماه أبدى إرادة طيبة إذ عرض عليه ابنته الصغرى الأكثر جمالاً من الكبرى. تملك شمشون غضب شديد. فلم يرغب حتى بالاستماع إلى حميه. فقد فهم شيئاً واحداً فهم أنه يقف ذليلاً عند عتبة مكان نوم زوجته الحبيبة، وأنهم تصرفوا معه وكأنه أكبر غبي على وجه البسيطة. هو القوي بين الأقوياء، المشهور عند الأعداء قبل الاصدقاء. كيف له ان يظهر بعد هذه المذلة على اعين الناس؟ يجب الانتقام لنفسه بالقوة والحيلة. وقال في نفسه مفكراً بطريقة الانتقام: «إني بريء الآن من الفلسطينيين إذا عملت بهم شيئاً».

هكذا بدأت حرب شمشون الفردية ضد الفلسطينيين لم يعد إلى بيته، بل صار يطوف كالذئب في ضواحي تمنه. يتحين الفرص للانتقام من المدينة الحاقدة. أخيراً طرأت له فكرة طريفة وفظيعة: أمسك ثلاثمائة ابن آوى جعلها ذَنباً إلى ذنب ووضع بين كل ذنبين مشعلاً. أضرم النار في المشاعل وأطلق الحيوانات الهائجة صوب المدينة. فانطلقت هذه إلى الأمام كالمسعورة حارقة بطريقها الأكداس والزرع وكروم الزيتون، وصارت محاصيل الفلاحين الفلسطينيين رماداً، فقتل سكان تمنه لشدة ألمهم زوجة شمشون وأباها. سمع شمشون بالنبأ فاقسم على الانتقام وأن يكون انتقامه فظيعاً ونفذ قسمه. فكان يظهر أمام المارين يقتلهم وينشر الرعب في الأرض حتى لم يعد أحد في تمنه يجرؤ على الخروج من بيته. فصار جوع في المدينة وشلت حياة أهلها كما لو أن جيشاً هائلاً يحاصرهم. فقرر الفلسطينيون وضع حد لطغيان شمشون. شنوا هجوماً على يهوذا، وطالبوا بتسليم شمشون وإلا سيسلبون ويدمرون.

أرسل بنو يهوذا الجبناء ثلاثة آلاف مقاتل إلى شق صخرة عيطم حيث يختبيء

شمشـون. تبـاحث رئيس المقـاتلين مع شمشـون ولامـه مؤنباً «أما علمت أن الفلسطينيين متسلطون علينا؟ فماذا فعلت بنا؟». «كما فعلوا بي فعلت بهم» قالها شمشون بحزن، ثم أضاف «احلفوا لي أنكم أنتم لاتقعون علي». حلف له بنو يهوذا أنهم لن يقتلوه، فاستسلم لهم شمشـون وسمـح لهم بتقييـده بالحبـال. استقبـل الفلسطينيـون الأسيـر بالسبـاب والإستهـزاء. صبـر شمشـون وتحمـل كل المضـايقـات ولكن لما تجرأ البعض على ضربه بقبضـات أيـديهم قطـع الحبـال كأنهـا خيـوط. أمسـك بلحي(*١٠) حمـار طري، وهجم به كالـوحش على أعـدائـه، ضربهم يمينـاً ويسـاراً، وصارت رؤوسهم تتطاير كالذباب أصيب الفلسطينيون بهلع كبير وتفرقوا هاربين. استغل شمشون ذلك وقتل منهم ألف رجل. سعد شمشـون ورضي جداً بمـا فعله، وعـاد إلى ملجئـه الجبلي منشداً على وقع خطاه: «بلحي حمار كومة كومتين، بلحي حمار قتلت ألف رجل».

لم يُقم شمشون طويلاً في الجبال. فقد اختاره شعبه الشكور قاضياً عليه. منذ ذلك الحين ولعشـرين سنـة حكم شمشـون إسرائيل، وكان اسمه يبعث الرعب والهلع في نفوس الفلسطينيين الذين لم يتجرأوا، بعد درس قاس تلقوه على المساس به.

مغامرة شمشون في غزة

كان شمشون شديد الثقة بقوته لدرجة أنه كان يدخل المدن الفلسطينية وحيداً ويسير في شوارعها. يتفرج على مايعرض فيها للبيع. ولايعير أي انتباه للجموع الخائفة التي تفسح له الطـريق ليعبـر. كان يذهب أحيـانـاً إلى غزة المـدينة التجارية المزدحمة الغنية. وخلال إحـدى زيـاراتـه التقى بزانيـة أعجبتـه، فسـار إليها فانتشر خبر عزمه على النوم في غزة بلمح البصـر. اغتبـط الفلسطينيـون وغمـرتهم السعـادة لأنهم أوقعـوا شمشون أخيراً في الشرك. أغلقـوا أبـواب المدينة مع حلول الظلام، ووضعوا حراساً عند الزانية، وأمروهم أن يهاجموا شمشـون في الصبـاح ويقتلوه. لكنـه خمّن بطـريقـة ما أنهم يعـدون له مصيدة. فخرج في منتصف الليل من بيت الزانية. أما الحراس فناموا لأنهم لم يتوقعوا خروجه في ذلك الوقت. قتل شمشون الحراس، واقتلع بوابة المدينة، وحملها على كتفه، وسار بها إلى قمة الجبل الـواقـع على الطريق الموصل إلى حبرون. فرفع ذلك العمل البطولي الذي يدل على القوة والحذق من مجد شمشون، وجعل الفلسطينيين مرة أخرى موضع سخرية للشعوب الأخرى المجاورة.

شمشون ودليله

ومرة أخرى وقع شمشون، زير النساء، في شباك فلسطينية اخرى اسمها دليلة، وتسكن في وادي سورق، وما كانت تلك المرأة الخائنة لتستحق حبه. فقد جاء إليها رؤساء الفلسطينيين، وقالوا لها: «تملقيه، وانظري بماذا قوته العظيمة وبماذا نتمكن منه لكي نوثقه لإذلاله فنعطيك كل واحد ألفاً ومائة شاقل فضة». انفتحت شهية المرأة للثروة واتخذت قرارها بسرعة.

انتظرت اللقاء مع شمشون. ولما تم ذلك اللقاء سألته بكل براءة، عن سر قوته العظيمة، لكن شمشون تعلم من تجربته المرة. وصار حذراً مع نواعمه لايشاركهن أسراره، فقرر المزاح مع المرأة المحبة للاطلاع. فأكد لها بسرية تامة بأن قوته تتلاشى إذا ما أوثق بسبعة أوتار طرية.

انتظرت الخائنة الليل، على أحر من الجمر، كي تنفذ خطتها. ولما استسلم شمشون للنوم، ربطته بسبعة أوتار طرية. وخرجت من البيت متسللة وجاءت بالفلسطينيين، وعادت إلى حجرة نومها. واستلقت وصرخت كالمذعورة، «الفلسطينيون عليك ياشمشون».

نهض الجبار بسرعة البرق من فراشه قطع الأوتار إرباً إربا وودع المتآمرين مستهزئاً فولوا هاربين، أكدت له دليلة أنها كانت نائمة أيضاً وأن براءتها ثابتة بتحذيرها له لما رأت الفلسطينيين تصنع شمشون تصديقها. وعندما عادت تلح عليه بالسؤال عن مصدر قوته، قرر اللعب عليها (كما يلعب القط مع الفأر) والاستهزاء بها، فصار يذكر لها أي مصدر لقوته يتبادر إلى ذهنه ويتصنع النوم مباشرة بين أحضانها، وقد قال لها مرة انه سيفقد قوته إذا ماربط بحبال جديدة لم تستعمل من قبل. وأخبرها مرة أخرى أنه سيفقد قوته لو أنها ضفرت سبع خصل رأسه مع السدى ومكنتها بالوتد.

وكانت دليلة تتلقى الخسارات المعيبة الواحدة تلو الأخرى والفلسطينيون يضطرون كل مرة للهرب مودعين بسخرية شمشون، لكن لعبة القط والفأر اكتسبت خطورة مع مرور الوقت. فقد صارت المرأة الخبيثة شديدة الغضب وتمتنع عن مجامعة عشيقها لها في الوقت الذي تجد في نفسه رغبة اليها. فصارت تنكد عليه عيشه بتصرفاتها وشكواها، وأوصلته إلى

حالة لم يبق أمامه فيها إلا حل واحد وهو أن يعترف لها بالحقيقة من أجل هدوء نفسه وراحة بالـه «لم يعـل موس رأسي لأني نذيـر الله من بطن أمي ، فإن حلقت تفـارقني قوتي وأضعف وأصير كأحد الناس». اعترف لها شمشون.

أوصت دليلة أبنـاء بلدهـا بالقـدوم إليها مع المال الموعود، وقامت خلال ذلك بتنويم شمشون على ركبتها، ثم أوعزت للحلاق بقص خصال رأسه السبع ، أيقظت شمشون بعد ذلـك. واحتقـرتـه وطردته من بيتها. فركض إليه الفلسطينيون. استعد شمشون لمهاجمتهم غيـر عارف أنـه قد حلق له. وأن يهـوه قد حرمه قوته لحنثه بالوعد المقطوع ، بعد عراك قصير تمكن الفلسطينيـون من شمشـون. قيـدوه بالسـلاسـل فقؤوا عينيـه وجروه إلى غزة متباهين بالنصـر. وهنـاك عرضـوه، في البـدايـة لإهـانات وسخريات الناس، ثم ألقوا به في الزنزانة وأجبروه على الطحن وهو مقيد بالسلاسل.

موت شمشون البطولي

قدم الفلسطينيون قرباناً على شرف النصر على عدوهم اللدود، وأقاموا وليمة عظيمة في معبـد إلههم داجـون، وكـان المعبد عبارة عن بناء عال يستند على أعمدة قوية. فسحته الـداخليـة محـاطة بأعمدة وفواصل في الطابق الأول وشرفات في الطابق الثاني. تجمع فيه بشر كثيرون يفرحون ويمرحون. ولم يكتف الفلسطينيون بالحفلات والموائد وشرب الخمر بل واتبعوه بالجعة ايضاً.

كان كل شيء في هرج ومرج. الضجيج يتعالى وينمو وبصعوبة بالغة يستطيع العبيد إمـلاء الكؤوس في الـوقت المنـاسب. طالب الضيـوف السكـارى بأن يمتعهم شمشـون بموسيقاه ، فاحضروه من السجن وأعطوه قيثارة سباعية الوتر. وقف الجبار الأعمى في المعبد بين عمودين، تصور ذل وقفته ، واسترجع شريط حياته ، وراح يعزف لحناً كانت تغنيه له أمه يومـاً. لكن لم يستمـع أحـد لمـوسيقـاه لقـد احضروه ليستمتعوا بإذلاله والانتقام من جميع لحظات الخوف والمشكلات التي سببها لهم.

تحمل شمشون المصفر الوجه. الفاغر العينين الاستهزاء والشتائم بصبر، وبدا وكأنه فقـد كل شيء وانهـار نفسيـاً. لم يعـرف أحد ماذا كان يشغل فكره في تلك اللحظات ، ولم يلاحظ أحد أن شعره قد طال من جديد، شعره مصدر قوته العظيمة.

حرك شفتيه داعياً إلهه بهمس «ياسيدي الرب اذكرني وشددني يا الله، هذه المرة فقط. فانتقم نقمة واحدة عن عيني من الفلسطينيين»، ثم قال للغلام الممسك بيده «دعني المس الأعمدة التي البيت قائم عليها». نفذ له الغلام طلبه، فامسك عندها شمشون بالعمودين وصاح «لتمت نفسي مع الفلسطينيين»، وحدث هدوء فجائي في معبد داجون. هب الناس من أماكنهم، ونظروا إلى الأعمى بخوف. في تلك اللحظة جمع شمشون كل قوته، واقتلع العمودين من مكانهما فانهار المعبد دافناً تحت أنقاضه الجبار وثلاثة آلاف فلسطيني. وانتشل بنو يهوذا من تحت الأنقاض جسد بطلهم الذي فضل الموت على الذل. ودفنوا شمشون في مقبرة أبيه منوح. وصاروا يتذكرون بفخر واعتزاز قصة حياته.

كيف سرق أناس من قبيلة دان صنم يهوه

عاشت على جبل أفرايم أرملة معها ألف ومائة شاقل فضة هي كل ماجمعته في حياتها، فحزنت وامتعضت حين وجدت سفطها فارغاً لافضة فيه، فقد سرق لص مجهول الأرملة. وفي لحظة يأس دعت يهوه أن يلعن اللص ويعاقبه بالموت. فخاف ابن الأرملة ميخا وأعاد المسروقات لوالدته، فسحبت الأم فوراً لعنتها وسامحت ابنها، أما ميخا ذاك فقد نقض تعاليم يشوع بن نون، وأقام في بيته معبداً ليهوه وعين ابنه كاهناً فيه، لكن ميخا لم يحصل بواسطة المعبد على ما كان يتوقعه. فالسكان المحليون لم يعترفوا بالكاهن الذي لا يمت بصلة إلى اللاويين.

وفي أحد الأيام جاء إلى بيت ميخا رجل من اللاويين وطلب لنفسه ملجأ. وكان ذلك الرجل من بيت لحم يهوذا من عشيرة يهوذا يطوف في الأرض بحثاً عن عمل، فاقترح عليه ميخا منصب الكاهن في معبده ووعده بالطعام والثياب وعشرة شواقل فضة في السنة.

كان أبناء قبيلة دان التي تسكن جنوب كنعان يعانون آنذاك من صعوبات كثيرة. فقد استوطن بالقرب منهم فلسطينيون وبدؤ وا يستعدون لمهاجمتهم. فقرر أبناء دان الانتقال إلى منطقة أخرى من كنعان، لهذا الغرض أرسلوا خمسة أشخاص إلى الشمال وكلفوهم بالبحث عن مكان مناسب للسكن. عرج الرسل في طريقهم إلى بيت ميخا. تفرجوا بدهشة على بيت الرب وتحدثوا مع الكاهن بالتفصيل. لقد أعجبوا بما سمعوه ورأوه. فكم هو مريح ومفيد أن يكون عندهم مركز ديني لايخضع لشيلوه البعيدة. لكن رسل الجنوب لم يكشفوا

سرهم وتابعوا طريقهم. لم يتوقفوا بعد ذلك إلا في لايش المدينة الواقعة عند حدود كنعان الشمالية، ووجدوا أن الأرض هناك خصبة والشعب لايتصف بالشراسة.

لم يمض وقت طويل حتى اتجه ستمائة مقاتل من قبيلة دان مع أسرهم وأملاكهم نحو لايش لاحتلالها. في الطريق توقفوا على جبل أفرايم، وتحت جنح الظلام تسللوا إلى معبد ميخا، ليسرقوا صنم يهوه والأشياء الأخرى الخاصة بالديانة. فضبطهم الكاهن اللاوي بالجرم المشهود. لكنه رأى عندهم فرصة أفضل للحياة الرغيدة، فجمع حاجاته ورحل معهم.

اكتشف ميخا السرقة في الصباح، فجمع خدمه وسار ليطارد اللصوص، ولما شاهدهم من بعد، ناداهم أن يتوقفوا فوراً لكنه سرعان مافهم أنه من الأجدى له عدم الاصطدام بعصابة اللصوص تلك. لذلك عاد أدراجه إلى البيت. احتل أبناء دان لايش، ودمروها بسهولة، وقتلوا سكانها، وبنوا على أنقاضها عاصمة لهم سموها دان وذاعت شهرة معبدهم ذي الصنم الفضي الذي. بنوه هناك في كل أنحاء كنعان على الرغم من أنه كان غير قانوني وعلى الرغم من اعتراض كهنة شيلوه عليه، وذلك لأن في كل إسرائيل لم يكن قائد وزعيم كيشوع بن نون قادر على إعادة توحيد الشعب المتفرق.

جريمة بني بنيامين

عاش عند جبل أفرايم لاوي متزوج من امرأة من بيت لحم يهوذا، ولم يكونا على وفاق فملت زوجته من النزاعات المستمرة، وتركت بيت زوجها وعادت إلى بيت أبيها في بيت لحم، وبعد أربعة أشهر من الوحدة، ملّ الزوج حياته تلك، وقرر مصالحة زوجته فحمل حمارين علفاً وخبزاً وخمراً وتحرك يرافقه خدمه، واستقبل الحمو صهره برحابة صدر واستضافه عدة أيام بكل طيبة قلب. وصدقت زوجة اللاوي توبة زوجها وتعجل الزوجان المتصالحان العودة إلى بيت الزوجية إلى جبل أفرايم. فأدركهما المساء عند أسوار أورشليم ونصحها الخدم بقضاء الليلة في المدينة. لكن اليبوسيين كانوا في المدينة. لذلك أجاب اللاوي: «لانميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا. نعبر إلى جبعة».

كانت جبعة مدينة صاخبة في أرض بني بنيامين، لم يجد المسافرون مأوى لهم. فقرروا قضاء الليل في الطريق. ولم يعرهم أحد من المارة أي انتباه ولم يعرض عليهم أحد

ضيافته. مر أمامهم رجل عجوز وهو عائد من حقله، توقف قريباً منهم ودعاهم إلى بيته. كان ذلك العجوز من قبيلة أفرايم من بنيامين لكنه يعيش في جبعة ولديه قطعة أرض يعمل بها.

أخذهم العجوز إلى بيته، أطعم حميرهم ودعاهم لتناول العشاء. في تلك اللحظة هاجمت البيت ثلة من رعاع المدينة وراحوا يضربون الباب بأيديهم مطالبين بتسليم الغرباء «أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه». صاح الرجال مهددين خرج صاحب البيت إلى الرعاع يستدر عطفهم «لا يا أخوتي لاتفعلوا شراً بعدما دخل هذا الرجل بيتي، لاتفعلوا هذه القباحة هوذا ابنتي العذراء وسُرّيته دعوني أخرجهما فأذلوهما وأفعلوا بهما مايحسن في أعنيكم، وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح».

في نهاية المطاف أخذ الرعاع امرأة اللاوي، فعرفوها وتعللوا بها الليل كله. وعند الفجر جرت المرأة جسدها إلى البيت وماتت على عتبته. فوضعها العجوز على حمار وغادر المدينة. ولما وصل إلى البيت أخذ سكيناً وقطع جسد امرأته إلى اثنتي عشرة قطعة، وأرسلها إلى تخوم إسرائيل لتكون دليلاً وبرهاناً على جريمة سكان جبعة الفظيعة النكراء.

اجتمع الإسرائيليون في المصفاة للتباحث في شكوى اللاوي، وأرسلوا رسلاً إلى جبعة ليطالبوا أهلها بتسليم المجرمين. لكن بني بنيامين رفض طلب إسرائيل بكل استكبار وتعال. فأعلنت الحرب وسارت القوات الإسرائيلية المتحدة نحو أسوار جبعة حيث جمعت القبيلة العاصية قواتها.

طالت الحرب كثيراً واتصفت بعنف غير معهود وكثر سفك الدماء. فشلت حملتان إسرائيليتان فشلاً ذريعاً فارتدتا، وتركتا وراءهما آلاف القتلى. ولم يكتب النجاح إلا للحملة الهجومية الثالثة، ويعود نجاحها إلى فكرة الكمين الذكية الذي اتبعه إسرائيل. فقام الجيش الإسرائيلي الهائج من المقاومة العنيدة التي واجهها ومن الخسائر الكبيرة التي تحملها، قام ذلك الجيش بمجزرة دموية فظيعة في جبعة. لم يرحم الإسرائيليون أحداً. لا أطفال ولا نساء ولا رجال، هُدمت المدينة، أحرقت البيوت وقتل القطيع. لكن فصيلاً من البنيامنيين مكوناً من ستمائة مقاتل استطاع الهرب إلى البرية، والتجأ إلى صخرة رمون، حيث دافع عن نفسه بنجاح خلال أربعة أشهر. حصل في نهايتها على العفو والصفح.

أقسم الإسرائيليون قبل الهجوم على جبعة، إلا يزوجوا بناتهم أبداً من المجرمين، لكن لما قُتلت كل نساء سبط بنيامين، وقُتل كل أطفال ذلك السبط فإن هذا القسم يضع بني بنيامين على حافة الفناء لأنه من المحظور على الستمائة مقاتل الذين نجوا من الموت

الزواج وتكوين أسر. لذلك اجتمع شيوخ إسرائيل في شيلوه في بيت الرب، وصاروا ينوحون ويتأوهون: «لماذا يارب إله إسرائيل أحدثت هذه في إسرائيل حتى يُفقد اليوم من إسرائيل سبط». لكنهم أخيراً وجدوا مخرجاً من المعضلة. فقد تبين أن مدينة يابيش جلعاد لم تشارك في الحرب. وبالتالي من الواجب عقابها على ذلك. لهذا الغرض شن عشرون ألف مقاتل هجوماً كاسحاً عليها وقتلوا رجالها كلهم، كما قتلوا جميع النساء الثيبات، وتركوا العذارى فقط لكي يزوجوهن من أبناء بنيامين، لكن مجموع ماوجد من العذارى كان أربعمائة، أي أن مائتي رجل من أبناء بنيامين سيبقون بلا زوجات، ووجد شيوخ إسرائيل مخرجاً آخر، نصحوا أبناء بنيامين بالاختباء في كروم العنب قرب شيلوه، حيث سيحتفل الإسرائيليون بعيد الرب، ففي ذلك العيد تخرج البنات الإسرائيليات، حسب العادات القديمة إلى الحقول، يشكلن مجموعات للغناء ويغنين على شرف يهوه. وعندما تنغمس الفتيات بالغناء والرقص يخرج أبناء بنيامين من مخابئهم ويخطفون أجمل البنات. ثم يأخذوهن نساء لهم ويعودون لإعمار مدنهم وقراهم. بهذه الطريقة نجا بنو بنيامين من الفناء المحتوم.

راعوث المخلصة صاحبة القلب الحنون

حدث في أيام حكم القضاة، أنه صار جوع في الأرض، فذهب رجل من بيت لحم يهوذا اسمه أليمالك مع امرأته نعمي وولديه محلون وكليون، باتجاه الأردن بحثاً عن الطعام والعيش، واستقر بهم الأمر في مؤاب، وهناك تزوج الولدان امرأتين مؤابيتين، إحداهن عرفه والأخرى راعوث. لكن القدر لم يمهل عائلة أليمالك، فقد توفي الرجال الثلاثة تاركين وراءهم ثلاث أرامل ليس لهن مصدر عيش. وصار ان حنت نعمي لبيت لحم حيث ولدت وقضت أجمل أعوام حياتها. وازداد حنينها بعد أن سمعت من الناس أن الحياة في بيت لحم عادت إلى مجراها الطبيعي. فقررت نعمي الرجوع إلى وطنها الأم. جمعت مالديها وسارت نحو يهوذا ترافقها كنتاها. لكن ضميرها أنبها لأخذها الامرأتين الشابتين معها إلى يهوذا حيث لايعرف أحد المصير الذي ستلاقيانه، وقررت إبقاءهما في مؤاب. فهنا تستطيعان الزواج مرة ثانية، لكن لم توافق على فكرة العودة إلى مؤاب إلا عرفه. أما راعوث فقالت باكية: «لاتلحي علي أن أتركك وأرجع عنك لأنه حيثما ذهبت أذهب، وحيثما بتِّ

أبيت، شعبك شعبي وإلهك إلهي، حيثما متِّ أموت وهناك أدفن، هكذا يفعل الرب بي وهكذا يريد. إنَّ الموت وحده بيني وبينك».

وصلت نعمي وراعوث، بيت لحم أيام الحصاد. والناس يجمعون الشعير في ضواحي بيت لحم. ولم يكن لديهن طعام، فصارت راعوث تجمع السنابل المتروكة في الحقل من طلوع الفجر وحتى مغيب الشمس تسير حانية ظهرها وراء الحصادين كيلا تترك سنبلة واحدة دون أن تجمعها ثم تعود في المساء إلى حماتها وتجهز عشاء متواضعاً مما جمعته من الشعير.

في أحد الأيام وبينما كانت راعوث تجمع السنابل، جاء من بيت لحم بوعز وهو صاحب الحقل وقريب زوج نعمي. فلما رأى راعوث سأل غلامه «لمن هذه الفتاة؟» أجابه الغلام: «هي فتاة مؤابية قد رجعت مع نعمي من بلاد مؤاب». كان بوعز رجلاً رحيماً، فتأثر كثيراً بحب المرأة الغريبة للعمل، ولم يكتف بالسماح لها بجمع السنابل بل صار يدعوها لتناول الغداء كل يوم مع خدمه. وبالسر طلب من حصاديه أن يتركوا عمداً كمية أكبر من السنابل في الحقل. «كيف وجدت نعمة في عينيك حتى تنظر إليّ وأنا غريبة؟». سألته راعوث. أجابها بوعز: «إنني قد أخبرت بكل مافعلت بحماتك بعد موت رجلك حتى أنك تركت أباك وأمك وأرض مولدك، وسرت الى شعب لم تعرفيه من قبل». ابتهجت راعوث لكلام بوعز، وأسرعت إلى حماتها حاملة نحواً من إيفة شعير ونصف، غذاء، تركته خصيصاً لها. عندها أخبرت راعوث بأن بوعز قريب لزوجها أليمالك.

بعد ذلك بمدة قالت نعمي لكنتها: «يابنتي ألا ألتمس لك راحة ليكون لك خير؟».

جرت العادة في كنعان أن تذرى بيادر الشعير ليلاً، لأنه في الليل تهب ريح تفصل الحب من السنابل، وقد علمت نعمي أن بوعز سيذري بيدره في الليلة القادمة، وأنه سينام هناك، عند العَرَمة. لذلك وضعت خطة حاذقة. فبناء على نصيحتها اغتسلت راعوث، ورشت العطر على جسدها، وارتدت ملابس جميلة ثم اتجهت إلى الحقل حيث ينام بوعز مغطى بردائه. اقتربت منه راعوث بهدوء رفعت طرف ردائه واستلقت عند رجليه. في منتصف الليل استيقظ بوعز ورأى المرأة مستلقية عند رجليه. خاف قليلاً، لأنه لم يعرفها بسبب الظلام «من أنت؟» سألها بوعز، «أنا راعوث أَمَتَك ـ أجابته المرأة بصوت يرتجف ـ فابسط ذيل ثوبك على أمتك لأنك وليي».

فهم بوعز مباشرة ماتقصد اليه المرأة الشابة، فقانونهم القديم يوجب عليه الزواج من

أرملة قريبة إذا لم يكن لديها أولاد. وراعوث ليس لها أولاد وهي أرملة قريبه وهي امرأة جميلة ولطيفة ومحبة للعمل، لذلك رغب بالزواج منها وقطع على نفسه وعداً بذلك. فيما لو امتنع القريب الآخر لراعوث (الذي تربطه بها صلة قربى أكبر) من الزواج منها، إذن يجب في البداية سؤ ال ذلك الذي تربطه صلة قربى براعوث أكبر من صلة بوعز فيما إذا كان يود استخدام حقه والزواج منها، لهذا الغرض دعا بوعز عشرة شيوخ ليشهدوا، وجلس معهم عند بوابة المدينة، فقريب راعوث الأقرب فلاح يخرج من المدينة يومياً للعمل في حقله. وعندما عبر من أمامهم أوقفه بوعز وأجلسه بقربه وأبلغه بحضرة الشهود أن نعمي قد رجعت إلى المدينة. وأنها تريد أن تبيع الحقل الذي ورثته عن زوجها وبما أنه الوصي الأقرب فإن له الحق في شراء الحقل. انفتحت شهية الفلاح للحقل فأجاب على الفور «إني أفك» أي أشتري، فأجابه بوعز «يوم تشتري الحقل من يد نعمي تشتري أيضاً من يدها راعوث المؤ ابية امرأة الميت لتقيم اسم الميت على ميراثه». أكفهر وجه الوصي الأقرب، فهو يرغب بشراء الأرض لكن ليس بهذا السعر فعنده من غير المؤ ابية أسرة كبيرة ولم يعد أمامه إلا الامتناع عن شراء الحقل، وإعطاء الحق في ذلك لبوعز.

وبما أن العادة في إسرائيل اقتضت، في مثل تلك الحالة، أن يخلع المستنكف عن حقه نعله، ويعطيه للمستنكف لصالحه. فقد خلع الفلاح نعله وأعطاه لبوعز. وماكان للاستنكاف أن يصبح قانونياً، إلا بمثل تلك الطريقة الرمزية، لذلك انتظر بوعز الفلاح لكي يأخذ منه نعله ويريه للشيوخ ليشهدوا، ولما تمت العملية قال بوعز للشيوخ ولجميع الشعب: «أنتم شهود اليوم أني قد اشتريت كل ما لأليمالك، وكل مالكليون ومحلون من يد نعمي. وكذلك راعوث المؤ ابية امرأة محلون. قد اشتريتها لي امرأة لأقيم اسم الميت على ميراثه». فأجابه الشيوخ وجميع الشعب: «نحن شهود فليجعل الرب المرأة الداخلة إلى بيتك كراحيل وكليئة، اللتين بنتا بيت إسرائيل، فاصنع ببأس في أفراته وكن ذا اسم في بيت لحم». وبعد الانتهاء من تلك الطقوس، صار بوعز زوجاً لراعوث وصاحباً لورثة أليمالك.

أسكن الزوجان نعمي في البيت وعاشوا جميعاً حياة رغيدة، وولدت راعوث ولداً سموه عوبيد، قدر له أن يحظى بأعظم شهرة ومجد. لأنه كان جد الملك داود أكبر بطل عند الشعب الإسرائيلي.

زمن النضال والبطولة

هل يعتبر سفر العهد القديم السادس حقيقة، كما اعتبر لقرون عديدة، عند التوراتيين مذكرات أو كتابات خطها يشوع بن نون بيده؟ هل يمكن اعتباره مصدراً تاريخياً وثيقاً؟ إن العلم يجيب على كلي السؤالين بالنفي القاطع. فبفضل التحليل اللغوي لنص السفر السادس، تبين بشكل لا شك فيه أن سفر يشوع بن نون ليس إلا خليطاً لمجموعة من الوثائق التاريخية التي تعود إلى حقب مختلفة، وتعكس مصالح طبقات اجتماعية مختلفة ايضاً. أضف إلى ذلك أن تلك الوثائق تعرضت مع الأيام للعديد من التصحيح والإضافة. وبشكل عام يمكن القول إن وثيقتين رئيسيتين في سفر يشوع، يمكن أن تمثلا ماذهبنا إليه، وتقرير عن احتلال أو إخضاع أرض كنعان موضوع في بداية القرن التاسع ق. م، ووصف لعملية تقسيم تلك الأرض بعد احتلالها واخضاعها وضع من قبل الملك سليمان. إذن وباختصار ظهر سفر يشوع بعد عدة مئات من السنين من موته.

إننا نستعمل كلمة خليط عن سابق تصميم، ذلك لأن واضعي التوراة لم يُخضعوا الوثائق التي حصلوا عليها للنقد ولم يستخدموها لإظهار الحقيقة، ولم يحاولوا إيجاد القاسم المشترك المنطقي بينها، ولهذا فإننا نجد التوراة تزخر بالتكرار وبعدم التسلسل المنطقي في طريقة سردها للحوادث.

وبما أننا لانستطيع لأسباب كثيرة أن نتحدث عن كل شيء فإننا سنكتفي بإيراد ألمع وأنصع الأمثلة: ويستطيع القارىء المتمعن للتوراة المهتم بهذا الموضوع أن يتأكد دون أدنى صعوبة من كثرة المتاهات والأخطاء فيها. فهذه المتاهات والأخطاء تظهر للعين المجردة ومن أقل قراءة.

نحن نعرف مثلاً أن الإسرائيليين بعد انتصارهم الكبير على حلف جنوب كنعان، دمروا أورشليم، وقتلوا سكانها كلهم، بينما نجد في نفس الوقت وفي الأصحاح التالي أن واضعي التوراة يحدثوننا بكل هدوء بأن أورشليم لم تحتل وأن اليبوسيين سكنوها في أيامهم. والدليل على ذلك قصة اللاوي التوراتي الذي طالما تخاصم وتصالح مع زوجته فبعد إحدى المصالحات عاد وزوجته إلى بيتهما، فأدركهما المساء تحت أسوار أورشليم، فاقترح خادمها قضاء الليلة هناك. لكن اللاوي رد عليه بالكلمات التالية: «لانميل إلى

مدينـة غريبـة ليس أحـد من بني إسرائيـل هنا» . . يجب التذكر هنا أن هذه القصة التوراتية ظهـرت إلى الـوجود بعد بضع سنين، وربما بضع عشرات من السنين، بعد موت يشوع بن نون الذي يزعم أنه فاتح أورشليم . كثيرة هي المتاهات أيضاً في الحديث عن مدينة شكيم، فبحسب النص التـوراتي : جمـع يشـوع هنـاك كل إسـرائيـل وطلب منهم الإخلاص ليهوه وللعهـد المعقـود معـه . كلنـا نعـرف اليوم أن شكيم ظلت لوقت طويل بعد يشوع في أيدي الكنعـانيين . لقـد حاول بعض العـارفين للتوراة شرح الأمر هذا على طريقتهم الخاصة، إذ قالوا : أن الاجتماع الوارد ذكره في التوراة إن لم يتم في المدينة نفسها ربما تم في ضواحيها حيث استوطن الإسرائيليون حسب زعمهم، وهذه فرضية تخلو نهائياً من عامل الإقناع . وأن ماحصل وبكل بساطة هو أن مؤلفي النص التوراتي عكسوا الواقع الماضي للمدينة حسبما كانت عليه في زمنهم . فشكيم في زمنهم كانت مدينة محتلة من قبل الإسرائيليين، إذن من السهل التصور أنها كانت كذلك في عهد يشوع بن نون .

وبطبيعـة الحـال كانت تلك خطـوة أولى للوصول إلى الأسطورة التي تزعم أن شكيم تحـديـداً كانت مكـانـاً للاجتمـاع التـاريخي، فهي مدينـة إبـراهيم المـدينة المقدسة عند العبـرانيين القـدامى، ويـربطهم بشكيم آخـر خطـاب ليشوع (التأكيد الاحتفالي للميثاق أو الاتحـاد السينـائي) أعطى مؤلفـو التـوراة ذلـك الميثـاق أهمية دينية ورمزية كبيرة، وأوجدوا لدرجة ماصلة ارتباط مع القصص القديمة من عهد البطاركة .

إننـا نجـد متنـاقضات كثيرة وواضحة للعيان في الاصحاحات التوراتية التي تتحدث عن المدن الكنعانية التي فتحها الإسرائيليون، فأدوني صادق ملك أورشليم يقتل أولاً، بناء على أوامـر يشـوع بن نون ثم يقتـل ثانيـة عندما يأسره سبط يهوذا . لكن الحقيقة، وللحقيقة فقـط، نقـول إنـه يسمى في الحالة الأولى أدوني صادق (سفر يشوع اصحاح ١٠ ـ آية ١٥) وفي الثـانيـة بـ أدوني بازق (سفـر القضـاة ؛ اصحـاح ١، آيـة ٧) . والـواقع أن الحديث في الحالتين يدور حول الشخص نفسه .

في الاصحـــاح الأول من سفـــر القضـــاة، تحتــل قبيلة يهـوذا أيضـاً غزة وعسقلون وعقرون . هذا بالرغم من أن المدن المذكورة تقع في الوادي الساحلي، وأن مؤلفي النص التوراتي يخبروننا في الآية اللاحقة، أن سبط يهوذا أخضع لسيطرته الجبل، ولم يستطع طرد سكان الوادي لأن عندهم عربات قتال من حديد (سفر القضاة اصحاح ١، آية ١٩) . و«هم» هذه، تعـود للفلسطينيين الـذي لم يقهـروا فقـط بل قهروا هم أنفسهم الإسرائيليين لاحقاً ؛

وبعد أن نضيع في هذه التناقضات ونتساءل: أي مدن احتلها يشوع بن نون؟ أي مدن احتلها خلفاؤه؟ وأي مدن احتلها الإسرائيليون فعلاً؟

وإذا ما أضفنا إلى كل شكوكنا التذكير بأن أريحا وعاي قد دمرتا وصارتا رماداً قبل وقت طويل من التدخل الإسرائيلي في كنعان، وأن شخصية يشوع بن نون غامضة ومشكوك فيها. فإننا نتأكد من أن السفر السادس من التوراة لايمكن أن يعتبر أبداً مصدراً تاريخياً موثوقاً.

لم تكن الحقيقة التاريخية هامة بالنسبة لمؤلفي التوراة، كما أسلفنا، ولم يكترثوا أبداً بالترتيب الزمني للأحداث انهم سعوا إلى غاية واحدة فقط هي الإيحاء بأمثلة مختارة بأن احتلال كنعان ليس إلا وفاء لوعد يهوه، وبالتالي فهو حادثة تحمل مغزى دينياً محضاً. ولتحقيق هدفهم تصرفوا بلا رادع أو حساب بالوثائق التاريخية فأحاطوا بعضها بصمت مطبق، وطوعوا البعض الآخر، وصاغوه بما يخدم مصالحهم. فخرج بالنتيجة السفر السادس مجمعاً لقصص وأساطير تحمل صبغة دينية ـ أخلاقية تُعلم تلك القصص أن الإسرائيليين مدينون ليهوه بكل شيء، يهوه الذي تابع الحملات وسيرها الاحتلالي ونصر الإسرائيليين عند الحاجة بواسطة معجزاته. فقائد التدخل الإسرائيلي في كنعان يشوع بن نون انتصر لأنه كان تابعاً ومخلصاً لليهوهية، ولذلك السبب فقد انتصر. وفي نهاية حياته أوثق العهد السينائي ومات في هالة من القدسية كمعلم حكيم ومناضل عنيد لنشر تعاليم موسى.

وبما إن مؤلفي نصوص التوراة، اتخذوا مثل هذا التأويل التاريخي، أساساً ومنطلقاً لهم. فإنه صار من الطبيعي أن يصوروا احتلال كنعان كواقعة منتهية وكاملة. فحسب نظريتهم يكون الكنعانيون إما قتلوا وإما أُخضعوا، وهذا يعني الانتصار الساحق والتام للشعب المختار، الانتصار الذي لايعرف حلولاً وسطى ولايعرف رأفة أو رحمة للخاسر. فيهوه المتحلي بمعالم وملامح إله الحرب القاسي الذي لايرحم، يأمر أتباعه ألا يرأفوا بالأطفال ولا بالنساء ولا حتى بالحيوانات. فحسب القسم الحربي الذي بين تعاليم وقوانين سفر التثنية. لم يترك الإسرائيليون حجراً على حجر في المدن التي احتلوها حتى الغنائم النفيسة كان مصيرها الحرق بالنار، وإذا ما سولت نفس أحد الإسرائيليين له (كما مر معنا سابقاً) بمخالفة القانون الإلهي وأخذ جزء من الغنيمة، فإن مصير ذلك الشخص الحرق ايضاً.

يجب أن ننتبه هنـا إلى أنـه لايمكن تقـويم الحـوادث التـوراتية من منطلق المفاهيم الأخـلاقيـة الحـاليـة، فالحقبـة التي يدور الحـديث عنهـا كانت حقبـة بربرية، والعادة الحربية التي انتشـرت آنـذاك سمحت بقتـل الأسـرى وسكان القلاع المحتلة وتشويه أوقتل الملوك وبـاتبـاع أسـاليب المكـر والخـداع والخيانة. من هذا المنطلق كان الإسرائيليون أبناء بررة أوفيـاء لحقبتهم الـزمنيـة، ولم يختلفـوا عن بقيـة شعـوب العالم القديم فقد عرف الحروب الشاملة كل من البابليين والمصريين والآشوريين والاغريق كما يتضح من هوميروس.

هذا وسنتأكـد فيمـا بعـد من أن كتبة التوراة كانوا يضخمون قساوة الإسرائيليين وذلك بسبب تعصبهم الديني المتطرف جداً. فنحن نعرف من التوراة نفسها أن يشوع بن نون عقد اتفاقاً مع سكان جبعون، وفي سفر القضاة أن المنطقة ظلت كسابق عهدها تعج بالسكان الكنعانيين.

هنـا يتبـادر للذهن سؤال: هل صحيـح أن رجـلاً واحـداً اسمـه يشوع بن نون احتل واخضع كنعان؟

بمـا إن سفـر القضـاة يعتبـر في الـواقـع تاريخـاً لنضـال الإسـرائيليين التحرري ضد الكنعانيين الذين سيطروا عليهم بين الفينة والأخرى، فإن الجواب على هذا السؤال يجب ان يكون سلبياً.

في هذه الحالة. ماالشيء الذي حققه يشوع؟ لقد حلت الاكتشافات هذه المشكلة في بدايـة القـرن الحـالي. وكـان أول اكتشـاف أحدث ثورة هو اكتشاف أوان مصرية سجل عليهـا الفـراعنـة أسمـاء المـدن الفلسطينية المعادية لهم، أو العاصية أوامرهم. كانت تلك الأواني تكسـر خلال الاحتفـالات الـدينيـة. ولم يكن ذلـك العمل بالنسبة للمصريين رمزياً فقـط. فقـد كان المصـريون يعتقدون فعلاً أن إبادة وتدمير أسماء الشعوب والمدن أو اسماء أشخـاص محـددين يتبعه، لامحالة الفناء الحقيقي لصاحب الاسم والتسمية، لكن المهم عنـد الأثـريين كان تمكنهم من قراءة تسميـات مجمـوعـة من المدن الكنعانية المذكورة في التوراة. وصار هذا دليلاً عندهم على أن التوراة عكست وقائع تاريخية.

قامت بعثـات أثـرية بعد ذلك بالبحث عن واقع المدن الكنعانية المذكورة، فاكتشف الأميركيون أنقاض مدينة بيت إيل الواقعة على مسافة كيلو متر ونصف الكيلو متر من عاي. وبعد أن عبروا بضع طبقات وتوضعات، وصلوا إلى الأنقاض التي تعود بلا شك إلى القرن الثاني عشر ق.م، فوجدوا هناك آثار حريق هائل إذ كان ارتفاع الرماد في أنقاض البيوت يبلغ

المتر، وتماثيل الآلهة المحطمة تدل على أن مسببي الدمار كانوا غرباء، وبينت الحفريات الأكثر عمقاً أن بيت ايل أسست في العصر البرونزي القديم تقريباً، في الوقت الذي دمرت فيه عاي ويفترض الباحثون التوراتيون أن كتبة التوراة خلطوا بين مدينة عاي ومدينة بيت إيل، فمدينة عاي كانت أنقاضاً قبل يشوع بن نون بعدة قرون ولم يعد بناؤ ها من جديد أبداً والإسرائيليون بنوا بيوتهم فوق أنقاض مدينة بيت إيل.

وفي تلك الظروف التي ألمحنا عليها كان سهلاً الافتراض أن أنقاض عاي ليس إلا أثراً لحملة يشوع وعدا ذلك، فقد اكتشفوا أنقاض لاخيش وإيلون وداغير وحبرون وغيرها. وفي كل تلك الأنقاض الواقعة في الطبقة التي تعود إلى القرن الثاني عشر ق.م، ظهرت آثار واضحة للحرق والدمار، وفي عام ١٩٥٦ م، اكتشفت حملة جامعة أورشليم الأثرية، أنقاض مدينة آشور عاصمة الملك يابين التعيس كانت القلعة تقع الى الشمال من بحيرة الجليل وعدد سكانها حوالي الاربعين الف نسمة، وقد أثبتت الحفريات أن الهكسوس شغلوا المدينة في القرن السابع عشر ق.م، وتدل الارض المدحولة وبقايا الاصطبلات على أن حامية كبيرة باحصنة وعربات، كانت توجد في المدينة.

المهم بالنسبة لنا أن آشور أيضاً تعرضت لحريق كبير في القرن الثاني عشر ق.م، أما في جبعون فلم تظهر آثار حريق أو دمار مما يؤكد صدق القصة التوراتية. فجبعون استسلمت ناجية بذلك من الدمار. وبشيء من التفصيل الممتع نقول ان الحفريات أكدت صدق التوراة في شيء آخر أيضاً، ونحن نقرأ في سفر يشوع (اصحاح ١٠ ـ آية ٢) «... جبعون مدينة عظيمة كإحدى المدن الملكية..». اكتشفت أنقاض جبعون في قرية الجيب الأردنية على مسافة حوالي ثمانية كيلومترات شمال غرب أورشليم. وقد تبين أنها كانت تحتوي على شوارع عديدة وساحات ومعابد وأبنية عامة، ويظهر من غناها وغنى أهلها الكثير من الأشياء البرونزية التي وجدت في المقابر وأنقاض والمنازل وقد أثبت أيضاً أن سكانها كانوا يمارسون التجارة الدولية، فعدا عن الأباريق والكؤوس والصحون والسكاكين والقلادات والخواتم، وُجدت هناك مجموعة كبيرة جداً من الأواني القبرصية والسورية، فبماذا كان يتاجر سكان جبعون؟ تدل الصهاريج الطبيعية المكتشفة هناك على أنهم كانوا يصنعون الخمر ويتاجرون به. وقد وجدت أباريق خمر، محفور عليها كلمة (جبعون)، كانوا يرسلون منها الخمر إلى الشاربين الأجانب.

لقد صار واضحاً لدينا سبب قيام جبعون بالاستسلام المشين لشرف أهلها، فقد كانوا

تجاراً والتجارة بالنسبة لهم أقرب من الأعمال الحربية وأكثر أهمية ، وعلى مايبدو فهم حصلوا على مبتغاهم فحموا تجارتهم مع أن ذلك تم على حساب استقلالهم السياسي . وتدل أسوار القلعة ذات الحالة شبه السليمة ، وكذلك التماثيل العديدة على أن جبعون أنقذت من المصير الذي لاقته الكثير من المدن الكنعانية وأنها ظلت تزدهر تحت الحماية الإسرائيلية .

بما اننا نتحدث عن علم الآثار فقد يستحق الذكر أمر آخر: فنحن نعرف من التوراة أن يشوع بن نون دُفن في تمنة سارح التي في جبل أفرايم ، وتضيف سبتواجينتا (الترجمة الاغريقية للعهد القديم) تفصيلاً ممتعاً للنص ، هو: ووضعوا في قبره السكاكين الحجرية التي خُتن بها الإسرائيليون في جلجال . ففي عام ١٨٧٠ م تم العثور على المدافن في إحدى المغاور الواقعة في المنطقة نفسها ، وعثر في تلك المدافن على كمية هائلة من السكاكين الحجرية ، إننا سنتعرض للخطأ إذا استعجلنا النتائج بناء على تلك المكتشفات ، وقلنا إن تلك المقبرة هي مدفن يشوع بن نون . لكن لايمكن نفي أن يكون لنظرية التوراة عن الختان مصدر في الطقوس الدينية القديمة التي كانت تمارسها القبائل الكنعانية المستوطنة هناك . فعادة الختان كانت معروفة عند شعوب قديمة مختلفة لاقاسم مشترك بينها . بهذا الشكل يمكن الافتراض بأن الإسرائيليين الذين نسوا خلال أربعين عاماً من التيه في الصحراء عادة الختان ، رجعوا إليها تحت تأثير قبيلة كنعانية كانت تقطن تمنة سارح .

لكن كيف سارت حملة يشوع بن نون إذا افترضنا وجود قائد حملة إسرائيلي بهذا الاسم؟ فلنحاول مد خط على الخريطة بين المدن التي أثبت أنها أُحرقت في القرن الثاني عشر ق . م ، فنحصل بذلك على خط سير حملته . إن هذا يثبت وقبل كل شيء أنه خلافاً لما يؤكده مؤلفو التوراة لم يخضع يشوع بن نون (الشَرْطي) كل كنعان ،لقد سار متبعاً خط المقاومة الضعيف ، كما يعتبر فرنر كبلر مؤلف كتاب [ومع هذا فالكتاب المقدس محق] لقد دار حول القلاع الحصينة وتجاوزها ، واحتل بشكل رئيسي المناطق الجبلية القليلة السكان كضفتي الأردن الصخريتين مثلاً .

ولم يتجرأ على مهاجمة السهول الخصبة التي بقيت لمدة قرنين تقريباً بعد وفاته بأيدي الكنعانين وبين جبال يهوذا أو جبال أفرايم ، تابعت أورشليم القلعة اليبوسية حياتها ، ووقعت المدن الساحلية غنيمة في أيدي الفلسطينيين . وإلى الشمال حافظ حلف المدن الجبعونية على استقلاله . وكانت القبائل الإسرائيلية التي استوطنت المناطق الشمالية معزولة عن أخواتها ، التي استوطنت الجنوب بسلسلة من القلاع الكنعانية . باختصار كانت

السهـول تسيطـر على الجبـال. ويعـود السبب في ذلـك لأفضلية التسليح عند الكنعانيين. فعنـدهم الكثيـر من عربـات القتـال، تجـرها خيول أصيلة تصول وتجول في أرض المعركة وهي خطرة جداً على الإسرائيليين.

إذن فقـد كانت حملة يشـوع بن نون عبـارة عن تغلغـل تدريجي في المناطق القليلة السكان ذات الدفاعات الضعيفة، وعلى الرغم من نصرة يهوه له، لم يستطع القائد الشهير إتمـام مهمتـه في إخضـاع كنعـان. ووجـدت القبائل الإسرائيلية نفسها مضطرة، بعد موت يشـوع للصـراع من أجـل البقـاء، وقـد أخضعت من قبـل الكنعانيين مرات ومرات، أما في حالات السلم فكانت تلك القبائل تخضع بشكل عفوي لتأثير حضارة الكنعانيين الأكثر رقياً وتطوراً!

إن سفـر القضـاة يتحـدث بالتفصيـل عن الصدامات الطويلة الأمد بين الإسرائيليين وأصحـاب الأرض الأصليـين. إنـه لشيء غريب بشكـل عام أن يستطيع شعب بدائي سيء التسليـح، شن حملة احتـلاليـة على بلاد تعمقت كثيـراً في مضمـار الحضـارة. بلاد مليئة بالمـدن المحصنـة وذات جيوش مدربة وجيدة التسليح. إن نجاح الإسرائيليين في حملتهم يصبـح مفهـومـاً إذا ماربطناه بالحالة السياسية التي سادت العالم آنذاك. فكنعان كجسر بين آسية وأفريقيا، طالما كانت موضع وسبب صراع بين الدولتين العظيمتين قديماً: مصر ومابين النهـرين. بعـد طرد الهكسـوس بقيت كنعـان ثلاثة قرون تحت الوصاية المصرية. ولم يغير الفـراعنـة النظـام القـائم فيهـا. كان يحكم المدن المحصنة حكام محليون، غرباء الأصل بشكـل عام. أمـا الشعب الكنعـاني ذو اللغـة القـريبـة من العبرية القديمة كان محروماً من حقوقه السياسية ويعمل بالزراعة بشكل أساسي.

وكـانت مصـر تنظـر الى ملوك كنعان كأعوان لها. لذلك أعطتهم حرية نسبية سمحت لهم بتشكيـل قوات عسكـرية وبتسليحها بالعربات القتالية. بل وكانت تشجع قيام الحروب الاقطـاعيـة الداخلية بينهم. فالإشكالات والحروب بينهم، تقوي السلطة المصرية، وتزيد من هيبتهـا كسلطـة تحكيميـة عليـا. إذن كان الفراعنة قبل روما يستخدمون المبدأ الروماني (divide et imbera) [٢٩].

كانت تقيم في المدن الكنعانية الكبيرة حاميات عسكرية مصرية. ويوجد فيها قصور للحكـام ـ أعـوان مصـر ـ الذين انحصرت وظيفتهم بشكل أساسي حول جباية الضرائب وتلك الضـرائب كبيـرة بشكل لايحتمل. أضف إلى ذلك أن جباة الضرائب أنفسهم كانوا مرتشين

ولصوصاً يسرقون البلاد من أجل الثراء الشخصي . أما الجيوش المصرية فتكونت من المقاتلين المرتزقة الذين يعودون لأجناس وقوميات مختلفة . ولما كانت الدولة كثيراً ما تمنع عنهم مخصصاتهم المالية وتقلل المخصصات التموينية منها، فانهم كانوا يجوبون القرى وينهبون مايقع تحت ايديهم . فسكان كنعان الأصليون، يرغمون على العمل في بناء القصور والتحصينات ويُسرقون من قبل الجنود، فكانوا بذلك أشباه عبيد، مستوى معيشتهم ينخفض شيئاً فشيئاً، ويقل عددهم بإطراد . فصارت كنعان التي طالما عرفت بازدهارها بلداً ضعيفاً على حافة الانهيار.

لقد انعكست عملية انهيار كنعان وإفلاسها في بعض اصحاحات سفري يشوع والقضاة، كما وُجدت معلومات عن تلك العملية في الألواح المسمارية المكتشفة في تل العمارنة وغيرها من المكتشفات . فالفن المعماري في ذلك العصر. بما في ذلك قصور الارستقراطيين كان متواضعاً للغاية، ووضع التحصينات الدفاعية كان سيئاً للغاية . وتدل كمية النفائس القليلة التي وجدت هناك على الفقر الذي ساد في ذلك العصر. لقد تحولت كنعان تحت سلطة الملوك أعوان مصر إلى بلد ناء متخلف .

لقد ذكرنا سابقاً كيف وقع رمسيس الثاني بعد حرب طويلة، صلحاً أبدياً مع الحثيين، أما بعد موته فقد هوجمت مصر من قبل شعوب هندية ـ أوروبية عرفت بشعوب البحر، وقد أباد هؤلاء خلال حملتهم عبر اليونان وآسيا الصغرى دولة الحثيين، واستولوا على شاطيء البحر المتوسط وتوغلوا في دلتا النيل . ومع أن الفرعون مرنفتاح استطاع صد الحملة غير ان ذلك أضعف مصر كثيراً فعمتها الفوضى زمن الفراعنة الأسرة التاسعة عشرة اللاحقين، آنذاك حدثت سلسلة من حوادث العصيان والتمرد كان أكبرها العصيان الذي شارك فيه قطاع من فلاحين وعمال وعبيد، فانقسمت مصر الى عدة دويلات صغيرة، وبدأ صراع مرير على العرش .

أخيراً فرضت الأسرة العشرون سلطتها على الجميع، واستطاع ثاني فراعنتها رمسيس الثالث صد الهجوم الجديد لشعوب البحر والانتصار عليهم انتصاراً ساحقاً، لكن الفراعنة الذين خلفوه كانوا ضعاف الشخصية والسلطة . فعمت الفوضى البلاد من جديد، وانتشرت حوادث الشغب والتمرد واختل النظام . وقد كان الكهنة هم السبب المباشر لانتشار الفوضى، فقد استولوا على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، وامتلأت نفوسهم بالأنانية، وامتنعوا عن إعانة الشعب الجائع .

نتيجة لذلك فقدت مصر هيبتها وسمعتها، ونستطيع أن نتكهن بمدى انعدام هيبة مصر عند الشعوب الاخرى من التقرير، الذي وُجد مكتوباً على البردي والمرسل من قبل السفير المصري عنو آمون الذي أرسله كهنة طيبة إلى لبنان لشراء خشب الأرز لصنع مراكب الإله آمون ـ رع. اتجه عنو آمون بحراً قاصداً جُبيل. وقد توقف وهو في طريقه إلى جبيل في مرفأ مدينة دور، وهناك سرق منه أحد البحارة كمية الذهب والفضة التي أحضرها ثمناً لخشب الارز، وعرف المصريون ان اللص مختبيء في المدينة، فطالبوا بتسليمهم إياه، لكن حاكم المدينة وجد من الأجدى له الاستئثار بالغنيمة فهزيء بسفير الحكومة ذات المجد العريق وماطله وأرغمه على متابعة طريقه بعد انتظار دام تسعة أيام دون أن يسترد المال المسروق، ولكن الإهانة الأقبح والأكبر كانت تنتظره في جبيل. فقد سمع حاكم المدينة الفينيقية أن السفير قادم دون مال فلم يكتف بعدم بيعه الخشب ديناً، بل صادر باخرته وأمره بمغادرة المدينة فوراً لأنه غير مرغوب فيه وبالطبع لم يستطع عنو آمون مغادرة المدينة دون باخرته، وعندما ركب باخرة أخرى إعتقلته سلطات المدينة، وبعد إهانات ألحقوها به وجدال طويل فيما بينهم أطلقوا سراحه، وأرسلوه إلى طيبة ليحضر مالاً ومتاعاً ثمناً للباخرة وخشب الأرز. واستغل حاكم جبيل ضعف مصر وحدد سعراً للخشب والباخرة يفوق الخيال، فعدا الذهب والفضة حصل الحاكم الجشع على عشرة أردية ملكية من أفضل أنواع الكتان، كما حصل على خمسمائة ملف بردي وخمسمائة جلد ثور وخمسمائة لفة من الحبال، وعشرين كيساً من العدس وثلاثين سلة من السمك.

ترافق انهيار قوة مصر مع نمو الفوضى السياسية في آسيا، فدولة الحثيين سقطت تحت ضربات شعوب البحر. والدولة البابلية كانت مهددة من دولتي آشور وعيلام اللتين كانت قوتهما تنمو باطراد. لقد كانت تلك الحقبة واحدة من الحقب التاريخية النادرة التي لم تتصادم فيها المصالح الاستعمارية لمصر وآسيا في أرض كنعان. شعر أعوان مصر السابقون باستقلالهم، وليوسعوا حدود دولهم الصغيرة، صاروا يقتتلون فيما بينهم من أجل شبر من الأرض، فانقسمت البلاد إلى دويلات لم يكن بمقدورها حتى في اللحظات الحاسمة، أن تشكل جبهة دفاع موحدة.

ويشهد سفر يشوع على حالة الفرقة تلك، إذ يحدثنا كيف ان يشوع قتل واحداً وثلاثين ملكاً.

على ضوء هذه العلاقات السياسية يصبح من الواضح تماماً سبب النجاح المزعوم

ليشوع بن نون التوراتي. فهو لم يصطدم وجهاً لوجه مع قوات كنعان المتحدة. بل حارب ملوكاً صغاراً ضعافاً أو أحلافاً ضعيفة تفتقد كل مقومات النجاح. وقد حقق الإسرائيليون انتصاراتهم على تلك الدويلات ليس بالحماس القتالي فقط بل وبكثرة العدد.

أضف إلى ذلك أن ضعف وتقهقر كنعان نجم عن الانقسام السياسي. فالعلاقات التي صادفها يشوع بن نون هناك تشبه إلى حد بعيد تلك التي سادت قبيل زوال الإمبراطورية الرومانية العظيمة، فالجموع المضطهدة الجائعة من الشعب الإيطالي حيت العدو الجرماني المحرر والمنقذ. فالجرمان جاؤوا إليهم بثورة اجتماعية ووعود بحياة أفضل، وهم على الأقل وضعوا حداً للطبقة الارستقراطية التي أثرت على حساب عامة الشعب لدرجة لايتصورها العقل، ولنتصور الآن على ضوء ماذكرناه الوضع السائد عند بدء حملة الإسرائيليين: الفلاحون والعمال المرهقون، لدرجة كبيرة. بسبب الحروب الاقطاعية الداخلية ملوا القتال ونبذوه، وإذا مادعوا بشكل إلزامي للقتال، فإنهم يقاتلون بلا رغبة ويهربون عند أول فرصة تسنح لهم. فتلك الحرب ليست حربهم. بل حرب السادة الذين يملكون شيئاً يستحق الدفاع عنه. ويمكن أن نفترض أن يكون الإسرائيليون، قد استغلوا تعاطف الجموع الشعبية معهم. فالإسرائيليون كانوا بسطاء كالسكان الأصليين، ويتكلمون لغة سامية قريبة من لهجتهم، بحيث يمكنهم الإتفاق فيما بينهم بطريقة مباشرة.

لكن كيف كان يمكن للشعب الكنعاني التعاطف مع المحتلين الذي تصورهم التوراة شرسين غزاة، يحتلون الأرض ويدمرون المدن ويقتلون الأسرى والسكان؟ لقد قلنا سابقاً أن مؤلفي التوراة ضخموا كثيراً شراسة الإسرائيليين، ويدل على ذلك أننا إذا ماقرأنا سفر القضاة نستنتج أن المحتلين سرعان ماتصاهروا مع السكان الأصليين بأن تزوجوا منهم وزوجوهم، وأن المحتلين اعتنقوا طقوس السكان الأصليين وعبدوا آلهتهم. وحتى مؤلفو التوراة لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقة، واكتفوا بتفسيرها على أن يهوه ترك الكثيرين من الكنعانيين على قيد الحياة كعقاب للإسرائيليين على تركهم ونبذهم تعاليم موسى.

وهكذا نجد ان كل شيء يؤكد تعاطف الكنعانيين مع المحتلين عند القيام بحملتهم، ومن ثم التعايش معهم على أرض واحدة. ويفسر هذا الأمر على الأغلب واحداً من أهم أسباب إخضاع الإسرائيليين السهل جداً لبعض مناطق كنعان وحسب نصوص التوراة نعلم أن يهوه شارك في صنع نصر يشوع بن نون إذ ناصره بواسطة معجزاته. ولقد حاول مؤلفو التوراة بزعمهم هذا التأكيد على أن قوى إلهية غير طبيعية تقف وراء احتلال

إسـرائيـل لكنعـان. لكنهم وفي هذه المـرة أيضاً لم يلفقوا الحوادث الموصوفة. بل حرفوها وحـرفـوا عناصرها حسب رغباتهم ولمصلحة أهدافهم. نجد في سفر يشوع ثلاث معجزات يمكن تفسير كل منها بشكل طبيعي جداً:

أول معجزة حصلت عندما توقفت مياه الاردن فجأة ونقرأ في سفر يشوع (اصحاح ٣، آية ١٦) حول هذا الموضوع مايلي:

«وقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت نداً واحداً بعيداً جداً عن آدام المدينة التي إلى جانب صَرْتان، والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً...».

ساعــدت مدينـــة آدام المــذكـورة في النص، البـاحثين التـوراتيين في تفسيـر هذه المعجزة، فعلى مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً من الشمال من أريحا توجد مخاضة أردنية اسمهـا الـداميـة، وتوجد أيضاً تلة صغيرة على الضفة الشرقية للنهر تسمى بتلّ الدامية. ولا شك أن التسميتين تعـودان بأصلهمـا إلى التسميـة القـديمة أدوم (أدام) وهي تسمية لمدينة اكتشفت أنقاضها فعلاً تحت التلة المذكورة أعلاه.

يسير الأردن هناك في واد ضيق جدرانه من الكلس والغضار، وتعاني ضفافه كثيراً من الهـزات الأرضيـة ذات المنشأ البـركـاني، لذلـك حدث أكثـر من مرة أن إنهـارت الجدران الصخـريـة على الـوادي مشكلة بذلـك سداً يمنـع مسير المياه. ففي عام ١٩٢٧ م، أغلق وادي الأردن بسبب حادثة تشبه الحادثة التي نذكرها ولمدة يوم واحد تقريباً. فتجمعت المياه إلى الشمـال من تل الـداميـة، في الوقت الذي ضحلت فيه في الجزء الجنوبي وحتى البحر الميت لدرجة كان من الممكن معها عبور النهر في أي مكان دون أن تصل مياهه إلى الركبة. نستنتـج من ذلـك انـه إذا كانت تلك الظـاهـرة الخـارقـة للعـادة قد حصلـت فعلاً عند عبور الاسرائيليين لنهر الأردن، فإن الفضل فيها لايعود ليهوه بل يعود لتقلبات الطبيعة في تلك المنطقة.

لمـاذا لم يذكـر مؤلفو التوراة ولاكلمة واحد عن هزة أرضية وقعت؟ أظنهم فعلوا ذلك عمـداً. فالإسـرائيليـون الـذين سكنوا قرب الأردن كانوا يعرفون أن انهيار الصخور يمكن أن يؤدي إلى إيقاف سير الماء عند أدام تحديداً، وبالتالي كان من الصعب إقناعهم بأن ذلك ضرب من ضروب المعجزات. وقد عرف مؤلفو التوراة أن التفسير اللاهوتي لهذه الحقيقة. قد يولد الشكوك في النفوس لذلك حذفوا من وصفهم للحادثة كل مالم يكن يناسبهم ولكن وبعكس ما أرادوا لم تختف قصـة الهـزة الأرضية تماماً، بل بقيت وذكرت في مواضع أخرى

من التوراة، فها هي دبورة النبية تقول في ترنيمتها على شرف النصر: «يارب بخروجك من سعير، بصعودك من صحراء أدوم، الأرض ارتعدت. . . » (سفر القضاة ٥، آية ٤)، ونقرأ في المزمور الرابع عشر بعد المائة، وهو الذي يتحدث على الغالب عن عصر يشوع بن نون «الأردن رجع إلى الخلف، الجبال قفزت مثل الكباش والآكام مثل حملان الغنم. . ». كما نرى مُليء الفراغ الذي خلفه مؤلفو التوراة في النص قصداً، توقف الأردن نتيجة هزة أرضية، ذلك لأن الصخور المنهارة من جدران الوادي سدت مسيل النهر.

ولننتقل الآن إلى المعجزة الثانية: وهي تهديم أسوار أريحا. لقد استطاع الباحثون أن يصلوا إلى الوقائع التي حدثت فعلاً وحولت إلى أسطورة ولكن قبل أن نذكر فرضياتهم باختصار. يجب أن نعود إلى ماذكرناه سابقاً حول هذا الموضوع. فالأثريون الذين اكتشفوا أريحا وهم أعلم الناس في مجالهم يؤكدون أن القلعة وقعت فريسة هجوم كاسح قبل الحملة الإسرائيلية بمائة عام، وبالتالي لم يكن يشوع بن نون هو الذي احتلها أبداً على ضوء هذا برزت فرضية تقول: إن أريحا هدمت من قبل قبائل عبرية قديمة تحت قيادة شخص عاش قبل يشوع بن نون التوراتي بكثير. لكنه يحمل نفس الاسم وجمعت الشخصيتان في شخصية واحدة فيما بعد، وذلك في عهد سيطرة يهوذا التي حاولت لذلك الوصول إلى وحدة سياسية وروحية بين القبائل العبرانية القديمة في جنوب وشمال كنعان. وبالطبع أدخلت مع بطل قبائل كنعان الشمالية إلى كنز الأقاصيص التاريخية مجموعة كاملة من الأساطير عن بطولاته. ومنها أسطورة احتلاله وتدميره لأريحا. وهكذا يكون يشوع بن نون حسب هذه النظرية مخلوقاً مزدوجاً مكوناً من عناصر تعود إلى حقب زمنية مختلفة وهو خاص بمراكز العبرانيين القدماء.

نستطيع بعد هذا أن نسمع مايقال حول المعجزة في أريحا، وبالأصح مايقوله حول ذلك الأثريون والتاريخيون، يؤكد مكتشفو أريحا أنها وقعت فريسة لهزة أرضية وحريق، تدل عليهما أكوام الحجارة والصخور الكبيرة واللّبن وبقايا الخشب المتفحم. وكذلك الطبقة السميكة من الرماد التي تغطي السطح كاملاً. عدا ذلك فإن مابقي من سور القلعة مليء بالتشققات، وسقوف المنازل على مايبدو هبطت فجأة لتدفن تحتها أشياء للاستعمال اليومي، لكن هذه النظرية تتعارض تماماً مع سفر يشوع الذي يقول إن أسوار القلعة تهدمت تحت تأثير ضجيج الأبواق وصراخ المهاجمين. وقد حاول الباحثون التوراتيون مطابقة نظريتي الأثريين والتوراة، فخرجوا بنظرية جديدة أكثر إقناعاً.

فبفضل الوثائق المسمارية نعرف أن عملية زرع الألغام تحت أسوار القلاع، واحدة من أقدم الطرق التقنية التي عرفها البشر لحصار القلاع، إذ يقوم المقاتلون تحت جنح الظلام بالحفر حتى يصلوا إلى أساسات التحصينات، ويضعوا هناك جذوع الأشجار ثم يشعلوها في لحظة ما، فتسقط الجدران في الحفر زارعة بذلك الفوضى في صفوف المحاصَرين، وفاتحة طريقاً إلى المدينة في وجه المهاجمين.

يمكن الافتراض أن مثل تقنية الحصار تلك استخدمت في أريحا. ولكي يبعد المهاجمون أنظار المحاصرين عن أعمال الحفر التي قام بها المقاتلون، استخدموا خطة ذكية اقتضت دورانهم حول السور بموكب عسكري ترافقه أصوات الأبواق وصيحات المقاتلين، ولاتتعارض آثار الحريق التي وجدت مع هذه النظرية. فسفر يشوع يذكر أن المدينة حُرقت بعد احتلالها بكل مافيها.

إن أكبر المعجزات من حيث ضخامة النظرية المعاكسة لها هي المعجزة الثالثة، فخلال مطاردة جيش ملوك جنوب كنعان الخمسة، اضطر يشوع لإيقاف الشمس والقمر لكي يمنع العدو من الاختفاء تحت جنح الظلام، لم يجرؤ حتى أكثر المتحمسين والمتطرفين للتوراة على التأكيد بأن تكون ليشوع بن نون مثل تلك السيطرة على الشمس والقمر، ولذلك طرقوا دروباً مختلفة لتفسير هذا الإعجاز من منطلق أن التوراة (حق وحقيقة). وعلى هذا فإن الظواهر الطبيعية الموصوفة فيها وقعت لامحالة. إننا نستطيع أن نذكر كل الفرضيات لكننا سنذكر واحدة منها كمثال. واحدة كان لها في زمنها أكبر عدد من الأنصار والمؤيدين: إنها تخلص إلى أن غيمة كبيرة تحمل برداً، أدت إلى ظلمة قاتمة وفجأة برزت الشمس التي اختفت وراء الأفق من وراء الغيمة، فشكّل لمعان أشعتها في قبة السماء المكفهرة نوعاً من النور الفجائي، استغل الإسرائيليون الضوء الفجائي ليقضوا نهائياً على الكنعانيين. وفيما يعتبر من نسج الخيال الشعبي أسطورة إيقاف يشوع للشمس والقمر، كي يتحقق من تحقيق الانتصار كاملاً مكملاً.

لكن تبين أن كل تلك القصة مبنية على أساس سوء فهم. فيشوع بن نون يصرخ في حالة من هيجان السعادة: «ياشمس دومي على جبعون وياقمر على وادي أيلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه» (سفر يشوع أصحاح ١٠ ـ آية ١٢ ـ ١٣). إننا نرى مباشرة أن نبأ المعجزة يحمل صفة الوحي الشعري الواضحة جداً. لقد أراد مؤلف هذا المقطع أن يؤكد بواسطة التعابير المجازية أهمية نصر يشوع بن نون، وإظهاره

على أنـه كان ساحقـاً وسـريعـاً لدرجـة أن الشمس والقمـر توقفـا من شدة دهشتهـا من ذلك النصـر، انـنـا كثيـراً ما نجـد هذه المبـالغـات في الملاحـم الشعرية القديمة وعند هوميروس أيضاً. لذلك لايجب فهم المعجزة الموصوفة بشكلها الحرفي. فهي ليست إلا أنشودة مديح غناها شاعر مفعم بالحماسة والتقدير ليشوع بن نون.

وقـد بددت الأبحـاث التحليلية اللغوية اللاحقة، كل الشكوك حول هذا الموضوع، ذلـك لأنـه ثبت قطعيـاً أن المقطـع المـذكـور أعـلاه ليس إلا نقلاً حرفياً لمقطع من (كتاب العادل)، أدخل لاحقاً في قصة يشوع بن نون من قبل مؤلفي التوراة. أما كتاب العادل فهو مجمـع لأنـاشيـد ومـلاحـم شعـرية قديمة مشهورة جداً عند العبرانيين، كما أننا نجد مقطعاً توراتياً آخر. منقولاً من هذا الكتاب، في سفر الملوك الثاني (أصحاح ١ ـ آية ـ ١٨) وهكذا تكون الأسطورة عن معجزة يشوع بن نون قد فُنِّدت تماماً.

يعتبـر سفـر القضاة استمراراً وتتمة لسفر يشوع، ويتحدث عن الحقبة الزمنية الممتدة بين عام ١٢٠٠ و١٠٥٠ ق.م، وحسب التوراة تبدأ هذه الحقبة بموت يشوع بن نون وتنتهي مع بدايـة النظـام الملكي المطلق الـذي أدخله صمـوئيـل. غير أن مؤلفي التوراة لم يكتبوا تاريخ تلك الحقبة كله، لم ينظِّموا أوينسقوا الحقائق والحواردث حسب التسلسل التاريخي الواقعي لحدوثها، بل سعوا كما في الأسفار السابقة لتبيان المصير الذي واجهه الإسرائيليون نتيجـة تخليهـم عن يهـوه وعبـادتهم لآلهـة غريبـة، وقـد بين مؤلفـو التـوراة ذلك على أمثلة مختـارة، فبـدا هذا السفـر كمجمـوعـة مختـارات من القصص الملحمية التي تذكرنا كثيراً بالسـاغـا (الأسـاطيـر الاسكندنافية القديمة)، وهذه القصص مليئة بالعنف ورعب الحروب وبـرائحـة الحـرائق الـلاذعة وبالكوارث المدمرة وبالبطولات الفردية كما إنها مليئة بلمحات الفضيلة وبالخصومات الحادة باسم الإنسانية الحقيقية.

إننـا نجـد في القصص التـوراتيـة موضـوعـات ونغـمات لها نظـائـر في مصـادر أخرى، فدبورة مثلاً ـ جان دارك الإسرائيلية، ولشمشون ملامح كثيرة مشتركة بينه وبين هرقل، وفي حادثة أبناء بنيامين الفظيعة، نجد شبهاً كبيراً لها مع الأسطورة الرومانية عن اختطاف السابينيات.

لكن مؤلفي النص التـوراتي عادوا إلى رشـدهم فجأة بعـدمـا ملاؤا سفـرهـم بتلك الكميـة الكبيـرة من العنف والقسـوة والأفعـال الخبيثة والحوادث الخارقة. إذ ليس من قبيل الصـدفـة أن ينتهي مجمع الساغات القاتمة ذاك وبنغم تفاؤلي ـ بالقصة الرائعة عن راعوث

المخلصـة التي تحكي عن حقبـة القضـاة والتي أدخلت إلى النص التـوراتي بعد فترة زمنية بعيـدة جداً عن حقبـة القضاة، صورة مسالمة منعمه بالهدوء المنعش، حصادون يحصدون معاً ويأكلون معاً. فلاحون طيبون نساء وديعات مُحبات، كم هو كبير وصارخ هذا التباين مع الخلفية العامة للفوضى والفظاعة والبربرية، لقد أراد مؤلفو التوراة بقصصهم عن راعوث أن يظهروا لنا أنه على الرغم من كل شيء كانت الحياة تسير بشكل طبيعي وتمثل حياة الناس الشـرفـاء الـذين حافظـوا على القيم الأخـلاقية والبساطة والكرامة الإنسانية في معمعة تلك الفـوضى التي سادت. على الـرغم من تحـريف مؤلفي التـوراة للتاريخ حسب معتقداتهم الـدينيـة فإن سفـر القضــاة يسمح لنا برسم صورة دقيقة للعلاقات السياسية التي سادت بعد هجوم الإسرائيليين على كنعان، وقبل كل شيء نستنتج أن فكرة الوحدة العرقية التي فرضها موسى على الإسرائيليين وعمل بها يشوع بن نون لم تصمد مطلقاً مع مرور الزمن. فالتنظيم القبلي السـامي القـديم القـائم على روابـط الـدم، كان مايزال قوياً ولا يمكن نبذه حتى في شروط الاستقرار الجديدة.

فلكـل قبيلة تقـاليـدهـا الخاصة بها، وحتى اللهجات التي تكلمت بها القبائل كانت مختلفة فيما بينها، لذلك ماكاد يشوع بن نون يموت، حتى برزت إلى السطح الخصومات القـديمـة، كمـا برزت أيضـاً الاتجـاهـات الانعزالية. وقد ساعد على بروز ذلك الوضع أنه نتيجـة لانحـلال التعـاون البـدائي، وتعمق الفوارق الطبقية تحول الشيوخ المختارون إلى طبقـة أرستقـراطية تورِث وتورَث، وصار زعيم القبيلة أو العشيرة يلقب نفسه بالأمير أو الملك ويلحق بلقبـه صفـة العظيم أو الفاضل أو المجيد. فأخذت تلك الطبقات تتنافس فيما بينها مما ساهم في سقوط إسرائيل وإشعال نار الحرب بين الإخوة، وعلى هذه الشاكلة حل زمن الفوضى السياسية على الإسرائيليين، أي زمن الإباحة وغياب النظام، ونقرأ في سفر القضاة أنـه لم يكن لإسـرائيـل آنـذاك، ملك، وأن كل واحـد كان يتصـرف بالطـريقة التي يعتبرها صحيحـة وعـادلة، لذلك نجد دانيال روس يكتب في كتابه «من إبراهيم وحتى المسيح» أن تاريخ إسرائيل في تلك الحقبة ينقسم إلى مجموعة تواريخ، يساوي عددها عدد قبائل إسرائيل.

وممـا زاد من خطـورة انقســام إسرائيل إلى عشرين عشيرة متخاصمة فيما بينها، كون يشـوع بن نون احتـل كنعـان جزئيـاً وليس كليـاً، ففي قلب البـلاد تمـامـاً حافظت القبـائل الكنعانية القوية على استقلالها، وبقيت تلك القبائل تسيطر على الحصون والمدن المنيعة

والسهـول الخصبـة . إن الإسرائيليين استوطنوا في البداية المناطق الجبلية القليلة السكان ، ومارسوا حياة نصف رعوية ، ولم يبنوا بيوتاً بل عاشوا في الخيام والأكواخ الخشبية . وكان من النادر أن يحتلوا أرضاً بقوة السلاح إذ إن استيطانهم كان تدريجياً مسالماً ، كان تغلغلاً لرعاة رحل في بلاد غريبة .

بالطبـع ما كان بإمكـان القبائل الإسرائيلية . المتروكة لحالها أن تدخل في صراع مع سلطـات الـدول الكنعـانيـة الصغيـرة المجـاورة ، ولكي تحصل على السماح بالإقامة قرب إحـدى تلك الـدول كان عليهـا أن تعتـرف بسيـادة الملوك الكنعـانيين ، وأن تدفـع لهم الضـرائب . وكثيـراً ماتحولت تلك التبعية الاقتصادية والسياسية إلى خنوع تام وفقر وعبودية . وماسفر القضاة في الحقيقة إلا مجمع قصص عن القبائل الإسرائيلية المضطهدة التي أقرت سنوات عديدة تحت نير العبودية . وفي نهاية الأمر قامت للصراع من أجل التحرر تحت قيادة أبطالها القوميين المعروفين بالقضاة .

تتحـدث التـوراة عن ستـة زعمـاء كبـار ، وتـذكـر ستـة آخرين أقل أهمية منهم ونحن لانعـرف عنهم إلا أسمـاءهم . هذا وقـد سُمي القضاة بالعبرية القديمة «شوفتيم» من الفعل «شافات ـ يحكم» لكن لم تقتصر مهامهم على القضاء فقط ، فهذه التسمية قديمة جداً عند الساميين ، وكانوا يطلقونها على رجال السلطة الكبار .

في المـدن الفينيقيـة كان ينتخب كل عام قضـاة وحكـام للمستعمـرات ، وعنـدمـا انفصلت قرطـاجـة عن فينيقيـة ، وصـارت دولـة تجـاريـة مستقلة ، بقي القضاة هم الحكام الفعليـون فيهـا وكـانـوا ينتخبون سنوياً من قبل غرفة التجارة . وفي المدن الفينيقية أيضاً كان يحـدث أن ينتخب قضـاة ليحكمـوا في الفترات مابين ملكين ، ففي مدينة صور مثلاً ، سلم القضاة سدة الحكم في اعوام ٥٦٣ ـ ٥٥٦ ق . م .

لكن الوضع الذي تصفه التوراة يختلف جزئياً عما ذكرناه ، فالقضاة الإسرائيليون فيها هم قبـل كل شيء قادة عظـام لثـورات وأعمـال فدائيـة ، ولايمـارسـون سلطتهم المدنية إلا ماندر . إنهم إذا ماصدقنا التوراة دكتاتوريون عسكريون استطاعوا بفضل ميزاتهم الشخصية فرض هيبتهم الكبيـرة على أبنـاء عشيـرتهم وقبيلتهم ، وفي اللحظـة المنـاسبة قادوا العشيرة والقبيلة باتجـاه الصـراع من أجـل التحـرر ، ولم تكن سلطتهم تخـرج خارج حدود القبيلة بالرغم من أن بعضهم استطاع تشكيل أحلاف لعدة قبائل ، من أجل النضال ضد الكنعانيين

الظـالمين، أمـا بعد الحصول على الاستقلال، كانوا يمارسون سلطتهم حتى آخر أيامهم. وما إن يموتوا حتى تعود القبائل التي حكموها إلى نير الكنعانيين.

إن خضـوع الإسـرائيليين السيـاسي للكنعـانيين لم يكن ليشكل خطراً كبيراً كالخطر الـذي نتـج عن استعـدادهم الدائم للذوبان في حضارة الكنعانيين وديانتهم، مما كان يهدد بفقدانهم لصبغتهم القومية. ولم يشرح لنا سفر القضاة بوضوح سبب حدوث هذا الأمر، فقد صور لنا مؤلفو التوراة انطلاقاً من عقيدتهم المتزمتة الكنعانيين على أنهم شعب فاسد بربري يعتنق ديـانـة دعـارة وفسـوق. لذلـك برز إلى السطح سؤال يقـول: كيف كان يمكن للإسرائيليين مادام الأمر كذلك، أن يسمحوا لأنفسهم بالانجرار وراء الفساد والخطيئة، وهم الذين تربوا على تعاليم موسى والمقتنعون بها؟

كانت الإجـابـة على هذا السؤال صعبـة للغاية، إذ لم نكن نعرف عن الكنعانيين إلا ماتقـدمـه التـوراة عنهم من معلومـات. لكن تطـوراً في هذا الأمر حدث بفضل الاكتشافات الأثرية في فلسطين. إننا نعرف اليوم أن الكنعانيين بنوا حضارة مادية رفيعة جداً لاتقل أهمية عن حضـارتي مصـر ومـابين النهرين، فقد اشتهرت المدن الكنعانية الكثيرة العدد بمنشآتها العـامـة وبقصـورهـا، كمـا أقامت تلك المدن علاقات تجارية وثقافية مع الدول الأخرى، ومـارس سكـانهـا التجارة والمهن الحرة بنجاح بالإضافة إلى الزراعة والرعي، كما ازدهرت عنـدهم البستنـة وعمليـة تنظيم الحدائق، فكانت البساتين والحدائق والرياض تُصادف في كل مكـان من البـلاد، بسـاتين التين والنخيـل والـزيتـون والرمان منظمة، ويُعتنى بها عناية فائقـة، وعلى سفـوح الجبـال تنبسط تحت أشعة الشمس كروم العنب، وفي السهول تُزرع أنـواع عديـدة من الخضار، كما صار معروفاً أن الكنعانيين أدخلوا الخضار والزيتون والخمر إلى مصر.

وتـدل المكتشفـات الأثـريـة أيضـاً على مستـوى فني وحرفي رفيع. فقد وجدت بين أنقـاض المـدن الكنعـانية تماثيل رائعة الصنع لآلهة وإلاهات، ووُجدت أيضاً رسوم مقدسة وحلي ومجـوهـرات من الـذهـب والفضـة ومنحـوتات من انياب الفيلة وأوان خزفية، وكذلك أشيـاء للاستعمـال اليـومي (علب، قوارير صغيرة، خناجر، أسلحة وخزفيات كثرة متنوعة)، لقـد كتب الفـرعـون تحوتمس الثالث في إحدى وثائقه، التي اكتشفت أنه أخذ من فلسطين غنيمة كبرى مؤلفة من أوان فضية وذهبية. وفي بيت شانه وُجد بين الأنقاض نحت حجري

رائع يمثل أسدين متصارعين، وعدا ذلك فإن كنعان اشتهرت بمنسوجاتها الملونة بالقرمز والصباغ الثمين الذي كان ينتج هناك.

عانت الحضارة الكنعانية في القرن الثاني عشر ق. م من حالة التقهقر والانحطاط، كما ذكرنا سابقاً لكنها مع ذلك أمكن لها أن تؤثر بدرجة كبيرة على الإسرائيليين ـ الرعاة الرحل الذين عاشوا أربعين عاماً في ظروف صحراوية بدائية. نعم لقد بهرت بلاد كنعان الإسرائيليين بمدنها المزدحمة والمليئة بالمنشآت العامة والمحال التجارية. لذلك لاعجب في أن يكون الإسرائيليون، كما تؤكد التوراة قد تزاوجوا مع الكنعانيين بشكل يسر وبرغبة كبيرة، ذلك لأنهم اعتبروا أن صلة القربى الناجمة عن الزواج مع الكنعانيين مثار فخر واعتزاز لهم.

أما مايخص الدويلات الكنعانية الصغيرة التي لم تتمكن من الصمود، فإن التدخل الإسرائيلي كان لها بمثابة الكارثة إذ تدل الاكتشافات الأثرية على تراجع كبير في مجالي البناء والمهن الحرة. فقد كان الغزاة الإسرائيليون يقيمون على أنقاض المدن الكنعانية بيوتاً حقيرة دون أية أنظمة للتخلص من مياه الأمطار، فـ كان بمقدور الإسرائيليين بطبيعة الحال أن يتعلموا أصول العمارة في الظروف الصحراوية بالإضافة إلى أن نظامهم المشيخي الديمقراطي كان يعيقهم في ذلك لأن إقامة المنشآت الكبيرة كان يحتاج لعمل وجهود جموع كبيرة من العبيد المضطهدين. وقد استمر الإسرائيليون فترة طويلة من الزمن رعاة أحراراً مع أن منصب المشيخة صار يورَّث عندهم ولكن لم تكن لمشايخهم تلك السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها حكام المدن الكنعانية.

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن تدخل قبائل غريبة وتغلغلها في الأراضي المأهولة بالكنعانيين كان لابد أن يؤدي إلى تذبذبات واهتزازات اقتصادية عنيفة، فالمدن الكنعانية ازدهرت أساساً بسبب تجارتها الدولية. لذلك وبمجرد أن قطع المحتلون طرق القوافل بدأت التجارة تتجمد والمستوى المعيشي والعام ينحط ويسوء، ولقد بقيت نتائج السقوط ذاك تؤثر اقتصادياً لعدة قرون تلت، فعندما أراد سليمان بناء المعبد في أورشليم اضطر إلى جلب الصناع الفنانين والبنائين من فينيقية وتحديداً من مدينة صور الفينيقية وبفضل مساعي وإرادة ذلك الملك فقط عادت للتجارة روحها وازدهرت من جديد المدن واستطاع بعضها كأورشليم مثلاً الدخول في التنافس حتى مع مدن سورية ومصر.

بينت لنا المكتشفات الأثرية الدور الذي لعبه المحتلون الإسرائيليون في كنعان،

لكن بقي دون جواب السؤال عن سبب اجتذاب الديانة الكنعانية لهم بسهولة كبيرة، تلك الديانة التي طالما نظر إليها مؤلفو التوراة، من منطلق الاحتقار والاستنكار.

بقي الأمـر كذلـك حتى برز تحـول كبيـر ومنعطف شديـد، في هذا المجـال نتيجـة اكتشـاف مدينـة أوغـاريت الفينيقيـة عام ١٩٢٨ م في الساحل السوري. فقد وجدت هناك عدة مئـات من الألـواح المسمـاريـة التي تحتـوي على وثـائق مكتـوبـة بلغـات عدة منهـا الأوغاريتية أيضاً، ولما قرئت الألواح تبين أنها تحتوي بشكل غالب على أناشيد وابتهالات ومـلاحم شعـريـة أسطـورية. من الناحية العلمية كان ذلك الاكتشاف هاماً جداً، ذلك لأنه صار من الممكن على ضوء الألواح المكتشفة تفنيد النظرية التوراتية الوحيدة وإعادة صياغة الديانة الكنعانية في القالب والشكل الذي كانت فيه فعلاً!

ما الشيء المشترك بين الديانتين الفينيقية والكنعانية؟ قبل كل شيء من المبرهن عليه أن فينيقيـة وكنعـان شكلتـا وحـدة حضارية ودينية وسلالية واحدة، وكانت الشعوب الكنعانية تتحـدث بشكـل رئيسي اللغـة الفينيقيـة أو بلهجات قريبة جداً منها. وعدا ذلك فانهم كانوا أتبـاع الآلهـة التي يعبـدهـا سكان صور وأوغاريت وغيرها. وبالتالي فإن كل ماهو موجود في الألواح المسمارية الأوغاريتية يخص أيضاً الديانة التي اعتنقها الكنعانيون.

فالفينيقيـون الشعب السـامي المشهـور بتجـارتـه وببحارته ورحاليه سكنوا الشواطيء السـوريـة منـذ الألف الثالثة ق. م، وكانت مدنهم البحرية صور وصيدا جبيل تمارس نشاطاً تجارياً كبير الحجم. فالسفن الفينيقية وصلت إلى شواطيء أفريقيا الشمالية الغربية، وربما دارت حول القارة الأفريقية. ومن بين المستعمرات التى أسسها التجار الفينيقيون على طول شاطيء المتوسط مستعمرة قرطاجة، وقد اشتهرت بانفصالها عن سلطة فينيقية وتكوينها دولة بحرية مستقلة، كما اشتهرت بصراعها العنيف والمديد مع الامبراطورية الرومانية، لقد بنى الفينيقيـون على مدى تاريخهم الطـويـل حضـارة كبيـرة، وحققـوا فيهـا أعلى المستويات، فجـاءت حضـارتهم رغم التأثير المصري، وتأثير بلاد مابين النهرين حضارة رائعة متكاملة، فقد ازدهرت في المدن الفينيقية العمارة والصناعة والمهن الحرة، وقد وصلت منتوجاتهم من الفنـون اليـدويـة عن طريق المبـادلة إلى كل أصقاع العالم آنذاك. لكن اعظم اختراعاتهم كانت الكتابة المستندة إلى النظام الابجدي.

لقـد دلت الاكتشـافـات في أوغـاريت أن ديـانة كنعان القديم لم تكن أبدا فاسدة ولا أخلاقية كما تزعم التوراة ويزعم كاتبوها. فعالم الآلهة الموصوف بالوثائق عالم جميل مليء

بالشعـر والمتعـة والتأثيـرات المأسـاويـة والآلهـة والإلاهات، الذين يلعبون دور البطولة فيه يتمتعون جميعاً بكل مايتمتع به الإنسان العادي.

كما إن لهم أيضاً نفس صفاته فهم يحبون ويكرهون، ويتصارعون فيما بينهم يعانون ويموتون، بالطبع لـم تناد تلك الديانة بمثُل أخلاقية عليا، فهي كما هي الحال عند كل أنواع الديانات الوثنية القديمة، عكست التصورات البسيطة لإنسان تلك الأيام عن مفهوم القضاء اللغز. عكست مأساوية الحياة الإنسانية باشكالاتها الشخصية والعامة.

إن الأدب الديني الفينيقي كثيراً مايذكرنا بهوميروس. وإليكم مقطعاً منه يتناول مدحاً للإله بعل:

شرب كأساً من الشراب السحري
استقام من جلسته وصرخ من فرط سعادته
أخذ يغني على إيقاع القيثارة بصوته الرائع
ثم صعد إلى قمة جبل زابسون
وشاهد ابنته نادريا إلهة النور
وابنته تاليا، إلهة المطر.

كان الإله الاعلى عند الفينيقيين هو الإله إيل الإله المتعطش للدماء المأخوذ بحمى التـدميـر، والحكيم الـرحيم في نفس الـوقت لكن الاحتـرام الأكبـر كان للإلـه بعـل، إلـه المحصول والمطر وحامي القطيع، أما زوجته عشتار فهي إلهة الحب والخصب وواحدة من أشهر إلاهات العالم القديم والتي بُجلت أيضاً في كنعان تحت اسم عشتار أحياناً. كان بعل ذا منشأ سومـري ـ أكـادي. وعـرف عنـد شعـوب الشـرق بأسمـاء عديدة مختلفة فقد سماه الفينيقيـون تمـوز أو إيسمون، وفي مصر أوزيريس، وعند الإغريق أدونيس الدائم الشباب، ونستنتـج من سفـر حزقيـال أن طقوس تمـوز، بقيت متبعـة حتى عام ٩٥٠ ق.م في معبـد أورشليم فنحن نقرأ في السفر المذكور حرفياً (أصحاح ١٤ ـ آية ١٤) «فجاء بي إلى مدخل بيت الرب الذي في جهة الشمال، وإذ هناك نسوة جالسات يبكين على تموز».

وقـد يكـون أهم دليـل على شهـرة بعـل حقيقـة، أن اسمـه كثيـراً مادخل في تركيبته الأسماء الفينيقية الإسرائيلية والقرطاجية. فقد سمي أحد القضاة «يربعل» واسم ابن الملك شاول «يشا بعل» وأعظم بطلين قرطاجيين هما قصدو وهانبعل.

وكان رمز بعل في صور عمودين ـ أحدهما من فضة والآخر من ذهب وقد نقل الخيال

الشعبي، فيما بعد تلك الأعمدة بعيداً نحو الغرب إلى جبل طارق وأدخلها الإغريق في أساطيرهم بهيئة أعمدة هرقل.

وقد ارتبطت بطقوس بعد احتفالات رائعة ومواكب دينية تصف بشكل مأساوي المصير الأسطوري لهذا الإله، ففي بداية الخريف يقوم إله الموت (موت) باختطاف بعل إلى مملكة الغياهب والظلمات، مما يؤدي إلى موت الطبيعة وقدوم الشتاء، فيقوم الشعب الكنعاني بالبكاء على الإله الميت، ويعبر عن يأسه وحزنه بتمزيق الثياب وتشويه الأجساد وترديد أغاني الحداد، وفي الربيع تصارع إلهة الخصوبة عَنات إله الموت وتنتصر عليه، وتُخرج زوجها إلى سطح الأرض، فيقوم الفلاحون بالتعبير عن فرحتهم بعودة إله المحصول، فينظمون المسيرات الاحتفالية وينشدون الأناشيد ويرقصون ويمرحون.

لقد لعبت أسطورة موت وإعادة حياة إله المحصول دوراً هاماً، ليس عند الفينيقين والكنعانين فقط، لنتذكر طقوس أوزيريس والإلهه إيزيس والمسرحيات الدينية الإغريقية المرتبطة بالإلهه ديميترا وابنتها بيرسيفونا، وكذلك الطقوس الصوفية على شرف أفروديت وأدونيس في العهد الهليني القديم، وبالإضافة لبعل كان لعشتار إلهه الخصوبة احترام كبير في كنعان، وقد كانت عشتار نموذجاً للإلهه الأم.

ووجدت مكاناً لها في الكثير من الطقوس الدينية الأخرى، وتُهاجم عشتار بقسوة زائدة في التوراة ذلك لأن طقسها يؤكد على الجنس، كأهم مقدمات الحياة، مما وجد له صدى في الخلاعة المقدسة دينياً. فالمعابد كانت تلعب دور بيوت الدعارة التي يمارس فيها المقدسون والمقدسات، الرجال والنساء، العهر المقدس، والهدايا التي كانت تُقدم إليهم شكراً على عملهم كانت تُعاد إلى صندوق المعبد على شكل قرابين للآلهة. في الحقيقة بهذه الشاكله من الطقوس كان الناس البسطاء يعبّرون عن إحساسهم، الناس الذين اعتبروا العلاقة بين الرجل والمرأة ظاهرة طبيعية جداً، ولذلك لم يروا فيها أي ضرب من ضروب الرذيلة والعار، إن طقوس عشتار لاتدل أبداً على انحطاط أخلاقي وفساد عند الكنعانين، كما يؤكد أتباع الإله يهوه في توراتهم، إن كان لأحد من مجموعة الآلهة الفينيقية والكنعانية أن يثير التقزز في النفس، فإن آلهاً وحيداً كان قادراً على ذلك ويُعرف باسم مُلوك وهو محرف عن الاسم السامي مِلْكْ أي ببساطة مَلِك. في أور السومرية عُرف بـ«مالك»، وعند الأموريين (ميلكْ) وفي سورية وبابل «ماليك»، أما في صور وقرطاجة فعرف بـ كارت (ملقارت) أي ملك المدينة. لكن أبشع جوانب طقس هذا الإله أن تابعيه كانوا

يقدمون له قرابين بشرية وخصوصاً الأطفال، وأكثر ما انتشر هذا التقليد السيء في قرطاجة، نعم لقـد دلت الاكتشـافـات الأثـريـة على أن الكنعـانين ظلوا لفتـرة طويلة بعـد التغلغـل الإسـرائيلي يقـدمـون الأطفال قرابين الآلهه، وقد وجدت هناك مقبرة كل المدفونين فيها من الأطفـال وعلى بقـايـا عظامهم آثار واضحة للمحرق. كان الكنعانيون يحرقون الأطفال قرباناً للآلهه ثم يضعون كل طفل في آنية ويدفنونها في التراب.

كانت الديانة الكنعانية على ارتباط وثيق بالتقويم الزراعي، وقد حاولت جاهدةً تفسير سر حيـاة ومـوت الطبيعـة المتبـادلين، ولهـذا السبب تحـديـداً خضـع الإسرائيليون بسهولة لتأثيـرهـا، فقـد كان عليهم عنـد انتقـالهم من حياة الرعي إلى ممارسة الزراعة، أن يتعلموا الأعمـال الـزراعيـة من الكنعـانين، كمـا تعملوا منهم أيضـاً أنـه من الواجب إجلال الآلهه المحليين، كي يحصلوا على محصول جيد. كان المزارع الإسرائيلي شديد الحاجة لديانة تسـاعـده في حيـاتـه اليـوميـة، لذلك رأى في طقوس بعل وعشتار، المليئة بالروعة والتنوع والمتعة شيئاً أحبّ إلى قلبه وأقرب إلى تفكيره البدائي من تعاليم موسى الصارمة التي لا تطاق.

لقـد أدت البـواعث الاقتصـادية والنفسية الكامنة في أساس ذلك الارتداد الديني إلى عجـز اليـاهـوهين عمليـاً عن استعمـال الـوثنية، ففي سفر القضاة نقرأ أن الإسرائيلين عادوا يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه (أصحاح ١٠ ـ آية ٦).

طالمـا بقي المـزارع الإسـرائيلي يعمـل بأرضه لم يكن بإمكانه التراجع والإبتعاد عن طقـوس الآلهـة الكنعـانية، وفي الأوقات المحددة، كان يقوم بما يتوجب عليه أمام يهوه، لكن الآلهة الزراعية التي عرفها الكنعانيون منذ القديم، كانت أقرب إلى روحه ونفسه، ففي سفر يوشع الذي يعود إلى القرن الثامن ق.م (أصحاح ٢ ـ آية ٥ ـ ٨) يوجد مقطع يؤكد بما لا مجال للشـك فيـه، تلك البـواعث والأسبـاب الحياتية إننا نقرأ هناك حرفياً: «. . . لأنها قالت (أم أبناء إسرائيل، ـ المؤلف ـ) اذهب وراء مُحبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتاني، زيتي وأشـربتي. . . وهي لم تعـرف إني أنـا (يهـوه ـ المؤلف) أعطيتهـا القمـح والمِسطـار والزيت، وكثّرت لها فضةً وذهباً جعلوه لبعل».

إن هذا المقطـع يظهـر بوضـوح مدى تأصـل طقـوس آلهـة الكنعـانين في نفـوس

الإسـرائيلين ونستنتـج من مواقـع أخرى في التوارة أن تلك الطقوس عاشت عند الإسرائيلين قروناً عديدة، واستمرت حتى بعد سقوط أورشليم عام ٥٧١ ق. م، ونقرأ في سفر القضاة أن يوآش أبـو البطـل جدعـون كان من أتبـاع بعـل. ولمـا حطم جدعون مذبح بعل وبنى مكانه مذبحـاً ليهـوه انفجـر الإسرائيليون غضباً وطالبوا بموته، لكن جدعون، نفسه، يصنع لنفسه بعـد انتصـاره على أعـدائـه أفـوداً من الـذهب. والأفـود عنصـر من عنـاصر الطقس الديني الكنعاني. ومن نفس السفر نعلم أنه، عدا عما سبق فقد أعطى أهل شكيم لأبيمالك، من أجـل الانقـلاب المـزمـع القيـام به، سبعين شاقلاً فضة من بيت بعل؛ اكتشفت في ميصبا أنقـاض معبـدين واحـد لبعـل والآخر ليهوه، ويقع أحدهما بجانب الآخر ويعود كلاهما إلى القـرن التـاسـع ق. م، والممتـع في الأمـر أن الكثير من تماثيل عشتار وجدت في المعبدين على السواء، فخامر الشكّ قلوب الآثريين، أيكون سكان شكيم قد جعلوا من عشتار زوجة ليهوه؟ إن هذه الفرضية ليست خيالية للدرجة التي نتصورها في بداية الأمر، فالحقبة الأكثر حداثـة تعطينـا دليـلاً على أن مثل ذلك الأمر محتمل الوقوع عند الإسرائيليين. فبعد سقوط أورشليم، استـوطنت مجمـوعـة من اليهـود الهـاربين جزيرة إيليفانتين المصرية الواقعة عند أسـوان، وبنـوا هنـاك معبـداً مشتركاً ليهوه وزوجته عشتار التي اطلقوا عليها الاسم الكنعاني عنات ـ يهو.

وقد يكون طقس عشتار قد وجد لنفسه مكاناً في شيلوه عاصمة اليهوهية آنذاك، وذلك خلال حكم الكاهن الأعلى إيليا.

أمـا أيـام الملك سليمـان فقـد عُبـد بالإضافة ليهوه بعل وعشتار اللذين وضعت لهما مذابـح خاصـة بهمـا في معبـد أورشليم، ولـم يكن بالإمكـان القضـاء على طقـوس آلهـة الكنعانيين حتى في فترة إعادة الحياة اليهوهية وبلوغها ذروة مجدها عام (٦٠٩ ق. م)، وقد أكـد هذا الكـلام النبي إرميـا، فهـو عندما عاد إلى أورشليم يائساً من المصريين والبابليين، رأى الأولاد يجمعـون الحطب للمـواقـد التي عزم آبـاؤ هم إقامتها والإحراق فيها على شرف (إلهـة السمـاء)، في الوقت الذي خبزت فيه النساء خبزاً مقدساً مرسوماً عليه صورة عشتار، وأجابه الناس رداً على اتهاماته لهم: إنه من الواجب عليهم تقديم القرابين للآلهة كي تكثر من طعامهم. وقد اشتكوا له من أنهم يواجهون الصعوبات الواحدة تلو الأخرى منذ أن حاول أسـلافـه القضـاء على طقس عشتـار، فأورشليم وقعت بايـدي الخـالـدين، وأخذ قسم من سكـانهـا إلى مابين النهـرين، أما القسم الآخر اضطر للبحث عن ملجأ في مصر. ولم تجد

شروحات إرميا بأن أسباب تلك الكوارث تعود إلى الابتعاد عن يهوه، وعن نبذ طقسه، كما إنها لم تجد أذناً صاغية لدى اليهود.

لقد ترك تأثير الديانة الكنعانية بصماته الواضحة في الأدب التوراتي. ففي المزامير نجد تشابهاً كبيراً مع نشيد أوغاريتي قديم يدل على هذا التماثل الغريب في الأفكار العامة، وفي تسميات المناطق السورية المذكورة فيها، وكذلك نجد تأثيراً كبيراً فيها للغة الأوغاريتية، كما أثبت العلماء أن الكثير من الآيات التوراتية ليست إلا مقاطع أخذت كما هي من ملحمة شعرية أوغاريتية قديمة، كما إن الكثير من الأمثال نسخت عن أصول كنعانية، بل واعتبر بعض الباحثين أن نشيد الأنشاد ليس سوى مجموعة أغان كانت ترتل على شرف الإله تموز.

يصبح لنا الحق على ضوء ماتقدم ذكره أن نتساءل بأية معجزة حافظت ديانة موسى على وجودها في تلك الظروف؟

يجب هنا أن نتذكر وقبل كل شيء. أن الإسرائيليين لم يرتدوا نهائياً عن إله قبيلتهم عندما كانوا يتبعون آلهة الكنعانيين ففي الكثير من المناطق كانت تقام معابد يهوه قرب معابد بعل، ولم يمنع بناء بعض الملوك مثل سليمان مثلاً معابد لبعل من أن يبقى هؤلاء الملوك أتباعاً ليهوه واليهوهية؛ وبذلك يكون الوضع آنذاك وضعاً إشراكياً، يشغل فيه يهوه حسب الظروف مكاناً أعلى أو أدنى في مجموعة الآلهة الموجودين. وعلى الغالب قد تكون وُجدت في عهد البلبلة العظيمة تلك تجمعات لأتباع يهوه الغيورين الذين لم ينقادوا وراء تيار الارتداد، والذين دافعوا مراراً عن عقيدتهم. فعندما طاردت زوجة الملك آخاب إيزابيل الأنبياء اليهوهيين، أخذ عوبيديا، خادم الملك مائة من الأنبياء، وخبّأهم (خمسين رجلاً) في مغارة وعالهم بخبز وماء». (سفر الملوك الأول ـ أصحاح ١٨ ـ آية ٤).

عدا اللاويين والكهنة، كان يتبع تعاليم موسى أناس نذروا أنفسهم لذلك أو نذروا له، وقد مر معنا ذكر شمشون كمثل على هؤلاء الناس فالمنذرون أو الناذرون، أولئك لم يشربوا خمراً ولم يأكلوا نجساً ولم يلمسوا ميتاً.

والأمتع من ذلك كان الريخابيون، أبناء ريخاب الذي ألغى كل خدمة بعل في عهد آخاب. فالريخابيون لم يشربوا الخمر، ولم يعملوا في الزراعة، ولم يزرعوا الكرمة، عاشوا في خيام الرعاة البدائيين ونبذوا الطقوس الكنعانية، وما ينتج عنها من آثار دينية عامة، وسيئة وكانت تلك المحاولات للحفاظ على النظام الموسوي الرعوي خطأ تاريخياً، لذلك لم

يجد الريخابيون شعبية لهم بين الإسرائيليين، وفي الفترة مابين ٦٢٠ و ٦٠٩ (ق.م)، قام كهنة أورشليم بهجوم عنيف على المرتدين وحاولوا إدخال نظام تيوقراطي، والسيطرة باسم يهوه، أما في الحقيقة فإنهم كانوا يبغون تحقيق أهداف سياسية، معولين على ظواهر الأمور في تعاليمهم الدينية، ومارسوا الطقوس والعادات المتبعة.

وتحت تأثير الأنبياء وتعاليمهم الأخلاقية، أوصل الإسرائيليون، وبالتدريج، ديانتهم إلى درجة الوحدانية الأخلاقية النظيفة، فصار يهوه في معتقداتهم، إلهاً وحيداً وشاملاً، في كل الكون، وهكذا تكون الوحدانية العبرية، نتيجة متأخرة ونهائية لمسير تاريخي صعب مر عبر قرون من التيه والعذاب والكوارث السياسية. عاشت إسرائيل في عهد القضاة فترة حروب أهلية، ضَعفت فيها الوحدة الدينية، وقد ترسم لنا صورة جلية عن تلك العلاقات الداخلية ثلاث قصص توراتية: قصة فعلة بني أفرايم الدنيئة، وقصة القضاء على غالبية بني بنيامين وقصة الانقلاب الدموي الذي قام به أبيمالك.

وللقصة الثالثة أهمية خاصة، ذلك لأننا نجد فيها معلومات إضافية عن التركيب الطبقي للمجتمع الإسرائيلي، وعن الاتجاهات السياسية التي تعتبر بشائر النظام الملكي اللاحق، ونقرأ في سفر القضاة (أصحاح ٨ ـ آية ٢٢) مايلي: «وقال رجال إسرائيل لجدعون: تسلط علينا أنت وأبنك وابن ابنك، لأنك قد خلصتنا من يد مديان».

لم يقبل جدعون تاج الملك لكنه صار في الحقيقة ملكاً حقيقياً، فقد حكم في عاصمته كأي طاغية شرقي أنموذجي وامتلك حريماً وعشيقات أنجبن له سبعين ولداً.

لماذا لم يرض جدعون شكلياً القبول باللقب المعروض عليه؟ مما لاشك فيه أنه كانت بين الإسرائيليين آنذاك مجموعة معينة من الناس الذين رأوا في النظام الملكي المخرج الوحيد من الفوضى والمنفذ الوحيد من الفناء، فحسب قناعتهم كانت السلطة المركزية هي القوة الوحيدة القادرة على توحيد القبائل الإسرائيلية في جهة واحدة، ضد قوة الكنعانيين المتنامية، لكن اولئك الملكيين كانوا أقلية على الأغلب، فالقاعدة الشعبية العريضة كانت تخشى الاستبداد وتتمسك بشدة بالانعزالية القبلية. وقد حسب جدعون حساباً لهذا الأمر، لذلك امتنع عن قبول العرش مع أنه كان يمكنه القبول بذلك، لأنه وبفضل هيبته الشخصية، تمتع بسلطة لاحدود لها على القبائل التي خضعت له.

إن قصة أبيمالك تبين لنا مقدار قوة معارضة الملكية، كما تعرفنا على الطبقات التي تعمقت تلك المقاومة عندها أكثر من غيرها، ولكن أبيمالك لم يكن ملكاً، بل مغتصباً،

تسلم السلطة بواسطة أقربائه في شكيم، فبالمال الذي أعانوه به استأجر مرتزقة، ذبح إخوته، وفرض نظاماً دموياً رهيباً.

وهو مع ذلك لم يصعد على العرش إلا ثلاث سنوات، وقد كانت شكيم هي المدينة التي أعطت إشارة البدء في العصيان عليه، شكيم التي ساندته في انقلابه الحكومي، لماذا هي شكيم، مدينته الأم بالذات؟ فالجواب يأتينا إذا قرأنا في سفر القضاة مايلي (أصحاح ٩ ـ آية ٦) «فاجتمع جميع أهل شكيم، وكل سكان القلعة، وذهبوا وجعلوا أبيمالك ملكاً». والقلعة المذكورة تلك لم تكن سوى حي ارستقراطي يشبه لدرجة ما، الأكروبول الأغريقي. لقد اكتشف الأثريون مثل ذلك الحي في أورشليم أيضاً وفي مدن أخرى. وكان الحي الواحد عبارة عن قطعة أرض مستوية محاطة بالتحصينات الدفاعية، وبجدارٍ تقبع خلفه قصور القادة والعائلات الأرستقراطية.

وهكذا وُجد مفتاح اللغز، فنحن نعرف قبل كل شيء من هذا مدى العمق الذي وصلت إليه الفروق الطبقية في المجتمع الإسرائيلي آنذاك، وعدا ذلك فإننا نستنتج أن أنصار الملكية كانوا من الأرستقراطيين وأصحاب الامتيازات. وأنهم هم الذين كانوا وراء تنصيب أبيمالك ملكاً، ثم تأتي الآيات ٢٣ و٢٤ من نفس الأصحاح لتبدد كل الشكوك حول هذا الموضوع، تقول الآيتان: «. . . فغدر أهل شكيم بأبيمالك. ليأتي ظلم بني يرُ بعل السبعين، ويجلب دمهم على أبيمالك أخيهم الذي قتلهم، وعلى أهل شكيم الذين شدوا على يديه لقتل أخوته. . .».

وبعبارة أخرى، كان عصيان شكيم عصياناً شعبياً ضد المغتصبين وضد حكم الطغمة وضد الأقلية، وبالتالي فإنه كان يحمل صفة الثورة الاجتماعية، ويمكن الحكم بوصفها الشعبية لأن الشعب قاوم بعناد شديد، ولم يبال بالموت، كما تؤكد لنا الصفة الشعبية العامة لذلك العصيان، الحقيقة القائلة: إن النساء أيضاً، شاركن به، فكانت هناك امرأة وراء جرح أبيمالك المميت، إذ ألقت عليه قطعة حجرية كبيرة.

ويمضي زمن طويل، بعد موت أبيمالك، قبل أن يتجرأ الإسرائيليون على انتخاب ملك لهم. إنهم لايقدمون على ذلك إلا بسبب الخطر المتزايد عليهم من جهة الفلسطينيين. بل وحتى آنذاك، وفي تلك الظروف، كما تدل قصة صموئيل، كانت معارضة الملكية قوية ونشيطة.

على الرغم من أن سفر القضاة الذي وصلنا بشكل غير شكله الحقيقي، والذي يعود

إلى حقبة زمنية أحدث بكثير من أحداثه، على الرغم من ذلك فإننا نجد فيه عدداً غير قليل من الإثباتات على أنه اعتمد على وثائق تاريخية قديمة؛ وكمثل، نورد قصة النبية دبورة الإسرائيلية فهي نبية وشاعرة، إن لهذه القصة مصدربن مختلفبن، بل ومتضادبن. القصة في النص عن الملك ليابين الذي اضطهد الإسرائيليين بعنف وقائده سيسرا، ونشيد النصر للنبية دبورة، ففي الصيغة الثلاثية، يعتبر الملك ليابين العدو الرئيسي لإسرائيل، أما سيسرا فهو عبارة عن منفذ مأمور لإرادة سيده لكن في النص الشعري لم يذكر ليابين أبداً بينما يُصوّر سيسرا على أنه الملك الحقيقي، كما أن التباين واضح في الفرضيات عن موت سيسرا: ففي النص النثري يموت ميتة مروعة وهو نائم، أما في الملحمة فيقتلونه من الخلف وهو يشرب الحليب.

لقد أثبت التحليل اللغوي للنص أن النشيد القاتم المنسوب لدبورة، مليء بصليل السلاح وينتهي بنفس الوقت بنبذة إنسانية محضة (الحديث عن أم سيسرا وإنشغالها بغياب ولدها). وكما أثبت التحليل اللغوي فإن هذا النص واحد من أقدم آثار الأدب العبري القديم. بل ويفترض أنه ظهر في الزمن الذي حدثت فيه الأحداث التي نتكلم عنها، ولذلك فهو يعطي صورة حقيقية لحياة الإسرائيليين في أول فترة احتلالهم فلسطين.

كما وإن قصة يفتاح قد نهلت من مصادر قديمة جداً، وذلك للنذر الذي قطعه يفتاح على نفسه، وكان السبب في تقديم ابنته المحبوبة قرباناً للآلهة. فعادة تقديم القرابين تلك تعود بلا شك إلى تاريخ الانسانية القديم جداً.

حتى إن بعض الباحثين الممتعضين من قيام البطل التوراتي بجريمته الوحشية تلك أطلقوا نظرية مفادها أن يفتاح لم يقدّم ابنته قرباناً، بل أخفاها في أحد معابد يهوه السرية، كما يقول هؤلاء الباحثون أيضاً إن موكب الحداد الذي تقوم به بنات إسرائيل لتبكي موت الفتاة، ليس في الحقيقة إلا طقساً كنعانياً، يقام على شرف عشتار آلهة الخصب، أخذه الإسرائيليون عنهم.

غير أن باحثي التوراة الأرثوذكسيين لم يفسروا قط تصرف يفتاح بالمعنى الرمزي له، أما المؤرخ العبراني فلافيوس يوسيسفوس (القرن الأول للميلاد) وما يسمى بالتلمود البابلي (القرن السادس للميلاد)، فقد فسرا قربان يفتاح بالمعنى الحرفي له كحقيقة تاريخية صرفة. ومع أن التوراة تشجب بعنف القرابين البشرية معتبرة ذلك جريمة نكراء، فإن تصرف

يفتـاح ليس وحيـداً، فالنبي صموئيل قطّع الملك إزبا أمام مذبح يهوه، وداود شنق سبعة من أبناء شاول، ليشبع جوعه.

بالطبع ليس من المنطق تقييم تلك الوقائع من وجهة نظر المفاهيم الحالية للأخلاق والمعـاييـر الأدبية لأنبياء حقبة ظهور فكرة التوحيد، علينا ألا ننسى عن أية حقبة زمنية قديمة يدور الحـديث، فالمقصـود هنا: القرون الثاني عشر أو الحادي عشر أو العاشر ق.م. وهي عصـور إيفيجيني وكليتمنصـرا والحـرب الترايانية، وأحد أطرافها الملك الكريتي أيدومي، الذي قدم ولده قرباناً للإله شكراً له على إنقاذه له من عاصفة بحرية آنذاك لم تكن القبائل العبـريـة بتطـورها الروحي تقف أعلى أو أدنى من الشعوب الأخرى التي كانت تعاصرها بما فيهم اللاويين وغيرهم، وتعتبر الأسطورة الممتعة عن راعوث المخلصة مثالاً ممتازاً لطريقة دمـج مواضـع قديمـة بأخـرى حديثـة في قصة واحدة. فالتراكيب الآرامية الكثيرة في النص تؤكـد أنـه رأى النـور في وقت لاحق لأحداثه، ويُفترض أن ذلك حصل بعد الأسر البابلي، فقـد توصـل بعض البـاحثين إلى نتيجة مفادها أن قصة راعوث ليست إلا أحجية سياسية في قالب مجازي، تعـبرّ عن الاحتجـاج على قوانـين عزرا ونعمي الهمجيـة التي لم تكتف بعـدم الاعتـراف بالـزواج المختلط، بل فرضت طرد النساء الغريبات المتزوجات من عبرانيين من أورشليم، لقـد أراد مؤلف الأسطـورة تذكيـر المتطـرفين من اليهود بأن راعوث أم جدة ملك إسرائيل العظيم داود كانت مؤابية. وبالتالي فلا داعي لشجب الزواج المختلط ولاضرورة لاستنكاره.

وإذا كان الأمــر كذلــك فعـلاً فلا بد للمؤلف من الاعتمـاد على أسطـورة أقـدم من أسطـورة راعـوث تشبههـا تمـامـاً، لأنهـا تحدثت حول الموضوع نفسه، ذلك لأن العادات الموصوفة في قصة راعوث قد بَطُلت من الاستعمال في الحقبة مابعد البابلية. وإليكم مثالاً آخـر: كانت أحقيـة جمـع السنـابل وراء الحصادين مكسباً قديماً ومساعدة للفقراء والأرامل واليتامى والمسافرين، وقد اعتُمدت هذه الأحقية في تعاليم موسى، غير أن هذا التقليد قلما اتبع بعد أن بدأ الإسرائيليون يسكنون المدن. وبعد أن أخذت تنمو الفوارق الطبقية بينهم، وقـد شجب بعض الأنبيـاء وخـاصـة عامـوس وميخـا الأغنيـاء بسبب اضطهـادهم للفقراء، «اسمعوا، إنهم عطشى لابتلاع المساكين وقتل الفقراء» يصرخ عاموس.

أمـا العـلاقـات الاجتمـاعيـة الأخـلاقية، المصورة في الأسطورة والتي يزعم أنه من خلالهـا، عاش المـزارعـون ورعـاعهم وخـدمهم في تفـاهم ودون إشكالات، وأن أنفسهم

جميعاً كانت مليئة بالشفقة على الفقراء، ليست إلا خطأ في تسلسل الأحداث تاريخياً.

وعـادة أخـرى موصـوفـة في قصـة راعوث، كانت أقدم وأقدم بكثير، ونقصد بها مبدأ الأحقيـة أو الأولـويـة الـذي يوجب على أخي الميت الزواج من أرملة أخيه إن لم يكن لديها أولاد. وفي حال امتنـاع الأخ عن ذلـك كان يحق للأرملة مطـالبتـه بذلـك قضائياً، فراعوث تزوجت من بوعز حسب قانون الأحقية هذا الذي استمر عند الإسرائيلين حتى القرن الأول للميلاد.

غيـر أن عادة خلع الـرجـل الـرافض للزواج لنعله كإشـارة لتخليـه عن الأرملة لصالح القـريب التـالي، لم تعـد موجـودة بعـد السبي البـابلي، ذلك لأن تلك الإشارة التي محاها الـزمـان كانت منطقيـة ولهـا مدلولها في الأوقات التي لم تكن الكتابة معروفة فيها بعد، ولم يكن تسجيـل الإجـراءات القـانـونيـة متبعـاً بعـد. وبالمناسبة كانت لهذه العادة في شكلها البدائي آثار كثيرة وصاخبة، فكان إذا ما امتنع القريب عن القيام بواجبه، فإن الأرملة تخلع نعله بالقوة، وتبصق في وجهه، جالبة له استهزاء المجتمع وسخريته.

إننا ببحثنا في مواضيع سفر القضاة، التي تثير الفضول أكثر من غيرها تركنا إلى النهاية مناقشة شخصية شمشون، لأن قصته تلعب دور مقدمة ومدخل إلى قصص صموئيل وشاول وداود.

لاشـك أن شمشـون شخصيـة خرافيـة، وهـو يُذكّـر في بعض صفـاتـه، بجلجامش السـومـري وهـرقـل الإغـريقي حتى أن العلمـاء افتـرضـوا أن شمشون في بداياته كان إلهاً أسطورياً عند القبائل التي عبدت الشمس، فقد كان في كنعان الكثير من أتباع هذه الديانة. فاسم شمشـون يعـود لغـويـاً إلى الأصـل العبري القديم (شَمَشْ) والبابلي (شامشو)، وكلا الكلمتين تعنيـان (الشمس)، وعـدا ذلـك فإنـه من المعروف أنه يوجد في بيت شِمش على مسـافـة غيـر بعيـدة من قرية شمشون الأم معبد لإله الشمس، فليس من المستبعد أن تكون شخصية شمشون مسروقة من إله ما كان مشهوراً في كنعان.

لايعني ما ذكرناه أعلاه أبداً أن البطل التوراتي ليس من نتاج الخيال العبري القديم، الذي أعطاه صورة رجل ماجن مقدام متهور، لايكف عن ألاعيب الصبيان الشيطانية، بطل طفـولي ساذج: يالهـا من شخصيـة نمـوذجية رائعة من الخيال الشعبي! ويظهر في تصرفاته اليـوميـة وأمـوره الحيـاتيـة مزاح قدمـاء رعـاة العبـرانيين الثقيـل، وشغف الشرق المعروف بالقصص الأسطورية وبقصص المغامرات.

لقد منح الشعب شمشون مودته وحبه، وناقش بمتعة مغامراته الغرامية، وتابع بفرح حكايا الكيفية التي كانت ينتقم بها من الفلسطينيين، لقد انعكس في شخصية شمشون وعي الإسرائيليين السياسي الذاتي والضعيف، الذي كان في بداياته تلك الأيام، فشمشون لم يكن زعيماً أو قائداً كما هو الحال بالنسبة لبقية القضاة الذين كانوا يدعون إلى مقاومة المضطهدين وينظمون تلك المقاومة، فمصارعاته تحمل صفة الوحدانية، صفة صراع فدائي متطرف يريد الانتقام ممن أغضبه، أو يريد إغضابه، ولا تكمن البطولة وراء تصرفاته، بل رغبته في تصفية حسابات شخصية، وفي نهاية القصة فقد تسمو شخصية شمشون، لتصير شخصية بطولية ومأساوية حقاً، وتبدو تلك النهاية المؤثرة وكأنها تحمل نذيراً عن أزمان جديدة تدرك فيها القبائل الإسرائيلية المتفرقة، الواقعة تحت تأثير خطر الفلسطينيين المتنامي، تدرك ضرورة الاتحاد من أجل الصراع للحصول على الحرية.

كان على شمشون أن ينفذ نذراً منذ طفولته تلبية لرغبة والديه، لكنه لم ينفذ إلا المطالب الظاهرية للنذر: لم يحلق شعره ولم يشرب الخمر، وفيما عدا ذلك فإنه كان أبعد الناس عن القواعد الدينية. لذلك لايمكن وصفه بالمناضل من أجل اليهوهية، فهو يتصرف بغرامياته مع الفلسطينيات وفي معاركه، وفي مغامراته الدموية المشكوك بصحتها من الناحية الأخلاقية، يتصرف كمتوحش/وكوثني، ولم يكن شمشون قاضياً حكيماً وقائداً لقبيلته ولا إنساناً متديناً محافظاً على تعاليم إلهه.

لذلك من غير المفهوم، لماذا أدخل مؤلفو التوراة قصته في كتبهم الدينية والتعليمية، جاعلين منه مثلاً يحتذى، ولم يكتفوا بإدخال قصته فقط، بل وبطبيعية فظة، وضعوا أشياء لاتصلح حقيقة لكتاب يدعى «مقدساً»، وعدا ذلك فإنهم في قصة شمشون نظروا على غير العادة برفق وهدوء إلى غرامياته مع نساء غريبات، ووافقوه، برضى نفسي على أفعاله الوحشية؟ ما الذي حصل حتى أدخل مؤلفو التوراة ذلك البطل الجلف بطل القصص الشعبية إلى «المجتمع الجيد» مجتمع الزعماء والملوك والأنبياء؟ أظن أن الجواب بسيط. صار شمشون رمزاً لفترة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فارتبط اسمه ونما مع التقاليد الشعبية، حتى أصبح السكوت عنه شيئاً مستحيلاً.

فالصراع مع الفلسطينيين كان صراعاً من أجل الوجود القومي، وبالتالي من أجل الحفاظ على الديانة الإسرائيلية، ولهذا السبب صار لكل تصرفات وأفعال شمشون معنى وأهمية دينيين عند اليهوهين؛ كنا قد ذكرنا سابقاً أن شمشون شخصية أسطورية، لكن نواة

تلك الأسطورة مؤسسة ومبنية على حقائق تاريخية معينة، فالصدامات المسلحة مع الفلسطينيين رسمت طريق إسرائيل على مدى مائتي عام على الأقل، وانتهت تلك الصدامات آخر المطاف بانتصار الملك داود.

كانت المعلومات والمعطيات المتوفرة لدينا عن الفلسطينيين، ولوقت قريب، ضئيلة جداً، لكننا بفضل الاكتشافات الأخيرة في مصر وبلاد مابين النهرين، وبفضل فكّ رموز الألواح المسمارية لهاتين المنطقتين، حصلنا على معطيات كاملة نسبياً عن ماهية الفلسطينيين وعن منشئهم.

وإذا مارغبنا في وضع تصور عنهم، وفهم الظروف التي ظهروا فيها بأرض كنعان، فيتوجب علينا أولاً التعرف على الحقبة الزمنية التي عاشوا فيها ونشطوا، ان الاكتشافات الأثرية في مكدونيا (في شبه جزيرة البلوبونيز اليونانية) وفي كريت والأناضول وسورية وفلسطين ومصر، تعطينا مخزوناً كبيراً عن تلك الحقب المنفصلة غير المدروسة سابقاً.

في الألف الثانية قبل الميلاد. عاش في كريت شعب أنشأ حضارة رفيعة المستوى على شاطيء بحر إيجه. وأقام تجارة لها أهميتها العالمية، وفي الفترة الزمنية نفسها سكنت البيلوبونيز قبائل لانعرف أصلها ولغتها، هاجم الإخائيون المدرعون بالبرونز، وذوو النزعة الحربية، تلك القبائل، وسيطروا عليها، وشاد الأخائيون قلاعاً من الحجر في مكدونية ومناطق أخرى من أرهوليدا، ويذكر المؤرخ اليوناني توكيديدس أنهم بنوا أسطولاً قوياً هددوا به كريت، كما إنهم مارسوا القرصنة البحرية.

وابتداء من القرن الخامس عشر (ق. م)، بدأ الإخائيون بقيادة الأتريديين الذين ينتمي إليهم أغاممنون، يطردون الكريتيين من مستعمراتهم في جزر بحر إيجه وشواطيء آسيا الصغرى، وعام ١٤٠٠ ق. م احتلوا كريت، وأبادوا حضارة مينوس الزاهرة (نسبة للملك الأسطوري مينوس)، وفي عام ١١٨٠ ق. م، وبعد عشر سنين من الحصار، دخلوا طروادة وأحالوها إلى كتلة من الدمار، لكنهم لم يستثمروا نجاحاتهم فترة طويلة. فمن العمق الأوروبي قدمت قبائل إغريقية وبربرية تعرف بالدوريين، الذين احتلوا البلويونيز وكريت وجزر بحر إيجة وشواطيء آسيا الصغرى.

وتحت ضغط تلك القبائل، قامت على شواطيء بحر إيجة ثورة من الثورات السلالية، التي سببت تنقلات وهجرات الشعوب. فاتجه سكان البلقان وإيلليريا وجزر بحر إيجة المطرودين من مناطقهم (موجة وراء موجة) نحو الجنوب بحثاً عن مناطق استيطان

أخـرى، فعبـروا الأنـاضـول وآسيـا الصغرى وسورية وبلاد كنعان، ووصلوا إلى دلتا النيل، حيث انتصر عليهم الفرعون مرنفتاح، وأرغمهم على الانسحاب.

غيـر أن أهم زحف للقبـائـل الاغـريقيـة، كان ذلـك الذي تم عام ١١٩١ ق.م على مصر، فقد زحفت كتل هائلة من المقاتلين مع عائلاتهم وأملاكهم بمحاذاة شواطيء سورية وكنعـان، يحميهم أسطـول شراعي ضخم. فتتحطم تحت ضربـاتهم دولة الحثيين وتتحول عاصمتهم حاتوشاش (على نهرجاليس) إلى رماد، ثم تتحول كيليكية، التي طالما اشتهرت بأفراسها الأصيلة والكثيرة إلى غنيمة بأيدي المحتلين، كما تستسلم لهؤلاء المحتلين مدن جبيـل وصـور وصيـدا الفينيقية، فتحمي نفسها بذلك من الدمار. عبر المحتلون بلاد كنعان بمحـاذاة الشـاطيء، وتوغلوا في مصر مدمرين مناطقها الشمالية، فاضطر الفرعون رمسيس الثـالـث لوقف ذلـك الـزحف، فانتصـر عليهم في البـر والبحر ودمر أسطولهم، وحمت مصر نفسها من أعظم خطر تعرضت له في تاريخها. لكن لم تتوفر لدى رمسيس الثالث قوة كافية لطـرد المحتلين من سوريـة وكنعـان، وهكـذا استطـاع الـذين نجـوا من ضربـات رمسيس استيطان سهول الشواطيء الخصبة في جنوب كنعان، وقد حفظت وثيقة مصرية، بمحض الصـدفـة، فيهـا معلومـات قيمـة عن تلك الشعـوب الزاحفة، فعلى مسافة قريبة من طيبة: اكتشفت أنقـاض معبـد للإلـه آمون، جدرانه مليئة بكتابات ورسوم تشرح سير صراع فرعون ضد المعتدين، وتذكر أنه في الوقت الذي كان فيه مشاة فرعون يقاتلون الغرباء بشراسة في البـر، كانت سفنـه تدمـر اسطول العدو في البحر، وتوضح الرسوم كيف كانت الجثث تسقط في البحر، وكيف كان البحارة الخائفون يلقون بأنفسهم في مياهه الصاخبة، وتبيّن لنا لوحة منقـوشـة أخـرى العـربات تجرها ثيران محملة بالنساء والأطفال والغنائم الحربية، لقد كان ذلـك الـزحف ضربـاً من ضروب هجرة الشعوب لامحالة، فالرجال ـ طوال القامة، ذقونهم محلوقة، أنوفهم وجباههم إغريقية الشكل تماماً، ويحمل المقاتلون على رؤوسهم خوذاً من ريش الطيـور، تذكّـرنـا بخـوذ أبطـال هوميروس، وتبدو السيوف القصيرة العريضة والدروع الدائرية الصغيرة الحجم ذات منشأ إغريقي أيضاً.

وتطلعنـا الكتـابات الجدارية على أن المصريين سموا المحتلين (شعوب البحر) وأن المكـان الأهم عنـدهم يشغله مقـاتلو قبيلتي «دونـوي» و«أخـاي» وربمـا تكمن وراء هاتين التسميتين قبيلتا الدانيين والإخائيين الإغريقيتان القديمتان والمعروفتان لدينا.

كمـا نصـادف هناك التسميات المصرية للفلسطينيين ـ فِلِسْت أو «فرست» ورغم كل

هذه المعطيات فإنه لايوجد اتفاق تام حول أصل أولئك المعتدين، لكن حتى لو اختلطت هنا قبائل ذات أصول مختلفة، كما يعتقد بعض الباحثين. فإنه في كل الأحوال، كان هناك وجود فيها للإخائيين، الذين طردهم الدوريون من شبه جزيرة البلقان ومن آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة، وإن تلك القبائل المختلطة كانت تحت تأثير الحضارة الإغريقية.

بعد الحملة الفاشلة على مصر، استوطن الفلسطينيون كنعان، في الوقت الذي استوطنها الإسرائيليون على وجه التقريب. ونعرف من التوراة أنهم شغلوا الشريط الساحلي الخصب إلى الجنوب من جبل الكرمل، وأن مدنهم التي تكّون دولاً هي (غزة، عسقلون، أشدود، جت، عقرون) هذه المدن شكلت اتحاداً يسمى بالإغريقية «بنتارخيا» أي الخماسي، ولما حاولوا التوسع في العمق اصطدموا مع جيرانهم قبائل يهوذا ودان الإسرائيليتين وتشكل هذه الصدامات تحديداً، الخلفية التاريخية لقصة شمشون.

شكّل الفلسطينيون بين شعوب البحر مجموعة سلالية خاصة، وغير كبيرة العدد، ويحاول باحثوا التوراة والأثريون، جاهدين معرفة أكثر فأكثر عنهم. مع أن مجموعة من النجاحات قد حققت في هذا المجال. لذلك سنتحدث عن نتائج الابحاث التي أُجريت حتى الآن.

إذا ماصدقنا التوراة يكون الفلسطينيون من أصل كريتي، وهاهو النبي عاموس (أصحاح ٢٩، آية ٧) يتساءل باسم يهوه «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور؟». تقصد كريت بتسمية كفتور (ففي الألواح المسمارية البابلية - كفتورا)، ويبدد النبي حزقيال كل الشكوك حول ماإذا كانت كريت هي المقصودة بتسمية كفتور وليس غيرها، إذ يعتبر الفلسطينيين هم الكريتيون بشكل واضح، وبالتالي إذا اتفقنا مع القصة التوراتية، فإننا نصل إلى قناعة تقول أن الفلسطينيين كانوا الإخائيين الذين سيطروا على كريت، ومن ثم طردهم الداريون من هناك.

ولكن للأسف الشديد كثيراً مايتضح أن مثل تلك القصص مخادعة، ولاتحمل أهمية بالنسبة للإثبات العلمي، لقد تنبه العلماء إلى حقيقة جديرة بالاهتمام، إن لبعض الأسمار الفلسطينية أصولاً إيلليريه. كما إنه كانت توجد مدينة في إيليريا تسمى فالِسْت. وبما أن هجرة الشعوب الدورية بدأت من هناك تحديداً فليس من المستبعد أن يكون الفلسطينيون سكان إيلليريا قبل الإغريقيين، وطردهم من هناك محتلون آخرون، ولنستمع الآن إلى مايقوله علم الآثار على أساس الحفريات التي تمت في سورية وفلسطين، وهكذا فقد

وجدت في أوغاريت مدافن تشابه، بأنموذجها وشكلها، تماماً المدافن التي عرفتها الحضارات الإيجية والقبرصية والمكدونية، بينما تعود القطع الفخارية (أو بالأصح معظمها) المستخرجة من بين أنقاض المدن الفلسطينية في كنعان، إلى أصل مكدوني، فالكؤوس والأباريق مزخرفة بأشكال سوداء وحمراء على أرضية صفراء فاتحة! هذه الأواني كانت تستعمل في مكدونيا، وفي مدينة أجاممنونا، كما إن هناك لُقى أثرية أخرى أكثر أهمية من السابقة. تصف التوراة في قصة شمشون الفلسطيني بأنهم من هواة الحفلات الجماعية الصاخبة، ونقرأ حرفياً: «وكان لما طابت قلوبهم أنهم قالوا: ادعوا شمشون ليلعب لنا، فدعوا شمشون من بيت السجن، فلعب أمامهم وأوقفوه بين الأعمدة ـ وكان البيت مملوءاً رجالاً ونساء ـ وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين، وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة ينظرون لعب شمشون».

لقد أغنت المكتشفات الأثرية صورة الحفل الصاخب ذاك بشكل غير متوقع، فقد وجدت بين أنقاض المدن الفلسطينية كميات كبيرة من أباريق شرب الجعة، المزودة بمصبات ذات مصاف، لتعلق عليها قشارة الشعير، التي تسبح في الجعة الحديثة الطبخ، هكذا توضح أن الفلسطينيين كانوا، في بلد الخمر، من هواة شرب البيرة، مشروب المقاتلين الإغريقيين التقليدي.

ماالنتائج المستخلصة من تلك الحقائق؟ إننا لانستطيع التأكيد بإصرار على أن الفلسطينيين يعودون بأصلهم إلى القبائل الإغريقية العظيمة، لكن تأثرهم الطويل الأمد بحضارة الإغريق وأتباعهم لتقاليدهم حقيقة واقعة. ومن المحتمل أيضاً أن يكون بعض الإخائيين الهاربين من أرهوليدا وإيلليريا وآسيا الصغرى وكريت وجزر بحر إيجة، قد عاشوا فعلاً بين الفلسطينيين، وعلى الغالب أن يكون أولئك قبائل رحلاً ذات أصل إغريقي وغير إغريقي، اتحدت بعد الهزيمة في مصر من أجل السيطرة على كنعان.

وللحق، يمكن التساؤل كيف استطاعت تلك الحفنة الصغيرة من المحتلين، ليس فقط التمكن من الحفاظ على ما احتلته بل وإخضاع كنعان كلها مع مرور الزمن، وبما في ذلك الإسرائيليين؟ تبين أن غلبتهم كانت تعتمد على كونهم أحضروا معهم سر تطويع الحديد، فقد أعطتهم الأسلحة والأدوات المعدنية غلبة كبيرة على بلد كان لايزال يعيش حقبته البرونزية.

لنرجع إلى الوراء عدة قرون، كي نستطلع كيف وبأية وسيلة توصل الفلسطينيون إلى

تطـويـع الحـديـد. في مكـان ما في جبال أرمينية، سكنت قبيلة كيزباديان التي تعلمت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد طريقة صهر الحديد، إن تلك القبيلة لم تكتشف اكتشافاً بل وجدت طريقة رخيصة لتصنيع الحديد وبكميات كبيرة، ففي مصر وبلاد مابين النهرين عرف الحديد في الألف الثالثة ق.م، لكنه كان هناك نادر الوجود مما جعله أغلى من الذهب.

اخضـع الكيـزباديانيون الحثيين لسيطرتهم، وبالطبع أخذوا عنهم سر صهر الحديد، الذي حافظوا عليه كما يحافظون على أعينهم، عندما طلب أحد الفراعنة من صديقه الملك الحثي، أن يكشف له عن السـر، استلم جوابـاً لطلبـه، خنجـراً دقيق الصنع، ولكن بلا أي تعليق، وفي القـرن ١٢ قبـل الميـلاد، دمّـرت شعـوب البحـر الحثيين، وأخـذت سرجهم الحـديـد، الـذي طالمـا حافـظ الحثيـون عليه، وقد كانت تلك الغنيمة العظيمة الثمن من نصيب الفلسطينيين. يقـول سفـر صمـوئيل الأول (أصحاح ١٣ ـ آية ١٩ ـ ٢٠) «ولم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل، لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً. بل ينـزل كل إسـرائيـل إلى الفلسطينيين لكي يحـدد كل واحـد سكتـه ومنجله وفأسـه ومعوله. وعندما كلت حدود السكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس، ولترويس المناسيس. وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولارمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول ويوناثان ابنه».

وكمـا يفهم من هذه الكلمـات، وضـع الفلسطينيـون الإسـرائيليين تحت رحمتهم، وجعلوهم مرتبطين بهم بشكـل تام محـافظين بذلـك على احتكـارهم للحـديـد، احتكـاراً عسكـريـاً واقتصـاديـاً، إذ لم يكن أحد غيرهم في كنعان يستطيع تصنيع الأسلحة والأدوات الـلازمـة للصنـاعة والزراعة. في الحقيقة كان للإسرائيليين حق الحصول على الأدوات من الفلسطينيين. ولكنهم كانوا مضطرين للجوء إليهم مرات عديدة من أجل شحذها وتقويمها. وكان الفلسطينيون يأخذون أجوراً باهظة على أعمالهم. ومهما سبب هذا من استغراب فإن الأثـريـات أكدت صحة المعلومات الواردة في التوراة. فقد أخرجت من بين أنقاض المدن الفلسطينيـة السـابقـة (في كنعان) كميات كبيرة من الأدوات الحديدية، في الوقت الذي لم توجد فيه عملياً مثل هذه المكتشفات في مناطق كنعان الأخرى، وتتغير الصورة تماماً عندما نصل إلى طبقات الأرض العائدة إلى الحقبة التي أنهت سيطرة الفلسطينيين في كنعان، إذ نجد منذ ذلك الحين أن اكتُشِف الحديد بكميات كبيرة في كل أرجاء كنعان.

لذلك يعتبر انتصار الإسرائيليين انقلاباً اقتصادياً ناتجاً عن إنهاء الاحتكار الفلسطيني للحديد، ودخول شعوب كنعان السامية العصر الحديدي (عصر الحديد).

بعد قرنين من الصراع خسر الفلسطينيون المعركة، ورغم أنهم لعبوا منذ ذلك الوقت دوراً ثانوياً، لكنهم لم يختفوا من التاريخ، لأن تسمية فلسطين جاءت منهم وبهذه التسمية عُرفت فلسطين في الوثائق الرومانية الرسمية، فيكون الفلسطينيون بهذه الطريقة قد حققوا انتصاراً مفاجئاً، إنهم خُلّدوا إذ سميت البلاد التي جهدوا طويلاً لإخضاعها دون أن يتمكنوا من ذلك، باسمهم.

عصر إسرائيل الذهبي

الكاهن الأعلى عالي وولادة صموئيل

كانت مدينة رامتايم تنبسط عند سفح جبل أفرايم، وهناك عاش ألقانة، الرجل المتزوج من امرأتين: حنّة وفَنّنة، كان لفننة أولاد، ولذلك طالما هزئت من حنة العاقر، وفي كل عام عندما تأتي العائلة كلها إلى شيلوه لتقديم القرابين عند بيت الرب، تصلي حنة ليهوه، وتطلب منه ولداً ناذرة، إذا ماولد، أن تخصصه لخدمة المعبد طوال أيام حياته. كان كاهن المعبد الأعلى في تلك الأيام يدعى عالي الإنسان الطيب والمحترم والعجوز الهرم، في أحد الأيام وهو جالس أمام مدخل المعبد رأى حنة تصلي.

صلت زوجة ألقانه الحزينة بخشوع، تمتمت بشفتيها دون صوت، فاستغرب الكاهن ذلك، إذ جرت العادة على أن يشكو الحجاج ليهوه مصائبهم ومتاعبهم بصوت مرتفع. لذلك ظن الكاهن أن المرأة دخلت المعبد سكرانة فأخذ يؤنبها على ذلك، أجابته حنة بهدوء كبير: «لا ياسيدي إني امرأة حزينة الروح، ولم أشرب خمراً ولا مسكراً، بل أسكب نفسي أمام الرب». تأثر عالي بحزن المرأة وودعها قائلاً: «اذهبي بسلام وإله إسرائيل يعطيك سؤالك الذي سألته».

بعد حوالي السنة أنجبت ولداً سمته صموئيل، وعندما فطمته أخذته، تنفيذاً لنذرها، إلى شيلوه ليخدم في المعبد طوال أيام حياته، وأحضرت معها للكاهن ثلاثة ثيران وإيفة

قمح وزق خمر، وصلت لربها ودعت، ثم عادت سعيدة إلى رامتايم. أما صموئيل فخدم المعبد وأخذ يعد نفسه ليصبح كاهناً.

لم يكن لعالي الكاهن الأعلى، أن يعيش شيخوخة سعيدة، فولداه الكاهنان حفني وفينحاس، كانا فاسدين، وطالما سببا له الكآبة والحزن، كانا يطالبان الحجاج بأكثر ممّا هو مطلوب، ويمارسان الدعارة مع النساء القادمات للحج، ومع النساء اللواتي يخدمن المعبد، وعندما يقدم الناس القرابين، يأخذان لنفسيهما أكبر الحصص وأحسنها، فسبب شرههما ودعارتهما تذمراً في إسرائيل؛ أنبّهما أبوهما عالي كثيراً، وطالبهما بالعودة إلى الطريق القديم. لكنهما لم يسمعا كلامه. ولم تكن لديه القوة الكافية لإصلاحهما. لذلك تكونت لدى الشعب قناعة أن والدهما يغطي أعمالهما ويوافق عليها.

لم يعر صموئيل أي انتباه للظروف المحيطة به وخدم يهوه بجد وإخلاص وصار كاهناً، وذاع صيته في كل إسرائيل، وحتى عالي، رغم استمراره في حبه لولديه العاقين. وضع كل آماله في صموئيل واعتبره خليفة له. كان صموئيل جاداً في خدمة ربه لدرجة أنه كان يقضي الليالي في المعبد، وفي إحدى تلك الليالي سمع صوتاً يناديه، فركض إلى عالي ظاناً أنه المنادي، لكن عالي كان في نوم عميق، وفي الليلة التالية تكررت الحادثة نفسها، وفي الليلة الثالثة عرف عالي أن المنادي هو يهوه، فعلم صموئيل كيف يتصرف في مثل هذه الحالة. عمل صموئيل بنصائح عالي، ولما سمع الصوت يناديه من جديد، سقط على الأرض خاشعاً، وسأل يهوه عما يريد أن يقوله، فقال له يهوه شيئاً هزه وسبب له الاضطراب، وفي الصباح سأله عالي عن فحوى الحديث الليلي، امتنع صموئيل في البداية عن الجواب لكنه أخبر عالي أخيراً، أن يهوه ممتعض من تصرفات ولديه، ومن عدم معاقبتهما، وأنه سيقضي على نسل عالي عقاباً لهما. انهار عالي أمام خطورة النبأ، لكنه قال مسالماً: «هو الرب، مايحسن في عينيه يعمل».

انتشر نبأ حديث صموئيل مع يهوه بسرعة البرق في كنعان، فرأى فيه الإسرائيليون كاهناً مباركاً من الرب نبياً وحكيماً، وصار سنداً لكل إسرائيل في الوقت الذي فقد فيه الكاهن الأعلى وولداه ثقة الشعب.

القضاء على سلالة عالي

سيطر الفلسطينيون على يهوذا، وشنوا الحرب على أفرايم، وفي معركة أفيق(*١١) انتصروا وقتلوا اربعة آلاف إسرائيلي، فتذكر قادة إسرائيل العسكريون أن موسى ويشوع بن نون، لم يخوضا معركة قط، دون أن يكون معهما تابوت عهد الرب الذي يقبع فيه يهوه، وردوا سبب خسارتهم في أفيق إلى غياب التابوت، وأرسلوا في طلبه إلى شيلوه رجلين لاويين بقيادة الكاهنين حفني وفينحاس ولدي عالي.

وما إن وصل التابوت الذهبي معسكر الإسرائيليين حتى عمت الفرحة والسعادة قلوب المقاتلين، ونشبت المعركة من جديد، خسر الإسرائيليون خسارة فادحة، وبقي منهم في أرض المعركة ثلاثون ألف قتيل وهرب الناجون في كل الاتجاهات، لكن الطامة الكبرى لم تكن بالخسارة، بل بوقوع تابوت العهد بين أيدي الفلسطينيين المبغضين الكفرة.

كان عمر عالي الكاهن آنذاك ثمانية وتسعين عاماً، هرماً، نصف أعمى، جلس على الطريق ينتظر نتيجة المعركة وكان يرتجف خوفاً على تابوت عهد الرب. . ومع أنه كان واثقاً من قوته الإعجازية. فإنه أسف كثيراً لانصياعه لولديه وإعطائهما التابوت، أخيراً وصل أحد الناجين راكضاً، وأخبر عالياً بانكسارهم وبمقتل ولديه، وفقدان التابوت ففقد هذا وعيه، وسقط عن كرسيه ميتاً.

مصير تابوت الشهادة (العهد) العجيب

بعد انتصارهم في أفيق احتل الفلسطينيون أرض أفرايم، ودمروا شيلوه العاصمة الدينية للقبائل الإسرائيلية، والتهم الحريق أقدس المقدسات فيها، وهو خيمة الاجتماع - اجتماع موسى -، لقد حل على الإسرائيليين عصر العبودية والاضطهاد والأنين والألم، لكن بعد فترة من الزمن، لمع أول شعاع أمل فقد أخذت تصل من المدن الفلسطينية أبناء مؤثرة، انتشرت الأقاويل بأن الفلسطينيين نقلوا تابوت عهد الرب إلى أشدود، ووضعوه في معبد إلههم داجون، وحينما دخلوا المعبد صباح اليوم التالي، فاجأهم منظر مريع. إذ وجدوا تمثال إلههم ملقى عند تابوت العهد، وضعوا التمثال في مكانه. لكنهم وجدوه في

الغد قد سقط عند تابوت العهد، مقطوع الرأس واليدين، وفي الوقت نفسه، هاجمت أفواج هائلة من الفئـران مزارع أشـدود، أكلت محـاصيلهـا وزرعت الـوبـاء هنـاك. لذلك أفصح الأشـدوديـون لمـلاكهم الفلسطينيين عن رغبتهم في التخلص بأي شكـل من التـابـوت ـ الكـابـوس. فنقل التابوت إلى مدينة جت. وهناك انتشر وباء أشد من الأول، وذهب بأرواح الكثيـرين، فنقلوا التـابـوت إلى عقرون، لكن سكانها عارضوا بشدة قائلين: «قد نقلوا إلينا تابوت إله إسرائيل كي يميتونا نحن وشعبنا». اجتمع الملاك الفلسطينيون للتشاور، لكن كل المـدن رفضت استقبـال التـابـوت، فالخـوف من قوته الجبارة أصاب الناس بالهلع. أخيراً نصح العرافون بإعادة التابوت إلى أصحابه. أخذوا بقرتين مرضعتين، وربطوهما إلى عربة وضعوا فيها التابوت وصندوقاً يحتوي قرابين الأثم التي قدمتها المدن الفلسطينية الخمس. حبسـوا ولـدي البقرتين في البيت ثم اطلقوهما، فاتجهت البقرتان اتجاهاً مغايراً لما يقتضيه شعور الأمومة، فقد اتجهتا نحو الحدود الإسرائيلية وليس نحو ولديهما. بعد سبعة أعوام من الأسر، وعاد التابوت إلى بلد الإسرائيليين؛ في بيت شمس كان موسم الحصاد على أشده عندما رأى الأهالي العربة التي تحمل التابوت المقدس، فرحوا كثيراً وانزلوا التابوت ووضعوه على صخـرة في وسـط الحقـل، وشقوا خشب العجلة وأصعدوا البقرتين إلى محرقة للرب، لكنهم ارتكبـوا خطأً جسيمـاً، إذ نظـروا إلى تابـوت الرب ليروا مابداخله، فغضب يهوه أيما غضب وضـربهم ضربـة أودت بحيـاة خمسين ألف إنسان من بيت شمس. ثم أخذ التابوت إلى قريـة يعـاريم حيث اعتنى به إبينـاداب، وابنـه أليعـازر، حتى نقله الملك داود بموكب مهيب إلى أورشليم.

صموئيل الحاكم

كانت سنوات العبودية والذل تمر وشيلوه مدمرة، وعاد شاول إلى رامتايم مسقط رأسه، وازدادت شهرته انتشاراً، كانت الأحلام تتتابع عليه، واشتغل بالعرافة والتنبؤ، وأعلنها حرباً ضروساً على آلهـة الكنعـانيين، وأسس مدرسـة للأنبياء، حيث يغني ويرقص، وتلاميذه، على أصوات الموسيقا والطبول، حتى يصلوا إلى ذروة النشوة الدينية، وطالما تنبأ في تلك الحـالـة بالنصـر القـريب ليهوه على مضطهدي إسرائيل، فعمت مشاعر كراهية للفلسطينيين البلاد بسرعة كبيرة.

لم يكن صموئيل مقاتلاً ولا قائداً عسكرياً بل حاكماً حكيماً لشعبه، كان كاهناً أعلى وقاضياً يزور ثلاث مرات في السنة بيت إيل والمصفاة وجلجال، ليقضي بين الناس وتقبلت القبائل أحكامه، ونفذتها دون اعتراض، فقد برز لدى الإسرائيليين قائد من جديد، قائد يوجههم نحو طريق صعبة، طريق الانبعاث الداخلي والوحدة السياسية.

مضى عشرون عاماً، دعا صموئيل الإسرائيليين إلى اجتماع في المصفاة للاتحاد من أجل النضال التحرري، فوجه إليهم الفلسطينيون المتخوفون من العواقب جيشاً عرمرماً ليقضوا على بوادر حركة العصيان في مهدها. لكن عاصفة رهيبة هبت قبيل المعركة. قزرعت الصواعق والبرق والفوضى في صفوف الفلسطينيين. استغل الإسرائيليون الوضع، وهاجموا الفلسطينيين ملحقين بهم خسائر فادحة، فهرب المحتلون، وعادوا إلى بلادهم، وقد ضعف الفلسطينيون بتلك الضربة المفاجئة بحيث فقدوا الرغبة لمثل حملتهم تلك لزمن طويل. فتفرغ صموئيل لتعزيز سلطته، وصارت رامتايم عاصمة إسرائيل الدينية المقدسة. وقام النبي العظيم والقاضي الثقة صموئيل ببناء محرقة جديدة هناك ليهوه، وحلم بتعزيز النظام الذي أسسه وبأن تصبح السلطة الدينية المقدسة شيئاً يملكه ويورثه لأولاده من بعده فتبقى تلك السلطة في عائلته إلى الأبد. علم أولاده أساليب الحكم وعينهم قضاة في بئر السبع. أما هو فشاخ وصار محتاجاً لمساعدتهم. لكن وبمهزلة القدر العجيبة لاقى صموئيل في شيخوخته نفس مصير الكاهن عالي. فقد ظهر أولاده على حقيقتهم إذ كانوا أولاداً عاقين بخلاء مرتشين باعوا القضاء واشتروه، قضوا بين الناس كما يحلو لهم وأطلقوا أحكاماً لم تنزل في كتاب.

كره الشعب القضاة وامتنع عن احترامهم، وكان صموئيل هرماً عاجزاً عن مقاومة نزعات أولاده والوقوف ضد الفساد.

بدأ الشعب الإسرائيلي يبدي تذمره من الأنظمة المعمول بها. كما أن الفلسطينيين عادوا يمارسون عدوانهم، فتطلبت الحاجة وجود زعيم يقود الشعب من أجل التحرر. كان لكل شعب من الشعوب المجاورة ملك، لذلك وصل الإسرائيليون الى قناعة بأن النظام الملكي هو الوحيد القادر على إنقاذهم. ولأنهم كانوا يحترمون صموئيل كثيراً فقد أعطوه حق انتخاب ملك عليهم. فقَدِم اليه ممثلو القبائل، وقالوا: «هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكاً كسائر الشعوب». فساء الأمر في عيني صموئيل، وازعجه، ولكنه وعد أن يجيبهم في اليوم التالي. وعندما حضر إليه الموفدون في الغد صرح

لهم أن يهـوه تراءى له في المنـام، وقـال له بحزن: «اسمع لصوت الشعب في كل مايقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم، حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعـدتهم من مصر إلى هذا اليـوم، وتـركوني وعبدوا آلهة أخرى، هكذا هم عاملون بك أيضاً».

ولمـا رأى صمـوئيـل أن كلامه لم يؤ ثر في الرسل، حاول إخافتهم بالمخاطر التي قد تنتج عن السلطة الملكية: «يأخذ نبيكم (يقصد الملك) ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه ويجعـل لنفسـه رؤ سـاء ألـوف ورؤ سـاء خمـاسين، فيحـرثون حراثته ويحصدون حصاده، ويعملون عدة حربـه وأدوات مراكبـه، ويأخـذ بنـاتكم عطارات وطباخات وخبازات، ويأخذ حقـولكم وكرومكم وزيتونكم، أجودها، ويعطيها لعبيده، ويعشر زروعكم وكرومكم . . . . وأنتم تكونون له عبيداً».

لـم تقنــع هذه التنبؤ ات القــاتمـة الـرسـل، بل أصـروا على مطلبهم. فمـا كان من صموئيل إلا أن يعدهم بالبحث عن مرشح للعرش.

كيف كان شاول مباركاً للعرش

كان لقيس الرجل البنيامينل ذي البأس ولد شاب حسن، ليس أحسن منه في إسرائيل ولا أطـول قامـة: «عملت عائلة قيس بالـزراعة والرعي وكانت عائلة فلاحين بسطاء أصحاء الـروح والجسـد، لم تفسـدهم حيـاة المـدينـة، وعـدا ذلك، اشتهرت تلك العائلة بتعنتها لإسرائيل، وبعدم رضوخها للمستعمرين الغرباء، وبحفاظها على الإخلاص ليهوه.

في أحـد الأيـام ضاعت لقيس أُتُنٌ، فطلب من ابنـه الشـاب الحسن الطويل، الذي يدعى شاول، أن يأخـذ عبـداً ويـذهب للبحث عن الأتن؛ فتش شاول وعبـده جبـل أفرايم وأرض شليشه وأرض أورشليم وأرض بنيامين وأرض صوف، لكنه لم يعثر على الأتن. ولما وصـلا إلى رامتـايم، قرر شاول العـودة إلى البيت لئـلا ينشغل أبوه عليه، لكن خادمه اقترح عليـه طلب المسـاعـدة من الكـاهن والعـراف، الذي يعيش في رامتايام. أعجبه الاقتراح، لكن، خجـل من أن يقـدم إلى الكـاهن دون هديـة، فقـال لخادمه: يوجد بيدي ربع شاقل فضة؛ أعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا.

فقـدمـا وقابلا صموئيل عند بوابة المدينة، وكان الوحي قد أتى صموئيل تلك الليلة؛

وقد وعده يهوه أن يرسل إليه رجلاً من بنيامين ينقذ الإسرائيليين من الاستعمار الفلسطيني. لذلـك عرف صمـوئيـل، لمـا رأى شاول الطـويـل والجميـل أن أمامه شخصاً يستحق سدة العـرش. فدعـاه إلى الغـداء ووعده بأن تعود أتنه إليه؛ ارتبك شاول من اهتمام الكاهن به، ورفض الدعوة قائلاً إنه لايستحق مثل هذا الشرف، إنه من أصغر قبيلة ومن أوضع أسرها، لكن صموئيل هدّأ من روعه ولم يكتف بإدخاله بيته فقط، بل وأجلسه في أفضل مكان بين ثلاثين مدعـواً آخـرين، وقـدم لهم أطيب المأكولات، ثم اختلى الكاهن بشاول على سطح بيته، وتحدثا معاً حتى وقت متأخر من الليل.

مع طلوع الفجـر، أيقـظ صمـوئيـل شاول، وأخـذه إلى المـدينة وهناك أمره بإطلاق خادمه إلى البيت. ولما بقيا وحيدين أخذ صموئيل قارورة الدهن، وصب على رأس شاول وقبله مباركاً له الملك والرئاسة.

ارتعـد الفـلاح الشـاب من هول ماحصل، ولم يستطع أن يصدق أن تكون هذه إرادة يهوه إلا بعد أن جرى معه كل ما تنبأ به صموئيل: فعند قبر راحيل، التقى برجلين أبلغاه بأن الأتن قد وجـدت وأن والـده ينتظـره بفـارغ الصبـر، وعنـد بلوطـة تابـور التقى بثلاثة حجاج صاعـدين إلى بيت إيـل ليقـدموا قرابين للرب، أعطوه رغيفي خبز، لكن الأهم من كل ذلك كان اللقـاء الثـالـث، فقـد رأى شاول زمرة من الأنبياء نازلين من مرتفع، وأمامهم رباب ودف وعود وهم يرقصون ويغنون ويتنبؤون. نظر إليهم شاول مندهشاً وشيئاً فشيئاً، شعر شاول أن روح الله صارت فيـه، وأنـه، وهـو مأخـوذ بالنشـوة الـدينية العامة لم يدر كيف صار هو نفسه يرقص ويغني ويتنبأ، ركض الناس الذين يعرفون شاول فلاحاً بسيطاً كامل العقل نحو زمرة الأنبيـاء وصـاروا يتساءلون مستغربين: ماذا حدث لابن قيس؟ أشاول أيضاً بين الأنبياء؟ لم تكن تلك التسـاؤلات لتمنح شاول شرفـاً رفيعـاً لأن أنبياء تلك الأيام، وبينهم عدد كبير من المخـادعين والمخـاتلين كانوا يجوبون البلاد زمراً زمراً، يتسولون بوقاحة، ويتنبؤون للناس بمستقبلهم مقـابـل طعـام أو مال، وكـانـوا يزرعـون الخوف في النفوس، لكن الشعب كان يحتقـرهم، وكثيـراً ماكـان الناس يتساءلون عنهم بسخرية «من هو أبوهم»، وشاول أيضاً لم يكسب مجـداً ولا احتـرامـاً. بل ظل السؤال المستهزيء «أشاول أيضاً بين الأنبياء؟» يتردد على الشفاة، وصار مثلاً يحكى ويقال.

تمت عمليـة مبـاركـة شاول للملك بسرية تامة، لم يحدّث شاول حتى أقرب أقربائه عما جرى معه في رامتايم، لكن كان من اللازم أن يوافق الإسرائيليون على انتخاب شاول

ملكاً، لهذا الغرض دعا صموئيل الشعب إلى الاجتماع في المصفاة، وقدم لهم هناك مرشحه للعرش، وانتخب شاول ملكاً.

كان شاول متواضعاً وخجولاً رغم قوته الجسدية ورجولته، وقد أربكه انتخابه ملكاً لدرجة أنه اختبأ بين عربات وحيوانات القافلة، فأخذوه من هناك عنوة. ولما وقف أمام الشعب قوياً أطول من كل الإسرائيليين صرخ الشعب بحماس «ليحيى الملك».

وقف الكثيرون من الإسرائيليين ضد انتخاب شاول ملكاً، وبعد أن انتُخب تابعوا احتقارهم له، ولم يقوموا بتحيته، لكن شاول الرجل الذكي والرصين تصنع عدم رؤيتهم ولم ينتقم منهم.

أول انتصار لشاول

مضت السنون، لم يستطع شاول إدارة دفة الحكم بصورة علنية، ولم يقدر على ممارسة كامل سلطته ذلك أن فصائل حفظ الأمن الفلسطينية كانت ترابط في جبعه، وفي كثير من المدن الإسرائيلية الأخرى، وتابع شاول كسابق عهده ممارسة الزراعة وتزوج، وصار له ولدان أحدهما يوناثان شبّ قوياً وشجاعاً.

كانت مدينة يابيش تقع إلى الشرق من نهر الأردن في جبال جلعاد، حاصرها ناحاش الملك العموني، وأخذ يستعد للهجوم الكاسح عليها، ثم دخل سكان يابيش في محادثات مع ناحاش، فوافق على استسلامهم له شريطة أن يفقأ لكل ساكن في المدينة عينه اليمنى، وقد هدد بفعل الشيء نفسه مع كل الإسرائيليين طالب شيوخ يابيش بهدنة لمدة سبعة أيام لكي يدرسوا شروط ناحاش، واستغلوا الهدنة ليطلبوا مساعدة شاول. غضب شاول كثيراً لما سمعه من الرسل، ووقع من جديد في حالة النشوة الدينية، قطع بقرتين أجزاء، وأرسلها إلى كل أسباط إسرائيل مهدداً بأن كل من لا يشترك بالحرب المقدسة سيلاقي نفس مصير البقرتين، خاف الإسرائيليون هذا الوعيد الشديد فجمعوا جيشاً كبيراً في بازق ومن هناك تحركوا بقيادة شاول للقاء العمونيين، هاجم الجيش المعسكر العموني عند يابيش، وأعمل به الضرب والقتل، فصار شاول بطلاً قومياً وكادت شهرته أن تؤدي إلى حرب داخلية، ذلك لأن أنصاره كانوا متعطشين لتصفية الحساب مع أولئك الذين عارضوا انتخابه في المصفاة،

وحرضوا الشعب فيما بعد ضده، لكن شاول لم يسمح لتلك المجزرة الدموية أن تتم مقنعاً للناس أنه من غير المنطقي إفساد يوم النصر السامي.

دعا صموئيل الإسرائيليين للاجتماع من جديد في جلجال، وهناك أكدوا من جديد على انتخاب شاول ملكاً، وبمناسبة النصر قدموا قرباناً وأقاموا حفلة.

حان وقت اللحظة الحزينة بالنسبة لصموئيل، لحظة رفض سلطة القاضي الدينية. فهو منذ شبابه يحكم شعبه ولقد هرم وشاخ في منصبه، وأولاده الذين علق عليهم الآمال لم يمنحوه إلا خيبة الأمل القاسية، والآن قام أمام الشعب وقال بصوت متهدج: «هاأنذا، فاشهدوا عليه قدام الرب وقدام مسيحه، ثور مَنْ أخذت، وحمار مَنْ أخذت، ومَنْ ظلمت ومَنْ سحقت. ومِنْ يد مَنْ أخذت فدية لأغضي عيني عنه فأرد لكم». فيجيب الناس بتأثر: «لم تظلمنا ولاسحقتنا ولاأخذت من يد أحد شيئاً».

لم يرفض صموئيل، بإعطائه السلطة لشاول، دوره القيادي في البلاد، فهو ككاهن أعلى وممثل ليهوه على الأرض، اعتبر أن من حقه كالسابق تقرير مصير الإسرائيليين، وكان واثقاً من أنه أسمى من بقية الشعب، ومن الملك، وأن على هذا الأخير أن يطيعه، ولكي يثبت قدرته الإلهية استنزل المطر وعمل الصواعق، رغم أن الوقت كان وقت حصاد، وقد خاف الإسرائيليون من يهوه ومن صموئيل ايضاً لما رأوا ذلك فهموا انهم أغضبوه لما طلبوا منه تنصيب ملك عليهم «صل عن عبيدك إلى الرب إلهك حتى لانموت - رجا الشعب صموئيل - لأننا قد أضفنا إلى جمع خطايانا شراً بطلبنا لأنفسنا ملكاً».

بعد أن ضمن صموئيل لنفسه القرار الفصل في جميع الأمور الدينية والسياسية عاد إلى رامتايم، مقر الكاهن الأعلى آنذاك.

كيف أغضب شاول صموئيل

حل الملك شاول الجيش، تاركاً الأسلحة مع ثلاثة آلاف مقاتل فقط، وسلم قيادة ألف منهم لابنه يوناثان[٣٠] الشاب السريع الغضب والحربي المزاج، وفي إحدى الليالي هاجم يوناثان بفصيلته الحامية الفلسطينية في جبعة فدمرها وقتل قائدها، فأعيدت بذلك الحرية لمسقط رأس شاول وانتشر الخبر السعيد بلمح البرق في إسرائيل وصار حافزاً لعصيان عام، دعا شاول المقاتلين الإسرائيليين إلى جلجال، حيث شكل هناك جيش

العصيان، أدرك الفلسطينيون جدية الوضع فركزوا قواتهم في مخماس إلى الشرق من بيت آون، وكان جيشهم مسلحاً تسليحاً جيداً. يضم عدا المشاة آلاف الآلاف من عربات القتال الخطرة على مشاة الإسرائيليين. أما جيش شاول فكان سيء التسليح، ولم يكن لدى أحد من جنوده سيف ورمح من حديد إلا مع شاول ويوناثان، لذلك ليس عجيباً أن يكون ظهور الجيش الفلسطيني قد زرع الفوضى في صفوف الإسرائيليين فهرب الناس من منازلهم ملتجئين إلى المغاور الجبلية وإلى القلاع والحصون، وعبر بعضهم الأردن باحثين عن مأوى في بلاد جاد وجلعاد، كان شاول آنذاك في الجلجال ينتظر صموئيل الذي كان من المفروض أن يأتي ويقدم قرباناً ليهوه انتظر صموئيل سبعة أيام تقلص خلالها عدد الجيش إلى ستمائة مقاتل. كان الوضع يدعو إلى اليأس إذ كان من الممكن أن يتم أول صدام مع العدو في أية لحظة، فالصراع دون نصرة يهوه عديم الجدوى. فقرر شاول القيام بخطوة تبدو وكأنها تعد على صلاحيات الكاهن الأعلى، إذ أمر بنصب محرقة وقدم بنفسه قرباناً للرب، فتضايق صموئيل كثيراً عندما وصل إلى المعسكر وسمع بالخبر، وهدد بأن يهوه سيعزل شاول من العرش وسيختار ملكاً آخر أكثر طاعة لكلمة الإله. ولم تنجد شاول كل الاعتذارات. فغادر صموئيل المعسكر دون أن يودعه.

مأثرة يوناثان

شغل سوء التفاهم مع الكهنة بال شاول، لكنه لم يفقده رجولته، فقد بقي مع فصيل صغير في الجلجال، بعد أن تركه الجميع، ولم تعد الحرب المباشرة ممكنة في ظروفه تلك. مما اضطره لخوض عمليات فدائية ضد الفصائل المعادية، وقد برز اسم ابنه الشجاع يوناثان في تلك العمليات الفدائية. وفي أحد الأيام تسلل يوناثان إلى معسكر الفلسطينيين مع حامل سلاحه فقتل عشرين حارساً وخلق فوضى في المعسكر هرب على أثرها كل المقاتلين الموجودين فيه، ولم يكن شاول عارفاً بتسلل ابنه، ولما سمع العويل في المعسكر المعادي أمر بتفقد عناصره فعرف أن ابنه يوناثان هو الغائب. تحرك شاول فوراً لمساعدة ابنه وقتل الهاربين من المعسكر، وانضمت إليه في الطريق، الفصائل الإسرائيلية المنضمة بالقوة إلى الجيش الفلسطيني. وحين التحق به أيضاً الإسرائيليون المختبئون في الجبال والمغاور، تحولت خسارة الفلسطينيين إلى دمار رهيب، فقد طوردوا حتى تخوم بيت آون.

تعب الإسرائيليون كثيراً، ولكن الوقت مازال مبكراً، لذلك قرر شاول متابعة المعركة: «ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً إلى الماء ـ قال شاول لمحاربيه ـ حتى انتقم من أعدائي».

خاف المحاربون الإسرائيليون وعيد مليكهم ولم يقربوا الطعام، أما يوناثان فلم يسمع ماقاله أبوه لأنه كان في مكان آخر وأكل عسلاً، ولما حدثوه بتحريم أبيه الطعام عليهم حتى المساء لم ينزعج، بل انتقد أباه زاعماً أنه لو أكل الإسرائيليون لكان نصرهم أعظم، ولكانت ضربتهم أكبر.

في المساء، هجم المنتصرون الجياع المتعبون على غنائمهم، ذبحوا غنماً وبقر وعجولاً في أرض المعركة، وأكلوا بنهم اللحم النيء بدمه، فأخبرهم شاول بصرامة أن ينحروا الذبائح على الصخر كي ينساب دمها على الأرض بحرية.

أقبل الليل، أمر الملك بإقامة مذبح، وقدم قرباناً ووكل كاهناً بسؤال يهوه عما إذا كان عليه أن يستمر في ملاحقة الفلسطينيين، غير أن يهوه التزم الصمت ولم يجب، فعرف شاول أن أحداً ما قد خالف تحريمه، مما جلب غضب يهوه على الجيش كله، ولما تبين أن المذنب ابنه يوناثان حكم عليه بالموت. ولكن المقاتلين الإسرائيليين لم يسمحوا بذلك «لاتسقط شعرة من رأسه إلى الأرض ـ صرخ المقاتلون ـ لأنه مع الله عمل هذا اليوم». اضطر شاول للامتناع عن متابعة مطاردة الفلسطينيين، فنجا أولئك من الدمار النهائي المؤكد، ومع أنهم عادوا الى مدنهم، إلا أنهم استمروا يهددون إسرائيل.

الخصام النهائي مع صموئيل

لم ينم شاول عند عودته إلى بلدته جبعة، على أكاليل الغار، فهو يعرف أن المعركة الفاصلة مع الفلسطينيين واقعة لامحالة، فصار يعد نفسه لها وصرف وقته وجهده لتشكيل جيشه، وأدخل في عداد ذلك الجيش كل من اتصف بالرجولة والشجاعة، ولكي يضمن لنفسه مؤخرة آمنة خاض معارك ناجحة ضد ملوك المؤابيين والعمونيين والأدوميين، وفي الشمال احتل مملكة صوبة الآرامية، وأما داخل البلاد فقد عزز مواقعه فاتحاً المدن الكنعانية التي استطاعت قبل ذلك الحفاظ على استقلالها.

كان لشـاول ولـدان وبنتـان غير يوناثان ، لأنه لم يسلك طريق غيره من القادة الملوك ، فقد تابع مهامه كملك فلاح واكتفى بزوجة واحدة .

أمـا في قيـادة جيشـه فقـد عين ابن عمـه أبينير، وإضافة إلى كل ماعمله شاول كانت تنتظـره مهمـة أخـرى لينفـذهـا ، لقـد كان العماليق يسكنون البرية مابين جبل سيناء وحدود كنعان الجنوبية ، وكان العماليق قبائل تتكون من لصوص وقطاع طرق يعودون بأصلهم إلى عماليق حفيد عيسو، ولطالما اصطدم بهم الإسرائيليون . وهكذا فقد كانت فئات العماليق وعصاباتهم تنهب وتقتل وتدمر في مناطق كنعان الجنوبية ، ثم تهرب إلى البرية قبل أن تصل الامـدادات للمنكـوبين، والأهم من هذا أنهم اتحدوا مع الفلسطينيين لقتال الإسرائيليين ، وقـد تحمـل شاول تصـرفـات العمـاليق لانشغاله بحروب أخرى فتضايق صموئيل لتقاعس شاول عن قتـال العمـاليق المبـاشر قائلاً لشاول : «فالآن اذهب واضرب العمانيين وحرّم كل مالهم، ولاتقف عنهم، بل اقتـل رجـلاً وامـرأة، طفـلاً وصبيـاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً» . توجه شاول بجيشـه إلى العمـانيين ، ودمـرهم وقتـل نسـاءهم وأطفالهم وأسر ملكهم أجاج ، لكن شاول ارتكب ذنبـاً كبيـراً إذ لم ينفـذ أمـر صمـوئيل بحذافيره ، فقد أبقى قطعان العماليق من الغنم والبقـر، كمـا أبقى بعض الأشيـاء النفيسـة الأخـرى ، وعدا ذلك فإنه أعجب بشجاعة الملك أجـاج ووهب له الحيـاة ، وعنـدمـا سمع صموئيل بذلك غادر حالاً إلى جبل الكرمل حيث كان شاول يقيم نصبـاً تذكـاريـاً بمنـاسبـة انتصـاره، وكـان لقـاؤ هما عاصفاً إذ عاتب صمـوئيـل شاول على إثمـه قائلاً : «لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك» . وقد عنى ذلـك الكـلام عمليـاً ، إذ عزل شاول عن العـرش، ولم يستطـع شاول تجاهل كلام النبي أو الاستخفاف به ، لذلك طلب منه الصفح معتذراً ، كما إنه تخوف من أن يؤ دي خصامهما في حال انتشار الخبر إلى إثارة الاستياء لدى الشعب، لذا رجا شاول صموئيل أن يبقى معه في المعسكر ثم يغادران معاً إلى الجلجال لكن صموئيل أجاب : «لا أرجع معك لأنك رفضت كلام الـرب فرفضـك الـرب من أن تكون ملكاً على إسرائيل» ، وأدار ظهره ليغادر المعسكر ، غير أن شاول أراد بأي شكل من الأشكال إبقاء أمر خصامهما سراً ، لذلك لجأ إلى القوة من أجـل إيقـاف صمـوئيـل ، ومـزق له طرف ردائه عن قصد ، فقال له صموئيل غاضباً : «يمزّق الرب مملكة إسرائيل عنك اليوم ، ويعطيها لصاحبك الذي هو خير منك» .

لكن صموئيل تقبل أخيراً رجاء شاول ، وغادر معه إلى الجلجال ، ولم يعرف أحد من الشعب ماحصل بينهما ، ولما وصلا إلى الجلجال . أمر صموئيل بإحضار الملك أجاج إلى

مذبح يهـوه وقطعـه بيـديه هناك إرباً إرباً، ثم غادر إلى رامتايم ولم يعد يرغب بمقابلة شاول وعدا ذلك فإنه صار يردد علانية بين الناس بأنه أخطأ، إذ نصب شاول ملكاً. وأكد مراراً أن يهوه قد ندم على ذلك أيضاً، وبعد فترة صار يبحث عن مرشح للعرش، ولخشيته من اتهام شاول بمحاولة القيام بانقلاب، جعل أمر البحث عن بديل له أمراً في غاية السرية.

وفي أحـد الأيـام، وصـل صمـوئيـل إلى بيت لحم، متصنعاً العزم على تقديم قربان للرب، ولما كان شيوخ المدينة قد سمعوا تلميحات عن خصامه مع شاول، فقد خافوا من غضب شاول، واستقبلوا صمـوئيـل استقبـالاً فاتراً، وسألوه عن سبب زيارته لكنه أقنعهم أنه جاء لأغـراض دينيـة صرفـة، وفي الليـل قام سراً بزيـارة لبيت يسّى الـذي ينتسب إلى قبيلة يهـوذا، ويتمتـع باحتـرام كبيـر في المـدينـة، كان ليسّى سبعـة أولاد رغب صموئيل التعرف عليهم، تفحص الأولاد الستـة الكبـار، لكن اختياره لم يقع على أحد منهم، فطالب بالولد السـابـع داود الـولد الأصغر ليسّى وكان شاباً يرعى قطيع أبيه. فاستغرب يسى بالطبع مطلب صموئيل، لكنه أحضره من المرعى فأعجب صموئيل بالولد إعجاباً بالغاً، إذ كان أشقر حلو العينين وحسن المنظـر، وبعـد حديث قصيـر معـه ـكـد صمـوئيـل أنه بالإضافة إلى حسن منظره، نشيط ولبق وكثير الحركة، وغير هذا فإن طيلة مكوث داود في المراعي جعلته يتعلّم العـزف على العـود بشكـل جيـد، لذلـك عزف عزفـاً جميـلاً تأثر له النبي كثيراً، ولما سمع صموئيل بأن داود نفسه مؤلف تلك الأغاني زالت كل شكوكه في أن يكون داود هو الشخص المناسب للعرش، أنه لن يجد أفضل منه لذلك المنصب.

لذلك أخذ قرن الدهن ومسح داود وسط أخوته. ولم يعرف أحد في بيت لحم أن من سيصير ملك إسرائيل في المستقبل يسكن بينهم.

كان شاول خلال ذلك في جبعة، حيث بنى لنفسه قلعة منيعة على الصخر، فقد عزله صمـوئيـل عمليـاً عن العـرش، وقـال بأن يهوه سيختار ملكاً آخر، لذلك شعر شاول بسقوطه المتـدرج، وصـار يرى كل ليلة، في أحلامه خيانات ومؤامرات يحيكها له صموئيل، وأخذ يجلس الليـل والنهـار مستـذكراً شريط حياته، فضعفت سيطرته على نفسه وانهارت أعصابه لدرجـة أنـه صار يعـاني يومياً من نوبات السويداء، كما إن أخلص الناس له قنعوا بأن الروح الـربـانيـة قد نبذته. وأن روحاً شيطانية تسيطر عليه وذلك بعد أن رأوا ازدياد احمرار عينيه من النعاس وازدياد بلاهتهما وضياعهما، كانوا آنذاك يعالجون مثل تلك الأمراض بالموسيقى، وهـاهـو أحـد ما (ربما بلعبة مدروسة من صموئيل) يذكر لشاول راعياً متواضعاً من بيت لحم

رائع العزف على العود، فاحضروا داود حالاً إلى جبعة، استقبله الملك بحفاوة، وارتسمت على شفتيه ابتسامته التي كان نسيها منذ أمد طويل، وباستماعه لعزف الفتى أحس بصحته تعود إليه، ومنذ ذلك اليوم صاروا يحضرون داود من بيت لحم، كلما ضربت نوبة السويداء شاول.

كيف صرع داود جوليات

قام الفلسطينيون بحرب جديدة ضد إسرائيل ونصبوا معسكرهم قرب مدينة سوكوه، واتجه شاول لملاقاتهم وقطع الطريق عليهم، فوقف الجيشان مقابل بعضهما البعض، كل على جبل، وفي الوادي بين الجبلين يتبارز الفرسان من الطرفين، غير أن أحداً من الإسرائيليين لم يتجرأ على مبارزة جوليات الجبار الفلسطيني المدرع بالحديد، المزود بسيف بتار ورمح طويل. جوليات الذي يخرج من صفوف الفلسطينيين يومياً ينادي مبارزاً وعندما لايجيبه أحد يقذف الإسرائيليين بأقذع الشتائم، وأفظع السباب ويعود إلى صفوف جيشه، اختبأ شاول وقادته بمن فيهم أبينير في خيامهم هرباً من الموقف المخجل، فالجبار الفلسطيني ظل يسبهم ويستهزيء بهم أربعين يوماً، وكاد شاول ينفجر غضباً، ووعد من يبارز جوليات أن يمنحه أموالاً طائلة وإعفاء من الضرائب ويد ابنته الكبرى، لكن الرهبة من العملاق كانت أقوى من كل الإغراءات.

كان بين المقاتلين الإسرائيليين ثلاثة من أبناء يسّى وكان داود أصغرهم، يحضر لهم يومياً الطعام والشراب إلى المعسكر، وفي إحدى المرات صادف قدومه بالطعام إلى المعسكر مع سباب جوليات للإسرائيليين واستهزائه بكل مقدساتهم، امتعض داود لوقاحة جوليات، وقال لاخوته انه سيبارز الجبار الفلسطيني، فضحك الاخوة المقاتلون منه ثم غضبوا، وأمروه بالعودة فوراً إلى البيت وعندما أصر على رأيه انبسطت أسارير شاول، وانشرح صدره لشجاعة داود، فدعاه إلى خيمته، وقال له: «لاتستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه»، لكن داود تنحى وأصر على المبارزة، وحدث الملك عن قتله للأسود والدببة التي كانت تهاجم قطيعه، افتخر وتباهى أمامه بقوته وحذقه في القتال، فوافق شاول أخيراً فألبسه درعه وخوذته، وأعطاه سيفه، وأمره أن يمشي في خيمته ليتأكد من حركته محملاً بتلك الأثقال، وبالفعل لم يشعر داود بالراحة

مع تلك الـدروع والأسلحـة، وأعـرب عن رغبتـه بمبـارزة الفلسطيني بثياب الرعاة العادية، ضحك شاول وترك له حرية التصرف وحمل داود عصاه ومقلاعه واتجه للمبارزة، توقف في الطريق عند النهر، وأخذ خمسة أحجار ملس، وسار بعد ذلك إلى الوادي لمواجهة جوليات منشداً أغاني دينية. ضحك جوليات حين رأى داود ضحكة اهتزت معها الجبال، ثم هزيء بداود وبجسمـه الضعيف، وأكثر ماأضحكـه كون الفتى مسلحاً بعصا الرعي فقط «ألعلي أنا كلب حتى أنـك تأتي إليّ بعصي»، وشعـر جوليـات بأن الإسـرائيليين يستهـزئون به فسبهم وشتمهم وهـدّد بإلقـاء جسـد داود للوحوش والطيور لتأكلها، لم يجادله داود بل دعاه بكل حزم الى الاستعداد للموت لأنه سيموت بإرادة يهوه.

عم صمت حذر الجمعين المتحـاربين، وانتظـر الفلسطينيون اللحظة التي سيضرب بهـا جبـارهم عدوه ضربته القاضية، ونظر الإسرائيليون مرتجفين، إلى الفتى الشجاع الذي سار نحـو حتفـه غيـر مبـال، أمسـك جوليـات بسيفه البتار، واستعد للضرب به، ولفرط ثقته بنفسـه لـم يعـر انتبـاهاً لحركات الفتى الذي أخذ حجراً خفية ووضعه في مقلاعه وقذفه بكل قوة، طار الحجـر في الهـواء مثـل صاروخ وضـرب جبهة جوليات، الذي سقط على الأرض فاقـداً الـوعي والقـوة. فانـدفـع داود مسرعاً نحو الجبار المصعوق بضربة الحجر، انتزع منه سيفه، وبضربة قاضية قطع رأسه.

خلق مصـرع الجبـار فوضى فظيعـة في صفـوف الفلسطينيين، فانـدفع الإسرائيليون نحـوهم بحمـاسـة شديـدة، اضطـروا بها الفلسطينيين للهرب، طاردهم الإسرائيليون حتى تخوم جت وعقرون، وبقي كل القطيع وكل ما كان الفلسطينيون قد سرقوه من الإسرائيليين غنيمـة بيـد شاول، وقـدم له داود هديـة رأس وسلاح الجبار الفلسطيني، فعلّقها شاول على باب خيمته.

ذاع صيت داود بعد ذلك النصر، وانتشرت شهرته ومجده في كل البلاد.

داود وشاول ويوناثان

عُين داود تكـريمـاً لبطـولتـه قائداً لفصيل كبير من المقاتلين، فصار بذلك أصغر قائد عسكري إسرائيلي سناً، لقد أحبه يوناثان ـ ابن شاول وولي العهد ـ حباً جماً من أول لقاء، وكتعبير له عن ذلك أهداه يوناثان رداءه وسيفه وحزامه ومنطقته.

قام داود رغم صغـر سنـه بواجباته كقائد عسكري خير قيام، وهاجم الفلسطينيين عدة مرات انتصر عليهم فيها، كما إنه صار يستقبل في المدن الإسرائيلية خير استقبال، وصارت النساء والرجال والأطفال يفخرون ويتفاخرون به، يلاقونه بالغناء والرقص على إيقاع الدف، ووضع على شرفه أغنية انتشرت في المدن، ووصلت إلى جبعة:

ضرب شاول ألوفه

وداود ربـواتـه، فسـاء هذا الكـلام في عيني شاول إذ صارت مأثرة داود أعظم من كل ماقدمه هو للشعب الإسرائيلي على مدى سنين طويلة، فكان ذلك شديداً على نفسه وقاسياً على روحه، وعلى مدى يومين وليلتين عذبته الشكوك، بأن صموئيل كان وراء تلك الأغنية، وأنه عمل ذلك بالاتفاق مع داود، كما شعر شاول أن الشعب صار يتجاهله، نعم! الشعب الـذي كان يفخـر ويتفـاخـر به منـذ أمـد غير بعيد. مَنْ وراء هذا العقاب إن لم يكن الكاهن الأعلى ووراءه الكـاهن الـذي صرح له علنـاً بأنـه لـم يعد ملكاً؟ وأدى به القلق ومرارة الحزن والأسى إلى أنه صار يفقد عقله أحياناً، وصارت حاشيته تشكو من تصرفاته سراً، ولم يتجرأ أحد على التصريح بذلك كانوا يتهامسون فيما بينهم: «إن الروح الرديء من قبل الله اقتحم داود وجنّ في وسط البيت».

أرسلوا من جديـد وراء داود ليعـالـج الملك، دخـل عليـه الفتى وأخـذ يعزف له على العـود، والملك يراقبـه بحذر، وفجأة صحا شاول لنفسه، التهبت الكراهية في قلبه فامسك رمحه، وقذف به داود الذي ابتعد جانباً فأصاب الرمح الجدار، استرد شاول صوابه وأدرك أنه كان يفعل ما لاتحمد عقباه، فقتل البطل المشهور كان سيؤدي إلى نتائج وخيمة. وليطمئن نفس داود عينه قائداً لفصيل من ألف مقاتل، وأرسله لقتال الفلسطينيين.

وفي هذه المرة أخذ القائد الفتى يحقق الانتصار تلو الآخر موسعاً بذلك دائرة شهرته، وتعلق الشعب به وكـانت غيـرة شاول تنمـو بشكـل مواز لشهرة داود، ولم يتجرأ على معاداته علناً، بل وضع خطة سرية ليقضي عليه، أمر بابلاغ داود أنه سيزوجه ابنته الكبرى ميرب إن أحضـر له مائـة غلفـة من الفلسطينيين، أمـل الملك أن يموت داود بمحاولته تنفيذ الشرط، أدرك داود مباشرة خطة الملك، وحاول رفض المهمة متذرعاً بأنه لايستحق مصاهرة الملك، لكن شاول أصر، فسار داود بفصيل صغير العدد مكون من أخلص جنوده لم يطل به الوقت حتى قتل مائتي فلسطيني وأحضر غلفاتهم للملك، أصاب الملك اليأس لنجاح داود، وقرر احتقـاره فأعطـاه ابنتـه الصغـرى ميكـال زوجة بدل الابنة الكبرى، فرحت البنت كثيراً لأنها

أحبت داود منـذ زمن بعيـد، أمـا داود فغضب من خداع شاول لأن الزواج من الابنة الكبرى كان سيعطيه فرصة للفوز بالعرش[٣١]، واستمر شاول يشك بأن داود يتآمر عليه مع صموئيل، فقرر قتله.

ميكال ويوناثان ينقذان داود

أظهـر يونـاثـان نفسـه، تلك الأيام الحرجة، كصديق حميم شديد الاخلاص لداود، فقـد تجـاهـل غضب والده الشديد ومنافسة داود إياه على العرش، وأحاط داود علماً بالخطر المحيق به وأقنعه أن يختبيء في الجبال، وسعى إلى والده محاولاً إصلاح الأمور بينه وبين داود، وبعد مجادلات طويلة تراجع شاول، وسمح لداود بالعودة إلى المدينة.

لكن الصلح لم يدم طويـلاً، فقـد استمـر داود يحـرز الانتصـارات المتـلاحقـة على الفلسطينيين، مما ولد الخوف في نفس شاول من جديد، وفي لحظة انفعال أخرى ضرب خصمـه بالـرمـح ثانيـة لكنـه أخطأ الهدف، أدرك داود أن الوضع يستدعي الحيطة والحذر، فهـرب تحت جنـح الليـل من القصـر الى بيته، فأرسل له شاول مرتزقة ليقتلوه، لكن ميكال زوجته أنقذته في آخر لحظة، نصحته بالهرب من النافذة، ووضعت في فراشه تمثالاً ألبسته ثياب داود وغطته بغطائه، ولما وصل الجنود المنزل دلتهم على فراش زوجها، وقالت لهم: إنه مريض جداً لايستطيع النهوض، لكن شاول أمرهم «اصعدوا به اليّ على الفراش لكي أقتله».

انكشفت الحيلة، وأُخـذت ميكـال إلى أبيهـا وهنـاك استطاعت بصعوبة أن تنجو من العقاب زاعمة أن داود هددها بالقتل إن لم تساعده على الهرب.

أما داود فقد ذهب إلى صموئيل وحدثه عن وضعه، ولكن نبأ مزعجاً مالبث أن انتشر: إن قوات الملك متجهـة نحـو رامتـايم للقبض على الهـارب، فخـرج صمـوئيـل للقائها مع الأنبياء الآخرين راقصين ومغنين وصارخين حتى بلغوا ذروة نشوتهم الدينية، نظر الجنود إلى الأنبيـاء بخـوف في البـدايـة، ثم لـم يلبثـوا أن انضموا إليهم يرقصون ويغنون فاستطاع داود الاختفـاء وعـاد الجنـود فاشلين، عاد شاول وأرسـل جنـوده مرتين إلى رامتـايم لكنهم كانـوا يكـررون مافعلوه في المـرة الأولى ويعـودون دون الهارب، فقرر الملك الذهاب بنفسه إلى رامتايم للقبض على منافسه الخطير لكنه ماكاد يدخل المدينة حتى خرج إليه صموئيل بزمرة

الأنبياء يرقصون ويغنون ويقرعون الطبول، فنظر إليهم الملك في البداية دون اكتراث، ثم أخذ ينجذب شيئاً فشيئاً نحو لذة أيام شبابه الدينية وانتهى به الأمر إلى الرقص والغناء، صار يدور مدمدماً بكلام غامض، مزق ثيابه، ووقع عارياً تماماً على الأرض، وبقي طوال النهار فاقداً وعيه، ولما ثاب إلى رشده كان داود قد غادر المدينة، وعاد داود إلى جبعة ليشكو إلى صديقه الوحيد المخلص، يوناثان سوء طالعه «ماذا عملت ـ تساءل داود ـ وماهو إثمي، وماهي خطيئتي أمام أبيك حتى يطلب نفسي؟»، هدأ يوناثان من روعه مؤكداً له أنه سيساعده ويحذره من الخطر المحدق به في الوقت المناسب لأن أباه يصارحه بخططه، أجابه داود: «إن أباك قد علم أني قد وجدت نعمة في عينيك، فقال لايعلم يوناثان هذا لئلا يغتم». لكن الأسوأ كانت الوليمة المقررة ليوم الغد والتي كان يولمها شاول كل أول شهر على شرف أقرب أعوانه إليه، كما كانت تلك الولائم بمثابة اجتماع للحكومة يجب على جميع المدعوين حضوره، ويعتبر الغياب غير المشروع عنه فعلة نكراء تبعد فاعلها نهائياً عن سدة السلطة، كان داود مايزال يطمح للصلح مع شاول ولم يقطع على نفسه طريق العودة، ولكنه في الوقت نفسه خشي حضور الوليمة لمعرفته الكبيرة بطبيعة الملك وتصرفاته الهوجاء، لذلك طلب من يوناثان إبلاغ أبيه بأنه ذهب إلى بيت لحم لحضور احتفال عائلي . بينما اتفق الصديقان على أن يختبيء داود في الجبال قرب جبعة، وينتظر الخبر عن كيفية تقبل شاول لغيابه، فإذا حافظ الملك على هدوئه فإنه فأل خير وإن غضب لرؤيته المقعد الفارغ، فهذا يعني ألا مجال للصلح. نفذ يوناثان رغبة داود، وأخبر الملك فأجاب هذا بغضب: «يا ابن المتعوجة المتمردة، أما علمت أنك قد اخترت ابن يسّى لخزيك وخزي عورة أمك. لأنه مادام ابن يسى حياً على الأرض لاتثبت أنت ولا مملكتك. والآن أرسل وأتِ به إلي لأنه ابن الموت هو».

لم تؤثر تحذيرات الأب بأن بقاء داود حياً سيفقد يوناثان العرش، ولم يؤثر ذلك على إخلاص يوناثان لداود، ولا على صداقتهما، فسأل أباه بمرارة: «لماذا يقتل؟ ماذا عمل؟». انفعل شاول كثيراً أمسك بالرمح وضرب به يوناثان. لكنه أخطأ الهدف، وغادر يوناثان الوليمة ممتعضاً، ودخل مضجعه، ولم يأكل شيئاً طوال اليوم التالي لفرط تأثره وانفعاله، وفي الصباح راح للقاء داود وحذّره الا يظهر أبداً في حضرة الملك.

حانت ساعة الفراق، انحنى داوود ليوناثانا ثلاث مرات، وعانقه يوناثانا طويلاً وقبّله، وعند الوداع تعاهدا على أن يحافظا على صداقتهما ماداما حيّين. وقال يوناثان لداوود:

«اذهب بسلام لأننا كلينا قد حلفنا باسم الربّ قائلين الربُّ يكون بيني وبينك وبين نسلي ونسلك إلى الأبد».

إبادة الكهنة وترحُّلُ داوود

اتجه داوود نحو نوب، إلى الكاهن الشهير أخيمالك. ولما كان داوود يعرف أن أخيمالك جبان جداً، فإنه لم يعترف له بخلافه مع الملك، بل قال له انه قدِم بمهمة سرية لصالح الملك شاول، لم يكن عند أخيمالك طعام، فأطعم داوود من خبز الربِّ المخصص للقربان وأهداه سيف جُليات المحفوظ في المعبد.

سمع داوود، من أناس صادفهم، أن شاول يقود بنفسه حملة لمطاردته. لذلك حثّ الخطى إلى المدينة الفلسطينية جتّ، حيث الملك أخيش. لكنه عبثاً أملَ ألّا يعرفه هناك أحد، إذ أن المارين في الطريق عرفوا فوراً في وجه داوود، قاتل الجبار جليات. ولكي ينجو من انتقام الفلسطينيين تصنّع داوود الجنون: فالمجانين كانوا يتمتعون هناك بحصانة ويحرم على أحد التعرض لهم. تسكع في الشوارع يتمتم بكلام لامعنى له، والزبد يسيل من فمه بشكل مقرف، وهو غير مبال يرسم على أبواب البيوت رموزاً وإشارات سحرية، لاحقه سكان جتّ خطوة خطوة، وفي نهاية المطاف قيّدوه وأحضروه إلى الملك. نظر إليه أخيش وكاد أن يتقيأ من منظره، ولما لم يعرف ماذا يفعل به أمر بإطلاق سراحه. تهرب داوود من المدينة ووجد لنفسه مأوى في مغارة عدلّام، التي تقع إلى الشمال من أورشليم. وهناك فكر بأهله وخاف عليهم، فأرسل في طلبهم وأحضرهم إليه.

صار الشعب يتجمّع حول داوود من كل أنحاء البلاد. كان أولئك الناس مختلفين فيما بينهم: فيهم المغامرون، والهاربون، والخارجون عن القانون، وفيهم الفقراء الملاحقين لعدم دفعهم الضرائب، وفيهم الشباب الحالمون بصنع مجد عسكري.

فشكل داوود من ذلك الخليط البشري فصيلاً عسكرياً نظامياً قوامه ست مائة جزار كلهم على استعداد لأن يمنحوا داوود أجسادهم إذا اقتضى الأمر. وبذلك الفصيل راح ينهب ويدمر فصائل الملك الصغيرة ويدافع عن السكان مقابل أعطيات وتقدمات معينة. وخلاصة القول، صار داوود زعيم عصابة من قطاع الطرق والجزارين.

أما شاول، الذي جن جنونه، فقد تابع مطاردته لداوود والغيظ يتنامى في نفسه،

وأشـرك غالبيـة جيشـه في تلك المطـاردة. فازداد الخطـر المحـدّق بداوود، وشعـر هذا بأن الأرض تلتهب تحت أقدامه، فقدِم إلى ملك مؤاب وترك أهله عنده أمانة وذهب، هو، إلى أرض يهوذا إل وعز حارث.

عرف شاول، آنـذاك، أن الكـاهن أخيمـالـك قد ساعد داوود على الهرب إذ قدّم له الطعـام. أخبـره بذلـك أحـد مرتـزقته واسمه دوّاغ. فزاد ذلك من شكوك الملك بأن الكهنة يتـآمـرون ضده مع داوود، وأنهم يهيئـون له السبيـل للوصول إلى العرش. لذلك وجّه قواته فوراً إلى نوب كي يعاقب أخيمالك وبقية الكهنة على خيانتهم. وذهبت محاولات أخيمالك لإقنـاع شاول بأن داوود قد خدعـه سدى، لأن الملك عمي وطـرش عمّا يسمعه ويراه، وأمر شاول جنـوده بقتـل الكاهن، فكان أن اصطدم لأول مرة، برفض أوامره، فقد رفض جنوده، ابتـداء من قائـدهم وحتى أصغـر جنـدي، وبصـوت واحـد القيام بقتل الكاهن. لقد خاف الجنـود الخطيئـة حين يقتلون الكـاهن. فكـان وضـع شاول صعباً ومعقداً. لكن دواغ النمام الـوصـولي البـاحث عن مصـالحـه، أنقـذه من الوضع إذ أحضر له مرتزقته ـ قطّاعي الرؤ وس الـذين أبـدوا استعـدادهم لتنفيـذ أوامـره. ومـع اصـدار شاول لأوامـره، قامت عصابة دوّاغ بمهاجمة المدينة، قتلت كل الكهنة بما فيهم أخيمالك، ثم ذبحت السكان ولم ترحم امرأة ولا طفلاً. فلم ينج من المدينة إلاّ أبياثار بن أخيمالك، الذي هرب من المدينة تحت جنح الليل والتجأ إلى داوود وصار، مع الوقت، أحد أعوانه.

كيف عفا داوود عن شاول ووقع في غرام أبيجايل

سمـع داوود أن الفلسطينيين يحـاصـرون مدينة فعيلة، فأسرع إلى نجدتها وأنقذها، لكنّ سكـانهـا أغـرْوا به بدل أن يشكروه. فقد أخبروا شاول بوجود داوود في المدينة ووعدوه بأن يسلمـوه له إذا ما أسـرع إليهم. لكن داوود عَلِمَ، لحسن حظـه، بالمؤ امـرة وهرب من المدينة مع أبياثار. منذ ذلك اليوم صار داوود يختار، ورفيقه، ملاجئهم في الجبال والبراري حيث يسهل عليهما الاختباء.

في أحـد الأيـام قدِم يونـاثـان بن شاول سراً إلى داوود وهو في برية زيف لكي يحذره من خطط الملك ويؤ كد له على صداقته الأبدية له، غير أن سكان زيف كانوا من أنصار شاول، فأخبروه بموقع داوود. فقام شاول بمحاصرة الجبل الذي اختبأ فيه داوود مع فصيله المكون

من ستمائة شخص. بدا الأمر وكأن مصيرهم قد خُتم. لكن خبراً فظيعاً وصل فجأة، أعلم شاول بأن الفلسطينيين قد توغلوا في أرض اسرائيل. فاضطر شاول لفك الحصار والاسراع لمواجهة العدو وبعد أن صدّ هجوم الفلسطينيين جدّد مطاردته لداوود بفصيله المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل، وكان عازماً ومصراً على القبض على عدوه الشخصي مهما كلف الأمر.

وخلال احدى المطاردات دخل شاول مغارة «لقضاء حاجة، وبمحض الصدفة كان داوود وبعض مقاتليه مختبئين في تلك المغارة. فسنحت الفرصة لداوود أن يقتل شاول، لكنه لم يرغب بتلطيخ اسمه بدم من باركه الرب ومسحه بدهنه. واكتفى بأن اقترب خلسة من شاول وقص له طرف ردائه. ولما أنهى الملك قضاء حاجته وجمع فصيله ليتابعوا السير، وقف داوود على صخرة عالية وصاح مستهزئاً: وراء من طَرَح ملك إسرائيل؟ ومن يطارد؟ هل خرج وراء كلب ميت أو وراء برغوث واحد؟

في مرة أخرى تجرأ داوود على مغامرة أكبر، فقد قام، مع مجموعة من جنوده، بالتسلل ليلاً إلى معسكر الملك شاول فدخلوا الخيمة التي ينام بها هو وقائد جيشه أبينير. وكاد حامل سلاح داوود أن يقتل الملك لولا أوامر سيده الصارمة اكتفى، داوود، يومها، بأخذ رمح وكوب ماء من الخيمة وعاد إلى فصيله الذي انشغل باله عليه. وفي الصباح وقف، من جديد، على صخرة عالية واستهزأ من أبينير الذي يحرس ملكه بشكل سيء للغاية، وبعد أن فرغ من استهزائه طلب أن يُرسل أحد لأخذ رمح الملك وكوبه. فقرر شاول متأثراً بما حصل وبطيبة قلب داوود، الامتناع عن متابعة المطاردة، وعاد إلى جبعة.

وجه داوود مساعيه لإطعام فصيله. فصار يسوق الماعز والخراف والبقر من الفلسطينيين ولم يقرب أبداً إلى أملاك أبناء نسله، لكنه كان يأخذ منهم ضريبة عينية ثابتة لقاء حمايته لهم من هجمات الفلسطينيين.

عاش في برية معون رجل غني بأملاكه وقطيعه اسمه نابال. وكان لنابال ذلك ثلاثة آلاف من الغنم وألف من الماعز. لم يأخذ منه داوود ضريبة أبداً، رغم أنه كان يحميه ويحمي قطيعه من اللصوص وقطاع الطرق وفي أحد الأيام سمع داوود أن نابال سار بقطيعه إلى جبل الكرمل ليجزّ خرافه. فأرسل إليه عشرة من غلمانه طالباً الطعام وقال لهم: اصعدوا إلى الكرمل وادخلوا إلى نابال واسألوا باسمي عن سلامته وقولوا هكذا: حييت وأنت سالم وبيتك سالم وكل مالك سالم.

لكن نابال كان رجلاً شحيحاً شديد البخل. فأعاد الغلمان فارغي الأيدي وقال لهم

بغضب: من هو داوود، ومن هو ابن يسّى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يشقون عصا الطاعة على سيدهم. آآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحتُهُ لجازّي غنمي وأُعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟.

انزعج داوود جداً لذلك الرفض. فتحرك فوراً، على رأس أربعمائة مقاتل، كي يؤدب نابال الوقح. فما كان من امرأة نابال، أبيجايل الذكية الجميلة، إلا أن أنبت زوجها وحملت على الحمير، مائتي رغيف خبز ورقي خمر وخمسة خرفان مهيأة وخمس كيلات من الفريك ومائتي عنقود من الزبيب ومائتي قرص من التين وسارت لاستقبال داوود. ولما تقابلا، اسرعت بالركوع أمامه حتى لامس جبينها الأرض، وقالت له بنبرة راجية: لايلقين سيد بالاً لهذا الرجل اللئيم الأحمق نابال لأن اسمه يدل على حقيقته[٣٢]. فهو معتوه أحمق، وأنا أَمَتُك لم أرَ غامان سيدي الذين أرسلتهم.

تأثر داوود كثيراً بجمال أبيجايل وعذوبتها. فأجابها بتأثر: مبارك الرب إله إسرائيل الذي أرسلك هذا اليوم لاستقبالي. ثم وعدها ألا يسبب أذى لنابال وودعها قائلاً: اصعدي بسلام إلى بيتك. انظري قد سمعت صوتك وقبلت رجاءك وكرمتك.

كان نابال قد أنجز، آنذاك، جز الغنم وأقام في بيته وليمة كبيرة وشرب حتى سكر إلى حد الثمالة، ولما صحا من سكرته أخبرته زوجه بالخطر الذي كان محدقاً به، فكان، من شدة تأثر نابال بالخبر واضطرابه بسببه، أن أُصيب بنوبة قلبية ومات بعد عشرة أيام من الصراع مع الموت.

سمع داوود بذلك وطلب يد أبيجايل وقلبها. لم تتردد الأرملة أبداً، ركبت أتانها وسارت إلى معسكر داوود ترافقها خمس إماء. وهناك سجدت لداوود حتى الأرض وقالت له: هو ذا أَمَتُكَ جارية لغسل أرجل عبيد سيدي.

كانت لداوود، آنذاك، امرأتان: ميكال، التي أخذها شاول منه وزوجها، فيما بعد، لفلطي ـ أحد المقربين إليه، وامرأة إسرائيلية اسمها أخينوعم. لكنه في الحقيقة ماأحب إلا أبيجايل.

داوود في الخدمة عند الفلسطينيين ومصير شاول المأساوي

فهم داوود أن الملك لن يرتاح له بالٌ حتى يقبض عليه حياً أو ميتاً. ولم يبق له إلا

مغـادرة إسـرائيـل والاختبـاء حيث لا سلطة هناك لشاول . فسبب له الترحُّل والتيه والمصائب ألماً وتعاسة . فها هو يقول، لاحقاً، في أحد مزاميره (السادس والخمسين) :

«ارحمني يا يهـوه لأن الانسـان يتجهمني ويـريد قتلي ويضايقني أن أقضي يومي كله مرتدياً عدة الحرب أعدائي كثيرون وكلهم يهمونني ويقاومونني بكبرياء . . . » .

اضطـر داوود إلى القيـام بعمـل حقير ومشين : فقد عرض خدماته على أخيش ، ملك مدينـة جت الفلسطينيـة ، قبـل عدوُّه السـابق العـرض برحـابة صدر، إذ ليس من السيء أن يحصـل على فصيـل مكـون من ستمـائة مقاتل شديد قاطع رؤ وس ذو خبرة بالحرب ، وعدا ذلـك فإن من مصلحتـه إضعـاف إسرائيل بتصفيات دموية داخلية ، فهو يستطيع ، باتفاقه مع داوود، بعث المشكلات بين شاول وداوود وتصفية الحساب بينهم .

أعطى أخيش لداوود قريـة صقلغ ، التي قرب غزة ، فسكن الثـاني هنـاك مع فصيله وزوجتـاه ـ أبيجـايـل وأخينـوعم . وكـانت أوامـر أخيش لداوود أن يهـاجم هذا الأراضي الاسـرائيليـة وينهبهـا . غيـر أن داوود لم يكن يقـوم القيـام بذلـك ، بل صار ينهب أراضي العمـاليق ، أعـداء الاسـرائيليين التقليـديين . وفي كل هجـوم كان يقتـل كل السكان ، كي لا يبقى شهـود على عمله ، ثم يعطي الغنـام لأخيش زاعمـاً له أنهـا نهبت من الاسرائيليين . فكـان الملك الفلسطيني يصـدقـه ويـردد في نفسـه بسعـادة : «قـد صار مكروهاً لدى شعبه إسرائيل وسيكون لي عبداً إلى الأبد» .

أعـد الفلسطينيـون العـدة للقيام بهجوم شاول ، ودعا أخيش داوود وفصيله للاشتراك معهم في الحـرب . لكن الحكـام الفلسطينيين لم يثقـوا بالاسرائيليين وطالبوا بإبعادهـم عن الجيش . فعاد داوود بفصيله إلى صقلغ سعيداً لعدم اضطراره إلى محاربة أبناء قومه .

غيـر أن العمـالقـة هاجمـوا صقلغ ، أثنـاء غيـاب داوود وجعلوها دماراً ورماداً وأسروا السكـان بمـا فيهم عائلة داوود . هرع النـاجـون من القـريـة للقـاء داوود باكين ولاعنين إياه وحـاولـوا ضربـه بالحجـارة . تحـرك داوود مبـاشـرة لمطـاردة العـدو، فقاتله ودمره وحرر كل الأسرى . ووزع الغنائم على أبناء قبيلته في أرض يهوذا ، لكي يكسب تأييدهم في صراعه على العـرش . في ذلـك الـوقت انغمست رامتـايم في حداد عميق ، إذ مات النبي صموئيل وبمـوتـه تخلص شاول من عدو كبيـر له . ولكي يبعث الهلع والخوف في نفوس طبقة الكهنة أمر بقتل كل أتباعها من أنبياء وقارئي كف وسحرة . كان عدد أولئك كبيراً جداً في إسرائيل ، وكـان الشعب معتـاداً على خدمـاتهم ، لذلـك ، وبعـد ذبحهم ، سيطـر على البـلاد جوٌّ من

الإرهاب والهلع. أما في حياته اليومية، فقد حافظ شاول على طبيعته البسيطة، ولم ينكر أحدٌ عليه أفضاله وأعماله البطولية التي قام بها لصالح إسرائيل. وبقي الكثير من الإسرائيليين يكنون له الاحترام والحب أحياناً، فهيبته كانت كبيرة لدرجة أن داوود لم يتجرأ على قتله عندما سنحت له الفرصة مرتين للقيام بذلك.

غير أن مكائد الكهنة المستمرة والإشاعات حول مباركة صموئيل لداوود بالحكم ومسحه بالدهن أخرجت شاول من طوره وتوازنه، ودفعته إلى القيام بأعمال فظيعة. وفي قلعته الحصينة، في جبعة، كان يُمضي الأيام وحيداً في وساوسه وحزنه وغضبه وذلك في الوقت الذي هبّت فيه العاصفة على الدولة الإسرائيلية الفتية، فقد انتهكت حدودها جيوش الملوك الفلسطينيين المتحدة. انتصب معسكر، من مئات عربات الحرب وآلاف المقاتلين المدربين بالحديد، في شونم التي في سهل يزرعيل، أي في وسط أرض إسرائيل. أما شاول فوقف بجيشه على جبل جلبوع، حيث يرى أمامه كل السهل. أحست نفسه بالهلع، لرؤية جيش الفلسطينيين العظيم، وشعر بالنهاية الوخيمة، امتلأت تقاطيع وجهه بأساً وقنوطاً وسأل المقربين إليه عما إذا كانت بالقرب عرافة تقرأ له مستقبله، فأجابه أولئك باستغراب، بأنه سبق وأمر بقتل العرافين كلهم. لكن تبين، فيما بعد، وجود عرافة عجوز بالقرب من عين دور. فتنكر شاول وراح ليلاً، بصحبة اثنين من حملة سلاحه، إلى العرافة: لكن هذه لم ترغب بادخالهم خوفاً من الملك، ولم تفعل إلّا بعد أن أقسم لها شاول بألا يصيبها مكروه، سألته العرافة عمن يريد أن تصعد له، فطلب أن تُصعد له صموئيل، ولما ظهر صموئيل عرفت المرأة أن شاول هو من يقف أمامها. ولماذا خدعتني وأنت شاول؟ صرخت العجوز في وجهه. هدأ شاول من روع العجوز مرة أخرى، ولما لم يكن قد رأى صموئيل فقد سألها عمن ظهر. فعرف من وصف العجوز، أن الذي ظهر هو صموئيل، عدوُّه اللدود لسنوات طويلة. انحنى له شاول ورجاه النصح في كيفية التصرف أمام الخطر الفلسطيني المحدق. لكن صموئيل لم يتغير حتى بعد موته، فقد عاد يؤنب شاول على اضطهاده للكهنة ومخالفته، بالتالي، لإرادة يهوه، لذلك، قال النبي، لشاول: إنه سيعاقب وسيموت في صراعه مع الفلسطينيين هو وأولاده، وسيفنى نسله كله فيما بعد. هز الخبر الفظيع شاول لدرجة أنه فقد وعيه وسقط على الأرض، ولما عاد إليه رشده امتنع عن الطعام رغم ضعفه، ولكن بعد إلحاح العرافة الشديد أكل قطعة خبز وقطعة لحم بقر مسلوقة.

نشبت المعركة في اليوم التالي: فخسر الإسرائيليون خسارة رهيبة، وهرب الناجون منهم من أرض المعركة، وقتل أولاد شاول، بما فيهم يوناثان، مع آلاف الإسرائيليين

الآخـرين. أمـا شـاول فقـد جُرح وتمكن من الهرب، لكن الفلسطينيين تتبعوا آثاره. وعندما شعـر أن الهـرب مستحيـل دعا إليه حامل سلاحه وطلب منه أن يقتله، لكن الغلام لم يتجرأ على عمل ذلك، فانتحر شاول بأن ألقى بثقله على سيفه، وانتحر غلامه أيضاً بالطريقة نفسها.

قطـع الفلسطينيـون رأس شاول وعـرضوه في معبد عشتاروواجون، أما جسده فعلقوه على سور بيت شان.

وصـل خبـر تمثيـل الفلسطينيين بجسـد الملك إلى سكـان مدينة يابيش التي حررها شاول يوماً ما من الاحتلال العموني. فقام سكانها، كرد جميل، بسرقة جسد الملك ودفنه في مقبـرتهم حسب العـادات والأصـول. احتـل، بعـد ذلـك الفلسطينيون سهل يزرعيل، معـززين بذلـك موقعهم الاستـراتيجي من أجـل السيطـرة على كل كنعـان. وبـذلك تكون الدولة، التي شكلها شاول بصعوبة بالغة، قد فنيت وأُبيدت.

داوود يحزن لموت شاول ويوناثان

سمع داوود بالأنباء المفجعة عما حصل في سهل يزرعيل بعد عودته إلى صقلغ من مطاردة العماليق، فقد جاء شخص مجهول ممزق الثياب، أشعث الشعر مُغْبَرّه وسقط عند قدميـه وأخبـره باكيـاً، بنبأ موت شاول ويـوناثان وولدين آخرين للملك. كان ذلك الشخص فتى من العمـاليق يعمـل مرتـزقـاً في جيش الإسـرائيليين وأحـد الـذين شاركوا في المعركة المفجعة، كما صرح الفتى أيضاً أنه هو الذي قد قتل الملك شاول بناء على طلبه ويبرهن على صدق قولـه قدم لداوود إكليـل وإسـوار الملك المقتول. لقد اختلق الفتى تلك القصة طامعـاً بعطـاء داوود له، إذ أنـه قتـل عدوه، أمـا الحقيقة، فإن ذلك الفتى قد اصطدم، عند هروبـه من أرض المعـركـة؛ بجسـد الملك ونـزع إكليله وإسـواره، لكنـه أخطأ جداً في حساباته، فقد أمر داوود بقتله لأنه قتل مبارك الرب.

حزن داوود كثيراً لمقتل شاول، لأن مقتله قد وضع نهاية لأول دولة إسرائيلية متحدة. أما مقتل يوناثان فكان بمثابة كارثة كبيرة عند داوود. فيوناثان بالنسبة له صديقٌ وحيدٌ مخلص ومحب لدرجـة الغـرام. ولن يستطيـع أحـدٌ شغـل مكانه في قلب داوود. بكى داوود كثيراً، ضرب رأسـه بالجـدار مراراً ومـزق ثيـابـه، ولم يأكل أحد شيئاً طوال اليوم ولم ينم أحد طيلة

الليل. وبكى المقاتلون كلهم مع داوود وندبوا يوناثان حتى عائلة داوود شاركت في البكاء. وفي اليـوم التـالي صار داوود يدور في غرف البيت كالمعتـوه، صامتاً، غاضباً ومرهقاً، وبعد حين أمسك بعوده ونفخ كل حزنه وألمه في هذه المرثاة:

الظّبي يا إسرائيل مقتولٌ على شوامخك
كيف سقط الجبابرة!
لا تخبروا في جتٍّ
لاتبشّروا في أسواق أشقلون
لئلا تفرح بنات الفلسطينيين
لئلا تشمت بنات الغُلفِ
يا جبال جلبوع!
لا يكن طلٌّ ولا مطر عليكنَّ
ولا حقول عطاء ومواسم
لأنه هناك طرحِ مجنُّ الجبابرة، مجنُّ شاول
بلا مسح بالدهن
من دم القتلى، من شحم الجبابرة
لم ترجع قوس يوناثان إلى الوراء
وسيف شاول لم يرجع خائباً
شاول ويوناثان المحبوبان والحلوان في حياتهما
لم يفترقا في موتهما
أخفُّ من النسور وأشدُّ من الأسود
يا بنات إسرائيل
ابكين شاول
الذي ألبسكنَّ قرمزاً للتنعّم
وجعل حلي الذهب على ملابسكن
كيف سقط الجبابرة في وسط الحرب!
يوناثان على شوامخك مقتول

قد حزنت عليك يا أخي يوناثان
كنت حُلواً لي جدّاً
محبتُك لي أعجب من محبّة النساء!
كيف سقط الجبابرة وبادت آلات الحرب!

تنصيب داوود ملكاً ليهوذا وصراعه من أجل عرش إسرائيل

انتمى داوود، بولادتـه، إلى قبيلة يهـوذا. ولمـا تزعم عصـابـة اللصـوص وقـاطعي الطـرق، لـم ينسى قبيلتـه، بل دافـع عنهـا واقتسم معها الغنائم التي كان يسلبها من القبائل الأخرى، فامتلك بذلك قلبها وفرض حبه واحترامه عليها. لذلك لم يكن غريباً ولا مدهشاً أن تطلبه قبيلته إلى حبرون وأن تنصبه ملكاً عليها. في نفس الوقت، في مدينة محنايم، قام أبينير، مؤيـداً من قبائل إسرائيل الشمالية العشرة، بتنصيب إيشبوشت، ابن شاول الرابع - ملكـاً. كان إيشبـوشت ذاك ضعيف الشخصيـة والكلمة وأداة طيعة في يد أبينير الذي حكم حكمـاً فعليـاً، إسرائيل كلها ماعدا سبط يهوذا، لم يعترف داوود بإيشبوشت ملكاً، مما أدى إلى انقســام الــدولـة، ولم يكن للعصيـان ضد سلالـة شاول، التي تمتعت بتأييـد غالبيـة الشعب، إلا أن يؤدي إلى حرب شعبية، فصار داوود يعد العدة لهذه الحرب بانتظام، وبما أنـه، إضـافـة لكونه قائداً عسكرياً فذاً شجاعاً، رجل سياسة حاذقاً وبعيد الرؤية فإنه فهم أن سبب انقسام إسرائيل وتفرقها هي العداوة والتناحر بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب. لذلك حاول، منـذ البـدايـة، التقـرب من قبائل الشمال، فأرسل إلى يابيش رسلاً يحملوّن رسائل شكـر على دفنهم لجثـة شاول، وسعى إلى نشـر خبر حداده عليه وقتله للذي سولت له نفسه الاسـاءة إليـه في أصقاع البلاد كلها. وقد ساعده الكهنة في نشاطه ذلك، فالكهنة صاروا، منـذ الخصـام بين صمـوئيـل وشاول والمذبحة في نوب، ألدَّ أعداء سلالة شاول، أما داوود فكان عندهم منفذاً لأهدافهم مطيعاً ومخلصاً لهم.

استغل داود السنين السبع التي ملك فيها في حبرون لإنشاء جيش قوي، سلم قيادته ليـوآب قائـده العسكـري الفذ، أما الفلسطينيون الذين استطاع داود جرهـم إلى عدم الحذر فقد بقوا على قناعتهم بأن داود لا يشكل خطراً عليهم بل هو مفيد لهم لأن وجوده وقواته عامل من عوامل انهيار إسرائيل.

بدأت الحرب الأهلية في إسرائيل بمعركة دموية عند بركة جبعون ـ وكما جرت العادة ـ تبارز الفرسان قبل بدء المعركة فكان عدد المتبارزين اثني عشر من بنيامين، أتباع إيشبوشت، واثني عشر من يهوذا ولم ينج أحد من الفرسان المتبارزين بل قتلوا جميعاً إذ أن الوطيس كان حامياً جداً بينهم، انتصر يوآب في تلك المعركة انتصاراً ساحقاً، وهربت فلول جيش إيشبوشت، . فطارد عسائيل أخو يوآب، عدوه اللدود أبنير، وكان عسائيل فتى شجاعاً، لكنه مبتدىء في فنون القتال، وقد اقترح عليه أبنير ثلاث مرات البحث عن غريم آخر: «مِلْ من ورائي ـ قال أبنير لعسائيل ـ لماذا أضربك إلى الأرض، وكيف أرفع وجهي لدى يوآب أخيك؟» لكن الفتى بقي مصراً على ملاحقة أبنير فاضطر هذا مرغماً إلى مبارزته. لم يطل بهما الوقت إذ ضرب أبنير عسائيل برمحه ضربة قاضية، ولما رأى يوآب جسد أخيه ملقى على الأرض مزق ثيابه وأقسم أن ينتقم له من أبنير.

استمرت الحرب لارتقاء عرش إسرائيل طويلاً، واتسمت بالفظاعة والعنف، أضاع خلالها الإسرائيليون قواهم وتوازنهم بالتدريج، وعزز داود مواقعه، فقد كان يأتيه المتطوعون يومياً حتى من القبائل الشمالية، وكان بعض أولئك الشماليين مخلصين لإسرائيل ومقتنعين أن داود هو الوحيد القادر على الدفاع عنهم في وجه الفلسطينيين، أما البعض الآخر فكانوا وصوليين شعروا باقتراب وصول داود إلى العرش فانضموا إليه.

زعزعت الهزائم والخسائر المتواصلة هيبة ووضع أبنير في محنايم، ذلك لأن سلطته قامت أصولاً على أساس أنه أقدر وأعظم قائد عسكري في إسرائيل، وأن داود غير قادر على مجابهته، أما بعد الخسائر العديدة انطفأت شهرته لدرجة أنه لم يعد واثقاً من تأييد الجيش له، وصار الملك أيشبوشت ـ اللعبة ـ وحاشيته يحتقرونه ويستهينون به، فأدى ذلك إلى خصام علني، أحس أبنير معه أن السلطة تنسل هاربة من بين يديه، فأخذ يبحث عن أساليب جديدة لتعزيز موقعه، فاتخذ رصفه إحدى عشيقات شاول، عشيقة له فأثار بذلك حفيظة أيشبوشت، إذ أن التقليد كان يقضي أو بالأحرى لا يسمح إلا لولي العهد «استخدام» حريم الملك المتوفى، إذن فُهم من تصرف أبنير أنه يجهز لانقلاب حكومي، فقام بين الملك وقائد جيشه خصام عنيف، ذكر خلاله أبنير للملك بأن الفضل في اعتلائه العرش يعود إليه، وفي إحدى لحظات الانفعال اعترف له باقتناعه بنصر قريب ونهائي لداود على سلالة شاول، شعر الملك الضعيف الجبان بتهديد بالخيانة في كلام أبنير، فارتعد خوفاً وتراجع إلى مخدعه، قرر أبنير عدم الإبطاء، فأرسل رسلاً إلى داود واقترح عليه الانتقال

بجيشه إلى جانبه وصفه إذا ما وافق داود على تعيينه قائداً عاماً للجيش، وإعطائه حصانة تامة.

وافق داود على اقتـراح أبنيـر مشتـرطاً عليه أن يعيد إليه هذا زوجته ميكال التي أخذها منـه شاول وزوجهـا لشخص آخـر، فأخـذ أبنير ميكال من زوجها الجديد فلطي عنوة، وجُن جنون الزوج وأسرع وراء زوجته الحبيبة، ممزقاً ثيابه ومكسراً أضلاعه حتى فقد أبنير صبره، وهدده بالموت إن لم يعد إلى بيته، فاضطر هذا للخضوع للأمر الواقع.

وبمـا أن الكهنـة قد أعلنـوا سابقـاً أن يهـوه نصب داود ملكـاً، فإن أبنير استطاع إقناع زعمـاء القبـائل بقبول المفاوضات بسهولة، لكن رسل القبائل الشمالية استقبلوا في حبرون استقبالاً سيئاً، وبعد أن وُقع الاتفاق أقام داود على شرفهم وليمة عظيمة، كان خلالها قائد جيشـه يوآب في المعسكـر مع الجيش، ولمـا علم بالاتفاق هُرع إلى داود، وقال له بأسى: «مـاذا فعلت؟ هوذا قد جاء أبنيـر إليـك لمـاذا أرسلتـه فذهب، أنت تعلم أن أبنير بن نير جاء ليتملّقك وليعلم خروجك ودخولك وليعلم كل ماتصنع».

لم يرتح يوآب بالطبع لمفاوضات أبنير وداود فأبنير عدوه اللدود وقاتل أخيه، المهم أن يوآب قرر بعـد الجـدل العـاصف مع الملك التصرف على هواه، كان أبنير آنذاك في طريقه إلى محنايم، لحق به يوآب وأعاده إلى حبرون زاعماً أن داود يرغب بابلاغه عن أمور هامة، وفي حبـرون قتله يوآب، لم يعـاقب داود قائـد جيشـه على جريمته لأن ارتاح في قرارة نفسه لتخلصـه من عدوه اللدود، وعـدا ذلـك فإن الانتقـام للقريب كان شيئاً مقدساً في إسرائيل، كما إن داود ماكان يرغب بتعكير العلاقات مع يوآب المتمتع بشعبية كبيرة.

أثار الاتفاق مع داود ضجة كبرى في محنايم، فقد ايشبوشت وعيه من فظاعة الخبر، وبدأت حاشيته تهرب من القصر خوفاً على نفسها، وفي أحد الأيام عند الظهيرة دخل رجلان إلى بيت أيشبوشت ليشتريا حنطة فوجداه نائماً فقتلاه وأحضرا رأسه إلى داود طمعاً بالمكافأة لكن بدل المكـافأة، أمـر داود بقطـع أيـديهمـا وأرجلهما وتعليق جسدهما عند بركة حبرون ليكـونـا عبـرة لمن تسول له نفسه رفع يده على مباركي الرب، أما رأس ايشبوشت فدفنه داود بحفاوة في مقبرة أبنير.

عاش في قصر منحايم ابن ليوناثان أعرج الرجلين، كان له من العمر خمس سنين لما قتل أبوه في سهل يزرعيل، وعندما سمعت مربيته بمقتل أبيه آنذاك هربت بالطفل، فأوقعته على الأرض، ممـا أدى إلى عرجـه، فأخـذ داود ابن صديقه الحميم وضمه إلى بيته وأحاطه

برعـايـة كبيرة، فكبر نسل شاول الأعرج ومكانه محفوظ في بيت داود، ووضعه كوضع أي فرد من أفراد أسرته.

بعـد مقتـل أبنيـر وعـزل سلالـة شاول أضحى داود المـرشح الحقيقي الوحيد لتسلم العرش، ليس لأنه كان على رأس الجيش المنتصر فقط، بل لأن صموئيل كان قد باركه منذ زمن طويـل وعـزز موقعـه قدوم رُسـل القبـائل الشمالية، التي صار الفلسطينيون يهددونها وعرضهم العرش عليه، وبهذا يصير داود بعد أكثر من سبع سنوات من الملك في حبرون ملكاً لجميع إسرائيل، وعلى مدى الثلاثة والثلاثين عاماً التي حكم فيها يُخضع الفلسطينيين، ويؤسس أقوى دولة في تاريخ العبرانيين.

مدينة داود

لما سمع الفلسطينيون بأن أداتهم المنفذة ـ داود ـ صار ملكاً لجميع إسرائيل، قرروا القبض عليـه ومعـاقبته على خيانته، فقام الجيش الفلسطيني القوي بدخول سهل الرفائيين الـواقـع في غرب أورشليم وعـزل جنـوب البـلاد عن شمالها، مما حرّج موقف داود للغاية، فرغم العدد الكبير من المقاتلين الشماليين الذين انضموا إليه لم يكن بإمكان جيشه مقارعة الفلسطينين المزودين بعربات القتال، لذلك قرر عدم الوقوع في نفس خطأ شاول، فتجنب الحرب مباشرة واكتفى بالعمليات الفدائية، فقد كانت له تجربة كبيرة بهذا المجال من أيام تزعمـه لعصـابـة النهب والسلب، عدا ذلـك فإن ورقة رابحة أخرى كانت بين يديه، فهو قد درس تماماً تكتيك الفلسطينين الحربي خلال خدمته لهم.

أخذت عمليات داود الفدائية تضعف معنويات الفلسطينين شيئاً فشيئاً، وصار هؤلاء يهـربـون عنـد أول اشتباه بقرب العدو، استغل داود الوضع وهاجم الفلسطينين هجوماً علنياً مرتين وكسب المعركتين، فرجع المحتلون أخيراً إلى أراضيهم خاسرين بدلالة مطاردة داود لهم حتى مدينتهم جت.

ومنـذ ذلـك الوقت لم يعد الفلسطينيون قادرين على الحفاظ على قوتهم وعظمتهم، ومع الأيام اضطروا إلى الاعتراف بسيطرة إسرائيل.

لم تكن لمملكة داود المتحدة عاصمة.

فحبـرون بعيـدة جداً إلى الجنـوب ولا يرغب الشماليون بجعل مدينة يهوذية عاصمة

لهم ، لذلـك تنبـه داود إلى أورشليم ، فهـذه المـدينة تعود إلى اليبوسيين منذ أربعمائة عام ، ويعتبرها الشماليون الغيورون مدينة محايدة، لكن احتلالهم لم يكن سهلاً فهي مبنية على ثلاثـة تلال ومحمية بقلعـة حصينـة مشادة على جبل صهيون ، لذلك كان من السهل عليها صد هجمـات المحتلين، ولشـدة ثقتهم باستحـالـة خسـارتهم كان سكان أورشليم يقولون مازحين : ان فصيلاً واحداً من العميان والعرج لقادر على الدفاع عن أورشليم، لذلك ليس غريباً ان يستقبلوا هجمات الإسرائيليين بالاستهزاء والسخرية ، فقد هاجم داود المدينة المرة تلو الأخرى وفي كل مرة كان يجر أذيال الخيبة ويعود أدراجه ، ولما فقد الأمل في فتح المدينة وعد من يفتحها وينتصر على اليبوسيين أن يجعله أميراً متسلطاً فأخذ يوآب تلك المهمة على عاتقـه ، لم يكن من الممكن احتـلال المـدينـة إلاّ بالحيلة ، لذلـك أخـذ يوآب يطـوف في ضواحي المـدينـة يستقي المعلومـات من النـاس ، فاكتشف أن للمدينة مدخلاً سرياً ، ففي السهـل إلى الشـرق من أورشليم يوجـد نبـع ماء يزود المـدينـة بالمـاء بواسطـة قناة عمودية محفورة بالصخر.

لم يتـوقـع اليبوسيين هجوماً من تلك المنطقة ، فكان أنهم لما رأوا الإسرائيليين هناك هرعـوا لصـدهـم تاركين بوابـات المـدينـة دون حراسة ، فاستغل داود الوضع وبهجوم سريع مباغت احتل المدينة .

جعـل داود التلة والقطعـة التي في الجزء الجنوبي للمدينة عاصمة له وسماها «مدينة داود» ، وبـدأ فوراً بالعمـران وقـرر بنـاء قصر لنفسه يليق به كملك عظيم ، فأقام لهذا الغرض علاقـات تجـاريـة مع احيرام ملك صور فارسل له هذا خشب الأرز ونجارين وبنائين ، فبنى داود بمسـاعـدتهم قصـراً يضاهي قصور جيرانه من الملوك العظام ، وقلّد داود جيرانه الملوك بشيء آخـر أيضـاً حين أحـاط نفسـه بالحـريم ، لأن النساء كن آنذاك مقياساً لعظمة المُلك والمَلك ، ومع الأيام صار أباً لعائلة كبيرة ملأت زوايا القصر بالضجة والضحك والجدل .

أراد داود أيضـاً أن يجعـل أورشليم مركـزاً دينياً لإسرائيل ، ولتحقيق ذلك توجب عليه إحضـار تابـوت عهـد الـرب من بعله يهوذا ، قاد جيشـاً مؤلفـاً من ثلاثـين ألف مقـاتـل ومعه حاشيته أيضاً إلى هناك لإحضار التابوت ، وهناك وضعوا التابوت على عربة تجرها الثيران ، وسـاروا عائـدين يرقصـون ويغنون ويعزفون ، ترأس الموكب داود مرتدياً رداء الكهنة الكتاني الأبيض ، لكن يهـوه أشعـر الإسـرائيليين بوجـوده قبـل الوصول إلى أورشليم ، ففي الطريق خافت الثيـران من الجلبـة ، ومـالت إلى ناحيـة الطريق . وانحرفت فكاد التابوت يقع غير أن

شخصاً اسمه عزة أمسك به في آخر لحظة، لكن لمس التابوت كان كفراً لاغفران له، لذلك أمات يهوه عزة فوراً غير آبه بنوايا الرجل الطيبة، هاج داود وتأثر كثيراً لما حدث وأمر بإيقاف الموكب وترك التابوت أمانة عند عوبيد أدوم، ولم يتجرأ على إحضار التابوت إلى العاصمة إلا بعد ثلاثة أشهر من الحادثة، ومن جديد غنى الشعب ورقص وعزف ومن جديد، قاد داود الموكب برداء الكاهن الكتاني الأبيض وعلى رأسه تاج الملك، وفي يده عوده يعزف عليه، وخلفه سار الكهنة حاملين التابوت على أكتافهم، وكروبيناته تلمع كالمشاعل.

كانت زوجة داود ميكال، تراقب الموكب من نافذة غرفتها، رأت تصرف زوجها الغريب فراودتها فيه الشكوك ولم تخف ذلك.

وضعوا التابوت في خيمة أعدت خصيصاً، وبعد تقديم القرابين، وتوزيع المواد على الشعب وبعد الوليمة الكبيرة عاد داود إلى القصر، وهناك استقبلته ميكال مستهزئة: «ماكان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف اليوم في أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء». أحزنت كلمات ميكال داود كثيراً، فكره زوجته إلى الأبد، ذهب الحب وانطفأ الغرام، ولم يقدر لميكال أن تلد من داود ولداً، واعتلت عليها أبيجايل وأخينوعم والعشيقات العديدات، أمهات أولاد وبنات الملك.

دعا داود أحد الأيام النبي ناتان إليه، وقال له: «انظر، إني ساكن في بيت من أرز، وتابوت الله ساكن داخل الشقق» وشرح للنبي أنه يريد بناء معبد في أورشليم يضاهي قصره بل ويكون أحسن منه، رحب ناتان بالفكرة في البداية، ثم قال له في اليوم التالي: أن يهوه تحدث معه ليلاً، وأمره بعدم بناء المعبد، شاء يهوه أن يبقى كسابق عهده رباً للرعاة وأن يعيش في خيمة، فاضطر داود أن يرضخ لأمر يهوه، ويمتنع عن تزيين عاصمته بمعبد رائع البنيان، فحدث أن بنى خليفته سليمان ذلك المعبد.

داود مؤسس دولة كبرى

بعد أن وحد داود القبائل الإسرائيلية كلها وطرد الفلسطينيين، اهتم بتوسيع دولته باحتلال أراض جديدة، فاخضع في البداية المؤابيين والأدوميين. ومن ثم نشبت الحرب بينه وبين العمونيين دون إرادته، فقد مات ناحاش ملك عمون وتسلم ابنه خانون السلطة بعده، فأرسل داود إلى الملك الجديد يعزيه بوفاة أبيه ويدعو له بالتوفيق في حكمه لكن

رؤ ساء بني عمون أحرجوا ملكهم وجعلوه يسيء الظن بموقف داود ويتصرف تصرفاً سيئاً مع رسله، إذ قالوا: «هل يكرم داود أباك في عينيك حتى أرسل إليك معزين؟ أليس لأجل فحص المدينة وتجسسها وقلبها أرسل داود عبيده إليك؟».

سمع حانون كلام الرؤ ساء، وأمر بأن يحلق لعبيد داود أنصاف لحاهم، وقص ثيابهم من الوسط إلى استاههم ومن ثم إعادتهم إلى أورشليم. لم يحتمل داود الإهانة فوجه جيشه بقيادة يوآب ضد حانون، ونشبت الحرب الدموية عنيفة. لأن العمونيين طلبوا النجدة من خمسة ملوك آراميين فانجدوهم. لكن تلك النجدة لم تفدهم شيئاً إذ انتصر الإسرائيليون انتصاراً ساحقاً أدى إلى سيطرة داود على قسم كبير من سورية وتمركزت حامية إسرائيلية في دمشق، وقدم إليها حاكم إسرائيلي.

أسس داود بفتوحاته دولة عظمى امتدت حدودها من خليج العقبة وحتى الفرات ومن وراء الأردن حتى الحرمون والفلسطينيون الذين دمرهم داود فقدوا استقلالهم السياسي شيئاً فشيئاً. وسيطرت إسرائيل على أعدائها، وبدأت تعيش المرحلة الوحيدة في حياتها كدولة عظمى.

انشغل داود ببناء دولته الداخلي وظل الجيش عماد قدرته وعظمته. ولذلك أعطاه أكبر قدر من الرعاية والاهتمام. لكنه لم يجر أية تعديلات على تسليحه الذي أساسه المشاة المسلحون بالرماح والدروع والسيوف. فلسبب ما لم تعجب عربات القتال سلاح الفلسطينيين الجبار داود. مع أن الفرصة كانت مهيأة له لتسليح جيشه بتلك العربات دون أية خسارة، وذلك لأنه غنم من الآراميين ألفاً وسبعمائة عربة لحاجات القصر. فصار أولاده وقادته يركبونها في طرقات أورشليم، أما نواة الجيش، فبقيت من العصابة المكونة من ستمائة قاطع طريق الذين تزعمهم أثناء صعلكته والمسمون «بفصيل الشجعان». كان داود يمنحهم مكاسب كبيرة يعطيهم أراضي جديدة ويعينهم في مختلف المناصب وأعلاها. وبقيت في جيشه فصيلتان ضخمتان من المرتزقة. وبقي يوآب يقود الجيش أثناء الحروب، وتحت إمرته ثلاثة قواد كبار وثلاثون قائداً صغيراً يشكلون المجلس الحربي للجيش الخاضع مباشرة لداود.

وفيما يخص الإدارات المدنية، أعاد داود تنظيمها على النمط المصري، فوضع على رأس الحكومة مجلس شيوخ ومستشاراً. أما أكبر أعوانه فكانا خازنين ملكيين يتبع لهما جباة الضرائب والكتبة وسبعة متصرفين يسيرون أمور حقول الملك وكرومه وبساتينه وقطعانه

وحميره وجماله. عم النظام البلاد وارتفع مستوى المعيشة وملأ داود خزينته وخزينة المعبد، معبد يهوه بالغنائم العسكرية الكثيرة من الذهب والفضة والنحاس. ولم يكن يقتل الأسرى بل يحولهم الى عبيد للعمل في قصره وأملاكه.

نظم أيضاً الأمور الدينية إذ وضع الكهنة سلماً وظيفياً محدداً. لكنه واجه بعض المشاكل عند تعيينه للكاهن الأعلى. ففي جبعة المركز الديني الرئيسي، كان يشغل منصب الكاهن الأعلى صادوق الذي من نسل إليعازر، وقد عينه شاول بعد مذبحة الكهنة في نوبة. لكن أبياثار صديق داود المخلص. قدم إلى أورشليم فوقع داود بين نارين:

فهو لايستطيع عزل صادوق خوفاً من غضب القبائل الشمالية. ولايقدر أن يرد المعروف لأبياثار الذي أخلص له أيام صعلكته، لذلك قرر ابقاء الشخصين بمنصب الكاهن الأعلى، فصار لإسرائيل كاهنان: صادوق وأبياثار.

داود يغرر بزوجة أوريا

في الوقت الذي قاتل فيه يوآب مدينة ربة بقي داود في قصره بأورشليم. فكان أن رأى من نافذة قصره امرأة جميلة تستحم في البيت المواجه لقصره. التهبت نفسه شوقاً إليها وشغفاً بها. وأرسل من يدرس له أوضاعها، ولما عاد عبيده من مهمتهم أنها بَشْشَبَع زوجة أوريا الحثي، أحد القادة الثلاثين. كان أوريا آنذاك مع يوآب يقاتل العمونيين، فاستغل داود غيابه وغرر بزوجته وضاجعها. لم يمض وقت طويل حتى أخبرته بشשبع أنها حامل، فقرر الملك التخلص من زوجها بأسلوب نذل وحقير، أرسل يطلب من يوآب أن يرسل له أوريا ليستفهم منه عن سير الحرب. فجاء القائد الشجاع إلى القصر، وقدم تقريراً مفصلاً عن الحرب لملكه. احتفى به داود متصنعاً، وفي المساء أرسله إلى بيته ليرتاح. لكن أوريا نام على الأرض مع حرس القصر. وعندما سئل في الصباح عن سبب نومه مع الحرس وعدم الإضطجاع مع زوجته، أجاب أوريا بعزة نفس «أن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي يقيمون في الصحراء وأنا آتي لبيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي».

أرسل داود أوريا إلى القتال مجدداً وزوده برسالة ليوآب كتب له فيها «أجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت».

نفـذ يوآب الأمـر بحـذافيـره فقتـل أوريـا التعيس وحيداً عند جدران ربة. أما بشثبع الحزينة على موت الزوج فضمها داود إلى حريمه. ولم يمض وقت طويل حتى أنجبت له ولداً.

لاقى عمل داود المشين استنكاراً كبيراً في صفوف الإسرائيليين. وجاء النبي ناتان، ذو الشعبيـة الكبيـرة إلى داود مؤنبـاً، استقبله الملك بحفـاوة، وأجلسه بقربه. فحدثه ناتان بحـزن ومأسـاويـة القصـة التـالية: «كان رجلان في مدينة واحدة. واحد منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً. وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتنـاهـا وربـاهـا وكبرت معه ومع بنيه جميعاً، تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنـه، وكـانت له كابنـة، فجاء ضيف إلى الرجل الغني، فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير، وهيأ للرجل الذي جاء إليه. فصرخ داود غاضباً: الموت للرجل الغني. نظر ناتان إليه نظرة معبرة وقال له: «أنت هو الرجل» ثم صرح له أن يهـوه قد غضب جداً لفعلتـه وأنـه سيميت مولوده الجديد الذي أنجبته بشثبع. أدرك داود فداحة ذنبه وندم على فعلته. لكن يهوه لم يقبل ندمه وأمرض المولود فصارع هذا الموت سبعة أيام والملك يسجد ويصلي ليهوه ليعفو عنه. لم يستطع أحد إقناع داود بالراحة أو الطعام. وعندما مات الولد لم يتجرأ أحد على إعلامه بذلك. لكنه شعر بنفسه بالفاجعة. وحين تأكد من الأمر قام من صلواته واغتسل وأدهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد، ثم جاء إلى بيته وطلب طعاماً فوضعوا له خبزاً فأكل. استغرب عبيده التغيير المفاجيء الذي طرأ على داود فسألوه عن السبب فأجابهم داود: «لما كان الولد حياً صمت، وبكيت، لأني قلت من يعلم؟ ربمـا يرحمني الـرب ويحيـا الولد، والآن قد مات فلماذا أصوم؟ هل أقدر أن أرده بعد؟ أنا ذاهب إليه، وأما هو فلا يرجع إلي». صارت بشثبع زوجة داود المحببة. وأنجبت له ولداً آخر بعد عام. كان ذلك الولد هو سليمان ملك إسرائيل المقبل.

أحداث مشينة أخرى في قصر الملك

كان لداود نســل كبيــر العـدد مشـاكس سيء الخلق، حاول أولاد وبنـات زوجـاتـه وعشيقاته اكتساب ود الملك بشتى الوسائل لاجئين لذلك إلى المؤامرات والخيانات. ولم يقـدر داود أن يفـرض النظـام في بيته وأن يضع حداً للفساد. فتحول قصره إلى عش للفساد

والـدعـارة. وفي أحـد الأيام حدثت في القصر حادثة مقرفة ذلك أن أمنون ابن الملك الأكبر وقع بحب ثامار أخته من أبيه وأخت أبشالوم، لدرجة أنه راودها عن نفسها فقاومت إغراءاته بحـزم، وحـافظت على عفـافهـا. ولكن أمنون العاشق لإخته تراجعت صحته وهزل واصفر وجهـه فلاحـظ ذلـك صديقه يوناداب الذي سأله «لماذا ياابن الملك أنت ضعيف هكذا من صبـاح إلى صبـاح؟» «إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي!». اعترف له أمنون. فأوحى إليه صديقه بالحيلة التالية وهي أن يتمارض ويطلب من أبيه أن يرسل له ثامار لتعتني به. فقامت الفتـاة دون أن تشـك بشيء بتحضيـر الطعـام وتقديمه لأمنون في الفراش، لكن هذا عانقها قائـلاً: «تعـالي اضطجعي معي ياأختي». قاومت الفتـاة وحـاولت إقناعه قائلة: «لا ياأخي لاتذلني لأنه لايفعل هكذا في إسرائيل، لاتعمل هذه القباحة. أما أنا فأين أذهب بعاري، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلم الملك، فانه لايمنعني منك». لكن أمنون أصر على رغبته واغتصب أخته. لكن رغبته فيها مالبثت أن انطفأت، فطردها من بيتـه بكت الفتـاة التعيسـة قائلة: «لاسبب هذا الشـر بطـردك إيـاي هو أعظم من الأمر الذي عملته بي». فنادى أمنون خادمه وأمره: «أطرد هذه عني خارجاً، واقفل الباب وراءها».

خرجت الفتـاة المغتصبـة، حثت الـرماد على رأسها، ومزقت ثوبها الملون وصرخت حتى سمـع أهـل القصـر كلهم بعارها، كان داود يحب أمنون كثيراً ورغم امتعاضه من تصرفه لم يستطع عقابه كما يجب، لكن أعجب وأغرب تصرف كان من أبشالوم فقد حافظ على هدوئه وسكينتـه على الـرغم من أن أمـه وأم أختـه من عائلة ملوك، وطـالما افتخر هو بهذا الأصل. وكـانت العـادة تقتضي الانتقام مضى عامان ولم تبدر من أبشالوم أية بادرة للانتقام. بل بقي على علاقـة جيـدة مع أمنـون فاحتقـره البعض لهذا السبب غير عالمين مايكنه في نفسه من حقد لأمنون ومن تعطش للانتقام منه.

وهكـذا بعـد عامين من الحـادثـة، دعـا أبشـالـوم العـائلة المالكة جميعها إلى وليمة سيقيمها في أملاكه في بعل حاصور بمناسبة جز الغنم. اعتذر داود عن الوليمة، لكنه سمح لجميـع أفـراد العـائلة بمن فيهم أمنـون بحضورها. كانت تلك الوليمة فخاً. فما أن انتشى أمنـون بالخمـر قطعه عبيد أبشالوم بسيوفهم، فعمت الفوضى الحضور وهرب بقية أبناء داود إلى أورشليم. لكن الإشاعة ترددت بأن أبشالوم قتل جميع أفراد العائلة المالكة. يئس داود وحـاشيتـه، ومـزقـوا ثيـابهم وسقطوا على الأرض يندبون كل أولاد داود الذكور الذين قتلهم

أبشالوم. ولحسن الحظ تبين فيما بعد أن الإشاعة كاذبة. وصل الأولاد إلى القصر وعانقهم داود فرداً فرداً. أما أبشالوم فهرب إلى خاله تاعاي ـ ملك جشور ـ وبقي هناك ثلاث سنوات ينتظر صفح أبيه عنه. سعى يوآب عند داود للعفو عنه وفي النهاية كان له ما أراد، إذ سمح داود لأبشالوم بالعودة إلى أورشليم، لكنه لم يرغب برؤيته ولم يسمح له بدخول القصر. مضى على ذلك الوضع عامان فقد خلالهما أبشالوم صبره، فطلب من يوآب التوسط ثانية، لكن هذا رفض رفضاً قاطعاً. أمر أبشالوم عندها بحرق حقل يوآب وهدده بأمور أعظم إن لم ينفذ له طلبه. اضطر يوآب للانصياع له وتوسط مرة اخرى عند داود. فتم الصلح بين الأب والابن حتى أن داود كان سعيداً بالمصالحة، وعانق ابنه بعد الفراق الطويل.

تمرد ابشالوم

اعُتبر أبشالوم برأي الجميع أجمل رجل في إسرائيل. فطلعته بهية بكل تفاصيلها. قيافته فضيلة. عيناه معبرتان وتقاطيع وجهه تدل على رجولة منتظمة الشكل وأجمل مافيه شعره المنفوش اللامع.

كان أبشالوم أيضاً طيباً وحسن المعاملة مع الجميع بمن فيهم الفقراء. لذلك ملك قلوب الناس وصار محبباً لديهم، وصارت الجموع تحييه بحرارة عند مسيره في طرقات المدينة متقلداً نفائسه ومحاطاً بخمسين فارساً يشكلون فصيل حمايته. كان بالنسبة للنساء أميراً قادماً من قصة أو خرافة. وبالنسبة للرجال فخر وأمل إسرائيل ومع مرور الزمن أضحى محبوب أبيه محبوب الملك، وأعطاه داود حرية كاملة وتغاضى عن طيشه. أعمي بحب ابنه ولم يأخذ بتحذيرات المحيطين به. لم يظن داود بأن قلباً رهيباً قادراً على أية خيانة يختبىء وراء منظر أبشالوم الجميل. كان لأبشالوم ثلاثين عاماً، حين نفذ صبره وهو ينتظر تسلم العرش، ولهذا الغرض تصرف ليكسب ود الجميع. فصار يعانق كل من يلاقيه في طريقه. وأخذ الناس يرددون: أنه ابن الشعب. وكثيراً ماكان يحضر إلى بوابة المدينة حيث يقضي بين الناس وهناك كان يأخذ المتذمرين من حكم داود ويقول لهم: ان الملك ظلمهم وأنه سيحكم لهم لو أن الأمر بيده. فزرع بذلك كراهية أبيه في نفوس الناس، واكتسب شهرة واسعة. وبالتدريج حرك المؤامرات في كل البلاد. حرض القبائل الشمالية على العصيان. ووعدته هي بتأييده عسكرياً. فتلك القبائل لم تغفر لداود عزله لسلالة شاول، واعتبرته

متسلطاً لا ملكاً، ولم تستطع تلك القبائل بسبب عداوتها القديمة ليهوذا، أن تقبل ملكاً يحكمها من قبيلة يهوذا نفسها.

طلب أبشالوم من أبيه السماح له بالذهاب إلى حبرون زاعماً أنه يرغب في تقديم قربان ليهوه بمناسبة عودته إلى أورشليم من منفاه. لم يشك داود بشيء فسمح له، غادر أبشالوم إلى حبرون برفقة مائتي محارب مخلصين له. ومذ وصوله لحبرون دعا شركاءه في المؤامرة إليه فجمع جيشاً كبيراً تكون عملياً من مقاتلي القبائل الشمالية جميعها، ونصب المتمردون أبشالوم ملكاً عليهم، واتجهوا قاصدين أورشليم سمع داود بالتمرد في اللحظة الأخيرة. هيأ نفسه على عجل وخرج من أورشليم سائراً على قدميه، يرافقه فصيل من رفاق السلاح القدامى عدده ستمائة مقاتل وفصيلان من المرتزقة الفلسطينيين المخلصين له. كما أخذ الملك معه جميع حريمه وعائلته تاركاً عشر عشيقات فقط للعناية بالقصر.

هرب الكاهنان صادوق وعوبيد أدوم أيضاً مع الهاربين وأخذا معهما تابوت العهد. لكن داود لم يلبث أن استعاد ثقته بنفسه فبدأ عمليات المعاكسة. وقبل كل شيء أمر الكاهنين بالعودة إلى أورشليم كي يبقياه على علم بما يحدث هناك. وكان الوداع قاسياً ومريراً. فقد غطى الناس رؤوسهم بأرديتهم علامة للحداد بكوا وصعدوا الجبل حفاة ليشاهدوا تابوت الرب يبتعد عنهم شيئاً فشيئاً نحو أورشليم. لقد أضاعوا كل شيء عاصمتهم وبيوتهم، وأقدس أشيائهم الدينية. وصار الغموض والضياع بانتظارهم في كل لحظة.

بعد مدة علم داود أن أبشالوم اتخذ لنفسه مستشاراً أخيتوفل ـ الحكيم الحاذق، فاضطرب لهذا النبأ جداً إذ يمكن أن يصبح أبشالوم خطراً جداً، إذا اتبع نصائح أخيتوفل، لذلك رأى من الواجب عرقلة ذلك الأمر، وقرر الملك اللجوء إلى التجسس والحيلة. أمر حوشاي أخلص مستشاريه إليه بالعودة إلى أورشليم، ومحاولة كسب ثقة أبشالوم وفي حال نجاحه في الوصول إلى منصب مستشار لابشالوم يكون عليه أن يبطل مفعول استشارات أخيتوفل وأن يبلغ داود بخطط المتمردين.

أما داود فتابع طريقه. ولما وصل يوماً إلى مدينة بحوريم خرج إليه شمعي الذي كان من نسل شاول، وصار يقذفه ومرافقيه بالحجارة ويصرخ في وجهه: «أخرج يارجل الدماء ورجل بليعال. قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عنه وقد دفع الرب المملكة ليد أبشالوم ابنك. وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء».

فلما سمع أبيشاي غلام الملك المخلص هذا الكلام قال للملك: «لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدي الملك؟ دعني أعبر واقطع رأسه». لكن الملك أوقفه لأنه لم يرغب بإيصال علاقته مع القبائل الشمالية إلى أسوأ مماوصلت إليه. تابع داود طريقه وتابع شمعي مرافقته بالسباب، وقذف الحجارة حتى اضطر المقاتلون لحماية الملك بدروعهم. وظل الأمر كذلك حتى عبر داود الأردن فعاد شمعي أدراجه إلى الوراء.

في ذلك الوقت دعا ابشالوم مجلسه الحربي للاجتماع في أورشليم لبحث الأمور الحربية كان أخيتوفل قد أقنعه بالبقاء في القصر، والدخول على عشيقات أبيه، بينما يذهب هو لمطاردة داود. لكن حوشاي الذي استطاع كسب ثقة أبشالوم، عارض تلك المقترحات، فقد أكد حوشاي على أن داود رجل حرب مجرب وخبير خاصة بالعمليات الفدائية. وأن جيش أخيتوفل قد يتعرض لهزيمة كبيرة رغم كثرة عدده فيؤدي هذا إلى نبذ القبائل الشمالية لأبشالوم وتخليها عنه. ونصح حوشاي بتجميع جيش شعبي من كل أنحاء البلاد، ومن ثم البدء بالقتال. أعجب ذلك الاقتراح أبشالوم والمجلس الحربي. عرف أخيتوفل مقصد حوشاي وغايته ولكن لم يستمع إليه أحد. فغادر إلى بيته حيث انتحر شنقاً بعد أن قهره اليأس. أعلم الكهنة داود بخطة أبشالوم، فقام بتجميع الجيش. فقد كان لايزال له بعض المخلصين في أصقاع البلاد. وانضم إليه الكثير من المتطوعين الشباب وزوده الأغنياء - أمثال شوبي وماكير وبرزلاي - بالفرش والطسوس وبأواني الخزف والحنطة والشعير وبالدقيق والفريك والفول والعدس والحمص المشوي والعسل والزبدة والضأن وجبن البقر.

عبر بعد مدة أبشالوم الأردن واستعد للمعركة الفاصلة، وفي نفس الوقت أمر داود لشدة حبه لولده العاق جنوده ألا يقتلوا أبشالوم وأن يحافظوا على حياته.

انتهت المعركة بهزيمة كاملة للمتمردين. ولما حاول أبشالوم الهرب على بغله، دخل البغل تحت أغصان بطمة عظيمة ملتفة فتعلق رأس أبشالوم بالبطمة، وعلق بين السماء والأرض بينما مر البغل. وهناك وجده يوآب فقتله مخالفاً تعليمات الملك. أما جسده فألقوه في جب عظيم بالبرية، وأقاموا عليه رجماً عظيماً من الحجارة.

أحزن موت أبشالوم داود كثيراً. ندب حظه وغطى رأسه مردداً «ياابني أبشالوم، ياابني ياابني أبشالوم، ياليتني مت عوضاً عنك ياأبشالوم ابني ياابني». وظل على هذه الحالة حتى فقد يوآب صبره وقال له: مامعنى أن أعداء الملك أقرب على مايبدو إلى قلبه من أصدقائه الذين خاطروا بحياتهم من أجله. قرر داود الرجوع إلى العاصمة. فالتف المخلصون حوله

تخفيف غضب يهوه، فعرف عندها سبب الجوع. كان يشوع بن نون قد أقسم يوماً ما للجبعونيين ألا يرفع سيفه ضدهم أبداً. لا هو ولا كل إسرائيل. لكن شاول أخل بالقسم محاولاً إماتة الجبعونيين، واحتلال مدينتهم، فصار دم القتلى في أعناق سلالة شاول. طلب داود إليه ماتبقى من سكان جبعون، وسألهم عن الطريقة التي يستطيع أن يكفر بها عن الخطيئة تجاههم. فطالب الجبعونيون بتسليمهم سبعة ذكور من نسل شاول ليشنقوهم على أبواب جبعة. نفذ لهم الملك المطلب وشنق سبعة من نسل شاول، وألقيت أجسادهم في البرية طعاماً للطير الكاسر والوحش المفترس. كانت تلك جريمة فظيعة وعقاباً شديداً. إذ أنه حسب المعتقدات القديمة لم يكن للناس الذين لم يدفنوا أن يخلدوا للراحة ابداً بعد موتهم.

كان اثنان من المشنوقين ولدين لرصفة، عشيقة شاول. ولما أُلقي بجسديهما في البرية، قعدت والدتهما ليل نهار قربهما تطرد عنهما الطير والوحش، وظلت مقيمة هناك من نيسان شهر الحصاد وحتى تشرين الأول شهر المطر.

أحرقت أشعة الشمس الملتهبة الحقول، ذبلت الورود وأصفرّ كل ماهو أخضر. التجأ الناس إلى الظلال هرباً من الحر الشديد، وبقيت رصفة وحدها قرب جسدي ولديها المقتولين. ذاع صيتها في كل إسرائيل وخشي داود غضب الناس المتصاعد، فأمر بدفن المشنوقين وتذكر بهذه المناسبة ان رفات شاول وأولاده مازالت في يابيش الجلعاوية، فقام لكسب ود الشماليين بنقل الرفات إلى مدفن العائلة، وأقام مراسيم الدفن مهيبة.

مؤامرات القصر

هرم داود جداً في شيخوخته، وبرد دمه لدرجة أن الفراش لم يعد يدفئه. فقررت حاشيته إيجاد فتاة صبية لتنام مع الملك وتمنحه الدفء. فتشوا في كل تخوم إسرائيل حتى وجدوا أبيشبح الفتاة الجميلة المطلوبة وهي من مدينة شونم. فصارت الجميلة تدفيء الملك ليلاً وتعتني به نهاراً.

ولم يكن أحد يشك بأن أيام داود معدودات. فبدأ الصراع على العرش. كان اثنان من أبناء الملك يتنافسان: أدونيا وسليمان. وأدونيا ذاك هو ابن حجيث وهو شاب جميل

متغطرس اعتمد على تأييد القبائل الشمالية وعلى أناس ذوي بأس وتأثير مثل يوآب والكاهن الأعلى أبياثار. ولذلك لم يكن يشك بالانتصار على خصمه، وراح يسير في المدينة بعربة الملك مرافقاً بخمسين من حرس القصر.

أما سليمان فكان أقل شهرة. لكن بعض ذوي التأثير أيدوه وعلى رأسهم الكاهن صادوق والنبي ناتان، وعدا ذلك فإن أفضل فصائل الجيش أبدت تأييدها له وتحديداً فصيل رفاق داود في السلاح (الستمائة مقاتل)، وكذلك فصيلا المرتزقة الفلسطينيين ولكونه ابن داود من امرأته المحبوبة بشتبع. فإن سليمان كان المحبوب والمفضل عند أبيه. لذلك كانت لديه فرصة أكبر للفوز بالعرش.

التهبت الأهواء عند رأس الملك المحتضر، واشتبكت خيوط المؤامرات، قرر أدونيا تمهيد الطريق مسبقاً للوصول إلى العرش. فأقام لمؤيديه عند عين روجل وليمة كبرى كانت بمثابة اجتماع لمجلس حربي. شارك في الوليمة يوآب وأبياثار وكل أولاد الملك، عدا سليمان والكثير من زعماء القبائل الشمالية، وقد وصل نبأ الوليمة إلى القصر. فأسرع النبي ناتان إلى بشتبع وأمرها أن تبلغ زوجها داود حالاً بأن أدونيا قد نصب نفسه ملكاً، ووعدها أن يلحق بها إلى الملك ليؤكد صحة أقوالها. كان الاتهام كاذباً أو سابقاً لأوانه لكن الصراع على العرش وصل إلى ذروته التي صارت فيها الغاية تبرر كل الوسائل. انحنت بشتبع نحو أذن الملك وهمست له: «أنت ياسيدي حلفت بالرب إلهك لأمتك قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسيّ. والآن هاهو أدونيا قد ملك والآن أنت ياسيدي الملك لاتعلم ذلك. وقد ذبح ثيراناً ومعلوفات وغنماً كثيرة، ودعا جميع بني الملك، وأبياثار الكاهن ويوآب رئيس الجيش ولم يدع سليمان عبدك».

هنا دخل ناثان وأكد صحة إدعاءات بشتبع، فجمع الملك قواه وقال: «خذوا معكم عبيد سيدكم وأركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وأنزلوا به إلى جيحون، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً على إسرائيل، واضربوا بالبوق وقولوا: ليحيى الملك سليمان».

وهكذا كان وعاد سليمان إلى القصر ملكاً، وهرب المشاركون في الوليمة، لما سمعوا بالخبر والتجأ أدونيا إلى المعبد وتمسك بزوايا المذبح. وتعهد سليمان ألا يلحق أي أذى بأدونيا إذا ابتعد هذا عن الصراع على العرش، فسجد أدونيا للملك الجديد وعاد إلى البيت.

أحس داود بقرب نهايته. فدعا إليه سليمان وأوصاه أن يخدم يهوه بصدق وأن يبني معبداً في أورشليم من الذهب والفضة والمواد التي جمعها.

كان داود مرغماً أيام حياته على الانصياع ليوآب الذي يعود إليه الفضل في معظم إنتصاراته. أما الآن فقد تذكر على فراش الموت كل الشر الذي فعله به يوآب «قتل أبشالوم، الغدر بعماسا، ومؤامراته مع أدونيا وأبياثار». والآن أوصى سليمان ابنه بتصفية الحساب القديم مع يوآب ومعاقبته بالموت. كما تذكر داود شمعي الذي شتمه، وقذفه بالحجارة عند بحوريم. لكن داود كان قد أقسم على عدم عقابه لأنه لم يشأ الإساءة إلى العلاقات مع الشماليين. غير أن خليفته غير ملزم بقسمه. لذلك أمر داود سليمان بقتل شاتمه ومهينه.

لم ينس داود أصدقاءه ورفاقه برزلاي الذي أغاثه ومونه يوم تخلى عنه الجميع. لذلك أخذ داود من سليمان وعداً بأن يعتني بنسل برزلاي لكي تكون حياته هانئة وأن يؤمن لنسله مكاناً محترماً في القصر والحكم.

بعد مدة أقيمت مراسيم تتويج سليمان. فأحرق ألف ثور وألف خروف وألف نعجة قرباناً.

مات داود عن سبعين عاماً، بعد أن حكم أربعين عاماً. وترك لولده دولة كبيرة امتدت حدودها من دمشق حتى مصر ومن البحر المتوسط إلى الشرق من الأردن.

سليمان ملك إسرائيل ويهوذا

كان لسليمان من العمر عشرين سنة. عندما تسلم الملك لكنه أظهر نفسه حاكماً نشيطاً ودبلوماسياً حاذقاً. فصعق أعداؤه الذي راهنوا على حداثة سنه وأصابهم اليأس والحيرة، بقي أدونيا ويوآب وأبياثار في أورشليم بعد أن عزلوا من السلطة. وكان من الممكن ألا يحدث لهم شيء لولا خطيئة مصيرية ارتكبها أدونيا.

ففي أحد الأيام فاجأ بشِشبع بالدخول فلما رأته سألته باضطراب: «للسلام جئت؟» أجاب أدونيا: «للسلام» وأضاف بحسرة: «أنت تعلمين أن الملك كان لي وقد جعل جميع إسرائيل وجوههم نحوي لاملك.... والآن أسألك سؤالاً واحداً فلا ترديني فيه». على الرغم من تذكير أدونيا بأحقيته بالملك فإن بشِشبع وافقت على الاستماع لطلبه. فشرح لها سبب قدومه إليها: «قولي لسليمان الملك لأنه لايردك، أن يعطيني أبيشج الشونمية امرأة». استغربت بشِشبع الطلب لكنها وعدت بالمساعدة.

استمـع سليمـان لأمـه باحترام، لكنه تضايق من الطلب ورفضه، لقد شك أن تكون خدعـة ما تكمن وراء طلب أدونيـا، فالـزواج من إحـدى عشيقـات الملك داود تعطي أدونيا أسـاسـاً لبدء الصراع على العرش من جديد، فحسب العرف القديم لايحق لأحد التصرف بحريم الملك المتوفى إلا لولي العرش الشرعي، وغضب سليمان كثيراً، تذكر طلب والده وقرر التخلص من قائد المجموعة المعارضة له.

أمـر سليمـان، بنـا يهـوه قائد جيشه بقتل أدونيا ويوآب، فقتل هذا أدونيا في بيته، أما يوآب فقـد التجأ إلى المعبـد، حيث من المحـرم قتـل من يلتجيء إلى هنـاك، لكن بنايهوه دخل المعبد وقتل يوآب على المحرقة؛ بعد أن تخلص سليمان من عدويه اللدودين، صفح عن الكاهن الأعلى أبياثار، ونفاه إلى عناتوت الواقعة إلى الشمال الغربي من العاصمة.

من جديد صار لإسرائيل كاهن أعلى هو صادوق ـ مساعد سليمان المخلص ـ وعلى عكس رغبة داود لم يقتل سليمان شمعي، بل سمح له ببناء بيت في أورشليم، والإقامة فيه على ألّا يغـادر المـدينـة إلّا بإذن منـه. لكن شمعي لم يتقيد بالشرط. ففي أحد الأيام هرب عبـدان له إلى جت ليلتجئـا إلى ملكهـا أخيش فطـاردهما شمعي دون أن يستأذن سليمان، ولما عاد إلى المدينة رفض سليمان الاستماع إليه وأمر بنا يهوه بقتله.

قصة والدتين

بقيت محرقة إسرائيل الأساسية في جبعون، لذلك ذهب الملك سليمان إلى هناك، وقدم ألفاً من القطيع قرباناً، وعندما استلقى لينام، ظهر له يهوه، وسأله عن رغباته واعداً إياه بتنفيذها، فرغب الملك أن يكون له قلب واعٍ ليكون عادلاً في قضائه لشعبه، أُعجب يهوه بتـواضـع الملك ومنحه بالإضافة إلى حكمة العقل والقلب، وعداً بأن يجعله أغنى، وأشهر ملك بين ملوك العالم كلهم.

رجع سليمان إلى أورشليم سعيداً قدم قرباناً، وأقام وليمة عظيمة لسكان المدينة عند تابوت الرب، ومن ثم جلس على كرسي القضاء، عند بوابة المدينة وراح يحكم في الناس.

جاؤ وا إليه بامرأتين قضيتهما جد معقدة، حدثته إحداهن زاعقة باكية بالتالي : «إني أنا وهذه ساكنتان في بيت واحد وقد ولدت معها في البيت. . فمات ابن هذه في الليل لأنها اضطجعت عليه، فقامت في وسط الليل واخذت ابني من جانبي وأمتك نائمة، وأضجعته في حضنها، وأضجعت ابنها الميت في حضني، فلما قمت صباحاً لأرضع ابني إذا هو ميت. ولما تأملت فيه في الصباح إذا هو ليس ابني الذي ولدته».

أنكرت المتَهَمَة كل الإدعاءات، تصارخت المرأتان وكادتا تتعاركان، فكر الملك برهة، ثم أمسك بسيفه وأمر «اشطروا الولد الحي اثنين وأعطوا نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى» فصرخت، عندها المرأة المتهمة بفظاعة : «اسمع ياسيدي، أعطوها الولد الحي ولاتميتوه». أما المرأة الثانية فقالت بهدوء : «لايكون لي ولا لك، اشطروه».

استمع الملك إليهن وأشار إلى المرأة التي طالبت بالحفاظ على حياة الولد وقال : «اعطوها الولد الحي ولاتميتوه فإنها أمه».

منذ ذلك الوقت خاف الإسرائيليون الملك، لأنهم عرفوا أن لاشيء يخفى على حكمته.

سليمان الحاكم العبقري

ورث سليمان دولة قوية وغنية، ذات سلام وفضيلة، ولم يعد جيرانه المغلوبون على أمرهم يشكلون أي خطر على إسرائيل، وكان لسليمان مع أحيرام ـ ملك صور ـ اتفاق صداقة وتعاون وقّع أيام شاول، كما حقق الملك الشاب نصراً دبلوماسياً، إذ تزوج من ابنة فرعون مصر مؤمناً بذلك سلامة حدوده الجنوبية ومدعماً قدرة بلاده السياسية، وصار بإمكان العبرانيين لأول مرة في تاريخهم، أن يعيشوا بسلام ويشتغلوا بأمان، وقد بقيت ذكرى تلك الأيام السعيدة خالدة في ذاكرة الأجيال لزمن طويل. فقد كتب أحد المؤرخين اللاحقين مايلي : «وعاشت يهوذا واسرائيل باطمئنان، كل تحت داليته وكل تحت تينته. من دان وحتى بشبع في أيام سليمان».

لقد برز سليمان أيضاً كإداري قدير، حيث عيّن أصحابه وأتباعه في جميع مناصب

الدولة الهامة. هكذا سلم من يثق بهم مناصب رئاسة الديوان وقيادة الجيش وقيادة حرس الملك ورئاسة الكتاب والسكرتارية ورئاسة الجباية.

تعلم سليمان العبرة من تجربة مرة. وصار يعتمد في تقوية سلطته على إضعاف القبائل الإسرائيلية فقسم البلاد إلى اثنتي عشرة إدارة لاتتطابق حدودها مع حدود القبائل إلّا جزئياً ووضع على رأس كل إدارة معاوناً له وقائداً للحامية. وكان على كل إدارة أن تموّن قصر الملك والجيش بالمواد التموينية شهراً في السنة. لم ينس الجيش أيضاً من إعادة البناء. كان داود كما نعلم لايثق إلّا بالمشاة ويركب دائماً حماراً. لذلك ورث سليمان من أبيه جيشاً متخلفاً لايناسب متطلبات عصره، أما سليمان فقد نبذ جانباً خوف الإسرائيليين وحذرهم من الخيالة. وشكل فرقة خيالة ضخمة كان فيها أربعة عشر ألف عربة قتال كما طور أيضاً عربات النقل الموجودة في جيشه، كما بنى الاسطبلات في عدة مدن إسرائيلية كان أكبرها ذلك الذي في مجدّو حيث تمركز أكبر فصيل من فرقة الخيالة.

بفضل تلك التغيرات قويت قدرة إسرائيل وانتشرت سمعة سليمان كحكيم عظيم.

سليمان يبني المعبد

في السنة الرابعة لحكمه ـ قرر سليمان تنفيذ آخر وصية لأبيه ـ أي بناء معبد في أورشليم يليق بالملك العظيم لكن لم يكن لديه خشب جيد ولا بناؤ ون مهرة. فطلب العون من أحيرام (ملك صور) وسرعان ما وقّع الاثنان اتفاقاً بينهما، فصاروا يحضرون الخشب إلى يافا بحراً. ومن هناك ينقله الإسرائيليون إلى أورشليم ومن أجل السرعة في قطع الخشب من غابات لبنان أمر سليمان أدونيرام تشكيل فريق من العمال الكنعانيين الذي يخضعون لسيطرته فجمع أدونيرام ثلاثين ألف رجل قسمهم إلى ثلاث مجموعات كل واحد فيها عشرة آلاف رجل. وصار يرسل كل مجموعة شهراً إلى لبنان لقطع الشجر، ثم يعيدها شهرين إلى بيوتها وهكذا دواليك.

أرسل الملك أحيرام إلى إسرائيل أفضل بنائيه وصناعه بقيادة الفنان أحيرام الماهر بسكب ومعالجة الذهب والفضة والبرونز.

أعطى سليمان أحيرام مقابل الخشب عشرين ألف كرّ حنطة وعشرين ألف كرّ زيت رَضّ وعشرين ألف سطل من النبيذ سنة فسنة. وشكل في إسرائيل بالوقت نفسه جيش من

العبيد ليقوموا بالبناء وتكون ذلك الجيش بشكل رئيسي من الكنعانيين الذين استعمرهم الإسرائيليون، فاشتغل ثمانون ألفاً في قص الحجر في جبال ما وراء الأردن، وسبعون ألفاً بنقل تلك الحجارة إلى أورشليم، وراقب عمل أولئك العبيد ثلاثة آلاف وثلاثمائة مراقب إسرائيلي.

بُني المعبد على جبل سُوِّيت قمته ومُهدت، وليوسعوا المساحة أحاطوها بجدار عمودي من الصخور المدعمة بالقصدير. واستمر البناء أكثر من سبعة أعوام. وكانت توصل إلى قمة الجبل طريق ممهدة آخرها الفناء الخارجي للمعبد حيث يجتمع الأوشليميون والحجاج القادمون من كل أرجاء كنعان. وبني جدار آخر حول الفناء الداخلي وهو المكان الرئيسي لممارسة الطقوس الدينية، وفي وسط الفناء أقيم مذبح تشتعل فوقه نار أزلية، وبالقرب من المذبح «بحر النحاس» وهو برميل نحاسي مليء بالماء لغسل القرابين. ويرتكز البرميل الكبير على اثني عشر عموداً صنعت على هيئة ثيران. يتجه كل ثلاثة منها نحو جهة من الجهات الأربع، وعدا ذلك فقد وضع في الفناء عشرة طسوس من النحاس محمولة على عجلات لجلب الماء. لم يكن المعبد كبيراً، فطوله ثلاثون متراً وعرضه عشرة أمتار ونصف المتر. ويتصل بجدرانه الثلاثة ـ الجدار الخلفي والجداران الجانبيان ـ ثلاثة أبنية للكهنة والخدمة. وقسم المعبد من الداخل إلى ثلاثة أقسام: مدخل وبهو رئيسي. ثم قدس الأقداس وهو بهو صغير بلا نوافذ حيث وضع تابوت الرب في منطقة مظلمة ولا يحق لأحد الدخول إليه إلّا للكاهن الأعلى ومرة واحدة في العام. ووضع على طرفي الطريق إلى المدخل اثنا عشر عموداً من النحاس محفوراً عليها صور أكاليل علامة للقوة والعظمة، وكانت القاعات الثلاث تبهر الناظر بروعتها وغناها، وغطيت الجدران والسقوف بخشب الأرز، وفُرشت الأرض بألواح السرو، وزينت الجدران برسوم النخيل والأزهار، ورصعت بالذهب، ووضعت في القاعة الرئيسية طاولة مذهبة مصنوعة من خشب الأرز لتقديم قرابين الخبز، ومذبح من الذهب المسكوب للبخور. وعشرة شمعدانات من ذهب وكثير غيرها من المذهبات. وكانت أشعة الشمس تدخل عبر النوافذ الواقعة في الأعلى حول قبة المعبد تصل إلى القاعة باهتة. وهناك يطلق الكهنة البخور، ويقدمون الخبز قرباناً، ويراقبون الشمعدانات الأربعة، ويحرصون على ان تبقى نارها مشتعلة باستمرار.

عُزل قدس الأقداس بحائط من خشب الأرز مرصع بالذهب زينت أبوابه بالرسوم،

وأبقيت مفتوحة، لكن مدخله مغطى بقماش مزركش بالرسوم. ووراء القماش وضع تابوت الرب في الظلام وفيه تعاليم موسى.

انتهى المعبد ونقل إليه التابوت، ووضع في الفناء الداخلي، واجتمع شيوخ القبائل حول المحرقة ومعهم الكنهة بلباسهم الأبيض والقادة والمغنيات والعازفات ومائة عشرون كاهناً عازفاً على البوق.

جلس سليمان على عرشه لابساً رداء قرمزياً مزركشاً، وعلى رأسه اكليل من الذهب، وخلفه خمسمائة مقاتل يشكلون فرقته الخاصة مدرعين بدروع من ذهب. بدأت المراسيم بتقديم القرابين التي لاتحصى، وصدحت الأبواق على رائحة اللحم المشوي، وحمل اللاويون التابوت. انبهرت المغنيات بالذهب يلمع من التابوت، وأنشدن لحناً على إيقاع الدف والقيثارات.

« ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن
وارفعنها أيتها الأبواب الدهرية
فيدخل ملك المجد! »

هنا انقسم الكورس إلى مجموعتين وأنشدت إحداها:

من هو هذا ملك المجد؟

وتجيب المجموعة الثانية بسعادة:

ربُّ الجنود، هو ملك المجد!

استمرت الأسئلة والأجوبة حتى وضع تابوت الرب في مكانه وأسدل الستار الحاجب ومنذئذ لم يدخل أحد الى هناك إلاّ الكاهن الأعلى. قام سليمان عن عرشه ورفع يديه الى السماء ونادى:

يا إلهي إني مغرم بمقامك
وبمكان مجدك

خيم على المكان صمت عميق، انصت الجميع بشغف لكلمات الملك. سكت الملك سليمان وكأنه ينتظر صدى كلماته وبعدها دعا يهوه ألاّ يبخل على إسرائيل بعطفه

بدأ عيد الأربعة عشر يوماً. فرحت البلاد كلها وأحرقت أعداد هائلة من القرابين: اثنان وعشرون ألف ثور ومائة وعشرون ألف نعجة. ولم يبق في إسرائيل شخص واحد لم يشارك في العيد ولم يقدم قرباناً ثوراً أو نعجة.

غنى سليمان

لم يكتف سليمان ببناء المعبد. بل تابع نشاطه المعماري على مدى ثلاثة عشر عاماً أخرى فقد سعى إلى تعزيز دفاعات البلد وإنشاء مقر له يليق بمكانته.

كان قصر سليمان يتصل مباشرة بفناء المعبد الداخلي، ويتألف من ثلاثة أبنية. وكان لمقر الملك جناحان في واحد منهما يعيش سليمان مع نسائه، وفي الجناح الثاني المبني بناء على طلب فرعون. تعيش الأميرة المصرية مع حاشيتها الكبيرة.

أما للاجتماعات والمناسبات الحكومية الهامة فكان يستخدم «بيت الغابة اللبنانية» الذي هو قاعة كبرى تستند على خمسة وأربعين عموداً من أرز لبنان. وفي القاعة الثانية كان الملك يقضي بين الناس ويستقبل السفراء الأجانب. وفي هذه القاعة كان يوجد عرشه المصنوع من عاج الفيل.

بنى سليمان حصوناً جديدة وعزز المدن الموجودة لحماية حدوده وطرق التجارة. ففي الشمال مثلاً حصن مدن حاصور ومجدو. وفي وسط البلاد حصن حازر وبيت حورون وبعلة. وفي كل تلك الحصون وضع حاميات من الخيالة والمشاة على أهبة الاستعداد.

غطى سليمان نفقات التسليح والبناء وأمور الرفاهية من أموال الواردات التي كانت تصله كالسيل من مصادر عديدة. فعدا عن الضرائب العينية التي كان يجبيها من الإسرائيليين. فإن الضرائب الأخرى مثل الرسوم التجارية والجباية من أعوانه في الإدارات كانت تعطيه إيرادات بقيمة ستمائة وست وستين وحدة ذهبية أي اثنين وعشرين ألفاً وثمانمائة وخمسة وعشرين كيلو غراماً من الذهب سنوياً.

أظهر سليمان نفسه تاجراً ماهراً أيضاً، وأقام علاقات تجارية مع الدول المجاورة. صار يشتري الخيول الكيليكية ويبيعها في مصر وبلاد مابين النهرين. ومن مصر يجلب عربات القتال ويبيعها في دول أخرى. وعدا ذلك فإنه عمل بالتجارة البحرية المربحة. ولم يكن الإسرائيليون قبله على معرفة ببناء السفن والإبحار عليها. وقد طلب سليمان مساعدة أحيرام في هذا الأمر. فبنى في خليج العقبة مرفأ عصيون جابر، وصار يرسل أسطوله من هناك كل ثلاث سنوات إلى أوفير والبلاد المجهولة. ليحضر هناك بدل النحاس الذي

يستخرجه ويصنعه في إسرائيل بضائع ثمينة. ذهباً وفضة وعاج فيل وخشب الصندل وكذلك القردة والطواويس. وعمل الملك من خشب الصندل درجاً وحواجز.

لكن تلك الثروة لم تكف لتغطية نفقات البناء والتسليح ورفاهية القصر. لذلك استدان سليمان من أحيرام مائة وعشرين وحدة ذهبية، ورهن لديه عشرين قرية ومدينة في الجليل. وعندما قدم ملك صور لرؤية قراه ومدنه في الجليل. عرف أنه وقع صفقة خاسرة. لأن تلك المدن والقرى كانت منهكة بالضرائب وعلى حافة الإفلاس.

ملكة سبأ

ذاع صيت حكمة سليمان وفخامة قصره وعمرانه في كل أصقاع الأرض. وصلت أخباره أيضاً إلى ملكة سبأ، فقررت هذه التوجه إلى أورشليم للتأكد شخصياً من صحة الأخبار. فكان سفرها إلى هناك رائعاً حقاً: قافلة طويلة من الجمال التي تحمل الهوادج الزاهية المزينة بالذهب. وعلى الهوادج جلس جنود الصحراء الرهيبون والقادة ورجال الحاشية والنساء. وفي هوادج أخرى حملوا هدايا ثمينة: الذهب والنفائس والبخور. أما الملكة فكانت في هودج خاص يهتز على الجمل كما تهتز السفينة على أمواج البحر. انتظر سليمان الملكة في قاعة العرش مرتدياً القرمز والذهب. ولما شهد المرأة الغريبة. سارع لملاقاتها. لم يغض نظره عن قامتها الرشيقة البادية تحت رداء الحرير المرصع بالذهب وقد فتن بتقاطيع وجهها الأسمر، وسبح في بحر عينيها الواسعتين السوداوين الملتهبتين بنار مخفية، بسط سليمان للملكة حكمته وغناه. حدثها ساعات وساعات وجلس معها طويلاً يجيب عن تساؤلاتها بنصائح جد قيمة، فتأكدت ملكة سبأ من حكمة وغنى سليمان وبهرتها فخامة قصره كما بهرتها القاعات بجدرانها المغطاة بخشب الارز وبستائرها المزركشة، وكذلك العرش المذهب المصنوع من العاج بالإضافة إلى الكثير من الأواني الذهبية. وفي إحدى جلساتها قالت له الملكة بإعتزاز: «صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت، وأبصرت عيناي، هوذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته».

عند الوداع قدمت له ملكة سبأ هدايا بينها مائة وعشرون معياراً ذهباً. وقدم هو لها أيضاً الكثير من النفائس.

نساء سليمان والآلهة الغريبة

سار سليمان على طريق أقرانه من الملوك في توسيع حريمه، فضم إليه نساء من قوميات وديانات مختلفة فكان عنده المصريات والمؤابيات والعمونيات والأدوميات والصيدونيات والحثيات. ولكن يا للأسف، كان الملك الذي يتقدم العربة، كثير الانصياع لنسائه وعشيقاته، فاقنعته بعضهن بإدخال طقوس آلهة أخرى إلى أورشليم. وصار سليمان يقدم القرابين لتلك الآلهة حتى في فناء معبد يهوه، فقد بنى تعبد في معابد لعشتار وبعل وملكوم ولإله المؤابيين كموشي.

غضب يهوه من سليمان جداً، وقرر قسم دولته إلى دولتين منفصلتين: وكان أول إنذار عن الفوضى هو العصيان في أدوم الذي تزعمه حدَد أحد أفراد الأسرة الأدومية، مُني حدد بالهزيمة وهرب إلى مصر حيث أعطاه فرعون ملجأ عنده وزوجه من ابنته. فقد بدأ فرعون يشعر بالخطر إزاء قوة سليمان المتنامية فقرر أضعافه بمساعدة أعدائه.

تلقى سليمان الصفعة التالية من قائد جيش حدد عزر ملك طوبة. فقد هرب رزون قائد الجيش من خدمة ملكه وصار لفترة طويلة، رئيس غزاة (زعيم عصابة) وعندما سنحت له الفرصة هاجم دمشق وأفنى الحامية الإسرائيلية الموجودة هناك ونصب نفسه ملكاً. بهذا يكون سليمان قد فقد سورية وكان قد هرِم، ولم يستطع قمع العصيان بقوة السلاح. منذ ذلك الحين وحكام دمشق يغيرون على حدود إسرائيل الشمالية.

لكن الأسوأ من كل ذلك كان التذمر المتزايد لدى قبائل الشمال العشر. فالضرائب الباهظة وأعمال السخرة الإلزامية، والغيرة من سلطة يهوذا. كل ذلك أدى إلى العصيان في نهاية المطاف وبدأ ذلك العصيان يربعام جابي الضرائب، فهو من الشمال وقد رأى بأم عينه وضع قومه الصعب جداً، ولذلك ترك الباب مفتوحاً للنبي أشعيا، المعادي لسليمان، ليؤثر عليه ويجره نحو عداوة سليمان. لكن يربعام سرعان ما مني بالهزيمة وهرب إلى مصر، حيث استقبله فرعون كما استقبل حدد سابقاً بحفاوة بالغة. مات سليمان بعد حكم دام أربعين عاماً، ودفن في أورشليم واعتلى العرش بعده ابنه رحبعام.

الحقيقة والأسطورة في قصة مؤسسي مملكة إسرائيل

تعتبر الفترة الزمنية مابين عامي ١٠٤٠ ـ ٩٣٢ ق. م، أنصع فترة في تاريخ إسرائيل، ولكنهـا كانت قصيـرة فهي فتـرة مائـة عام. ولو أضفنا إلى تلك الفترة سنوات حكـم صموئيل ـ أعظم نبي بعـد موسى والمؤسس الفعلي للملكيـة ـ فان تلك الحقبـة الناصعة لاتمتد إلاّ إلى مائة وخمسين سنة. فأي جزء زمني تافه هذا إذا ماقورن مع كل تاريخ إسرائيل الطويل.

في الحقيقـة أن عصـر الـدولة الموحدة كان زمن حكـم ثلاثة ملوك إسرائيليين: شاول (١٠٤٠ ـ ١٠١٢ ق. م)، وداود (١٠١٢ ـ ٩٧٢ ق. م)، وسليمـان (٩٧٢ ـ ٩٣٢ ق. م)، وفي عام ٩٣٢ ق. م تنفصـل قبـائـل الشمـال العشـر ممـا يؤدي إلى تشكيـل مملكتين متعاديتين: يهوذا وإسرائيل.

لقـد أخـذ جل معلومـاتنـا عن تلك الحقبـة، من الأسفـار الأربعـة التي تتحدث عن الملوك، ومن سفـري أخبـار الأيـام الأول والثـاني بـ ـ باراليبـومنيـون ـ (الأشيـاء المنسيـة والمهملة)، ذلـك لأن متـرجمي التـوراة الإغـريق اعتقدوا خطأ أنه في سفري الأخبار الأول والثـاني. توجـد معلومات أهملت ولم تذكر في الكتب السابقة. لم يتفق باحثو التوراة حول زمن كتـابـة الأسفـار الأربعـة. فقـد اعتقد لوقت طويل أن مؤلفي أسفار الملوك هم سليمان والنبيان جاد وناتان. وأما حسب ماجاء في التلمود، فإن مؤلف تلك الأسفار فهو النبي إرميا وعلى الأرجـح أن يكـون سفـرا الأخبـار الأول والثـاني قد كتبـا في النصف الثاني من القرن الرابع ق. م، تدل على هذا وفرة الألفاظ الأرامية في لغة هذين السفرين.

شيء واحـد لايشـك فيـه: أن مؤلفي الأنمـوذج النهـائي للنص كانـوا نُساخاً ـ كهنة

مؤيـدين للاصـلاحـات الدينية التي أدخلها الملك يوشيا (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق . م)، وتدل على ذلـك المحـاولات الـواضحـة لتقييم كل الأحداث التاريخية بروح تيوقراطية . فحسب رأي واضعي التـوراة، أول وأهم واجب للملوك هو عبـادة يهـوه وإطـاعة الكاهن الأعلى . ويرتبط تقييم كل نشاطهم وحياتهم وتصرفاتهم ارتباطاً كلياً بمقدار تنفيذهم وقيامهم بهذا الواجب.

تخـاصم شاول مع الكـاهن الأعلى على صمـوئيـل . لذلـك لايتمتع بمحبة واضعي التـوراة . بينمـا يظهر أولئك الواضعون تقديراً عظيماً لداود صديق فئة الكهنة . فهم يحاولون إظهـار بعض جرائمـه وأخطـائه كنتيجة لعوامل خارجة عن الإرادة أويحاولون تفسيرها دينياً . فداود يقتل مثلاً سبعة من نسل شاول بأمر مباشر من يهوه . لقد كُتب تاريخ تلك الحقبة في وقت متأخـر جداً . وبشكـل جزئي بعـد عدة قرون على انتهـائها . فأدى هذا بالطبع إلى تأثر صدق ماجـاء في تلك الأسفـار تأثيـراً سلبياً، ولكن لايخلوا الأمر من وجود بعض المعلومات التي يمكن اعتبـارهـا صحيحة تاريخياً . يصح هذا الكلام، قبل كل شيء، على الأحداث الموصوفة بمجموعة كبيرة من عناصر الوصف الواقعية الواضحة والمأساوية، التي يتميز بها وصف الأحداث الحقيقية .

فكـون واضعي التـوراة لم يسكتـوا عن مجمـوعة من الاخطاء والجرائم التي لايمكن لابطـالهم القـوميين أمثـال داود وسليمـان أن يفتخـروا بهـا . يؤكـد على امتـلاك أولئـك الـواضعين ـ المؤلفين، لبعض المصـادر التـاريخيـة الصـادقـة . لم يتقيد أولئك المؤلفون بالطبـع، بقـوانين وأصـول المـوضـوعيـة التـاريخيـة، فتلك المفـاهيم كانت غريبة بالنسبة لعصـرهم، إذن لم يستطـع المؤلفـون التعتيم على بعض الحقائق لأنها كانت معروفة جيداً لدى الشعب، فقتـل نسـل شاول وعبادة سليمان لآلهة غريبة في أورشليم إحداث تناقلتها، بلا شك، ذاكرة أجيال عديدة .

وبـالنتيجة وانطلاقاً من الكثير من الأساطير والخرافات والقصص الشعبية، استنبطت حفنـة من الحقـائق الأسـاسية التي تسمح بتكوين صورة صحيحة عن حياة الإسرائيليين في تلك الحقبة .

يبدأ سفر صموئيل الأول بموجز قصير عن حياة الكاهن عالي وولديه المأساوية جداً، إن أمـوراً حيـويـة كثيرة توجد في تلك الشخصيات، أعتقد انه لن يعتبر جرأة كبيرة الافتراض بوجود كاهن أعلى باسم عالي فعلاً، وأنه قد ملك قلوب الإسرائيليين بفضيلته ونبله .

لقـد ساعـدت العـلاقـات السيـاسية الداخلية عالي كثيراً، فشيلوه ـ عاصمة إسرائيل

الدينية ـ تقع على أرض قبيلة أفرايم الكبيرة العدد والتأثير، وعدا ذلك فإن تلك المنطقة تقع في وسط البلاد وبالتالي تعاني من هجمات الأعداء في الوقت الذي كانت فيه قبائل الشمال والشرق والجنوب تعاني كثيراً من مضايقات جيرانها. وقبيلة يهوذا التي طالما صارعت أفرايم على السلطة في إسرائيل، وقعت تحت سيطرة الفلسطينيين وبَطُل لوقت ما دورها السياسي. فصارت سيطرة أفرايم واضحة، وأثمرت عن تركيز السلطة القدسية والدينية في أيدي عالي الكاهن الأعلى.

ولأول مرة بعد موت موسى تحققت أمنية اليهوهيين حيث اعتُمد النظام التيوقراطي في إسرائيل، ولكن هذا النظام المعتمد على الهيبة الاخلاقية لشخصية واحدة. لم يكن ليملك الثبات اللازم. أدرك عالي هذا الأمر جيداً ولذلك حاول جاهداً للوصول إلى جعل منصب الكاهن الأعلى يخضع لقانون الآرث أي يُورِث ويُورَث غير أن ولديه أفسدا مخططاته بدعارتهما ورذيلتهما اللتين أبعدتاهما عن الشعب، أما عالي نفسه فكان قد هرم، ولم يعد قادراً على مقاومة نزوات ولديه.

كان من الممكن لانحطاط تأثير عالي، وفقدان تابوت الرب أن يوصلا إلى فناء نهائي للتيوقراطية لولا أن يعززها النبي صموئيل من جديد.

إن سفري صموئيل يصمتان نهائياً على الآثار العسكرية والسياسية التي نجمت عن خسارة الإسرائيليين للحرب في أفيق، لكننا نستطيع بواسطة بعض الملاحظات الواردة في أسفار التوراة الأخرى، أن نستنتج أن الفلسطينيين قد استفادوا من انتصارهم فائدة كاملة فالقسم المركزي من البلاد كلها، صار تحت سيطرتهم. وتمركزت الحاميات الفلسطينية في الكثير من المدن الإسرائيلية. وقد استمر ذلك الوضع حوالي العشرين عاماً. حتى ظهر على الساحة السياسية الملك شاول.

ومما يلفت النظر أيضاً أن سفري صموئيل، لم يتحدثا ولو بكلمة واحدة عن مصير شيلوه عاصمة إسرائيل آنذاك. إن القاريء المتعمق سيتنبه، ولابد، إلى حقيقة غريبة: لم يبق النبي صموئيل الذي خلف عالي في المدينة المقدسة، حيث وجدت خيمة موسى وتابوت الرب بل انتقل إلى رامتايم.

إذن! أي قدر كتب لشيلوه؟ اننا نجد جواباً غير مباشر على هذا السؤال في سفرالنبي إرميا، حيث نجد فيه (أصحاح ٧ ـ آية ١٢): «لكن اذهبوا إلى موضعي الذي في شيلوه الذي أسكنت فيه اسمي أولاً، وانظروا ماصنعت به من أجل شر شعبي إسرائيل». ونجد

تكملة لهـذه النبـذة من المعلومـات في مكـان آخـر من السفر نفسه (اصحاح ٢٦، آية ٩):
«. . . مثل شيلوه يكون هذا البيت وهذه المدينة تكون خربة بلا ساكن».

توضـح هذه الآيـات أن الفلسطينيين قد دمـروا شيلوه، التي انعـدم دورهـا كعـاصمة لإسرائيل نهائياً، لقد انحفرت تلك الحادثة في ذاكرة الناس بعمق، لدرجة أن أرميا يوردها بعد أربعمائة سنة كمثال على الغضب الرباني. أما الكهنة مؤلفو النص التوراتي فقد تستروا على الحادثة بمهارة إذ حولوا أذهان الناس والقراء نحو موكب النصر الذي قام به تابوت الرب في المدن الفلسطينية.

وأخيـراً وضـع علم الآثار النقاط على الحروف بشكل نهائي، ففي الفترة مابين عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٩ م، اكتشفت بعثـة أثـريـة دانمـركيـة آثـار شيلوه عـلى مسـافة حوالي اثنين وعشرين كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة شكيم. وعلى إحدى التلال وجدوا المكان الذي نصبت فيه على الغالب الخيمة المقدسة، ووضع فيه تابوت الرب. لكن الأهم من ذلك أن الأنقـاض العـائـدة إلى القـرن الحـادي عشـر ق. م، تحمـل آثـاراً واضحـة لحـريق ودمـار مقصودين. هكذا برهن، بما لايقبل الشك على تدمير الفلسطينيين لشيلوه.

من البـديهي أن تكـون خيمـة موسى، أهم رمز قومي لإسرائيل. قد حرقت وألتهمتها النيـران. لكن مامصيـر تابوت الرب؟ إن كل ماتورده التوراة حول هذا الموضوع أسطوري، لدرجة أنه من الصعب أن يقبل به المنطق كحقيقة مسلم بها.

فإذا كان الفلسطينيون قد استولوا فعلاً على التابوت، فلماذا رفضوه وامتنعوا عنه بعد مضي سبعـة أشهـر؟ بالطبـع يمكن القبـول بفرضية أن يكون الفلسطينيون قد تعرضوا آنذاك لكـارثـة كبيرة أو لانتشار وباء بينهم فسرها الوسواس الشعبي كانتقام من جانب إله إسرائيل. وهذا ينطبق تماماً مع معلوماتنا عن التصورات الدينية لشعوب العالم القديم. فعبادة آلهة ما لاينفي مطلقـاً الإيمـان بوجـود آلهة أخرى قوية معادية للأولى. لذلك ليس من المستبعد أن تكون قصة مصير التابوت العجيبة قد استندت إلى حقيقة صغيرة جداً.

يوجـد في تلك القصـة مشهـد شديد الغموض، ففي بيت شمس، قتل يهوه خمسين ألفـاً وسبعين إسـرائيليـاً عقـابـاً لهم لأن بعضهم تجرأ ونظر إلى داخل تابوت الرب. إن تلك بالطبع فرضية أناس شديدي التعصب الديني لكن من المعقول أن يكون ذلك المشهد قد استند إلى حادثة وقعت فعلاً، وحفظت في ذاكرة الأجيال.

لقـد بحث العلمـاء طويـلاً عن تفسيـر لتلك الـواقعـة الغامضة، فبعضهم يفترض أن

الإسرائيليين قد سرقوا تابوت الرب من معبد داجون، فطاردهم الفلسطينيون ولحقوا بهم عند بيت شمس، حيث وقعت معركة طاحنة قتل فيها العدد المذكور في النص التوراتي. أما التابوت فقد استطاع الإسرائيليون تهريبه وإخفاءه في قرية يعاريم. لكن لهذه الفرضية نقطة ضعف، إذ يطرح نفسه سؤال ملح: لماذا صور مؤلفو التوراة الإسرائيليين الذين استشهدوا دفاعاً عن التابوت، مجرمين وكفرة خالفوا تعاليم يهوه فعوقبوا على ذلك؟

هناك فرضية أخرى تقول: إن تابوت الرب لم يقع قط في أيدي الفلسطينيين. وأنه مباشرة بعد الخسارة في أفيق نُقل إلى قرية يعاريم. أما جريمة قتل سكان بيت شمس، فكانت انتقاماً من جانب قبائل إسرائيلية أخرى لأن أهل بيت شمس لم يشاركوا في الحرب ضد الفلسطينيين. ومن هنا كانت عداوة مؤلفي التوراة لسكان بيت شمس.

من الصعب طبعاً، التأكد من مدى مطابقة هذه الفرضية للحقيقة، لكن من الغريب حقاً تصرف سكان بيت شمس إذ تابعوا حياتهم العادية بينما كانت تدور رحى الحرب وكأن الدفاع والاستقلال وتابوت الرب لايخصهم.

بعد عالي تسلم مقاليد السلطة الدينية صموئيل، لكن ذلك لم يحدث بعد الخسارة في أفيق مباشرة. إنما حدث بعد مرور عدة سنوات حيث تعزز مركز صموئيل لدرجة أنه أصبح حاكم إسرائيل الفعلي الذي أعاد الحياة للتيوقراطية التي كانت تحتضر.

يعتبر العبرانيون صموئيل واحداً من أعظم أنبيائهم. وبلغ الأمر بالكنيسة الكاثوليكية أن اعتبرته قديساً ويشيراً للمسيح. ويؤكد القديس إيرونيم أن الامبراطور أركاديوس (٣٧٨ - ٤٠٨ م) نقل رفات صموئيل من رامتيام إلى تراقيا، ومن ثم نقلت ابنته يولميريه (٤٠٥ - ٤٥٣ م)، الرفات إلى القسطنطينية، حيث وارته التراب في ضريح خاص.

لقد تشكلت مع الأيام حول شخصية صموئيل مجموعة كبيرة من الخرافات، لدرجة أن مؤلفي التوراة وقعوا في متاهة، ولم يعرفوا تماماً ماهيته وكنه نشاطه وحياته.

ومما لاشك فيه أن مجموعة القصص عن أمّه وولادته وأحاديثه مع يهوه وتنبوءاته حول عالي، ليست إلّا ضرباً من نتاجات الخيال الشعبي.

إننا نجد في النص التوراتي مجموعة من المعلومات المتناقضة فيما بينها والمفسدة للصورة التاريخية. إليكم أحد الأمثلة: يُصور صموئيل في بداية الرواية على أنه شخص مشهور ذائع الصيت في كل البلاد. لكنه وفي الأصحاح التاسع يصبح متنبئاً محلياً يسمع عنه شاول من غلامه، هكذا ببساطة وبلا مقدمات، يُنْزَل صموئيل من أعلى مرتبة الى مرتبة

الساحر، الذي ينصح الناس وذلك مقابل عمل تافه قام به عندما أسهم بكيفية إيجاد الأتن الضائعة.

من الصعب الآن طبعاً معرفة الحقيقة، فالتناقضات على الغالب. برزت نتيجة دمج مؤلفي التوراة لقصتين شعبيتين في واحدة، دون الانتباه إلى عدم توافقهما المنطقي.

وهكذا لا يبقى أمامنا سوى اعتبار مايبدو محتملاً أكثر من غيره حقيقة قائمة، فنقول تقريباً للحقيقة إنه لاشك في أن صموئيل كان كاهناً أعلى وقاضياً، وأنه بعد موت عالي وهدم شيلوه جعل من رامتايم مقراً له، وأنه هو الذي مسح شاول ملكاً، ومن ثم دفع بداود نحو العرش بعد أن اختلف مع شاول. إن هذه الوقائع العادية تنطبق تماماً على مانعرفه من العلاقات الاجتماعية والسياسية التي سادت العالم القديم. إننا نعرف من مكتشفات علم الآثار أن الكهنة حاولوا تطبيق نظام التيوقراطية في بلدان أخرى، مثل سومر وآشور ومصر. وأن الخلافات حول هذا الأمر، والتي كانت السلطتان الدينية والزمنية طرفيها المتناقضين، إن تلك الخلافات كانت ظاهرة منتشرة ومنطقية الحدوث من وجهة نظر العلاقات الاجتماعية؛ لقد استطاع شاول، بفضل هيبته الأخلاقية. أن يفرض النظام التيوقراطي في إسرائيل. ومثله مثل عالي حلم بجعل منصب الكاهن الأعلى والقاضي إرثاً محصوراً في عائلته.

وبحسب التوراة أعاق ولدا صموئيل العاقين المرتشيين تنفيذ مخططات أبيهم، ومما لاشك فيه أن هذا التفسير ساذج جداً، ويحمل صيغة المثل الموضوع للوعظ، أما السبب الحقيقي لسقوط التيوقراطية وظهور الملكية فيجب البحث عنه في عمق أكبر بكثير في الوضع السياسي والاجتماعي الذي ساد آنذاك.

كانت إسرائيل بعد الخسارة في أفيق وخلال حكم صموئيل، تحت السيطرة الفلسطينية. فبرزت آنذاك قناعة تقول بأن الشخص الوحيد القادر على تحرير الشعب من الاحتلال، هو القائد المتمتع بعبقرية عسكرية، القائد الذي يحذو حذو جيرانه من الملوك ويجلس على كرسي العرش.

نقول: إن شفاء كل مرض ودواء كل داء، يكمن في توحيد القبائل بدولة واحدة وتحت قيادة ملك قوي. لقد جذبت تلك الواقعية الواعية المؤيدين أكثر فأكثر لطرفها مع مرور الوقت، وتأكد الناس أن مايقوم به الكاهن الأعلى من تقديم قرابين وصلوات ودعوات لنبذ الخطيئة لايجدي نفعاً.

وقـد ساعـدت العـلاقـات الطبقية السائدة آنذاك في نموذلك الشعور. فبعد احتلال كنعـان استـوطن كثير من الإسرائيليين في المدن. وبالنتيجة تشكلت طبقة من أغنياء التجار ومـلاكي الأراضي والمـوظفين والقـادة العسكـريين وشيوخ القبائل. لقد كان نابال مالك الثـلاثـة آلاف خروف والألف نعجـة والذي رفض تزويد داود بالطعام. كان نابال هذا واحداً من طبقة الاغنيَاء التي تشكلت.

من جهـة أخـرى، ازدادت جمـوع الشعب فقـراً وفـاقة، وعانت أكثر وأكثر من فداحة الضرائب والديون، احتاجت طبقة المميزين تلك إلى الحماية من هجمات محتملة قد يقوم بهـا أبنـاء قومهـا الفقـراء. ولم يكن من الممكن تأمين تلك الحمـاية لها إلّا عن طريق نظام ملكي دكتـاتـوري. لنتـذكـر هنـا أن أبيمـالـك استولى على السلطة بمساعدة أغنياء شكيم ونخبتها، وأن الجموع الشعبية هاجمته بالعصيان وعزلته.

ومع تعمق الفوارق الطبقية تعززت سلطة الملك، ليتحول هذا في نهاية المطاف إلى طاغيـة من النمـط الشرقي. بقي شاول ملكاً على النمط المشيخي ملكاً فلاحاً. فقد حافظ على عاداتـه القـديمـة البسيطـة. وفي أوقـات فراغه يعمل بالرعي بينما صار لداود قصر كبير وحـريم. وكثيـراً ماطغى وظلم. وأخيـراً يضـع سليمـان قواعـد. وأنظمـة تُذكر بمصر ونظام العبـوديـة فيهـا إبـان بنـاء الأهـرامات العظيمة، فقد ارغم عشرات الآلاف من مواطنيه على العمـل الإجبـاري في قطـع الخشب من غابـات لبنـان وفي قص الحجـر من جبـال ماوراء الأردن، وفي البناء في ساحات العمل بأورشليم.

منـذ أيـام صمـوئيـل عملت النخبـة المـالكـة لنفسها تأثيراً سياسياً كبيراً، لدرجة أنها استطـاعت تنصيب ملك، رغم المعـارضـة القـويـة. ويبـدو أن الانتخـابـات في المصفاة والجلجـال كانت عاصفـة جداً. إذ تركز التوراة عن سابق عمد وتصميم على امتناع شاول عن الانتقام من الذين صوتوا ضده.

وصموئيل كان ايضاً لأسباب مفهومة جداً ضد الملكية. فقد اعتبر طلب انتخاب ملك إهانة وخسارة له، لأنه كان يأمل أن تورث السلطات الدينية والزمنية في عائلته من الأب إلى الابن، لقـد سأل شيـوخ وممثلي القبـائـل بمـرارة عن ذنبـه وعن سبب انتـزاع السلطة منه، ووصف لهم بأحلك وأقتم وصف الأخطار التي سيجلبها الملك ويلقيها على رؤوسهم. ولما لم يؤثر ذلك كله. أعلن للناس أنهم ينبذون يهوه بنبذهم النظام التيوقراطي.

اضطر صموئيل أخيراً وتحت الضغوط الملحة، أن يتراجع عن موقفه. لكنه لم يفكر

قط بترك السلطة الفعلية تفلت من بين يديه. فنظم الأمور بحيث يبقى ملك المستقبل لعبة طيعة يسيرها كما يشاء. لهذا السبب تحديداً، وقع اختيار صموئيل على شاب من عائلة متواضعة تعود بأصلها إلى أصغر قبيلة بين القبائل الإسرائيلية. أسس صموئيل مدرسة للأنبياء. وفي هذه المدرسة، إذا ماصدقنا التوراة ربّى مرشحه للعرش ملقناً إياه واجب إطاعة الكاهن الأعلى والإخلاص ليهوه ولتعاليم موسى. لكن صموئيل كما هو معروف أخطأ كثيراً في حساباته. فقد تحول الفتى الناعم إلى قائد عسكري فذ وحاكم قدير يتخذ قراراته بنفسه. لذلك وقع الخلاف الحاد بين شاول وصموئيل. فابتعد الثاني ظاهرياً عن النشاط السياسي. أما في الواقع فقد بدأ يشن صراعاً خفياً عنيفاً ضد تلميذه العاق. فمسح داود للعرش محاولاً عزل شاول.

وتطور الخلاف إلى حرب مباشرة مفتوحة عندما أمر شاول بقتل كل الكهنة في نوبه، لأنهم ساعدوا داود، هكذا نرى بوضوح أمام أعيننا، مثالاً شائعاً في تاريخ البشرية عن الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية.

ومن أجل إتمام الصورة، يجب الوقوف قليلاً عند العهد المسمى بمدرسة الأنبياء. لقد كان أعضاء تلك المدرسة أناساً متعصبين وأشباه مجانين. وقد بدأت مثل هذه المجموعات تظهر في إسرائيل منذ عام (١٠٠٠ ق.م)، وكان أولئك الناس يقيمون عادة قرب المراكز الدينية أمثال جبعة، وبيت إيل، ورامتايم، والسامرة لاحقاً.

إن نوبات النشوة الدينية لم تكن غريبة على صموئيل وشاول وداود، فشاول واجه عند عودته من رامتايم إلى البيت مجموعة من الأنبياء جرته بسهولة إلى الرقص والغناء الدينيين. وقد جاءته نوبة الجنون الثانية بعدما تلقى نبأ محاصرة مدينة يابيش. فقطع عندها ثورين كان يحرث بهما الأرض[٣٤] إرباً إربا، وأصابته النوبة الثالثة في رامتايم حين جاء يطارد داود، فقد خرج للقائه صموئيل وأنبياؤه وأثّر عليه مغنطيسياً بالرقص والغناء والصراخ وأشركه في كورسه. ونقرأ في سفر صموئيل (أصحاح ١٠ ـ آية ٢٥): «... ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة، أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة، وأمامهم رباب ودفّ وناي وعود وهم يتنبؤون».

يؤكد هذا الوصف على أن مجموعات من المتعصبين الدينيين، الذين يشبهون إلى حد بعيد دراويش المسلمين، كان تجوب البلاد طولاً وعرضاً. كان أولئك الأنبياء يرتدون

مسوحاً من الشعر، ويتمنطقون بأحزمة خاصة ويتسولون. وقد تضمنت طقوسهم عدا الرقص والغناء والتنبؤ. ضرب النفس وتعذيب الجسد بمختلف ضروب التعذيب.

من المعـروف أيضـاً أن أولئـك الأنبياء، ظهروا على مسرح الحياة الدينية الإسرائيلية في وقت متأخر جداً. وهذا يؤكد أن ظاهرة التنبؤ الجماعي تلك لم تكن إسرائيلية المنشأ، ولايزال أصلها مجهولاً. غير أن القناعة السائدة تعيد أصل تلك الظاهرة إلى كنعان، حيث أخذها الإسرائيليون من هناك مع طقوس بعل وعشتار وآلهة فينيقية أخرى. ويعتقد أن موطن تلك المـدارس كانت فريجيـا، المـوجودة في آسيا الصغرى. ومن هناك انتقلت إلى فينيقية وكنعـان. ويـذكـر سفـر الملوك الأول (أصحـاح ١٨ ـ آية ١٩) أن أربعمائة نبي فينيقي كانوا يأكلون على مائدة الملكة إيزابيل.

يجب ذكـر أن تلك الظـاهرة كانت معروفة عند شعوب أخرى. فنحن نذكر الحفلات التهتكيـة الأغـريقيـة القـديمـة التي كانت تقـام على شرف أبـولـوديـونيسيـوس، ويحدثنا هيرودوت عن رجال متنبئين يجوبون أصقاع اليونان شعراً وغناء.

اتصفت حركة الأنبياء في إسرائيل بالتعصب والوحشية، فقد قام النبي هوشع (القرن السـابـع ق.م) بمضاجعة امرأة عاهر، وامرأة غير امرأته مدة ثلاث سنوات، كي يثبت ليهوذا أنهم بعبـادتهم لآلهـة غريبـة يقدمون على خطيئة الفسوق العظيمة. أما النبي أشعيا (القرن الثـامن ق.م) فقـد سار عاريـاً في طرقات أورشليم ليبين للأورشليميين أن يهوه سوف يعري مدينتهم الخاطئة من غناها، كما هو عار تماماً.

لقـد كان ظهـور مجمـوعـات الأنبيـاء المتسكعين في أرض كنعان ظاهرة عادية لعدة قرون من الـزمن. وكـان الإسرائيليون ينظرون إلى أولئك الأنبياء بوجل وإحترام. يستمعون إلى تنبؤ اتهم ويقـدمـون إليهم الصـدقـات. غيـر أنـه مع الأيـام بدأ المشعوذون والدجالون المسمون في التوراة الأنبياء الكذبة يتغلغلون في صفوف مجموعات الأنبياء. فصار الشعب بسببهم لايعيـر انتبـاهـه للأنبيـاء، بل صار يحتقرهم. ويظهر لنا هذا من خلال الأسئلة التي كان يطرحها سكان جبعة على بعضهم: «أشاول أيضاً بين الأنبياء؟».

وعندما سار داود راقصاً أمام تابوت الرب، قالت له زوجته باحتقار: ان تصرفه لايليق بملك. أما الحكيم عاموس فقد عارض بشدة أن يسموه نبياً.

عمق العبـرانيـون تحت تأثير تعاليم الأنبياء والكوارث السياسية والشقاء، دينهم حتى أوصلوه في النهاية بعد الأسر البابلي، إلى الوحدانية الكاملة.

فكـان لذلـك التطـور أن يؤدي بشكـل حتمي إلى تصفية الأشكال البدائية للنبوءات الجماعية. فلم يعد لأنبياء الدرجة العليا الذين دخلت مؤلفاتهم التوراة. أي شيء مشترك مع المتنبئين المتنقلين في البلاد. لكن أنبياء الدرجة العليا، لم يظهروا على مسرح إسرائيل التاريخي كـ «deus ex machina» [٣٥] بل كانوا نتاجاً لعمليات تنبؤ دينية جماعية استمرت فترة طويلة من الزمن.

إن مانعرفه عن قصة شاول المأساوية هو ماذكرته التوراة فقط. لذلك لانستطيع في الحقيقة التكهن بمقدار صدقها، ولهذا السبب يعتبر اكتشاف أي برهان مادي يؤيد بطريقة ما النظرية التوراتية، حدثاً هاماً، وقد وقع مثل هذا الحدث عام ١٩٢٢ م، عندما اكتشف عالم الآثار والمستشرق الأميركي أولبرايت في تل الغول، وعلى مسافة خمسة كيلومترات من أورشليم أنقاض مدينة جبعة عاصمة شاول، وبينت الحفريات أن جبعة كانت قلعة جبلية حصينة بسيطة ومحددة النمط المعماري. لكنها منيعة جداً كانت تحميها أبراج زاوية وجدران من الكتل الصخرية. وبين جدرانها وجدت معابر سرية ومستودعات تموينية، وقد وجدت بين الأنقاض كمية كبيرة من أطراف الرماح البرونزية وحجارة متخصصة للضرب بالمقلاع. لقد أثبت العلماء أن تلك الأنقاض تعود إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر (ق.م)، أي إلى فترة حكم أول ملك إسرائيلي، كما اكتشفت أيضاً أنقاض بيت شان حيث مثل الفلسطينيون بجسد شاول. وحسب التوراة فإن الفلسطينيين وضعوا رأس الملك في معبد داجون، ووضعوا سلاحه في معبد عشتار، وسمّروا جسده على سور المدينة. بلغ ارتفاع الأنقاض أكثر من ثلاثة وعشرين متراً تشكل ثماني عشرة طبقة تعود إلى حقب زمنية مختلفة.

وأخفض طبقة منها تعود إلى الألف الرابع (ق.م)، وبالتالي فإن بيت شان واحدة من أقدم مدن كنعان غير أن أكثر مايهمنا في الأمر هو اكتشاف عُثر عليه في الطبقة العائدة لحقبة شاول. هذا الاكتشاف هو معبد داجون وعشتار، الواقعين مقابل بعضهما البعض واللذين تحدثت عنهما التوراة.

لقد شهدت حجارة المعبدين آخر واقعة للخلاف الفلسطيني الإسرائيلي الذي انتهى بموت الملك وثلاثة من أبنائه، كما اكتشف الأثريون حقيقة تاريخية لم تذكرها التوراة. فطبقة الرماد السميكة والحجارة المصهورة وتماثيل الآلهة المحطمة، كل هذا يثبت أن

المدينة وقعت ضحية حريق شامل وهجوم كاسح. وهذا يسمح لنا أن نفترض أن داود قد دمّر بيت شان انتقاماً منه للتمثيل في جسد سلفه.

أمـا قصـة داود فهي، كمـا ذكـرنا مراراً عند الحديث عن أقسام التوراة المختلفة نتاج لقصص شعبيـة تنـاقلتهـا الأجيـال قرنـاً بعد قرن، وقد ضم مؤلفو التوراة تلك القصص إلى توراتهم غيـر آبهين أو غيـر ملاحظين التنـاقضات الموجودة فيها. ومن الجدير بنا إيراد بعض الأمثلة عن تلك التنـاقضـات لكي نبين مدى الصعـوبـات التي تواجـه علمـاء التـوراة في محاولاتهم تبيان الحقيقة التاريخية.

إذا ما حاولنا الاستفسار عن كيفية وصول داود الى قصر شاول، فإننا سنجد أنفسنا في وضـع صعب. فالتـوراة تقـدم فرضيتين مختلفتين تماماً. فالأصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول يقول بأن داود أُحضر إلى قصر شاول لأنه كان عازف عود ممتاز. وقد استحوذ على قلب الملك بعـزفـه، وفي الـوقت نفسه، يخبرنا الأصحاح السابع عشر من نفس السفر بأن داود أثـار انتبـاه الملك له بسبب انتصـاره على جوليات، فقاتل جوليات راع مجهول أمر شاول بإحضاره إليه وسأله: «ابن من هذا الغلام؟» إذن شاول لم يعرف داود سابقاً.

هاك مثـلاً آخـر أكثـر إقناعاً، إنه حول قتل جوليات. فحسب سفر صموئيل الأول قُتل جوليات خلال مبارزته مع داود، أي أن داود هو قاتله. لكننا نفاجأ عند قراءتنا لسفر صموئيل الثـاني، لأننـا نعـرف من هنـاك أن لا عـلاقـة لداود مطلقاً بمقتل جوليات. بل الذي قتله هو شخص من بيت لحم اسمـه ألحـانـان بن يعـري أرجيم (أصحـاح ٢١ ـ آيـة ١٠٩) حاول التوراتيون مراراً تفسير هذه التناقضات، وتقريب بعضها من بعض، فاكتشف العلماء بشكل مفاجىء شيئاً جعلهم يمسكون بأيديهم خيوط الحل. إذ تبين أننا لا نعرف في الحقيقة اسم خليفة شاول على عرش إسرائيل. فداود كما في نصوص ماري (داوودن) ليس اسماً خاصاً بأحد بل لقب يعني الزعيم أو الوصي. لما اكتشف العلماء ذلك استنتجوا أن داود وألحانان شخص واحد لا شخصين.

وهكـذا، إذا ما افتـرضنـا أن قاتل جوليات هو الراعي التلحمي ألحانان، الذي سماه شعب إسرائيل بعدئذ داود فإن التناقض يزول، كما لو أنه مسح بعصا سحرية.

لكننا حتى لو قبلنا هذه النظرية تماماً نجد الكثير من التناقضات الأخرى التي تضعف القيمة التاريخية لقصص التوراة، ففي التوراة اختلطت الوقائع بالأساطير والقصص الشعبية القديمة بالإضافات اللاحقة، وكيفما سعى العلماء فإنهم لن يتمكنوا أبداً من الوصول إلى

الحقيقة كاملة. ويعتبر التأكيد على أن داود أخذ رأس جوليات إلى أورشليم، مثالاً أنموذجياً على عدم تطابق الأمور، المنوه عنه؛ إن هذه الحادثة بلا شك إضافة لاحقة للقصة، فنحن نعرف أن داود احتل إسرائيل بعد فترة طويلة لمقتل جوليات، وذلك بعد أن صار ملكاً على إسرائيل، وأظهار داود على أنه مؤلف المزامير المجمعة في التوراة، أسطورة أيضاً، فمما لا شك فيه أن المزامير أثرت على عقول الأجيال اللاحقة أكثر مما أثرته أسفار التوراة الأخرى. فهي شعر غنائي ديني يتصف بالجمال وغنى الأمزجة والميول ويعبر عن مجموع متكامل من الأحاسيس من الكتابة والتذلل واليأس حتى الأمل والإيمان، الاستيقاظ السعيد بعد نوم، الشكر والسعادة. إن البساطة المؤثرة لهذه الأشعار وإيجازها وأسلوبها الدقيق وحماسها الديني الذي يسلب الروح، كل ذلك جعل منها مصدراً للإلهام، غرف منه الكثيرون من الشعراء والموسيقيين والمغنين.

أما الفكرة الرئيسية لهذه الأناشيد فهي التوحيدية، انها تمثل تمجيد العظمة وقدرة يهوه، الذي يمنح الناس الحب، يغفر لهم ذنوبهم الكبيرة والكثيرة، والشديد الغضب والعقاب أحياناً، إن هذه لقصيدة إله من أعلى الدرجات، إنه يفرض على الإنسان قوانينه الأخلاقية. لكن علم الكونيات في هذه الأشعار ساذج وبدائي كما هو في أيام إبراهيم، فيهوه يجلس على عرشه في السماء. تحيط به الملائكة والأرض منبسطة يحيط بها المحيط، وغيلان الفوضى والشر تتصارع مع قوى النظام والإبداع، وينتصر يهوه، ويحكم نسل داود، في ظل انتصاره، الأرض.

تسمى المزامير في اللغات المشتقة من اللاتينية بأحد مشتقات كلمة «بسالين» الإغريقية التي تعني لمس الأوتار بالأصابع. وتعني كلمة «بسالموس» آلة وتريه (قد يكون أصل الكلمة فينيقياً) أو أغنية على إيقاع آلة وترية.

يبدأ المزماران السادس والثاني عشر بتعابير «على ذوات الأوتار على القرار». «وعلى القرار». إن هذا يعني تحديداً إن المزمار يجب أن يرافق بإيقاع آلة موسيقية بثمانية أوتار، كما يؤكد الكثيرون على أن النص يقسم إلى غناء منفرد وغناء للكورس، ويمثل كل مقطع شعري أو مزمار، ضرباً من ضروب الدعاء أو المناظرة اللذين يعتبران عنصراً أساساً في الطقوس المختلفة والمناسبات الشعرية.

لقد ذكرنا سابقاً أن إدعاء تأليف داود للمزامير ليس إلا أسطورة، فقد أثبت التحليل لنصوص المزامير، أنه لايمكن لغالبيتها أن تكون قد كتبت قبل الأسر البابلي، وأنها قد

ضُمت إلى التوراة في القرن الثالث (ق. م)، وليس قبل ذلك ويعكس مضمونها التصورات الـدينيـة والعلاقات الاجتماعية ـ السياسية التي اتصفت بهاحياة العبرانيين في مرحلة مابعد الأسـر البـابلي. حتى مرثـاة شاول ويـونـاثـان المنسـوبة لداود ليست في الحقيقة إلا مقطعاً مسروقاً من مجمع الأناشيد القديم ـ كتاب العادل ـ. إن ماقلناه لايعني ألّا يكون داود شاعراً وموسيقياً. فالإسرائيليون، كما نوهنا سابقاً كانوا يتصفون بميلهم وممارستهم للموسيقا. وقد وجدت في بني حسان لوحة حجرية تمثل رعاة عبرانيين بينهم موسيقيون يحملون قيثاراتهم. ونعلم من الكتـابـات المكتشفـة في مصر وبلاد مابين النهرين أن الإسرائيليين كانوا يرسلون إلى هذين البلدين فرقـاً موسيقيـة وأخـرى راقصـة، كمـا وعـرف الإسـرائيليـون أيضاً الفرق المـوسيقيـة النسـائيـة. فليس من المستبعـد إذن أن يكـون بعض ملوك إسـرائيـل شعـراء وموسيقيين قديرين. فإن لإسرائيل تقليداً موسيقياً عريقاً وغنياً.

إن كنه عظمة علم الآثار وروعته، يكمن في أن هذا العلم قد يحوّل بشكل مفاجيء قصة كانت تعتبر أسطورة وخيالاً إلى حقيقة تاريخية، لامجال للشك بها. هذا ماحصل مع قصة التوراة عن احتلال داود لأورشليم. فبفضل أحد المكتشفات الهامة جداً نعرف الآن أن داود قد احتل أورشليم فعلاً. بل ونعرف أيضاً أية معجزة ساعدته في ذلك.

إننـا نستخـدم كلمـة «معجـزة» عن قصـد لأن القلعـة كانت تقف على قمة تلة صعبة المنـال جداً. ولمـدة أربعمـائـة عام صدت تلك القلعـة كل الهجمـات المعادية. والقصة التوراتية عن احتلالها موجزة وغامضة، نستنتج منها أن يوآب احتل القلعة بالخديعة والمكر، فقد تسلل إلى الداخل بواسطة قناة سرية وهاجم اليبوسيين من الخلف، وكما يحدث كثيراً مع الإكتشافات الأثرية. فإن حل اللغز جاء صدفة ففي عام ١٨٦٧ م قام الكابتن الإنكليزي أورن بدراسـة أورشليم حيث أثـارت فضـولـه نبعـة ستي مريم التي في سهل قدرون وتعرف تلك النبعـة في التـوراة باسم جيحـون. فاكتشف أورن بين أنقاض مسجد للمسلمين حفرة عميقة. ولما هبط فيها الضابط الإنكليزي بواسطة درجاتها المحفورة بالصخر وصل إلى نبع ماء عذب يسير تحت الأرض ورغم الظلام الحالك، لاحظ أورن ثقباً دائرياً في الصخر فوق رأسه تماماً. أخذ حبلاً وسُلماً وتوغل في سيره ليتأكد من أن ما رآه ليس إلّا قناة محفورة في الصخر تسير أفقياً في البداية ثم عمودياً. صعد أورن القناة بصعوبة فرأى على إرتفاع ثلاثة عشر متراً ممراً مزوداً بدرج محفور في الصخر يوصل إلى مغارة نصف معتمة. ومن هناك سار في ممـر ضيق، وعنـدمـا خرج من المغـارة وجد نفسه داخل جدران المدينة القديمة؛ أثبت

العلماء أن ذلك النفق بُني في نهاية الألف الثاني (ق. م)، وأنه نفس النفق الذي تسلل منه يوآب الى المدينة. وليس من الصعب تصور ماحدث آنذاك. ففي البداية عبر يوآب بنفسه النفق بواسطة الحبال، ثم رفع جنوده وهاجم معهم المدافعين عن المدينة من عمقهم ومن خلفهم، ذلك في الوقت الذي كان فيه داود يهاجم المدينة من الخارج.

كانت أورشليم من أمنع حصون كنعان. لكن كان لها أيضاً كعب أخيل، فالمدينة ليس فيها ماء، وفي أيام السلم ينزل السكان إلى نبع جيحون لجلب الماء. وفي أيام الحرب تنقطع طريق مائهم، لذلك حفروا في الصخر نفقاً ذا درج. عند الحاجة كانوا ينزلون أوانيهم بواسطة الحبال في النفق ليملأها لهم الشخص المسؤول عن النبع والمختبيء في المغارة.

لقد حافظ السكان على سرية نفقهم تماماً. لذلك لانعرف كيف توصل إليه يوآب. قد يكون أحد الأسرى اعترف له بذلك وقد يكون الإسرائيليون سمعوا صدفة صوت الأواني الملقاة في النفق.

إنه من الممكن اعتبار قصة أول ملكين إسرائيليين واحدةً من أعظم نتاج الأدب العالمي، فصراع شاول ضد الكهنة دفاعاً عن عرشه والمشهد القاتم القاسي عند المرأة العرافة في عين دور وخيبة أمله وانتحاره، وحياة داود العاصفة وحماسه المرّ الذي أفسدته حوادث العصيان ومؤامرات القصر. إن هذا كله لمشاهد مأساة شكسبيرية حقيقية.

الملكان مصوران كشخصيتين بارزتين إنسانيتين جداً في إيجابهما وسلبهما وجرائمهما وأخطائهما، ولكل واحد منهما فضائله، وكلاهما يهزان مشاعرنا بقوتهما وحدة أحاسيسهما. فمن القصص التوراتية الساذجة تبرز أحياناً أمزجة بشرية ناصعة متعددة الجوانب، وممتلئة بالحياة والحيوية. فكم هورائع وفلسفي مثلاً. وصف الانحطاط والسقوط الروحيين المتدرجين لشاول الذي اتسم بالشكوك والحسد.

تدهشنا أيضاً الواقعية التي رسم فيها مؤلفو التوراة، النواحي الغامضة في طبيعة داود بالرغم من أنه كان ابن الكهنة المطيع ومحبوبهم المدلل. لقد فقدت عواطفهم تجاهه، اذن، قوتها أمام الوثائق التاريخية التي ماكان يمكن لهم تجاهلها.

إن علاقة الكهنة بالملكية، ونظرتهم إليها، تظهران بشكل واضح في النص التوراتي، فشاول عدو الكهنة يصور على أنه شخصية سوداء، بالرغم من أن نمط حياته قد

لايستحق الاستنكار، أما داود حبيب الكهنة، فيرفع إلى السماء وينظر إلى جرائمه وأفعاله الشنيعة بعطف وتفهم.

ولايمكن أن ننكر أن داود، رغم كونه طاغية وصل إلى العرش على جثث الآخرين يعد واحداً من أعظم وأهم من وصل إلى سدة الحكم في إسرائيل. فهو كقائد عسكري. فاتح ومؤسس للدولة، صار عن جدارة فخر وعزة شعبه لكنه تحول بسرعة إلى طاغية شرقي مخنث يسير وراء نزواته الشريرة ولديه العدد الهائل من النساء والحاشية المتذبذبة المفعمة بالخيانة، أضف إلى ذلك تأثير المحسوبين والمحسوبات. كل ذلك يكون الصورة المؤثرة للسقوط الأخلاقي التدريجي لتلك الشخصية الحكومية العظيمة.

ويبدو مشكوكاً فيه أيضاً التأكيد على أن داود كان يهوهياً مخلصاً لربه يهوه فاذا ماكان يعبد الهاً واحداً هو يهوه فمن أين خلق في بيته التمثال الذي ألبسته ميكال لباسه ووضعته في الفراش مكان داود. ان ذلك التمثال صديقنا المعروف، أنه إله المنزل، عنصر الطقس الوثني الممنوع والملاحق من قبل أتباع يهوه.

أما فيما يتعلق بعلاقة داود بالكهنة، فإن لد ـ ا كل الأسس للافتراض أن داود انصاع للكهنة وأطاعهم لأغراض سياسية بحتة. فهو لكونه من يهوذا، وفي نفس الوقت طاغية استولى على السلطة من سلالة شاول. لذا لم تكن له شعبية عند معظم قبائل إسرائيل الشمالية. وقد يدل على مدى اهتزازه وتأرجحه على العرش كون فرقته الخاصة تكونت من الغرباء وبشكل خاص من الفلسطينيين المرتزقة.

حاول داود بكل قواه كسب ود القبائل الشمالية. وهذا مايفسر سبب إعلانه الحداد على شاول، كما يفسر سبب مراسم دفن الملك العظيمة التي أجراها داود، ويفسر أيضاً أوامره بدفن بقايا نسل شاول المشؤومين (عندما اهتاج الشعب متأثرا بتصرفات رصفة).

لكن جهود داود، كما يثبت عصيان أبشالوم وعصيان شوبي، لم تحقق أهدافها الموجودة، ولهذا السبب بالذات اتجه داود نحو الكهنة واعتمد عليهم.

وبطبيعة الحال قام اتحاده مع الكهنة على أساس مجموعة من الحلول الوسطى الغريبة جداً أحياناً كالحل الوسط المتعلق مثلا بمنصب الكاهن الأعلى: فالكاهن الأعلى الشرعي الذي كان مقره جبعون الواقعة شمال كنعان هو صادوق، ولما تسلم داود السلطة عين صديقه ومستشاره أبياثار في منصب الكاهن الأعلى، وعندما وحد شطري إسرائيل الشمالي والجنوبي، برزت مسألة ملحة، من سيبقى في منصب الكاهن الأعلى؟ فداود كان

مصمماً على إبقاء أبياثار كاهناً أعلى لأنه كان صديقه ومساعده المخلص. وليس بالإمكان عزل صادوق لأن ذلك سيغضب قبائل الشمال. لذلك ولأول مرة في تاريخ إسرائيل اتخذ قرار بتعيين كاهنين أعليين وإبقائهما في مكانيهما. ولم يغير أحد في هذا القرار العجيب شيئاً حتى جاء إلى سدة الحكم سليمان، إذ عزل أبياثار لتأييده أدونيا في صراعه على العرش. ومنذ ذلك الوقت صار منصب الكاهن الأعلى يُوّرث في نسل صادوق، من الأب لابنه؛ ومن هنا بدأ حزب الصادوقيين أولى خطواته نحو التكون، وقد احتكر هذا الحزب فيما بعد ولعدة قرون منصب الكاهن الأعلى وبقية المناصب الكبيرة في معبد أورشليم؛ أننا نصادف في التوراة أحياناً ملاحظات موجزة تكشف الظلمة عن بعض التساؤلات، نورد كمثال عن ذلك حادثة وقعت مع داود. فنحن نعلم أنه نوى أن يبني معبداً في أورشليم. لكن ناتان النبي قال له في حينه: أن يهوه اعتاد العيش في خيمة، وانه لايريد بيتاً حجرياً. وحسب التوراة امتنع داود عن تنفيذ خطته رغم أنه قد جهز الخشب والمعادن الثمينة من أجل بناء المعبد.

إلا أننا نقرأ ونستغرب ماتذكره الآية الثالثة من الأصحاح الخامس من سفر الملوك الأول إذ يقول سليمان في رسالته لأحيرام. الملك الفينيقي: «أنت تعلم أن داود أبي لم يستطع أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به...».

هكذا يصبح واضحاً أن داود كما هو الحال بالنسبة لأموره كلها انطلق من منطلق سياسي محض في تأخير بناء المعبد، لا لأن النبي أمره بذلك ويجب أن نضيف هنا أيضاً أن ناتان. المدافع عن المعبد ـ الخيمة كان لسان حال مجموعة مؤثرة من المتدينين المتعصبين الذين سعوا للحفاظ على التقاليد المشيخية القديمة التي سادت في عهد موسى، وكانوا أعداء لدودين لتطور المدن وغيرها.

كان داود حاكماً صارماً عديم الرأفة. لكنه كان مع هذا شخصية حكومية عظيمة، ودبلوماسياً بعيد النظر، وهو قادر على توظيف كل شيء حتى المؤسسات الدينية في سبيل تحقيق أهدافه السياسية. ولاشك أن فضله كبير في تأسيس وبناء الدولة الإسرائيلية. لهذا ليس غريباً أن تتمثل به الأجيال اللاحقة. فصار من عظيم الفخر والشرف أن يثبت إنسان ماصلة قربى مع داود. ولهذا السبب أيضاً نتفهم محاولة الحواريين والرسل إعادة أصل السيد يسوع المسيح الناصري المتواضع إلى أعظم ملك إسرائيلي إلى داود.

أما سليمان فكان أول ملك إسرائيلي يعتلي العرش بالوراثة. ومع هذا فقد ترافق

اعتلاؤه العرش مع الصراعات والمؤامرات، ولو لم تعرف أمه بششبع المرأة العزيزة النفس العظيمة القدرة. كيف تستحوذ على تأييد مجموعة الأنبياء بزعامة ناتان وكيف تسخر هذا التأييد لصالح ابنها، ولو لم تضغط على الملك لبقى سليمان على الأرجح واحداً من أولاد الملك الكثيرين المجهولين الذين لانعرف عنهم عملياً أي شيء. لقد كان لأدونيا بلا شك الحق في وراثة العرش لأن أدونيا هو الولد الرابع لداود وهويتمتع بتأييد الكاهن الأعلى أبياثار وبتأييد يوآب قائد الجيش. لقد عفا سليمان عن أبياثار فيما بعد ولكنه أمر بقتل يوآب وأدونيا، بالرغم من أنه وعد هذا الأخير ألا يقتله، وكان سليمان محقاً في قراره إذ لابد من التخلص من منافسه على العرش وإخافة أنصاره.

إن مثل هذه الأمور كانت صفة مميزة ليس لإسرائيل وحدها. فعدد نساء القصر لدى الطغاة الشرقيين ونسلهم الكثير من الذكور وانعدام القوانين والتشريعات المحددة لتوارث العرش أدى ذلك كله إلى جعل عزل المنافسين على العرش بقوة السلاح أمراً شائعاً في المجتمعات الشرقية. وقد كان لتلك الطريقة في الوصول إلى الحكم وجود في قصر الأباطرة البيزنطيين حيث تحولت مع الأيام إلى حقيقة لا مجال لأحد أن يعتلي العرش دون اتباعها.

كان سليمان حاكماً مسالماً. حكم بعد أن ورث عن أبيه دولة قوية أربعين عاماً (٩٧٢ - ٩٣٢ ق.م) لم يعرف خلالها أية حرب كبيرة حتى أنه لم ينتقم من رزون الآرامي الذي طرد الحامية الإسرائيلية من دمشق، ونصب نفسه هناك ملكاً، فذلك الحادث اعتبر آنذاك ثانوي الأهمية وكان ذلك خطأ ارتكبه سليمان إذ أنه لم يتنبأ بمقدار الخطر الذي ستشكله مملكة الآراميين على إسرائيل لاحقاً.

أما فضل سليمان التاريخي فيكمن في أنه جعل من بلاده الفقيرة الزراعية ذات النظام المشيخي، القبلي دولة موحدة قوية اقتصادياً وعسكرياً، دولة تتمتع باحترام كبير على الساحة الدولية. لقد كان سليمان إدارياً جيداً ودبلوماسياً حاذقاً وبناءً وتاجراً. وفي عهده اشتهرت إسرائيل بعاصمتها الرائعة وبفخامة قصر الملك الكبير.

إن تزويج فرعون مصر ابنته من سليمان لدليل على عظمة هيبة ملك إسرائيل. كما يدل على قوته وشدة تأثيره عدد نسائه الضخم والمجد الواسع ومظاهر الأبهة التي أحاط نفسه بها ولعل علاقة سليمان بشعبه ونظرته إلى هذا الشعب وكأن أفراده عبيد لديه أكبر دليل على عظمته.

ومع وجود كل هذه السلبيات لايمكن أيضاً نفي النواحي الإيجابية لحكم سليمان،

فهـو الـذي زود أورشليم بالبنـاء الرائع وجعلها عاصمة حقيقية، كما أصبح المعبد الذي بناه المـركـز الـوحيـد للديانة العبرية ورمزها. ولامجال للشك أيضاً في خدماته الهادفة إلى رفع مقدرة البلاد الدفاعية، ولنتذكر بناءه لنظام المدن المحصنة وإعادة تنظيم الجيش، بما في ذلك إدخال عربات القتال إلى قطعاته.

سعى سليمـان أيضـاً إلى تنشيـط الأعمـال الحرة والتجارة البحرية فجلب أخصائيين لهذه الأمور من فينيقية، وقد تأمن في عهده النشاط الإداري الحكومي المنظم بواسطة سلم وظيفي حكـومي دقيق مستعـار من النمـاذج الفينيقيـة والسـوريـة والمصـرية. فسليمان كان دبلومـاسيـاً كبيـراً ونـاجحـاً. وأهم نجـاحـاتـه في هذا المجال زواجه من ابنة فرعون مصر، وعـلاقـاتـه مع الملك أحيـرام الـذي ماكـان لسليمان دون مساعدته أن يحقق أهدافه، لقد صارت إسـرائيـل دولـة مزدهـرة بفضـل فطنـة سليمـان العملية ولنقرأ في سفر الملوك الأول (أصحـاح ١٠ ـ آيـة ٢٧) مايلي: «وجعل الملك الفضة في أورشليم مثل الحجارة، وجعل الأرز مثل الجميز الذي في السهل في الكثرة».

وبالطبع هذا ضرب من ضروب المبالغات الشرقية. لكننا نملك البراهين التي تثبت أنهـا تعبـر تعبيـراً معتـدلاً عن الواقع الذي ساد. فمن المعروف أن إيرادات سليمان السنوية التي كان يجبيها من التجارة والضرائب وتقدمات الحكام العرب بلغت حوالي ستمائة وست وستين وحـدة ذهبيـة (حـوالي اثنين وعشـرين ألف وثمانمائة وخمسة وعشرين كيلو غراماً من الذهب) هذا ماعدا الضرائب العينية التي كان يأخذها من الإسرائيليين.

ويدل على التطور الزراعي في إسرائيل الحقيقة القائلة أن سليمان كان يرسل لأحيرام ملك صور سنـويـاً عشـرين ألف كرّ حنطـة وعشـرين ألف كرّ زيت. فممـا لاشـك فيـه أن المـزارعين، تعـرضـوا لاستغلال فظيع وقاس ومع هذا فإن بيع مثل تلك الكميات من المواد الغذائية ممكن في حالة نهضة زراعية فقط.

لقـد عرفتنـا المكتشفـات الأثـرية على الكثير من نواحي حياة تلك الأيام، والتي تدل على مستوى معيشة مرتفع كما يدلّنا أيضاً على عناية نساء إسرائيل آنذاك بجمالهن وشكلهن الكثيـر من الأواني الـرخـاميـة الشفـافـة التي استعملت لمواد التجميل. والقوارير والملاقط والمـرايـا ودبـابيس الشعـر. وقد عرفت الإسرائيليات العطر، والحمرة، والحنة، والمراهم، وزيت البلسم. والمسحـوق (البـودرة) من لحـاء الشجـر، ولاسيمـا شجـر السـرو والصباغ الأحمر للشفاه والسماوي للحواجب.

إن معظم تلك المواد كانت تجلب من الدول الأخرى، إن مثل ذلك الاستيراد دلالة على غنى البلد المستورد، كما أكد علم الآثار على سرعة عملية تطور المدن، تلك المدن التي قاومها أيام داود المتعصبون ليهوه مقاومة عنيفة. وبالطبع بقيت الزراعة عصب الحياة الأساسي. لكن المزارعين صاروا يسكنون المدن بشكل رئيسي. وبما أن كل المدن الكنعانية كانت محاطة بالحصون، فإن تلك المدن بدأت تعاني من أزمة ازدياد عدد سكانها. وصارت البيوت الثنائية الطابق تبنى في كل بقعة يمكن البناء فيها.

كان القسم الرئيسي عبارة عن غرفة كبيرة في الطابق الأرضي. وهناك تحضر النساء الطعام وتخبز الخبز، وتجتمع الأسرة كلها لتناول الطعام.

لم يكن هناك أثاث، حتى الأسر الثرية كانت تأكل وتنام على الحصر. ويمكن الصعود إلى غرف الطابق العلوي بواسطة درج حجري أوسلم خشبي. وفي الصيف ينام الناس على سطوح المنازل حيث النسيم العليل المنعش.

كان طعامهم يتألف من الثوم والبصل بكثرة وطعامهم بسيط ومفيد، تشكل عنصره الأساسي الحنطة بنوعيها المسلوق والمقلي. يضاف إلى ذلك الحبوب بأنواعها والعدس والفاصولياء والخيار والفواكه والعسل، وهم يأكلون اللحم بالمناسبات فقط، ويشربون بشكل رئيسي حليب الماعز ويتناولون الخمر بحدود.

من أية مصادر حصل الملك سليمان على ثروته وغناه، لقد شكك العلماء طويلاً بما جاء في التوراة حول هذا الأمر، فما ذكرته التوراة خيالي جداً أوغامض، إذ نقرأ في سفر الملوك الأول (أصحاح ١٠ ـ آية ٢٨ ـ ٢٩): «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر، وجماعة تجار الملك أخذوا جليبه بثمن، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بستمائة شاقل من الفضة والفرس بمائة وخمسين، وهكذا لجميع ملوك الحثيين، وملوك آرام كانوا يخرجون عن يدهم».

يذكر هنا أن سليمان كان يشتري فقط الخيول والمراكب. ولا يذكر شيء حول متاجرته بما يشتريه ويبيعه لصالحه في الوقت الذي أثبتت فيه المكتشفات الأثرية، أن سليمان كان يلعب دور الوسيط التجاري بين مصر وآسية في مجال بيع وشراء العربات والخيول. وفي عام ١٩٢٥ م، اكتشفت بعثة أثرية أميركية. في سهل يزرعيل أنقاض مدينة مجدو التي كانت لها أهمية استراتيجية كثيرة، فهي كانت المدافع عن حدود السهل الشمالية، وتمر بها طريق التجارة الواصلة بين مصر وآسيا، وقد حول داود وسليمان مدينة

مجدو إلى قلعة حصينة. لكن المدينة كانت موجودة قبلها بزمن طويل إذ يعود بناؤ ها إلى الألف الثالث ق.م.

وفي مجدو تحديداً. كُشف سر سليمان إذ اكتشفت بين الأنقاض بقايا اسطبلات بناها لتتسع لأربعمائة وخمسين فرساً، وكانت متوزعة حول ساحة كبيرة. ومن المحتمل أنها كانت تستعمل لترويض وإرواء تلك الأفراس وكذلك لإقامة معارض لها. إن مقاييس وتوضع تلك الاسطبلات على الطريق الرئيسية التجارية، تثبت أن مجدو كانت مركزاً أساسياً للإتجار بالخيول بين مصر وآسيا. فسليمان كان يشتري الخيول من كيليكية ويبيعها، على الأرجح، الى مصر ومن مصر يجلب المركبات ويبيعها إلى بلاد مابين النهرين.

تعلمنا التوراة أن سليمان بنى أسطولاً بحرياً بمساعدة الخبراء الفينيقيين وخصص ذلك الأسطول للتجارة البحرية، وكان يرسو في ميناء عصيون جابر الذي يقع في خليج العقبة. ويغادر مرساه كل ثلاث سنوات مرة متجهاً إلى بلاد أوفير ليجلب من هناك الذهب وبضائع أخرى، لقد أثار فضول العلماء سؤ الان: أين كانت تقع بلاد أوفير المجهولة؟ ماذا كان لبلد زراعي، ككنعان، أن يبيع لأوفير تلك؟.

فالجدل بقي قائماً إلى يومنا حول بلاد أوفير التوراتية. ويقول البعض إنها الهند، وآخرون الجزيرة العربية وبعض ثالث قال انها مدغشقر. أما أولبرايت المستشرق الأميركي الشهري توصل إلى أن أوفير ليست سوى الصومال، ويعطي بعض العلماء أهمية للوحة محفورة على حجر في أحد معابد طيبة تمثل ملكة سمراء اللون من بلاد اسمها ألبونت، وتذكر الكتابة في أسفل اللوحة أن السفن المصرية كانت تجلب من بونت الذهب والفضة والخشب الأسود وجلود النمور وقروداً وزنوجاً للخدمة. لذلك ظهرت الفرضية التي مفادها ان بونت وأوفير التوراتية بلد واحد.

أما السؤ ال الثاني فقد أجاب عليه علم الآثار. ففي عام ١٩٣٧ م، وجد الأثري نلسون غيلوك عن طريق الصدفة منجماً للنحاس محفوراً في الصخر بوادي عربة، وظهر له من خلال البيوت الحجرية التي كان يسكنها عمال المناجم والجدار الواقي من هجمات البدو، أن ذلك المنجم هو منجم سليمان.

وقد قام غليوك باكتشاف آخر أكثر أهمية، وذلك قرب خليج العقبة، حيث كشفت سابقاً تحت الرمال أنقاض ميناء وعصيون جابر، فوجد فيها غليوك مجموعة كبيرة من أفران

صهر النحاس على مساحة شاسعة مسورة بجدار كجدران القلاع . وكانت أجساد تلك الأفران مزودة بثقوب متجهة نحو الشمال حيث تهب رياح البحر، مما يحافظ على درجة حرارة ثابتة فيها ؛ بفضل تلك الاكتشافات عرفنا أن سليمان لم يكن تاجراً ناجحاً فحسب بل كان صناعياً ممتازاً أيضاً وعلى الغالب ان يكون قد احتكر صناعة النحاس، مما سمح له بوضع الأسعار التي تناسبه، وبالتالي بالحصول على تلك الإيرادات التي تتحدث عنها التوراة.

لقد ذاع صيت حكمة سليمان وغناه وفخامة قصره في كل الأصقاع . فقدم سفراء دول عديدة إلى أورشليم من أجل عقد اتفاقيات الصداقة، وتنظيم عقود التجارة معه . وصار سكان العاصمة يلتقون يومياً الضيوف الغرباء المحملين بالهدايا الثمينة للملك سليمان، وبالطبع كانوا يفخرون بمدينتهم التي أصبحت مركزاً تجارياً ودبلوماسياً كبيراً.

انتشر ذات يوم خبر قدوم قافلة ملكة سبأ التي كانت تعيش في الجزيرة العربية البعيدة، فخرج الشعب إلى الشوارع مرحباً بالملكة المحاطة بعدد كبير من الحاشية وبالعبيد الذي يشكلون قافلة ضخمة تنتهي بصف طويل من الجمال المحملة بأنفس الهدايا لسليمان الملك.

من هي هذه الملكة العظيمة بطلة أكثر قصص التوراة تأثيراً على النفس وجذباً لها؟ من المعروف من تكون تلك الملكة وقصة اكتشافها ممتعة لدرجة انها تستحق أن نذكرها . لقد بقي جنوب الجزيرة العربية بلد التوابل والبخور التي سماها الرومان بالعربية السعيدة «Aralia felix» ، بقي حتى القرن التاسع عشر مغلقاً بوجه الأوربيين «الكلاب الملحدة» ، ومن تجرأ منهم على وضع قدم في بلد النبي (محمد . ص) فهو مهدد بالفساد والموت . وقد وجد بعض الجريئين الذين انتصر فيهم حب الفضول على غريزة الخوف. فكان أن رتدى الفرنسي غاليف والنمساوي الدكتور غلازر، زياً عربياً، واتجها إلى البلاد المغلقة . وبعد مغامرات وعوائق كثيرة، وجدا في الصحراء مدينة كبيرة، اكتشف فيما بعد، أنها مدينة مأرب وفيها اكتشفا ونقلا إلى أوربا منها، كتابات غريبة . فأثارت المكتشفات العظيمة فضولاً كبيراً عند العلماء، وأحس التجار العرب برغبة الأوربيين باقتناء كتابات مأرب، فصاروا يبيعونها بعشوائية كبيرة لهذا استطاع العلماء أن يحصلوا على بضعة آلاف من القطع الحجرية المغطاة بالكتابات المبنية على أساس نظام الأبجدية الفلسطينية . وقد اكتشفت بين المعلومات المتفرقة عن الآلهة والقبائل والمدن تسمية أربع ممالك كانت قائمة جنوب الجزيرة العربية هي منية وحضر موت وقتبان وسبأ . وقد ذكرت سبأ أيضاً في الوثائق الآشورية

العائدة إلى القرن الثامن قبل الميلاد. حيث تقول الوثائق إن بلاد مابين النهرين كانت تقيم علاقات تجارية قوية مع سبأ إذ تشتري منها التوابل والبخور. وكان ملوك سبأ يلقبون بالمكرب أي الأمير الكاهن، وكان مقرهم في مدينة مأرب التي وجدت أنقاضها جنوب شبه الجزيرة العربية (في اليمن حالياً) ومدينة مأرب تلك توضعت في الجبال على ارتفاع ألفي متر عن سطح البحر.

وبقي الكثير من الأعمدة والجدران يُبرز بروعته الفائقة معبد حارام بالقرب من مأرب، وذلك المعبد عبارة عن بناء بيضوي الشكل ومدخله الذي يوصل إليه درج خجري مزخرف بالبرونز جميل جداً. أما الأعمدة الكثيرة ونوافير الماء في بهوه الفسيح، فتدل على عظمة المعبد الذي يفهم من الكتابات أنه بني على شرف أحد آلهة العرب.

وبعد بحوث طويلة اكتشف سر ازدهار مملكة سبأ. فقد كان فيها سد عظيم يرتفع عشرين متراً يرفع منسوب مياه نهر أغدانات. ومن هناك تنتقل مياه الري بواسطة شبكة من قنوات الري. وبفضل طريقة الري صارت سبأ بلاداً خصبة جداً.

عمل سكانها بشكل رئيسي بزراعة التوابل وتصديرها إلى بعض الدول الاجنبية. وقد استمر الأمر على هذه الحال حتى سنة ٥٤٢ ميلادية، حيث تهدم السد نتيجة الغارات والحروب، والتهمت رمال الصحراء الواجهة الخضراء، هذا ويمكن أن نعرف السبب الذي دعا ملكة سبأ لزيارة سليمان فطريق التجارة المعروف بدرب العطور الذي كان يسير فيه تجار سبأ حاملين بضائعهم إلى مصر وسورية وفينيقية، كان ذلك الطريق يمر بمحاذاة البحر الأحمر، ويعبر الأرض التي تسيطر عليها إسرائيل لذلك كان أمن الطريق وأرواح التجار وبضائعهم ترتبط ارتباطاً مباشراً بإرادة الملك سليمان، وتقع تحت رحمته.

اذن قدمت ملكة سبأ إلى سليمان بهدف عملي ولتقنعه بهداياها ووعدها له ببعض الأرباح إن يوقّع معها اتفاقية صداقة؛ لكن الخيال الشعبي أحاط طبيعة الزيارة بالصمت وصبغها بصبغة رومانسية بحتة، وقد بلغ الأمر بالخيال الشعبي إلى حد زُعم فيه أن سليمان أخذ بجمال الملكة وفتن بها فتزوجها وأنجب منها ولداً، ويعتقد الأجباش حتى اليوم أنهم يعودون بأصلهم إلى ابن سليمان الذي أنجبته ملكة سبأ.

ويجب ذكر أسطورة أخرى تتعلق بالملك سليمان، إذ يزعم البعض أن تابوت الرب محفوظ ضمن كنوز معبد في أكسوم عاصمة الحبشة السابقة. فكيف وصل التابوت إلى هناك؟ تقول الأسطورة أن ابن سليمان وملكة سبأ سرقه وخلف مكانه آخر مزيفاً.

بهذا الزعم يكون تابوت الرب الموسوي الحقيقي، موجوداً في أكسوم ويعتبر أقدس مايملكه الأحباش ولايملك أحد من الأحياء الحق برؤيته. أما أيام عيد المشقال الذي يحتفل بمناسبة انتهاء موسم الأمطار، فيُخرج أنموذج للتابوت إلى الناس ليروه.

أصبح سليمان في نظر الشعب العبراني تجسيداً ومثلاً للحكمة، وليس ذلك بالشيء الغريب، ففترة حكمه كانت عهد الازدهار السياسي والاقتصادي لإسرائيل بل وعهد الازدهار، والقوة والطمأنينة الوحيد في تاريخ إسرائيل كله لكن في الحقيقة لم تحتفظ ذاكرة الأجيال إلاّ بالنواحي المشرقة من حكم سليمان. أما النواحي المظلمة فقد زالت من الذاكرة، في حين كان لسليمان نواح مظلمة كثيرة علينا أن نذكرها لنتمكن من رسم صورة صادقة لتلك الحقبة من الزمن.

نحن نعرف أن ايرادات كبيرة قدمت لسليمان من التجارة ومن صناعة النحاس، وبالرغم من هذا لايمكن تسميته بالمالك الغيور والبعيد النظر، فإسرافه وميله لإظهار أبهته الشرقية أديا إلى عجزه عن دفع مائة وعشرين معياراً ذهباً ديناً لأحيرام ملك صور، مما أرغمه على تعويضه عشرين مدينة في الجليل. تلك كانت خطوة مفلس وصل إلى طريق مالية مغلقة.

ونعلم من قصص التوراة أن الكنعانيين تحملوا بشكل رئيسي أعباء نفقات البناء والدفاع عن قصر الملك والقيام بأعباء الخدمة فيه. ويكفي أن نتذكر هنا أن أكثر من مائتي ألف شخص كانوا يرسلون سنوياً إلى العمل الإجباري في غابات لبنان ومقالع الحجارة في ضفة الأردن وفي ساحات العمل. إن نظام الاستعباد والبشري الفظيع ذلك لايختلف بشيء عن نظام الفراعنة في عهد بناء الأهرامات العظيمة. وإذا ماتنبهنا إلى أن عدد سكان إسرائيل في ذلك الوقت (حسب الإحصاء الذي أجراه داود)، كان مليوناً ومائتي ألف رجل. فيمكننا أن نتصور النسبة الكبيرة من السكان التي استعبدها سليمان، واستغل مجهودها العضلي في مواقع العمل.

إن ذلك الإرغام الاقتصادي لم يكن ليستمر دون أن يجر وراءه تحركات اجتماعية عميقة. فيوماً بعد يوم أخذت الهوة تزداد عمقاً بين الأثرياء والعامة الفقراء المنهكين بالضرائب والعمل الإلزامي والمجردين من الحقوق. فبدأت القاعدة في القاع الاجتماعي تتذمر. وأخذ الشعب يستاء حتى الكهنة الذين كانوا أنصاراً للملك أيام داود بدؤوا يشعرون بالتذمر. إن الأجيال اللاحقة صفحت عن سليمان لأفضاله السابقة الكبيرة، وغضت طرفها

عن عبـادتـه لآلهـة غريبـة علنـاً، وفي معبـده بأورشليم، لكن ذلك الأمر أثار غيظ وزانفعال معاصريه من الكهنة.

كانت نســاء الملك من قوميـات وديـانـات متنـوعـة، ففيهن الحثيـات والمؤ ابيـات والأدوميـات والعمـونيات والمصريات والفلسطينيات والكنعانيات وغيرهن. وقد جلبت نسوة سليمـان إلى القصـر مع عاداتهن وتقـاليدهن تماثيل آلهتهن أيضاً. فوقع سليمان خاصة في سنوات حياته الأخيرة، وتحت تأثير زوجاته، ومارس طقوساً وثنية مختلفة.

فمن المعروف مثلاً أن طقوس بعل وعشتار وملوخ كانت تمارس في معبد أورشليم، ولمـا كانت الجمـاهير الشعبية خاصة شمال البلاد تنظر بعين الاحترام إلى آلهة الكنعانيين، فإن تصرف الملك كاد يقضي على اليهوهية.

وحّد داود وسليمان جميع القبائل في دولة واحدة. لكنهما لم يستطيعا مطلقاً تحقيق وحـدة تلك القبـائـل الـروحيـة، فقد بقيت العداوة السياسية والعرقية قائمة بين قبائل شمال كنعان وقبائل جنوبه حتى أن داود، أدرك تماماً هذه العداوة بين الفريقين، مما حداه إلى أن يقـول عن سليمـان وهـو على فراش المـوت: «وإيـاه أوصيت أن يكـون رئيساً على إسرائيل ويهوذا». (سفر الملوك الأول أصحاح ١ ـ آية ٣٥).

من هذا المنطلق اخطأ سليمـان خطيئـة قاتلة، لاتليق أبـداً بشخصيـة سيـاسية كبيرة كشخصيتـه، فقـد قسم البـلاد إلى اثنتي عشـرة إدارة (أودائرة)، وفرض على كل منها تقديم المـواد التمـوينيـة لحـاجـات القصـر والجيش ومن الملاحظ أن اسم يهوذا لم يرد في قائمة الـدوائـر تلك دلالـة على أنهـا كانت معفاة من الضرائب، فهي قبيلة داود وسليمان. وماكان لمثل تلك الأفضلية إلاّ أن تولد الغضب في نفوس القبائل الأخرى، وخصوصاً قبيلة أفرايم التي طالما شكلت نداً قوياً ليهوذا في الصراع على السلطة في إسرائيل.

ومنذ حكم داود بدأ التصدع يظهر في الكيان الحكومي فعصيانا أبشالوم وشوبي لم يكـونـا في الحقيقة سوى تمرد لقبائل الشمال ضد هيمنة يهوذا وسيطرتها، وقد ناصرت تلك القبـائـل الشمـالية كلاً من إيشبوشت وأدونيا في صراعهما على السلطة ضد داود وسليمان، مما يؤكد قوة وعمق الخلافات الداخلية التي أدت في نهاية المطاف إلى انهيار الدولة.

وكَمُن خطأ سليمان الأعظم في عدم اهتمامه بتقوية الأسس التي قامت عليها دولته، فهـو بسبب قصـر نظـره وغـروره شحذ العداوة بين القبائل بجنون، مما أدى إلى كارثة بعد موته. وقد برزت بوادر تلك الكارثة قبل أن يموت وذلك عندما قامت قبيلة أفرايم بعصيان قادة

يربعـام . خسـر يوم ذاك. يربعـام الصـدام لكنـه تمكن من الهـرب إلى مصـر حيث استقبله الفـرعـون شيشنق برحـابـة صدر، وكـان ذلك إنذاراً ثانياً لسليمان لأنه أظهر له أن مصر تكن نيـات عدوانيـة تجـاهـه ، ولذلك فهي تساعد كل من يقاومه ويقف ضده . وفعلاً بعد خمس سنوات من موت سليمان دخل شيشنق يهوذا ونهب أورشليم بطريقة وحشية (حوالي ٩٢٦ ق . م).

وضعف سليمـان أمـام رزون ملك دمشق ، الـذي أعلن نفسـه ملكاً أيام داود. فرغم كثـرة مهـاجمة رزون للحدود الشمالية ونهبه لها . لم يتجرأ سليمان على تلقينه درساً رادعاً . وبعـد تفـرق إسـرائيل قويت شوكة مملكة دمشق الآرامية ، وحاربت إسرائيل لسنين عديدة . مما ساعد آشور على احتلال سورية في القرن الثامن (ق . م)، ومن ثم احتلال إسرائيل عام ٧٢٢ ق . م، وأخـذ عشـر قبـائل إسرائيلية إلى آشور . . وبعد سقوط آشور، بدأ الصراع بين المملكـة البـابليـة الجـديدة ومصر على سورية وكنعان وانتهى ذلك الصراع عام ٥٨٦ ق . م باحتلال يهوذا وتدمير أورشليم من قبل الكلدانيين بقيادة بختنصر.

نستنتج من هذه الحقائق أن حكم سليمان رغم تألقه وغناه المزعوم لم يكن بالحكم السليم ، فنتيجة لسياسته القاتلة وطغيانه ، سار ملك إسرائيل الذي هزته الخلافات الداخلية إلى حتفـه . لذلـك لانستغـرب انقسـام الـدولـة . التي أسسها داود بشق النفس إلى قسمين متصـارعين بعـد موت سليمـان مبـاشـرة . وهنـا لابد لنا من التوقف عند الاعتقاد السائد بأن سليمان هو مؤلف الامثال ونشيد الأنشاد . فالتوراة تذكر أن سليمان ألّف ألف نشيد وخمسة أناشيد وثلاثة آلاف مثل انعكست فيها حكمته فنشيد الأنشاد واحدة من أروع وأندر القصائد الشعـريـة الشهـوانيـة في الأدب العـالمي كله . فأبيـاتهـا الإيقـاعية الرائعة الملتهبة بحرارة الاستعارات والتشابيه غير المألوفة ، تأسر النفس بحساسيتها وارهافها المحض ، لذلك ليس مستغـربـاً أن تصبـح بالنسبة لأجيال عديدة من الشعراء والفنانين والموسيقيين . مصدر الهام روحي لاينضب وكأساً طافحاً بعصير الشعر الساحر.

لنقرأ كيف يصف بطل القصيدة الشاب محبوبته :

«ماأجملكِ وما أحلاكِ
أيتها الحبيبة باللذات
قامتك هذه شبيهة بالنخلة

وثدياك بالعناقيد
قلت إني أصعد الى النخلة
وأمسك بعذوقها
وتكون ثدياك كعناقيد الكرم
ورائحة أنفك كالتفاح»
أما الفتاة فتصف محبوبها قائلة:
«رأسه ذهب ابريز
قُصَصُه مسترسلة
حالكة كالغراب
عيناه كالحمام
على مجاري المياه...
خدّاه كخميلة الطيب
وأتلام رياحين ذكية
شفتاه سوسن
تقطران مُرّاً رائعاً
يداه حلقتان من ذهب
مرصعتان بالزبرجد
بطنه عاج أبيض
مُغلّف بالياقوت الازرق
ساقاه عمودا رخام
مؤسستان على قاعدتين من إبريز..»
كما يضم النشيد وصفاً للطبيعة رائعاً، هاكم مثالاً عن وصف مشهد ربيعي على هضبة الكرمل:
«... لأن الشتاء قد مضى
والمطر مَرّ وزال
الزهور ظهرت في الأرض
بَلَغ أوان القَضْب

وصوت اليمامة سُمع في أرضنا
التينة أخرجت فجّها
الكروم تفيح رائحتها الزكية
قومي ياحبيبتي ياجميلتي، وتعالي . . »

إن هذه العواطف الغرامية الصريحة، تدور حول موضوع رئيسي يذكر بالأناشيد الرعوية القديمة، فالملك مغرم بفتاة ريفية بسيطة اسمها شولميت، ضمها إلى حريمه عنوة، لكنه لم يستطع كسب ودها وجذبها إليه، فقد بقيت الفتاة مخلصة لمحبوبها الراعي، وهو أحد ابناء قريتها.

وعلى الرغم من حياة القصر الناعمة، ومن اهتمام سليمان بشولميت، وحبه لها، استمرت شولميت تحن للأيام الخوالي السعيدة، حيث كانت ترعى الغنم في الجبال مع حبيبها. وفي الليالي طالما حلمت شولميت بحضن حبيبها الدافيء الأمين. وفي النهاية ينتصر الحب ويلتقي الحبيبان.

إن مصير هذه القصيدة التي تعتبر من عيون الشعر الغنائي الغرامي مصير مدهش فمجرد وجودها بين أسفار العهد القديم التعليمية الدينية يبعث الاستغراب في النفس. فبأي شكل اعتبرت من المؤلفات الدينية قصيدة مفعمة بشعور ذي معنى واحد لاثاني له؟ لم يستطع العلماء الإجابة بشكل نهائي على هذا السؤال.

ويبدو أن واضعي التوراة أدخلوها في «الكتاب المقدس» لقناعتهم ان سليمان مؤلفها فعلاً. لقد جعل سليمان الذي بنى معبد أورشليم مثالاً أعلى، بل ونزوة فيها لدرجة يصبح فيها الزعم بأنه مؤلف القصيدة ضرباً من ضروب التجديف الواضحة. وبالتالي فكر مؤلفو التوراة أنه لامكان في نشيد الأنشاد لأحاسيس غرامية، فأحاسيسه دينية صرفة، وإذا ما أعطاه المؤلف شكل الشعر الغرامي، فإنه قصد بذلك جعلها أكثر وضوحاً وقبولاً عند أبناء عقيدته.

ولكن لم يكن الجميع مقتنعين بمثل هذا التعليل والشرح. وليس من قبيل الصدفة أن يدعو أحد أشهر الحاخامات الإسرائيليين (عام ٥٠ ـ ١٣٥ ميلادية) الشعب إلى عدم تدنيس نشيد الأنشاد وعدم غنائه في الحانات. لقد برز السؤال عن صحة ضم هذه القصيدة إلى التعاليم الدينية مرات عديدة في الماضي. لكن التقليد انتصر مع مرور الزمن. فدخل نشيد الأنشاد الأدب والفن العبريين، وصار ينشد في أول أيام الفصح، ويقرأ كمأساة صوفية مقسمة إلى مناجاة ومحاورات وأدوار لكورس زاعمين بذلك، أنها تعبر عن التغيرات

المتسلسلة لعلاقة الإسرائيليين بربهم يهوه، من لحظة خروجهم من مصر وحتى ذلك الوقت، الذي سيتخلصون فيه من عذاب الأرض ويتحدون مع الرب.

في القرن الثالث للميلاد يدخل نشيد الأنشاد منتصراً عتبة الكنيسة الكاثوليكية. لكن مع تغيير بالتفسير طبعاً. فالحبيب هو نفسه يسوع المسيح والحبيبة الكنيسة أو الروح المسيحية ويتقمص الملائكة والأنبياء والشيوخ شخصيات أصدقاء الثنائي المغرم في الكورس طبعاً.

لكن الشكوك حول صبغة القصيدة الدينية عادت تظهر إلى الوجود في القرن الخامس الميلادي، فالبعض اعتبر مثلاً أن سليمان كتبها دفاعاً عن إحدى زوجاته وبالتحديد المصرية السمراء بنت فرعون التي لم يتقبلها الشعب في أورشليم بسبب لونها.

لكن بسبب تعصب الكنيسة وعذابها القاسي الذي كانت تمارسه ضد أتباعها المخالفين لها بالرأي لم يستطع الباحثون نقد نشيد الأنشاد إلا في القرن الثامن عشر. غير أنه لم يخطر ببال أحد آنذاك التشكيك بتأليف سليمان له بل على العكس تاه الجميع في تخمين لمن من زوجات وعشيقات سليمان كُتبت هذه القصيدة؟. من هي شولميت تلك؟ فصاروا يقولون تارة بأنها ابنة الملك أحيرام ويزعمون أن سليمان التقاها أول مرة على جبل الكرمل. وتارة هي الأميرة المصرية وأحياناً ملكة سبأ، وأخيراً أبيشبح الشونمية التي احضرت لداود لتدفئه. وقد وجدت كل التخمينات بسبب صبغتها الرومنسية أنصاراً لها، وبشكل خاص بين الكتاب والرسامين.

لكن هذه الفرضيات دُحضت عام ١٨٣٧ م، وكان داحضها القنصل البروسي في دمشق فيتزشتاين، فقد تنبّه عند مشاهدته لطقوس الأعراس عند الفلاحين السوريين إلى التشابه المدهش بين أغاني تلك الأعراس، وبين نشيد الأنشاد التوراتي، فإليكم ماكتبه فيتزشتاين في مذكراته:

«إن أفضل أيام حياة الفلاح السوري هو الأسبوع الأول بعد العرس إذ يمثل العروسان ملكاً وملكة ويخدمهما كل سكان القرية. يقيم السوريون أعراسهم بشكل رئيسي في شهر آذار أفضل أشهر السنة، فموسم المطر يكون قد انتهى والشمس لاتحرق بأشعتها، كما في الأشهر اللاحقة ويقام العرس في الهواء الطلق على بيدر مليء بأنواع الزهور.

يجلس العروسان في مكان مرتفع مخصص لهما، ويرقص الحضور حولهما ويغنون. إما فرادى أو مجتمعين وتنصبّ أغاني العرس على وصف الجمال الجسدي

للعـروسين. ولايقـوم العـروسـان في الأسبوع الأول للعرس بأي عمل، يجلسان فقط على عرشهمـا بلبـاس العـرس، وينصتـان إلى الأغـاني ويشاهدان مسابقات الرجال في الخفة. بينما يقوم الضيوف الحضور على خدمتها. ومن وقت لآخر ترقص العروس كي تجلب انتباه العريس لجمالها».

لقد توصل العلماء. عن طريق المقارنة إلى أن نشيد الأنشاد ليس إلا مجموعة أغان شعبيـة إسـرائيليـة كانت تغنى في الأعـراس، مثل هذه الأغاني توجد في فلكلور أي شعب آخـر. وتـرتبـط عادة بتصرفات تقليدية محددة فتكون بذلك لوحة متكاملة. إن هذه الاغاني معروفة ومنتشرة في الشرق الأوسط منذ القديم.

ويبين فتـزشتـاين على أنهـا مازالت معـروفـة حتى أيامنا هذه، فالفلاحون السوريون مازالوا يغنونها في أعراسهم حتى يومنا هذا.

أما عن مدى تعمق جذورهذه الأغاني في التاريخ، فقد عرفنا ذلك عندما حلت رموز ألـواح مابين النهـرين المسمـاريـة، فقد وجد العلماء قصيدتين شهوانيتين تمثلان دون شك مثيلات لتلك التي غنتها العروس لعريسها الملك. وحسب التقليد السومري: على الملك أن يتزوج كل عام من واحدة من كاهنات آلهة الحب عنانة كي يؤمن لبلده محصولاً جيداً. والأغنيـة التي تغنيهـا العـروس في هذه الحـالـة تشبـه إلى حد بعيـد، بعض مقـاطـع نشيد الأنشاد. هاكم على سبيل المثال إحدى رباعيات تلك الأغنية:

«حبيبي، ياحبيب القلب
جمالك حلو كالعسل
أيها الأسد، ياحبيب القلب
جمالك حلو كالعسل..»

ينفي أصـل نشيـد الأنشـاد الفـولكلوري الزعم بتأليف سليمان له. وبالتالي يدحض المـزاعم التـوراتيـة في هذا المجـال. وقـد أثبت العلم الحـديث. بشكل قاطع صحة هذا الاستنتاج إذ برهن التحليل اللغوي لنشيد الأنشاد على أنه مصاغ بلغة أحدث بعدة قرون من اللغة العبرية التي سادت في عهد سليمان، فالكثير من الشوائب الآرامية والهلينية، الداخلة في نص النشيـد تثبت بشكـل قاطـع أنه، كتب بعد السبي البابلي أي بعد عام ٥٣٢ ق.م، حيث كانت فلسطين تحت تأثير إغريقي كبير.

وقد دحضت الاكتشافات الأثرية في مصر وسورية ومابين النهرين، المزاعم التوراتية القائلة بأن سفر الأمثال من تأليف سليمان أيضاً. تذكر التوراة أن سليمان تخطى حكمة مصر كلهـا وأعتلى عليهـا وسبقهـا بدرجـات. ولم يفهم مغـزى هذه الجملة إلا بعـد فك رمـوز الهيروغليفية المصرية. فقد تبين أن شهرة المصريين كإناس شديدي الحكمة لم تأت عبثاً، وأن لهـا أسـاسـاً تاريخيـاً متينـاً. ففي فتـرة حكم الأسـرة الخـامسـة (حـوالي ٢٤٥٠ - ٢٣١٥ ق.م)، قام بتـاح حوتب أحـد القـادة المصـريين بوضع مجموعة نصائح قيمة وغنية حقاً، إذ كان عمر المؤلف عند وضعه للمجموعة مائة وعشر سنين. وأشهر من مجموعة بتاح حوتب للأمثـال، توجـد مجمـوعـة المواعظ، التي وصفها الحكيم المصري أمنحمات في القـرن السـادس عشـر (ق.م). لقـد عرفنـا من خلال الألـواح المسمـاريـة إن مثـل تلك المجمـوعـات كانت معـروفـة عنـد السـومريين والآشوريين والكلدانيين. وعند موازنة تلك المـواد مع سفـر الأمثـال التـوراتي تبين أن سفـر الأمثال يحتوي أشياء كثيرة جداً مسروقة من المجموعات المذكورة أعلاه، والتي هي أقدم بكثير من التوراة، بل ويوجد في سفر الأمثال الكثيـر من المعـاني والجمـل المسـروقـة حرفياً من الكتب القديمة. لكن هذا لايعني خلو السفـر من أيـة أمثـال إسـرائيليـة محضـة. غيـر أن معظم محتـويات ذلك السفر ذات أصل أجنبي، وعلى مايبـدو فإن تلك الأمثـال انتشـرت في الشـرق الأوسـط كله، وبـالتـالي فقد وصلت إلى كنعـان أيضـاً فتقبلهـا الشعب الإسـرائيلي على أنهـا خاصـة به ثم ربطها لاحقاً بحكمة سليمان بل وجعل من سليمان مؤلفاً لها.

إســرائيل ويهـــوذا

كيف افترقت طرق اسرائيل ويهوذا؟

تمتـع نسـل داود بشعبيـة كبيـرة في يهـوذا، لذلـك اعتلى رحبعـام بن سليمان عرش أورشليم دون صعـوبـات. لكن الحاكم الجديد اضطر للسير إلى شكيم ليحصل على تأييد القبـائـل الشمالية لاعتلائه العرش. هناك كانت ظواهر الأمور تدل على أن كل شيء سيسير بلا عقبـات. فالشمـال مستعـد للخضـوع لسلطـة السـلالـة اليهودية. لكنه طالب بتخفيف الإرهـاق الضـريبي الـذي يعـاني منـه، والمفروض من قبل سليمان. عين الشماليون زعيم العصيـان يربعـام (الـذي عاد من مصـر بذهب كثيـر هديـة من فرعـون) وكيـلاً لهم مطلق الصـلاحيـات، وقـد لمـح الشمـاليـون للملك الشاب بتعيينهم ليربعام مندوباً عنهم، أنهم سيعودون إلى القتال والعصيان، إذا لم تُحقق مطالبهم. وفي مجلس الشيوخ طالب يربعام الملك قائلاً: أن أباك قسّى نيرنا، وأما أنت فخفّف الآن من عبودية أبيك القاسية، ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك».

طلب رحبعـام مهلة ثلاثـة أيـام للتفكيـر والاستشـارة. وبالفعل استشار المقربين إليه فنصحه مستشارو سليمان المقربين بتلبية طلب الشماليين. لكن رحبعام فضل الأخذ برأي اصدقائه الشباب الذين كانوا يقاربونه بالعمر، فاستغلوا في شخصه الغرور بنفسه، ونصحوه رفض الاستجـابـة للشمـاليين، فوقف الملك الشـاب بعـد ثلاثـة أيـام في اجتمـاع ممثلي القبـائـل، وقـال بحـزم وصـرامـة: «أبي حملكم نيراً ثقيلاً وأنا أزيد على نيركم، أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤ دبكم بالعقارب».

فرفض الإسـرائيليـون الإعتـراف بالملك وغـادروا شكيم . لكن رحبعام لم يعِ حتى ذلـك الـوقت خطورة الوضع ، وقرر إخضاع الشماليين بالقوة ، كما زاد الطين بله تعيينه على رأس الحملة التأديبيـة التي قرر القيـام بهـا أدورام جابي الضرائب المكروه الذي كان اسمه يبعث الـرعب في النفـوس أيـام سليمـان . لكن القبـائـل الشمـالية حطمت جيش الملك ، وقتلت أدورام . فما كان من رحبعام إلا أن ركب عربته وحث الخطى نحو أورشليم ليختبيء فيهـا ، وظهـرت نتـائـج تلك السياسة الخاطئة بسرعة ، فقد انفصلت عشر قبائل شمالية عن يهوذا ، ونُصب يربعام ملكاً عليها .

هكـذا انقسمت مملكـة داود وسليمان إلى مملكتين ضعيفتين متصارعتين : إسرائيل ويهوذا . لم يقبل رحبعام العنيد بالأمر الواقع مطلقاً ، وجمع جيشاً كبيراً ، وعزم على التحرك به نحـو الشمـال ليصفي حسـابه مع الشماليين العصاة . لكن أشعيا النبي ذا الشهرة الواسعة والتأثير الكبير في أورشليم تدخل بالأمر . فقد لعن باسم يهوه حرب الاخوة ، ودعا الملك إلى الامتنـاع عن القيـام بمشـروعـه الغبي ، وبهـذه الطـريقة أوقفت الحرب الأهلية . لكن هذا لايعني أبداً أن الوفاق قد عم بين الدولتين المتنازعتين ، فقد استمرت العدواة بينهما عشرات السنين على شكل مؤامرات وحوادث حدودية ، وفي النهاية تحول كل هذا إلى حرب حقيقية .

مضى على زمن انقسـام إسـرائيـل خمس سنوات . تأكد خلالها شيشنق فرعون مصر من أن الخـلافـات والصـدامات قد أضعفت الدولتين المتنازعتين كثيراً فهاجم كنعان ونهب يهوذا وقسماً من إسرائيل . ولم يغادر إلا بفدية كبيرة دفعها له رحبعام وهي كنز معبد أورشليم وكنز القصر الملكي ، فماتت روعة منشآت سليمان بعد عشرين عاماً من بنائها . ففي المعبد حيث كان يلمع الذهب لم يبق إلا الجدران العارية ، كما نقلت إلى مصر دروع بيت (الغابة اللبنانية) الذهبية . فأمر رحبعام بصنع دروع نحاسية عوضاً عنها آملاً بتغطية سقوطه ببريقها الكاذب .

إسرائيل تعبد العجل الذهبي

جعـل يربعـام من شكيم في البـدايـة عاصمـة له ، لكنـه نقـل مقـره إلى فنوئيل وراء الأردن ، وذلك لخوفه من هجمات شيشنق ثم انتهى به المطاف إلى الإقامة في تِرصَه .

وقــد عانت إســرائيـل من عدم وجـود مركـز ديني . فكهنـة يهـوه رحلوا إلى أورشليم والمؤمنون تابعوا رحلات الحج إلى معبد سليمان ، حيث يوجد أقدس عنصر في طقوسهم الـدينيـة ـ تابوت الرب ـ ، انزعج يربعام كثيراً من زيارات الحج إلى الدولة المعادية ، وانتابه الخـوف من مطـالبـة شعبه يوماً بإعادة الوحدة مع قبائل يهوذا ، كما كان الوضع من زمن داود وسليمـان . وليتجنب الخطـر قرر الانفصـال دينياً أيضاً عن أورشليم . لذلك بنى معبدين في بيت إيـل ودان ، وجعل لهما عجلين ذهبيين يشبهان العجلين المـوجـودين عنـد قاعـدة عرش يهوه ، وشكـل كذلـك نقابة للكهنة ، ووضع طقوسه وأعياده الدينية الخاصة ، فكانت تلك ردة دينيـة محضـة ومـرتبطـة بالـوثنيـة ، ولاقت استنكـاراً كبـيراً في صفـوف اليهوهيين ، وكان أشد الممتعضين منها النبي أشعيا الذي ساعد بشعبيته يربعام ، في الوصول الى السلطة .

وفي أحد الأيام حين أشعل يربعام بخوراً للعجل الذهبي في بيت إيل ظهر له أشعيا ، وأطلق لعنـة انشق لهـا المـذبح . فأشار الملك الغاضب بيده للقبض على النبي المتطاول . لكن يده التي رفعهـا على الـرجـل القـديس يبست . هدأ يربعـام من غضبـه سريعـاً ، وراح يستعطف أشعيا ليعيد اليه عافيته ، وقد دعاه أشعيا إلى العودة للدين الحق . لكن يربعام .لم يتغظ (رغم أن أشعيا لبى له رجاءه له بمساعدة يهوه) من تلك الحادثة ، وتابع نشر الوثنية في صفـوف شعبـه ، لذا غادر أشعيـا إلى شيلوه حيث عاش في عزلـة تامـة . وكـان آنـذاك هرماً وأعمى ، وتأثر كثيراً ليأسه ، ممن جعله ملكاً آملاً منه أن يخدم موسى بإخلاص .

خلال حكم يربعام في ترصه مرض ابنه المحبوب أبيا ، فقال يربعام لزوجته : «قومي غيـري شكلك حتى لايعلمـوا أنـك امرأة يربعام واذهبي إلى شيلوه . هوذا هناك أشعيا النبي الـذي قال عني اني أملك على هذا الشعب ، وخـذي بيـدك عشرة أرغفة وكعكاً وجرة عسل وسيـري إليـه وهـو يخبـرك ماذا يكـون للغـلام» . لكن النبي عرف امـرأة الملك رغم فقدانه بصره . وبلسانه تكلم يهوه معاتباً يربعام على نصبه تماثيل لآلهة غريبة ، ومن ثم صرح لها : «لـذلـك هاأنـذا جالب شراً على بيت يربعـام ، واقطـع ليـربعـام كل بائل بحائط ، محجوزاً ومطلقاً في إسرائيل وأنزع آخر بيت يربعام ، كما يُنزع البعر حتى يفنى . مَن مات ليربعام في المـدينـة تأكله الكـلاب ، ومَن مات في الحقل تأكله طيور السماء ، لأن الرب تكلم . وأنت فقومي ، وانطلقي إلى بيتك ، وعند دخول رجليك المدينة يموت الولد» .

عادت المرأة مذعورة إلى ترصه . ولما دخلت عتبة بيتها مات ابنها على يديها فجأة .

ملك يربعام اثنين وعشرين عاماً . وبعد موته اعتلى العرش ابنه ناداب .

ماذا جرى آنذاك في يهوذا؟

ملك رحبعام بن سليمان سبع عشرة سنة في يهوذا، ولم يكن حكمه مفيداً لديانة يهوه. فعدا عن سرقة شيشنق فرعون مصر لمعبد سليمان. تحول رحبعام تحت تأثير أمه نعمة العمونية إلى الوثنية. وصار شعبه يعبد الآلهة الغريبة في كل مكان من البلاد، على التلال وتحت الأشجار المقدسة. كما استمرت الصدامات المسلحة بين رحبعام وإسرائيل. وليحمي نفسه من هجمات يربعام، عزز مدنه الحدودية وعين ثمانية وعشرين ولداً من أولاده قادة لحاميات تلك المدن. ولم يبق في أورشليم سوى ابنه أبيام الذي جعل منه وريثاً له.

حكم أبيام ذاك ثلاث سنين فقط، اتبع خلالها خطوات أبيه وأمه معكه، في النواحي الدينية، ولم يصارع ضد الوثنية، لكنه كان سياسياً وقائداً عسكرياً نشيطاً. وليحظى بأفضلية على إسرائيل وقع اتفاقاً مع ملك دمشق، وسار على جيش ضخم قاصداً يربعام، وانتهت المعركة، وراح ضحيتها خمسمائة ألف إسرائيلي بنصر ساحق لأبيام، دخل بعده بيت إيل وغيرها، من المدن الشمالية، ونهب كل ما وقع تحت يده وأخذ الكثير من الأسرى، وعاد بعد ذلك إلى أورشليم، واتخذ لنفسه أربع عشرة امرأة، ولدن له اثنين وعشرين ولداً وست عشرة بنتاً.

خلف أبيام ابنه آسا على العرش، وملك واحداً وأربعين عاماً، وتميز آسا عن أسلافه بأنه يهوهي محض وعدو شديد للوثنية، فقام بعزل جدته معكه عن السلطة لإدخالها طقوس عشتار إلى يهوذا، ونصبت في معبد أورشليم جذمور شجرة رمزاً لعشتار. كما أمر آسا بحرق الجذمور في سهل قدرون ونزع التماثيل من التلال ومن تحت الشجر، وطرد من البلاد الغرباء الذين عبدوا آلهة غريبة، وسعى إلى تحقيق مركزيه لطقوس يهوه في معبد أورشليم. وراح يجمع الكنوز من جديد ليعيد للمبعد مجده المنطفيء غير أنه لم يكن من السهل اجتذاب فلاحي ورعاة يهوذا إلى العاصمة. لذلك حافظ أولئك على أماكنهم المقدسة على الجبال وفي الغابات، واستمروا في تقديم القرابين ليهوه هناك.

صد آسا بنجاح غارات قبائل البدو الجنوبيين، ووقّع اتفاقاً مع ملك دمشق ليجعل إسرائيل بين فكي مقص، ولما عاتبه النبي حناني على ذلك الاتفاق الذي يهدد عقيدة موسى، أودعه آسا السجن لكنه في أواخر عمره تفهم الخطر المحدق بالقبائل العبرية نتيجة ازدياد قوة سورية، وحاول التقرب من إسرائيل وإصلاح ذات البين معها.

ملك بعده ابنه يهوشافاط واحداً وعشرين عاماً. وكان يهوهياً مثل أبيه، وسلك نفس مسلكه السياسي فاستطاع أن يوقع اتفاق سلام قصير الأمد مع إسرائيل، وذلك بأن زوج ابنه يهورام من ابنة آخاب ملك إسرائيل العظيم.

عمري ـ الملك الإسرائيلي العظيم

ملك ناداب بن يربعام سنتين فقط. فخلال محاصرته لجبثون الفلسطينية، غدر به وقتله بعشا وهو من قبيلة يساكر، وقد قضى قاتل الملك على الأسرة المالكة كلها منهياً بذلك سلالة يربعام ومتسلطاً على العرش.

اشتهر بعشا بالدبلوماسية وبالشجاعة في الحرب. ووقّع اتفاقاً مع بنحَدَد، ملك دمشق الآرامي. وبدأ الحرب ضد يهوذا، وتمكن من احتلال مدينة الرامه. لكن آسا ملك يهوذا، انتصر عليه بالحيلة حين اجتذب إلى جانبه بالهدايا الثمينة ملك دمشق بنحدد، الذي بدوره نقض الاتفاق مع بعشا وهاجم إسرائيل، فاضطر بعشا أن يهرب للشمال.

ملك بعشا الطاغية قاتل الملك أربعاً وعشرين سنة مات بعدها ميتة طبيعية. أما ابنه أيلَه فبقي سنتين في العرش فقط. فأثناء وليمة كبيرة في ترصه، التي جعلها عاصمة له شرب أيله الخمر حتى الثمالة. فدخل رئيس نصف مركباته زمري، وقتل الملك وجميع عائلته. وبذلك تكون السلالة الإسرائيلية الثانية التي أسسها بعشا قد انتهت أيضاً.

استولى زمري على السلطة لكن الجيش لم يؤيده، فحاصر عمري قائد الجيش، ترصه بقواته، فقاومه زمري سبعة أيام، وعندما أحس بفقدان الأمل حرق قصر الملك، ومات هو نفسه في الحريق، فنصب الجيش قائده عمري ملكاً، فصار عمري بذلك مؤسس السلالة الإسرائيلية الرابعة التي بقيت السلطة بيدها خمسين عاماً، لم يوافق الإسرائيليون جميعهم في البدء على تنصيب عمري ملكاً. فقد رشح قسم من القبائل للعرش شخصاً اسمه تبني كان يلقى تأييداً واسعاً من قبيلة أفرايم ذات التأثير الكبير، واستمرت الحرب الأهلية أربع سنين، انتصر بعدها عمري، واختفى تبني نهائياً من المسرح السياسي.

قرر عمري بناء عاصمة جديدة، وصار يبحث عن الموقع المناسب لذلك، فاختار في نهاية الأمر إحدى التلال التي تُرى منها كل طرق كنعان التجارية. وفي الجو الملائم، كان

يمكن مشاهدة القوافل التجارية حتى البحر المتوسط من ذروة تلك التلة، وعدا ذلك فالدفاع عن التلة كان سهلاً، وهذا أمر مهم جداً للعاصمة، ثم اشترى عمري التلة من مالكها شامير بوزنتين من الفضة، وسمى المدينة باسمه: السامرة.

كان حكم عمري خيراً ومفيداً، وتمتع باحترام الآشوريين والمصريين، واستطاع اخضاع المؤابيين، فصاروا يدفعون له الضرائب. لكن علاقاته مع الملك السوري بنحَدَد الأول كانت سيئة، فقد احتل له بنحدد عدة مدن، وأرغمه على أن يكون للتجار السوريين حيّ خاص في السامرة، وأن يمارسوا تجارتهم بحرية.

وعلى الرغم من أن عمري كان قائداً عسكرياً مجرباً إلا أنه حاول تجنب الحروب. وكانت له علاقات جيدة مع أثبعل ملك صور، وعزز علاقاته معه بتزويج ابنه آخاب من إيزابيل أميرة صور، كما بنى علاقات لابأس بها مع ملك يهوذا، وقد قوى ابنه آخاب تلك العلاقات بتزويج ابنته من الملك يهورام حكم عمري اثني عشر عاماً، لم يحارب الوثنية خلالها. ومع هذا فله أفضال كثيرة، أعظمها بناؤه للسامرة.

النبي إيليا وإيزابيل

ملك آخاب بن عمري اثنين وعشرين عاماً، تأثر خلالها بديانة زوجته إيزابيل أميرة صور، فنبذ يهوه وجعل من عبادة بعل، دين الدولة الرسمي، وأقامت إيزابيل المخلصة لإله الفينيقيين ملقارت معبداً له في السامرة، ولاحقت كهنة يهوه وقتلتهم. فبلغ بإتباع يهوه الأمر مبلغاً اضطروا معه إلى كتمان انتمائهم الديني. وكان عوبيديا القائم على بيت آخاب واحداً من أتباع يهوه المتسترين، فساعد مائة نبي من أتباع يهوه على الهرب من الملاحقة والاختباء في مغارة قرب السامرة، وصار يزودهم بالماء والطعام، وحدث أن قَدِم النبي إيليا إلى آخاب، وإيليا هذا من جلعاد. تحدث معه يهوه هناك وسيره إلى آخاب. وقف إيليا بين يدي الملك بلباس ناسك متواضع متمنطقاً بحبل، وعاتبه بقسوة على ارتداده الديني، وتنبأ له بكارثة ستحل بالبلاد، وأنه سيكون جفاف وجوع «حي هو الرب إله إسرائيل الذي وقفت أمامه ـ قال إيليا ـ إنه لايكون طل ولامطر في هذه السنين إلا عند قولي».

بعد تلك النبوءة هرب إيليا من العاصمة خوفاً من الانتقام، واختبأ في الجبال وراء الأردن، ولم تكن تلك المنطقة التي اختبأ فيها مأهولة. لكن إيليا لم يعان من الجوع إذ أن

الغربان كانت تجلب له الخبز واللحم مرتين يومياً. وأما الماء فيحصل عليه من نهر كريت.
حل الجفاف الذي تنبأ به إيليا، وانقطعت الأمطار وجف نهر كريت تماماً، فانتقل إيليا إلى مدينة صرفه قرب صيدون وهناك آوته امرأة وهي أرملة فقيرة تقاسمت معه طعامها الفقير. لكن معجزة وقعت: لم ينقص الدقيق في البرميل ولا الزيت في الإناء عند الأرملة طيلة بقاء النبي عندها. وأصابت العجوز مصيبة، فقد مرض ابنها، ومات فأخذ إيليا الولد الميت إلى غرفته ووضعه على فراشه ورجا يهوه إعادته إلى الحياة، تقبل يهوه رجاء النبي ودعوته، فعاش الولد من جديد. ولما رأت الأرملة ذلك صاحت من فرط سعادتها: «هذا الوقت علمت إنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حقاً».

ضرب الجوع إسرائيل ثلاث سنوات، فبلغ خلالها السيل الزبى عند آخاب. لذلك وافق على لقاء إيليا وإجراء اختبار يثبت به أي الإلهين أحق - يهوه أم بعل - فاجتمع على جبل الكرمل أربعمائة وخمسون نبياً لبعل كانت تعيلهم الملكة إيزابيل. أما من جانب يهوه فكان إيليا وحيداً. انتظرت جموع الإسرائيليين والكنعانيين بفارغ الصبر نتيجة التجربة أو المبارزة من أجل السيطرة على أرواحهم وتفكيرهم. اقترح إيليا وضع ثور مذبوح على المحرقة، وأن يدعو كل من الطرفين ربه ليرسل على الثور ناراً تلتهمه من السماء، أخذ الأنبياء يرقصون حول العجل، يضربون أجسادهم بالخناجر والرماح، ويصرخون مأخوذين بنشوة الحماس «يابعل أجبنا» صار الوقت الظهيرة، ولم يحترق العجل، فنصحهم إيليا مستهزئاً: «ادعوا بصوت عال لأنه إله، لعله مستغرق أو في خلوة، أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه».

لما انتهت فترة الظهيرة أقام إيليا محرقة حفر حولها قناة، ووضع خشباً، ذبح ثوراً وأمر أن يصب الماء على المحرقة. وعندما امتلأت القناة بالماء، رفع يديه إلى السماء، ودعا يهوه أن يثبت أنه الإله الحق، فنزلت نار من السماء، والتهمت العجل وحجارة المحرقة وماء القناة. رأى الشعب المعجزة فسقط جاثياً يصرخ «الرب هو يهوه الرب هو يهوه». لم يتوقف إيليا عند ذلك بل أمر باعتقال الأنبياء الكذبة وإعدامهم عند نهر قيشون، ثم عاد إلى جبل الكرمل، وجلس على حجر ينتظر أول غيمة ممطرة تظهر فوق البحر. لم تمض إلا لحظات حتى تلبدت السماء بالغيوم، وانهمر المطر المرجو سيلاً عرمرماً.

سمعت الملكة إيزابيل بما فعله إيليا بالأنبياء، فأقسمت أن تقتص منه، فخاف من عقابها وهرب إلى يهوذا، واختبأ في الجبال. فظهر له يهوه مرة أخرى وأمره أن يسير إلى

دمشق ليمسح حزائيل ملكاً على سورية، ومسح ياهو قائد جيش آخاب ملكاً على إسرائيل.

صادف إيليا في طريقه رجلاً اسمه أليشع يحرث أرضه باثني عشر زوجاً من الثيران. أعجب النبي بأليشع وألبسه رداءه علامة ودليلاً على أنه يقبله تلميذاً لديه. اضطرب اليشع لعطف النبي المفاجيء، وقال له: «دعني أقبّل أبي وأمي وأسير وراءك». ثم ذبح ثورين وليمة لأبناء مدينته. وودع والديه، وسار وراء معلمه الجديد.

كرم عنب نابوت

خاض الملك آخاب حرباً مستمرة ضد السوريين، فقام ملك دمشق بنحدد الثاني مع اثنين وثلاثين ملكاً من أنصاره بمهاجمة إسرائيل وحاصر السامرة. لكنه انهزم وعاد إلى بلده، وبعد عام عاد إلى إسرائيل من جديد واندحر ثانية عند أفيق، ووقع في الأسر لكن آخاب أطلق سراحه بعد أن أرغمه على إعادة المدن الإسرائيلية التي احتلها أيام عمري، كما أرغمه على السماح للتجار الإسرائيليين بالتجارة الحرة في دمشق، وقد انتقد أحد أنبياء يهوه آخاب على رأفته بملك دمشق. سمحت الانتصارات العسكرية، ووضع البلد الاقتصادي لآخاب بأن يحسن عاصمته الثانية بعد السامرة ـ مدينة يزرعيل ـ فأمر بتوسيع القصر الذي بناه أبوه وتطعيمه بعاج الفيل. لهذا الغرض طلب آخاب من نابوت مالك كرم العنب الذي بجانب القصر، أن يبيعه الكرم بفضة أو يبادله بكرم في بمكان آخر. لكن نابوت رفض متذرعاً بأنه لايستطيع مفارقة ماورثه عن أبيه. فعاد آخاب إلى قصره منزعجاً، واستلقى على فراشه. لايأكل ولايحدث أحداً فقد انهار حلمه في عمل بستان جميل للقصر بسبب عناد أحد أفراد رعيته. لكن إيزابيل المرأة النشيطة الماكرة، أخذت على عاتقها كعادتها إيجاد حل ومخرج من الأزمة، فسارعت إلى زوجها قائلة: «قم كل خبزاً وليطب قلبك، أنا أعطيك كرم نابوت اليزرعيلي».

كتبت إلى بعض مخلصيها تطلب إليهم إيجاد شاهدتي زور تشهدان على خيانة نابوت للوطن. فحصل لها ما أرادت، وشنق نابوت بسبب التهمة الكاذبة، وتحول كرمه إلى أملاك الملك.

بعث تصرف إيزابيل استنكاراً صامتاً في نفوس الرعية في كل أصقاع البلاد. لكن أحداً لم يتجرأ على إعلان استنكاره سوى النبي إيليا الذي قدم إلى آخاب بأمر يهوه، وتنبأ له

بالتـالي: «هكـذا قال الـرب: هل قتلت وورثت أيضـاً؟ . . في المكـان الـذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أيضاً. . . وتكلم الرب عن إيزابيل أيضاً قائلاً: إن الكلاب تأكل إيزابيل عند مترسة يزرعيل».

أصيب آخـاب بالهلع من تلك النبـوءة، شق ثيـابـه وجعـل مسحـاً على جسـده واضطجع، رأى يهوه ندمه الصادق فقرر إبادة نسله بعد موته.

موت الملك آخاب

استمـر اتفـاق السلم مع السـوريين سنة واحدة فقط، فقد حنث ملك دمشق بوعده، ورفض إعـادة مدينـة رامـوت جلعـاد. لذلك اتفق آخاب مع ملك يهوذا يهوشافاط، وحرك الاثنـان عربـاتهمـا لمقاتلة القوات السورية، قاتل آخاب متنكراً كيلا يعرفه أحد، لكنه رغم ذلك أصيب بسهم فجرح جرحاً بليغاً. نقلوه من أرض المعركة يريدون السامرة، لكنه فارق الحياة في الطريق. أما يهوشافاط فتمكن من الهرب والعودة مع فلول قواته إلى أورشليم.

هكذا تحقق القسم الأول من نبوءة إيليا، غسل غلمان آخاب مركبته الملطخة بالدم في نبع السامرة، فلحست الكلاب دم الملك المنساب، كما لحست يوماً ما دم نابوت.

ملك أخـزيـا بن آخـاب سنتين فقط وذات يوم وقع عن شرفة قصره وأصيب بتشوهات كبيرة، فأرسـل رسـلاً إلى بعـل زبوب إله عقرون الشهير بإبرائه للمرضى يطلب مساعدته، لكن النبي إيليـا أوقف رسـل الملك في الطـريق وتنبأ بمـوت سريـع للملك، وقـذع الرسل لسعيهم إلى إلـه غريب طلبـاً للمسـاعـدة. ثم عاد الـرسل إلى السامرة، وأبلغوا الملك بما جرى لهم مع إيليا، فغضب الملك هذا أيمّا غضب، وأمر باعتقال إيليا لكن تنفيذ ذلك الأمر لم يكن سهلاً. فقد أباد النبي بنار سماوية فصيلتي جنود جاؤوا متعاقبين لاعتقاله بل وقدم بنفسـه إلى الملك بعـد ذلـك وتنبأ له بموت قريب بسبب عبادته لآلهة غريبة. وبالفعل مات أخزيا بعد مدة. واعتلى العرش بعده يهورام آخر ملك من سلالة آخاب.

رفع إيليا إلى السماء

تجول إيليا في أرض كنعان يرافقه تلميذه المخلص ـ أليشع ـ ولما وصلا نهر الأردن

ضرب إيليا بردائـه ماء النهـر على مرأى خمسين نبيـاً آخـر فانفلقت ميـاه النهـر قسمين فعبر اليابسة إلى الجهة الأخرى. وما أن وصلا الضفة الثانية للنهر حتى هبت رياح قوية، وظهرت عربة نارية تجرها خيول نارية، وامتطى إيليا العربة فصعدت به تلك إلى السماء، أما أليشع فأخذ يصرخ مندهشاً: «أبي يا أبي مركبة إسرائيل وفرسانها»، وشق ثيابه، ولما لم يتلق جواباً فلق من جديد مياه النهر برداء إيليا الذي تركه. وعاد إلى أريحا تحت تأثير المعجزة. ونصب أنبياء أريحا أليشع خليفة لإيليا.

معجزات أليشع

كان سكـان أريحـا يتـذمرون من مياهها المرة وأرضها قليلة الخصب، فأمر اليشع أن يحضـروا له كأسـاً جديـدة مليئـة بالملح، ثم صار ينتقل من نبع لآخر ليعالج مياهه بالملح، ومنذ ذلك الوقت صارت مياه أريحا عذبة وأرضها خصبة وبعد فترة من الزمن راح أليشع إلى بيت إيـل، يتميـز عن معلمـه الـذي كان يفضـل الصحـراء، بأنـه يتواجد أساساً في المدن والقرى، ولما صعد في الطريق، صادف صبياناً سخروا منه قائلين: «اصعد ياأقرع، اصعد ياأقرع». نظر أليشع إليهم ولعنهم باسم يهوه، فخرجت دُبّتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولـداً. ومن بيت إيـل ذهب أليشـع إلى جبـل الكـرمـل ومنـه إلى عاصمـة إسرائيل ـ السـامـرة ـ، وهنـاك اشتكت إليـه أرملة على مرابٍ يريد أخذ ولديها عبيداً لأنها لاتستطيع تسديد دين عليها. رأف أليشع بالمرأة المخلصة ليهوه، أمرها أن تستعير من جيرانها أكبر قدر من الأوعيـة. ولمـا أحضـرت القدر المطلوب، ملأ لها أليشع كل الأوعية زيتاً لتسدد به دينها وتعيل أسرتها.

وفي شونم قطنت امرأة متزوجة من رجل عجوز وليس لها أولاد. وكان من عادة أليشع أن يعـرج عليهـا فتحسن ضيـافته لدرجة أنها كانت تبقي له سرير نوم جاهزاً ومنضدة وفانوس في إحدى غرف بيتها وكرد للجميل تنبأ لها أليشع بأنها ستلد صبياً بعد سنة. وتحققت النبوءة فعلاً. لكن الولد مرض ومات بعد بضع سنين، فأخذه النبي وأدفأه بجسده وأعاد إليه الحياة.

صار في الجلجال جوع، اضطر معه السكان للعيش على الأعشاب والبقول. فسمع أحد المؤمنين في بعل شليشه بأن أليشع في الجلجال، ولم يرغب أن يجوع النبي فقدم اليه

حامـلاً عشـرين رغيفـاً من الخبز وكيساً من الحنطة، شكر النبي للمؤمن كرمه وطلب إليه أن يقسم ماجلبه بين مائة شخص كانوا بجواره آنذاك. فعارض القادم من بعل شليشه ذلك لأن ما أحضـره لايكفي في الـواقـع مائـة شخص، لكن المعجـزة حدثت فقـد أشبعت الأرغفـة العشرون الجمع كله، وأخذ كل من الحضور كمية من الخبز معه إلى بيته.

كيف شفى أليشع الأبرص

كان نعمـان قائـد جيش ملك سوريـة رجـلاً غنيـاً ومشهـوراً، ولكنـه أصيب بمـرض البـرص. وكـان له أمَـة إسـرائيلية الأصل أُخذت أسيرة منذ صغرها. فحين رأت الأمة شقاء سيـدهـا وتعـاستـه، حدثتـه عن نبي في السـامـرة قادر على شفائه. فطلب نعمان من ملكه السماح له بالسفر إلى السامرة والتكرم عليه برسالة إلى ملك إسرائيل. لبّى الملك السوري رغبتـه وكتب رسـالـة جاء فيهـا: «هوذا قد أرسلت إليك نعمان عبدي فاشفه من برصه». قرأ ملك إسـرائيـل الـرسـالـة، مزق ثيـابه قائلاً: «هل أنا يهوه لكي أميت وأحيي، حتى أن هذا يُرسل إلي أن أشفي رجلاً من برصه؟». فكر ملك إسرائيل أن ملك سورية يبحث عن سبب ليعلن الحـرب عليـه، لكن أليشـع سمع بما حدث مع الملك، وطلب منه إرسال المريض إليـه. فركب القـائـد السوري العزيز النفس عربته الضخمة، وقدم إلى النبي مرافقاً بحاشية كبيرة. فلم يخرج النبي للقائه كما توقع ولم يسجد أمامه بل اكتفى بإبلاغه عن طريق عبد له أن يغتسل سبع مرات في الأردن فيشفى من برصه. غضب نعمان كثيراً فهولم يعتد على مثـل هذه المعـاملة وعـدا ذلـك فإنه قد ظن أن النبي يسخر منه، فقال بغضب: «أليس أبانه وفـرفـر نهـرا دمشق أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟». ثم غادر السـامـرة غاضبـاً لكن غلمـانه أقنعوه في الطريق بتنفيذ رغبة النبي، فحوّل سيره نحو الأردن واغتسـل فيـه سبع مرات. فزال عنه المرض، وصار جسمه نظيفاً كجسم مولود جديد. رجع نعمـان إلى أليشـع عارضـاً عليـه الذهب والفضة مكافأة. لكن النبي رفض قبول أية هدايا، فوعـد نعمـان عنـدهـا ألا يعبـد بعـد ذلك اليوم إلاّ يهوه الذي أعاد إليه عافيته. ولمـا علم أنه لايمكن عبـادة يهـوه إلا على أرض إسـرائيليـة، أمـر نعمـان غلمانه بتعبئة بضعة أكياس من التراب الإسرائيلي لينثره في بيته عند محرقة يهوه كي لايُخل بتعاليم الرب.

فكـر نعمـان أيضـاً بمـا سيتـوجب عليـه كرجل دولة. إذ أن عليه أن يمارس الطقوس

الـدينيـة في معبد الإله السوري رمون، وعليه أن يسجد لهذا الإله عندما يسجد له الملك. لذلك طلب من أليشع التكفير له مسبقاً عن ذنوبه التي سيقترفها نتيجة عبادته لرمون، فباركه أليشع، وغفر له ذنوبه.

استـرق خادم أليشـع السمـع إلى حديثه مع نعمان، وقرر الحصول على المال الذي امتنع عنه أليشع ورفضه بغباء. فلحق بنعمان، وقال له أليشع يطلب منه وزنة فضة، وحلق وثيـاب لرجلين قدمـا إليـه من جبـل أفرايم فلبى السوري الطلب وأعطى الخادم وزنتي فضة بدل الـواحـدة. خبأ الخـادم ماحصـل عليه في البيت، وعاد إلى سيده لكن النبي كان يعلم بالغيب، فدعـا إليـه المخـادع، وقـال بغضب: «أهو وقت لأخذ الفضة ولأخذ ثياب وزيتون وكروم وغنم وبقر وعبيد وجوار؟ فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد»، وهكذا كان.

نهاية نسل آخاب

حكم الملك الإسـرائيلي يورام اثني عشـر عامـاً. ولم يمض وقت طويل على تسلمه السلطـة حتى اتفق مع ملك يهـوذا، وقـاد حملة عسكـرية ضد مسّه ملك مؤاب الذي عينته إسـرائيـل، وامتنـع عن دفـع الضرائب، ألحق الملكان الهزيمة بمسّه، لكنهما لم يستطيعا إرغامه على العودة لدفع الضرائب لإسرائيل.

بعـد مدة هاجم بنحـدد ملك دمشق إسـرائيـل، وحـاصـر السـامـرة. استمر الحصار طويلاً، فضرب الجوع المدينة ضربة اضطرت معها الأمهات إلى أكل أبنائهن. لكن لحسن حظ إسرائيل، انتشرت في معسكر السوريين إشاعة تقول: أن الحثيين والمصريين قادمون لنجدة إسرائيل فخاف بنحدد وفك حصار المدينة، فنجت السامرة من فناء أكيد.

مرض بنحدد بعد فترة مرضاً ثقيلاً، وكان أليشع يومها في دمشق. فأرسل الملك في طلبـه حزائيـل محمـلاً بالهـدايـا. استمـع اليشع الى حزائيل وبكى، ولما سأله حزائيل عن سبب بكـائـه أجـاب: «لأني علمت ماستفعله ببني إسـرائيـل من الشـر فإنك تطلق النار في حصـونهم وتقتـل شبانهم بالسيف وتحطم أطفالهم وتشق حواملهم». فعارضه حزائيل «ومن هو عبدك الكلب، حتى يفعل هذا الأمر العظيم؟» وهنا صرح له أليشع كعادته: «أراني الرب إياك ملكاً على آرام».

بعـد سمـاعـه لهـذه النبوءة عاد حزائيل إلى القصر، خنق ملكه بالغطاء، وأعلن نفسه

ملكاً على دمشق. فكر يورام باستغلال الانقلاب الحكومي والفوضى الناجمة عنه في دمشق كي يستعيد مدينته راموت الجلعادية التي تحتلها سورية، لكنه جرح في المعركة وعاد إلى يزرعيل للعلاج بعد أن سلم قيادة الجيش لياهو.

في يزرعيل زار أخزيا، ملك يهوذا يورام واطمأن على صحته.

حقد أنصار يهوه على يورام، لأنه ابن آخاب، ولأنه من أتباع العجل الذهبي. وعندما جُرح، قرر أليشع استغلال الفرصة وإزاحته عن العرش. لذلك أرسل أحد تلامذته المخلصين إلى راموت الجلعادية ليمسح ياهو على العرش، فقام التلميذ بتنفيذ طقس المسح على العرش قائلاً لياهو: «هكذا قال الرب إله إسرائيل، قد مسحتك ملكاً على شعب الرب إسرائيل، فتضرب بيت آخاب سيدك. وانتقم لدماء عبيدي الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابيل».

سمع جيش إسرائيل بمسح ياهو ملكاً، فانتخبه ملكاً دون أية اعتراضات. فركب الحاكم الجديد عربته، وقاد الجيش العاصي إلى يزرعيل. لم يعرف يورام شيئاً، مما حدث فاستغرب كثيراً مغادرة ياهو لراموت جلعاد وقدومه اليه. أرسل يورام رسولين لملاقاة ياهو لكنهما لم يعودا إذ حجزهما ياهو عنوة. أحس يورام بالقلق من عدم عودة الرسولين، وقام يرافقه أخزيا ملك يهوذا للقاء قائد جيشه. فاستقبله العاصون بالصراخ والشتائم. توقع عندها يورام ماحدث. وحاول الهرب لكن الطاغية أرداه قتيلاً بسهم من سهامه، وحاول أخزيا أيضاً الهرب فجرحه ياهو، لكنه تمكن من الوصول إلى مجدو حيث مات هناك. فأخذ غلمانه جسده إلى أورشليم ليدفنوه في مدفن داود.

عرفت الملكة إيزابيل أن ساعتها قد دنت، فقررت استقبال الموت بعزة نفس وشجاعة. كحلت عينيها بالإثمد وزينت شعرها ووقفت عند نافذة القصر تنتظر. ولما رأت ياهو في الطريق، رشقته بوابل من الشتائم أفقدته عقله، فأمر بالقائها من النافذة وداست الخيول جسدها الميت. بقي جسد ايزابيل طوال الليل مضرجاً بالدماء. بينما كان المتآمرون يحتفلون وراء موائد الطعام. وفي الصباح أمر ياهو بدفن ايزابيل لكن الوقت كان قد فات اذ أكلت الكلاب جسدها. وبذلك يكون القسم الثاني من نبوءة ايليا قد تحقق.

عاش لآخاب سبعون ولداً في السامرة، أمر ياهو شيوخ المدينة بإرسال رؤوسهم إليه دليلاً على خضوعهم لسلطته، خاف سكان المدينة غضب الملك فقطعوا رؤوس أبناء آخاب وأرسلوها بسلال إلى يزرعيل فأمر ياهو أن تكوم كومتين عند بوابة المدينة ليتأكد الناس

بأم أعينهم من فناء نسل آخاب. لم يسمع اخوة أخزيا الأربعون شيئاً عن الانقلاب الحكومي ولا عن موت أخيهم. فقاموا يريدون زيارة يورام فقبض عليهم ياهو وأمر بشنقهم عند بئره.

ولما قدم ياهو إلى السامرة، قام بمذبحة رهيبة قتل فيها أنصار يورام وأصدقاءه وموظفيه، ثم دعا كهنة بعل من جميع كنعان إلى العاصمة زاعماً لهم أنه يريد تقديم قربان لإلههم بمناسبة تنصيبه ملكاً. ولما اجتمع كهنة بعل في المعبد هاجمهم الجنود وذبحوهم جميعاً. أما المعبد فدنسوه وحولوه بيت خلاء، وحطموا تماثيل بعل، لكن النصر لم يكتمل إذ أن ياهو لم يبطل عبادة العجل الذهبي الذي مركزه مدينتا إيل ودان؛ لذلك امتعض الكهنة الذين أوصلوا ياهو إلى السلطة، وغضب يهوه كثيراً فسمح كعقاب لياهو، بأن يدمر حزائيل، ملك دمشق، أرض إسرائيل التي إلى شرق الأردن وينهبها.

ملك ياهو مدة ثمان وعشرين سنة، ومات بعدها تاركاً على العرش ابنه يهوآحاز، الذي ملك بدوره مدة ستة عشر عاماً.

عَثَلْيا ملكة يهوذا

كانت عثليا أم الملك اليهوذي المقتول أخزيا، ابنة إيزابيل وآخاب ولديها كأمها شكيمة قوية وإرادة عظيمة، فتحت تأثيرها سيطرت عبادة بعل تدريجياً على عبادة يهوه، وصارت رائحة قرابين الآلهة الغريبة تفوح من معبد سليمان. ويتصرف بكل حرية كهنة واتباع تلك الآلهة.

لما علمت عثليا بمقتل ابنها، قامت بانقلاب حكومي دموي، واستولت على السلطة. لقد سارت نحو كرسي العرش على الجثث، إذ قتلت كل السلالة الملكية، لكنها لم تتجرأ على قتل يهوشبع، أخت أخزيا لأنها زوجة كاهن يهوه القوي يهوياداع. ويهوشبع تلك أنقذت من الموت ابن أخزيا يوآش، ذا العام الواحد وربته في بيتها سراً. فلما بلغ الولد السابعة عشرة من عمره نظم يهوياداع مؤامرة لليهوهيين بعد أن تباحث مع قادة الجيش وأمالهم إلى جانب يوآش، ومن ثم جمع اللاويين من كل يهوذا في أورشليم، متذرعاً بالاحتفال بيوم السبت وسلحهم بأسلحة من خزينة داود. وفي اليوم المحدد - يوم السبت - احتل المتآمرون حرم المعبد، وجردوا الحرس الملكي من سلاحه، وقتلوا كل من حاول

دخول المعبد، ثم جاء يهوياداع بميوآش ومسحه على العرش، وألبسه تاج الملك، فصاح الشعب «ليحيى الملك».

سمعت عثليا صوت الشعب فظنت أن شيئاً غير عادي يحدث في المعبد، تركت القصر وأسرعت إلى المعبد، فرأت يوآش بتاج الملك على العرش، فصرخت مذعورة «خيانة! خيانة» أمر يهوياداع بإبعادها خارج المعبد وقتلها.

سير يهوياداع الكاهن الأعلى أمور الدولة حتى بلغ يوآش السن القانونية، وبفضله انتصر أتباع يهوه من جديد، وطهروا معبد أورشليم من آثار الوثنية، وحطموا محرقة بعل وطردوا كهنته. فتأثر المعبد بذلك وصار بحاجة لترميم إضافة لذلك بدأت جدرانه تتشقق وتنهار. ولما كانت عملية الترميم وإعادة المعبد لسابق عهده مكلفة جداً، فقد دعا يوآش السكان إلى التبرع بما لديهم ووضع صندوقاً كبيراً للتبرعات عند باب المعبد. استمر جمع التبرعات ثلاثة وعشرين عاماً. لكن لم يكن بالإمكان البدء بالترميم، لأن الكهنة كانوا يسرقون التبرعات، أخيراً نفد صبر الملك وأوكل الى كاتبه مراقبة التبرعات، فصار كل شيء يُحصى بحضوره وحضور الكاهن الأعلى. وبعد مدة أصبح بالإمكان البدء بالترميم.

مات الكاهن الأعلى يهوياداع عن مائة وثلاثين سنة. وبعد موته وتحت تأثير مشاهير قادة يهوذا، ارتد يوآش عن يهوه وبدأ يعبد بعل. ولما عاتبه الكاهن زكريا بن يهوياداع على ذلك، أمر يوآش بشنقه لذلك قرر يهوه معاقبته، فهاجم حزائيل ملك دمشق يهوذا ونهبها وقتل سكانها، وأدت الخسائر العسكرية إلى تذمر الشعب من يوآش كما إن هذا الأخير أصيب بمرض خطير، فاستغل كهنة يهوه الذين لم ينسوا قتل الملك لزكريا، استغلوا الوضع وقاموا بانقلاب على يوآش، فقتل هذا بيد غلمانه.

غروب وانحطاط إسرائيل

اتسمت العلاقات بين ياهو وملك دمشق حزائيل بالسوء والعدوانية. لذلك أيّد ياهو، شلما نصر الثالث ملك آشور، عندما هاجم هذا دمشق، لكن آشور سرعان ما أنهكت وأضعفت بالمشكلات الداخلية، مما اضطرها إلى وقف حملتها العسكرية ضد دمشق، فاستغل حزائيل ذلك لينتقم من ياهو. فقام بعدة حملات ضده نجح خلالها باحتلال أراضي إسرائيل التي وراء الأردن. فنقّص بذلك مساحة إسرائيل بمقدار الثلث. انتهت فترة حكم

ياهـو بالخسـارة وضعف الـدولـة فاضطـر ابنـه يهـوآحـاز، الذي حكم سبعة عشر عاماً، إلى الإعتراف بهيمنة دمشق وانتهى بذلك وجود الجيش الإسرائيلي، فدمشق لم تسمح ليهوآحاز إلاّ بعشرة آلاف من المشاة وعشر مركبات وخمسين فارساً، وصارت بذلك الدولة دون مدافع ولا دفـاع ونهبهـا حزائيـل مدنـاً وقرى. وقد سمح انحطاط إسرائيل بقيام حزائيل بشن حملة ضد الفلسطينيين ويهوذا، فاحتل هذا مدينة جت الفلسطينية وحاصر أورشليم، لكن حزائيل فك الحصار عندما دفع له ملك يهوذا، يوآش، فدية هائلة ذهباً وفضة.

اعتلى عرش إسـرائيـل يوآش بن يهوآحاز، القائد العسكري القدير والحاكم النشيط، وقـامت آشـور في عهـده بهجـوم آخـر على دمشق وألحقت بها خسائر كبيرة، فاستغل يوآش ضعف عدوه التقليدي، واسترجع الأراضي التي احتلتها دمشق في عهد أبيه، ثم شن حملةً على يهوذا فانتصر ونهب أورشليم، وبعد أن دمر سورها نصّب أمصيا عاملاً له على يهوذا، وعاد إلى السامرة.

أتاح ضعف دمشق والمشكلات الداخلية في آشور لكنعان الفرصة لالتقاط أنفاسها، ففي عهد يربعام الثاني استيقظت إسرائيل من سباتها، وحصل فيها تطور اقتصادي كبير يشبه إلى حد كبيـر التطـور الذي حصل في عهد سليمان، فنشطت التجارة الخارجية من جديد، وتشكلت طبقة من الأثرياء، وكبرت السامرة وتوسعت. لكن ذلك العهد الزاهي لايخلو من النـواحي القـاتمـة إذ حلت الملكيـات الكبيـرة مكـان الملكيـات الصغيـرة، وصـار العبيـد والفـلاحـون المحـرومـون من الأرض يعملون عند الملاكين، وفي الوقت الذي صارت فيه القلة تعيش بعظمـة وغنى كان الشعب يعـاني من الفقر والظلم. لم يرأف الأغنياء بالفقراء، فاستعبـدوهم استيفـاء للديـون، وبـاعـوهم المـواد الضـرورية بأسعار باهظة، واستغلوهم بطريقة وحشية، كما ألقي بكل ثقل تمويل الجيش على الجموع الشعبية، في الوقت الذي تابع فيه ملاّك الأراضي وموظفو الدولة تجميع الأموال والثروات.

عاش في تلك الأيام راع في تقوع قرب بيت لحم، وكان اسمه عاموس قضى عاموس ذاك معظم أيامه في الجبال، أحب الطبيعة من كل قلبه وكان شريفاً ومتواضعاً، وفي إحدى الليـالي رأى حلمـاً، إذ ظهـر له يهـوه وأمـره بتصحيح العالم وتقويمه، فحمل عاموس عصاه واتجه إلى السامرة مدينة الدعارة والفوضى التي هزت أعصابه لما وصل إليها، نظر عاموس إلى النسـاء المتـزينات وإلى الشباب العراة المترفين وإلى القادة القساة وإلى فخامة البيوت والقصـور، فتألم للشعب الـذي يعيش على حافـة الفقر والموت. فذهب فوراً إلى بيت إيل

ـ المركز الديني لإسرائيل ـ ووقف أمام المعبد الذي يقف فيه رب موسى على شكل عجل ذهبي، وبدأ طريق نُبوته، وصار السكان والحجاج يستمعون باستغراب إلى الخطابات الحماسية التي يلقيها الراعي القادم من الجبال البعيدة، فخطاباته ذات لغة فظة حادة مليئة بالتشابيه البيانية التي كان أبطالها الطيور والدببة والأسود والأفاعي. كانت نظرته نظرة إنسان جبلي نقية ولديه قناعة تامة بأنه يحمل للناس كلمة الرب الحق. وعندما رسم صورة الجراد والنار السماوية اللذين سيلتهمان إسرائيل كان يقصد تحذير الناس بأن يهوه سيعاقبهم على ذنوبهم وانحلالهم. . لقد أكد على أنه ليس نبياً. وبالفعل كان يختلف عن الأنبياء. فعاموس لم يعط أهمية للأشكال الخارجية الظاهرة للطقوس الدينية، بل دعا الناس إلى عدم إغضاب الرب بالدعارة والأبهة والقسوة مع الفقراء والدراويش، فكانت تعاليمه جديدة لم تسمع من قبل أفواه اليهوهيين، لقد تنبأ عاموس بفناء إسرائيل والسامرة لأن الأغنياء الذين ينامون على أسرة من العاج، الغارقين بالأبهة والدعارة والفساد، لأن أولئك يستغلون ويظلمون الجموع الشعبية بفظاعة لا مثيل لها. لقد كان يهتف بغضب «اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكي تبيدوا بائسي الأرض، قائلين متى يمضي رأس الشهر لنبيع قمحاً وحتى السبت لنعرض حنطة، لنصغّر الإيفة ونكبر الشاقل ونعوّج موازين الغش، لنشتري الضعفاء بفضة، والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح». لقد كان ذلك اتهاماً أيضاً فعاموس يتهم أغنياء إسرائيل بخداع وغش الفقراء في نوعية ووزن وسعر الخبز وبأنهم يستعبدون المدينين منهم لو زوج نعل.

جعل النبي الملسوع بسقوط إسرائيل الأخلاقي، سلطة الأغنياء والملّاك عدواً له فصاروا ينظرون إليه كمحرض عليهم، حتى أن الكاهن الأعلى أمصيا حرض الملك يربعام ضد عاموس «قد فتن عليك عاموس في وسط بيت إسرائيل، لاتقدر الأرض أن تطيق كل أقواله»، فأمر الملك بنفي عاموس خارج إسرائيل كي لايحرض الشعب ضد مستعبديه ومستغليه.

آنذاك حوّم خطر كبير فوق إسرائيل ويهوذا، ولكأن ذلك كان تأكيداً لنبوءة عاموس، فآشور حلت مشكلاتها الداخلية وأعادت لنفسها القوة والسيطرة، وصار على عرشها القائد العسكري العظيم تفلات فلاسر الثالث، المعروف بالغول، والذي اتبع سياسة الفتوحات العسكرية التي لم يتنبه حكام إسرائيل إلى أخطارها، فقد استمرت فيها انقلابات القصور والحروب الداخلية، وخاضت مجموعتان، واحدة تؤيدها مصر والأخرى آشور، صراعاً،

عنيفاً ضد بعضهما البعض، فزرعتا الفوضى الشاملة في السامرة، فحكم زكريا بن يربعام الثاني ستة أشهر فقط، قتل بعدها بيدي شلوم، وشلوم قتله منحيم، واستولى على العرش وبقي يحكم خمس سنين مؤيداً من آشور، وقد اقتحم تغلات فلاسر ولأول مرة، آنذاك أرض إسرائيل، ونصب الطاغية منحيم عاملاً له بشكل رسمي، ثم فرض عليه جزية مقدارها ألف معيار من الفضة وعاد إلى نينوى، ولكن ليتمكن منحيم من جمع المبلغ فرض على كل غني إسرائيلي ضريبة مقدارها خمسون شاقلاً، فعم التذمر البلد، وملك فقحيا بن منحيم سنتين فقط، راح بعدها ضحية مؤامرة نظمها أحد قواده الموالين لمصر، والمعروف باسم فُقح. وهكذا انتصرت المجموعة الموالية لمصر؛ وبدأ فقح سياسة العداء لآشور بعقده اتفاقاً مع رصين الأول ملك دمشق، لكن الحليفين لم يشعرا أن لديهما القوة الكافية لبدء الحرب مع آشور، فاقترحا على ملك يهوذا آحاز، الانضمام إليهما ولما رفض هذا، قررا إرغامه بالقوة مما جعل وضع آحاز صعباً للغاية، ذلك لأنه في الوقت الذي هاجمه المتحالفان من الشمال، هاجمه الأدوميون من الجنوب، والفلسطينيون من الغرب فخسر آحاز معركة كبيرة والتجأ إلى أورشليم التي حاصرتها القوات السورية والإسرائيلية، وذبح آحاز هناك لآلهة آرام وقدم ابنه قرباناً لها، ولما لم تُجدِهِ نفعاً طلب المساعدة من ملك آشور، وأرسل له كل ما استطاع جمعه من ذهب وفضة من المعبد والقصر، وكتب إليه: «أنا عبدك وابنك، اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي».

فشن تغلات فلاسر هجوماً كاسحاً على دمشق، فدمرها وقتل ملكها رصين، ثم اقتحم إسرائيل فنهب جنوده، ذوو الخوذ الحادة الرأس البلاد وقتلوا السكان وملأ أنين الضحايا القرى والمدن، فقد فقأ المحتلون عيون الأسرى وقطعوا أيديهم وأرجلهم، ووضعوهم على الخوازيق، وسلخوا جلودهم وهم أحياء، أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد نفاهم تغلات فلاسر إلى عمق بلاد مابين النهرين، وأحل مكانهم قبائل آسيوية أخرى كان قد أخضعها من قبل.

صارت كل إسرائيل، عدا التلة التي كانت عليها السامرة، مقاطعة آشورية. ونجت يهوذا وأورشليم من الدمار والموت، لكنهما صارتا تابعتين لآشور، ودفعتا ثمن نجاتهما ضريبة باهظة، كانت السامرة قلعة حصينة، لذلك لم يحاول الآشوريون فتحها، وقد التجأ إليها الملك فقح وبقية جيشه. لكنه لم يجلس على العرش طويلاً بعد ذلك، فقد قامت المجموعة الموالية لآشور بانقلاب خطط له تغلات فلاسر نفسه، وقتلت الملك وتسلم

السلطة هوشع زعيم المتآمرين وعبد آشور المطيع، دفع هوشع الضرائب لآشور عدة سنوات دون إشكالات، لكن المجموعة الموالية لمصر نمت مع الزمن، وبدأ تأثيرها المعادي للآشوريين يزداد شيئاً فشيئاً، واستطاعت إقناع هوشع بمقاومة التسلط الآشوري، فوافق هذا على ذلك عام ٧٢٧ (ق.م)، وعندما مات تغلات فلاسر قام عصيان في سورية، ثم امتد ليشمل السامرة، مما حدا بخليفة تغلات فلاسر، شلما نصر بتحريك قواته بسرعة لقمع المتمردين، فدمر الإسرائيليين، أما هوشع فأسره وكبلّه بالحديد ونفاه إلى نينوى سنة (٧٢٤ ق.م)، وبدأ شلما نصر حصاراً للسامرة لكنه مات بعد سنتين دون أن يدخل المدينة، وتابع خليفته صارغون الثاني الحصار، وتمكن من فتح السامرة مدمراً بذلك آخر حصن إسرائيلي، وتبعاً للعادة الآشورية نفى سكان المدينة إلى آشور وأحضر قبائل من الجزيرة العربية وبابل ليستوطنوا الأراضي التي خلت من السكان، ولم يلبث القاطنون الجدد أن بدؤوا يعبدون يهوه، مما دفع الملك الآشوري إلى تزويدهم بكاهن إسرائيلي ليعلمهم أصول ديانة موسى.

هكذا اختفت بلا أثر عشر قبائل من نسل يعقوب، وحلّ مكانها خليط من الشعوب التي عُرفت فيما بعد بالسامريين.

مصير مملكة يهوذا

بعد مقتل يوآش، ابن آحاز وظبيه، اعتلى عرش يهوذا أَمَصْيا، فانتصر هذا على الأدوميين جنوب البحر الميت، واستولى على تماثيل الآلهة، ونصبها في معبد أورشليم، مما أدى إلى تذمر وعصيان أنصار يهوه، فهرب أمصيا إلى لخيش حيث قتل هناك على يد بعض المتآمرين، فنصّب بعد ذلك ابنه عزريا ملكاً، وكان قائداً شجاعاً وحاكماً جيداً، أعاد العلاقات مع إسرائيل إلى مجراها الطبيعي، وهزم الفلسطينيين، وسيطر على القبائل العربية ذات النزعة القتالية، وكذلك على العمونيين، وسعى إلى تعزيز دفاعاته، فقوّى الجيش وأعاد تحصين أورشليم وبفضل انتصاره على الأدوميين، وانتزاع مرفأ ايلات، استطاع إعادة التجارة عن طريق البحر الأحمر مما رفع من مستوى معيشة السكان، لكن خلافاً كبيراً وقع بينه وبين الكهنة أواخر حكمه ذلك لأنه شرّع لنفسه حق تقديم القرابين، يضاف إلى ذلك أنه أصيب بالبرص، مما اضطره إلى مغادرة أورشليم، فأعلن الكهنة بزهو

أن يهوه عاقبه لأنه انتهك حقوقهم. حكم بعد عزريا ابنه يوثام خمس سنين فقط، وكان نصيراً كبيراً وتابعاً مخلصاً ليهوه، ولكن طقوس الآلهة الأخرى - طقوس الحجارة والشجر - انتشرت كثيراً رغماً عنه، كما وقع خلال حكمه اتفاقاً مع دمشق، وهاجما معاً إسرائيل، ثم ملك بعده ابنه آحاز، الذي سبق وعرفنا أن دمشق وإسرائيل حاصرتاه، فقدم ابنه قرباناً، وطلب مساعدة آشور.

في ذلك الزمن بدأ النبي الشهير عوبيد، المثقف والخطيب والكاتب، ينشر تعاليمه بين الناس، فشجب بعنف عبادة الأصنام المنتشرة في البلاد، ودعا مملكة يهوذا إلى الإيمان بيهوه وحذرها من توقيع اتفاق مع آشور لكن آحاز لم يستمع لكلام الحكيم وطلب المساعدة من الآسيويين الخطرين، فكانت النتائج مدمرة ليس لإسرائيل فقط بل وليهوذا نفسها، فقد غدت البلاد على حافة الفاقه بعد أن نهبها الغرباء فأفلست الخزينة بعد دفع الجزية للمنقذ المزعوم، وأضاعت يهوذا استقلالها، وذهب آحاز إلى نينوى لتقديم الطاعة لملك آشور، فأثّرت عليه المدينة الكبيرة ذات الأبنية والمنشآت العظيمة لدرجة أنه صار من أشد المتحمسين لعبادة آلهتها، فأمر بإزاحة مذبح يهوه من معبد أورشليم ونصب مذابح لآلهة أخرى مكانه. فعمت طقوس ديانة آشور مدينة داود.

سقطت السامرة في عهد حزقيا بن آحاز، فسُرّت مملكة يهوذا لهذا الحدث، أما النبي أشعيا، فحذر الشعب من الخطر الآشوري قائلاً (سفر أشعيا، أصحاح - ٥ - آية ٢٨ - ٣٠) «الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة وحوافر خيلهم تُحسب كالصوان وبكراتهم كالزوبعة، لهم زمجرة كاللبوة ويزمجرون كالشبل ويهربون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولامنقذ». دعا أشعيا في كلماته المليئة بالهلع والخوف سكان يهوذا إلى ترك الآلهة الغريبة والعودة إلى يهوه. لقد لعن الملاك والأغنياء الذين يقدمون القرابين في معبد أورشليم ويضطهدون الفقراء في الوقت نفسه، ويظلمون الأرامل واليتامى والأطفال، لقد قال أشعيا لأول مرة في تاريخ إسرائيل بأن الطقوس الدينية تجرد من مضمونها وتخسر أهميتها إذا لم تمارس بضمير شريف، وقام الملك حزقيا تحت تأثير أشعيا بحملة كبيرة لإعادة عبادة يهوه إلى الحياة، فصارع ضد كل أشكال الوثنية فهدم التماثيل، وقطع الأشجار التي عبدها الناس في الجبال، وحطم الحية النحاسية التي سكبها موسى.

وكانت عملية إعادة الاعتبار ليهوه تمثل تحدياً لآشور في الوقت نفسه، فحزقيا حاكم ذكي، أدرك ووعى ألّا مهرب من الصدام مع آشور، لذلك جمع الأموال والسلاح ودرب

الجيش على أصول القتال، وعزز أورشليم ببنائه سوراً ثانياً لها مزوداً بأبراج زاويّة، كما أعار مسألة تزويد أورشليم بالماء أهمية خاصة، لذلك أمر بفتح قناة تحت الأرض تمكن ماء النبع من الوصول إلى المدينة مباشرة، وصارت أورشليم مركزاً لمباحثات ونقاشات مركزة أدت في النهاية إلى إقامة اتحاد معاد لآشور ضم ملك بابل بردوخ بلادان وفرعون مصر وحكام الدول الفلسطينية والفينيقية. اعتمد المتحدون على تأييد مصر لهم بالدرجة الأولى؛ لكن أشعيا النبي والإنسان المثقف المجرب، عرف مقدار ضعف مصر بسبب مشكلاتها الداخلية لذلك لايمكن الاعتماد عليها، وحذّر حزقيا من التورط في ذلك الأمر، لكن الأمر قد تم ولامجال للعودة عنه.

بعد مدة قصيرة التهبت شعلة العصيان في الدول الخاضعة لآشور فقام الملك الآشوري سنحاريب بهجوم صاعق على بابل، واحتلها وأنهى العصيان في فينيقية، ثم بدأ حملته ضد الجيش المصري الذي قَدِم لمساعدة حلفائه، وهنا تحققت من جديد نبوءات أشعيا، فقد مُني الجيش المصري بهزيمة منكرة قرب إيكرون، وهرب تاركاً حلفاءه يلاقون مصيرهم بأنفسهم، احتل سنحاريب قلعة لخيش، وأنهى يهوذا نافياً سكان مدنها وقراها التي احتلها إلى آشور، ولم تقاوم بين الدمار والحريق إلاّ أورشليم التي دعا سنحاريب ملكها حزقيا مرتين للاستسلام، مرة عن طريق رسل وأخرى بالمراسلة، فتدخل أشعيا من جديد داعياً أبناء مدينته إلى الدفاع عنها مؤكداً لهم بأن يهوه سيعاقب الأعداء، وفعلاً ظهر ملاك في إحدى الليالي في معسكر الآشوريين وقتل مائة وخمسة وثمانين ألف مقاتل آشوري، فاضطر سنحاريب إلى العودة إلى نينوى، أما أورشليم فحافظت على حريتها، وحكم حزقيا بضع سنوات أخرى استطاع خلالها رفع يهوذا وانتشالها من بين الأنقاض فحسّن اقتصاد البلد، وارتفع مستوى معيشة السكان، وصار الشعب يعبد يهوه وحدة، لأنه أنقذهم من نير الاستعمار الآشوري، وصار للنبي أشعيا الذي تنبأ بدقة بمستقبل البلاد شهرة عظيمة واحترام في قصر الملك وبين صفوف الشعب العريضة، بعد وفاة حزقيا اعتلى ابنه مَنسى العرش (٦٨٧ ـ ٦٤٢ ق. م)، وكان له من العمر اثنا عشر عاماً، وقد حكمت باسمه ثلة من ألد أعداء يهوه أرغمت الملك بتأثيرها القوي على إعادة طقوس عبادة الآلهة الغريبة، فعاد الناس إلى عبادة الحجارة والأشجار في جبال يهوذا، وعادت تماثيل آلهة الآشوريين والكنعانيين والمؤابيين والصيدونيين ومذابحهم إلى مواقعها بمعبد أورشليم، وحظت عشتار بأكبر قدر من العبادة والعبّاد، كما عاد كهنتها إلى ممارسة طقوس الدعارة على

شرفها في معبد أورشليم، وعدا ذلك عُبدت هناك الشمس وعبد القمر والكون، وبنيت عند باب المعبد اصطبلات مخصصة لخيول إله الشمس، وفي وادي ابن هنوم قُدم الأطفال قرابين للإله مولوك، حتى الملك قدم ابنه قرباناً له، كما لوحق أتباع يهوه وطردوا، وهدد منسى الكثيرين من الأنبياء الذين انتقدوه وتنبؤوا بقرب هلاك يهوذا، حتى النبي العجوز أشعيا مات ميتة فظيعة إذ نُشر إلى نصفين بمنشار خشبي(*١٢). اعتمد منسى في صراعه ضد اليهوهيين على آشور وصار عميلاً لها. وفي ذلك الوقت بلغت آشور ذروة مجدها، واعتلى العرش فيها أعظم ملك في تاريخها هو آشور بانيبال الذي حسن مدينة نينوى، آشور بانيبال الحاكم المثقف الذي جمع في مكتبته آلاف الألواح المسمارية التي ضمت أعظم كنوز كتابات ذلك العصر، وحوالي عام (٦٥٢ ق.م) قام أخو آشور بانيبال بعصيان ترافق مع عصيان الحكام الآشوريين، وقد اتهم منسى باشتراكه في العصيان، لذلك اقتحمت القوات الآشورية يهوذا، وأسرت منسى وأخذته مكبلاً إلى نينوى حيث أمضى عدة سنوات في السجن، عاد بعدها إلى عبادة يهوه، ولما رجع إلى أورشليم قاتل وصارع ضد الوثنية.

ملك ابن منسى آمون سنتين فقط، وكان من أتباع الآلهة الغريبة، وحاول جاهداً إنهاء ماقام به أبوه أواخر سنوات حياته فقتله، أنصار يهوه.

واعتلى العرش ابنه يوشيا (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق.م) وفي السنة السادسة لحكمه أصيبت آشور بنكسة كبيرة، فقد احتلت قبائل الأسكيتيين المتوحشين ميديا وآشور، وعبرت كنعان بمحاذاة أورشليم، ولم تتوقف إلا عند شاطيء النيل. اختبأ الملك الآشوري في نينوى لينقذ بذلك حياته، وقدم الأسكيتيون أولئك بمجموعات هائلة الضخامة من جبال القوقاز. إذن اختبأ ملك آشور، لكن بلاده دُمرت ونهبت ولم تستطع الوقوف على أقدامها رغم رحيل الاسكيتيين. بعد بضعة سنين استغل يوشيا ضعف الآشوريين ليقوم بمجموعة من الاصلاحات الدينية والاجتماعية، وليعزز وحدة شعبه قاوم بعنف عبادة الآلهة الغريبة، وجعل من اليهوهية دين الدولة الرسمي، وأيده في عمله ذاك الكهنة والنبيان ناحوم وشافان، وفي السنة الثالثة عشرة لحكمه ظهر في العاصمة النبي العظيم أرميا، حفيد نسل الكهنة العريق الذي يعود بأصله إلى الكاهن الأعلى أبياثار.

أيد أرميا الاصلاحات التي قام بها الملك، لأنها سعت أساسا إلى فرض النظام التيوقراطي على البلاد، لكن أرميا عرف أيضاً أن تلك الاصلاحات موجهة ضد آشور، لذلك حذر الشعب من مغبة الاتحاد مع مصر، مؤكداً أن ذلك سيجلب ليهوذا التعاسة

والهلاك، وفي تعليماته تنبأ أزميا بحملة القبائل الشمالية على يهوذا ودمار أورشليم مما أدى إلى نقصان شعبيته في العاصمة.

صار من الواجب بعد خمسين سنة من الوثنية، تنظيف المعبد من آثار الآلهة الغريبة وتجديد مبناه، ولما بدأ العمل، وقعت حادثة كان لها تأثير كبير على أتباع يهوه. فقد وجد في إحدى زوايا المعبد ملف يحتوي على نص سفر الشريعة (كتاب الشريعة)، قرأ الكاهن الأعلى حِلقيا النص للملك، فكان ذلك النص يتحدث بشكل رئيسي عن العقاب الشديد لمن لايتقيد بطقوس التعاليم التي وضعها موسى، أُخذ الكتاب إلى العرّافة خَلَده، فأكدت تلك صدق وصحة الكتاب، وهدأت من روع يوشيا قائلة له بأن العقاب المذكور فيه لن يناله منه شيء، لأنه بقي مخلصاً ليهوه، فقرىء من ثم الكتاب على الشعب في ساحة المعبد، وأقسم المؤمنون على تنفيذ جميع ماجاء فيه.

مضت بضع سنوات هبت بعدها عاصفة سياسية ثانية في آشور، فبعد موت الملك آشور بانيبال، انفصلت عن المملكة مقاطعات كاملة، من الشمال أخذ الميديون يضايقون الآشوريين، ومن الجنوب قدمت قبائل الكلدانيين الآسيوية التي احتلت بابل وسنة (٦١٢ ق. م)، دخل المحتلون نينوى ودمروها عن بكرة أبيها، فهرب قائد الجيش الآشوري مع فلول جيشه إلى حاران حيث دافع هناك دفاعاً مستميتاً، واتخذ الملك الكلداني نبوبولصر من بابل عاصمة له، وأسس المملكة الكلدانية (البابلية الجديدة) على أنقاض آشور. ولما كان قد تقدم به العمر فإنه أوكل مهمة متابعة الحملات العسكرية إلى ابنه نبوخذ نصر، أما مايخص مصر فإن فرعونها نَخاو أدرك مدى خطر الفاتحين الجدد، لذلك ورغم عدائه التاريخي لآشور، فانه سار بجيشه إلى حاران لنصرة الفصائل الآشورية التي كانت تعد نفسها لضرب العدو ضربة قاضية. هنا برز يوشيا كسياسي غير حكيم وغير بعيد الرؤية فلحقده الأعمى على الآشوريين، اعترض طريق الجيش المصري المسرع عبر كنعان، لكنه تكبد هزيمة فادحة في المعركه التي جرت عند مجدو، ومات متأثراً بضربة سهم فأخذ جسده إلى أورشليم ودفن في المقبرة الملكية، أما عرشه فاعتلاه ابنه يهوآحاز، دحر نَخاو آنذاك في حاران وهرب ببقية جيشه، وفي الطريق لم يلق أية مقاومة، فدخل أورشليم وأخذ يهوآحاز أسيراً إلى مصر ونصب أخاه يهوياقيم ملكاً في أورشليم. أطاع يهوياقيم إرادة فرعون مصر في كل شيء، فعبد الآلهة الغريبة ولاحق أتباع يهوه، وسيطرت طوال عهده قيادة موالية لمصر، وصارت أورشليم مركزاً للمؤامرات ضد المملكة البابلية الجديدة.

أحب النبي أرميا شعبه بشكل خيالي، لذلك عانى كثيراً جداً من الانحطاط الأخلاقي في البلاد، ومن التفاوت الاجتماعي للسكان، ومن عماهم السياسي، ولميله نحو الانعزالية والتفكير، كثيراً ما أصيب أرميا باليأس والقنوط، لكنه تابع رغم ذلك تعاليمه للشعب، ودعاه إلى عدم الانحياز ضد بابل، كي لايجلب الويل للبلاد، فأثارت دعوته هذه غضب الجموع الشعبية التي كادت تقتله في إحدى المرات، حتى يهوياقيم نفسه كان ينهض أرميا، لذلك أمر بحرق خطابات النبي، التي كان قد كتبها، وغضب كثيراً، بنبوءة النبي حول دمار أروشليم، لكن أرميا عاد وأملى خطاباته على كاتبه كي يدونها.

بعد هزيمته الأولى جمع الفرعون نخاو قواته من جديد، وقام عام (٦٠٥ ق.م) بحملة على بابل فهزم ثانية، ولم ينقذه من الموت سوى وفاة والد نبوخذ نصر الذي اضطر للعودة إلى بابل لدى سماعه بنبأ الوفاة.

حكم نبوخذ نصر من عام (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) وأعطى خلال سنوات حكمه الأولى الأولوية لتنظيم أموره الداخلية، ولذلك لم يقترب من يهوذا التي هزتها هزيمة فرعون الثانية، لأن سياستها كانت من سياسة فرعون واضطر يهوياقيم لدفع الجزية لملك بابل، لكنه عصى وامتنع عن دفعها بعد ثلاث سنوات وذلك تحت تأثير المجموعة الموالية لمصر وبتحريض من مصر نفسها، فاقتحم نبوخذ نصر يهوذا ودخل أورشليم وأُخذ يهوياقيم أسيراً، فاختفى يهوياقيم وانمحت آثاره في بلاد مابين النهرين، فملك بعده ابنه يهوياكين، فتابع هذ سياسة والده المعادية لبابل، لذلك حاصر نبوخذ نصر أورشليم بجيش كبير فترك يهوياكين المدينة مع أمه وزوجاته وأولاده وحاشيته، واستسلم للعدو، إما لخوفه، وإما محاولة منه لإنقاذ المدينة من الدمار، ولكي يخفف من حدة غضب الملك البابلي، قدم له يهوياكين جميع الأواني والنفائس الموجودة في المعبد والقصر هدية، لكن نبوخذ نصر لم يرأف به، وكان بين المنفيين النبي حزقيل، بقي يهوياكين في السجن سبعة وثلاثين عاماً، أطلق سراحه بعدها الملك أويل مردوخ لكن ملك يهوذا التعيس فضل قضاء بقية سنوات حياته في المنفى ولم يعد إلى بلده، فخصص له ولأولاده الخمسة قسم من القصر، وخدم وحاشية ونفقات.

بعد عزل يهوياكين عين نبوخذ نصر عمه متنيًا ملكاً على يهوذا وغير اسمه إلى صُدقيا، وكان هذا مسناً ضعيفاً ومحدود القدرات، فلم يمض وقت قصير حتى وقع تحت تأثير المتعصبين من المجموعة المؤيدة لمصر مما عرض البلاد مرة أخرى لمخاطر الموت،

اعتلى أبسماتيك الثاني عرش مصر، فعلقت عليه الشعوب المغلوبة على أمرها آمالاً كبيرة، وصار سفراؤ ها يجتمعون في أورشليم، وفي الشوارع أخذ الدعاة واليهوهيون المتعصبون يحرضون الناس، فأصيب أرميا باليأس وخيبة الأمل، وكثيراً ماكان يدعو الشعب بخطبه إلى عدم إغضاب بابل، وإلى عدم المبالغة بالاعتماد على مصر، فحقدت الجموع لقوله الحقيقة، واتهمته الفئة الحاكمة بالخيانة، فزج به في السجن وضرب بعنف وقسوة لكنه لم يتراجع عن موقفه، وبمجرد إطلاق سراحه، عاد إلى نشاطه الهادف لإنقاذ بلده، ولما اعتلى العرش في مصر الفرعون صوفرا، صارت المجموعة الموالية لمصر تمارس نشاطها علناً، فقرر نبوخذ نصر أن الوقت قد حان للتحرك، فاقتحم يهوذا، ودخل لخيش وقلاعاً أخرى، ثم بدأ حصار العاصمة.

دافعت أورشليم ببسالة دافعت برجالها ونسائها وأطفالها، وكذلك عبيدها الذين وُعدوا بالحرية، أما أرميا الساعي لإنقاذ المدينة والمعبد من الدمار دعا إلى الاستسلام الطوعي، فاتهم بالخيانة، وصار الملك صدقيا يزج به في السجن تارة ويطلقه تارة أخرى ليسأله النصح سراً. بقيت القوات الكلدانية سنة كاملة عند أسوار أورشليم، فأشيع أن فرعون يسير بقواته لنجدة المحاصرين، ممّا اضطر نبوخذ نصر لفك الحصار والتوجه لملاقاة الجيش المصري، فعانق الناس بعضهم البعض ابتهاجاً ومجّدوا فرعون مصر المنقذ، والوحيد الذي لم يفرح كان أرميا، فهو يعرف جيداً قوة نبوخذ نصر، لذلك لم يشك بهزيمة المصريين أمامه، كما رأى أن المستقبل قاتم لاأمل فيه. وعدا ذلك لم يفِ الاغنياء والمتسلطون بوعدهم، لم يسامحوا الفقراء بديونهم، ولم يحرروا العبيد، فقام المدافعون عن المدينة من المخدوعين من قبل الأغنياء والوجهاء بالعصيان. وفقد أرميا الأمل بإنقاذ العاصمة. فقرر العودة إلى وطنه في بنيامين لتسوية أمور أملاكه، لكنه قبض عليه عند سور المدينة كجاسوس، فضرب وألقي به في السجن، لكن الملك صدقيا أحضره إليه لحاجته لنصحه في اللحظات الحرجة.

وصل بعد مدة نبأ انكسار المصريين وهزيمتهم، ومن ثم عاد الكلدانيون إلى حصار أورشليم، فبقوا عند أسوارها ثمانية أشهر أخرى، انتشر خلالها الجوع في المدينة وامتلأت الطرقات والشوارع بجثث الموتى، وبلغ الأمر بالناس حداً، صارت معه الأمهات تأكل أبناءها المتوفين من شدة الجوع أو المرض، وفي سنة (٥٨٦ ق.م) هاجم الكلدانيون المدينة وفتحوا فجوة في أسوارها ودخلوها، فقام الجنود المهاجمون بالقتل والنهب والحرق

فتحولت المدينة إلى خربة، ولم يبق من المعبد وقصر الملك سوى بقايا الخشب المحروق والأعمدة المحطمة. مُسحت المدينة عن وجه الأرض، وهرب الملك صدقيا مع عائلته ومجموعة من حاشيته من المدينة نحو الأردن، لكن فصيلاً كلدانياً لاحقهم وقبض عليهم قرب أريحا، فأمر نبوخذ نصر بقتل ابناء الملك، أما صدقيا ففقأ له نبوخذ نصر عينيه ثم كبله بالحديد، وأرسله إلى بابل، فمات آخر ملك ليهوذا بعد مدة قصيرة في السجن. سمح نبوخذ نصر لأرميا بالبقاء في وطنه، فاستغل النبي ذلك لإخراج تابوت الشهادة ومذبح يهوه من أورشليم إخفائهما[٣٦]. ولم يستطع أحد ايجادهما بعد ذلك.

أخذ المنتصرون يطبقون العادة المعروفة في بلاد مابين النهرين إذ راحوا يطردون السكان من المدن والقرى اليهودية، فجمعوا عشرات الألوف من الأسرى في صفوف، وربطوهم بالحبال وساقوهم إلى بلد بعيد غريب، وسارت قوافل المهجرين أشهراً في الصحراء تاركة وراءها مئات الجثث، ومن نجا من الموت في الطريق وُضع في منطقة قرب بابل، ولم يبق في يهوذا سوى الفلاحين الفقراء، الذين عُهد إليهم العناية بالحقول والبساتين والكروم، وعين عليهم نبوخذ نصر جَدَليا حاكماً، فاتخذ هذا لنفسه مقراً مدينة المصفاة، وأسكن في قصره أرميا الذي أصبح راعي ومعلم البقية الباقية من شعب يهوذا، عمّت الفاقة والدمار البلد، وصار جباة الضرائب يأخذون من الفلاحين والرعاة كل مايملكونه، وأخذت عصابات اللصوص تسرق القرى والمدن، وأخذ أعداء آشور المتعصبون يمارسون الإرهاب ويقتلون من يشكون بتعامله مع آشور، حتى أنهم قتلوا جدليا نفسه وهربوا بعد ذلك إلى مصر وأخذوا معهم عنوة النبي أرميا، فصار هذا يندد بهم لخيانة يهوه واتّباع الوطنية[★١٣].

الأسر البابلي

أُسكن الأسرى اليهود في بداية الأمر في معتقلات بمدينة بابل نفسها، وعملوا في بناء ممتلكات الملك وحفر قنوات الري، ومع مرور الزمن وبعد موت نبوخذ نصر، صاروا يستعيدون حريتهم تدريجياً، فسكنوا ضواحي العاصمة واشتغلوا بالزراعة ومارسوا التجارة المربحة، إذ إن بابل كانت آنذاك مركزاً تجارياً دولياً وهاماً، وصار بينهم الكثير من الأغنياء،

بل واحتكر بعضهم رؤوس الأموال وتجارة العبيد، وشغل بعضهم الآخر مراكز حكومية هامة ومناصب حساسة في القصر. كانت بابل عاصمة يسكنها مليون شخص، واشتهرت بخطين عريضين من الأسوار الدفاعية وتستطيع لعرضهما عربة رباعية الأحصنة أن تسير فوقهما، وُبني عليهما أكثر من ستمائة برج للمحافظة على سلامة وأمن السكان، ومن بوابة عشتار الرائعة تمتد طريق عريضة ذات جدران على طرفيها مزينة بنقوش الأسود، وفي مركز المدينة تشمخ واحدة من أعاجيب العالم القديم السبع هي الحدائق المعلقة على أقواس من اللّبن المشوي، كان أقدس مكان هناك معبد مردوخ أهم إله بابلي، وبقربه يسمو نحو السماء برج مبني في الألف الثالث ق. م، تلمع على قمته تحت أشعة الشمس بلاطات سماوية اللون، تشكل القدس الذي عاش فيه مردوخ، وفي الأزقة الضيقة تحتشد جموع الناس، وتمر من خلال تلك الجموع قوافل الإبل والعربات المحملة بالبضائع ومجموعات الحجاج والباعة يبحّون أصواتهم مادحين بضائعهم، ومن بعض الأزقة ينبعث صوت ضربات الصناع الشديد القوة، ومن أفواه الناس يمكن أن تسمع الكثير من اللغات، لأن الناس تأتي إلى العاصمة من كل أصقاع الأرض[٣٧]، تركت بابل أثراً كبيراً ومخيفاً في نفوس اليهود المهجرين من أورشليم، المدينة الصغيرة النائية، إلى خضم العالم الكبير. تجنس بعضهم بسرعة، وحاول بعضهم الآخر التأقلم مع الوضع بعد أن فقد الأمل بالعودة إلى الوطن، لكن الغالبية العظمى عانت من مرض جميع المهجرين، هو الحنين إلى الوطن، فبقي هؤلاء مستعدين للسفر. أغلقوا أعينهم عن سعادة الحياة الجديدة وانتظروا بفارغ الصبر اللحظة التي سيعاقب فيها يهوه بابل ويسمح لليهود بالعودة الى ديارهم. اما أرميا الذي بقي على اتصال بالمهجرين عن طريق المراسلة، فإنه دعاهم إلى التعقل ونبذ التفكير بالعودة إلى الديار والبدء بزرع البساتين وبناء المساكن، لكن كلام النبي المنطقي صار بالنسبة لهم كالملح على الجرح، فكثيراً ماجلسوا معاً على ضفة الفرات، وأنشدوا الأغاني المليئة بالحنين، وهكذا عبر الشاعر اللاحق مؤلف المزمور السابع والثلاثين بعد المائة عن شعور أبناء يهوذا في الأسر:

«. . . على أنهار بابل
هناك جلسنا وبكينا
عندما تذكرنا صهيون. . . .
إن نسيتك ياأورشليم

تُنسى يميني
ليلتصق لساني بحنكي
إن لم أذكركِ
إن لم أفضل أورشليم
على أعظم فرحي . . .»

في ذلك الوقت توزع الإسرائيليون، الذين هجّرهم الآشوريون عام ٧٢٢ ق. م في الأرض، واختفوا في بحر شعوب آسيا، أما يهود يهوذا فسكنوا قرب بعضهم البعض، وحافظوا على عاداتهم وعيّدوا أيام السبت وغيره من الأعياد الدينية، وبما أنه لم يكن لديهم معابد، فقد كانوا يتجمعون للصلاة في بيوت زعمائهم وشيوخهم، فكانت تجمعاتهم تلك نطفة وُلدت فيها فيما بعد الصوامع؛ وكان لهم كسابق عهدهم كهنة وأنبياء وقواد، وعدا ذلك فقر برز بينهم علماء نظموا تراث الشعب الروحي، لقد استطاعوا عند طردهم من أورشليم أن يأخذوا معهم بعض ملفات التعاليم، لكنهم اضطروا إلى إعادة تدوين الكثير من المواد التاريخية والقانونية معتمدين بذلك على المعلومات المتوارثة شفهياً من فمٍ لفم، فكانت تلك إحدى مراحل وضع نص «الكتاب المقدس» الذي صيغ بشكله النهائي بعد العودة من الأسر البابلي، وصار المطرودون المهجرون يفكرون بأسباب التعاسة التي أصابتهم، ويحللون تاريخهم محاولين معرفة السبب الذي ضاعف شقاءهم وعمق علاقتهم بيهوه، ففي سفري الخروج والتثنية يصور يهوه كإله طاغية محب للانتقام، يعاقب الأطفال على أخطاء أهلهم حتى الجيل الرابع، فهل يعقل أن يكون الإله غير عادل لدرجة مساواته المذنب بغير المذنب؟ إن العقاب الجماعي كان يتعارض مع مباديء يهوذا الأخلاقية، لذلك صار من الواجب البحث عن تفسير آخر للشقاء الذي أصاب الشعب، من هنا ولدت فكرة الهداية والإنقاذ، فالشعب اليهودي مختار من يهوه كي يتطهر بالعذاب والشقاء من ذنوبه، وليحمل للعالم الإيمان بيهوه الإله الواحد العظيم الرحيم. لقد كان النبي حزقيال المعبر الرئيسي عن فكرة الهداية والإنقاذ تلك، حزقيال الذي نُفي إلى بابل سنة ٥٩٧ (ق. م) قال بمحاسبة كل شخص على ذنوبه: «النفس التي تخطيء هي تموت الابن لايحمل من إثم الأب، والأب لايحمل من إثم الابن. برُّ البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون». لقد كانت تلك خطوة جبارة نحو تعميق التوحيدية الأخلاقي، كانت رفضاً للإله الصغير المغرم بالانتقام، وبما إنه قدّر للشعب اليهودي القيام بمهمة تاريخية، هامة، فإن

النبي تنبأ بموت كل ظالميه وأعدائه وبقرب انتصاره وفوزه، وفي إحدى المرات حدث النبي كيف أخـذه يهـوه إلى أورشليم المستقبـل، أورشليم المعمـرة من جديـد، وسـار به رجـل مجهول في شوارع المدينة، أراه المعبد المبني حديثاً وهناك أمره يهوه أن ينظر بتمعن ويتذكر مايـراه كي يحـدث بذلـك أبنـاء قومه في بابل، على تلك الشاكلة رفع حزقيال من معنويات شعبـه الأسيـر واعـداً إيـاه بالعودة إلى أرض الآباء، وبأن يصبح ملكهم من نسل داود، وبأن ذلك الملك سيحكم باسم يهوه بالعدل والسلام.

الـعــودة

بدأت المملكـة البـابليـة الحـديثـة تضعف بعـد موت نبـوخذ نصر، فملكها الجديد نابـونيـد، لم يكن قائـداً مشهـوراً ولا حاكمـاً حكيمـاً، لم يكن ليهتم إلا بالأمـور الـدينيـة وبـالأثـريـات التي هُوِس بتجميعهـا في قصره، ولكي يقوي ويعزز مملكته أخذ من الشعب الـذي يسيطـر عليـه تمـاثيـل آلهتـه ونقلهـا إلى بابـل، فأدى ذلك إلى تذمر كبير في صفوف الناس، ومع مرور الزمن ابتعد نابونيد نهائياً عن ممارسة مهامه الحكومية، وانتقل للإقامة في قصـر جديـد شمـال الجـزيـرة العربية، قرب الصحراء السورية تاركاً الحكم لابنه بلتاصر، تلبّـدت سمـاء مابين النهـرين تلك الأيـام بالغيوم السياسية الرهيبة، فقد ظهر على المسرح السيـاسي سنـة ٥٥٨ (ق.م) زعيم قبيلة مجهـول في البـدايـة ثم أصبـح ملكاً عبقرياً وقائداً عسكـريـاً جبـاراً، احتل ميديا واعلن نفسه ملكاً على فارس، انه الملك كورش، ومن أجل الصراع ضد الفاتح الجديد وقع نابونيد مشروع وحدة مع ليديا وسبطره ومصر، فاحتل كورش آسيـا الصغـرى بعـد أن هزم ملك ليـديـا كيرز، ثم تحرك لملاقاة أعدائه الكلدانيين فانتصر عليهم سنة ٥٤٠ (ق.م) ودخل بعد عام بابل دون قتال إذ فتح له كهنة مردوخ المتذمرون من سياسة نابونيد الدينية بوابة القلعة الحصينة على مصراعيها، واستطاع كورش خلال أقل من عشرين عاماً تأسيس دولة عظيمة امتدت أراضيها من الهند حتى البحر المتوسط، واستقبلته الشعـوب الـواقعـة تحت سيطـرة الكلدانيين استقبال الفاتح المحرر، وقد أظهر نفسه كفاتح وكشخصية سياسية مختلفة عن الملوك الآشوريين والكلدانيين، فهو لم يقتل الشعوب التي أخضعهـا، ولـم يدمـر مدنها ولم يسمح لجنوده بالنهب والاغتصاب، فكانت تسير حياة البلد الـذي يخضعـه بشكل طبيعي، ويمارس كل واحد عمله المعتاد، كما أبرز الملك الفارسي

نفســه كشخصيــة جديدة التفكير والتصرف في ناحية أخرى أيضاً، فقد أعطى الشعوب التى أخضعها حكماً ذاتياً وأعاد لها تماثيل آلهتها التي أخذت إلى بابل.

وبـرز صبـره الـديني والسيـاسي أيضاً في سماحه للقبائل المنفية بالعودة إلى مواطنها وإرجـاعـه لهـا تماثيل آلهتها، استقبل المنفيون من يهوذا، كورش استقبالاً حماسياً للغاية، فقد رأوا فيه منقذاً ورسولاً مرسلاً لهم من يهوه، وأعلن كهنتهم وأنبياؤ هم للشعب بأن كورش مبـارك من الـرب ومختـار منـه، فلم يمض زمن طويـل حتى تحققت آمالهم، فبعد سنة من دخوله بابل، أصدر كورش مرسوماً يسمح بموجبه لليهود بالعودة إلى أورشليم، وأمر بإرجاع كل ما أخـذ من معبـد أورشليم إليـه، فأعيد إلى المعبد ثلاث عشرة آنية من الذهب، وألف من الفضـة، وثـلاثـون صحناً من الذهب وأربعمائة وعشرون من صحون الفضة، وألف من المتنوعات الأخرى.

طالت فتـرة التحضيـر للعـودة طويـلاً، فقـد جُمع الراغبون بالرجوع إلى معسكرات خاصـة، ووُضعت قوائم بأسمـائهم لكن لم يغـامـر الجميـع بتـرك بابـل، فملاك الأراضي والأغنياء والتجار وذوو المناصب الحكومية العالية لم يسعوا إلى العودة إلى بلد مدمر بعيد. لكن الجميـع، أغنياء وفقراء، ساهمـوا في إعـادة بنـاء معبد أورشليم، وقدموا مالديهم من النفائس، وقد بلغ عدد الراغبين بالعودة حوالي الخمسين ألفاً من الرجال والنساء والاطفال والعبيد، وكان معظمهم من أولئك الذين لم يحالفهم الحظ ولم يلاقوا النجاح في الغربة، أما الباقون فكانوا من أتباع يهوه المتعصبين والكهنة واللاويين والأنبياء.

امتـدت قافلة العـائـدين بضعة كيلو مترات، فقد ضمت، عدا الناس، سبعمائة وستاً وثلاثين فرساً ومائتين وأربعين بغلاً وستة آلاف وسبعمائة وعشرين حماراً وخمسمائة وخمسة وثـلاثين جمـلاً، وكـان على رأس القـافلة يهـوشـع الكاهن الأعلى، وزَرُبابل، واثنا عشر شيخاً، اختارت القافلة لمسيرها الطريق التجارية القديمة، فسارت في البداية نحو الفرات الأعلى بمحـاذاة أنقـاض نينـوى، ووصلت إلى حران ومن هنـاك سلكت طريق إبراهيم عبر دمشق وحـرمـون حتى وصلت إلى تخـوم مملكـة يهـوذا القديمة. بعد عدة أسابيع من السير ظهرت أنقاض أورشليم من بعيد، فضحك العائدون وبكوا وسبحوا ومجدوا يهوه.

إعادة البناء

تميزت الحياة في أورشليم المهدمة بصعوباتها البالغة، وكان على العائدين من الغربة التفكير قبل كل شيء ببناء مأوى، وبتنظيف شوارع المدينة من الأنقاض لذلك. لم تُبن محرقة ليهوه إلا في العام السابع للعودة من الأسر، ولم يبدأ ببناء المعبد الا في العام الثاني، وقد سمع السامريون بذلك فطلبوا عن طريق رسلهم السماح لهم بالمشاركة في البناء، لكن زَرُ بابل ويهوشع رفضا ذلك إذ كان ينظر إلى السامريين المقيمين شمال كنعان خصوصاً بعد طرد الإسرائيليين كان ينظر إليهم باحتقار رغم تبعيتهم ليهوه، أما رفض المساعدة الذي أبداه زَرُ بابل ويهوشع فقد نجم عنه نتائج سيئة، فالسامريون والقبائل الأخرى التي شغلت الأراضي اليهودية الخالية، عرقلت بشتى الوسائل عملية البناء، ذلك بهجماتهم المفاجئة التي كانوا يدمرون بها مابني، ويزرعون الفوضى في أورشليم، أدى ذلك إلى يأس سكان يهوذا العائدين، فتركوا بناء المعبد، وأعاروا انتباههم لأمورهم الحياتية المهمة، فهم في سعيهم وراء لقمة العيش نسوا أمورهم الدينية وسهوا نهائياً عن بناء المعبد ومضى على تلك الحال خمس عشرة سنة، وقعت خلالها تغيرات كبيرة في العالم ففي عام (٥٢٩ ق. م) قُتل كورش في معركة مع القبائل التي هاجمت حدود دولته الشرقية، واعتلى العرش ابنه قمبيز الذي حكم سبع سنين فقط استطاع خلالها احتلال مصر وتأسيس اعظم امبراطورية في التاريخ القديم، وفي عهد الملك الفارسي دارا الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٥ ق. م) لَعَن النبيان حجي وزكريا تقاعس سكان أورشليم داعين إياهم إلى إعادة بناء معبدها. فلم يمر الأمر دون صعوبات، فقد أرسل الحاكم الفارسي تتناي المكلف بتسيير أمور كنعان، أرسل لجنة إلى أورشليم لتستفهم على أية حقوق قانونية يعاد بها بناء المعبد، ولما استند اليهود على مرسوم كورش، رفع تتناي الموضوع إلى ملكه ليعلم رأيه. كان دارا ملكاً صبوراً، لذلك أمر بدراسة السبل المحفوظ فوجد فيه مرسوم كورش، فأصدر أوامره بتيسير بناء المعبد وبتقديم المواد اللازمة للبناء وتقديم الحيوانات لتصبح قرابين، استمرت عملية البناء أربعة أعوام ونصف العام، لكن بيت يهوه الجديد لم يكن يشبه معبد سليمان الرائع، فهو بناء صغير فقير عديم الزينة والزخارف، بناء فيه دلالة على الفقر والانحطاط السائدين في البلاد، أما قدس الأقداس حيث قَرّ فيه تابوت الرب، فقد ساده الفراغ فقط، وبقيت أورشليم كومة من الأنقاض إلا في بعض المناطق حيث بنى البعض بيوتاً يسكنونها.

رسالة عزرا

مضى ثلاثة وأربعون عاماً على إعادة بناء المعبد، اعتلى عرش الفرس الملك أرتحشستا (٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م) فسكن آنذاك في بابل عالم يهودي كبير اسمه عزرا. سمع عزرا هذا من القادمين من أورشليم أنباء سيئة عن نبذ السكان هناك لطقوسهم الدينية، وعن خطر اختلاطهم بالقبائل الغريبة المجاورة، والتي صاروا يتزاوجون منها، كان عزرا متقدماً في السن لكنه قرر رغم ذلك العودة. إلى أورشليم ليعيد شعبه إلى الطريق القويم لذلك طلب من الملك أرتحشستا السماح له بالعودة، فسمح له الملك ومنحه الكثير من الذهب والفضة بتزيين معبد أورشليم، كما أمر عامله على كنعان إعطاء عزرا مائة وزنة من الفضة، وتزويده بالمواد التموينية اللازمة. وأعلن عزرا عن جمع التبرعات في بابل، فجمع أشياء كثيرة وتحرك سنة (٤٥٨ ق.م) متجهاً إلى أورشليم، سار معه ألف وخمسمائة وستة وسبعون من الرجال مع عوائلهم، وبعد أربعة أشهر من السير وصل العائدون الجدد إلى أورشليم، باشر بعدها عزرا فوراً بتطبيق إصلاحاته التي من شأنها أن تعيد خلق يهوذا من جديد، فقد هاله مارآه في وطنه، فبسبب النقص في عدد النساء اليهوديات تزوج الكثيرون من اليهود، من نساء كنعانيات وحثيات وفلسطينيات، ويبوسيات وعمونيات، ومؤ ابيات ومصريات وعموريات، حتى الكهنة زعماء الشعب اتخذوا لهم زوجات غريبات، وامتلأت شوارع أورشليم بخليط من اللغات الغريبة وتهدد شعب يهوذا المختار بالانقراض، لقد هال الوضع عزرا فشق هذا ثيابه ومزقها إرباً إربا، وجلس طوال النهار معمياً على بصره من شدة الغيظ، فجمع حوله كل من كان يخاف كلمة الرب وصلوا معاً، وخلال تقديم القربان المسائي سجد عزرا أمام المعبد، وبكى بكاء مراً اضطر معه جميع الحاضرين إلى البكاء أيضاً.
استطاع عزرا في النهاية أن يصدر مرسوماً يقضي بوجوب إعادة كل المتزوجين من غريبات، زوجاتهم إلى أوطانهن خلال ثلاثة أيام من صدور المرسوم، وإلا فإنهم سيعاقبون بحجز أموالهم وممتلكاتهم ونزع جنسيتهم عنهم، فزرع ذلك المرسوم، الذي فرق الرجل عن زوجته الحبيبة والأم العطوف عن أطفالها، زرع الألم والشقاء في الكثير من البيوت وأساء لعلاقات اليهود مع جيرانهم من أبناء الشعوب الأخرى الذين تضايقوا كثيراً من احتقار اليهود لبناتهم، حافظ اليهود على نقاء عرقهم، لكنهم منذ ذلك اليوم عاشوا في عزلة تامة عن العالم وأحاطوا أنفسهم بالأعداء من كل جانب.

رسالة نحميا

خلال حكم أرتحشستا الأول في شوشن شَغل نحميا اليهودي منصباً عالياً في القصر، وصار أن أخبره أحد القادمين من أورشليم عن أوضاع يهوذا السيئة حيث مازالت العاصمة غارقة بالأنقاض ويضطهد فيها الاغنياء الفقراء، ويأخذون منهم الأراضي والكروم والبساتين، ويستعبدونهم للعمل عند أولادهم وبناتهم لعدم تمكنهم من دفع الديون المستحقة عليهم، وقد أوصلت الضرائب المتصاعدة والربا وغلاء المعيشة الشعب الى حافة الفقر والفاقة، في الوقت الذي يزداد فيه الكهنة والملاك وأعوان السلطة غنى وبذخاً.

تأثر نحميا كثيراً للأخبار السيئة، وحَزن طويلاً وبكى وسجد ليهوه ورجاه الرأفة بأبناء قومه في الوطن فلاحظ الملك أرتحشستا حالته فسأله: «لماذا وجهك مُكمد وأنت غير مريض؟ ماهذا إلا كآبة قلب». فكرر نحميا ماسمعه من صاحبه الحناني «ليحيى الملك إلى الأبد، كيف لايكمد وجهي والمدينة بيت مقابر آبائي خراب وأبوابها قد أكلتها النيران؟» سأل الملك: «ماذا طالب أنت؟» فافصح له نحميا عن رغبته: «اذا سُرَّ الملك وإذا أحسن عبدك أمامك ترسلني إلى يهوذا إلى مدينة قبور آبائي فأبنيها». كان أرتحشستا معجباً بنحميا وواثقاً منه. لذلك لم يكتف بالسماح له بالذهاب إلى يهوذا بل وعينه عاملاً عليها وزوده برسالة إلى أمين غابات الملك ليعطيه هذا كل مايحتاجه من الخشب لإعادة بناء بيوت وسور أورشليم، كما أعطاه فصيلاً مسلحاً من الخيالة والمشاة الفرس لحمايته.

وصل نحميا إلى أورشليم سنة (٤٤٥ ق.م) وظل ثلاثة أيام يتفحص سور أورشليم المحطم وبوابتها المحروقة دون أن يشعر به أحد، ثم أعلن عن سبب قدومه: «أنتم ترون الشر الذي نحن فيه، كيف أن أورشليم خربة وأبوابها قد أحرقت بالنار، هلم نبني سور أورشليم ولاتكون بعد عاراً». كانت المدينة دون أية دفاعات ضد قطاع الطرق الصحراويين والقبائل المعادية القاطنة بالجوار، لذلك باشر نحميا فوراً بالعمل الذي قدم من أجله. فوزع العمل بإعادة بناء السور حسب العائلات القاطنة بالمدينة بما فيها عائلات الكهنة. لذلك تأثر الجميع بحماسته وعدله، وبدؤ وا العمل دون تذمر. أما قادة السامرة العمونيون والعرب والشعوب الأخرى المعادية، فقد هزئوا من اليهود وشككوا بمقدرتهم على إعادة بناء السور، وقال زعيم العمونيين طوبيا مستهزئاً: «إن مايبنونه إذا صعد ثعلب فإنه يهدم حجارة حائطهم».

لكن الشعوب المعادية، ماكاد نصف السور يُعاد بناؤه، حتى أثيرت وغضبت وحضرت لمهاجمة أورشليم. لم يدع نحميا الخوف يسيطر عليه ونظم دفاعاته وسلّح البنائين بالسيوف والرماح والقسي والدروع.

«العمل كثير ومتسع ـ قال نحميا لشعبه ـ ونحن متفرقون على السور وبعيدون بعضنا عن بعض. فالمكان الذي تسمعون منه صوت البوق هناك تجتمعون إلينا. . . وكان نصفهم يمسكون الرماح من طلوع الفجر إلى ظهور النجوم».

منذ ذلك الحين انقسم سكان أورشليم إلى نوبتين: تعمل واحدة في البناء، والأخرى تحرس مستعدة لصد هجوم الأعداء! وصار على نافخي الأبواق دعوة المدافعين إلى المناطق المتعرضة للخطر أكثر من غيرها.

لما رأى الأعداء ذلك لم يتجرؤ وا على خوض معركة مباشرة، بل قرروا اللجوء إلى الحيلة، فحاولوا أربع مرات استجرار نحميا إلى خارج أسوار المدينة بحجة الشروع بالمفاوضات لعقد صلح واتفاق.

وعندما فشلت محاولاتهم تلك جربوا زرع الفوضى في المدينة بواسطة عملائهم من يهودها، لكن نحميا كان دائم الحذر، وسار نحو تحقيق هدفه بخطى واثقة، وعمل سكان أورشليم في البناء ليل نهار بلا نوم وبلا طعام أحياناً، فبُني السور في اثنين وخمسين يوماً، ألقت المدينة بعدها سوط العذاب عن ظهرها وتنفست الصعداء.

فرّغ نحميا بعد ذلك نفسه لحل المشكلات الاجتماعية، فأعفى الفقراء من الضرائب، واكتفى منهم بتقدمات صغيرة من أجل إعالة بيته، ثم أقام اجتماعاً أمر فيه الأغنياء بالقسم على ترك الربا وإعادة الحقول والكروم والبساتين لأصحابها الذين انتُزعت منهم، لعدم استطاعتهم دفع الضرائب وتسديد الديون.

بعد اثنتي عشرة سنة أنهى نحميا مهمته، وأكمل رسالته وعاد إلى شوشن (مدينة السوس) إلى قصر الملك الفارسي، وبعد بضعة أعوام عاد إلى أورشليم ليرى كيف يعيش سكانها اليهود، فتأكد من أن كل شيء تغير نحو الأسوأ ولشد ما أغضبه جشع الكهنة، فهؤلاء منعوا من اللاويين والمغنين الجزء المخصص لهم من عُشر المحاصيل، مما اضطر اللاويين والمغنين إلى ترك عملهم في المعبد والاشتغال بالزراعة، كما أن الجميع عملياً أخلوا بقدسية يوم السبت، فالفلاحون يصنعون الخمر أيام السبت وينقلون محاصيلهم إلى

المـدينـة لبيعهـا وشـراء مايلزمهم، وكـل ذلـك أيـام السبت وحتى أن تجـار صور سُمح لهم بالتجارة أيام السبت.

أعـاد نحميـا الأمـور إلى نصـابهـا وأمـر بإغلاق بوابات المدينة قبيل أيام السبت كيلا يتمكن التجار من ممارسة التجارة، كما لاحظ نحميا أن الزواج من الأجنبيات عاد لينتشر في أورشليم، وأن الأولاد الناتجين عن مثل ذلك الزواج لايعرفون حتى اللغة العبرية لدرجة أن ولـداً من أولاد الكـاهن الأعلى تزوج من أجنبيـة، فطلب نحميـا المخطئين إليـه فوبخهم، لعنهم وضـــربهم ونتف لحـــاهم، ثم أرغمهم على أن يقسمـــوا على إعـــادة نســـائهم إلى أوطانهن، وطرد الذين لم ينفذوا أوامره ومنهم ابن الكاهن الأعلى في أورشليم.

أحارس أنا لأخي(*١٤)

يمثـل انقسـام دولـة داود إلى إسـرائيـل ويهـوذا، واحدة من أعظم مآسي العبرانيين، ويكفي أن نورد بعض الحقـــائق لنتأكـد من ذلـك، فسليمـان مات عام (٩٣٢ ق. م) وسنـة (٧٢١ ق. م) سقطت السـامـرة، وهكـذا تكـون دولـة إسرائيل قد استمرت مائتي سنة ونيف فقط، ويهوذا التي طلبت المساعدة من آشور ضد إخوتها الإسرائيليين نجت من الهلاك فقط لأنهـا صارت يداً طيعـة لمنقـذهـا، وبعـد عشـرين عامـاً فقط من سقوط السامرة وقف ملك الآشوريين عند أسوار أورشليم، فحافظت مملكة يهوذا آنذاك على استقلالها بفضل عامل الصدفة فقط فاستمر بقاؤ ها مائة وخمسة عشر عاماً أخرى، أي حتى عام (٥٨٦ ق. م) لما دمر بختنصر أسوار أورشليم.

لقـد كان لتلك المأسـاة أسبـابهـا المعقدة جداً، فالمعروف أن عداوة عرقية وسياسية عميقـة وجـدت دائمـاً بين قبـائـل الشمال وقبائل الجنوب، وفي عهد داود وسليمان ضَعُفت تلك العـداوة بسبب مصـالـح الدولة المشتركة، ولوجود مركز ديني واحد هو معبد أورشليم، وبعـد الانقسـام قُوضت إسـرائيـل ودمـرت جسور التقارب كلها وحتى عامل التقارب الديني قُوض أيضاً ببنائها لمركزين رئيسيين في بيت إيل ودان، فأدى ذلك إلى تفرق روحي نهائي للدولتين العبرانيتين، وإلى تخريب العلاقات بينهما نهائياً.

لنحـاول تحليـل ماحصـل في إسـرائيـل، فيمـا يخص تركيبـة السكـان فإن القبـائل الإسـرائيليـة أقليـة في البلد، وقد تعرضت لتأثير كبير من قبل القبائل الكنعانية الأخرى ذات

الحضارة الدينية والثقافية العريقة، مما اضطر يربعام وغيره من ملوك إسرائيل أن تحسب لهذه القبائل حسابها، لذلك نجد أن عبادة يهوه اتسمت هناك بطابع وثني، وقد انعكس ذلك في وضع العجل الذهبي وطرد المتعصبين ليهوه من البلد - أي الكهنة واللاويين -، كما لم تستطع إسرائيل الضعيفة الدفاع عن نفسها ضد تأثير الدول المجاورة - فينيقية ودمشق -، فقد تعمقت جذور هذين البلدين الدينية أكثر فأكثر في إسرائيل حتى صارت اليهوهية مهددة بالانقراض في بعض الفترات، ففي عهد آخاب وزوجته الفينيقية إيزابيل اتسم الصراع ضد اليهوهية بالدموية الفظيعة فتخبرنا التوراة أن الملكة المتعصبة لآلهة الفينيقيين طاردت وقتلت أنبياء يهوه، فقام عصيان في البلد بقيادة النبي إيليا، لكن اضطرار ذلك النبي إلى مغادرة البلد يدل على فشل العصيان، وقد بقي الوضع كذلك حتى اعتلى العرش الملك ياهو، الذي صفّى الحساب مع الآلهة الغريبة، لكن نصر يهوه أو بالأصح اليهوهية كان قصير العمر، فياهو نفسه تحول إلى الوثنية محاولاً كسب تأييد الغالبية العظمى من شعبه، حتى يربعام أول ملك إسرائيلي يعتلي العرش بمساعدة مجموعة النبي أشعيا اليهوهية، فَضّل الوثنية وساعد على انتشارها.

في الحقيقة إذا ما نظرنا إلى تاريخ مملكة إسرائيل من هذه الزاوية، فإننا نرى متعجبين أن التوراة، إما أنها تتهم ملوك إسرائيل بعبادة آلهة غريبة أو تحيط معتقداتهم الدينية بصمت مطبق، مما يدل على الأمر الأول نفسه، وبعبارة أخرى لم يوجد بين كل الملوك ملك يهوهي مخلص يستحق رضا مؤلفي أسفار التوراة، لكن كيف كانت الأمور التي نتحدث عنها في يهوذا؟ فظاهر الأمر يدل على أن ذلك البلد المحصن بسلاسل جبلية منيعة، المحتفظ لنفسه بعنصر العبادة التقليدي - تابوت الشهادة -، البلد الذي غالبية سكانه من اليهود، كل ذلك يدل على أنه يجب أن يكون قلعة ديانة موسى وحصنها المنيع، ومع ذلك فإن عبادة الآلهة الغريبة وطقوسها طالما سادت هناك، فالتوراة تتهم ثمانية من ملوك يهوذا بالوثنية وبملاحقة الكهنة، فالملك آحاز قدم ابنه قرباناً للآلهة، ويوآش قتل الكاهن زكريا لأن هذا اتهمه بالوثنية، أما منسى فقام بمطاردة عنيفة لأتباع يهوه.

رغم ذلك كانت اليهوهية في يهوذا أقوى بكثير منها في إسرائيل، بفضل بعض الملوك مثل آشا ويهوشافاط ويهورام وحزقيّا ويوشيا، كانت ديانة موسى تعود إلى الحياة المرة تلو الأخرى، وفي نهاية المطاف انتصرت على الطقوس الدينية الأخرى، ويعود الفضل الأكبر في ذلك ليوشيا، الذي قام باصلاحات دينية جذرية، ووضع معايير قانونية مذكورة في سفر التثنية.

وهكـذا فإن الصـراع الـديني العنيف الـذي دام فترات طويلة ، طالما أضعف وأنهك الـدولتين ، كمـا إن ذلـك الصـراع كان مرتبطـاً بتـوازن القـوى السيـاسيـة الخـارجية بآلاف الخيـوط ، فالقـوى أو المجمـوعـات المتصـارعـة في السـامرة وأورشليم ، كانت تبحث عن الدعم أحياناً في سورية ، وأحياناً أخرى في آشور وثالثة في مصر ، فصارت يهوذا وإسرائيل مركزاً للمؤامرات السياسية التي أدت بهما في نهاية الأمر إلى الهلاك .

كمـا ازدادت العـلاقـات الاجتمـاعيـة سوءاً في داخـل الـدولتين ، وكـالعـادة لم تؤد الحـروب الـدوليـة والثـورات والانقـلابـات الحكومية والفوضى الدينية إلى الفوضى العامة فقط ، بل ألهبت التفاوتات الطبقية وعمقتها .

ازدادات الجموع الشعبية المنهكة بالضرائب فقراً وفاقة في الوقت الذي ازدادت فيه حفنة من الملاك غنى وبذخاً .

فظهـر بعض الحكمـاء ، مثل الأنبياء : عاموس ، وارميا ، ونحميا ، الذين رفضوا ولعنوا الاستغـلال والـربـا وظلم الأغنيـاء وللفقـراء ، ولكن ، ويـا للأسف الشديد لم تكن التعاليم والمواعظ والدعوات قادرة على تغيير مجرى التاريخ .

هذا وتعتبـر الـرسالة التي كتبها أحد الفلاحين الإسرائيليين والتي وُجدت سنة ١٩٦٠ في فلسطين ، تعتبـر تلك الـرسـالـة مثالاً معبراً عن العلاقات التي سادت المجتمع في تلك الأيام ، ويعتبر العلماء أن الرسالة كُتبت في القرن السابع ق . م ، وهي مؤلفة من أربعة عشر سطـراً تكـون نصـاً منقـوشـاً على حطـام إبريق ، النص غير كامل بسبب ما أصاب الإبريق ، ولكن مضمـون النص بقي واضحـاً ، فالفـلاح الـذي انهى جني محصـوله لتوه يرفع شكوى لأميره ضد جابي الضرائب ، الذي انتزع منه رداءه دون أسباب داعية لذلك .

واذا أخذنا بعين الاعتبار أن الرداء كان بالنسبة للفلاح الإسرائيلي غطاء ولحافاً أيضاً ، فإننا نفهم قساوة جباة الضرائب ، فالرداء على مايبدو كان الشيء الوحيد الذي يملكه الفلاح المظلوم .

مع مرور الـزمن صار ، حتى الأغنيـاء ، يعـانـون من الحـروب والفـوضى السيـاسية ، فالقبائل المعادية أنهكت البلد بهجماتها ، فالجزية الكبيرة التي كانت تُدفع للدول المجاورة انتُزعت من جيوب من يملك الذهب والفضة ذلك لأنه لم يعد لدى الجموع الفقيرة ما يُنتزع منها .

اضطـر الطـاغيـة الدموي منحيم رغم حكمه الإرهابي ، أن يعتمد على آشور ليتمكن

من الاحتفـاظ بالسلطـة، وقـد طلب تغـلات فلاسر الثالث مقابل ذلك جزية هائلة هي ألف وزنـة فضـة فجمـع منحيم الكميـة المطلوبـة، فانتـزع من كل غني من خمسـة إلى عشـرة شواقـل، يعني هذا أن ستين ألف شخص (ثـلاثـة ملايين مقسمـة على خمسين) اضطـروا لدفع ضريبة كبيرة ليتمكن الطاغية من البقاء على العرش.

وعلى ضوء هذه الحقـائق تصبـح معـروفـة انقـلابـات القصور واغتيالات الملوك في إسرائيل، لم تخل يهوذا أيضاً من الانقلابات واغتيالات الملوك، لكن سلالة واحدة تنازعت العـرش دائمـاً، وتنـاوبت عليـه، هي سلالـة داود الملك، هذا في الوقت الذي تبادلت فيه عرش إسرائيل تسع سلالات وصلت سدة الحكم بالطغيان وقوة السلاح والدم.

لقـد أضعفت الخـلافـات السلالية بين حكام إسرائيل ويهوذا، وكذلك صراع الكهنة من أجـل فرض سيطـرتهم أضعفت الـدولتين وأسـاءت إلى مصـالح الشعوب، في الحقيقة حدث أن عاش ملكـان في سلام وتفـاهم، لكن ذلـك كان نادر الـوقـوع ولم تكن العلاقات السلميـة إلا ضربـاً من ضروب المنـاورات السيـاسية، ولم تكن نابعة مطلقاً من شدة وطنية الملكين، أمـا بشكـل عام فإن الدولتين اعتادتا على خوض الحروب فيما بينها وطالما طلبتا المساعدة من أعدائهما.

نورد ثلاثـة أمثلة تصـور لنـا مدى قصر النظر السياسي عند حكام الدولتين، إن مسبب الانقسام يربعام كان بلا شك مدعوماً من قبل فرعون مصر، وكانت النتيجة المباشرة لعصيانه أن الفـرعـون شيشنق الأول نهب كنعـان، وأخـذ معـه كل نفائس معبد أورشليم بعد خمسة أعـوام فقـط من موت الملك سليمان، والملـك الإسرائيلي يوآش نهـب أيضاً معبد أورشليم وهدم سور المدينة جزئياً، والملك فقح وقع اتفاقاً مع دمشق هاجم مع ملكها يهوذا ساعياً لضم يهـوذا إلى الحلف المعـادي لآشـور، فنهبهـا وحـاصـر أورشليم، فدعـا الملك آحـاز الآشـوريين لنصـرتـه، ومـاكـان لتلك السياسة المميتة إلا أن تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى فناء الـدولتين في الـوقت الـذي ذابت فيـه عشـر قبائل إسرائيلية، بلا أثر في خليط شعوب مابين النهرين، وكان ما يُعرف بالأسر البابلي بالنسبة لسكان يهوذا، ليس أسراً، بل انتقالاً بسيطاً مفيـداً جداً من النـاحية المادية، عدا ذلك فإن مجريات التاريخ ساعدتهم جداً، فقد سمح لهم الملك الفارسي كورش في السنة الأولى من حكمه بالعودة إلى وطنهم، فاتجهت أول طلائع العائدين إلى يهوذا سنة (٥٣٧ ق. م) وبالتالي فإن الأسر دام أقل من خمسين سنة.

لكن رغم قصر الوقت فإن الكثيرين من اليهود اعتادوا حياة الغربة ورفضوا العودة إلى

الـوطن، وكـان أولئـك النـاس مختلفين، ففيهم التجار والمزارعون والصناع الذين ربطتهم بوطنهم الجديد تصورات عملية، كما وكان بينهم ممثلو الجيل المولود في بابل والذي كان غيـر مبـال بديـانـة الآبـاء، لكنهم جميعـاً حافظوا على مصلحة وطنهم وقدموا المساعدات لإعادة بناء المعبد، وحافظوا أيضاً في غربتهم، على عاداتهم وطقوسهم القديمة.

ممـا لاشـك فيـه أن أول من أبـدى رغبتـه بالعـودة إلى الـوطن كان الفقـراء والكهنـة والـلاويـون، فأولئـك كانـوا أتبـاع يهوه المخلصين ويمثلون القسم الأكثر محافظة بين أتباع ديـانـة موسى، واللذين لم يأبهوا بطول طريق العودة وبصعوبة الحياة في أورشليم المدمرة. هكـذا جرى أو حصـل تجميع مركّز لليهوهيين المتعصبين في يهوذا لذلك يعتبر محقاً القول السائد بأن اليهود غادروا وطنهم قومياً وعادوا إليه تجمعاً دينياً.

وبهـذه الحقيقـة يُفسّـر كل مانعرفه تقريباً من سفري عزرا ونحميا، فأكثر مايبهر فيهما التأثير الهائل للديانة والكهنة في المجتمع اليهودي الجديد، لقد كان ذلك النظام تيوقراطياً صرفاً، يرئسه الكاهن الأعلى الذي يليه مجلس الشيوخ الممثل للطبقة الارستقراطية، وقد تحول مجلس الشيوخ لاحقاً إلى هيئة دائمة التأثير.

غير أن النظـام التيـوقـراطي لم يجلب الـديمقـراطية للشعب ولا المساواة، فقد اختلس الكهنة الأموال العامة، وتعرضت الجموع الشعبية لاستغلال لايعرف الرحمة.

يصف نحميـا الـذي أخـذ على عاتقـه إعـادة النظـام للبلد رغم تقـدمـه في السن، العلاقات السائدة آنذاك فيقول: «وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيماً على إخوتهم اليهود، وكـان من يقـول: بنـونا وبناتنا نحن كثيرون، دعنا نأخذ فنأكل ونحيا، وكان من يقول حقولنا وكـرومنـا وبيـوتنـا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحاً في الجوع، وكان من يقول: قد استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا وكرومنا والآن لحمنا كلحم إخوتنا، وبنونا كبنيهم وها نحن نُخضـع بنينـا وبنـاتنـا عبيداً ويوجد في بناتنا مستعبدات، وليس شيء في طاقة يدنا وحقولنا وكرومنا للآخرين.

فغضبت جداً حين سمعت صراخهم وهـذا الكـلام، فشـاورت قلبي وبكّت العظماء والـولاة وقلت لهم انكم تأخـذون الـربـا كل واحد من أخيه.. وقلت ليس حسناً الأمر الذي تعملونـه... ردوا لهم هذا اليـوم حقـولهم وكـرومهم وزيتـونهم وبيـوتهم، والجـزء من مئة الفضة، والقمح والخمر والزيت، الذي تأخذونه منهم رباً، ولكن الولاة الأولين الذين قبلي ثقلوا على الشعب وأخـذوا منهم خبـزاً وخمـراً، فضلاً عن أربعين شاقلاً من الفضة حتى إن

غلمانهم تسلطوا على الشعب». (سفر نحميا، أصحاح ٥ ـ آيات ١ ـ ٧ ـ ٩ ـ ١١ ـ ١٥).

ومع الاستغلال وإساءة استخدام السلطة، نما الفساد الأخلاقي واللامبالاة بالشؤون القومية، فالرجال والنساء تزاوجوا مع شعوب غريبة عنهم من الناحية العرقية، وكثيراً ما كان الأولاد الناتجون من تلك الزيجات لايعرفون لغتهم الأم، وسيطرت اللغات الغريبة في شوارع أورشليم، أضف إلى ذلك أن معظم العائدين استخدموا في حديثهم اللغة الآرامية التي سادت آنذاك في بابل، وخلاصة القول صار اليهود تحت خطر الانقراض كقومية.

كانت ردة فعل عزرا ونحميا على تلك الظواهر حادة وعاصفة، فوضعا قوانين صارمة للزواج، مما أرغم اليهود المتزوجين من أجنبيات على طرد نسائهم إلى أوطانهن ومعهن أولادهم منهن، أو يغادرون البلد بأنفسهم. يُحدث المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس عن شخص يدعى منسى، يهودي من عائلة معروفة وغنية، سعى منسى لتسلم منصب الكاهن الأعلى، لكنه رُفض بسبب زوجته الأجنبية، فعينه حاكم السامرة كاهناً أولاً في المعبد الذي بناه على أحد التلال، فاجتمع إليه عدد من الكهنة واللاويين المطرودين من أورشليم بسبب زواجهم من الأجنبيات.

لقد أثرت المساعي الهادفة لعزل اليهود كلياً عن الشعوب المجاورة تأثيراً كبيراً على الديانة اليهودية، فصارت تلك الديانة سلاحاً في يد السياسة الشوفينية، وحجاباً يعزل الشعب اليهودي القليل العدد عن المؤثرات الخارجية، وأصبحت الحياة حتى بأتفه دقائقها منظمة بقواعد طقوسية مفصلة، لا يملك أحد الحق أيام السبت في السفر أو حصيد سنبلة قمح إذا جاع. . حتى إن إخراج حمار وقع في حفرة اعُتبر كفراً إذا ما تم ذلك يوم السبت.

يذكر الكتاب اليهود تسعة وثلاثين عملاً حُرم القيام بها أيام السبت، لذلك لم يوافق الكثيرون على قساوة ذلك الطقس وغادروا مملكة يهوذا.

وقد استغل الكهنة تلك الشكلية الدينية الصارمة القريبة من الفيتشية (عبادة الرُّقى) لتدعيم سلطتهم وسيطرتهم على الشعب، أما ديانة موسى فصارت بسبب ذلك عديمة الروح وفقدت عمقها الأخلاقي، ولكن لحسن الحظ وجد في يهوذا تيار ديني آخر ممثل بالأنبياء.

تحتوي التوراة على أسفار ستة عشر نبياً، أشهرهم عاموس وأشعيا وأرميا وحزقيال، ولايعني بالطبع وصف الخيال الشعبي لهم بأصحاب قوى خارقة لامعقولة، لايعني ذلك انهم أسطوريو الأصل، لكن مما لاشك فيه أيضاً أنهم ليسوا أصحاب كل النصوص

التوراتية المنسوبة إليهم، فالبحوث اللغوية أثبتت قطعياً أن الأسفار المنسوبة لأولئك الأنبياء ليست إلا مختارات مأخوذة في أحسن الحالات من مقاطع حقيقية لهم، ونصوص لكتاب مجهولين عاشوا في حقب زمنية مختلفة.

هكذا يمكننا القول إن أسفار الأنبياء مُلك عام لليهود، وتعبر عن الأفكار التي طغت على عقولهم بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد.

لم يكن أولئك الأنبياء يملكون أي شيء مشترك مع المتنبئين الجوالين، رغم أنهم يعتبرون الصيغة النهائية المتطورة لعادة التنبؤ الديني القديمة جداً. لقد تميزوا قبل كل شيء بأن التنبؤ لم يكن عندهم مهنة صرفه، وهم لم يكسبوا لقمة العيش من خلال التنبؤ بالمستقبل، فهم حكماء ومعلمون للشعب وشخصيات اجتماعية وسياسية، ويمثلون نظريات دينية تعتمد على مبدأ الحساب الشخصي، أو المسؤولية الأخلاقية الخاصة للشخص أمام الرب، فأشعياء كان مزارعاً ميسور الحال، وأرميا من نسل سلالة كهنوتية أرستقراطية، وحزقيال كان كاهناً في معبد أورشليم، وكانوا جميعاً مقتنعين بأن يهوه قد أوكل إليهم مهمة دينية واجتماعية هامة.

وضع أولئك الأنبياء المفهوم الأخلاقي للديانة اليهودية في المقدمة، فالنبي عاموس مثلاً أعلن بصراحة أن مايبغيه هو أن يكون الناس عادلين، وأن يبقى الرب في قلوبهم، وأنه (عاموس) غير مهتم أبداً بمسائل التقليد والطقوس الظاهرية في عبادة يهوه، أما النبي ميخا فعبّر عن هذه الفكرة ببساطة أكبر عندما قال بأن يهوه يطلب من الإنسان قبل كل شيء الطيبة والعدالة والرحمة، وأشعيا جعل من يهوه إلهاً لجميع البشرية عندما أعطاه صفات عامة شاملة، بحسب تعاليم أشعيا يبقى اليهود، كما كانوا في السابق شعب الله المختار، ولكنه مختار فقط من أجل أن يمنح الإنسانية الهداية كي يجنب العالم الفناء، كانت تلك الفكرة حديثة تماماً وتركت تأثيراً كبيراً على المجتمعات المسيحية الأولية.

ومن الجدير بالذكر أن بعض العلماء يرى تأثيراً معيناً لفترة الأسر البابلي في الفكرة التوحيدية العميقة، التي تبرز في كتابات أولئك الأنبياء، فاليهود على ما يبدو نظروا بعطف إلى الفرس أتباع زردشت الذي علمهم أن في العالم قوتين متعاديتين متضادتين هما إله النور والخير أهورمزدا، وإله الشر أهريمان، ولاهوت أهورمزدا يحمل بلا شك الكثير من الصفات المشتركة مع لاهوت يهوه؛ فالفرس، كما هو الحال عند اليهود لم يعبدوا الأصنام، وهذا ماقرب بعضهم لبعض، والمعتقدات المسيحية الثنوية الرئيسية (ـ الإله والشيطان ـ

السمـاء والأرض ـ النـور والظـلام ـ) تعود بأصلها إلى الحقبة الفارسية، فاليهود أخذوها من الفرس أيام حكمهم لهم، ومن ثم نقلوها إلى المسيحية الأولى.

وهكـذا فقـد كانت أفكـار الأنبيـاء ثوريـة جداً، فالـديـانة في تعاليمهم لم تعد قانوناً جتـماعيـاً أو مدرسـة عامـة، بل شيئـاً خاصـاً بكل فرد على حدة، لقد أكدوا بأن يهوه لا يقدّر الأشكال الخارجية للطقس والتقليد بل يقدر الرقي الأخلاقي والشرف والطيبة والعدالة.

كتب أرسطـو: أنـه لمن الغـريـب العجيب أن يعلن أحد ما بأنه يحب الإله، وقد علم بعض الأنبياء حب الإله تحديداً، ووضعوا بتلك الفكرة بداية عهد جديد في حياة الشعوب الدينية.

تمثلت النتيجة المنطقية لتلك المبادىء الأخلاقية في النقد اللاذع والحاد للعلاقات الاجتماعية في إسرائيل ويهوذا، فقد أنّب الأنبياء أبناء شعبهم على ارتدادهم الديني وعلى فسـاد أخـلاقهم وميـوعتهم، كمـا قذعـوا الملوك على دعارتهم وجرائمهم، وتنبؤوا للشعب بالفقر والعذاب إن لم يعد إلى طريق الهداية والحق.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن الأسباب الداعية للنقد وفيرة جداً، ففي الوقت الذي عاش فيه الأغنيـاء ببـذخ كانت الجمـوع الشعبية تسير بمنحدر الفقر والفاقة والملوك جروا الناس رغماً عنهم إلى الأعمـال الإجباريـة في بنـاء المعـابد والقصور والقلاع، أما هُم فسكنوا القصور محاطين بالكثير من العبيد والعشيقات.

عُرفت العبـوديـة في كنعـان منـذ القـديم، لكن العبودية الواسعة الانتشار والضخامة عُرفت زمن الملوك اليهود فقط، وبعد العودة من الأسر البابلي.

تحمّـل النفقـات العسكرية بكل ثقلها الفلاحون والرعاة، مما أدى إلى إفلاسهم في النهاية، فالاستغلال واستبداد الأغنياء والضرائب الباهظة والديون الثقيلة، كل ذلك زاد من فقر جموع الشغيلة، ورفع غنى وسلطة الملاك، لقد صرخ النبي أشعيا يائساً: «ويل للذين يصلون بيتـاً ببيت ويقـرنـون حقـلاً بحقل حتى لم يبق موضع، فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض»، (سفر أشعيا، أصحاح ٥ ـ آية ٨).

اتصف الأنبيـاء أيضـاً ببعد النظر السياسي، فأشعيا حاول ثني الملك آحاز عن طلب العون من الآشوريين ضد الاتفاق السوري الإسرائيلي، وأرميا خاطر بحياته وذم المتعصبين الـذين حرضـوا يهـوذا ضد الكلدانيين معتمـدين بذلـك على تأييد مصر لهم، وحتى حينما

حاصـر نبـوخـذ نصـر أورشليم دعـا أرميـا إلى الاستسلام، وقد أثبتت الوقائع اللاحقة مقدار صحة ومنطقية موقفه.

اتسم هؤلاء الـزعمـاء الـروحين والمعلمـون والأنبيـاء المتحمسـون والشعراء العظام بأفضل صفات الشعب اليهودي، وتركت مبادئهم الأخلاقية وأفكارهم الدينية ودعواتهم إلى العدالة الاجتماعية، تركت كلها أثراً كبيراً على حضارة اليهود خلال الألفي سنة اللاحقتين.

ينتهي تاريـخ إسـرائيـل ويهـوذا التـوراتي إلى تعداد الملوك، وتقدير فترة حكمهم من وجهة النظر اليهوهية، وفي معظم الحالات لانعرف الأسباب التي دعت الملوك للقيام بهذا العمـل أوذاك، لانعـرف أسبـاب الحـروب السيـاسيـة والنفسية، وكذلك اتفاقات الصداقة وغيـرهـا من الأمـور الـدبلومـاسيـة، فالتوراة تخبرنا فقط متى حكم الملك الفلاني أوغيره، بكلمة واحدة ليس التاريخ التوراتي إلا تعداداً مقتضباً للوقائع دون ذكر علاقاتها السببية.

ولحسن الحـظ فإن تاريـخ إسـرائيـل ويهوذا ارتبط بتاريخ دول العالم القديم العظمى فيمـا بين النهـرين ومصـر، ففي بابـل وآشـور ومملكة الكلدانيين البابلية الحديثة وفي مصر حفظ سجل محفوظ ضخم، وكذلك كتابات في المدافن والمعابد وعلى الصخور.

وفي النصـوص التي تتحـدث عن تاريـخ تلك الـدول يوجد الكثير من الأشياء، التي تلقي نوراً كاشفاً على أحداث إسرائيل ويهوذا، وبفضل تلك الاكتشافات صار من الممكن ليس فقـط إيجـاد العـلاقـات السببيـة للكثير من المعلومات التوراتية، بل صار من الممكن إثبات صحة أو عدم صحة تلك المعلومات، وعدا ذلك فإنه صار من الممكن أيضاً تحديد سنـوات حكم ملوك إسـرائيـل ويهـوذا والتواريخ الهامة للدولتين، نورد مثالاً على ذلك تقول التـوراة ان كورش في أول سنـة لحكمـه في بابـل سمح لليهود بالعودة إلى أورشليم وبفضل الحسـابـات المبنيـة على أسـاس الـوثـائق الفـارسيـة، نعرف ان ذلك حدث في نهاية عام (٥٣٩ ق.م) وبما إنّ العائدين جهزوا أنفسهم للعودة خلال بضعة شهور فإن أول مجموعة منهم تكون قد غادرت نحو أورشليم ليس قبل ربيع (٥٣٧ ق.م).

كان لعملنـا أن يبـدو عديم الفـائـدة لو اقتصـرنـا فيـه على النص التوراتي الضبابي، والموجز، ولم نستخدم المواد الغنية التي أمنها لنا علم الآثار.

لذلك يعتبر السفر الذي يتحدث عن تاريخ إسرائيل ويهوذا، مجمعاً مأخوذاً من عدة مصـادر تاريخيـة، فالنص المستنـد قبـل كل شيء على سفـري الملوك الأول والثـاني مضـافـاً إليه معلومات مأخوذة من أسفار عزرا ونحميا من تنبؤات أشعيا وأرميا وحزقيال، وكذلك من

الوثائق المحفوظة في بلاد مابين النهرين ومصر.

إن المكتشفات الأثرية في مصر ومابين النهرين، تثبت صحة وقوع ماجاء في النصوص التوراتية المذكورة وتلك المكتشفات كثيرة لدرجة لايمكن تعدادها جميعاً، لذلك سنكتفي بأهمها وأفضلها.

تذكر التوراة أنه بعد خمس سنوات من الانقسام هاجم الفرعون شيشنق يهوذا ونهب معبد أورشليم، لقد وُجدت لوحة حجرية في معبد الكرنك تمثل حملة شيشنق تلك، نرى في اللوحة الإله المصري آمون يجر بحبل مائة وستة وخمسين أسيراً يهودياً، يمثل كل منهم مدينة احتلها ونهبها الفرعون، ومن تسميات المدن نتعرف على شيء ممتع: هو أن شيشنق لم يرحم حتى يربعام الذي كان يؤيده، لذلك هاجم مملكة إسرائيل الحديثة ونهبها كما نهب يهوذا.

أخضع عمري ملك إسرائيل الكبير، لسلطته مملكة موآب، وأخذ من عامله عليها الجزية مدة أربعين سنة، وتألفت الجزية من مائة ألف خروف في السنة، وفي عهد يورام عصى الملك الموآبي، وامتنع عن دفع الجزية فهاجم يورام بمساعدة يهوذا وأدوم الملك الموآبي مسّه، تقول التوراة ان القوات المشتركة انتصرت على مسّه ونهبت بلاده.

على ضوء هذا القول تصبح غير مفهومة الآية التوراتية التي تقول بأن المنتصرين: «انصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم». (سفر الملوك الثاني، أصحاح ٣ - آية ٢٧).

لقد فسر علماء الآثار هذه الجملة اللغز، ففي عام ١٨٦٨ م اكتشف المصلح الألماني كلين، إلى الشرق من البحر الميت، حجراً بازلتياً أزرق اللون كبير الحجم عليه كتابة مؤابية، عرض كلين على العرب أربعين دولاراً مقابل الحجر الكبير الأهمية لكن الفرنسيين عرفوا بالأمر قبل أن تتم الصفقة، فسبقوا كلين وعرضوا على أصحاب الحجر ألفاً وخمسمائة دولار، مما جعل أصحابه يعتقدون أن للحجر صفات سحرية، فاشعلوا النار تحته وصاروا يرشونه بالماء حتى تفتت إلى قطع صغيرة وصاروا يبيعون تلك القطع كطلاسم وتعاويذ، فاضطر الأثريون الفرنسيون إلى صرف جهد كبير ومال كثير لشراء القطع الصغيرة، وإعادة تجميع الحجر من جديد وهو محفوظ اليوم في متحف اللوفر بباريس، يفهم من الكتاب ان مسّه قد أنهزم فعلاً في البداية، وتحصن في قلعة قيرحارسه حيث قدم ابنه قرباناً للإله كيموس ليكسب تأييده، ثم تتحدث السطور اللاحقة بفخر عن انتصار مسّه وإلحاقه الهزيمة بالعدو، وبأن «إسرائيل قد أبيدت إلى الأبد».

وهكذا نرى أن الطرفين يدعيان النصر ويتباهيان به، لكن بما أن يورام لم يقض نهائياً على موآب، كما تقول التوراة «رجع إلى أرضه»، فإنه يمكن الاستنتاج بأن الحرب كانت دموية وصعبة، لكن أحداً من الطرفين لم يستطع حسمها لصالحه، ومما لاشك فيه أن مسّه حرز بلاده فعلاً من الاستعمار الذي طال بقاؤه. تتحدث التوراة عن حادثة بقيت فترة طويلة غير مفهومة: دمر الملك آخاب مملكة دمشق دماراً تاماً وأخذ ملكها بنحدد الثاني أسيراً. ولكنه خلافاً للعادة السائدة لم يقتله ولم يهدم عاصمته. بل على العكس عامله بإنسانية ولطف وأركبه عربته وسماه أخاً له وحتى أنه وقع معه اتفاقاً على الوحدة بينهما، وأطلق سراحه.

كل ماكان يمكن عمله هو التكهن بأن سراً يكمن وراء سماحة آخاب، التي لم يُعرف بها من قبل، بل ووراء هذه الصفة الغريبة تماماً عن العصر الذي جرت فيه الحادثة.

حُلّ اللغز بعد اكتشاف كتابات الملك الآشوري شلمانصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٥ ق.م) فشلمانصر يقول في كتاباته إنه انتصر على حلف مؤلف من اثني عشر ملكاً بينهم آخاب وبنحدد، وبعد أن أفنى خمسة وعشرين ألفاً من العدو حاصر دمشق، لكنه على مايبدو لم يتمكن من دخولها لأنه عاد إلى نينوى، ولم يقم بحملة أخرى خلال خمس سنوات، يُستنتج من نص الكتابة أن مصير المعركة لم يحسم نهائياً، فقد صمدت دمشق وعاد آخاب إلى وطنه ضعيفاً، ولكنه غير منهزم هزيمة نهائية.

على ضوء هذه المكتشفات الحديثة يصبح النص التوراتي مفهوماً، فآخاب قد شعر بالطبع بقوة آشور المتنامية، ولم يكن من مصلحته إضعاف سورية جداً لأنها تقع على الطريق بين آشور وإسرائيل، لذلك اختار آخاب كسياسي حكومي ثاقب النظر، السياسة المنطقية الوحيدة التي كانت أمامه آنذاك، وهي الوحدة مع عدو الأمس، ولكن تلك الوحدة لم تكن متينة، فما كاد الآشوريون يعودون إلى ديارهم حتى اشتعلت نار الحرب القديمة بين سورية وإسرائيل، وقتل آخاب في إحدى تلك المعارك.

إن أكثر ما أثار فضول العلماء هو ما عُرف «بالمسلة السوداء» التي اكتشفها سنة ١٨٤٦م الأثري الانكليزي لايارد بين أنقاض مدينة آشورية على تل نمرود. والمسلة تلك رباعية الجانب من البازلت الأسود وجوانبها الأربعة مليئة بالنقوش الحجرية والكتابات المسامرية، وعلى أحد جوانبها رسم للملك شلما نصر الثالث مع حاشيته وصف من العبيد يقدم له الهدايا الثمينة من عاج وأقمشة وأباريق وسلال، وفي مكان آخر من اللوحة عبيد

يجرون له الهدايا من الحيوانات: فيلة، وجمال، وظباء، وقردة، وثيران ووحيدات قرن.
ويمثل رسم آخر شلما نصر أيضاً واقفاً بفخر مستقيم القامة، وأحد أعوانه الحسني الملبس يهوّي له بمروحة؛ بعد بضع سنوات من اكتشاف المسلة استطاع الإنكليزي (رولنسون) فك رموز كتابتها، فتبين أن من كان يهوي للملك بالمروحة ليس سوى الملك ياهو الذي قتل آخاب وإيزابيل، وتقول الكتابة التي تحت الرسم «إتاوة الملكة ياهو الذي من بيت عمري (أي من نسل عمري الملكي)، فضة وذهب وإناء ذهبي وصحون ذهبية وسطول ذهبية وقصدير وصولجان للملك وشجرة بلسم». وكان ذلك حوالي (٨٤٢ ق.م)(*١٥).

إن التوراة تحيط حقيقة أن ياهو كان عاملاً لآشور بصمت مطبق، كما تشرح الكتابة الآشورية السبب الذي حدا بملك دمشق مهاجمة إسرائيل وتدمير مدنها، أن ذلك الهجوم كان انتقاماً من ياهو الذي أخل بالاتفاق المعقود مع دمشق ضد آشور، والذي استسلم لآشور دون قتال، لما اندلعت الحرب ودفع لها جزية عظيمة ذهباً وفضة، لقد كان لسياسة ياهو الجبانة نتائج خطيرة مدمرة، فبعد معارك دموية طويلة مع دمشق انهزمت إسرائيل في يهو آحاز انهزاماً كبيراً، وأُرغمت على تقليص جيشها إلى خمسين خيّالاً وعشر مركبات قتال وعشرة آلاف من المشاة، لقد بيّنت لنا «المسلة السوداء» كم كان الطغاة الإسرائيليون قصيري النظرة السياسية، وكم كانت سياستهم مميتة ومهلكة، وسورية التي تركها شركاؤ ها وحيدة تواجه قدرها اضطُرت الى القتال ضد الدولة الآشورية العظيمة القوة فخسرت المعركة. وإسرائيل التي انهكتها المعارك مع حليفها الطبيعي وجدت نفسها في نهاية المطاف محتلة من قبل صارغون الثاني، ودُمرت السامرة وأُخذت عشر قبائل إسرائيلية عنوة إلى مابين النهرين، حيث اختفت بلا أثر.

تذكر التوراة صارغون مرة واحدة فقط، وذلك في معرض حديثها عن إعادة بناء مدينة آزوت، وتسمي التوراة فاتح السامرة (بالملك الآشوري) كان من الصعب التكهن بأن الحديث يدور حول صارغون، خاصة وأنه قبل ثلاثة أسطر يذكر الملك شلمانصر، ولم يحل تلك الإشكالات سوى الكتابة التي اكُتشفت على جدار القصر الملكي في هورس آباد، فقد تبين أن شلما نصر بدأ حصار السامرة لكنه مات بعد سنة من ذلك، ولم تفتح المدينة إلا على أيدي خليفته صارغون الذي حاصرها سنتين أخريين، فيكون الحصار قد دام ثلاث سنوات، وتكون السامرة قد سقطت سنة (٧٢١ ق.م).

يقول صارغون في الكتابة المكتشفة «لقد حاصرتُ، ثم فتحتُ السامرة وأخذت

كغنيمة حربية سبعاً وعشرين ألفاً ومائتين وتسعين من قاطنيها ، وشكلت منهم لواء ملكياً فيه خمسون مركبة حرب . .

أمـا المـدينـة فأعدت بناءها وجعلتها أكبر وأجمل مما كانت عليه ، أسكنت فيها أناساً من البـلاد التي فتحتهـا ، ونصبّت عليهم حاكمـاً ، وفـرضت عليه دفع جزية مثيلة لتلك التي يدفعها حكام الشعوب الأخرى الخاضعة لآشور» .

تتحـدث التـوراة في ثلاثـة مواقـع عن فخـامـة وعظمـة القصـر الملكي الموجود في السـامـرة . يقـول سفـر الملوك الأول (أصحـاح ٢٢ ـ آيـة ـ ٣٩) بأن آخـاب بنى البيت من العـاج ، أمـا عامـوس (أصحـاح ٣ ـ آيـة ـ ١٥) فيتنبأ «واضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج ، وتضمحل البيوت العظيمة ـ يقول الرب» ، وأخيراً تذكر قصور العاج في المـزمـور الخـامس والأربعين ، الـذي يعتقـد العلماء بأنه ليس إلا نشيد العرس الذي وضع على شرف آخاب وإيزابيل .

لقـد اعتُبـرت هذه الأخبـار الصعبـة التصـديق واحداً من أمثلة الخيال الغني والواسع الـذي يتصف به الشـرق أو بالأصح شعـوب الشـرق ، لكن الاكتشافات الأثرية في السامرة أثبتت أن ذلك لم يكن خيالاً وإنما حقيقة أو شيئاً قريباً من الحقيقة .

ففي الفتـرة مابين ١٩٣١ م ـ ١٩٣٥ م قـامت مجمـوعـة أثـريـة إنكليـزيـة وأميـركية بالتنقيب عن أنقـاض السـامـرة فاكتشفت أسـاسـات السـور وأبراجاً ومستودعات لخزن مياه المطـر ، لكن الإكتشـاف الهـام كان قصـر آخـاب وإيـزابيـل ، يقع ذلك القصر على الطرف الغـربي للجبـل حيث ينبسـط أمـامه البحر المتوسط بكل روعته ، وعلى جداره رسم محفور يمثل النبع الذي غُسلت فيه مركبة آخاب الملطخة بالدم ، ولكم كانت دهشة الأثريين كبيرة حين وجـدوا بين الأحجـار واللبن آلافـاً مؤلفـة من بقايا بلاطات من العاج ، المليئة بالرسوم المحفـورة للعـرش والسـوسن والكـولان والنخيـل والأسـود والثيران والغزلان ، وكذلك لأبي الهول والآلهة الفينيقية ، بالطبع لم يكن القصر مبنياً من العاج ، لكن جدرانه وأثاثه كان مزيناً بكمية هائلة من البلاطات العاجية لدرجة أنه يخيل للمرء معها أن القصر مبني من العاج .

لندع الآن إسرائيل ولننتقل إلى يهوذا ، وهنا نصطدم أولاً بلغز الملك الحكيم التعيس عزريـا ، إذ نقـرأ في سفر الملوك الثاني (أصحاح ١٥ ـ آية ـ ٥) «وضرب الرب الملك فكان أبـرص إلى يوم وفـاتـه ، وأقـام في بيت المـرض» . اعتقـد التـوراتيون أن عزريا أقام في قبو قصـره ، وصـار يحكم عنـه بالتنـاوب ابنـه يوثـام وحفيـده آحـاز ، في الحقيقة لم يكن يُسمح

للمصابين بالبرص بالبقاء في أورشليم، لكن ربما حصل استثناء في حالة الملك تلك إلا أن ذلك الاعتقاد نفي تماماً عندما اكتُشفت في منطقة رام انقاض قلعة، لم تذكر في المصادر التاريخية مطلقاً، وكانت تلك القلعة محاطة بسور سماكته ثلاثة أمتار تقريباً وأبوابها من النحاس والبرونز، في بهوها ثلاثة أبنية في إحداها باب خلفي سري يمكن بواسطته مغادرة القلعة سراً.

من بنى هذه القلعة على هذه المسافة القريبة من العاصمة؟ أن كل شيء يدل على أن عزريا قد بنى تلك القلعة لنفسه، لقد وجدت بين الأنقاض أيضاً أعداد كبيرة من تماثيل عشتار، ونحن نذكر أن الأنبياء قد اتهموا الملك عزريا شخصياً بعبادة آلهة الفينيقيين، وعدا ذلك، فقد وجد رسم لرجل ملتح جالس، ولما كان الملوك والآلهة فقط يُرسمون جالسين، يصبح مما لاشك فيه أن القلعة تلك كانت مقراً للملك عزريا.

تسمي التوراة مكان إقامة الملك عزريا «ببيت المرض»، إذن لم يُسجن الملك المنكود الحظ ولم يُوضع رهن الاعتقال كبقية البُرص، بل أقام في قلعته المنعزلة يراقب، بفضل قربها من العاصمة أمور دولته.

بعد سقوط السامرة أدركت يهوذا حجم الخطر المحدق بها من جهة آشور، فقام الملك حزقيا بتدعيم سور أورشليم، وجمع الاسلحة في مخازن خاصة، كما اهتم كثيراً بتأمين المياه للمدينة بشكل متواصل، فقناة اليبوسيين القديمة التي تسللت منها قوات داود إلى المدينة لم تعد تصلح لجر المياه، وقد تكون أُغلقت عن قصد لمنع تسلل العدو عن طريقها، فتقول التوراة: إن حزقيا أمر بحفرة قناة جديدة لجر الماء من النبع إلى المدينة مباشرة حيث تجمع هناك من خزانات خاصة، وكما يحدث في أغلب الأحيان اكتشفت قناة حزقيا بمحض الصدفة، فقد كانت مجموعة من الأولاد العرب تلعب في المنطقة قرب النبع فوقع أحدهم في ماء النبع، ولما سبح نحو الضفة المعاكسة تنبه إلى وجود ممر في الصخر، كان ذلك الممر متعرجاً بطول نصف كيلو متر ويوصل الماء إلى الجزء الغربي من المدينة، في البداية استغرب حفر القناة بشكل متعرج وليس بشكل مستقيم، إذ كان بالإمكان في الحالة الثانية اختصار المسافة حوالي مائتي متر، لكن الدراسة الطبوغرافية للمنطقة بيّنت وجوب الدوران حول الصخرة الموجودة هناك والتي حفرت فيها مقبرة داود وسليمان.

لم يكن لدى أحد إثبات بأن تلك القناة هي فعلاً قناة حزقيا حتى عام ١٨٨٠ م فقد قدمت مجموعة من المعماريين الألمان الشباب لدراسة القناة، سار المعماريون في الماء

والطمي حتى وصلوا منتصف القناة، وهناك زلقت رجل أحدهم فوقع في الماء، لكنه لاحظ خلال وقوعه وجود كتابة غريبة على الجدار فلما سمع المستشرق الإنكليزي أرشيبالدسيس بنبأ الاكتشاف، توجه إلى أورشليم ليصور الكتابة، كانت مهمته صعبة للغاية إذ كان سيس يجلس لساعات طويلة في الماء العكر ويرسم الحرف وراء الحرف على ضوء شمعة، لكن الكتابة كانت تستحق ذلك المجهود فقد تبين أنها ممتعة ومفيدة.

يصف نص تلك الكتابة كيف حفر العمال القناة من طرفين متعاكسين، وكيف اقترب فريقا العمل من بعضهما البعض، وكيف سمعا أصوات بعضهما على مسافة ثلاثة أذرع وكيف. كانت فرحتهم بلا حدود عندما سالت المياه من النبع إلى المدينة، مما لاشك فيه أن اللغة التي كتب بها النص تعود إلى حقبة حزقيا الزمنية.

يعترف الملك الآشوري سنحاريب في كتاباته بشكل غير مباشر أنه لم يدخل أورشليم لكنه يتفاخر في الوقت نفسه أنه نهب يهوذا، وأخذ من حزقيا جزية ثلاثين مثقالاً ذهباً وثلاثمائة مثقال فضة وأنه حبس ملك يهوذا كما يحبس الطير في القفص، وبالطبع لايذكر الملك الآشوري الأسباب التي دعته لفك الحصار، أما التوراة فتصور فكه على أنه معجزة، فقد أرسل يهوه ملكاً قتل خمسة وثمانين ألف مقاتل آشوري.

حاول العلماء معرفة مايكمن وراء تلك المعجزة، ويُزْعَمُ أن المؤرخ الإغريقي هيرودوت قد أعطى تفسيراً لها فقد حدثه أحد المصريين بأن جيش سنحاريب فك حصار أورشليم مؤقتاً ليتحرك باتجاه مصر، لكن فأر الحقل هاجم معسكر الآشوريين وقرض القسي وأوتارها والأشياء الجلدية كلها، مما اضطر المقاتلين إلى الامتناع عن مواصلة القتال.

ونحن نعرف أن الفئران طالما ذكرت في الأساطير القديمة كرمز للوباء والعدوى، ونصادف مثل هذا الذكر في النصوص التوراتية وفي كتابات مصر ومابين النهرين، واستناداً لهذه المعرفة، يمكن الافتراض بأن جيش سنحاريب فك حصار أورشليم بسبب انتشار وباء خطير في جيشه، ويقوي من صدق هذه الفرضية اكتشاف الأثري الإنكليزي ستريتشي لمقبرة جماعية في منطقة مدينة لخيش فيها هياكل عظمية لألفي رجل.

من المعروف أن الكلدانيين قد هزموا الفرعون نخاو هزيمة منكرة في كركميش، مما حدا بالأثري الإنكليزي فولي أن يبحث بين أنقاض تلك المدينة فوجد آثاراً مأساوية لتلك المعركة الكبيرة، فقد وجد أرضية أحد البيوت في ضاحية المدينة مغطاة بطبقه سميكة من

الـرمـاد، وتحت الـرمـاد الكثير الكثير من السهام والرماح والسيوف، وكانت أكثر تلك البقايا متـوضعـة في مداخـل الغـرف وكلهـا محطمـة أو ملويـة نتيجة اصطدامها بالجدران وبطبقة المعـدن التي تكسـو الأبـواب فيـدل توضع بقايا الأسلحة ذاك على أن المعركة كانت عنيفة جداً، وأن المهـاجمين كانـوا يُحـاصـرون ثم يهـاجمـون البيـوت غرفة غرفة، للوصول إلى المدافعين الذين كانوا يقاتلون بضراوة شديدة، وفي نهاية المطاف انتصر المهاجمون ودمروا البيت.

وتفضـح مكتشفـات أخـرى الـدسـائس والمؤ امـرات السيـاسيـة في تلك الحقبـة، فالألـواح المسمـاريـة الأشـوريـة تثبت أن كركميش الحثية كانت تخضع لآشور، وتدفع لها الجزية، أما من ناحية أخرى فتدل كثرة تماثيل الآلهة المصرية فيها، وكذلك الخاتم الذي يحمـل اسم الفـرعـون أبسماتيك وختم ابنه نخاويدل كل ذلك على قوة التأثير المصري في المنطقـة تلك، وعلى مايبـدو أن كركميش كانت كأورشليم تتذبذب مابين مصر وآشور، مما أدى بها في النهاية إلى هلاكها، فالفرعون نخاوخان حلفاءه بكل نذالة ودافع عن آشور ضد نبوخذ نصر.

يستحق الحـديث هنـا اكتشـافـاً آخـر مثيـراً للفضول، فقد وجد فولي بين ماوجد من الأسلحة درعاً إغريقياً مكسواً بطبقة من البرونز، وعليه رسم محفور لجرجونا محاطٌ بدائرة من رسـوم الحيـوانـات: أحصنـة وكـلاب وغـزلان ووعـول وأرانب. كيف وصـل ذلـك الـدرع الإغريقي إلى كركميش؟ تذكّر فولي مقطعاً من كتابات هيرودوت يتحدث أنه جرت في معبد أبـولـو الـذي بقرب إينس مراسيم لغنيمة الفرعون نخاو المأخوذة من غزة والتي استخدم فيها المـرتـزقـة الأيـونيين، فالدرع على مايبدو يعود لواحد من المرتزقة الإغريق الذي تطوع بعد دمار غزة في جيش فرعون، وقُتل في كركميش بعيداً عن وطنه الأم.

ووجد أيضاً في الوثائق البابلية تأكيد لصحة القصة التوراتية عن ملك يهوذا يهوياكيم الـذي أخـذه بختننصـر أسيـراً الى بابل، ولما اعتلى أويل مردوخ عرش آشور، أطلق سراح يهوياكيم وأسكنه في قصره.

يقـول سفـر الملوك الثاني (أصحاح ٢٥ ـ آية ٢٨ ـ ٣٠): «وكلّمه بخير وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل، وغيَّر ثياب سجنه وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تُعطى من عند الملك أمرَ كل يوم بيومه كل أيام حياته».

وجدت سنة ١٩٣٣ م في السجل المحفوظ البابلي، دفاتر حساب القائم على القصر

المسؤول عن توزيع المخصصات التموينية لمن يعيشون على نفقة الملك، وقد ذُكر في قائمة الأسماء ملك يهوذا يهوياكيم وخمسة من أبنائه وثمانية أشخاص للخدمة، يُستنتج من هذه الوثائق أن مجموعة كاملة من الملوك الأسرى، عاشت في بابل وكان لكل من أولئك الملوك مخصصاته التموينية اليومية وعرشه وغرفته الخاصة في القصر، وبينهم الملك التعيس يهوياكيم الذي أمضى حياته بينهم.

كما إننا تأكدنا، بفضل الاكتشافات الأثرية أن جدليا الذي عينه نبوخذ نصر حاكماً على يهوذا فقتله أبناء شعبه، تأكدنا أن جدليا ذاك شخصية تاريخية واقعية، فقد وجد ختم مكتوب بين أنقاض مدينة لخيش كُتب عليه «خاص بجدليا المعين على يهوذا».

لقد ذكرنا عند حديثنا عن الأسر البابلي، أن الكثيرين من اليهود والمهجرين إلى هناك حققوا مكاسب وثروات كبيرة، أن الإكتشافات الأثرية أثبتت ذلك قطعياً: فعلى سبيل المثال وجدت بعثة أميركية في مدينة نيبور قسماً من المحفوظات لما يعرف في أيامنا بالمصارف (مصرف موراشو وأبنائه) تعكس مائة وخمسين وثيقة مدونة على ألواح غضارية العلاقات الدولية الواسعة لتلك العائلة اليهودية، ويوجد بين تلك الوثائق اتفاقيات استئجار وتأجير لأرض ولقنوات ولبساتين ولخراف، وكذلك اتفاقيات بيع وشراء وعقود دين وغيرها.

كان ذلك المصرف يحقق ربحاً بمعدل عشرين بالمائة من المبلغ المتعامل معه، وبين اسماء المتعاملين مع المصرف يوجد الكثير من الأسماء اليهودية، مما يدل على أن الكثيرين من اليهود كانوا يملكون ثروات كبيرة.

إن التوراة تحيط فترة زمنية طويلة (مائتين وخمسة وستين عاماً) من تاريخ يهوذا بصمت مطبق، وذلك من زمن إعادة بناء سور أورشليم من قبل نحميا (سنة ٤٣٣ ق.م) وحتى بداية عصيان المكابيين عام (١٦٨ ق.م).

وعلى الأرجح أنه لم يحصل، خلال تلك الفترة مايستحق الذكر، فيهوذا آنذاك كانت مقاطعة فارسية صغيرة ومهملة، وحكمها الكهنة بموافقة ملوك فارس، وكانت أقرب إلى التجمع الديني منها إلى الدولة، أما سكانها اليهود، المعزولون عن العالم، فقد انشغلوا بأمورهم الداخلية فقط، وعلى الأغلب أن يكون العهد القديم بشكله الحالي قد وضع في تلك الفترة تحديداً، فالكهنة والعلماء تفرغوا لتحليل ماضيهم وتجميع الوثائق التي يمكن أن تفسر أسباب الكوارث القومية، فتوصلوا لقناعة أن اليهود طالما ارتدوا عن يهوه وخالفوا تعاليمه ولذلك عوقبوا بتلك الكوارث، فصارت التوراة بالنتيجة وثيقة إدانة رهيبة للملوك

وللشعب، وثيقـة عليهـا أن تبـرهن أن طريق النجـاة يكمن في العـودة إلى ديـانـة موسى والإخلاص لها.

وقعت عام (٣٣٣ ق. م) أحداث عظيمة في العالم، فالإسكندر المكدوني هزم دارا الثـالث ووضـع بذلـك نهـايـة الإمبـراطـوريـة الفارسية، فقامت مكانها إمبراطورية إغريقية عظيمة، وقد أسرع الفاتح الشاب نحو مصر ودخلها دون مقاومة، تقول أسطورة لاتمت إلى الحقيقـة بصلة بأن الإسكنـدر عرج إلى أورشليم وهـو في طريقـه إلى مصر كي يسجد للإله يهـوه، والتـوراة لاتتحـدث عن تلك الحوادث مطلقاً، أما سكان يهوذا الجبلية المنعزلة فلم يعـوا أنهم على عتبـة حقبـة جديـدة من التـاريخ الإنساني، ففي الفترة الواقعة بين (٣٣٢ - ٣٣١ ق. م)، أسس حاكم العـالم الجـديـد، في أحـد رؤوس دلتا النيل مدينة الإسكندرية المـركـز العلمي والفني المستقبلي وأعطى اليهـود أبنـاء العـائـدين من الأسـر البابلي نفس الحقوق التي منحها للإغريق والمصريين، فكان لهذه الخطوة نتائج فيما بعد.

مات الإسكنـدر العظيم سنـة (٣٢٣ ق. م) تاركـاً امبراطوريته موضوع صراع واقتسام بين قادتـه العسكـريين، وبعـد حرب ضروس انقسمت هذه الإمبـراطورية إلى ثلاث دول: مصـر ويحكمهـا البطـالمة، سورية ويحكمها السلوقيون، مكدونيا ويحكمها الانتيغونيون، وفي عام (٣٢٠ ق. م) ضم بطليمـوس الأول يهـوذا إلى دولتـه، فخيمت فوق رؤوس اليهود مخاطر أسوأ وأرهب من الظلم والاستبداد، لقد بدأ الحكم الهليني، عهد الدعارة وحرية - النفس - عهـد التيـارات الفلسفيـة الجـديـدة، وعهـد ازدهار العلم والأدب والفن، وصارت الإسكنـدريـة مركـز هذه التغيـرات، وجمع بطليموس الثاني مجموعات رائعة من الكتابات التي تحتـوي على تراث الأجيـال السـالفـة، وبتـوجيهـات منه تُرجمت التوراة إلى اليونانية وسميت الترجمة بـ «سبتوجنتا» أي الترجمة السبعينية[٣٨] لم يستطع الكثير من اليهود الصمود في وجه التأثيرات الهيلينية، وقد تأثر بها اليهود القاطنون في الإسكندرية أكثر من غيرهم من اليهـود إذ تحـولـوا إلى الهيلينيـة شيئـاً فشيئاً لدرجة أنهم نسوا لغتهم الأم، وصاروا يتحدثون باليونانية فقط.

ونبغ من بين جموع اليهود أولئك، علماء ومؤرخون وشعراء وذوو شهرة غالمية، كما وصـل التأثيـر الاغـريقي إلى أورشليم، فانجـذب الجيـل الجـديـد من اليهود نحو الفلسفة اليـونـانيـة ونحـو الأدب واللغـة، وقـد وصـل بهـم التأثـر بالإغريق لدرجة أنهم بنوا في وسط أورشليم ملعبـاً على النمـط الإغـريقي ليتسابق في ساحته الشبان اليهود، لقد انتصر طقس

الجسم السليم والجميل، وانتصرت موسيقى الشعر الإغريقي وقوة الأفكار الفلسفية الحديثة والناصعة على غناء المزامير والمحرّمات التقليدية، لكن بقيت في أورشليم مجموعة قوية من أتباع يهوه المتعصبين الذين قاوموا بضراوة التأثيرات الغربية مما سبب الكثير من الصدامات بين الفئتين المتناقضتين، وصارت المدينة لفترة طويلة مسرحاً للمؤامرات والفوضى والصراعات السياسية.

بعد نيف ومائة عام أخضع السلوقيون يهوذا لسلطتهم، ففي عام (١٩٥ ق.م) هزم انطيوخس الثالث بطليموس الخامس، واحتل فلسطين كلها وقامت عدة مستوطنات إغريقية قرب أورشليم، وصارت السامرة مركزاً إدارياً هاماً للحاكم الجديد، وقد انتشرت العادات الإغريقية في مدينة يهوه المقدسة، لدرجة يقول عنها مؤلف كتاب المكابيين الثاني (أصحاح ٤ - آية - ١٤) «لقد تخلى الكهنة عن حماسهم لخدمة المذبح احتقروا المعبد وتركوا عادة تقديم القرابين، وصاروا يشاركون في الألعاب المنافية للقانون، كلعبة رمي القرص....» حتى إياس الكاهن واللاهوتي المخلص اتُهم بتأييده للنظريات الجديدة والعقائد الحديثة.

اعتلى العرش أنطيوخس الرابع أبيثان، المتعصب الأعمى للحضارة الإغريقية، والذي قرر التخلص نهائياً من الديانات والطقوس الغريبة في دولته، ففي عام (١٦٨ ق.م) نهب نفائس معبد أورشليم، ولما قام السكان باضطرابات أرسل قائد جيشه الذي أعمل فيهم الضرب والنار، فدمر المدينة، وحطم أسوارها، وأخذ الكثير من السكان أسرى. بدأ عهد الإرهاب والملاحقات، وفرض طقس عبادة الإله رزيفس الأولمبي على المعبد بالقوة، ومنع الناس من تقديم القرابين ليهوه تحت التهديد بالموت كما حرّم الاحتفال بأيام السبت ومُنع ختان الأولاد، وصار العذاب الرهيب والموت البطيء في انتظار من يخالف التعليمات.

استمر الأمر كذلك حتى الفترة مابين (١٦٥ - ١٣٥ ق.م) حيث قام اليهود بعصيان تزعّمه بشكل دوري ثلاثة أخوة هم: هود، ويوناثان، وشمعون. وكان صراع العاصين عنيفاً لدرجة اضطر معها السلوقيون إلى الرحيل عن الكثير من المدن الفلسطينية، وفي سنة (١٦٤ ق.م) دخل زعيم العصيان هود أورشليم وأعاد طقس عبادة يهوه إلى معبدها.

وصل إلى المنطقة ابن أبيثان، أنطيوخس الخامس انتيباتره، مجهزاً بجيش كبير لقمع العصيان، فاستسلم الركابيون (هود، ويوناثان، وشمعون) قرب بيت لحم للقوات الإغريقية

الكبيرة العدد المزودة بالخيالة والفيلة، لكن شروط الاستسلام كانت جيدة على عكس ماكان متوقعاً، فقد أعطى الملك الجديد لليهود حرية العقيدة الدينية ومنحهم استقلالاً ذاتياً، لكن الركابيين لم يقبلوا بذلك فلجأ الإخوة الثلاثة إلى السلاح مرة أخرى لينالوا عام (١٤٢ ق.م) استقلالاً سياسياً كاملاً.

إن تاريخ ذلك الصراع مذكور في كتابي المكابيين الأول والثاني، اللذين كتب أولهما كاتب مجهول باللغة العبرية، لكن لم يصل الينا سوى ترجمته الإغريقية، وكتب الثاني كاتب يهودي آخر مجهول أيضاً لكن باللغة الإغريقية التقليدية[٣٩].

منذ ذلك الوقت وسلالة الركابيين، التي يسميها المؤرخ العبراني فلافيوس يوسيفوس سلالة الحسمانيين تحكم يهوذا.

سنة (٦٣ ق.م) دخل فلسطين القائد العسكري الروماني بومبي، واحتل أورشليم بعد حصار دام ثلاثة أشهر، ووضع بذلك نهاية لاستقلال اليهود، أما فلسطين كلها، فصارت مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية.

ومع الأيام ازداد ظلم الحكام الرومان واستبدادهم، فقام عصيان جديد في فلسطين، فحاصر الإمبراطور تيطس سنة (٧٠ ميلادية) أورشليم بجيش كبير، دافع سكانها ببسالة لكنهم اضطروا في النهاية إلى الاستسلام.

وهكذا يصف المأساة التي عاشتها أورشليم المؤرخ فلافيوس يوسيفوس: كان الناس المنهكين من الجوع والمرض يقعون أمواتاً على الطرقات، وحدث أن أكلت الأمهات أولادهن وذبح الرومانيون آلاف اليهود وصلبوهم وبعد دخول الإمبراطور تيطس المدينة أمر بإزالة ما تبقى منها وحُرِّم على اليهود وأتباع يسوع دخولها تحت طائلة الموت عقاباً.

بقي الفصيل الروماني الخامس المشهور بقساوته ستين سنة في أورشليم المدمّرة، وفي الفترة مابين ١١٧ ـ ١٣٨ م بنى الإمبراطور هدريان هناك مستوطنة رومانية سمّاها إلياكا بيتولينا، وهناك حيث كان المعبد وضع تمثالاً للإله جوبيتر، فدفع تدنيس المعبد المقدس، ومنع الختان، اليهود إلى خوض معركة جديدة عام ١٣٢م.

وصل عدد المتمردين إلى مليون شخص تزعمهم شمعون باركوهبه، فحرر هذا أورشليم بمدة قصيرة، كما حرر قسماً كبيراً من فلسطين، فحيّاه الحكيم عقيبة، ودعاه إلى إعلان نفسه ملكاً على إسرائيل.

لم تدم الـدولـة الجـديـدة طويلاً، فقد استقدم هدريان من بريتانيا، قائده العسكري يوليوس قيصر، الذي دخل فلسطين من جديد واحتل عام ١٣٦م آخر قلعة للمتمردين ـ قلعة بيطار ـ وهناك قتل أو انتحر باركوهيه، أما بقية السكان فمنهم من بِيع بَيْع العبيد ومنهم من فرّ إلى بابل.

وفي عام ١٩٦١ م وجدت بعثة أثرية إسرائيلية في مغارة على ضفة البحر الميت عظام ووثائق آخر العصاة الذين قتلوا في قلعة بيطار.

لقـد سبب الأسـر البـابلي وهرب قَتَلة جَدَليا مايُعرف بتوزع العبرانيين أو بالشتات في أصقاع الأرض، وفي العهدين الفارسي والإغريقي تحول الطرد القسري إلى هجرة إرادية، وقـد استمـر وجـود أول مركـز لهـذا التوزع في بابل حتى العصور الوسطى، وفي مصر قامت مستـوطنـة عبـريـة في جزيـرة الإليفـانتيين وفي الإسكنـدريـة؛ وبعـد عصيـان المكـابيين وباركوهبة، ازداد عدد المتوزعين المهاجرين في الخارج.

وقـد تفـرعت الهجرة والتوزع لتشمل اليونان وآسيا الصغرى، أما أكبر مستوطنة عبرية فقد كانت في الإسكندرية وبلغ تعداد سكانها حوالي المائة ألف، وكانت روما المركز الثاني الكبير لهجرة اليهود.

ست قصص توراتية في البطولة والعذاب والعقاب الرباني العادل

حول إيوديت البطلة

عاشت في مدينة بيت إيلوه اليهودية، إيوديت الأرملة الواسعة الثراء، التي كان عندها المخازن الكثيرة والقطيع الكبير والعديد من العبيد، كما اشتهرت ايوديت بجمالها الخارق، لكنها بعد وفاة زوجها، لم تعد تبالي بكل مايحيطها من غنى، ومما بها من جمال، وبقيت ثلاث سنوات ونصف السنة تعيش منعزلة في حدادها وصلواتها، مما فرض على سكان يهوذا احترامها واعتبارها متنبئة.

لكن هاهو جيش يختنصر العظيم بقيادة ألوتيرن، يقتحم كنعان ويهاجمها، وقاومه سكان بيت إيلوه في البداية مقاومة عنيفة، لكن بعد عشرين يوماً من الحصار، نَفَد الماء من المدينة، فتجمع الناس أمام قصر حاكمها أوزيا يرجونه الاستسلام للجيش الكلداني، تقطع قلب أوزيا لشقاء قومه، لكنه طلب من الجموع الانتظار خمسة أيام أخرى لقناعته بمساعدة يهوه للمحاصرين [٤٠].

نزعت إيوديت عنها ثياب الحداد، واغتسلت ورجّلت شعرها وتعطرت، ثم ارتدت ثياب الفرح وزينت نفسها بأغلى النفائس، وسارت بروعتها وفخامتها نحو معسكر العدو ترافقها أمة لها تحمل زق خمر وإبريق زيت زيتون وكيس دقيق وثماراً مجففة وخبزاً طرياً.

وعنـد الفجـر لما هبطت من المرتفع الذي تقوم عليه مدينة بيت إيلوه استوقفها حرس العـدو وسألـوهـا عن أصلهـا ومن أين وإلى أين تتجه، أجابتهم بأنها عبرانية هاربة من قومها لأنهم سيقعـون لامحـالـة بقبضـة جيش الـوتيـرن وسيقتلون على يده، أخذها الحراس الى خيمـة قائـدهم، حيث كان الـوتيـرن مستلقيـاً تحت ناموسية تقيه من البعوض، كان الوتيرن مرتـديـاً القـرمز ويتألق بالزينة الذهبية والزمردية وغيرها، سجدت إيوديت أمامه، أما هو فصار يتفحصهـا مأخـوذاً بجمـالهـا الخـارق، ولمـا عاد إلى رشـده سألهـا عن سبب قدومها إليه، فشـرحت له سبب تركهـا لقـومهـا[١] وقـالـت له إنهـا هربت من هناك لمعرفتها بمصير شعبها القادم وأن الرب أرسلها إليه ليقوما بأعمال تهز الأرض كلها.

انشـرح صدر الـوتيـرن لكلامها وأمر خدمه بمساعدتها على النهوض، ولما استقامت بجسـدهـا الـرائـع وقـامتهـا المهيبـة، تأوه القـادة المـوجودون في خيمته إعجاباً بجمالها، فتصنعت إيـوديت هبـوط الـوحي عليها وأخذت تتنبأ لهم بنصر سريع ساحق، ففرح الوتيرن كثيراً وقال لها إنه سيعبد الإله الذي تعبده هي إذا تحققت نبوءتها، ثم أمر أن تُفرد لها خيمة خاصـة بهـا ولمـدة ثلاثة أيام، وصار يدعوها إلى حفلات الشراب والطعام، لكن إيوديت لم تتناول طعامه الدنس وأكلت فقط مما أحضرته من بيت إيلوه، أخذ الوتيرن يزداد رغبة وشهوة نحـوهـا، فقـالت له إنهـا ستبقى معـه بعد انتهاء حفلة اليوم الرابع، فصرفت أمتها قبل النوم وصارت تدعو يهوه لنصرتها فيما تنوي القيام به.

وفي اليـوم التـالي أقـام الـوتيـرن حفلة عظيمة، وبانتظار المتعة الموعودة شرب حتى الثمالة وغط في نوم عميق، فما كان من إيوديت إلا أن قطعت رأسه بضربتين من سيفه، ثم لفت الـرأس المقطـوع بالنـاموسية، ووضعته في كيسها، وغادرت إلى بيت إيلوه حيث أرت الرأس المقطوع لشعبها، ففرح الشعب كثيراً وشكر يهوه على نصرته لهم ومدحوا البطلة العظيمة.

وفي الصبـح لمـا عرف الكلدانيـون بمصرع قائدهم هربوا في جهات الأرض الأربع تاركين وراءهم المعسكـر المليء بالغنـائم التي سلبت سابقـاً من يهـوذا، فقـام السكـان بمطاردتهم وقتلهم، ولم ينج منهم إلا القليل القليل، وأخذ المنتصرون غنائم كبيرة تحوي قطعاناً من الماعز والحمير والجمال وكميات كبيرة من الذهب والفضة والسلاح والثياب، أما عدة الوتيرن الخاصة قدموها هدية لإيوديت.

أقـام سكـان المـدينـة احتفـالاً استمـر ثلاثة أشهر، رقصوا وغنوا وعزفوا وقدم الكاهن

الأعلى يهوياكيم من أورشليم ليقدم للبطلة احترامه وتقديره وليشارك الشعب فرحته بالنصر.

عاشت إيوديت مائة وخمسة أعوام محاطة بحب الشعب واحترامها، ودخل يوم انتصارها في قائمة الأعياد العبرية، وصار يُحتفل به كل عام.

أستير ملكة فارس

أقام الملك الفارسي أحشويرش في العام الثالث لحكمه، وليمة عظيمة دعا إليها جميع أمراء وقادة فارس وميديا، وكذلك حكام الدول الخاضعة له من الهند وحتى الحبشة، استمرت الوليمة مائة وثمانين يوماً بلا انقطاع، وقبيل انتهائها دعا الملك جميع سكان مدينته شوشن (السوس) إلى وليمة لمدة سبعة أيام، فحضر الجميع الوليمة الأغنياء والفقراء.

وضعت الموائد في بهو القصر وحديقته، وغُطي المكان بأقمشة بيضاء وخضراء وبنفسجية لتقي المدعويين من أشعة الشمس، وجلس المدعوون على مقاعد من ذهب وفضة ومرمر أبيض وقدم الخدم الطعام بآنية من الذهب الخالص، وفي الوقت نفسه استقبلت الملكة تاوشتي زوجات الأمراء والقادة وحاشية القصر، وفي اليوم السابع للوليمة رغب الملك أحشويرش بأن يُري ضيوفه الملكة لأنها رائعة الجمال، فأمر أن تحضر إليه الملكة بتاج الملك، لكنها عاندت ورفضت المثول أمامه فغضب الملك غضباً شديداً، وجمع فوراً مجلساً من سبعة من أمراء فارس وميديا للبت في كيفية التصرف مع المرأة المشاكسة.. كان الرجال شديدي الامتعاض من تصرف الملكة وخشوا أن يصير تصرفها مثالاً يحتذى به، مما يهدد بزرع التمرد في البيوت بدل سيادة الهدوء فيها، لذلك قال أحدهم: «سوف يبلغ خبر الملكة جميع النساء حتى يُحتقر أزواجهن في أعينهن عندما يُقال إن الملك أحشويرش أمر في أن يؤتى بوشتي الملكة أمامه فلم تأت، وفي هذا اليوم تقوله رئيسات فارس وميديا اللواتي سمعن خبر الملكة لجميع رؤساء الملك ومثل ذلك احتقار وغضب»، فقرر الملك طرد زوجته نهائياً، وفي نفس الوقت أرسل رسائل إلى جميع عماله كل بلغته يأمرهم فيه بأن تطيع النساء أزواجهن وبذلك تكون محاولة التمرد النسائية قد أسكتت في عهدها..

بعد مدة طلب الملك إحضار أجمل بنات مملكته إلى قصره، فجمعت العذارى في القصر وأخذن تحت مراقبة حارس خاص ولمدة سنة يعطرن أجسادهن ويتزين بالنفائس، ثم

يظهرن أمام الملك، وبعد أربع سنوات جاء دور فتاة اسمها أستير، كانت أستير تلك يهودية لكن أحداً لم يعلم بذلك، لأنها لم تكشف سرها لأحد، فأستير فقدت والديها وهي طفلة صغيرة فرباها ابن عمها مُردخاي الذي سبي من أورشليم، أعجب الملك بأستير أكثر من جميع زوجاته فأحبها ووضع على رأسها تاج المُلك.

عُين مردخاي بناء على طلب أستير بواباً في القصر، فحظي بالثقة وصار يحرس غرفة نوم الملك، مما أزعج بوابين آخرين، وفي أحد الأيام استمع مردخاي لحديثهما، وفهم منه أنهما يخططان لقتل الملك، فأبلغ أستير فوراً، ونقلت هذه النبأ للملك، فأعدم المتآمران، وقوي حب الملك لأستير.

صار لمردخاي تأثير قوي في القصر، وبلغ مبلغاً لم يعد معه يحني رأسه حتى للوزير الأول هامان، الذي عُرف عنه أنه قائد شديد يخافه الجميع ويسجدون له لمجرد رؤيته، الوحيد الذي لم يركع ولم ينحن لهامان كان مردخاي، ورغم غضب هامان الشديد وإنزعاجه، فإنه لم يستطع عمل شيء لما يتمتع به مردخاي من حماية الملك نفسه ولم يستطع تصفية الحساب معه إلا عندما عرف صدفة أن مردخاي من أصل يهودي، وتحت ضغط شديد وقع الملك أمراً يقضي بقتل كل اليهود الموجودين في فارس لأنهم حافظوا على عاداتهم الخاصة وقوانينهم وعباداتهم، فلما سمع مردخاي بالقرار شق ثيابه، ولبس مسحاً برماد وخرج إلى وسط المدينة يصرخ.

قررت أستير التحرك[12]، أقامت في اليوم التالي وليمة دعت إليها الملك ووزيره الأول، أما هامان الفرح بنصره فقد أمر برفع مشنقة بارتفاع خمسين ذراعاً ليعلق عليها مردخاي[13].

لم يستطع الملك النوم تلك الليلة فأمر أن يؤتى له بكتاب تذكارأخبار الأيام، وفي الكتاب وجد قصة إنقاذ مردخاي لحياته، لقد نسي الملك بسبب أعماله الكثيرة فضل عبده عليه وقرر مكافأته في أقرب فرصة في اليوم التالي، حضر هامان إلى الملك ليوقع منه قرار إعدام مردخاي، فسأله الملك ما يُمكن أن يفعل لشخص يريد مكافأته وتمييزه عن غيره؟ كان هامان واثقاً أن الحديث يدور عنه فأجاب: «إن الرجل الذي يُسر الملك بأن يكرمه، يأتون باللباس السلطاني الذي يلبسه الملك وبالفرس الذي يركبه الملك وبتاج الملك يوضع على رأسه، ويدفع اللباس والفرس لرجل من رؤساء الملك الأشراف، ويلبسون الرجل الذي سُر الملك بأن يكرمه ويركبونه على الفرس في ساحة المدينة وينادون قدامه:

«هكذا يُصنـع للرجل الذي يسر الملك بأن يكرمه»، وكم كانت خيبة أمل هامان كبيرة عندما علم أن المقصود بالتكريم كان مردخاي، وصار عليه بناء على نصيحته نفسه أن يركب عدوه الفرس ويسير به في ساحة المدينة منادياً: «هكذا يُصنع للرجل الذي يسر الملك بأن يكرمه».

ماكاد هامان يصل بيته فاقد الأمل، حتى وصله أمر الملك بالقدوم إلى الوليمة، هناك اعترفت أستير للملك بأنها يهودية وأنها قريبة مردخاي، وبدمع يجري على الخد رجت الملك إلغاء قراره بقتل اليهود أبناء دينها، ففهم الملك سوء نية هامان، وأمر بتعليقه على نفس المشنقة التي نصبها لشنق مردخاي، بناء على رجاء أستير، لم يكتف الملك بإلغاء قراره بل سمح لليهود بالانتقام من أعدائهم في كل مملكة فارس، فقتل نتيجة ذلك خمسة وسبعون ألفاً بينهم عشرة أولاد لهامان، شغل مردخاي بعد شنق هامان منصب الوزير الأول، وأرسل رسائل إلى جميع اليهود يدعوهم فيها للاحتفال سنوياً بيوم خلاصهم، يوم إلغاء قرار قتلهم.

طوبيّه ـ الإسرائيلي المخلّص على الأرض الفارسية

ولد طوبيه في واحدة من مدن الجليل الصغيرة في أرض نفتاليم، وترعرع في جو ديني متعصباً لتقاليد قومه وعاداتهم، وربى ابنه طوبيا التربية نفسها فكان صورة عن الأب، سُبي طوبيه مع قومه إلى آشور، وحالفه الحظ هناك فاستطاع أن يكون لنفسه ثروة لكنه كان يستخدم ثروته من أجل الآخرين وليس من أجل نفسه، فكان يتقاسمها مع أبناء قومه الذين يضطهدهم الآشوريون، ويقوم بدفن الأموات الذين يعجزوا أهلهم عن دفنهم، ويقوم بذلك تبعاً للطقوس اليهودية، مما كان يعرض حياته للخطر.

في أحد الأيام شعر طوبيه بتعب بعد دفن أحد الأموات، فاستلقى على الأرض وراء الحائط وكانت العصافير على الحائط، فسقط زرق العصافير في عينيه ففقد بصره، تقبل طوبيه مصيبته بصبر فلم يئن ولم يندب حظه أمام الرب ولم ينفعل أبداً من استهزاء الناس به.

وعندما شعر طوبيه بقرب أجله أرسل ولده طوبيا إلى بيت جابايل الفقير، ليسترد ديناً لأبيه المعذب، كان قد قدمه لجابايل[44]، فتقمص الملاك رفائيل هيئة رجل وتطوع لإيصال

.لفتى إلى المكان الذي يقصده إلى راجي المادية، وشاهد طوبيا صدفة شاباً جميلاً بلباس السفر فسأله من أين هو؟ أجابه الشاب إنه من أبناء إسرائيل وأنه متجه إلى راجي المادية ، فرح طوبيا للخبر وأعلم والده بالأمر فنصحه أبوه بمرافقة ذلك الشاب، فأوصل رفائيل الفتى إلى راجي المادية وزوجه هناك من طبيئة ابنة راعوئيل، وعاد معه إلى البيت وشفى أباه من العمى، وأمر العجوز طوبيه ابنه أن يشكر الشاب، ويقدم له عطاء، ولكن رفائيل رفض ذلك وكشف عن حقيقته.

أيـــوب

عاش في أرض عَوص العربية أيوب، الرجل الكامل والمستقيم الذي يتقي الرب، وكان الحظ يحالفه في كل شيء، فعدا عن سبعة أولاد وثلاث بنات كان لديه سبعة آلاف من الماعز وثلاثة آلاف من الإبل وخمسمائة زوج من البغال وخمسمائة أتان وخدم كثيرون، وكان أولاده يقيمون الولائم ويدعون إخوتهم إليها، ولما دارت أيام الوليمة أرسل أيوب فقدّس أولاده وبكر في الغد وأصعد محروقات على عدد أولاده.

وكان ذات يوم أن مَثُل الملائكة أمام الرب، وجاء الشيطان فيما بينهم، فلما سأله الرب من أين جاء أجابه: «من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها»، ولما سأله الرب إن كان رأى أيوب الرجل التقي الصالح، أجاب الشيطان أنه من السهل أن يصبح الإنسان تقياً وصالحاً إذا ما كان غنياً وسعيداً، ثم قال للرب بتحد: «ابسط يدك الآن ومُسَّ كل ماله فإنه في وجهك يجدف عليك»، فوافق الرب على امتحان أيوب وأعطى الشيطان حرية التصرف.

فصارت المصائب تنهال على رأس أيوب، سرق الصفويون قطيعه وضربوا غلمانه بحد السيف، والتهمت نار من السماء نعاجه وخدمه، نهب الكلدانيون جماله، وهبت عاصفة من الصحراء هدمت بيته وقتلت أبناءه وبناته، فقام أيوب العجوز ومزق جبته، وجز شعر رأسه، وخرّ على الأرض وسجد قائلاً: «عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً».

انشرح صدر الرب لأنه لم يخطيء في تقدير استقامة أيوب وأنّب الشيطان لأنه عرض رجلاً صالحاً بريئاً للعذاب والشقاء، لكن الشيطان لم يستسلم، وقال بغضب: «ابسط الآن يدك ومُس عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجدّف عليك».

سمـح الـرب للشيطـان بالتحـرك من جديد، فضرب هذا أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته، وإضافة إلى كل المصائب التي ضربته، فقد صرخت عليه زوجته المفعمة بالأسى وقذعته، وقالت: «أنت متمسك بَعْدُ بكمالك، بارك الله ومُت»، لكن أيوب أجابها بهدوء: «تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات، الخير نقبل من عند الله، والشر لانقبل؟».

سمـع ثلاثـة من أصحاب أيوب بعذابه وشقائه وهم أليفاز وبلدد وصوفر فاسرعوا إليه، ولما رأوا حالته بكوا وشقوا ثيابهم وحثوا تراباً فوق رؤوسهم، ثم جلسوا معه سبعة أيام وسبع ليال صامتين احتراماً له وإشفاقاً عليه، وبعد أن استيقظ أيوب من غفوة مرضه وشقائه، أخذ يسب يومه بصوت كئيب متألم: «ليته هلك اليوم الذي وُلدت فيه والليل الذي قيل فيه: قد حملت امـرأةٌ برجـل، لِمَ لم أمت من الـرحم، عنـدمـا خرجت من البطن، لِمَ لم أسلم الـروح؟ ـ لأني ارتعـابـاً ارتعبت فأتـاني الرعب والذي فزعت منه جاء علي، لم أطمئن ولم أسكن ولم أسترح وقد جاء الرجز».

اسمتع إليفاز إلى شكوى أيوب ورد عليه قائلاً: «أليست تقواك هي معتمدك ورجاؤك كمـال طرقـك؟»، لكن أيـوب تابع شكواه وتذمره «دفعني الله إلى الظالم وفي أيدي الأشرار طرحني، كنت مستـريحـاً فزعزعني وأمسك بقفاي فحطمني ونصبني له غرضاً، أحاطت بي رمـاتـه، شق كليتي ولـم يُشفق سفـك مرارتي على الأرض، يقتحمني اقتحاماً على اقتحام، يعـدوعلي كجبـار، خطت مسحـاً على جلدي ودسست في التراب قرني، احمر وجهي من البكـاء وعلى هُدبي ظل المـوت مع أنـه لاظلم في يدي وصلاتي خالصة»، دخل الأصدقاء الثـلاثـة في حديث مطـول مع أيوب توصلوا في نهايته إلى نتيجة مفادها أن أيوب لابد أذنب أمام الرب، لأن البريء لايعاقب، لكن أيوب نفى أن يكون قد أذنب ودعا الرب ليشهد على صحة كلامه.

استرق السمع لحديث الأصدقاء شخص اسمه إليهو، ولما طال الحديث جداً تدخل به، وقال بأنه يعتقد أن الطرفين مخطئان، فالعذاب ليس دائماً عقاباً على الذنوب المرتكبة، وكثيراً مايمتحن الرب المخلصين له ليتأكد من إخلاصهم وشدة إيمانهم به، إن أيوب رغم سبّه لمصيره وقدره التعيس، فإنه لم يشك قط بعدالة وقدسية القضاء الرباني والمشيئة الإلهية.

ظهر الرب لأيوب وسط العاصفة نتيجة لثقة أيوب بتصرفات الرب وعادلتها، وشرح له أنه عبثاً يفعل إذ يبحث عن أسباب شقائه وعذابه، وذلك لأن الأمور الربانية أعظم وأقوى من

حدود الفهم الإنساني، فندم أيوب على ماقاله وكافأه الرب بأولاد وبنات وأعاد إليه كل مايملك.

دانيـــال

بعـد أن دخـل بختنصر الملك البابلي أورشليم وأخذ ملك يهوذا يهوياقيم أسيراً، أمر بأن يحضـر من بني إسـرائيـل ومن نسل الملك، ومن الشرفاء فتيان لاعيب فيهم كي يربيهم تربية كلدانية، ويعلمهم اللغة الكلدانية.

وبين الشبـان اليهـود الجميلين وذوي المعـرفـة، كان دانيـال ورفـاقه الثلاثة: صَفنيا وميشـائيـل وعـزريـا، وكـان الـرفـاق الأربعـة يعبـدون الرب فامتنعوا، لذلك عن أكل طعام الملك، لأنه لايعد حسب تعاليم موسى، فطلبوا من رئيس الخصيان السماح لهم بالامتناع عن أكل الطعام المقدم لهم، والاكتفاء بالخبز والخضار.

لم يكتف الشبـان الأربعـة بتعلم لغـة وتـاريـخ وعادات بابل فقط بل نهلوا من معارف عالم السحر وتفسير الأحلام، وعندما انتهت فترة تعلمهم دعاهم نبوخذ نصر إليه ليختبرهم، فوجـد منـدهشـاً أنهم متفـوقون بعقلهم ومعرفتهم على كل متنبئي وسحرة الكلدانيين، وبرز دانيال كأذكى شاب بين الرفاق الأربعة.

في أحد الأيام استحمت شوشانا المرأة الصالحة التقية، وزوجة التاجر الغني يواكيم استحمت في التبـع، فاستـرق النظـر إليهـا من وراء الشجـر رجلان، ثم اقتربا منها ودعواها للجمـاع، لكن المـرأة رفضت ذلـك بشـدة، فمـا كان من الرجلين إلا أن أقاما عليها دعوى اتهمـاهـا فيهـا بالدعارة، ولما طلبت المحكمة تفاصيل الحادث، شرح الرجلان للمحكمة كيف أن المـرأة كانت تضـاجـع شابـاً لم يستطيعا اللحاق به، صدقت المحكمة الرجلين، وحكمت على المرأة بالموت، لكن في اللحظة التي كان سَينفذ فيها الحكم، وصل دانيال وطلب إعـادة التحقيق في القضيـة مدعيـاً أن المـرأة بريئـة، سمحت المحكمـة لدانيال بإعادة النظـر بالقضيـة، فحقق مع الـرجلين كل على إنفـراد، فجـاءت أقوالهما متضاربة، إذ زعم أحـدهمـا انـه رأى المـرأة تضاجع الشاب تحت شجرة تين، وقال الثاني أنه رآها مع الشاب تحت شجرة بلوط، فحكمت المحكمة ببراءة المرأة وبرجم الشاهدين بالحجارة.

وحـدث أن نبـوخـذ نصـر رأى حلمـاً أزعجـه فجمـع جميـع متنبئي وسحرة ومفسري

الأحلام الكلدانيين في قصره، لكن أحداً لم يستطع تفسير حلمه وأن نبوخذ نصر نفسه نسي الحلم الذي رأى، فأخذ يطلب من السحرة تذكيره بما رأى وتفسيره، فأكد له الكلدانيون أن الآلهة وحدها تعرف مايحلم به البشر، فغضب الملك بشدة، وأمر بقتل كل حكماء المملكة، وشمل القرار دانيال أيضاً، فلما استدعي لتنفيذ الحكم به صرح أنه قادر على شرح حلم الملك ويحتاج إلى يوم كامل لذلك، فلبى الملك رغبته، فمكث طوال ليلته يصلي ليهوه، فكشف له الرب السر.

في اليوم الثاني مَثَل دانيال بين يدي بختنصر، وقال له: «أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل، رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من نحاس، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف، كنت تنظر إلى أن قُطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كعاصفة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان، أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً، وملأ الأرض كلها»، ثم أخذ دانيال يفسر للملك منامه: «فأنت هذا الرأس من ذهب، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس، فتتسلط على كل الأرض، وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد. . . . وكالحديد الذي يُكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء. . . . وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً. . . .».

بعد أن استمع الملك لدانيال، خرّ ساجداً أمامه، ومدح إله يهوذا وعين دانيال حاكماً على «كل ولاية بابل»، ثم عفا عن المتنبئين والسحرة والحكام الذين سبق وأمر بقتلهم.

بعد مدة أمر نبوخذ نصر بإقامة تمثال من الذهب ارتفاعه ستون ذراعاً في بقعة دورا في ولاية بابل، ثم جمع القادة والأشراف وطلب منهم السجود للقتال، وصار الناس يسجدون للتمثال لمجرد سماعهم صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار، وكل أنواع العزف، لكن الشباب اليهود: شدرخ (صفنيا) وميشخ (ميشائيل) وعيدنغو (عزريا) لم يسجدوا أمام التمثال، فأمر الملك بإلقائهم في آتون ملتهب لكن النار لم تؤثر بأتباع يهوه، لأن ملاكاً رافقهم وحماهم، فلما خرج الثلاثة من الأتون سالمين نصبهم الملك في مناصب حكومية رفيعة، وأمر بقتل كل من يتجرأ على الاستهزاء بيهوه.

بعد مدة رأى الملك حلماً آخر، رأى شجرة تصل بارتفاعها قبة السماء، ثمرها كثير

وأوراقها جميلة سكن تحتها حيوان البر، وفي أغصانها سكنت الطيور وطَعِم منها كل البشر، ثم رأى ملاكـاً من السمـاء يقطـع الشجـرة ويطرد الطيور والحيوان ولا يُبقي منها إلاّ جذورها التي تثبتهـا بالأرض بالحـديـد والنحاس، دُعي دانيال إلى القصر ففسر الحلم الغريب بكل بسـاطـة: «الشجـرة التي رأيتهـا. . . . إنمـا هي أنت أيهـا الملك الـذي كبُـرت وتقـويت وعظمتك، قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض، وحيث رأى الملك ساهراً وقدوساً نزل من السماء وقال اقطعوا الشجرة واهلكوها، ولكن اتركوا ساق أصلها في الأرض. . . فهـذا هو التعبيـر أيهـا الملك. . . يطـردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيـوان البـر ويطعمونك العشب كالثيران. . . فتمضي على سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء».

وهكذا كان: فقد الملك عقله، وعاش بين الحيوانات، وقوبل باحتقار مهين، وأكل العشب كالثيـران، ولمـا مرت سبـع سنـوات، وعـاد إلى رشده أجلسه الشرفاء والقادرة على العـرش من جديـد، ومنـذ ذلـك اليـوم نبذ الآلهة الغريبة وعبد ملك السماء الذي أذله على كبريائه ثم رفعه.

اعتلى عرش بابـل الملك بيلشـاصـر. في أحـد الأيام أقام وليمة عظيمة دعا إليها كل قادتـه وشـرفـائـه وكانت الوليمة عامرة بالطعام والشراب، وسرعان ما سكر الجميع بمن فيهم الملكـات وعشيقـات الملك فأمـر بليشاصر بإحضار كل آنية الذهب التي أخذها نبوخذ نصر من معبد أورشليم لكي يشرب الضيوف من الخمر، في تلك اللحظة ظهرت يد وكتبت على جدار القصر ثلاث كلمات غريبة: (مَنَا، تقيل، وفِرْسين)، أطبق صمت مبهم على القصر، فرك المحتفلون عيونهم، ونظروا إلى مايحدث دون فهم شيء، أما الملك فاصفر وارتجف من شدة الخـوف، فدعي دانيـال من جديـد للقصر، فقال للملك: «أنت تعظمت على رب السمـاء، فأحضـروا قدامـك آنيـة بيتـه وأنت وعظمـاؤ ك وزوجـاتـك وسـراريك شربتم بها الخمر. . . حينئذ أُرسل من قبله طرف اليد، فكتبت هذه الكتابة وهذا تفسير الكلام: مَنا: احصى الله ملكـوتـك وانهـاه، تقيـل: وُزنت بالمـوازين فوجـدت ناقصـاً، فِرْس: قُسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس.

فهم بيلشاصر أن فم دانيال يتكلم بكلام الرب، فأمر أن يلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقـه وينـادوا عليـه أنـه يكـون متسلطـاً ثالثـاً في المملكة. . وفي تلك الليلة تحققت نبوءته: قُتل بيلشاصر وأعتلى عرش بابل داريوس الميدي.

عين الملك داريوس مائة وعشرين مرزباناً على المملكة وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء أحدهم دانيال على أن ينصبه لاحقاً على كل المملكة، لذلك قرر المرازبة والوزيران الآخران نصب الشراك لدانيال، لكن دانيال كان يقوم بمهامه على أكمل وجه، ولهذا كان من الصعب الإساءة إليه أمام الملك، غير أن الجميع عرفوا بأنه من أتباع يهوه المخلصين وأنه يمارس طقوس العبادة اليهوهية، لذلك صمم أعداؤه على توجيه ضربتهم له من هذا المنطلق، فأثروا وضغطوا على داريوس حتى أصدر قراراً يمنع فيه مواطنيه من عبادة الآلهة لمدة ثلاثين يوماً، لم يستطع دانيال الانصياع للقرار لأنه يخالف تعاليم موسى، لذلك فتح نوافذ بيته المتجهة نحو أورشليم، وصار يعبد ربه ثلاث مرات في اليوم، فوشى به أعداؤه إلى الملك، فامر هذا رغم حبّه الشديد لدانيال بإلقائه في حفرة الأسود الجائعة، لكن الملك لم ينم طوال الليل لحزنه على دانيال، وماكاد الفجر يبزغ حتى أسرع إلى الحفرة ونادى دانيال بصوت حزين: يادانيال عبد الله الحي، هل إلهك الذي تعبده دائماً قدير على أن ينجيك من الأسود؟ فأجاب دانيال الملك: «أيها الملك عش إلى الأبد، إلهي أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرني لأني وُجدت بريئاً قدامه وقدامك أيضاً أيها الملك لم أفعل ذنباً».

فرح الملك كثيراً. أمر بإخراج دانيال من الحفرة وإعادته إلى منصبه وإلقاء أولئك الذين وقفوا ضده طعاماً للأسود الجائعة.

عاش دانيال حتى بداية حكم كورش وتمتع بشهرة واسعة كوزير وكنبي، وقد رأى رؤى كثيرة فيها الأعاصير تهب في السماء ومن البحر تخرج مخلوقات غريبة، كما تنبأ لليهود بقدوم منقذ يحررهم من عذابهم وشقائهم ويبسط العدل على الأرض، وسيجلس ذلك المنقذ على العرش وسط النار ومن تحت رجليه سيسير نهر من النار، وسيكون ألف عبد بانتظار أوامره وسيتقيد الناس بالتعليمات المكتوبة في الكتب المقدسة.

عندما سمح كورش لليهود بالعودة إلى أورشليم كان دانيال عجوزاً كهلاً لا يستطيع تحمل مشقة السفر، فبقي حتى مماته في بابل، وكقائد ووزير دُفن في مقبرة الملوك(*).

يونـــان

أمـر يهـوه في أحـد الأيـام يونان بالسير إلى نينوى والتنبؤ لسكانها بموت قريب: «قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة، وناد عليها قال الرب لأنه قد صعد شرهم أمامي»، لكن يونان خاف إذا عرف أن المهمة التي أوكلت إليه عديمة الجدوى، ذلك لأن الوعظ في مدينة ليست أورشليم بالنسبـة لهـا إلاّ قريـة صغيـرة، لأن الـوعظ هناك أمر لا أمل فيه فبدلاً من أن يتجه إلى الشرق، ركب سفينة في يافا واتجه غرباً إلى ترشيش، امتعض يهوه لعدم انصياع عبده لأوامره، فارسل عاصفة شديدة حملت معها أمواجاً عاتية، ارغمت البحارة على العمل ليل نهار في نزع الماء من السفينة والصلاة لآلهتهم كي تنقذهم.

أما يونان فكان نائماً آنذاك في السفينة، فأيقظه قبطان السفينة قائلاً: «مالك نائماً قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفكر الإله فينا فلا نهلك»، ثم ألقيت قرعة لمعرفة سبب البلية، فوقعت القرعة على يونان فسأله البحارة: «أخبرنا بسبب من هذه المصيبة علينا؟ اعترف لهم يونان بأنه أغضب يهوه لأنه لم ينفذ رغبته، فسأله البحارة خائفين: «ماذا نصنع بك ليسكن البحـر عنـا»، فقـال لهم يونـان بهدوء: «خذوني واطرحوني في البحر، فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم».

قرر البحـارة التخلص من الـراكب الـذي جلب لهم المشكلات والمتاعب، فحاولوا جاهـدين الـوصـول إلى اليـابسـة لإنـزالـه هنـاك لكن السفينة لم تقترب من الشاطيء رغم جهودهم، بل كانت الأمواج العاتية تبعدها أكثر وأكثر في عمق البحر، لذلك لم يبق أمامهم سوى إلقاء النبي صاحب الفأل السيء في البحر.

فأمـر يهـوه الحوت بابتلاع يونان، فبقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال صلى خلالهـا ليهـوه الـذي أنقذه وغنى له نشيد مدح وشكر، ولما لفظه الحوت على اليابسة اتجـه النبي إلى نينـوى، صدق الملك الآشـوري نبـوءتـه، فتاب وأعلن صياماً عاماً، ومنع الطعام والماء عن الحيوانات الداجنة.

رأى يهـوه أن سكـان نينـوى قد تابـوا لذلك رأف بهم وألغى قراره بتدمير المدينة، فلم يُعجب ذلـك يونـان وامتعض كثيـراً وغـادر المـدينـة كي لايستهزيء به أهلها الذين تنبأ لهم بالمـوت، وفي منطقـة من البـرية صنع لنفسه مظلة، وراح يندب قدره: «آهٍ يارب أليس هذا

كلامي إذا كنت بعد في أرضي؟ لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر، فالآن يا رب خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي».

لم يجب يهوه النبي لكنه أنبت له يقطينة تلقي غليه ظلالها لتحميه من أشعة الشمس الملتهبة، وفي اليوم الثاني أمر يهوه الديدان أن تأكل جذر اليقطينة، فذبلت اليقطينة فوراً، وسقطت رماداً في نفس الوقت هبت ريح حارة من الشرق، وأرسلت الشمس حرارتها الشديدة لدرجة أن رأس يونان ذبل، فقال له يهوه عندئذ: «أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها، ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت، وبنت ليلة هلكت، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة».

أساطير شعبية من أجل الموعظة

في الفترة التي تلت الأسر البابلي، تطور عند اليهود في يهوذا وبابل ومصر نوع خاص من الأساطير التهذيبية التي عرفت بـ «ميدراش»، إنها قصص ذات مغزى أخلاقي تناقلتها الأجيال لتحافظ على روح البطولة أو تشرح مفهوماً فلسفياً معيناً شغل العقول آنذاك، لذلك تُعتبر هذه الأساطير من أصل فولكلوري حقيقي، وعلى الأرجح أن يكون الحاخامون، قد استخدموها على مجال واسع في تعاليمهم وتفسيراتهم التوراتية ليسهلوا عملية الإقناع عند مستمعيهم، وذلك عن طريق استخدام إستعاراتها ومجازاتها، وكأي فولكلور حقيقي تتميز حوادث هذه الأساطير بحيوية ودرامية، كما تتميز بغنى شخصياتها ودقة حبكتها، وكل هذا دون تفريق بين حدود الحقيقة وحدود الخيال وبين الحلم والواقع، إن الميدراشات تلك تذكرنا لدرجة معينة بالأسطورة العربية عن السندباد البحري أو أسطورة ألف ليلة وليلة، ففيها نفس جاذبية الشعر الراقي، ونفس الحنين إلى العدالة في الأرض مع فرق واحد يكمن في أن الأساطير العبرية التي وضعها شعب هو أكثر تديناً وأكثر معاناة، تحتوي أفكاراً فلسفية أهم ومرتبطة بالمشكلات الأبدية للحياة والموت والشقاء والسعادة والإله والإنسان.

وينمو موضوع هذه الأساطير ويتطور على خلفية تاريخية شرطية: ففيها ذكر لحوادث تاريخية معروفة لدينا من مصادر أخرى، حوادث بلد ومدينة وشخص لمدن نينوى وبابل والملوك نبوخذ نصر وبيلشاصر مثلاً، وقد يكتشف مؤلفو هذه الأساطير أحياناً نوعاً من المعرفة بالوضع الذي يتحدثون عنه كالوضع في القصر البابلي مثلاً، غير أن الصورة المرسومة في هذه الأساطير لا تحمل أي شيء مشترك مع التاريخ الحقيقي، ولذلك لا يمكن النظر إليها بشكل جدي، فمنذ أن تمّ فك رموز وثائق ملوك ما بين النهرين، صار من الصعب جداً - إن لم يكن من المستحيل - التفكير بأن المدراشات تحتوي على معلومات تاريخية حقيقية وحتى أن أنصار النظرة الأكثر تقليدية وتعصباً للتوراة يعتبرون اليوم هذه الأساطير ضرباً من ضروب الأدب، نأخذ كمثال سفر إيوديث ففيه يُؤتى على ذكر أرتكساد لملك الميدي الأسطوري طارد شعوب الشرق ومؤسس مدينة يقباطه، أما الملك لكلداني نبوخذ نصر فيسمى هناك بالمالك الآشوري، ويضع مقر سلطته على حد زعم

السفـر نفسـه في مدينـة نينـوى التي دُمرت وهو على قيد الحياة، وبالطبع لم يستطع الوتيرن لكـونـه فارسيـاً أن يكون قائد الجيش الآشوري، وبكلمة واحدة: من الغباء التصور أن هذا الكتاب أو السفر سفر أو كتاب تاريخي.

ورغم هذا يمكن الافتـراض أن بعض الحـوادث التـاريخيـة الحقيقيـة قد وجـدت انعكـاسـاً لهـا في هذا السفـر، لذلـك حاول العلمـاء فك رمـوز التلميحات التاريخية لهذا السفر، فتوصلوا لقناعة مؤداها أن السفر يعود إلى فترة حكم الملك أرتحشستا الثالث الذي حكم في الفترة ما بين (٣٥٩ ـ ٣٣٨ق.م)، ذلـك لأنـه قد أثبت وثـائقياً أن قائد جيشه كان يدعى الـوتيـرن وأن معاونـه كان باثها وكلاهما مذكوران في إيوديث. كان ارتحشستا الثالث جلفاً متغطرساً، وفي عهده قام الطغاة حكام المقاطعات بعصيان ترافق مع عصيان آخر في مصر، فوّجه أحشوريش حملة ضد العاصين باءت بالفشل، ولما انتشر نبأ هزيمته انضمت فينيقيـة وقبـرص وسـوريـة إلى عصيـان مصـر، لكن أرتحشستـا سيطر على الوضع في آسيا وأسرع سنة ٣٢١ ق.م إلى مصر عبر كنعان فسيطر عليها من جديد وأعادها إلى مملكته الفارسية.

يؤكد المؤرخ الكنسي بغشيفي الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، بأن الملك أرتحشستا لما سار إلى مصر عبر كنعان أخذ من هناك مجموعة كبيرة من العبرانيين وأسكنها على شاطىء بحر قزوين، وإذا ما كانت عملية التهجير تلك قد تمت فعلاً فإنها لا بد كانت عمليـة إلـزامية، أي أن العبرانيين هُجِّروا، ولما يُهاجروا طواعيةً، فالعبرانيون على ما يبدو، شاركـوا في العصيـان العـام، وليس حصـار بيت إيلوه إلاّ مشهـداً من مشاهد ذلك العصيان وجزءاً من أجزائه.

لقد كُتب سفر إيوديت بناء على ما تناقلته الأجيال شفهياً، وعلى الأرجح أن ذلك تمّ أيام عصيان الركابيين، فالعبرانيون كانوا يقاتلون آنذاك ضد السلوقيين الذين يفوقونهم عدداً وعدة، لذلك كان من صالحهم تأليف أسطورة مثل سفر إيوديت ليثبتوا بالأمثلة التاريخية أن الإله يهوه لا يتخلى عن شعبه «المختار» في اللحظات الصعبة الحرجة، وبالتالي فإن سفر إيـوديت ليس إلاّ أدبـاً دعـائيـاً هدف من ورائـه تقـويـة ثقة المتمردين أنفسهم وحثهم على المقاومة العنيـدة ضد الاعـداء، رَغم أن عمـل إيـوديت كان بطـوليـاً، لكنـه مشكـوك فيه من الناحية الأخـلاقيـة، أضف إلى ذلـك أن النص الأصلي للسفر المكتوب بالعبرية القديمة، قد فُقد ولم يبق سوى ترجمته إلى اللغتين الإغريقية واللاتينية.

من هذا المنطلق وعلى أســاس هذه التصـورات لا يعتـرف عبـرانيـو فلسطين بسفـر إيوديت لكنّ الكنيسة الكاثوليكية اعتبرته واحداً من الأسفار المقدسة وضمته إلى التوراة[٤٦].

مغـامـرة أستيـر ومـردخـاي في قصر الملك الفارسي في شوشن (السوس) تعتبر مثالاً للأسطـورة الشـرقيـة، فخيـال المؤلف الـواسـع والجـامح قد ضخم بلاشك كل الأحداث التي يصفها وأضاف إليها الكثير، وليمة الملك استمرت مائة وثمانين يوماً، بنات فارس العذارى تعطرت وتطيبّت اثنا عشر شهراً قبل المثول بين يدي الملك، أو الأصح في حضن الملك، أستير جُهزت أربع سنوات للزواج ارتفاع المشنقة التي عُلق عليها هامان كان خمسين ذراعاً وأخيراً قتل اليهود إنتقاماً خمسة وسبعين ألف شخص من خصومهم.

تعـود حوادث هذه القصـة الـدرامية إلى عهد حكم الملك الفارسي حشستا (٤٨٦ ـ ٤٦٥ق.م)، الـذي تسميـه التـوراة أرتحشستـا، بالمنـاسبة كانت زوجة الملك قرشتي أول ملكة تسبب للارستقراطية الفارسية إشكالات عديدة بسبب عدم إنصياعها للملك ـ الرجل.

مؤلف سفـر أستيـر مجهـول، لكن يُعتقـد أنه عبري عاش في شوشن (السوس) أيام حدوث حرب الـركـابيين في فلسطين، وهـذا الاعتقـاد مبني على أسـاس أضـواء النص المكتـوب بالعبـريـة القـديمـة على الكثير من الصفات الفارسية المقتبسة والمعرفة الواسعة بأحـوال القصـر الفـارسي آنـذاك وتمتـع ذلـك الكـاتب، بلا شك بعبقـرية أدبية، فأسلوب الأسطـورة حي وملّون، ومـوضـوعهـا مليء بالتوتر الدرامي، وغنى شخصياتها المرنة الرائعة واسـع وكبيـر، ومـع الأيـام أدخـل كُتّـاب آخرون إضافاتهم إلى نص السفر الأصلي ومن ثم أدخلوه بشكله الحالي في التوراة.

يعتقـد بعض البـاحثين أن المؤلف قد استعـار الخيط الأصلي لموضوع الأسطورة أو اقتبسـه من الأسـاطيـر البـابليـة أو الفـارسيـة، غير أنه لا يوجد حتى اليوم ما يثبت صحة هذا الاعتقاد، وهؤلاء الباحثون يستندون في أعتقادهم ذاك إلى أن اسم أستير (إشتير) مشتق من اسم الإلهـة عشتـار، ومـردخـاي مشتق من مردوخ، كمـا أنهم يعتقـدون أن الأسطورة كلها اخُتلقت كي يُعطى عيـد بوريم صفـة درامية وقاعدة تاريخية على الرغم من أنّ سبب تسمية هذا العيد وأصله غير معروفين جيداً حتى اليوم.

ومن الصعب اعتبـار سفـر أستيـر سفـراً دينيـاً، فاسم الـرب لم يذكـر إلاّ مرة واحدة، والمجـزرة التي ارتكبت بحق أعـداد العبـرانيين تتعـارض جذريـاً مع المبادىء التي طرحها الأنبيـاء: أرميـا، وأشعيـا، وحزقيل، لكن رغـم هذا فقد ضم الكهنة هذا السفر إلى نصوص

التـوراة التهـذيبية المسمة بـ (كتوبيم)، وما زالت قراءة هذه الأسطورة تعتبر القسم الأساسي من طقـوس الاحتفـال بعيد بوريم، وقد رفض أوائل المسيحيين أسطورة أستير، ولم يعترفوا بها لكن الكنيسة الكاثوليكية أدخلتها لاحقاً ضمن أسفار التوراة(٤٧).

على حافـة أسفـار العهـد القديم التاريخية والتهذيبية يقع سفر طوبيه المسمى كذلك باسم شخصيتـه الـرئيسيـة التي تتحـدث التـوراة عن مغـامـرتـه بشكل جميل وخاص، في المقـدمـة يعـرفنـا المؤلف على الـوضع السياسي السائد آنذاك، ويتحدث عن حكم ملوك آشور شلمانصر (والأصح صارغون) وسنحاريب، ثم يسمي المدن الفارسية يقتابه وراجا غير مهتم بالخطأ الزمني في تسلسل الحوادث والذي وصل فيه من مائة إلى مائتي عام، وطوبيه يعطي ولـده نصـائـح هامـة وحيـويـة تذكـرنـا كثيـراً بالنصـائـح والعبر التي يمتلىء بها أدب السـاميين، أمـا الإيمـان بالمـلائكـة والشيطـان وغيـرها من الكائنات الميتافيزيقية فمستعار مقتبس من الديانة الفارسية، التي تعرف عليها اليهود في الأسر.

يبقى سفر أيوب بين كل الأسفار هو أعظم وأرقى نتاج أدبي، فحيوية الوصف والنمط والتطـور الـدرامي للحـوادث، وجرأة الفكرة الفلسفية وحدة المشاعر، هذه هي ميزات ذلك العمـل الـذي تتمـازج وتتـوافق فيـه في نفس الـوقت عنـاصـر البحث الفلسفي والقصيـدة والمأساة، واسم عبد الرب الصبور، أصبح مرادفاً لكل أنواع التعاسة والشقاء.

يتألف السفر من ثلاثة أقسام رئيسية: مقدمة نثرية، حوار شعري وخاتمة تحمل صفة الـ «Happy end»(٤٨) أي الخاتمة السعيدة، لقد بينت الأبحاث اللغوية التي أجريت على النص أن قسمه الرئيسي أي حوار الأصدقاء وجدلهم حول مفهوم العذاب والشقاء ذو أصل زمني أحـدث من القسمين الآخـرين، وعلى الأرجح أن تكون الأسطورة في شكلها النهائي تعود إلى القرن الثالث ق. م، أي إلى الحقبة الهيلينية، لكن المؤلف المجهول أو المقتبس العبراني لم يخلق عملاً جديداً أو خاصاً بل أظهر أنموذجاً عرفه الأدب السومري قبله بكثير، ويعـود فضـل هذا الاكتشـاف العظيم للمستشـرق الأميـركي صموئيل كريمر صاحب كتاب «التـاريـخ يبـدأ من سومـر»، فحين كان هذا العـالم الأميـركي يفك رموز الألواح المسمارية المكتشفـة بين أنقـاض مدينـة نيبـور، صادف قصيـدة عن سومري لا شك أنه كان أنموذجاً أصليـاً لأيـوب التـوراتي أو بالأصـح أن أيـوب كان نسخـة طبق الأصـل لذلـك السـومري، فالقصيـدة السـومـريـة تتحـدث عن إنسـان غني سعيـد حكيم وعـادل محـاطٍ بعـائلة كبيرة وبأصـدقـاء كُثُـر، وفجأة وقعت عليـه الـواقعـة: المرض والعذاب، لكنه لم يكفر بربه، ولم

يغضب منه بل تقبل بصبر وانصياع إرادة ربه وعبر الدموع والأنين راح يطلب الرحمة منه، فتأثر الرب بخشوع عبده وانصياعه لإرادته فرأف به آخر الأمر وأعاد إليه صحته.

إن التشابه في طريقة السرد وفي الفكرة الرئيسية للموضوع يجعل من المستحيل تسرب الشك في علاقة واتصال الأنموذجين بعضهما ببعض، وهذه العلاقة ليست عابرة بل مباشرة وكاملة، لكن يجب الانتباه هنا إلى أن ألفين أو ثلاثة آلاف من سني تطور التصورات والمعتقدات الدينية تفصل بين الأنموذجين السومري والتوراتي، فبالرغم من اعتماد الأسطورة التوراتية اعتماداً كلياً على الأسطورة السومرية إلّا أن الأسطورة التوراتية أكثر تطوراً من الناحية الأدبية وأكثر نضجاً بفلسفتها.

سبق وتحدثنا عن المسألة المطروحة في أسطورة أيوب بمعرض حديثنا عن الأنبياء فالحديث يدور عن المسؤولية الإنسانية، عن العلاقة المتبادلة بين الشقاء والذنب والخطيئة، هذه المسألة محلولة في أسفار التوراة الخمسة الأولى ببساطة، فهناك تسيطر المسؤولية (الحساب) الحتمية: فالأبناء يتحملون أخطاء وذنوب آبائهم حتى ولو كانوا أبرياء، لكن مع نضوج العقيدة التوحيدية الدينية، صارت فكرة المسؤولية (الحساب) الحتمية هذه، في تعارض وتناقض مطلق مع مفهوم العدالة الإلهية، فإرميا وحزقيال علمّا الناس أنّ كل إنسان مسؤول أمام الرب عن ذنوبه وحده فقط، وبذلك يكونان قد عارضا الفكرة الرئيسية لأسفار التوارة الخمسة الأولى، وفي الحقيقة كان عملهما خطوة ثورية أدت إلى تقدم هائل في التفكير الديني، غير أن الإنسان لم يحل مطلقاً مسألة الخطيئة والحساب بل زادها تعقيداً لأنه إذا كان كل إنسان يحاسب على أعماله فقط، فلماذا في هذه الحالة يتعذب ويشقى الأبرار والصالحون المخلصون للرب؟

وإذا كان الرب عادلاً، فلماذا يحكم عليهم بالشقاء والمرض والفقر ويعذّبهم بموت أقرب الناس وأحبهم إليهم؟ تُطرح هذه الأسئلة تحديداً في سفر أيوب، وبعد جدل طويل وعقيم بين أيوب وأصدقائه يتدخل في الحديث والحوار الشاب إليهو ليعطي جواباً استسلامياً جداً: إن الرب يبتلي الأبرار المخلصين له ليختبر مدى إخلاصهم، ومن ثمّ ليثبتهم في قائمة المؤمنين الأبرار، فيوافق كل المشاركين بالجدل على رأي الشاب دون أن يلاحظوا أنّ طريقة الاختبار القاسية والظالمة تتعارض تماماً مع مفهوم العدالة، كما تتعارض معه الأمراض والشقاء والفقر وفقدان الأحباب والأقرباء دون سبب ولا ذنب.

ومن البديهي أيضاً أن نصنف سفر دانيال ضمن مجموعة الخيال الأدبي:

فالمعجزات الموصوفة، التنبؤات والتفسيرات الخارقة، والوقائع التاريخية المذكورة فيه، كل هذا ينفي أي صدق عن أحداث السفر ويبعث الشك في النفس، فمؤلفو القصة يبرهنون في كل مكان من السفر على جهلهم بتاريخ بابل وفارس وهم لا يميزون ملوك ميديا من ملوك فارس والكلدانيون بالنسبة لهم وعلى عكس الحقيقة التاريخية، ليسوا إلّا مجموعة من الكهنة والسحرة ويسمون دانيال «رئيس كاشفي الأسرار».

وتعتبر المعلومات المذكورة عن الملوك أكثر أسطورية من بقية أمور السفر، فنبوخذ نصر ينصب تمثالاً من الذهب ارتفاعه خيالي، ويطلب من الشعب السجود له، ثم يتحول بعد ذلك إلى عبادة إله إسرائيل ويحكم بالموت على كل من يسيء إليه: أي إلى رب إسرائيل، وداريوس يأمر رعيته بألّا يعبد أحد إلهاً خلال ثلاثين يوماً، وبعد أن يخرج دانيال من حفرة الأسود يأمر (داريوس) أو على الأصح يفرض على كل رعيته عبادة رب موسى واعتناق ديانته.

هذا ويوجد في شخصيات العبرانيين الثلاثة الذي خرجوا من الأتون سالمين، وفي شخصية دانيال الجالس في الحفرة مع الأسود الجائعة، يوجد في هذه الشخصيات الكثير من متعة وجمال الخيال والأسطورة.

وهذه الصور والشخصيات طالما وجدت انعكاساً لها في الخيال الشعبي والفني، لكن الشهرة العظمى لازمت بلاشك معجزة اليد السحرية التي كتبت على جدار قاعة الاحتفال ثلاث كلمات مجهولة المعنى: «مَنَا ـ تَقَيْل. فِرسين»، وفي اللغة الآرامية تُكتب الأحرف الساكنة فقط، أما الأحرف الصوتية فلا تُكتب، لذلك يتغير معنى الكلمة جذرياً وإذا وضعنا على الحرف من الكلمة فتحة أو ضمة أو وضعنا تحته كسرة، فلذلك فإن الجميع يأخذون بالتفسير الذي أعطاه دانيال للكلمات الثلاث.

بالرغم من امتلاء سفر دانيال بالأكاذيب والاختلاقات فإننا نجد فيه أحياناً بعض الحقائق المرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بوقائع تاريخية حقيقية كجنون بختنصر مثلاً، فنحن نعرف من مصادر أخرى أن نابونيد خليفة نبوخذ نصر، قد عانى سبع سنين من مرض نفسي، وهاكم مثالاً آخر: كثيراً ما كانوا في بابل يستخدمون طريقة العقاب التالية: وهي إلقاء المذنب في أتون ملتهب أو مثلاً سر تنصيب بيلشاصر لدانيال حاكماً ثالثاً في المدينة وليس ثانياً.

لقد دلت الاكتشافات الأثرية أن بيلشاصر بن نابونيد نُصب حاكماً على البلاد ووالده

لا يزال على قيد الحياة، وبما أنّ بيلشاصر صار إذن حاكماً ثانياً (فوالده هو الحاكم الأول)، فإن دانيال صار حاكماً ثالثاً، ومما لا شك فيه أن هذه التفاصيل لا تغير من نظريتنا إلى عدم صدق سفر دانيال من الناحية التاريخية، ولكن التفاصيل الموجودة فيه تبرهن على أن أساس الموضوع برز إلى الوجود في الوسط البابلي، وبحيث نُذكر الجميع أن سفر دانيال يقسم إلى قسمين كتبهما كاتبان مختلفان في فترتين زمنيتين مختلفتين القسم الأسطوري الأحداثي الشهير وقسم التنبؤات والرؤى، وكما هو الحال بالنسبة لسفر أيوب، شرب سفر دانيال من نبع الأساطير الأجنبية. فقد اكتشفت في أوغاريت قصيدة تعود إلى القرن الرابع عشر ق. م، يدور الحديث فيها عن شخص باسم دانيال وابنه آحات، كان بطل القصة في القصيدة حكيماً وقاضياً عادلاً يدافع عن اليتامى والأرامل، لذلك لا بد أن يكون الكتّاب العبريون قد اقتبسوا فكرة أسطورتهم عن دانيال من تلك الأسطورة الأوغاريتية، وفي قسم تفسير الأحلام من السفر يتنبأ بظهور أربعة من ممالك متتالية: المملكة البابلية والفارسية والميدية والإغريقية. إن تلميحاته الواضحة عن تدنيس معبد أورشليم في عهد أنطيوخس الرابع أبيتان (١٦٧ ـ م) فتدل على أن سفر دانيال في شكله النهائي، ظهر إلى الوجود في الحقبة الهيلينية المتأخرة، وتُثبت صحة هذا القول الكلمات الإغريقية الكثيرة المنتشرة في النص الآرامي والعبري القديم.

كانت تلك أوقات الصراع من أجل الاستقلال الديني الصعبة في تاريخ العبرانيين، وكان على نبوءات دانيال أن تنعش المظلومين وتحيي الأمل بالنصر في نفوسهم، وفي الرؤى المليئة بالوطنية الملتهبة يتنبأ السفر للعبرانيين بقدوم ابن الإنسان الذي سينقذهم من سيطرة الغرباء، كما وتنبأ دانيال بمملكة الرب بعد الحساب وبإعادة الحياة يوم الحساب، لكن هذه الأفكار تخلو من الصفة الدرامية، والنبوءة لن تتحقق حتى يُطهِّر البشر قلوبهم من الشر ويقيموا العدل، وسفر دانيال، كما نرى يؤكد كما الحال في بقية أسفار الأنبياء وسفر أيوب على أنّ كل امرىء سيحاسب على أخطائه فقط أمام ربه، وقد كان لأفكار هذا السفر تأثير كبير على المسيحية البدائية، وابن الإنسان المذكور فيه، صار لقباً ليسوع الناصري.

يُصنف سفر يونان أيضاً ضمن مجموعة الأساطير الشعبية المجازية، فمغامرات ذلك النبي العاصفة والرائعة ليست إلّا نتاجاً تقليدياً للفلكلور العبري، غير أن الباحثين يعتقدون بأن مصادر هذه الأسطورة تكمن في أسطورة غير معروفة من أساطير ما بين النهرين، فالحوت الذي يبتلع يونان شبيه جداً بإلهة الفوضى الخيالية تيامات.

لا شك أن هذا السفر ظهر إلى الوجود بعد الأسر البابلي، وقد حاول المعلقون التوراتيون فك رموز معناه المجازي الاستعماري المزعوم فقالوا أنه قد أوكلت لإسرائيل مهمة نبوية بين الشعوب الأخرى، لكن بما أن إسرائيل لم تقدر على تنفيذ مهمتها، فقد ابتلعها بأمر يهوه الغول «نبوخذ نصر»، أما بالنسبة لنا فالأهم من كل هذا هي الفكرة التي تُطرح في نهاية السفر، فلما غضب يونان لأن نينوى نجت من الدمار أراه يهوه مثالاً عظيماً عن العدالة، فإذا ما كان يونان قد حزن وأسِف ليباس اليقطينة وموتها، فهل يعقل ألاّ يأسف يهوه ويشفق على المدينة العظيمة، حيث يعيش بالإضافة إلى المذنبين أناس أبرياء صالحون وبارون، وحيوانات لا ذنب لها؟ كم تغيرت عقائد يهوه بالمقارنة مع الأسفار المتعلقة بموسى وسفري يشوع بن نون والقضاة(*١٧).

هذا وقد كان على الأفكار الواردة في أسفار أرميا، أشعيا وحزقيال أن تؤثر إبداعياً على التطور المستمر للنظريات والمعتقدات الدينية وتساعد المخطوطات المكتشفة في المغاور القريبة من البحر الميت، على فهم الكيفية التي سارت بها هذه العملية، ففي العام ١٩٤٧ م، عثر رعاة من قبيلة تعامير البدوية، في منطقة صخرية قرب عين تشحه وتحديداً في إحدى المغاور على أوانٍ فخارية مليئة بمخطوطات غريبة، اتضح حقاً أن تلك المخطوطات ليست سوى قطع طولانية من جلد الخراف مليئة بكتابة تمثل رموز اللغة العبرية القديمة.

لم يدرك أحد في بداية الأمر أهمية تلك المكتشفات إلى أن وصلت إحداها إلى الولايات المتحدة وأخرى إلى دير للروم الأرثوذكس(*١٨) في سورية آنئذٍ تفتحت أعين العلماء عليها، حتى أن وليم أولبرايت سمّى دون تردد تلك المخطوطات الأثرية أعظم اكتشاف في عصرنا.

يكمن صلب الموضوع في أن تلك المخطوطات تحتوي على نصوص العهد القديم المكتوبة في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد، وبما إنّ أقدم نسخة متوفرة لدينا تعود إلى القرن التاسع الميلادي فإن لهذه المخطوطات أهمية لا تُقدر من أجل البحث اللغوي المقارن وتفسير نقاط الجدل التوراتية.

لقد وصلت أنباء الضجة التي أحدثتها هذه المخطوطات وكذلك السعر الذي دُفع ثمناً لها (دفع الأمريكيون مائتين وخمسين ألف دولار مقابل ستٍ منها فقط)، وصلت أخبار تلك القيمة حتى تخوم العربية السعودية، فتجمع الكثير من البدو عند شاطيء البحر الميت

الصخـري للبحث عن مخطـوطـات جديدة، وكانت النتيجة ممتازة، فقد عثر البدوثانية في خمس وعشرين مغارة على مئات المخطوطات وآلاف القطع المليئة برموز كتابية من اللغات العبـريـة القـديمة والآرامية والإغريقية ومازالت الأبحاث الأثرية الدورية تأتي بنتائج إيجابية حتى اليوم.

أما المكتشفات حتى يومنا هذا فكثيرة بحيث أنها تكفي للعمل بها خمسين عاماً على الأقل، وذلك لتفسيرها وفك رموزها، ومعالجتها علمياً، لكن من المعروف الآن أنها تحتوي على سفر أشعيا وتعليق على سفر حبقوق، وكذلك على رسالة «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة».

بالطبـع تبـادر للذهن سؤ ال مثير للفضول: كيف وصلت هذه الكتابات المقدسة إلى مغـاور شاطيء البحـر الميت؟ لقـد قامت عام ١٩٥١ م بعثة أثرية خاصة بحل هذا السؤ ال وبعـد مدة نشـرت تلك البعثـة نتـائج بحثهـا: على مسافة قريبة من المغاور توجد أنقاض، اعتُبـرت لفتـرة طويلة بقـايا قلعة رومانية، ويسميها العرب خربة قُمران، كانت هذه الأطلال في السابق مجمعاً كبيراً مبنياً من الحجر وسقوفه من جذوع الشجر والطين المخلوط بالتبن، وقـد أثبت الأثـريـون أن المجمـع المـذكور كان يتألف من غرفٍ للسكن وورشات للصناع وأحواض طقوسية الهدف ومستودعات وغيرها.

ولكن أهم المكتشفـات كانت القـاعـة المسمـاة بـ «غرفة النسخ» حيث كان الكتاب ينظمـون فيهـا قوائم الكتب الـدينيـة، وقـد وجد في تلك القاعة وبحالة لا بأس بها طاولات حجـريـة مع مقـاعد وبعض المحابر من البرونز والغضار، وما زالت آثار الحبر واضحة فيها، وفي المستودعات السفلية تحت الأرض وبين كتل الأواني الفخارية، وُجدت أوانٍ أسطوانية الشكـل تشبـه الأواني التي وُجـدت فيهـا المخطـوطـات، لذلـك صار ممـا لا شك فيـه أن أصحـاب المخطـوطات أنفسهم هم سكان ذلك المجمع البنائي، وعدا ذلك فقد أخرجت من بين الأنقـاض قطـع نقـديـة كثيـرة أقـدمهـا يعـود لسنة ١٢٥ (ق. م)، وأحدثها لعام ٦٨ ميلادية، وفي نفس هذا العام التهم حريق بناء خربة قُمران.

توصـل الأثـريـون إلى نتيجـة مفـادهـا أن مجمـوعة من العبرانيين سكنت ذلك البناء المجمـع، وأن تلك المجمـوعـة هربت من أورشليم بسبب الملاحقة. وقد اعتمد الأثريون في نظـريتهم هذه ليس على الاكتشـافـات الأثـريـة المـذكـورة فقـط بل وعلى المعلومـات المأخـوذة من مؤلفـات بعض الـرحـالـة والمؤرخين القـدمـاء، فالروماني بليني الأكبر مثلاً

يقول: إنه زار خلال وجوده في فلسطين مستوطنة عبرية على شاطىء البحر الميت، وما هذه الأنقاض المكتشفة في خربة قُمران، على الأرجح إلاّ بقايا تلك المستوطنة العبرية، هذا وقد ذكر هذه المستوطنة كل من المؤرخ فلافيوس يوسيفوس وفيلون الإسكندراني.

وتسمح قطع النقود المكتشفة والتي تعود لسنة ٦٨ ميلادية بتكهن المصير الذي لاقته المجموعة العبرية القمرانية تلك، ففي أورشليم قام العبرانيون بعصيان فأُرسلت الفرقة الرومانية الخامسة المشهورة بعنفها لقمع العصيان وتأديب العصاة، فلما أحرقت الفرقة معبد أورشليم وأعملت الشدة لضرب السكان، قامت مجموعة من العبرانيين بإخفاء المخطوطات المقدسة في أوانٍ فخارية ووضعوها في مخابىء سرية على أمل أن تعود تلك المجموعة لنشاطها لمجرد هدوء الوضع الحربي، ومن بين الوثائق المكتشفة في المغاور، تعتبر المخطوطة الحاوية على قواعد طقوسية وخرافاتٍ، وتعاليم أخلاقية، ومبادىء (أسس تنظيمية للمجموعة القمرانية) ذات أهمية خاصة من تلك الوثيقة، نستنتج أن المجموعة العبرية القمرانية، عرفت ومارست بشكل تام مبدأ الملكية الجماعية فيومياً عند غروب الشمس يلبس أعضاء المجموعة ثياب الفرح يغتسلون في حوض الاستحمام، ومن ثم يجلسون على العشاء، بينما يبارك لهم رئيس المجموعة الخبز والخمر، وكانت المجموعة العبرية تلك تدعو إلى حُب القريب ومساعدة الفقراء، كما أنها دعت إلى نبذ الغنى، ورفضت العبودية وآمنت بقدوم رسول الرب الذي سيجلب للعالم السلام والعدل.

لماذا سببت المخطوطة القديمة جدلاً مثيراً؟ يكمن السبب في أن مجموعة العبرانيين القمرانية تلك تشبه إلى حد كبير جداً أوائل المسيحيين، وعلى هذا الأساس طرحت مجموعة من المستشرقين، بزعامة ديوبون سومر، فكرة مفادها: أن مجموعة العبرانيين المقرانية تلك تشكل حلقة الوصل بين اليهودية والمسيحية تلك الحلقة التي طالما عانى العلم من عدم وجودها.

الحــواشــــي

الملاحظات (كتبها باحثان سوفيتيان علّقا على كتاب كوسيدوفسكي وهما أوسيبوف وتريفونوفا)

١ ـ التسمية القديمة لنهر دجلة.

٢ ـ يورد ويشـرح هنـا زينـون كوسيـدوفسكي الفـرضيـة التـوراتية حول خلق المرأة، وهذه الفرضية (النظرية) مذكورة في سفر التكوين (أصحاح ٢ ـ فقرة ٢١ ـ ٢٢). حسب نظرية توراتية أخرى خلق الرب الرجل والمرأة معاً في اليوم السادس لخلق الكون أما القصة التوراتية المنوه عنها فقد سعت الكنيسـة طوال قرون عديـدة إلى تأصيلهـا وتعميقهـا في نفسـوم أتبـاعهـا، ذلك لأن القصة، كانت مستنداً للكنيسة يدعم نظرتها إلى المرأة كمخلوق تابع للرجل ومتعلق به.

٣ ـ هنا يفتقد الموضوع إلى الدقة، فالتوراة لاتذكر زوجة لقابيل. يؤكد بعض المعلقين التوراتيين أن زوجة قابيل تلك كانت واحدة من أخواته.

٤ ـ يشـرح المؤلف هنـا التفسيـر الكنسي التقليـدي للنص التـوراتي. ففي التـوراة نفسهـا لاتوجد إشارات إلى أن أصل شعوب الشمال والشرق وإفريقيا يعود إلى أولاد نوح الثلاثة، ولم تكن النظرية الكنسية حول أصل شعوب إفريقيا العائد إلى ابن نوح الملعون والمنبوذ حام، لم تكن تلك النظرية سوى وسيلة لتبرئة استعمار دول إفريقيا ونهبها.

٥ ـ بهـذه الفكـرة الصغيـرة تنتهي المعلومـات التوراتية عن تارح، أما كوسيدوفسكي فيصف ـ بناءا على مواد تاريخيـة ـ صورة للحيـاة، حيـاة تلك الأيـام والطبقات الاجتماعية التي يعود تارح بأصله إليها حسب ماتقوله التوراة.

٦ ـ لم يُؤخذ من هذا الجزء من التوراة ومن الجزء اللاحق له سوى المعلومات التي تقول بأن تارح مات في حرّان بعمر مائتين وخمس سنوات.وأن ابراهيم ولوط رحلا إلى أرض كنعان، أما ماتبقى من معلومات فقد أضافها كاسيدوفسكي على أساس دلائل أثرية وتاريخية.

٧ ـ لا تذكـر التـوراة شيئـاً عن كيفية ولادة فكرة الإله الواحد عند إبراهيم، وكوسيدوفسكي يستند في

سرده إلى المعلومات العبرية القديمة التي تناقلتها الأجيال، لكن لابد من القول هنا إن الإيمان بإله واحد، إله قائم في كل مكان، إله عظيم، إن الإيمان بذلك الإله لم يكن ليستطيع الولادة في تلك المرحلة المتقدمة والبدائية جداً من تطور الشعب العبري. فربُّ إبراهيم - ربٌّ واحد لقبيلته فقط، أما القبائل الأخرى فلها آلهتها الخاصة، ولم تبدأ «التوصية» بالتطور عند العبريين إلّا في الثلث الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، ثم أخذت شكلها شبه النهائي في أواسط الألف الأول قبل الميلاد.

٨ - تذكر التوراة (الأصحاح ١٢ من سفر التكوين) أن الرب أمر إبراهيم بترك بيته ومغادرة حران والذهاب إلى الأرض التي يحددها له، فنفذ إبراهيم إرادة الرب.

٩ - لم تذكر التوراة تفاصيل رحلة إبراهيم، بل اكتفت بالإشارة إلى اتجاه مسير قافلته. أما ماتبقى فإضافة من كوسيدوفسكي مبنية على أساس معلومات أثرية وتاريخية عن حياة الشعوب التي سكنت المناطق المذكورة في التوراة.

١٠ - إن كوسيدوفسكي ينصاع، هنا، بلا إرادة للتقاليد العبرية والمسيحية ويبالغ في زركشة وضع إبراهيم الأخلاقي، كوصفه مثلاً، غضب إبراهيم وأسفه لما حصل لهاجر التعيسة. إن النص التوراتي يصف إبراهيم، وبكل وضوح، بعدم المبالاة بل وحتى كشخص عديم الروح نهائياً.

. . . وسمع في منامه صوت الرب - إن إبراهيم (وغيره من الشخصيات) يتحادث مع الرب، حسب التوراة، حضورياً في معظم الحالات وليس في المنام.

١١ - لم يكن كوسيدوفسكي دقيقاً جداً هنا، فحسب التوراة طالب السدوميون بالغرباء ليمارسوا معهم اللواط، ومن هنا وُجد مصطلح «الذنب السدومي». لقد أثبت الباحثون السوفييت أن هذا المصطلح من التوراة يعكس طقوساً كنعانية قديمة كانت تقام على شرف آلهة الخصوبة.

١٢ - وعد الرب هاجر- حسب التوراة - أن يُخرج من إسماعيل «شعباً عظيماً»، لكنه لم يحدد الشعب الذي سيُخرجه تحديداً دقيقاً.

١٣ - لايذكر الملك الحثي في هذا المشهد التوراتي. فإبراهيم يتوجه بالحديث إلى الشعب مباشرة ومن ثم إلى الملك.

١٤ - يبالغ هنا كوسيدوفسكي مرة أخرى في وصف الحوادث.

١٥- لاتذكر التوراة أن يعقوب رأى حُلماً بل جرى كل شيء في اليقظة حسب النص التوراتي.

١٦ - لقد أثبت العلماء أن هاتين التسميتين كانتا تطلقان على الرب عند مجموعتين مختلفتين من القبائل العبرية - يهوذا وأفرايم - وقد وضع تجميع أساطير هاتين القبيلتين العبريتين القديمتين أساساً لسفر التكوين التوراتي.

١٧ - توجد فرضيات أخرى حول زمن حكم حمورابي: فحسب الموسوعة البريطانية كان ذلك في

الفترة الواقعة بين عامي ٢٠٦٧ ـ ٢٠٥٥ (ق.م)، وحسب الفرنسية: ٢٠٠٣ ـ ١٩٦١ (ق.م).

١٨ ـ تنظر مجموعة من العلماء الغربيين إلى قصة يوسف و «الاثني عشر بطريركاً» على أنها نتاج لمعالجة بعض الأساطير العبرية القبلية، وأن هذه القصة (النتاج) وضعت في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وفي عاصمة يهوذا ـ أورشليم ـ بهدف التأثير الأيديولوجي على القبائل التي انفصلت عن الدولة بعد موت سليمان وأسست لنفسها عاصمة (السامرة). فقصة يوسف والبطاركة وضعت لترفع من روح القرابة والوحدة بين القبائل العبرية ولتضع حجر الأساس في عملية إعادة بناء الدولة الموحدة.

١٩ ـ لا أحد من العلماء ينفي اليوم احتمال وجود عبريين بين صفوف الهكسوس الذين احتلوا مصر. ومع طرد الهكسوس من هناك كان على العبريين الرحيل أيضاً عن مصر. ومن المشكوك فيه أن يكون العبريون قد بقوا هناك بعد تحرير مصر، . وتسمي لنا وثائق تلك الأيام مجموعة كبيرة من القبائل العبرية التي سكنت مصر خلال القرون اللاحقة والمسماة في التوراة بفترة «العبودية المصرية» وكانت تلك القبائل تتنقل بحرية في براري وصحارى شبه الجزيرة العربية وسيناء وما وراء الأردن. ولاينفي هذا الأمر بطبيعة الحال أن تكون مجموعة من العبريين بقيت على الأرض المصرية المحررة من الهكسوس فوقعت بذلك تحت عبودية المصريين. إذن ينظر كاسيدوفسكي، هنا، بثقة كبيرة زائدة عن اللزوم إلى المقولة التوراتية.

٢٠ ـ هنا يصف كوسيدوفسكي من خياله حياة موسى الحرة في قصر فرعون مصر لكي يعطينا تصوراً أكثر وضوحاً عن حياة تلك الأيام وفي التوراة لايوجد شيء من هذا القبيل.

٢١ ـ كل وصف حياة موسى في أرض مديان هو من إضافات كوسيدوفسكي للنصوص.

٢٢ ـ هنا يأخذ كوسيدوفسكي التفسير الكنسي وليس النص التوراتي، فحسب التوراة أرسل الرب ريحاً شرقية قوية طردت الماء فصار من الممكن عبور الخليج الضيق على الجزء الظاهر من اليابسة، ولما وصلت قوات فرعون إلى وسط البحر أعاقت كتل الرمل الرطب التي جمعتها أقدام آلاف المقاتلين، أعاقت تلك الكتل سير العربات، ثم تغير اتجاه الريح ليعيد الماء إلى مكانه، فقتلت قوات فرعون غرقاً وبذلك تكون القصة التوراتية أكثر واقعية.

٢٣ ـ خيمة تمثل صومعة اسرائيلية متنقلة.

٢٤ ـ قبعة للرأس.

٢٥ ـ يحاول بعض المؤمنين اثبات منطقية وصدق النصوص التوراتية بواسطة علم التاريخ، فهم يستنتجون من إثبات علم التاريخ لبعض الوقائع التوراتية نتائج صادقة تماما (حسب مزاعمهم) مما يوصلهم في النهاية إلى أن كل ماجاء في التوراة صحيح وصادق، ويجب التصديق به كالتصديق بكلمة الرب. وهنا ينجر كاسيدوفسكي، كما في حالات أخرى، نحو مثل تلك المحاولات، لكنه.

بإثباته صدق بعض الحوادث التوراتية، يحاول أن يبين لنا أن تلك الحوادث أرضية وبشرية بعكس ماتقوله كتب اليهود والمسيحيين «المقدسة».

٢٦ ـ بعد ذلك، بالتالي، نتيجة لذلك (اللغة اللاتينية).

٢٧ ـ تمثال أثري يوضع فوق القبور ويتألف من قطعة أو مجموعة قطع من الصخر الطبيعي أو المنحوت.

٢٨ ـ يعني الرب.

٢٩ ـ فرِّق تَسُد (اللغة اللاتينية).

٣٠ ـ لقد شكل شاول فصيلاً عسكرياً دائماً أو بالأصح دائم الجاهزية القتالية، وكان مثل هذا الفصيل يوجد عند كل ملوك الشرق.

٣١ ـ كوسيدوفسكي غير دقيق هنا في نقله للنص التوراتي، فداوود لم يكن يحلم بالزواج من ابنة شاول الكبرى.

٣٢ ـ الحديث يدور هنا، حسب التوراة، حول عادة تقديم القرابين السنوية لحماية نسل داوود (لآلهة النسل). وهذا يثبت من جديد أن يهوه لم يكن الإله الوحيد عند العبرانيين القدماء.

٣٣ ـ يحمل اسم نابال معنى «المعتوه» أو «الأحمق».

٣٤ ـ كوسيدوفسكي ليس محقاً هنا. فذلك لم يكن ضرباً من الجنون. فحسب التوراة، لما سمع شاول بحصار العمونيين للمدينة انفجر غضباً وقطع ثوريه إرباً وأرسل قطعهما إلى قبائل اسرائيل مهدداً بأن يلقى مصير الثورين نفسه، كل من يرفض الانضمام اليه لمقاتلة العدو. إن شاول اتبع طريقة قديمة تقليدية من جانب الدبلوماسية المكشوفة. ومنذ مائة عام لا أكثر أرسل شاميل إلى قبائل القفقاس الجبلية لحماً وتراباً وماءاً كدلالة على أنها ستدمر وتحرم من أرضها ومائها إذا لم تؤيده ولقد كان لتصرف شاول نفس الصبغة الرمزية هذه.

٣٥ ـ «إله من الآلهة» (اللاتينية)، مصطلح يعبر عن مصير غير متوقع، أو لايُستنتج من سير الأحداث، لاحدى الشخصيات في مرحلة فك حبكة المشهد من المأساة أو القصة.

٣٦ ـ هنا يشرح كوسيدوفسكي نظرية أسفار التوراة التوعيظية التعليمية، التي ظهرت إلى الوجود بعد عدة مئات من السنين لوقوع الحوادث الموصوفة، فاليهود أرادوا من وراء ذلك التأكيد للقارىء أن قدس يهوه لايمكن أن يضيع أو أن يقع في أيدي الأعداء كبقية الأشياء العادية.

٣٧ ـ وصف بابل، إضافة من كوسيدوفسكي مبنية على أساس الأثريات والوثائق البابلية، أما في التوراة فهذا الوصف غير موجود.

٣٨ ـ تعني هذه التسمية: «ترجمة السبعين». فحسب الأسطورة، قام بترجمة التوراة إلى الإغريقية اثنان وسبعون شخصاً (ستة أشخاص من كل سبط عبري).

٣٩ ـ ضمت الكنيسة الأرثوذكسية هذه الكتب إلى التوراة مع كتاب الركابيين الثالث، لكنها لاتعتبرها تعليمية وعظية.

٤٠ ـ حسب التوراة: لما سمعت يوديث عن القرار بإيقاف المقاومة بعد خمسة أيام، أتت إلى القادة وطلبت مساعدتهم على تحقيق وتنفيذ مخططها، فقرر الشيوخ مساعدتها.

٤١ ـ هنا لايورد كوسيدوفسكي شرح يوديث مما يجعل الحديث غير واضح، فيوديث قالت لألوتيرن بأنها عبرية مؤمنة لم تستطع النظر إلى العبريين المحاصرين يخالفون تعاليم موسى ويأكلون اللحم مع الدم، وأضافت أنها واثقة من أن الرب سيعاقب المخطئين وأن المدينة ستسقط في أيدي المنتصرين كما تسقط السنبلة الناضجة، وليس على الوتيرن إلا الانتظار قليلا.

٤٢ ـ يوجد عدم دقة، هنا، في نقل النص التوراتي. طلب مردخاي من أستير التوسط له من أجل العبريين، فترددت هذه لأن النساء من حريم الملك الفارسي لاتدخل على الملك إلا إذا طلب هو منهن ذلك، فهددها مردخاي بلعنة أبدية في الشعب. لكن أستير لم تقرر التحرك إلا بعد الصلوات العديدة والبكاء.

لكن أستير منذ دخلت على الملك ونظر هذا اليها بعنف وقعت مغمياً عليها، فأدى هذا إلى التخفيض من غضب الملك، وعندما عاد إليها وعيها قالت له إنها اشتاقت اليه جدا ودعته إلى وليمة ستقيمها، كما دعت وزيرة هامان أيضاً.

٤٣ ـ . . . ليعلق عليها مردخاي ـ يوجد نقص هنا في سرد الأسطورة ـ فخلال الوليمة رغب الملك بشكر أستير، لكنها ـ أي أستير ـ لم تتجرأ على تقديم طلبها، واكتفت برجاء الملك أن يحضر هو ووزيره إليها في اليوم التالي ليتناولا طعام الغذاء على مائدتها، فوافق الملك على ذلك وأعجب بحب أستير وإخلاصها له، أما هامان ففرح جدا لتقربه أكثر وأكثر من الملك والملكة، وعندها فقط نصب المشنقة ليعلق عليها مردخاي.

٤٤ ـ حسب التوراة افتقر طيبه فتذكَّر ديناً قديماً له مقداره عشرة أثقال فضة وهذا مبلغ لابأس به.

٤٥ ـ هذه المعلومات لم تؤخذ من التوراة، بل مما تناقلته الأجيال.

٤٦ ـ لاتعتبر الكنيسة الارثوذكسية سفر ايوديث دينياً موعظياً، لكنها أدخلته إلى التوراة. أما ايوديث نفسها فتعتبر ارثوذكسية وقديسة من القديسات.

٤٧ ـ تميز الكنيسة الأرثوذكسية جزأين في سفر إيوديث، واحداً موعظياً تربوياً وهو القسم الذي لايذكر عملياً في اسم الرب، وقسماً ثانياً غير موعظي. أما أستير فتعتبر شخصية تاريخية أرثوذكسية. وهناك اقتراح يقول بأن الأساس الموعظي لسفر إيوديث ولد خارج فلسطين، في فارس، أما القسم غير الموعظي، فعبارة عن فك رموز لموضوع معاد للفرس.

٤٨ ـ happy end ـ نهاية سعيدة.

★١ ـ يهوه: تسمية الله عند العبرانيين
★٢ ـ بما إن الحديث يدور هنا عن آدم أيضاً، فإنه من الجدير بنا ذكر الحادثة التالية التي حصلت في الكونغرس الأميركي منذ عدة سنوات: ففي نشرة رسمية بعنوان «الأجناس البشرية» رسم الفنان آدم بسرّة مما أثار غيظ عضو الكونغرس عن كاردلينا الشمالية السيد تشارلز درغم، فقد قذّع العضو اللوحة واعتبرها ضرباً من الدعاية الشيوعية، ذلك لأن آدم جُبل من تراب وليس له أم، وبالتالي لايمكن أن يكون له سُرّة، وبعد نقاشات حادة استطاع الكونغرس إقناع النائب المتزمت التوراتي، وتهدئته بأن أثبتوا له أن لوحة ميكيل أنجلو المعلقة في الفاتيكان تحمل رسماً لآدم بسُرّة.
★٣ ـ يُرجع العرب أصلهم إلى إسماعيل وهم مقتنعون بأنه وأمه هاجر مدفونان تحت الحجر الأسود في الكعبة، أقدس مكان لدى المسلمين، وقد ورد ذكر هذا في القرآن الكريم.
★٤ ـ الإمساك بالقعب ـ كانت تعني عند العبرانيين القدماء ـ إزاحة أحد ما من الطريق، أو الانتصار عليه.
★٥ ـ في التوراة تتناوب التسميتان في أماكن مختلفة، وأحياناً يقصد بالإسماعيليين البدو.
★٦ ـ تابوت العهد ويسمى أيضاً تابوت الشهادة.
★٧ ـ لقد تسلمت مجموعة من الرسائل من القراء يركزون فيها على التناقض بين التأكيدات التي أوردتها وبين التقرير الموجود في كتاب فاباولتون ـ أزلية الأهرامات ومأساة بومبي ـ فالمؤلف يورد رسالة نشرها عام ١٩٢٩ م في جريدة التايمز اللندنية، الأثري: إي سميث، وتذكر أن مومياء الفرعون مرنفتاح (التي مزقها سارقو القبور) كان تحمل عوارض تطعيم ببلورات الملح. مما يجعلها برهاناً على كونه قد غرق في البحر فعلاً.

يجب التنبه قبل كل شيء إلى ظاهرة غريبة، أن ذلك التفصيل الهام نشر بعد ثلاثين عاماً من كشف مومياء مرنفتاح، عدا ذلك دحض العلم الحديث ذلك البرهان للأسباب الآتية: جثة فرعون كانت محنطة. ومن المفروض أن عملية التحنيط لاتسمح بوجود أي أثر لمياه البحر، وإن صح ووجُدت البلورات على المومياء، فإنها تكون تشكلت من مصادر أخرى، ويجب ان نذكر ان مرنفتاح نُقل مع الفراعنة الآخرين من مقبرته الأولية إلى مدفن جماعي.
★٨ ـ كان كوشان رشعتايم ملكاً على رَام الواقعة في سورية، لذلك أبدى بعض الباحثين شكوكاً في أن يكون قد قام بحملة ضد جنوب كنعان البعيد عنه جداً، ومن المحتمل أن يكون مؤلفو التوراة قد ارتكبوا خطأ إذ كتبوا آرام مكان أدوم فمملكة أدوم تقع على الحدود في جنوب أرض كنعان.
★٩ ـ دَبْرَ نحل: جماعة النحل
★١٠ ـ لحي حمار: عظم حنكه

★١١ ـ هي مدينة فيق الحالية في الجولان.

★١٢ ـ تحيط التوراة أواخر أيام أشعيا بصمت غريب، وخبر ميتته الفظيعة مذكور في التلمود البابلي ومأخوذ على الأغلب من الكتاب الديني «صعود أشعيا إلى السماء».

★١٣ ـ مات أرميا حسب التلمود في بابل حيث أخذه نبوخذ نصر إلى هناك بعد أن غلب مصر، أما التاريخ المسيحي فيذكر بأنه قتل في مصر على أيدي أبناء بلده.

★١٤ ـ كلمات لقابيل بن آدم. سفر التكوين (أصحاح ٤ ـ آية ٩).

★١٥ ـ إن ياهو قدم أتاوته في السنة الثامنة عشرة لحكم شلما نصر أي حوالي (٨٤٢ ق.م).

★١٦ ـ لم يعترف العبرانيون بهذين الكتابين على أنهما مقدسين، لكن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرتهما كذلك.

★١٧ ـ لاشك في أن حديث إبراهيم مع الرب حول هذا الموضوع قد أضيف لاحقاً بعد الأسر البابلي أي في الوقت الذي صارت فيه مشكلة العدالة هامة وحيوية.

★١٨ ـ اسم هذا الدير الأرثوذكسي دير القديس مرقس.

الفهـرس

هذا الكتاب رحلة غوص في القدم لاكتشاف الحقيقة المزورة في القصّ التوراتي وتفنيد المزاعم الكهنوتية لخدمة أهدافها من غير شعــور بالــذنب وبــلا خجـل. الأسطـورة والحقيقـة في القصص التـوراتيـة هطـل الذاكرة من أفق بلا تلوث ميزان فصل بين الحقائق والأوهام، التي مازالت تنهش في جسد الحضارة الأصيلة، بعيداً عن يدٍ أوكت وفاءٍ روى وشوّه التسلسل التاريخي للعبرانيين، الذين كان لهم عظيم الغـايـة في هذا التـزويـر والتشـويـه، لحضارات سبقت وصولهم إلى أرض كنعان، بعد ماكانوا قبائل تمارس الرعي والترحل.

وهــذا الكتـاب إذ يكـون رحلة إلى القـديم القـديم حضـارةً واكتشـافـاتٍ أثـرية وملاحم ورموز، يدعونا إلى الشك كخطوة أولى على طريق رحـلات أخرى تمهر الحق بختم أصحابه وإعادة حقيقة التراث مع هيئته وصورته.

النـاشـر

السعر ٣٠٠ ل.س